

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ابناء الصالحين

مكاتبهم • أعمالهم

تأليف

الدكتور أحمد خليل جمعة

دار الزكوة

دمشق - سوريا

الموضوع: تراجم
العنوان: أبناء الصحابة
التأليف: الدكتور أحمد خليل جمعة

الورق: أبيض
ألوان الطباعة: لون واحد
عدد الصفحات: 544
القياس: 24×17
التجليد: فني
الوزن: 985 غ

التنفيذ الطباعي:
دار الفن للطباعة - بيروت
التجليد:
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

ISBN: 978-9953-520-91-9



9 789953 520919

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
و التصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي
و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب : 311

حلبوني - جادة ابن سينا - بناء العجابي

طالة المبيعات تلفاكس: 2228450 - 2225877

الإدارة تلفاكس: 2458541 - 2243502

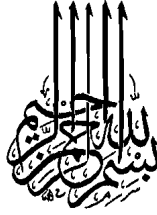
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318

برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

تلفاكس: 817857 01 - جوال: 03 204459

www.ibn-katheer.com

info@ibn-katheer.com



المقدمة وعرض الكتاب

* الحمد لله رب العالمين ؛ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣ والصَّف : ٩] .

* والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَحِجَّةِ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، الْمُرْسَلِ إِلَى الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْبَنِينَ ، الصَّادِقِ الْأَمِينِ ، حَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ .

* اللَّهُمَّ ! صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى مَنْ شَرَحْتَ صَدْرَهُ ، وَرَفَعْتَ ذِكْرَهُ ، وَوَضَعْتَ عَنْهُ وَزْرَهُ ، النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، الَّذِي هُوَ : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

* وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمِيَامِينَ ، الَّذِينَ حَمَلُوا هَذَا الدِّينَ ، وَبَلَّغُوهُ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَحَمَلَهُ أَبْنَاؤُهُمْ مَعَهُمْ فَكَانُوا هِدَاةً مَهْتَدِينَ ، وَفَازُوا بِصَحْبَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَسْلَمُوا جَمِيعاً لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

* وَبَعْدُ : إِنَّ مِنْ أَجَلٍ نَعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا ، أَنْ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ ، صَاحِبِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ ، وَاللَّوَاءِ الْمَعْقُودِ ، وَالْحَوْضِ الْمُرُودِ .

* كَمَا أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ أَيْضاً أَنْ رَزَقَنَا اللَّهُ مَحَبَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَهَدَانَا إِلَى

سُتِّهِ الغُرَّاء ، ومحَبَّة أصحابه الثُّجباء ، الآباء منهم والأبناء ، الذين تشرَّفوا بملازمته ، وسارعوا إلى خدمته ، فاستحقَّوا أن يكونوا بالمعيَّة ، في قول ربِّ البريَّة : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... ﴾ [الفتح : ٢٩] .

* آمنَ هؤلاء الرُّحماءُ بالله - عزَّ وجلَّ - إيماناً صادقاً خالط قلوبهم ، فطهرها من أدران الشُّرك ، حتَّى غدت صافية ، واستطاعوا بهذا الصِّفاء أن يغرَّسوا الحقَّ في كلِّ مكان ، ويرفعوا الحقَّ لواءً وشعاراً ، ويجعلوه هدايةً للنَّاس ودثاراً ؛ فهم الذين أقاموا عماد الدِّين ، وأرسوا أوتاده ، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالةٍ أصلاً ، وهم المتقلِّدون لكلام الثُّبوة ، المهتدون للشريعة ، الذين فهموا أمرَ دينِ الله بالتلقِّي من نبيِّه مشافهة ، على علمٍ وبصيرة بمواطن التشريع وقرائن الأحوال ، بخلاف غيرهم . لذلك حافظوا على أمانة التبليغ ، ونقلوا القرآن الكريم ، والسُّنة المُطهَّرة بأمانة ودقَّة إلى مَنْ جاء بعدهم .

* إنَّنا نعلمُ علمَ اليقين أنَّ تاريخَ الصَّحابة قد أثبتَ للدُّنيا أنَّهم انتصروا بجمال سيرتهم ، وحسنِ أجدوئتهم ، عندما حكموا البلاد بالعدل والحقَّ ، فعرف النَّاس سموَّ الإسلام ، فانتظمَ معظمُهم في سلكه ، وانخرطوا في صفوفه ، تاركين وراء ظهورهم ما ألفوا عليه آباءهم وأسلافهم .

* وإذا عرفنا عن الصَّحابة بعضَ الإشراقات التي تدغدغُ المشاعر ، علمنا سببَ محاولة أعداء الإسلام - بكافة طبقاتهم ومستوياتهم - انتقاصِ هؤلاء الأسياد ؛ الذين فتحوا رحبَ البلاد ، وقلوبَ العباد ، واجتذبوهم إلى ينابيع المسرات ، وموارد الخيرات ؛ فقد تلاشتْ مصالحُ الأعداء المزعومة ، فاخلولقوا يشكِّكون في خير أُمَّةٍ بأفكارهم المسمومة ، ليصلُّوا إلى الطَّعن في دين الرِّحمة ، ونبيِّ الأُمَّة ﷺ .

* نسيَ هؤلاء المخذولون ، وتناسى أولئك الحاقدون ، أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد أنزلَ في محكم القرآن ؛ شهاداتٍ مختومةً برحيقِ

الإيمان ، تمدحُ الصَّحابة بكافة طبقاتهم مهاجريهم وأنصارهم ، وتدعو إلى اتباع آثارهم ؛ وجاءت السُّنة النَّبوية أيضاً فذكرت كثيراً من شمائلهم ، وأثنت على مواقفهم ، وباركت أعمالهم ، وأكّدت إخلاصهم ، وإيمانهم ، وصدقهم الله - عزَّ وجلَّ - ، ورسوله ﷺ .

* فمحمَّدٌ ﷺ سيِّدُ الرُّسل وخاتمُ النَّبين ، وأصحابه أسيادُ النَّاس وصفوتُهم أجمعين ، وشموسٌ مشرقةٌ في عالمِ البشر ، ونجومٌ زواهرٌ حول القمر ، آمنوا ، وآزروا ، ونصروا ، واتبَعوا الثُّور الذي أنزلَ معه ﷺ ، وعملُوا بمقتضاه بالإعلان والإسرار ، وصدقوا وبلغوا الحقَّ آناء الليل وأطراف النَّهار ، مُجِدِّين أينما كانوا ؛ ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، وما ركنوا إلى دعةٍ أو راحةٍ أو رفاه ، وما اغترَّوا بزخارفِ الحياة أو بجاه ، وتقلَّبوا بين أفنانِ الذِّكر ، وأفياءِ العبادة والشُّكر ، وأزاهرِ الطَّاعات رحماء بينهم أشداء على الكُفَّار ، تحلَّوا بالخشوع والورع والأدب والوقار ، فكانوا رهبان الليل وفرسان النَّهار :

هَمْ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ	وَقَامُوا بِنَصْرِ الدِّينِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
وَهُمْ نَصَحُوا كُلَّ الْعِبَادِ وَمَا وَنَوْا	وَهُمْ أَوْضَحُوا سُبُلَ الرَّشَادِ لِمَهْتَدِي
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ فِيهِمْ مُثَلًّا	لَهُمْ بِالنُّجُومِ الزُّهْرِ هَدِي لِمَقْتَدِي
أَلَا إِنَّ أَصْحَابِي نُجُومٌ مِّنْ اقْتَدَى	بِهِمْ فِي سَبِيلِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ يَهْتَدِي
وَمَنْ حَبَّهَمْ يَوْمًا يَحْبِّي أَحَبَّهُمْ	وَمُبْغِضُهُمْ أَثْوَابُ بُغْضِي يَرْتَدِي
أُولَئِكَ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ	وَمَنْ مِثْلُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

من أسباب اختيارِ هذا الموضوع :

١ - محبةُ الصَّحابة وأبنائهم محبةٌ رجلٍ وامقٍ مستهام ، واحترامُهم حقَّ الاحترام ، لما كانوا عليه من شرفِ الصُّحبة التي اختصَّهم بها ربُّ الأنام ، وكذلك ما كانوا عليه من الهدى والإيثار ، ومحبةُ النَّبيِّ المُختار ﷺ .

٢ - كَثْرَةُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ ، ومنها : أَنِّي نَشَأْتُ عَلَى مَحَبَّةِ كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَمَحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وصاحبه في الغار الصَّدِيقِ الأكبرِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فَأَبُو بَكْرٍ صَحَابِيٌّ ابْنُ صَحَابِيٍّ ابْنِ صَحَابِيَّةٍ ، وَجَدَّ صَحَابِيٍّ ، وَأَبُو صَحَابِيٍّ ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - ، كَمَا أَنَّنِي نَشَأْتُ عَلَى مَحَبَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْأَطْهَارِ - رِجَالاً وَنِسَاءً - وَقَدْ وَفَّقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَكْرَمَنِي ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ ، فَصَنَّفْتُ مُوسُوعَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مَبَارَكَتَيْنِ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ :

الأولى بعنوان : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » .

الأخرى بعنوان : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » .

وَنَشَأْتُ كَذَلِكَ عَلَى مَحَبَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ^(١) ، وَسَائِرِ الصَّحَابَةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَأَبْنَائِهِمِ الْمِيَامِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

٣ - مَا نَرَاهُ فِي بَعْضِ السَّاعَاتِ وَالْأَوْقَاتِ ، أَوْ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَارَاتٍ ، فِي بَعْضِ النَّدَوَاتِ ، أَوْ بَعْضِ الْجُلُوسَاتِ الْحَاوِيَةِ لِلْأَعْمَارِ وَالْأَشْتَاتِ ، مِنْ تَهَاوُنٍ فِي الْكَلَامِ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ الْأَسْيَادِ السَّادَاتِ ، أَوْ تَطَاوُلِ عَلَى بَعْضِ أَبْنَائِهِمْ أُولِي الْكَرَامَاتِ ، ثُمَّ تَأْخُذُهُمُ الْحَمِيَّةُ الْعُورَاءُ ، فَيُشْرَعُونَ فِي طَعْنِ الصَّحَابَةِ التَّبَلَاءِ ، وَيَتَكَلَّمُونَ شِزْراً ، وَيَتَشَادِقُونَ هِذْراً ، عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ لِلصَّحَابَةِ قَدِراً ، وَقَدْ أَشْرَبُوا الْقَدَحَ وَالذَّمَّ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَخَذُوا ذَلِكَ عَنْ مَصَادِرَ غَيْرِ مُوثُوقَةٍ عُلِقَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الرُّوَرِ وَالْارْتِيَابِ ، وَالنَّيْلِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَرَّةِ الْأَنْجَابِ ؛ إِذْ لَا يَتَطَاوُلُ عَلَى الْكِبَارِ إِلَّا مَخْذُولٌ مَرْتَابٍ :

وإِنَّ أَمْرًا بِغَضِّ الصَّحَابَةِ شَأْنُهُ لَا بُعْدَ خَلْقِ اللَّهِ عَنْ رَشْدٍ مَرشِدٍ

(١) سأقوم بعونِ اللَّهِ بإصدار كتابٍ عن الخلفاء الرَّاشِدِينَ ، وأرجو اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ مُحِبِّي الصَّحَابَةِ وَمُحِبِّي الْعِلْمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

بغِيضٍ إِلَى رَبِّ السَّمَوَاتِ خَائِبٌ عَدُوٌّ لَخَيْرِ الْخَلْقِ غَيْرُ مُسَدِّدٍ
وَلَوْ أَنَّهُ يُجْزَى بِقَطْعِ لِسَانِهِ لَقَلَّ لَهُ مِنْ فَاجِرٍ مَتَمَرِّدٍ

ويمكننا أَنْ نَقُولَ لهؤلاء الذين ينتقصون الصَّحابة : « إِنَّ واحداً من هؤلاء من مثل : أسامة بن زيد ، أو عبد الله بن عامر ، أو يزيد بن أبي سفيان ، أو قيس بن سعد ، قد فتح الدنيا في عصره ، وقهر كبار الفُرس والرُّوم ، وأبدع في ميدان العلوم ، فماذا صنعتم أنتم ؟ ! ! » .

٤ - إظهار فضائل أبناء الصَّحابة ، وأعمالهم الجليلة التي غابت عن أذهان كثيرين ، أو غُيِّبَتْ عمدًا من أجل الغُصِّ من شأنهم ، أو طمس معالمهم ، ونجد مثل هذه الأمور في عددٍ ممَّن أوردنا سيرتهم في هذا الكتاب .

٥ - لم أجد - في حدود اطلاعتي - من صَنَّف كتاباً ، أو كتب رسالةً علميةً في أبناء الصَّحابة الذين اشتركوا مع آبائهم ، أو أمهاتهم أو الأبوين معاً في شرف الصُّحبة النبوية ، وعلى الرَّغم من كثرة مَنْ كتبوا^(١) عن الصَّحابة ،

(١) ليس معنى هذا القول أنني مبدعٌ في هذا المجال ، بل هو ممَّا مَنْ به عليّ الكبير المتعال ، وقد استندتُ في عملي إلى جهود مَنْ سبقني ، فقد اجتهد الأولون ، وتفانوا في العِلْم ، وضبطوه وحققوه وجمعوه ، ولولا هم ما كنتُ في هذه الرِّوضة المباركة ، فهم فتحوا أبواب الخيرات أمام الأعين والبصائر ، فجزاهم الله عنا كلَّ خير ، وفعلُ الخير لا يحصيه شكرٌ .

وأودُّ أَنْ أذكر القارئ الكريم بأنني قد نوّهت إلى موضوع أبناء الصَّحابة في كتابي « علماء الصَّحابة » حيث أشرتُ إلى عدد من أبناء الصَّحابة مثل : جابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وحذيفة بن اليمان ، والبراء بن عازب ، وجابر بن سمرة ، كما أشرتُ إلى هذا الأمر الطَّريف وأكَّدتُ عليه في سيرة العبادلة الأربعة : عبد الله بن عباس ؛ وابن عمر ، وابن عمرو ، وابن الزُّبَيْر ، وذكرتُ بأنهم صحابة ، وآباؤهم صحابة ، وأمّهاتهم صحابيات ، فرضي الله عن الجميع ، وحشرنا في معيهم تحت راية المشفع الشَّفيع ﷺ .

إلا أنَّ أحدًا لم يطرقَ بابَ هذا الموضوع الطَّريف الجميل المفيد ، ولم يذكرَ دورَ الصَّحابة - آباءَ وأُمَّهاتٍ - في تنشئةِ أبنائهم على الفضائل ، فسادَ الأبناءُ صروحَ المكارم ، وسادوا الدُّنيا تاركين أنصع الآثار التي تشهدُ لهم بالصدِّق والإخلاص والعظائم .

خُطَّةُ الكتاب :

* احتوت خُطَّةُ البحثِ للكتابة عن أبناء الصَّحابة على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة ، وفهارس .

المقدمة

* وفيها طاقاتٌ نضرة ، ونفحاتٌ عطرة ، ومفاتيحٌ معتبرة ؛ لما في الكتاب ، مع بعضِ الاستراحاتِ المنعشة في محبةِ الصَّحابة ، والإشاراتِ والإرشاداتِ القيِّمة لمعرفةِ أقدارِ أبناء الصَّحابة ، ثمَّ نبذة عن تعريفِ الصَّحابيِّ لغةً واصطلاحاً .

البابُ الأوَّلُ

من أبناء المهاجرين وحلفائهم

* يضمُّ هذا البابُ بين جناحيه ثمانية من أبناء الصَّحابة الميامين ، وهم : « أسامةُ بنُ زيد ، وعبدُ اللَّهِ بنُ عامر ، وعبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكر ، وعمرُ بنُ أبي سلمة ، وعَمَّارُ بنُ ياسر ، وعمرانُ بنُ حصين ، والمِسُورُ بنُ مخرمة ، ويزيدُ بنُ أبي سفيان » ، وكانتِ الشَّخصياتُ مختارةً اختياراً دقيقاً ؛ إذ إنَّ لكلِّ واحدٍ منهم سجايا كريمةً ، ومواقفَ عظيمةً ، استقاها من التَّربيةِ النَّبويَّةِ القويمة . وما أجمل قول النَّازم في الصَّحابة الكرام :

وقلَّ خيرَ قولٍ في الصَّحابةِ كلَّهم ولاتك طعناً تعيبُ وتجرحُ
فقد نطقَ الوحيُ المبينُ بفضلهم وفي الفتحِ آيٌ في الصَّحابةِ تمدحُ

* افتتحتُ البابَ والكتابَ بحبِّ النَّبيِّ ﷺ وابنِ حَبِّه أسامة بنِ

زيد - رضي الله عنهما - ، وأحببتُ أن أبدأ بمن يحبُّه حبُّينا رسولُ الله ﷺ ؛ إذ إننا نحُبُّ ما أحبه النَّبِيُّ ﷺ ، ونرجو الله - عزَّ وجلَّ - أن يحشرنا بمعِية النَّبِيِّ ﷺ ، وأن يعفو عَنَّا ، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصَّالحين .

* كانت بداية الحديث في سيرة أسامة ، عن نشأته المباركة النَّديَّة في روضة بيت الثُّبَّة ، ثمَّ شرعتُ في إبرازِ بعض مناقب هذا المُحبِّ المحبوب ؛ الذي تغدَّى على هَذي خَيْرِ العباد ، فأوتي الخيرَ في العِلْم والعمل وألهم سبيلَ الرِّشاد ، وكان قائداً مظفراً جليلاً ، ومجاهداً نبيلاً ، وعالماً فقيهاً ، ومفتياً وراوياً ، وقد ملأت سيرته الضَّمائر ، وارتاحت لها القلوب ، وكيف لا ؟ وهو حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ ؟ !! وقد جوَّدْتُ سيرته ، وتوسَّعتُ فيها شيئاً يسيراً ؛ لِما تضمَّنَتْه من فوائد وأحكام ودروسٍ تربويَّةٍ يقتبسُ منها الآباء والأبناء والأمَّهات ، في كُلِّ عصر ومصر .

* دخلتُ بعد ذلك رحاب صحابيِّ ابن صحابيِّ له بصمات واضحات في ديوان الكرامات ، كان كريم الأمَّهات والعَمَّات والخالات ، وكان ميمون النَّقيبة ، جواداً ، سيِّداً ، قائداً ، مجاهداً ، فاتحاً ، افتتح بلادَ خراسان ، وفارس ، وغير ذلك من البُلدان ، هذا البطلُ المغوار ، والفارسُ الكَرَّار ، والكريمُ المدرار : عبدُ الله بنُ عامر بن كُرَيْز القرشيِّ ، معدودٌ من صغار الصَّحابة الأخيار . وقد أحببتُ أن أسوق سيرته في هذا الكتاب ؛ لِما له من أعمالٍ موفقة ، ومشاهدٍ مُشرقة ، في مجالاتٍ متفرِّقة ، ومنها : الفتوحاتُ العظيمةُ ، والإصلاحاتُ الكثيرةُ التي استفاد منها الحاضرُ والباد ، فهو أوَّلُ من اتَّخذَ الحياضَ بعرفة وسقى النَّاسَ الماء ، وعلى الرُّغم من آثاره الجليلة ، وخصائصه النَّبيلة ، فإنَّ عدداً من النَّاس لا يعرفون من سيرته إلا التَّزَّاليسير .

* وكان الحديثُ شائقاً ممتعاً عن عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنهما - ، كما كان وافياً عن شجاعته ، وأعماله ، ومناقبه ، وشيءٍ من أخباره اللطيفة .

* أمَّا الكلامُ عن سيرة عمر بن أبي سلمة ربيب النَّبِيِّ ﷺ فكان عامراً

بالتوجيهات الرشيدة ، فقد حَمَلَتْ سيرته كثيراً من الأحكام المفيدة ،
والتربويات السديدة ، وشيئاً من الشُمائل النبوية المحمودة .

* وأما عمَّارُ بنُ ياسر - ابن الشهيدَيْن - فمن مشاهير الصحابة الأعلام ،
وأبناء الصحابة الذين شهد لهم النَّبِيُّ ﷺ بالجنة دار السلام ؛ تكلَّمْتُ عن صبره
على شدائد المشركين ، وعمَّا نزل في حقِّه من القرآن والذكر المبين ، وعن
قَدْرِهِ عند سيِّد المرسلين ﷺ ، ثمَّ تعرضْتُ لنَبِذٍ من أقواله ، وروايته
للحديث ، وعن جهاده ، وبعدها فصلُّت الكلامَ عن مقتله ، وكشفتُ الأستار
عن المغالطات التي اكتنفت سيرته ، وحاولتُ أنْ آخذَ بقلوب محبِّي أبناء
الصحابة إلى ينابيع المودة والصفاء ، وشواطئ السلامة والتَّقَاءِ ، ليعرفوا
قدرهم ، ويتأدَّبوا معهم ، ويتربَّوا على محبتهم ، ويرفعوا شأنهم ، فلا يُغْرَقُوا
فيما لا يعرفون ، فيَغْرَقُونَ ويهلكون .

* وتكلَّمْتُ عن عمرانَ بنِ حُصَيْنٍ أحدِ أبناءِ الصحابة العلماء ، القضاة ،
الفقهاء ، المجاهدين ، ومن أصحابِ الكرامات الباهرة ، والمواقف الزَّاهرة ،
وما أجدُر أنْ يتربَّى كلُّ الأبناء ؛ ويطلَّعوا على سير هؤلاء الأئمَّاء العلماء !

* وتلوَّثُهُ بسيرة المِسُورِ بنِ مخرمة العابدِ القَوَّام ، القانتِ
الصَّوَّام ، الفصيحِ اللبيبِ ، التَّقِيِّ الأديب ، وأبرزتُ جانباً من مواقفه التي تشبه
در السَّحابة ؛ في حياةِ الخلفاء الرَّاشِدين وكبراءِ الصحابة .

* وكانت خاتمةُ مطافِ الباب مع صحابيِّ ابنِ صحابيِّ هو يزيدُ بنُ
أبي سفيان ، هذا الابن الذي كان يسمَّى يزيدَ الخير ، ولسيرته طعمٌ خاص ،
ورواءٌ متميِّز ، فقد أجمعت المصادِرُ أنَّه كان من العقلاء الشُّجعان ، ومن القادة
الذين فتحوا البُلدان ، ومن الكُتَّاب المرموقين النَّابهين ؛ الذين اصطفاهم
الصَّادِقُ الأَمِينُ ﷺ ليكونوا من الأصفياء الأَمَنَةِ القلائل ، لكتابةِ الوحي
والمكاتبات والرَّسائل ، فكان يزيدُ وأخوه معاوية ممَّن نالهم هذا الشَّرَفُ
الوافي ، والتَّشريف الكافي . وليزيدُ بنُ أبي سفيان - رضي الله عنهما - أعمالٌ
منيفةٌ سامقة في ميدان الفتوحات ، ويكفيه شرفاً يكفيه أنَّ الصَّدِّيقَ الأكبرَ

أبا بكر - رضي الله عنه - قد عَقَدَ له لواء ، ومشى معه تحت ركابه يسايره ، ويودّعه ويوصيه ؛ وما ذاك إلا لشرفه وكمال دينه ، وقد حرصتُ أن أستوعب شطراً من أخباره ؛ ليطلعَ عليها مَنْ غابَتْ عنهم أشياء من مناقب هؤلاء الأبناء الثّبلاء - رضي الله عنهم أجمعين - .

الباب الثاني

من أبناء الأنصار وحلفائهم

* نظمَ هذا البابُ في عقده سبعةً من أبناء الصّحابة الأنصار ؛ الذين حلّقوا في سماءات الفضل ؛ إذ اشتهروا في السّخاء والعلم والجهاد والثّبل ، وهم : « أبو أمانة بن سهل ، بشر بن البراء ، سهل بن سعد ، عبد الله بن بسر ، قيس بن سعد ، معاذ بن عمرو ، والثّعمان بن بشير » ، وهؤلاء ينسحبُ عليهم وعلى آبائهم قولُ المادح :

السّابقون الأوّلون إلى الهدى والمُصطَفَون لِئُصْرَةِ الْمُخْتَارِ
وَإِذَا كَتَابُ اللَّهِ يَتْلُو حَمْدَهُمْ أَزْرَى الْقُصُورَ بِمِثَّةِ الْأَشْعَارِ

* دخلتُ روضَ هذا الباب بصحبة أسعد بن سهل ، وكنيته أبو أمانة ، وقد سمّاه رسولُ الله ﷺ باسم جدّه أبي أمّه ، وكنّاه بكنيته ، وكان من خيار أبناء الصّحابة ، ومن أهل العلم والفقه والفتوى المعروفين في المدينة المنوّرة ، وله كثيرٌ من الأخبار الطّوال مع كبراء الصّحابة وأعيانهم ، وهذه الأخبار غنيّةٌ بالمعرفة تمتعُ القراء .

* وتحدّثتُ عن بشر بن البراء ، ومكانته في الأنصار ، وفصّلتُ الحديثَ عن وفاته في حياة النّبي ﷺ ، وما ظهرَ من دلائل الثّبوة ، وما بنيَ على ذلك من أحكام .

* وتابعتُ الحديثَ عن سهل بن سعد السّاعديّ الذي ملأ الدّنيا علماً وروايةً للحديث النّبويّ الشّريف .

* وكذلك تحدّثتُ عن عبد الله بن بسر المازنيّ المُعَمَّر ، وأشرتُ إلى

أخبار أسرته المسلمة وعلاقتها بالنبي ﷺ ، بالإضافة إلى بعض القصص النافعة التي حدثت لعبد الله بن بسر مع النبي ﷺ .

* وحططت الرّحال تحت ظلال سيرة قيس بن سعد بن عبادة ، سيّد الخزرج ، وابن سيدهم ، وعشت مع حياته المعطاء في عصر النّبوة والخلافة الرّاشدة ، وذكرت أشياء جميلة عن جهاده وشجاعته وحصافته ، وعن خدمته للنبي ﷺ عشر سنين كوامل ، كانت سماناً حوافل بألوان المكارم والفضائل ، وأبرزت أثر تربية أبيه في خدمة الإسلام ونبي الإسلام ، وتحدثت عن سخائه النّادر ، وعن مواقفه الكريمة التي تشهد له بأنّه أحد أفراد الدّهر ، وأحد أبناء الصّحابة النّجوم الزّهر .

* وأرخت عنان القلم في قصّة معاذ بن عمرو بن الجموح العقبيّ البدريّ الذي أسهم في اجتذاب أبيه إلى دائرة الإسلام ، وأسهم في المغازي النّبويّة ، كما أسهم في قتل أبي جهل وأراح النّاس من شرّه ، وتطرقت إلى ذكر جوانب من حياته في ظلال الإسلام .

* وكان الاستجمام ناعماً مع الثّعمان بن بشير أوّل مولود للأنصار بعد الهجرة النّبويّة ، والذي عاش حميداً ، ومات حميداً ، فكان من أهل الجنّة ، وتنقلت على فنن سيرته الجذّابة التي جمعت أطراف الفضائل ، وتحدثت عن مروياته ، وعلقت على بعضها ، وأشرت إلى العبر والفوائد التي تضمّنتها .

الباب الثالث

من أبناء أهل البيت

* على الرّغم من أنّ هذا الباب هو أصغر أبواب الكتاب ، إلا أنّه غنيّ بالفوائد ، جامعٌ لمحاسن القلائد ، ويشتمل على سيرة ابنتين من أبناء رجال أهل البيت وهما : عبد الله بن جعفر ، وعبيد الله بن عباس - رضي الله عنهم أجمعين - :

أيّا آل النّبيّ بكم فخّاري بكم عزّي على بُعدي وقربي

تربّي في محبتكم فؤادي على الإخلاص سبحان المربي

* رَقَّ الحديثُ وراقَ مع سيّدنا عبد الله بن جعفر الصّحابيّ ابن الصّحابيّ ابن الصّحابيّة ، وطاب الكلامُ عن سيادته وأسرته الحسيبة النّسيبة ، وتاريخها الحافل بالعتاء والسّخاء والنّقاء والصّفاء والفداء والوفاء ، ثمّ بينتُ مكانته في مجال العلم والرّواية ، وأوضحتُ جودَهُ الذي ضُربَ به المثل ، واستأنستُ بأقواله وحكمته ، وذكرتُ شيئاً من أخباره مع سيّدنا معاوية ، ومع ثلّة من أبناء أهل البيت وأبناء الصّحابة والقراة .

* وكان الحديثُ يتسمُّ رقراقاً ؛ ويكشفُ عن محاسنِ أهل البيتِ أطواقاً ، ويزدادُ إشراقاً ، عند الكلام عن عُبيد الله بن عبّاس ابن عمّ النّبيّ ﷺ ، وعن أثر تربية العبّاس فيه ، وتطرقتُ إلى الكلام عن سخائه العجيب ، وأوردتُ قصصاً جميلةً عن جوده وأحواله - رضي الله عنه - ، كما ذكرتُ علاقاته مع أخيه عبد الله ، ومع أبناء فاطمة الزّهراء - رضي الله عنهم أجمعين - .

الخاتمة

* ذكرتُ فيها مجملَ ما توصّلتُ إليه من نتائج ، وتوضيح ما ورد من نقاط مهمّة في المقدّمة والأبواب .

مصادر الكتاب ومراجعته

* اكتملتُ صورةُ الكتاب ، بعد أن دخلتُ بساتين المصادر ورياضها ، وهصرتُ أغصانَ المعرفة والفوائد من مئات مواردها ، وكان عليّ أن أنتخبَ منها الصّحيح الذي يعطي الفائدة ، ويرسمُ بوضوح ابن الصّحابيّ الذي أتحدّثُ عنه دون غبش أو اضطراب ، وابتعدتُ عن الأخبار ذوات العلل ؛ التي تركُ في النفوس العلل ، وتتسمُّ بالضعف أو الكذب ، وحرصتُ أشدَّ الحرص - مستعيناً بالله عزّ وجلّ - أن يكونَ عملي أقرب إلى الصّواب ؛ لأنّ

الحديث عن جمهرة الأصحاب ، وصفوة الشَّباب الأنجاب ، وأبناء الصَّحابة الأحاب .

* بَيَّنْتُ أَنَّ المصادر كانت غزيرة وكثيرة ، ومتعدِّدة المشارب والمسابر ، إلا أَنِّي جعلْتُ الوَحْيَيْن : القرآن الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، أمام بصيرتي أهتدي بها في صياغة هذه الحلية :

إِنَّ الطَّرِيقَةَ فِي التَّنْزِيلِ واضحةٌ وَمَا تَوَاتَرَ مِنْ وَحْيٍ وَمَشْهُورٍ فَافْهَمْ هُدَيْتَ هُدَى الرَّحْمَنِ واهْدِ بِهِ هُدًى يَفِيدُكَ يَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ
* ويمكنني الآن أن أحصر المصادر في هذه العناوين البارزة دون أن أطيل النَّفس في شرح محتواها ؛ ولكنِّي سأعطي عنها فكرة مجملة تفيد المتعلِّم بإذن الله تعالى ؛ والمصادر هي :

- ١ - القرآن الكريم ، وعلومه ، وتفسيره القديمة والمعاصرة .
- ٢ - الحديث النبوي ، وعلومه ، وشروحه العديدة ، وفقهه .
- ٣ - السِّيرة النَّبَوِيَّةُ وشروحها ، وصحيحها ، وصورها ، ودراساتها .
- ٤ - مصنَّفاتُ علم الرِّجال ، وكتبُ الطَّبقات ، وتراجم الصَّحابة .
- ٥ - التَّوَارِيخُ والوفيات ، وخاصة تاريخ عَصْرِ الرِّسَالَةِ .
- ٦ - كتبُ المُدن والبلدان والفتوحات والمغازي .
- ٧ - كتبُ الأنساب والأخبار والأُمالي .
- ٨ - كتبُ الأدبيات والأسمار ودواوين الشُّعراء المتنوعة .
- ٩ - المعاجمُ ومصنَّفاتُ اللغة وغيرها من فنون العلم والمعرفة .

وهاكم تحليل المصادر بشيء من الإيجاز :

- ١ - القرآن الكريم وعلومه : القرآن الكريم هو المصدرُ الأساسُ والأوَّلُ ، فهو يصف حال الصَّحابة وعدالتهم ، ويقدم أحكامه واضحة جليَّة ،

ونستفيد كذلك من كتب التفسير وأسباب النزول التي جلت وحلت مشكلاتٍ وصوراً كثيرة .

٢ - الحديث النبوي وشروحه : حظيت كتب الحديث بجهودٍ فائقة ، وكما نعلم فهي ثمرة جهودٍ مضيئة ، قدمها أهل الحديث عند تمحيص الحديث ونقده سناً ومثناً ، وهذه الدقة الفائقة والعناية اللائقة لم تتوفر لغير علم الحديث ، ولم تحظ به مصادر التاريخ . ومن هذا المبدأ نجد كثيراً من الأحاديث في الصحيحين وغيرهما توضح مشاهد ومواقف متعددة من السيرة النبوية ، وإن لم تبحث في التفاصيل كما صنعت كتب السيرة . وقد أفدت كثيراً من شرح صحيح البخاري ؛ وشرح صحيح مسلم ، وتحصل لي فوائد جلية ، ولفات جميلة حليت بها جيد البحث ، وكذلك استفدت من شروح كتب السنن الأخرى .

٣ - السيرة النبوية وشروحها : نحن نعلم أن كتب السيرة قد كتبت في عصر التابعين ، مع أن بعض الصحابة كانوا موجودين فلم ينكروا على كتاب السيرة ، مما يدل على إقرارهم بصحتها . وفي مقدمة كتب السيرة التي أفدت منها سيرة ابن هشام ، وغيرها .

٤ - كتب التراجم والطبقات : هذه مصادر متخصصة في معرفة الصحابة ، وهي تقدم معلومات تاريخية موثقة ، وفي مقدمة الكتب التي أفدت منها : الطبقات الكبرى لابن سعد (المتوفى سنة : ٢٣٠ هـ) ، والاستيعاب لابن عبد البر (المتوفى سنة : ٤٦٣ هـ) ، وأسد الغابة لابن الأثير (المتوفى سنة : ٦٣٠ هـ) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (المتوفى سنة : ٧٤٨ هـ) ، والإصابة لابن حجر (المتوفى سنة : ٨٥٢ هـ) ، بالإضافة إلى عدد من المصادر الأخرى التي عنت بهذا الشأن .

٥ - التواريخ والوفيات : وهي كثيرة جداً ، وقد أسهمت في بناء هذا البحث ، وإغناء مادته ، ومن أهمها : أنساب الأشراف للبلاذري ،

وتاريخ الطبري ، وكامل ابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ،
ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها .

٦ - كتب المدن والمغازي : تكمل هذه المصادر ما جاء في سائر المصادر ،
إذ توضح أحياناً صورة الغزوات ، أو البلدان التي فتحها الصحابة ، وتمدُّ
الباحث بكثير من المعارف التي تسدُّ فراغاً كبيراً في عمله ، ومن هذه
المصادر : كتاب المغازي للواقدي ، ومعجم البلدان للحموي ،
والروض المعطار للحميري وغيرها .

٧ - كتب الأنساب : وهذه المصادر لا غنى عنها للباحث ، إذ تعني بالضبط
عناية فائقة مع ذكر القبائل التي ينتسب إليها الصحابي ، ومن هذه
الكتب : الأنساب للسمعاني وغيره .

٨ - كتب الأدبيات والأسمار : تفيدُ بعض هذه الكتب في توضيح فكرة ، أو
صورة معينة للصحابي ، في حين أنَّ شطراً منها يزري بالصحابة ،
ويستخفّ بالسلف ، ويثبِّتهم بالركون إلى الدنيا . وتهتمُّ هذه المصادر
بحلاوة العبارة وجودة الألفاظ ، ومن هذه الكتب : الكامل للمبرِّد ،
والأغاني للأصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربّه ، وهذه الكتب
امتلأت بكثير من الدسّ على التاريخ ، وتشويه بعض صور الصحابة ،
وتضيع كثيراً من حقائق التاريخ .

٩ - المعاجم ومصنّفات اللغة : تأتي فائدة هذه المصادر في توضيح معاني
بعض المفردات وتوثيقها بالقرآن والحديث ، كما تشرح كثيراً من
الغوامض التي تسهّل عملية البحث ، ويأتي لسان العرب ، والصحاح ،
والقاموس المحيط في مقدمة هذه المصادر .

فوائد وإرشادات مهمّة

* اتّبعْتُ في هذا البحث منهجاً مفيداً يذلّل الصّعاب أمام محبي أبناء
الصحابة ، ويذكّرهم ببعض الأمور المهمّة التي تساعد على فهم منهج الكتاب

ومراميه ومقاصده ، ومنها على سبيل الإيجاز والاختصار :

أ - الهوامش المفيدة ، والتعليقات السديدة ، والفوائد الرشيدة ، التي توضّح كثيراً من الإشكال ، وتختصر كثيراً من الأقوال ، بالإضافة إلى الشرح الوافي للألفاظ والكلمات التي يصعب فهمها ، ثمّ ضبط معظم كلمات الكتاب ، ليظهر في حلّة قشبية ، ورواء جميل ، دون لبس ، أو خطأ ، أو وهم ؛ أو اضطراب في الفهم .

ب - ترجمة عدد من الشخصيات - رجالاً ونساء - في الهوامش والتي وردت في سياق الكلام ، وبيان علاقتها بالشخصية الرئيسة .

ج - التذكير ببعض الموضوعات المفيدة ، والإشراقات الأدبية الموقظة ، من خلال التعليق عليها في الهامش ، كتعريف القيافة ، والأشعار الجميلة التي قيلت في العشرة المبشرين بالجنة ، وحكم لبس الخاتم ، وتمثّل النبي ﷺ بالشعر ، وغير ذلك من أزهى أنيقة يجدها القارئ منثورة في رياض الكتاب وعلى أفنائه وروايه الجميلة .

د - توشيح الكتاب بأدبيات ناعمة ، ومنظومات نادرة ، تزيّن البحث ، وتزيده ألماً على ألق ، وترغب في الاستزادة من القراءة والمطالعة ، وترسخ محبة أبناء الصحابة في القلوب .

هـ - إرشاد المحييين إلى آراء علماء التابعين ، وأقوال العلماء المجتهدين ؛ في أبناء الصحابة الصيّد الميامين ، وكيف أنصفوهم ، ووضعوهم في المكانة اللائقة ، ووصفوهم بما تحلّوا به من كريم الشّمائل ؛ ولطيف الخصائل .

و - إنّ معظم أبناء الصحابة الذين ترجمت لهم في هذا الكتاب كانوا من المعمرين ، أفادوا النّاس بما تلقّوه من رسول الله ﷺ ، وما تعلّموه من كُبراء الصحابة وأعيانهم ، فانتفع منهم العباد ، واستفاد من علمهم الحاضر والباد ، وأهل الحِلّ والحرم ، فهم ممّن طال عمره وحسن عمله .

ز - الإشارة إلى الأغاليط والمغالطات التي تسرّبت إلى سير بعض الشخصيات المشهورة في هذا الكتاب ، والتصقت بها ، ممّا يخيّل للقارئ أنّها حقيقة لا جدال فيها ، فأزلت الإبهام ، ودللت على الإيهام ، ورددت الأمور إلى نصابها ، مستعيناً بالله - عزّ وجلّ - ، ثمّ مُستنيراً بالهدي النبويّ ، وهذا ما سرّرت عليه في هذا البحث . وهناك فوائد وإشارات وإرشادات يدركها القارئ الفاضل من خلال مُضيه في مطالعة الكتاب .

وقفة مفيدة مع تعريف الصّحابي

* بما أنّ هذا الكتاب يحتوي سير صحابة من أبناء الصّحابة ، فمن المستحسن أن نطلع على تعريف الصّحابيّ ؛ لتكون الفائدة أعمّ وأشمل ؛ وأكثر دقّة وأجمل .

* الصّاحب لغةً : اسمُ فاعل ؛ مِنْ صَحَبَ ، يصحبُ ، فهو صاحب ، والجمعُ : أصحاب ، وأصاحب ، وصحب ، وصحاب ، وصحبة ، وصحبان ، وصّحابة ، وصّحابة .

* والصّاحب : مشتقٌّ من الصّحبة ؛ وتعني الملازمة والانقياد .

* والصّحابيّ : منسوبٌ إلى الصّحابة ، والصّحابيّة : منسوب إلى الصّحبايات .

* والصّحابة : في الأصل : مصدر ، ثمّ صارت جمعاً مفردُهُ صاحب ، ولم يجمع فاعلٌ على فعالةٍ إلا هذا^(١) .

(١) أدلى محمّد العدناني دلوّه في هذا المضمّار المفيد ، وجاء بكثير من الفوائد ، يحسنُ بنا أن نجملها هاهنا للفائدة : «الصّحابةُ ، الصّحابةُ ، الصّحابيّ : الصّحابة هي جمع صحابي ، وهو مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مؤمناً به ، ومات على الإسلام ، ويجمعُ الصّاحب على : صَحَب ، وأصحاب ، وصحاب ، كما أنّ الصّاحب يجمعُ على : صَحَابَة : جاء في حديث قَيْلَةَ : « خرجتُ أبتغي الصّحابة إلى رسول الله ﷺ » .

* والصَّحَابِيُّ فِي الاصطلاح : مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ ، وَمَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَيَدْخُلُ فِيْمَنْ لَقِيَهُ مَنْ طَالَتْ مَجَالَسَتُهُ ، أَوْ قَصُرَتْ ، وَمَنْ رَوَى عَنْهُ ، أَوْ لَمْ يَرَوْهُ عَنْهُ ، وَمَنْ غَزَا مَعَهُ ، أَوْ لَمْ يَغْزُ مَعَهُ ، وَمَنْ رَأَى رُؤْيًى وَلَمْ يَجَالِسْهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرَهُ لِعَارِضٍ كَالْعَمَى .

* وَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عَدُولٌ ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « الْإِصَابَةِ » : « اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَمِيعَ عَدُولٌ ، وَلَمْ يَخَالَفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا شَذُوذٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ » .

* وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ أَيْضًا : « قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ : الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَطْعًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الْحَدِيدُ : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا

= ب - صِحَابَةٌ : قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ : « إِنَّ الصَّحَابَةَ هِيَ جَمْعُ صَحْبٍ » وَيُرَى ابْنُ مَنْظُورٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ أَعْلَى مِنَ الصَّحَابَةِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : « إِنَّ الصَّحَابَةَ هِيَ أَيْضًا جَمْعُ صَحَابِيٍّ » .

وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى الْكُسْرِ دُونَ الثَّاءِ الْمَرْبُوطَةِ (صِحَاب) وَعَلَى الْفَتْحِ مَعَ الثَّاءِ الْمَرْبُوطَةِ (صَحَابَةُ) .

وَالصَّحَابَةُ : مُصَدَّرٌ وَجُمِعَ ، وَتُطْلَقُ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، لَكِنَّهَا أَحْصُ مِنْ الْأَصْحَابِ ، لِأَنَّهَا بَغْلَبَةٌ اسْتَعْمَالُهَا لِأَصْحَابِهِ صَارَتْ كَالْعَلَمِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا نُسِبَ الصَّحَابِيُّ إِلَيْهَا بِخِلَافِ الْأَصْحَابِ .

أَمَّا جَمْعُ الْأَصْحَابِ فَهُوَ : أَصَاحِبٍ ، وَتَصْغِيرُهُ : أَصْيَحَابٌ ، قَالَ أَبُو فَرَّاسٍ الْحَمْدَانِيُّ :

وَقَالَ أَصْحَابِي الْفَرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ وَفَعْلُهُ هُوَ : صَحَبَهُ يَصْحَبُهُ صُحْبَةً ، وَصَحَابَةً ، وَصِحَابَةً .

« مَعْجَمُ الْأَغْلَاطِ لِللُّغَوِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ » (ص : ٣٦٨) بِشَيْءٍ مِنَ التَّصْرِيفِ .

مُبْعَدُونَ ﴿ [الأنبياء : ١٠١] ، فَثَبَّتَ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ النَّارَ ؛ لِأَنَّهُمْ الْمَخَاطَبُونَ بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ .

* وقال القرطبي رحمه الله في « تفسيره » ما خلاصته : « لا يجوزُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خَطَأٌ مُقْطُوعٌ بِهِ ؛ إِذْ كَانُوا كُلُّهُمْ اجْتَهِدُوا فِيمَا فَعَلُوهُ ، وَأَرَادُوا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَهُمْ كُلُّهُمْ لَنَا أُمَّةٌ ، وَقَدْ تَعَبَّدْنَا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْكَفِّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، وَأَلَّا نَذْكُرَهُمْ إِلَّا بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ ؛ لِحَرَمَةِ الصُّحْبَةِ ، وَلِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبِّهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَفَرَ لَهُمْ ، وَأَخْبَرَ بِالرِّضَا عَنْهُمْ » .

* أرجو الله - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا أَعْمَالَنَا ، وَأَنْ يَغْفِرَ عَنَّا ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ تَقْصِيرِنَا ، وَأَنْ يَسَدِّدَ أَقْوَالَنا ، وَأَفْعَالَنَا ، وَيُوفِّقَنَا لِمَا يَحِبُّ وَيَرْضَى .

* كما أرجو القارئ الحبيب أَنْ وَجَدَ خَيْرًا وَفَائِدَةً فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَهْدِيَنِي دَعْوَةً صَالِحَةً تَنْفَعُهُ وَتَنْفَعُنِي ، وَإِنْ رَأَى فِيهِ تَقْصِيرًا ، أَوْ وَجَدَ مَأْخِذًا أَنْ يَحْسِنَ الظَّنَّ ، وَأَنْ يَجُودَ بِنَصِيحِهِ ، فَمَا لِلْعِلْمِ إِخْصَاءٌ :

إِنْ تَجَدَّ عِيَاءُ فَسُدَّ الْخَلَا جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

* وفي الختام : أَسْأَلُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَعْلَمَنَا مَا يَنْفَعُنَا ، وَأَنْ يَحْشِرَنَا فِي زَمْرَةِ الصَّحَابَةِ تَحْتَ لَوَاءِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْ يَظْلَنَا بِظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

وكتب
محَبَّ الصَّحَابَةِ وَخَادِمَهُم
أحمد خليل جمعة

دمشق - حرستا - حي الشيخ موسى
٤ رجب ١٤٢٩ هـ
٧ تموز ٢٠٠٨ م



البابُ الأوَّلُ

من أبناء المهاجرين وحلفائهم

- * أسامةُ بنُ زيد رضي الله عنهما .
- * عبدُ الله بنُ عامر رضي الله عنهما .
- * عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكر رضي الله عنهما .
- * عمَّارُ بنُ ياسر رضي الله عنهما .
- * عمرُ بنُ أبي سَلَمَةَ رضي الله عنهما .
- * عمرانُ بنُ حُصَيْن رضي الله عنهما .
- * المسوُّورُ بنُ مخرمة رضي الله عنهما .
- * يزيدُ بنُ أبي سُفيان رضي الله عنهما .

أسامة بن زيد

رضي الله عنهما

- * الحُبُّ ابن الحَبِّ ؛ والصَّحَابِيُّ ابن الصَّحَابِيِّ ابن الصَّحَابِيَّةِ .
- * من الفَرَسَانِ القَادَةِ ؛ والأمراء السَّادَةِ .
- * ذو مناقبَ نبيلة ؛ وأعمال جليلة ، توفي سنة (٥٤ هـ) .

أسامة بن زيد رضي الله عنهما

« اللهم إني أحبهما فأحبهما » :

* حَدَّثَ هَذَا الصَّحَابِيُّ الْمَحْبُوبُ ابْنُ الصَّحَابِيِّ الْمَحْبُوبِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَحْبَبْهُمَا ، فَإِنِّي أَحْبُبُهُمَا » ^(١) ، وَفِي رِوَايَةٍ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْبُبُهُمَا فَأَحِبَّهُمَا » ^(٢) .

* إِنَّ قَوْلَهُ ﷺ : « اللَّهُمَّ أَحْبَبْهُمَا فَإِنِّي أَحْبُبُهُمَا » يُشْعِرُ بِأَنَّهُ ﷺ مَا كَانَ يَحِبُّ إِلَّا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَفِي اللَّهِ تَعَالَى ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ ﷺ مُحَبَّةَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى مُحَبَّتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ أَعْظَمُ مَنْقِبَةٍ وَأَكْمَلُهَا لِهَٰذِينَ الصَّحَابِيِّينَ ابْنِ الصَّحَابِيِّينَ ابْنِ الصَّحَابِيِّينَ .

* كَمَا كَانَ الْحَبِيبُ الْأَعْظَمُ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بِأَنَّ هَذَا الصَّحَابِيَّ ابْنَ الصَّحَابِيَّ ابْنَ الصَّحَابِيَّةِ هُوَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ بَعْدَ أَبِيهِ ، وَكَانَ يَوْصِي بِهِ لَصَلَّاحِهِ وَتَقْوَاهُ ، وَيَقُولُ : « وَابْنُ اللَّهِ ! إِنْ كَانَ لِأَحَبِّهِمْ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ - أَي : بَعْدَ أَبِيهِ - فَأَوْصِيكُمْ بِهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ » ^(٣) .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ فِي فُضَائِلِ الصَّحَابَةِ ، بِرَقْم : (٣٧٣٥) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ، بِرَقْم : (٣٧٤٧) .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي فُضَائِلِ الصَّحَابَةِ ، مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ ، بِرَقْم : (٢٤٢٦ / ٦٤) ، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ بِمَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ، بِرَقْم : (٣٧٣٠ ، ٤٢٥٠ ، ٤٤٦٨ ، ٤٤٦٩ ، =

* ونحن والله نحبُّ هذا الحُبَّ الذي أحَبَّه الحبيبُ المصطفى ﷺ ،
ونعطرُ المجالسَ بأخباره ، ونمتعُ الأسماعَ بسيرته ، ونرجو الله - عزَّ وجلَّ - أنْ
يحشرنا في زمرة ؛ إذ إنَّ محبَّته توصلُ إلى مرضاة الله ورسوله ، وهذا
ما أفادتنا به أمُّنا الصَّديقةُ بنتُ الصِّديقِ الأكبرِ سيِّدتنا عائشة بنت
أبي بكر - رضي الله عنهما - ، وعن أبيها ، فقد قالت : « لا ينبغي لأحدٍ أنْ
يبغضَ - أو ينتقصَ - أسامة بعدما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « مَنْ كان
يحبُّ الله ورسوله ، فليحبَّ أسامة » ^(١) .

* إذاً ، سيكونُ لقائنا ممتعاً ممتعاً ، يانعاً مترعاً ؛ مع سيِّدنا أسامة بن
زيد بن حارثة الكلبيِّ الهاشميِّ ^(٢) ، المولى الأمير الكبير ، حبَّ
رسولِ الله ﷺ ، ومولاه ، وابن مولاه ، أبو زيد ، ويقال : أبو محمد .

* قال ابنُ سعد رَحِمَهُ اللهُ : « هو حُبُّ رسولِ الله ﷺ ، ويُكنى أبا محمَّد ،

= و٦٦٢٧ ، و٧١٨٧) ، وغيرهما .

(١) انظر : « مجمع الزوائد » (٩ / ٢٨٦) ، وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصَّحيح » ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٤٩) .

(٢) المصادر التي ترجمت لسيِّدنا أسامة بن زيد لا تُحصر ، ولا تُحصى ،
ومنها : الصَّحيحان في الفضائل ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ٦١ - ٧٢) ،
و« المعارف » (ص : ١٤٤ - ١٤٥) و (١٦٤ - ١٦٦) ، و« تهذيب الأسماء
واللغات » (١ / ١١٣ - ١١٥) ، و« مختصر تاريخ دمشق »
(٤ / ٢٤٨ - ٢٥٥) ، و« معرفة الصَّحابة » (١ / ٢١٨ - ٢٢٠) ترجمة
رقم : (٨٤) ، و« البداية والنهاية » (٥ / ٣١١ - ٣١٢) ، و (٨ / ٦٧) ،
و« أسد الغابة » (١ / ٧٩ - ٨١) ترجمة رقم : (٨٤) ، و« مجمع الزوائد »
(٩ / ٢٨٦) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣٤ - ٣٦) ، و« الإصابة » (١ / ٤٦) ،
و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٤٩٦ - ٥٠٧) ، و« المعجم الكبير »
(١ / ١٥٨ - ١٨٨) ، وغيرها كثير .

وأُمُّهُ : أُمُّ أَيْمَنَ ، واسمُها : بركة^(١) حاضنةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ومولاته ، وكان زيدُ بنُ حارثة - في رواية بعض أهل العلم - أوَّلَ النَّاسِ إسلاماً ، ولم يفارق رسولَ اللَّهِ ﷺ ، ووُلِدَ له أسامة بمكة ، ونشأ حتَّى أدرك ، ولم يعرف إلا الإسلامَ لله تعالى ، ولم يَدِنْ بغيره ، وهاجرَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ إلى المدينة ، وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ يحِبُّه حبًّا شديدًا ، وكان عنده كـبعض أهله « (٢) .

* وُلِدَ سَيِّدُنَا أُسَامَةُ - رضي اللَّهُ عنه - في أُمِّ القرى مكة المكرمة في السَّنة الخامسة من البعثة النَّبَوِيَّة ؛ أي : قبل الهجرة بنحو تسع سنين تقريباً ، وقد احتفى المسلمون ؛ إذ ذاك بولادته ، وغمرهم سرورٌ عظيمٌ لفرح الحبيب المصطفى ﷺ بولادته ؛ ذلك لأنَّ أباه زيدا كان من أحبِّ النَّاسِ إليه ﷺ ، ولأنَّ أُمَّ أُسَامَةَ سَيِّدَتَنَا أُمَّ أَيْمَنَ كانت حاضنة الحبيب المصطفى ﷺ ، وكانت بمثابة أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ بعد وفاة أُمِّه آمنة بنت وهب^(٣) .

* فأَسَامَةُ بنُ زيد ابن أَيْمَنَ أثيرٌ لدى سَيِّدِنَا وَحْبِينَا رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فأبواه من أقرب النَّاسِ إلى قلب النَّبِيِّ ﷺ ، وأحبَّهم إلى قلبه الشَّريف ، ومن

(١) اقرأ سيرة سَيِّدَتَنَا بركة بنت ثعلبة في موسوعتنا اللطيفة : « نساء مبشرات بالجنة » (ص : ٩٥ - ١١٥) ، طبعة دار ابن كثير الخامسة بدمشق ، عام : (٢٠٠٣ م) ، فسيرتها أنسٌ في سرورٍ في حبورٍ بإذن اللَّهِ تعالى .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦١) ؛ وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٤٩) قال أبو نعيم الأصبهاني عن سَيِّدِنَا أُسَامَةَ رضي اللَّهُ عنه : « من موالي رسولِ اللَّهِ ﷺ من الطَّرفَيْنِ ، كان أبوه ممن أنعمَ اللَّهُ عليه بالإسلام ، وأنعمَ عليه الرَّسُولُ ﷺ بالعتق ؛ وأُمُّهُ : أُمُّ أَيْمَنَ ، حاضنةُ النَّبِيِّ ﷺ وعتيقته ، اسمها بركة » (معرفة الصَّحابة ١ / ٢١٩) .

(٣) اقرأ سيرة السَّيِّدة الجليلة النَّبيلة آمنة بنت وهب في موسوعتنا : « نساء من التَّاريخ » (ص : ١٧ - ٧٢) ؛ حيث افتتحنا الكتاب بسيرتها اللطيفة التي تؤنسُ القلوب ، وتمتعُ الأسماع ، وتهذبُ الطباع بإذن اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - .

المتعلّم في السيرة النبوية وغيرها من وثيق المصادر ودقيقها : أنّ سيّدنا زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، وغلّامه ، وابنه بالتبني - قبل تحريم التبني في الإسلام - ، كان يقال له : زيد بن محمّد ، إلى أن أبطل الإسلام التبني كما جاء في سورة الأحزاب ، فأصبح يُدعى ، زيد بن حارثة - رضي الله عنه - .

* أمّا السيّدة المباركة بركة أم أيمن حاضنة النبي ﷺ ، فكانت مملوكة لآمنة بنت وهب الزهرية أم رسول الله ﷺ ، وربّته في حياتها ، ثمّ إنّها حضنته بعد وفاتها ، فكان ﷺ يقول عنها : « هي أمي بعد أمي ، وبقية أهل بيتي » ، ولمّا ملكها ﷺ وورثها بعد وفاة أبيه ، أعتقها ، ثمّ زوّجها من حبّه زيد بن حارثة ، فولدت أسامة الحبّ ابن الحبّ ، وبذلك نعلم ما أسدته هذه السيّدة إلى سيّد الخلق ﷺ ، فكان يزورها ، وكان العُمران : أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - يزورانها ويبرّانها اقتداءً بالنبي ﷺ .

في معيّة الحبيب ﷺ :

* أشرب سيّدنا أسامة الإسلام صافياً منذ أن فتح عينيه على هذه الدنيا ، وسعد بأسعد الخلق وأتقاهم وأخشاهم الله - عزّ وجلّ - ؛ إذ عاش في مهّد النبوة ، وفي مهبط الوحي ، فنشأ في ظلال المودة نشأة الأصفياء الأولياء ، وكانت العين النبوية ترقّبه دائماً ، واليد الشريفة تباركه ؛ ومنذ نعومة أظفاره لم يعرف إلا الإسلام ديناً خالصاً لله ربّ العالمين ، وإلا محمّداً عبداً ورسولاً خاتماً للنبيين ﷺ ، وتقلّب في أجواء الوحي والتّزيل ، وكان الحبيب المصطفى ﷺ يُنزله من نفسه منزلة سامقة لائقة ممزوجة بالرّفق والحنان والعناية والمحبة .

* ومن الملاحظ أنّ هذه التّربية النبوية لهذا المحبوب المبارك ، وهذه النّشأة الإيمانية الصّافية ، جعلته رجلاً من أفذاذ رجال العالم عقلاً وورعاً ، وصدقاً ووفاءً ، وشجاعةً وإقداماً ، وعلماً ، وأدباً ، وفقهاً ، وإخلاصاً ، وقائداً ، وفتاحاً ، وكان لا يزال في ميعة الصّبا ، وعمر الزّهر والورد ، فعندما

توفي رسولُ الله ﷺ كان عمر سيّدنا أسامة ثمانى عشرة سنة تقريباً .

* ومن عجائب الحبِّ النَّبويِّ لسيّدنا أسامة أنّه اشتهر بين الصّحابة بأنّه حبُّ الحبيبِ الأعظم ﷺ وابنُ حَبِّه ، وتلك مكانةٌ متميزةٌ يغبطه عليها أبناء الصّحابة ، بل وسائر أصحاب النَّبيِّ ﷺ ؛ إذ تَبَوَّأَ أسامةُ سُدَّةَ الحبِّ العُليا من قلب رسولِ الله ﷺ ، ولم يسبقه إلى هذه المكانة سوى سيّدتنا فاطمة الزّهراء - رضي الله عنها وأرضاها - ، وحشرنا في معيّتها برحمته وفضله .

* أخرج الترمذيّ رحمه الله بسنده عن سيّدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال : « كنتُ جالساً ؛ إذ جاء عليٌّ والعبّاسُ يستأذنان فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسولِ الله ﷺ .

فقلت : يا رسولَ الله ! عليٌّ والعبّاسُ يستأذنان .

قال : « أتدري ما جاء بهما » .

قلتُ : لا .

فقال النَّبيُّ ﷺ : « لكُنِّي أدري ؛ ائذن لهما » .

فَدَخَلَا ، فقالا : جئناكَ نسألك : أيُّ أَهْلِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟

قال : « فاطمة بنتُ محمّد » .

قالا : جئناكَ نسألك عن أَهْلِكَ .

قال : « أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ من قد أنعمَ اللهُ عليه ، وأنعمتُ عليه أسامة بن

زيد » .

قالا : ثمَّ من ؟

قال : ثمَّ عليٌّ بن أبي طالب » .

فقال العبّاسُ : يا رسولَ الله ! جعلتَ عمَّكَ آخرهم .

قال : « إِنَّ عَلِيًّا قَدْ سَبَقَكَ بِالْهَجْرَةِ » ^(١) .

* بلغ حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ لأَسَامَةَ مَبْلَغًا كَرِيمًا ، ظَهَرَتْ مِنْ خِلَالِهِ أَلْوَانُ الْمَوَدَّةِ وَالْعَنَايَةِ وَالْحَفَاوَةِ ، وَهَذَا مَا أوردَهُ ابْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « طَبَقَاتِهِ » بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي السَّفَرِ قَالَ : « بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ هُوَ ، وَعَائِشَةُ ؛ وَأَسَامَةُ عَنْدهُمْ ؛ إِذْ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجْهِ أَسَامَةَ ، فَضَحَكَ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَسَامَةَ جَارِيَةٌ لَحَلَّيْتُهَا ، وَزَيَّنْتُهَا حَتَّى أَنْفِقُهَا » ^(٢) .

* وَعَنْ أُمِّنا الصَّديقة بنت الصَّديق - رضي الله عنهما - قالت : « أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَغْسِلَ وَجْهَ أَسَامَةَ وَهُوَ صَبِيٌّ ، وَمَا وَلَدْتُ ، وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُغْسَلُ الصَّبِيانَ ، فَأَخَذَهُ ، فَأَغْسَلُهُ غَسْلًا لَيْسَ بِذَلِكَ ، قالت : فَأَخَذَهُ ، فَجَعَلَ يَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ : « لَقَدْ أَحْسَنَ بَنَّا أَسَامَةَ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ جَارِيَةً ، وَلَوْ كُنْتُ جَارِيَةً ، لَحَلَّيْتُكَ وَأَعْطَيْتُكَ » ^(٣) .

* وَقَدْ أَدْرَكَ سَيِّدُنَا أَسَامَةَ - رَضِوانَ اللَّهُ عَلَيْهِ - مَغْزَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ النَّبَوِيَّةِ النَّادِرَةِ الْمُتَفَرِّدَةِ فِي مِثْلِهَا ، لِذَلِكَ أَحَبَّ أَنْ يُثَبِّتَ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ شَعِيبٍ بْنِ الْحَبِيبِ

(١) « تحفة الأحوذني » (١٠ / ٣٢٣ - ٣٢٤) ، برقم : (٣٩٠٨) ، وانظر :

« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٤٩) ، و « المعجم الكبير » (١ / ١٥٨) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٢) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠١) ، وجاء هذا الخبر عند ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى

النَّحْوِ الْآتِي : عَنْ أُمِّنا عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - قالت : « دَخَلَ أَسَامَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَصَابَتْهُ عَتَبَةُ الْبَابِ ، فَشَجَّ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ! قَوْمِي فَاْمَسَحِي عَنْهُ الْأَذَى » قالت : فَتَقَدَّرْتُهُ ؛ فَقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَجَعَلَ يَمْصُهُ وَيَمْسُحُهُ ، وَيَقُولُ : « لَوْ كَانَ أَسَامَةُ جَارِيَةً لَحَلَّيْتَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزَيَّنْتُهُ حَتَّى أَنْفِقَهُ لِلرِّجَالِ » . « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٥١) ؛ وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ بِرَقْم : (١٩٧٦) .

قال : « سمعتُ أسيافنا يقولون : كان نقش خاتم أسامة بن زيد : حِبُّ رسول الله ﷺ » ^(١) ، فأكرم بالنّاقش والمنقوش !

* وينبغي أن نتذكّر دائماً بأنّ الصّادق المصدوق ﷺ ما أحبّ إلا طيّباً طاهراً صافياً ، وسيّدنا أسامة كان ذا جوهر متألّق ، وصفاء عجيب ، لذلك كان حبيبنا وشفيعنا رسولُ الله ﷺ ينبضُ قلبه بالرحمة له ، والعطف عليه ، وقد نقل سيّدنا أسامة - رضي الله عنه وأرضاه - هذه الصّورة الأنيقة للحفاوة النّبويّة به فقال : « كان نبيُّ الله ﷺ يأخذني ، فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن بن عليّ على فخذه الأخرى ، ثمّ يضمُّنا ؛ ثمّ يقول : « اللهمّ ارحمهما فإنّي أرحمهما » ^(٢) .

* روت المصادِر أنّ سيّدنا أسامة كان كأمّه أم أيمن الحبشيّة أفطس الأنف أسود ، على عكس أبيه زيد بن حارثة الذي كان أبيض اللون أشقر ، قال إبراهيم بن سعد : « كان زيدٌ أحمر أبيض أشقر ، وكان أسامة بنُ زيد مثلاً الليل » . بينما أوجز الإمام الذهبيّ رَحِمَهُ اللهُ صفات سيّدنا أسامة ، وأجملها ولخصّها بقوله : « وكان شديد السّواد ، خفيف الرّوح ، شاطراً ، شجاعاً ، ربّاه النّبيُّ ﷺ ، وأحبّه كثيراً ، وهو ابنُ حاضنة النّبيِّ ﷺ أم أيمن ، وكان أبوه أبيض . وقد فرح له رسول الله ﷺ بقول مُجرّز المدلجيّ : إنّ هذه الأقدام بعضُها من بعض » ^(٣) .

* جاءت هذه القصّة الشّائقة - قصّة القائف مُجرّز المدلجيّ - في الصّحيحين ، والسّنن ، والمسند ، وكُتِب السّيرة والتّواريخ والتّراجم

(١) « مجمع الزوائد » (٩ / ٢٨٦) ، وقال أبو بكر الهيثميّ : « رواه الطّبرانيّ ، ورجاله رجال الصّحيح » وانظر : « معرفة الصّحابة » (١ / ٢١٩) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٢) ، و« المسند » (٨ / ١٩٣) ، حديث رقم : (٢١٨٨٧) .

(٣) « سير أعلام النّبلاء » (٢ / ٤٩٨) .

والطبقات وغيرها ، جاءت لتشهد لسيّدنا أسامة وتطهّر ساحته من الطّعن في نسبه ، فقد كانت الجاهليّة تقدح في نسب سيدنا أسامة - رضي الله عنه - ؛ لكونه أسودّ شديد السّواد ، وكان زيدٌ أبيض ، فلمّا قضى القائفُ بإلحاق نسبه مع اختلاف اللون ، وكانت الجاهليّة تعتمد قولَ القائف ، فرح النّبيُّ ﷺ ؛ لكونه زاجراً لهم عن الطّعن في النّسب ؛ ولكونهم يعتمدون علّم القيافة ^(١) .

(١) القيافة على قسمين : قيافة الأثر ، ويُقال لها : العيافة . وقيافة البشر . أمّا العيافة فهو علّمٌ باحثٌ عن تتبّع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في المقابلة للأثر ، وهي التي تكون في تربة حرّة يتشكّل بشكل القدم ؛ ونفع هذا العلّم واضحٌ بينٌ ؛ إذ إنّ القائف يجدُ بهذا العلّم الفارّ من النّاس ، والضّالّ من الحيوان يتتبّع آثارها وقوائمها بقوة الباصرة ، وقوة الخيال والحافظة ، حتّى يُحكى أنّ بعضهم يفرّق بين أثر قدم الشاب والشّيخ ، وقدم الرّجل والمرأة ، والبكر والثّيب .

وأمّا قيافة البشر : فهي الاستدلالُ بهيئات أعضاء الشّخصين على المشاركة والاتّحاد بينهما في النّسب والولادة في سائر أحوالهما وأخلاقهما .

وقال الأصفهانيّ رحمه الله في كتاب « الدّريّة » : « القيافة ضربان :

أحدهما : بتتبّع أثر الأقدام ، والاستدلال به على السّالكين .

والثّاني : الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبه ، وخصّ الاستدلال بالقيافة البشريّة من العرب : بنو مُدَلج من كنانة ، وبنو لُهب من الأزد ، وذلك لمناسبة طبيعيّة حاصلة فيهم لا يتعلّم » .

قال الأصفهانيّ رحمه الله : « خصّ الله تعالى بذلك العرب ؛ ليكون سبباً لارتداع نسائهم عمّا يورث ثلب نسبهم ، وخبث حسبهم ، وفساد بذورهم ، وزرورهم ، صيانة للنّسبة ، ولأجل حفظه تعالى نسبهم بذلك ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] ؛ أي : ليعرف بعضهم بعضاً بمعرفة أصله » .

وبمثل ذلك قال بعض الحكماء ؛ وحصول هذا العلّم بالحدس والتّخمين ، لا بالاستدلال واليقين ، ولا يحصل بالمدارسه والتّعليم ، فلذا لم يصنّف فيه مصنّف لا حديث ولا قديم .

* أخرج إماما أهل الحديث الشيخان : البخاري ومسلم وغيرهما بسند رفعوه إلى أمنا عائشة - رضي الله عنها - قالت : « دخل عليّ رسول الله ﷺ ذات يوم وهو مسرور فقال : « يا عائشة ! ألم تَرَي أن مُجَرَّزاً المدلجي دخل عليّ فرأى أسامة وزيداً ، وعليهما قطيفةٌ ، قد غطيا رؤوسهما ، وبدت أقدامهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » (١) .

= والقيافة محكوم بها في الشرع ، وهي إحدى الطرق الحكيمة ، وفيها حكايات لولا تواترها لحكم عليها بما يقرب من الاستحالة ، والله تعالى أعلم . « بلوغ الأرب » (٣ / ٢٦١ - ٢٦٢) بتصرف .

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الفرائض ، برقم : (٦٧٧١) ، وأيضاً برقم : (٦٧٧٠) ، ومسلم في الرضاع ، برقم : (١٥٩) ، وأحمد في « المسند » (٩ / ٣٦٤ - ٣٦٥) ، برقم : (٢٤٥٨٠) ، وأيضاً (١٠ / ٥٧) ، برقم : (٢٥٩٥٣) ، وأبو داود برقم : (٢٢٦٧) ، والنسائي (٦ / ١٨٤) ، والترمذي برقم : (٢١٢٩) ، وابن ماجه برقم : (٢٣٤٩) ، وابن سعد (٤ / ٦٣) ، وانظر : « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١١٥) ، وقال النووي : « قال العلماء : سبب سروره ﷺ أن أسامة كان لونهُ أسود ، وكان طويلاً ، خرج إلى أمه ، وكان أبوه زيداً قصيراً أبيض ، وقيل : بين البياض والسود ، وكان بعضُ المنافقين قصد المغايظة والإيذاء ، فدفع الله ذلك وله الحمد » .

قال ابن حجر رحمه الله : « القائف : هو الذي يعرف الشبه ، ويميز الأثر ، سمي بذلك ؛ لأنه يقفو الأشياء ؛ أي : يتبعها ، فكأنه مقلوب من القافي » . قال الأصمعي رحمه الله : « هو الذي يقفو الأثر ويقتافه قفواً وقيافةً ، والجمع قافة » .

ومعنى قوله ﷺ : « ألم تري » : المراد من الرؤية هنا : الإخبار أو العلم . و« مُجَرَّز المدلجي » : هو المشهور بالقيافة ، وهو من بني مدلج بن مرة ، وكانت القيافة فيهم ، وفي بني أسد ، والعرب تعترف لهم بذلك ، وليس ذلك خاصاً بهم على الصحيح . وسمي هذا القائف مُجَرَّزاً ؛ لأنه كان إذا أخذ أسيراً في الجاهلية جرّ ناصيته وأطلقه . و« بعضها من بعض » : كانوا في الجاهلية يقدحون في نسب أسامة ؛ لأنه كان أسود شديداً السواد ، وكان أبوه زيداً أبيض من القطن ، فلما قال =

* ومن العجيب في هذا الأمر أنَّ بعضَ اليمانيين قد ارتدَّ عن الإسلام من أجل سيِّدنا أسامة - رضي الله عنه - ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخر الإفاضة من أجله ، فاستخفوا بأمره .

* ذكر ابنُ سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسنده عن هشام بن عروة ، عن أبيه : « أنَّ رسولَ الله ﷺ أخر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة بن زيد ينتظره ، فجاء غلامٌ أفطسٌ أسودٌ ؛ فقال أهل اليمن : إنَّما حُبُسْنَا من أجل هذا ! فلذلك كَفَر أهلُ اليمن من أجل ذا » (١) .

* قال محمد بنُ سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « قلتُ ليزيد بنِ هارون : ما يعني بقوله كفر أهل اليمن من أجل هذا ؟

فقال : « ردَّتهم حين ارتدَّوا في زمن أبي بكر - رضي الله عنه - ، إنَّما كانت لاستخفافهم بأمر النَّبِيِّ ﷺ » (٢) .

قَدْرُهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ :

* انفرد سيِّدنا أسامة بنُ زيد - رضي الله عنهما - من بين أبناء الصَّحابة بحبِّ الحبيب المصطفى ﷺ ، واستأثر بنصيبٍ وافرٍ من قلبه الشَّريف ﷺ ؛ إذ كان شديد اللصوق به ، وهذا ليس بمستغربٍ ، فقد نشأ هذا السيِّد الحبيبُ

= القائفُ ما قال مع اختلاف اللون ، سرَّ النَّبِيُّ ﷺ بذلك ؛ لكونه كافأَ لهم عن الطَّعن فيه لاعتقادهم ذلك .

وفي الحديث عدة فوائد منها : جوازُ اضطجاع الرَّجل مع ولده في شعارٍ واحد . وقبول شهادة مَنْ يشهده قبل أن يستشهد عند عدم التَّهمة . وسرورُ الحاكم لظهور الحقِّ لأحد الخصمين عند السَّلامة من الهوى ، والله أعلم . « فتح الباري » (١٢ / ٥٨) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٣) .

(٢) المصدر السابق عينه .

في البيت النبوي ، وترعرعَ تحت ظلاله المباركة ، وعاش في رعايته ، وتربَّى في كنفه أعظمَ تربية وأقومها ؛ وكان هذا الفتى المحبوب يتمتع بالنباهة والحصافة ، والحياء والوفاء ، فصار ذا منزلة ومكانة متميزة عند رسول الله ﷺ ، برهنت عليه المواقف والأحداث التي واكبت حياته مع رسول الله ﷺ في السفر والحضر .

* فمن صور قدره العالي عند رسول الله ﷺ إردافه خلفه مرّات ، فكان ﷺ يردف وراءه الحبّ ابن الحبّ أسامة مرّات عديدة في أثناء السفر ، وفي الزيارة وعيادة المرضى ، وثبت أنّ رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة ، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عبادَةَ قبل وقعة بدر .

* جاء في الصحيح وغيره أنّ الحبيب المصطفى ﷺ أردف أسامة يوم الفتح ، وأردفه أيضاً إلى مزدلفة ، فقد دخل الصادق المصدوق ﷺ مكة المكرمة يوم الفتح ورديفه أسامة ، فأناخ في ظلّ الكعبة ، ودخلها مع بلال وأسامة وعثمان بن طلحة الحَجَبِيّ ، فأغلقها عليه ^(١) ؛ وأفاض ﷺ من عرفات وأسامة رديفه ، بل إنّه ﷺ أخر الإفاضة من عرفات بعض التأخير من أجل أسامة الذي ذهب يقضي حاجته ، وهذا من أصدق الأمثلة الحقيقية على مكانة الحبّ ابن الحبّ عند الحبيب المصطفى ﷺ .

* قد شهد عددٌ من علماء الصحابة وأبنائهم لسيدنا أسامة بهذه المنقبة الفريدة المتميزة ، ومنهم سيّد علماء العبادلة وأميرهم عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ؛ إذ قال : « جاءنا رسولُ الله ﷺ ، ورديفه أسامة بن زيد ، فسقناه من هذا النّبيذ ، فشرب ، ثمّ قال : « أحسّتم ؟ فهكذا فاصنعوا » ^(٢) .

(١) انظر مثلاً : « صحيح مسلم » ، كتاب : الحج ، حديث رقم : (١٣٢٩) ، وانظر هذا مفصلاً في « زاد المعاد » (٢ / ٢٩٦) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٤) ، ومعنى قوله « من هذا النّبيذ » : قال =

* ومن علماء الصَّحابة ^(١) وأبنائهم الفضلاء الذين شهدوا لسَيِّدنا أَسامة بالمكانة السَّامقة ، وبأنَّه رديفُ النَّبِيِّ ﷺ ، عبدُ اللَّهِ بنُ عمر - رضي الله عنهما - ، فقد أخرج ابنُ سعد رَحِمَهُمُ اللَّهُ وغيره بسند عن نافع ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما وأرضاهما - : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل مكة يوم الفتح ، ورديفه أَسامة بن زيد ، فأناخ في ظلِّ الكعبة » ^(٢) .

* وسَيِّدنا أَسامة نفسه ذكرَ بأنَّه كان رديف النَّبِيِّ ﷺ في الحجِّ ، فيما أخرجه الإمامُ أحمد عنه في مواضع ؛ ومنها ما أخرجه بسند عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أَسامة بن زيد قال : « كُنْتُ رديف رسول الله ﷺ عشية عرفة » ^(٣) .

* وفي موضع آخر أخرج الإمامُ أحمد بسندٍ عن كريب مولى عبد الله بن عَبَّاس - رضي الله عنهما - عن أَسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال : « كُنْتُ رَدِيفَ رسول الله ﷺ عشية عرفة » ^(٤) .

* وأخرج الإمامُ أحمد أيضاً بسنده عن عروة بن الرُّبَيْر ، أنَّ أَسامة بنَ

= ابنُ الأثير رَحِمَهُمُ اللَّهُ في « النِّهاية » : « تكرر في الحديث ذكر « النَّيِّد » ؛ وهو ما يُعْمَلُ من الأشربة من الثَّمَر ، والرَّيْب ، والعسل ، والحنطة ، والشَّعير ، وغير ذلك . يُقال : نبذت الثَّمَر ، والعنب ، إذا تركت عليه الماء ليصير نييذاً ، فَصُرِفَ من مفعول إلى فَعِيل . » « النِّهاية في غريب الحديث والأثر » (ص : ٨٨١) . وانظر كذلك : « كتاب الغريبين في القرآن والحديث » (٦ / ١٧٩٩) .

(١) اقرأ موسوعتنا : « علماء الصَّحابة - رضي الله عنهم - » تجد - بإذن الله - ما يسرُّ الأفئدة ؛ وينيرُ العقول ، وينعشُ الأرواح .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٤) ، و « أسد الغابة » (١ / ٨٠) ، و « زاد المعاد » (٢ / ٢٩٦) ، وغيرها .

(٣) « المسند » (٨ / ١٧٧) ، حديث رقم : (٢١٨١٩) .

(٤) « المسند » (٨ / ١٧٧) ، حديث رقم : (٢١٨٢٠) .

زيد أخبره : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، ركب حماراً على إكاف ، عليه قطيفةٌ فدَكِيَّة ، وأردف أسامةَ بنَ زيدٍ وراءه يعودُ سعدَ بنَ عبادة في بني الخزرج قبل وقعة بدر » (١) .

* ونقرأ أيضاً في « المسند » فيما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس ، عن أسامة بن زيد قال : « أفاض رسولُ الله ﷺ من عرفة وأنا رديفه ، فجعل يكبحُ راحلته حتَّى إِنَّ ذَفَرَهَا لتكاد تصيبُ قادمة الرَّحَل ، وهو يقول : « يا أَيُّهَا النَّاس ! عليكم السَّكينة والوقار ، فَإِنَّ الْبِرَّ ليس في إيضاع الإبل » (٢) .

* ومن ألوان تقدير النَّبِيِّ ﷺ لأسامة أَنَّهُ قد خلَعَ عليه حلَّةً ثمينَةً نادرةً ، فكان أسامة - رضوان الله عليه - يروحُ ويغدو بهذه الحلَّة بين أبناء الصَّحابة من المهاجرين والأنصار .

* جاء عن يزيد بن عياض أَنَّ حَكِيمَ بنَ حِزام (٣) - رضي الله عنه - أهدى للنَّبِيِّ ﷺ حلَّةً كانت لذي يزن ، اشتراها بثلاث مئة دينار - وكان حَكِيم لا يزال يومها مشركاً - فردَّها رسولُ الله ﷺ وقال : « إِنَّا لا نقبلُ من مشرك ، ولكن ؛ إِذ بَعَثْتُ بها فنحنُ نأخذها بالثَّمن » ، وفي رواية أَنَّهُ ﷺ قال : « إِنِّي لا أقبلُ هديَّةَ مشركٍ » ؛ فباعها حَكِيمٌ ، وأمر رسولُ الله ﷺ مِن اشتراها له ، فلبسها ﷺ ، وجلسَ على المنبر للجمعة ، ثمَّ نزل رسولُ الله ﷺ ، فكسا الحلَّةَ حَبَّه أسامة بن زيد ، فرآها عليه حَكِيمُ بنُ حِزام ، فقال : « بَخِ بَخِ يا أسامة ، عليك حُلَّةٌ ذي يزن ! » فقال له رسولُ الله ﷺ : « قل له : وما يمنعني ؛ وأنا

(١) « المسند » (٨ / ١٨٠) ، حديث رقم : (٢١٨٢٨) .

(٢) « المسند » (٨ / ١٨٨) ، حديث رقم : (٢١٨٦٢) ، وأيضاً برقم : (٢١٨١٥) ، و« الإيضاع » : إسرار السَّير .

(٣) اقرأ سيرة سيدنا حَكِيم بن حِزام في الباب الثالث من كتابنا « رجال من عصر النَّبوة » ففيه فوائد جَمَّة ، بإذن الله عزَّ وجلَّ .

خيرٌ منه ، وأبي خيرٌ من أبيه ؟ ! ! » (١) .

* ولم تكن هذه هي المرأة الوحيدة التي يهدي النبي ﷺ الثوبَ لأسامة ، وإنما تكرر ذلك أكثر من مرة ، فقد أهدى الصحابيُّ الجميلُ النبيلُ دحيةُ بنُ خليفةَ الكلبيِّ (٢) - رضي الله عنه - ذات مرةَ ثوباً للنبيِّ ﷺ ، فأثر به الحبيب المصطفى ﷺ أسامة بن زيد ، فكيف كان ذلك ؟

* ها نحنُ أولاء الآن في رحاب المصادر التي أخرجت عن سيّدنا أسامة هذه الحادثة ، حيث قال سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - : « كساني رسول الله ﷺ قُبْطِيَّةً كثيفةً كانت ممّا أهداها دحية الكلبيّ ، فكسوتها امرأتي ، فقال لي رسولُ الله ﷺ : « مالكَ لَمْ تَلْبَسِ القُبْطِيَّةَ ؟ » .

قلت : يا رسولَ الله ! كسوتُها امرأتي .

فقال لي رسولُ الله ﷺ : « مُرّها ، فَلْتَجْعَلْ تحتها غِلالةً ، إِنِّي أخافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عظامها » (٣) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٤) ، مع الجمع والتصرّف ، وانظر تعليق الشيخ شعيب الأرناؤوط على يزيد بن عياض راوي هذا الخبر ، وأقوال العلماء فيه ؛ فمنهم مَنْ رمى يزيد بن عياض بالكذب ، ومنهم من تركه ، ومنهم مَنْ ضعفه وأنكر حديثه .

(٢) اقرأ سيرة الصحابيِّ الجميلِ النبيلِ دحية الكلبيِّ في البابِ الرَّابِعِ من موسوعتنا : « رجال من عصر النبوة » ، فسيرته إيناس للقلوب ، وإمتاع للأسماع .

(٣) أخرجه أحمد بهذا اللفظ ، انظر : « المسند » (٨ / ١٨٤) ، برقم : (٢١٨٤٥) ، وأخرجه برقم : (٢١٨٤٧) ، وذكره ابن سعد في « الطبقات » (٤ / ٦٤ - ٦٥) ، ومعنى « القُبْطِيَّة » : القُبْطِيَّة : الثوب من ثياب مصر ، وهي ثياب رقيقةٌ بيضاء ، وكأنَّ ذلك منسوبٌ إلى القبطِ ، وهم أهل مصر . وضمَّ القاف من تغيير النَّسب ، وهذا الأمر في الثَّياب ، فأما في النَّاسِ فقبْطِي بالكسر . و« الغِلالة » : ما يُلبس تحت الثَّوب .

* وهذه الزوجة التي كَسَّاهَا أسامة القبطية ، لم تفصح المصادر عن اسمها ، ونحسبها - والله أعلم - فاطمة بنت قيس الفهرية القرشية^(١) التي أمرها رسول الله ﷺ أَنْ تزوجَ أسامة فتزوجته ، واغتبطت به ، فكيف كان هذا الأمر الجميل ؟

* أخرج الإمام مسلمٌ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن فاطمة بنت قيس - رضي الله عنها - : « أَنَّ أبا عمرو بن حفص طَلَّقَهَا البَتَّةَ وهو غائبٌ ، فأرسل إليها وكيله بشعير ، فسَخِطَتْهُ ، فقال : واللهِ مَالِكٌ علينا من شيءٍ ، فجاءت رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : « ليس لك عليه نَفَقَةٌ » ، فأمرها أَنْ تعتدَّ في بيت أمِّ شريك ، ثمَّ قال : « تلك امرأةٌ يغشاها أصحابي ، اعتدي عند ابن أمِّ مكتوم ، فإنه رجل أعمى ، تضعين ثيابك ، فإذا حَلَلْتَ فاذنيني » . قالت : فلمَّا حَلَلْتُ ذكرتُ له : أَنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيان ، وأبا جهمَ خَطَبَانِي ، فقال رسولُ الله ﷺ : « أمَّا أبو جهم فلا يَضَعُ عَصَاهُ عن عَاتِقِهِ ، وأمَّا معاوية فصعلوك لا مالَ له ، انكحي أسامة بن زيد » ، فكرهته ، ثمَّ قال : « انكحي أسامة » ، فنكحته ، فجعلَ اللهُ فيه خيراً ، واغتبطتُ »^(٢) .

(١) فاطمة بنتُ قيس بن خالد الأكبر القرشية الفهرية - رضي الله عنها - ؛ كانت من المهاجرات الأول ، لها عقلٌ وكمالٌ وجمالٌ ، وكانت امرأةً نجود ، والنَّجود النِّيلة ؛ وفي بيتها اجتمع أصحاب السُّورى لما قُتِلَ سيِّدنا عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنهم أجمعين - ، وفي بيتها خطبوا خطبهم المأثورة ، وروت عن النَّبِيِّ ﷺ أحاديث ، وروى عنها جماعة من مشاهير التابعين كالشَّعْبِيِّ ، والنَّخَعِيِّ ، وأبي سلمة بن عبد الرَّحْمَنِ ، ولها أخبار مفيدة في الأحكام المتعلقة بالزَّواج والطلاق مبثوثة في بطون المصادر . « أسد الغابة » (٦ / ٢٣٠) ، و « الاستيعاب » (٤ / ٣٧١) ، مع الجمع والتصرُّف .

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق برقم : (١٤٨٠) . ومعنى قوله « البتة » : طلقها طلاقاً صارت به مبثوثة بالثلاث . و « أم شريك » : امرأة أنصارية صالحة ، ومعنى هذا الحديث : أَنَّ الصَّحابة - رضي الله عنهم - كانوا يزورون أم شريك ، ويكثرون التَّردُّد=

إليها لصلاحها ، فرأى النَّبِيُّ ﷺ أنَّ عليَّ فاطمة بنت قيس من الاعتداد عندها حرجاً ، من حيث أنَّ يلزمها التَّحَفُّظ من نظرهم إليها ، ونظرها إليهم ، وانكشاف شيء منها ، وفي التَّحَفُّظ من هذا مع كثرة دخولهم وترددهم مشقة ظاهرة ، فأمرها بالاعتداد عند ابن أم مكتوم ؛ لأنَّه لا يبصرها ؛ ولا يتردد إلى بيته من يتردد إلى بيت أم شريك ، وحديث فاطمة بنت قيس مع ابن أم مكتوم ليس فيه إذن لها في النَّظَر إليه ، بل فيه أنَّها تأمن عنده من نظر غيرها ، وهي مأمورة بغضِّ بصرها ، فيمكنها الاحتراز عن النَّظر بلا مشقة ، بخلاف مكنتها في بيت أم شريك . وقوله « فأذنيني » : أعلميني . و« لا يضع العصا عن عاتقه » : لها معنيان ؛ أحدهما : أنَّه كثير الأسفار . والثاني : أنَّه كثير الضَّرْب للنساء . واستعماله لِلْفَظ : لا يضع العصا عن عاتقه ، وصُعْلُوك لا مال له ، جاز إطلاق هذا اللفظ عليهما مجازاً . وقوله (انكحي أسامة) : لِمَا عَلِمَهُ ﷺ من دينه ، وفضله ، وحسن طرائقه ، وكرم شمائله ، فنصحها بذلك ، فكرهته ؛ لأنَّه مولى ، ولكنه كان أسود جداً ، فكرر عليها النَّبِيُّ ﷺ الحثَّ على زواجه لما علم من مصلحتها في ذلك ، وكان كذلك .

واعلم أنَّ في حديث فاطمة بنت قيس - رضي الله عنها - فوائد كثيرة نافعة ، منها :

- ١ - جواز طلاق الغائب ، وجواز التَّوكِيل في الحقوق في القبض والدفع ، ولا نفقة للبائن .
- ٢ - جواز سماع كلام الأجنبية والأجنبي في الاستفتاء ونحوه .
- ٣ - جواز الخروج من منزل العدة للحاجة .
- ٤ - استحباب زيارة النساء الصَّالحات للرِّجال ، بحيث لا تقع خلوة محرمة ؛ لقوله ﷺ في أم شريك : « تلك امرأة يغشاها أصحابي » .
- ٥ - جواز التَّعَرُّض لخطبة المعتدة البائن بالثلاث ، وجواز الخطبة على خطبة غيره ، إذا لم يحصل للأول إجابة ؛ لأنَّها أخبرته أنَّ معاوية وأبا جهم ، وغيرهما خطبوا .
- ٦ - جواز ذكر الغائب بما فيه من العيوب التي يكرها إذا كان للتَّصحيح ، ولا يكون =

* ومن الفوائد واللطائف والظرائف التي يحملها هذا الحديث ؛ هذه الحادثة الجميلة التي ساقها (الدميري) في كتاب « حياة الحيوان » حيث قال : « كان الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ جالسا بين يدي الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ ، فجاء رجلٌ ، فقال لمالك : إني رجلٌ أبيعُ القماري ، وإني بعْتُ في يومي هذا قمرياً ، فردّه عليّ المشتري ، وقال : قمريك لا يصيحُ ، فحلفتُ له بالطلاق : إنّه لا يهدأ من الصياح ، فقال له الإمام مالك : طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها ، وكان الإمام الشافعي يومئذ ابن أربع عشرة سنة ، فقال لذلك الرجل : أيما أكثر : صياحُ قمريك ، أم سكوته ؟ فقال : لا ؛ بل صياحه ؛ فقال : لا طلاق عليك ، فعَلِمَ بذلك الإمام مالك ، فقال : يا غلامُ من أين لك هذا ؟ فقال : لأنك حدّثتني عن الزُهريّ ، عن أبي سلمة بن عبد الرّحمن ، أنّ فاطمة بنت قيس قالت : يا رسولَ الله ! إنّ أبا جهم ، ومعاويةَ خطباني ، فقال ﷺ : « أمّا معاوية فصلعوك لا مال له ، وأمّا أبو جهم فلا يضعُ عصاه عن عاتقه » وقد علم رسولُ الله ﷺ أنّ أبا جهم كان يأكلُ وينامُ ويستريحُ ، وقد قال ﷺ لا يضعُ عصاه على المجاز ، والعربُ

=

حينئذ غيبة محرمة ؛ وقبول نصيحة أهل الفضل ، والانقياد إلى إشارتهم ، وأنّ عاقبتها محمودّة .

٧ - جواز استعمال المجاز لقولِ ﷺ : « لا يضعُ العصا عن عاتقه » ، « ولا مال له » .

٨ - استحباب إرشاد الإنسان إلى مصلحته ، وإن كرهها ، وتكرار ذلك عليه لقولها : « قال : انكحي أسامة فكرهته ، ثمّ قال : انكحي أسامة ، فنكحته » .

٩ - جواز نكاح غير الكفاء إذا رضيت به الزّوجة والولي ؛ لأنّ فاطمة قرشيّة ، وأسامة مولى .

١٠ - الحرص على مصاحبة أهل التّقوى والفضل ، وإن دنت أنسابهم ، والله أعلم . « المنهاج » (ص : ١١٢٨ - ١١٣٢) بتصرّف واختصار .

تجعلُ أغلبَ الفعلَيْنِ كمداوِمتِه ، ولمّا كان صياح قمرِي هذا أكثرَ من سكوتِه ، جعلته كصياحه دائماً ، فتعجّب الإمامُ مالك رَحِمَهُ اللهُ مِنْ احتجاجِه ، وقال له : أَفَتِ فَقَدَ أَنْ لَكَ أَنْ تَفْتِيَ ، فَأَفْتِيَ مِنْ ذَلِكَ السَّنِّ « (١) .

من مآثر أسامة ومناقبه :

* كان هذا الابنُ الموفِّقُ من أفاضل الصَّحابةِ الأصفياءِ ، وممَّن حَبَّاهُم اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الحكمةَ والعقلَ ؛ وكان رسولُ اللهِ ﷺ يرى فيه معاني الفضلِ والصِّدقِ والوفاءِ ، فكان موضعَ ثقته وموضعِ استشارته إذا ما ادلَّهَمَّ أمرٌ ، أو نزلَ بالمسلمين ما يشغلهم .

* ففي غزوة بني المصطلق ، افتَرى المنافقون حديثَ الإفك على أُمِّنا الصَّديقة بنت الصِّديق الأكبر عائشة - رضي اللهُ عنها - ، وقالوا ما قالوا عن الطُّهر والعِفَّة وبيتِ الثُّبوةِ وأهلِ النَّبيِّ ﷺ ، وسَيِّدتنا عائشة غافلة عمّا يُحَاك حولها ، فلا تعلمُ شيئاً من ذلك ؛ فاستشار الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ أسامةَ بنَ زيد ، فأثنى على أُمِّنا عائشة خيراً ، وذكر كلَّ خيرٍ يذكره كلُّ ابنِ تجاه أمِّه وقال كما روت أُمُّنا عائشة - رضي اللهُ عنها - : « . . . ودعا رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب ، وأسامةَ بنَ زيد حين استلبَثَ الوحي يسألُهما ويستشيرُهما في فراقِ أهله ، فأما أسامة فأشار على رسولِ اللهِ ﷺ بالذي يعلمُ من براءةِ أهله ، وبالذي يعلمُ لهم في نفسه ، فقال أسامةُ أهْلُك ، ولا نعلمُ إلا خيراً . . . » (٢) .

* ثُمَّ أُنْزِلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - على رسولِ اللهِ ﷺ قرآناً يُثْلَى إلى يومِ القيامةِ ؛ يفصِّحُ عن براءةِ أُمِّنا عائشة من قولِ أهلِ الإفكِ وأراجيفهم ، فقال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ [النور : ١١] .

(١) انظر : « حياة الحيوان » (٢ / ٢٢٢ - ٢٢٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في المغازي من حديث طويل برقم : (٤١٤١) .

* وكان لأسامة - رضوان الله عليه - مآثر جميلة ، ولطائف نبيلة ، ومواقف جليلة ، عند الصادق المصدوق ﷺ فكان هذا الابن النبيل المحب لدى رسول الله ﷺ يشفع في بعض الأحيان لبعض الناس فيقبل منه ﷺ ذلك إلى أن أمره ألا يشفع في حد ، وهذا ما جاء عند ابن سعد رَحِمَهُ اللهُ بسند عن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : « كان أسامة يأتي النبي ﷺ في الشيء فيشفعه فيه ، فاتاه مرة في حد ، فقال : « يا أسامة ! لا تشفع في حد » (١) .

* وقصة هذا الحد بسطته كتب الحديث المعتمدة وغيرها من المصادر الموثوقة ، وملخصها : أن امرأة قرشية من بني مخزوم سرقَتْ ، والسَّرقَةُ تُوجبُ قطع يد السَّارق ، فاهتمَّ النَّاسُ بِشَأْنِهَا ، وبذلوا الوساطات لإعفائها من الحد ، وطلبوا من سيدنا أسامة - رضي الله عنه - أن يكلم رسول الله ﷺ فيما أهمَّهم ، لعله يقبل وساطة حبه ومولاه ، ترى هل تم لهؤلاء ما أرادوا ؟ وهل أسقط الحد ؟ !

* أخرج البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتاب : الحدود ، باب : كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفِعَ إلى السُّلطان ، بسنده عن عروة عن أمِّنا عائشة - رضي الله عنها - : « أن قريشاً أهتمَّتْ المرأةُ المخزوميةُ التي سرقَتْ فقالوا : مَنْ يكلم فيها رسول الله ﷺ ، ومن يجترئ عليه إلاَّ أسامة حبُّ رسول الله ﷺ ؟ فكلَّم رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟ » ثمَّ قام فخطب فقال : « يا أيُّها النَّاسُ ! إنَّما ضلَّ من كان قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضَّعيف فيهم أقاموا عليه الحدَّ ، وإيمُ الله ! لو أنَّ فاطمة بنتَ محمَّدٍ سرقَتْ لَقَطَعَ محمَّدٌ يدها » (٢) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٩) ، وانظر : « فتح الباري » (١٢ / ٩٦) ، شرح الحديث رقم : (٦٧٨٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ برقم : (٦٧٨٨) ، والحديث في مصادر كثيرة متعدّدة ، ومعنى « أهتمَّتْهم المرأة » : أجلبت إليهم همّاً وأقلقتهم . =

* ومن مآثر سيّدنا أسامة وجلائل مناقبه أنّ كبراء الصّحابة وأعيانهم كانوا يؤثرون محبّته على محبّتهم أولادهم ، امتثالاً وطاعةً للنبيّ ﷺ ، من ذلك ما أخرجه الإمام الترمذيّ رحمه الله بسنده عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر - رضي الله عنه - : « أنّه فرض لأسامة في ثلاثة آلاف وخمسمئة ، وفرض لعبد الله بن عمر في ثلاثة آلاف ، فقال عبد الله بن عمر لأبيه : لم فضّلت أسامة عليّ ، فوالله ما سبقني إلى مشهد ؟ قال : لأنّ زيداً كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك ، وكان أسامة أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك ، فأثرت

= «المخزوميّة» : اسمها : فاطمة بنت الأسود المخزوميّة . و« من يكلم فيها ... » ؛ أي : يشفع عنده فيها ألا تقطع إمّا عفواً وإمّا فداءً . و« من يجترئ » : الجرأة : هي الإقدام بإدلال ، أي : لا يتجاسر على الكلام في ذلك أحد لمهابته ، ولكن أسامة يجسر على ذلك ؛ لأنّه حبّ النبيّ ﷺ ؛ والمعنى ما يجترئ عليه إلا أسامة - رضي الله عنه - . و« أتشفع » : بهمة الاستفهام الإنكاري ؛ لأنّه ﷺ كان سبق له منع الشفاعة في الحدّ قبل ذلك . و« ضلّ » : هلك . و« لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرت » : هذا من الأمثلة التي صحّ فيها أنّ لو حرف امتناع لامتناع . وقال الليث عقب هذا الحديث : « قد أعادها الله من أن تسرق » ، وكلّ مسلم ينبغي له أن يقول هذا . وإنّما خصّ ﷺ فاطمة ابنته بالذكر ؛ لأنّها أعزّ أهله عنده ، ولأنّه لم يبق من بناته حينئذ غيرها ، فأراد المبالغة في إثبات إقامة الحدّ على كلّ مكلف وترك المحاباة في ذلك ، ولأنّ اسم السارقة وافق اسمها - رضي الله عنها - فناسب أن يضرب المثل بها .

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة منها : دخول النّساء مع الرّجال في حدّ السرقة . وفيه : قبول توبة السارق ، ومنقبة لأسامة ، وفيه : ما يدلّ على أنّ فاطمة - رضي الله عنها - عند أبيها ﷺ في أعظم المنازل ، فإنّ في القصّة إشارة إلى أنّها الغاية في ذلك عنده . وفيه : ترك المحاباة في إقامة الحدّ على منّ وجب عليه ولو كان ولداً أو قريباً أو كبير القدر ، والتّشديد في ذلك ، والإنكار على منّ رخص فيه أو تعرض للشفاعة فيمن وجب عليه الحدّ . وفيه : جواز ضرب المثل بالكبير القدر للمبالغة في الرّجر عن الفعل ، وفيه : الاعتبار بأحوال من مضى ، والله أعلم .

حَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حُبِّي « (١) .

* وفي رواية أخرى عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : « فرض عمر لأسماء أكثر ممّا فرض لي ، فقلتُ : إنّما هجرتي وهجرته واحدة ! فقال : إنّ أباه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك ، وإنّه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك » (٢) .

* وفي رواية أكثر تفصيلاً ، وأكثر وضوحاً أخرجها ابنُ سعد رَضِيَ اللهُ فِي « الطَّبَقَات » بسندٍ عن زيد بن أسلم : « أنّ عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - فضّل المهاجرين الأوّلين ، وأعطى أبناءهم دون ذلك وفضّل أسماءَ بنِ زيدٍ على عبدِ الله بنِ عمر - رضي الله عنهم - ، فقال عبدُ الله بنُ عمر : فقال لي رجلٌ : فضّل عليك أميرُ المؤمنين مَنْ ليس بأقدم منك سنّاً ، ولا أفضل منك هجرةً ، ولا شهد من المشاهد ما لم تشهد !

قال عبدُ الله : وكَلَمْتُهُ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! فضّلْتَ عليّ مَنْ ليس هو بأقدم مِنِّي سنّاً ، ولا أفضل مِنِّي هجرةً ، ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد ! قال : وَمَنْ هُوَ ؟

قلت : أسماءُ بنُ زيد .

قال : صدقتَ لَعَمْرُ اللهِ ! فعلتُ ذلك ؛ لأنّ زيدَ بنَ حارثة كان أحبّ إلى رسولِ الله ﷺ من عمر ، وأسماءُ بنِ زيد كان أحبّ إلى رسولِ الله ﷺ من

(١) « تحفة الأحوذّي » (١٠ / ٣١٨ - ٣١٩) ، حديث رقم : (٣١٠١) ، وانظر هذا الحديث في « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٤٩٩) . وقوله « فرض » : قدّر في إمارته وظيفة . و« مشهد » : أراد مشهد القتال ومعركة الكفّار . و« أثرت » : اخترت . و« حبّ » : محبوب .

(٢) « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ١٧٧) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٥٢) ، و« معرفة الصحابة » (١ / ٢١٩) .

عبد الله بن عمر ، فلذلك فعلت » (١) .

* لم يتوقف إجلالُ الفاروق لأسامة - رضي الله عنهما - عند تفضيله عن ابنه العالم العامل عبد الله ، وإنما كان سيّدنا عمر يجلس سيّدنا أسامة ، ويبتدره بالسّلام كلّما رآه ، وهذا ما أتحفتنا به المصادر قالت : « كان عمرُ بنُ الخطّاب - رضي الله عنه - إذا رأى أسامةَ بنَ زيد - رضي الله عنهما - يقول : السّلام عليك أيّها الأميرُ ورحمةُ الله ، فيقولُ أسامةُ - رضي الله عنه - : عَفَرَ اللهُ لك يا أميرَ المؤمنين ، تقولُ لي هذا ؟ فكان عمر يقول له : لا أزال أدعوك ما عشتُ الأميرَ ، ماتَ رسولُ الله ﷺ وأنتَ عليّ أميرٌ » (٢) .

* وكانت أمّ المؤمنين ميمونةُ بنت الحارث الهلاليّة (٣) - رضي الله عنها - ، تشي على أسامة وتذكر أتباعه الهدى التّبويّ في اللباس ، قال يزيدُ بنُ الأصمّ : « كان لميمونة قريبٌ ، فرأته وقد أرخى إزاره بطنه ، فلامته في ذلك ملامّةً شديدةً ، فقال لها : إنّي قد رأيتُ أسامة بن زيد يُرخي إزاره ، قالت : كذبت ، ولكن كان ذا بطنٍ ، فلعلّ إزاره كان يسترخي إلى أسفل بطنه » (٤) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٧٠) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٥٢) ، و « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠١) ، مع الجمع بينهما ؛ قال أبو نعيم الأصبهاني عن إمارة أسامة : « أمّره رسول الله ﷺ على جيش مؤتة ، وهو يومئذ ابن ثمانين سنة ، فلم يزل أكثر النَّاس يخاطبونه بالإمارة لتولية رسول الله ﷺ له ، ووفاته قبل عزله » . « معرفة الصّحابة » (١ / ٢١٩) .

(٣) اقرأ سيرة أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلاليّة في الباب الأوّل من كتابنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٤١٥ - ٤٣٢) ، ط : ٦ - ٢٠٠٥ م ، ففي سيرتها نفحات تنعش الأرواح ، وتؤدّب النفوس .

(٤) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٧١) .

« كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ؟ » :

* قال الإمام الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : « انتَفَعَ أُسَامَةُ مِنْ يَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ إِذْ يَقُولُ لَهُ : « كَيْفَ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ يَا أُسَامَةُ ؟ » فَكَفَّ يَدَهُ ، وَلَزِمَ مَنْزِلَهُ ، فَأَحْسَنَ » (١) .

* فَمَتَى كَانَ ذَلِكَ ؟ وَمَا قِصَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؟ ! كَانَ هَذَا الْأَمْرُ يَوْمَ أَنْ كَانَ سَيِّدُنَا أُسَامَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي سَرِيَّةٍ مَعَ غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ إِلَى الْحُرْقَاتِ بِنَاحِيَةِ نَجْدٍ سَنَةَ (٧ هـ) ، وَفِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ قَتَلَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُرْدَاسَ بْنَ نَهْيَكِ الْغُطَفَانِيِّ الْفَزَارِيَّ بَعْدَ أَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَلَامَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ أُسَامَةُ : « إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا مِنَ الْقَتْلِ » ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ فَتَعْلَمَ أَصَادِقُ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ ؟ » قَالَ أُسَامَةُ : « لَنْ أَقْتَلَ بَعْدَهُ مَنْ قَالَهَا ، وَنَزَلَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النِّسَاءُ : ٩٤] » (٢) .

* وَقَدْ صَاغَ هَذِهِ الْمَعَانِي ، بِقَصِيدَةٍ لَطِيفَةٍ الْمَغَانِي ، الشَّاعِرُ أَحْمَدُ مُحَرَّرٌ ، فَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِيهَا قِصَّةُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حَيْثُ قَالَ :

يَا بَنَ زَيْدٍ قَدَمَ الْعُذْرَ وَقُلْ	يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ مِنْ تَبَعِهِ
رَجُلٌ أَجْمَعَ أَنْ يَخْدَعَنِي	فَجَلَعْتُ السَّيْفَ يعلو أَخْدَعَهُ
أَعْلَنَ الْإِسْلَامَ يَحْمِي دَمَهُ	وَلَهُ بِالْكَفْرِ نَفْسٌ مُوَلَّعَهُ
قَالَ هَلْ شَقَّ الْفَتَى عَنْ قَلْبِهِ	فِيرَى السَّرَّ وَيَدْرِي مَوْضِعَهُ

(١) « سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ » (٢ / ٥٠٠ - ٥٠١) .

(٢) انْظُرْ : « تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ » (٥ / ٣٢٤ - ٣٣٧) ، وَ « أَسْبَابُ التَّزْوِلِ » لِلْوَاهِدِيِّ (ص : ١٤٧ - ١٤٨) ، وَ « أَسَدُ الْغَابَةِ » (٤ / ٤٦٥) ، وَ « السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ » (٢ / ٦٢٢) ، وَغَيْرَهَا كَثِيرٌ جَدًّا .

يا بن زيد يا له من خُلِقِ
سَاءَهُ اللَّوْمُ فَقَلْبٌ آسَفٌ
تَابَ مِمَّا سَوَّلَ الظَّنَّ لَهُ
ليس للمرء من الأمرِ سوى
وخفايا الغيبِ لله الذي
احتسرن ما الظَّنُّ إلا شبهةً
واتَّبَعَ الحقَّ فهذا حكمه

لستَ بالمؤمنِ حتَّى تدعَه
يتَّقِيَ اللهَ ونفسٌ مَوْجَعَه
وأبَاهَا سُنَّةٌ مِتَدَعَه
ما رَأَهُ ظَاهِرًا أو سَمِعَه
يَعْلَمُ السَّرَّ وَيَدْرِي مَوْقَعَه
تَقْيِهَهَا كُلُّ نَفْسٍ وَرِعَه
جاء في القرآن كيما تتبعه^(١)

* وقد تعرَّض الإمامان الجليلان : البخاريُّ ومسلمٌ لقصة أسامة بن زيد ، وساقاها في صحيحَيْهما بسندٍ عن سيِّدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال : « بعثنا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرقة ، فصَبَّحنا القومَ فهزمناهم ، ولحقَّتْ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم ، فلمَّا غَشِينَاهُ قال : لا إله إلا الله ، فكفَّ الأنصاريُّ ، فطعنته برمحي حتَّى قتلته . فلمَّا قدمنا بلغ النَّبِيُّ ﷺ فقال : « يا أسامة ! أَقْتَلْتَهُ بعدما قال لا إله إلا الله ؟ ! » .

قلتُ : كان متعوِّذاً ، فما زال يُكْرِّرُهَا حتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لم أكنُ أسلمتُ قبل ذلك اليوم »^(٢) .

* وفي رواية عند مسلم أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « أَقْتَلْتَهُ ؟ » .
قال : نعم .

قال : « فكيف تصنعُ بلا إله إلا الله إذا جاءت يومَ القيامة ؟ » .
قال : يا رسولَ الله ! استغفرُ لي .
قال : « وكيف تصنعُ بلا إله إلا الله إذا جاءت يومَ القيامة ؟ » .

(١) « ديوان مجد الإسلام » (ص : ٥٤٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في المغازي برقم : (٤٢٦٩) ، وفي الدِّيَّات برقم : (٦٨٧٢) ،
ومسلم في الإيمان برقم : (١٥٩ / ٩٦) .

قال : فجعل لا يزيده على أن يقول : « كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ » (١) .

* وفي رواية أخرى أوردها ابن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في « الطبقات » أن سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - قال : « ... فأتيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وقد أتاه البشيرُ بالفتح ، فإذا هو متهلّلٌ وجهه ، فأذناني منه ، ثمّ قال : « حدثني » .

فجعلت أحدثه ، فقلتُ : فلمّا انهزم القوم ، أدركتُ رجلاً وأهويتُ إليه بالرُّمَح ، فقال : لا إله إلا الله ، فطعنتُهُ فقتلته . فتغيّر وجه رسولِ الله ﷺ ، وقال : « ويحك يا أسامة ! فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ويحك يا أسامة ! فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ » فلم يزلْ يردّدها عليّ حتّى لوددت أني انسلختُ من كلّ عمل عملته واستقبلتُ الإسلام يومئذ جديداً ، فلا والله لا أقاتلُ أحداً قال لا إله إلا الله ، بعدما سمعتُ رسولَ الله ﷺ » (٢) .

* وفي تصوير هذه الحادثة نقرأ هذه التَّغْرِيدَةَ الموحية التي تترجمُ حال سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - ، وعزمه وقسمه بألا يقاتل أحداً نطق بالشَّهادتين ، أو أحداً يعلم أنّه مسلم ينطق بشهادة التَّوحيد :

في شهرِ رمضانَ المعظّمِ عامَ سبعٍ عن يقين
بعثَ النَّبِيُّ رجاله ليؤدّبوا المُتَطاولين
وأمرهم هو غالبٌ من أمر خير المرسلين

(١) أخرجه مسلم من حديث طويل في الإيمان برقم : (٩٧) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٩) . قال الدكتور وهبة مصطفى الزُّحيلي حفظه الله في التعلّيق على هذا الحديث العظيم : « الطّريف في هذه الحادثة أنّها أعلّمت قادة الحرب بمبدأ ثابتٍ دائم ، ألا وهو حرمةُ إراقة الدِّماء بغير حقّ ، وأنّ الخطأ الذي ارتكبه أسامة لن يتكرّر ، فقد تاب توبةً خالصةً ، وندم ندماً شديداً حرّاً في نفسه طوال عمره ، ممّا يدلّ على صدق أسامة في إطاعة أحكام الله ، وتفانيه الكامل في تنفيذ حكم شرع الله تعالى » . « أسامة بن زيد » (ص : ٥٩) سلسلة أعلام المسلمين .

هجموا عليهم فجاءة في الصُّبح كانوا باكرين
 قتلوا لمن وجدوه منهم ثمَّ ولّوا عائدين
 ساقوا مواشيهم وعادوا للمدينة سالمين
 وجَدُوا لرجل قال أشهدُ أنّي في التَّائِبين
 لكنَّ أسامةً قال هذا كاذبٌ في الكاذبين
 من سيفه قد ذاقَ طعمَ الموتِ مثل الكافرين
 قد أخبروا الهادي بهذا حيثُ عادوا آمنين
 سأل النَّبيُّ أسامةً لكنَّ سؤالَ معنّين
 من قولهِ أفلا شققتَ لِقَلْبِهِ كي تَشْتَبِينَ
 من بعد هذا قال إنّي لن أقاتل مسلمين^(١)

* ظلَّ سيّدنا أسامةُ بنُ زيد - رضي الله عنه وأرضاه - وفياً لما عاهدَ عليه
 رسول الله ﷺ بالألا يقاتلَ مُسلماً مهما كان الأمر ، قال وكيعٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « سَلِمَ من
 الفتنَةِ من المعروفين : سعدُ بنُ أبي وقَّاص ، وعبدُ الله بنُ عمر ، وأسامةُ بنُ
 زيد ، ومحمدُ بنُ مسلمة الأنصاري - رضي الله عنهم أجمعين - »^(٢) .

(١) « تغريدة السيرة النبوية » (٤ / ٢٩٢) بانتقاء .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٠) . وأورد هذا الخبر بشكل أوضح
 ابن عبد البرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في « الاستيعاب » بأنَّ عليَّ بن خشرم المروزيّ قال : « قلتُ
 لو كيع : مَنْ سَلِمَ من الفتنَةِ ؟

قال : أمّا المعروفون من أصحاب النَّبيِّ ﷺ فأربعة : سعدُ بنُ أبي وقاص ،
 وعبدُ الله بنُ عمر ، ومحمدُ بنُ مسلمة ، وأسامةُ بنُ زيد ، واختلط سائرهم .
 قال : ولم يشهدْ أمرهم من التَّابعين أربعة : الرِّبيعُ بنُ خثيم ، ومسروقُ بنُ الأجدع ،
 والأسودُ بنُ يزيد ، وأبو عبد الرَّحْمَنِ السُّلَميَّ » . « الاستيعاب » (١ / ٣٥) .
 قال أبو عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « أمّا أبو عبد الرَّحْمَنِ السُّلَميَّ فالصَّحيح عنه أنّه كان مع
 عليٍّ - رضي الله عنه - ، وأمّا مسروقٌ فذكر عنه إبراهيم النَّخعيّ أنّه ما مات حتّى تابَ
 إلى الله من تخلفه عن عليٍّ - رضي الله عنه - ، وصحَّ عن عبد الله بن عمر من وجوه أنّه =

* ونقل الدَّهْبِيُّ عن الزُّهْرِيِّ ما يدلُّ على أنَّ سيِّدنا أسامة قد سلم من فتنة حرب الجمل وصفين ، فقال : « لقي عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - أسامة بنَ زيد - رضي الله عنهما - ، فقال : ما كُنَّا نعدُّك إلا من أنفسنا يا أسامة ، فلم لا تدخل معنا ؟ »

قال : يا أبا حسن ! إنَّك والله لو أخذتَ بمشفرِ الأسد ، لأخذتُ بمشفره الآخر معك ، حتَّى نهلك جميعاً ، أو نحيا جميعاً ، فأما هذا الأمر الذي أنت فيه ، فوالله لا أدخل فيه أبداً ^(١) .

* وأخرج البخاريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في « صحيحه » هذا الخبر بسنده عن حُرْملة مولى سيِّدنا أسامة قال : « أرسلني أسامةُ إلى عليٍّ ، وقال : إنَّه سيسألك الآن ، فيقول : ما خلفَ صاحبك ؟ فقل له : يقولُ لك : لو كنتَ في شِدْقِ الأسد لأحببتُ أن أكونَ معك فيه ، ولكنَّ هذا أمرٌ لم أره . فلم يعطني شيئاً ، فذهبتُ إلى حَسَنِ وحُسَيْنِ وابنِ جعفر ، فأوقروا لي راحلتي » ^(٢) .

= قال : ما آسى على شيء كما آسى أنِّي لم أقاتل الفئة الباغية مع عليٍّ - رضي الله عنه - .

(١) « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٤ - ٥٠٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في الفتن برقم : (٧١١٠) ، وأوردَه ابن سعد في « الطبقات » (٤ / ٧١) . ومعنى قوله « أرسلني أسامة » ؛ أي : من المدينة المنورة . و« إلى عليٍّ » ؛ أي : بالكوفة . و« ما خلفَ صاحبك . . . » : هذا هيأه أسامة اعتذاراً عن تخلفه عن عليٍّ - رضي الله عنه - لعلمه أنَّ علياً كان ينكرُ عليَّ مَنْ تخلف عنه ، ولا سيما مثل أسامة الذي هو من أهل البيت ، فاعتذر بأنَّه لم يتخلف ضناً منه بنفسه عن عليٍّ ولا كراهة له ، وأنَّه لو كان في أشدَّ الأماكن هولاً ، لأحبَّ أن يكون معه فيه ، ويواسيه بنفسه ، ولكنهَّه إنَّما تخلف لأجل كراهيته في قتال المسلمين ، وهذا معنى قوله : « ولكن هذا أمرٌ لم أره » . و« شِدْقِ الأسد » : بكسر الشين ، ويجوز فتحها ؛ أي : جانب فمه من داخل ، ولكلِّ فم شِدْقان إليهما ينتهي شِقُّ الفم ، ورجلٌ أشدُّق : واسعُ الشدقين ، ويشدَّق في كلامه : إذا فتح فمه وأكثر القول فيه ، واتَّسع =

* وتشير الأخبار والآثار التي وصلت إلينا عن سيدنا أسامة - رضي الله عنه - بأنه كان مقيماً على تحري الهدي النبوي ، واتباع الأعمال المحمدية مهما كان الأمر ، وهذا ما نقله لنا مولى سيدنا أسامة بن زيد ، وذكر بأنه انطلق مع أسامة - رضي الله عنه - إلى وادي القرى ، يطلب مالاً له ، وكان يصوم يوم الاثنين والخميس ، فقلت له : « لم تصوم يوم الاثنين والخميس في السفر ، وأنت شيخ كبير قد ضعفت ورقفت ؟ » .

فقال : « إن رسول الله ﷺ كان يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس ، فسئل عن ذلك فقال : « إن أعمال الناس تُعرض يوم الاثنين ويوم الخميس » ^(١) .

= فيه ، وهو كناية عن الموافقة حتى في حالة الموت ؛ لأن الذي يفترسه الأسد بحيث يجعله في شدة في عداد من هلك ، ومع ذلك قال : لو وصلت إلى هذا المقام لأحببت أن أكون معك فيه مواسياً لك بنفسي . قال ابن بطال رحمه الله : « أرسل أسامة إلى عليّ يعتذر عن تخلفه عنه في حروبه ، ويعلمه أنه من أحب الناس إليه ، وأنه يحب مشاركته في السراء والضراء ، إلا أنه لا يرى قتال المسلم ، والسبب في ذلك أنه لما قتل ذلك الرجل ، ولأمره النبي ﷺ بسبب ذلك ، ألى على نفسه ألا يقاتل مسلماً ، فذلك سبب تخلفه عن عليّ في الجمل وصفين » . وقال ابن التين رحمه الله : « إنما منع علياً أن يعطي رسول أسامة شيئاً ؛ لأنه لعله سأله شيئاً من مال الله ، فلم ير أن يعطيه لتخلفه عن القتال معه ، وأعطاه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ؛ لأنهم كانوا يرونه واحداً منهم ؛ لأن النبي ﷺ كان يجلسه على فخذه ، وكان يجلس الحسن على الفخذ الآخر ويقول : « اللهم إني أحبهما » . و« فلم يعطني شيئاً » : هذه الفاء هي الفصيحة ، والتقدير : فذهبت إلى عليّ ، فبلغته ذلك ، فلم يعطني شيئاً . و« فذهبت إلى حسن وحسين وابن جعفر فأوفروا لي راحتي » ؛ أي : حملوا لي على راحتي ما أطاق حمله ، ولم يعين في هذه الرواية جنس ما أعطوه ولا نوعه . وابن جعفر : هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وكأنهم لم يعلموا أن علياً لم يعطه شيئاً عوضه من أموالهم من ثياب ونحوها قدر ما تحمله راحته التي هو ركبها . والله تعالى أعلم .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨ / ١٧٤) ، برقم : (٢١٨٠٣) ، وكذلك أخرجه =

* وهذا الهدى النبوي ، والأثر المحمدي ، يرويه سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - للنّاس ليتعلّموا ما كانت عليه حياة الحبيب المصطفى ﷺ أفضل خلق الله على الإطلاق ، وبالتالي ينهجون على طريقه الموصول إلى الجنّة ومرضاة الله - عزّ وجلّ - . فقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله بسند رفعه إلى أبي سعيد المقبري ، قال : حدّثني أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال : « كان رسول الله ﷺ يصومُ الأيام يسرّد حتّى يُقال : لا يُفطر ، ويفطرُ الأيام حتّى لا يكادُ أن يصوم إلا يومين من الجمعة إن كانا في صيامه ، وإلا صامهما ، ولم يكن يصومُ في شهرٍ من الشُّهور ما يصوم من شعبان .

فقلتُ : يا رسول الله ! إنك تصومُ لا تكادُ أن تفطر ، وتفطر حتّى لا تكادُ أن تصومَ إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما .

قال : « أي يومين ؟ » .

قلت : يوم الاثنين ، ويوم الخميس .

قال : « ذاك يومان تُعرض فيهما الأعمال على ربّ العالمين ، وأحبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم » .

قلت : ولم أرك تصومُ من شهر من الشُّهور ما تصوم من شعبان ؟

قال : « ذاك شهر يغفلُ النَّاس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر تُرفعُ فيه الأعمال إلى ربّ العالمين ، فأحبُّ أن يُرفعَ عملي وأنا صائم » ^(١) .

أَخْلَاقُهُ وَعِفَّةُ لِسَانِهِ :

* هذا الفتى اللطيفُ المحبوبُ ربيبُ بيت النبوة ، النَّاهد في

= برقم : (٢١٨٤٠ ، و ٢١٨٥٠ ، و ٢١٨٧٥) ، وابن سعد (٤ / ٧١) ، وأبو داود

في الصّوم برقم : (٢٤٣٦) ، مع الجمع بينها والتّصرّف اليسير .

(١) أخرجه أحمد (٨ / ١٧٥ - ١٧٦) ، برقم : (٢١٨١٢) .

رياضه ، فلا عجب أن يكون ذا أخلاق رفيعة ، وآداب بديعة ، تنسّمها من بيت الوحي ، فتسّم ذروة الفضل والفضيلة ، وما ظنك بمن أحبه الحبيب المصطفى ﷺ ورباه وأدبه وهذبه ؟ !

* شهد لسيدنا أسامة بالفضل كل من خالطه من قريب أو بعيد ، وعرف أنه قد تميّز بمكارم ومحاسن جمعت حسن السلوك ، وعفة اللسان ، والبعد عن رديء الكلام وسفاسف الأمور .

* كان هذا الابن الكريم يفرغ إلى الهدوء والصمت في مواطن القول القبيح وأوقاته ، ويتعدّ عمّا يعكّر صفوه ، ثمّ يعالج المواقف بحكمة نبوية ، ودليل محمّدي ، وكلمة طيبة ، فيصمت المتكلّم المتفحّش وإن كان أميراً ذا سطوة ونفوذ .

* وهذا ما حدث أكثر من مرّة مع هذا الابن السيّد الأمير الحبيب المحبوب ، فقد أفحم مرّة مروان بن الحكم في المسجد النبوي في قصّة ساقتها المصادر بسند إلى عبيد الله بن عبد الله قال : « رأيت أسامة بن زيد يصليّ عند قبر رسول الله ﷺ ، فخرج مروان بن الحكم ، فقال : تُصليّ إلى قبره ؟ فقال : إنني أحبه .

فقال له قولاً قبيحاً ، ثمّ أدبر ، فانصرف أسامة ، فقال : يا مروان ! إنك آذيتني ، وإنني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إنَّ الله يُبغضُ الفاحشَ المتفحّش » ، وإنك فاحشٌ متفحّش » (١) .

* وذكرت بعض المصادر ، أنّ أسامة ردّ مرّة على من هو أكبر وأعلى شأنًا من مروان بن الحكم ، وكان جريئاً في الحقّ ، لا يرضى أن يُضامَ جانبه ،

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » برقم (٥٦٦٥) ، والطبراني برقم : (٤٠٥) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣٥) ، وغيرها .

أو جانب أحد يخصه ، وهذا ما حصل له مع معاوية بن أبي سفيان فيما ذكره
الذهبي رحمه الله قال : « قدم أسامة على معاوية ، فأجلسه معه ، وألففه ، فمدَّ
رجله ، فقال معاوية : يرحمُ الله أمَّ أيمن ، كأنِّي أنظرُ إلى ظنوب ساقها
بمكة ، كأنَّه ظنوب نعامة خرجاء .

فقال : فعل الله بك يا معاوية ، هي والله خيرُ منك .

قال معاوية : اللهمَّ غفراً !! ؟ ! » (١) .

(١) انظر : « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٧) . أقول : « في النفس شيءٌ من هذه
القصة والله أعلم » وقوله « ظنوب » : العظم الظاهر وهو الساق ، أو حرف عظم
الساق من الأمام . و« خرجاء » : فيها بياض وسواد .

أقول : « ظلت مكانة السيِّدة الفاضلة أمَّ أيمن أمَّ أسامة - رضي الله عنها -
معروفة في الآفاق والأمصار ؛ لأنَّ لها مكانةً بديعةً رفيعةً في قلب الحبيب
المصطفى ﷺ ، وظلَّ المحبِّون يحتفظون بهذه المكانة احتراماً لرسول الله ﷺ ، بل
إنَّ الولاة وذوي الشأن كانوا يعاقبون من ينال من مكانتها عقاباً شديداً ، وهذه القصة
حدثت في المدينة المنورة في عهد الخليفة الرَّاهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

أورد هذه القصة المفيدة ابنُ سعد ، وابنُ عساكر ، فقالا : « خاصمَ ابنُ أبي
الفرات مولى أسامة بن زيد ، الحسن بن أسامة ، ونازعه ، فقال له ابنُ أبي الفرات
في كلامه : يا بن بركة ، يريد أمَّ أيمن . فقال الحسنُ : اشهدوا ورفعهُ إلى
أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزم ، وهو يومئذ قاضي المدينة ، أو والٍ لعمر بن
عبد العزيز ، وقصَّ عليه قصَّته ، فقال أبو بكر لابن أبي الفرات : ما أردتَ إلى قولك
يا بن بركة ؟

قال : سمَّيتها باسمها .

قال أبو بكر : إنَّما أردتَ بهذا التَّصغير بها ، وحالها من الإسلام حالها ،
ورسول الله ﷺ يقول لها : « يا أمَّه ، ويا أمَّ أيمن » ، لا أقالني الله إنَّ أقلَّك ،
فضربه سبعين سوطاً » . « طبقات ابن سعد » (٨ / ٢٢٦) ، و« مختصر تاريخ
دمشق » (٦ / ٣٢٠) .

* وتحفظُ المصادرُ بين ثناياها وأردانها بأنَّ سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - كان شديدَ البرِّ بأمّه ، كثيرَ الاهتمام بشؤونها ، فهو يدركُ تمام الإدراك ما لبرِّ الوالدين من عظيم الأجر ، وكريم المثوبة ؛ وقد ساق التّابعيُّ الجليلُ محمّدُ بنُ سيرين رَحِمَهُ اللهُ قصّةً لطيفةً عن برِّ أسامة بأمّه ، فقال : « بَلَغَتِ النَّخْلَةُ على عهد عثمان - رضي الله عنه - ألف درهم ، فعَمَدُ أسامةُ إلى نخلةٍ ، فنَقَرَهَا ، وأَخْرَجَ جُمَارَهَا وأطعمها أمّه ، فقالوا له : ما يحملك على هذا ، وأنت ترى النَّخْلَةَ قد بلغت ألف درهم ؟ »

قال : إِنَّ أُمِّي سَأَلَتْنِي ، وَلَا تَسْأَلْنِي شَيْئاً أَقْدُرُ عَلَيْهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهَا « (١) .

* ولا ريب في أنَّ العقلاء وذوي الفطن وأهل التّقوى هم الذين يدركون ما للوالدين من فضل عظيم ، ومكانة كبرى ، وهذا الأمر جاء مفصّلاً في القرآن الكريم ، والسُّنّة المطهّرة .

أقول : « هذا الرَّجُلُ ضربه الوالي سبعين سوطاً لكلمة في حقِّ أم أيمن - رضي الله عنها - فما حكم من يسبُّ ويتقصّ أعلام الصّحابة وأعيانهم وكبراءهم جهاراً نهاراً ، ويشتم هؤلاء السّادة بأقبح الشّتم بآلاف الكلمات ، وعشرات المجلّدات ؟ » نعوذ بالله من هذا الأمر ، ونسأله - عزَّ وجلَّ - أنْ يحفظَ ألسنتنا وأعمالنا من الرّلل ، والخلل ، والخلط .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٧٠ - ٧١) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٥٥) . وقوله « جُمَارُهَا » : الجُمّارة : هي الجزء الأبيض الغضُّ من قلب النّخلة ، أو ما يحيط بالبرعمة الرّئيسيّة الكبيرة ، وهي حلوة المذاق ، تخلو من الألياف ، وقد يبلغُ وزن بعضها « كيلو غرام » أو أكثر ، حسب حجم رأس النّخلة ، وهي تُؤكَلُ مباشرةً ، أو يُصنع منها مأكولات متنوّعة .

وأودُّ أن أذكّرَ ههنا بأنَّ أم أيمن قد توفيت بعد رسول الله ﷺ بخمسة أشهر . « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٣٥٨) . وقال آخرون توفيت أم أيمن في أوّل خلافة عثمان . « طبقات ابن سعد » (٨ / ٢٢٦) .

أَحَادِيثُ وَأَحْدَاثُ مِنَ السَّيِّرةِ :

* هذا الفتى النَّبِيُّ النَّبِيلُ سَيِّدُنَا أُسَامَةُ مَمَّنْ عَاصَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وعاش في كنفِهِ ، وشاهدَ الوحي ، وعلم كثيراً من أحداث السَّيِّرة النَّبَوِيَّةِ ^(١) ، وخصوصاً في العهد المدني ، فرواها للأُمَّة ، وعَرَفَ التَّابِعِينَ وشِدَاةَ العِلْمِ والمعرفة بكثير من الأمور التي عاينها ، فاستفاد منها العلماء ، ومحَبُّو العِلْمِ في كلِّ عصرٍ ومصر .

* ومن ذلك ما شاهده أُسَامَةُ من أذى الكُفَّارِ لرسولِ اللَّهِ ﷺ ، وكيف كان المنافقون وأهلُ الكتاب والمُشركون يُسمعون الحبيبَ المصطفى ﷺ وصحبه الأذى الكثير ، وكيف كانوا يؤذونهم بكلِّ سبيل .

* فقد جاء في الصَّحِيح وغيره بسندٍ عن الزُّهريِّ عن عروة بن الزُّبير أنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ - رضي الله عنهما - أخبره : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَذَكِيَّةٌ ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَرَآهُ ؛ يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُشْرِكِينَ عُبْدَةُ الْأَوْثَانِ ، وَالْيَهُودَ ، وَالْمُسْلِمِينَ ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ ، خَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : لَا تَغْبَرُوا عَلَيْنَا ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ وَقَفَ فَتَرَلَّ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ : أَيُّهَا الْمَرْءُ ! إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِينَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا ، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصِصْ عَلَيْهِ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا ، فَإِنَّا نَحِبُّ ذَلِكَ .

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على الأخبار التي وردت في كتب الحديث النبوي الشريف ، وبعض المصادر الأخرى التي استقت معلوماتها من كتب الحديث المعتمدة .

فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتَّى كادوا يتشاورون ، فلم يزل النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سكنوا ثمَّ ركب النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ ، فسار حتَّى دخل على سعد بن عُبادة ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ : « يا سعدُ أَلَمْ تسمعَ ما قال أبو حُبَاب - يريد عبد الله بن أبيي - قال كذا وكذا » .

قال سعد بن عُبادة : يا رسولَ الله اعفُ عنه ، واصفحْ عنه ، فوالذي أنزلَ عليك الكتابَ ، لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أنزلَ عليك ، ولقد اصطَلَحَ أهلُ هذه البُحيرة على أن يتوجَّوه فيعصبونه بالعصاة ، فلمَّا أبى اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاك اللهُ شَرِقَ بذلك فلذلك فَعَلَ به ما رأيت .

فعفا عنه رسولُ الله ﷺ . وكان النَّبِيُّ ﷺ وأصحابه يَعْفُونَ عن المشرَكين ، وأهل الكتاب كما أمرهم اللهُ ، ويصطبرون على الأذى ، قال اللهُ - عزَّ وجلَّ - : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، وقال اللهُ : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ [البقرة : ١٠٩] إلى آخر الآية .

وكان النَّبِيُّ ﷺ يتأوَّل العفو ما أمره اللهُ به ، حتَّى أذن اللهُ فيهم ، فلمَّا غزا رسولُ الله ﷺ بدرًا فقتل اللهُ به صناديدَ كُفَّار قريش ، قال ابن أبيي ابن سلول ومَن معه من المشرَكين وعبداء الأوثان : هذا أمر قد توجَّه . فبايعوا رسولَ الله ﷺ على الإسلام ، فأسلموا ^(١) .

(١) أخرجه البخاريُّ في التَّفْسير برقم : (٤٥٦٦) واللفظ له ، ومسلم في الجهاد والسَّير برقم : (١٧٩٨) ، وأحمد في « المسند » (٨ / ١٧٩) ، برقم : (٢١٨٢٦) ، والبيهقيُّ في « الدَّلَّائل » (٢ / ٥٧٦ - ٥٧٨) ، وانظر : « السَّيرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيحة » (ص : ٢١٠ - ٢١١) ، وغيرها من كتب السَّيرة والتَّراجم والطَّبقات . ومعنى قوله « قطيفة فدَكِيَّة » : كساء غليظ منسوبٌ إلى فَدَك بفتح الفاء والدَّال ، وهي بلدٌ مشهور على مرحلتين من المدينة المنوَّرة . و« وأردف أسامة » : فيه جواز الإرداف على الحمار وغيره من الدَّواب إذا كان مطيقاً . و« يعود سعد بن =

* ويضيف سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - رصيذاً مفيداً لأحداث السيرة النبويّة ، فيقول : « دخلتُ مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبيّ ابن سلول في مرضه نعوّده ، فقال له رسول الله ﷺ : « قد كنتُ أنهاك عن حبّ يهود » .

فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة ، فمات » (١) .

= عبادَة : فيه عيادةُ الكبير بعض أتباعه في داره ، وفيه جواز العيادة راكباً ، وفيه أن ركوب الحمار ليس بنقص في حقّ الكبار . و« في بني الحارث بن الخزرج » ؛ أي : في منازل بني الحارث وهم قوم سعد بن عبادَة - رضي الله عنه - . و« عجاجة الدّابة » : ما ارتفع من غبار حوافرها . و« خَمَرٌ » : غطّى أنفه . و« فسَلَّم رسول الله ﷺ » : يؤخذ منه جواز السّلام على المسلمين إذا كان معهم كفّار ، وينوي حينئذ بالسّلام المسلمين ، ويحتمل أن يكون الذي سلّم به عليهم صيغة عموم فيها تخصيص السّلام على من اتّبع الهدى . قال النّوويّ رَحِمَهُ اللهُ : « فيه جواز الابتداء بالسّلام على قوم فيهم مسلمون وكفّار ، وهذا مُجمَع عليه » . و« إنّه لا أحسن ممّا تقول » : يقصد هذا الخبيث ابن سلول : أحسن من هذا أن تقعد في بيتك ولا تأتينا . و« يتشاورون » : يتواثبون . و« فلم يزل يخفّضهم » : يسكّنهم ويسهّل الأمرَ بينهم حتّى سكنوا ومالوا إلى الهدوء . و« أهل هذه البحيرة » : هذا اللفظ يُطلق على القرية ، وعلى البلد ، والمراد بها ههنا : مدينة النّبيّ ﷺ ، ونقل ياقوت أنّ البحيرة من أسماء المدينة النّبويّة . و« أن يتوجّه فيعصبونه بالعصاة » : يعني يرئسوه عليهم ويسودّوه ، وسمّي الرّئيس معصباً لما يعصب برأسه من الأمور ، والمعنى : اتّفقوا على أن يجعلوه ملكهم ، وكان من عادتهم إذا ملكوا إنساناً أن يتوجّه ويعصبوا رأسه بعصاة أو تاج أو نحو ذلك . و« شَرِقَ بذلك » : غصّ ، وهو كناية عن الحسد ، ومعناه : حسد ابن سلول النّبيّ ﷺ وكان ذلك بسبب نفاقه ، عافانا الله الكريم . و« حتّى أذن الله فيهم » ؛ أي : فترك العفو عنهم . و« صناديد » : جمع صنديد : الكبير في قومه . و« هذا أمر قد توجّه » ؛ أي : ظهر وجهه . والله أعلم .

(١) للقصة أصل في « مسند الإمام أحمد » (٨ / ١٧٧) ، حديث رقم : (٢١٨١٧) .

* وفي مضممار الرَّحمة النَّبَوِيَّةِ ، ينقلُ لنا سيِّدنا أسامة - رضي الله عنه - هذا المشهد التَّربويَّ الحكيَم من السَّيرة النَّبَوِيَّةِ ، ومن البيت الذي أذهب الله عنه الرَّجْسَ وطَهَّره تطهيراً ، فلنقرأ هذا المشهد الذي يرويه سيِّدنا أسامة - رضي الله عنه - فيقول ما مفاده : « أرسلتُ إلى رسولِ الله ﷺ بعضُ بناتِهِ : أنَّ صبيّاً لها ابناً أو ابنة قد احتَضِرَتْ ، فأشهدنا ، أو فأتنا ؛ فأرسل إليها يُقرئُ السَّلام ، ويقول : « إنَّ لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكلُّ عنده بأجلٍ مسمًى ، فَلتَصْبِرْ وَلتَحْتَسِبْ » ، فأرسلتُ إليه تقسم عليه أن يأتي ، فقام ﷺ ، وقمنا ، وقام معه سعدُ بنُ عبادَةَ ، ومعاذُ بنُ جبل ، وأبيُّ بنُ كعب ، وزيدُ بنُ ثابت ورجالٌ ، فرفع الصَّبيُّ إلى رسولِ الله ﷺ ، ونفسه تققعق ، ففاضتُ عينا رسولِ الله ﷺ ، فقال له سعدُ بنُ عبادَةَ : يا رسولَ الله ! ما هذا ؟ فقال الحبيبُ المصطفى ﷺ : « هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده ، وإنَّما يرحمُ الله من عباده الرَّحماء » (١) .

(١) لهذه القِصَّة أصل في الصَّحيح وغيره ، فقد أخرجها الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في مواضع من « صحيحه » ، أوَّلها في الجنائز برقم : (١٢٨٤) ، وكذلك برقم : (٥٦٥٥ ، و ٦٦٠٢ ، و ٦٦٥٥ ، و ٧٣٧٧ ، و ٧٤٤٨) ، وهي في « المسند » أيضاً (٨ / ١٨١) ، حديث رقم : (٢١٨٣٥) ، وأيضاً برقم : (٢١٨٣٨ ، و ٢١٨٤٨ ، و ٢١٨٥٨) ، ومعنى قوله « مسمًى » : معلوم مقدر أو نحو ذلك . و« لتحتسب » : تنوي بصبرها طلب الثَّواب من ربِّها ، ليحسب لها ذلك من عملها الصَّالح . و« تققعق » : القعقة : حكاية صوت الشَّيء اليابس إذا حرَّك . و« هذه رحمة » ؛ أي : الدَّمة أثر رحمة ؛ أي : أنَّ الذي يفيض من الدَّمع من حزن القلب بغير عمد من صاحبه ولا استدعاء لا مؤاخذه عليه ، وإنَّما المنهي عنه الجزع وعدم الصَّبر . و« الرَّحماء » : جمع رحيم ، وهو من صيغ المبالغة ومقتضاه أنَّ رحمة الله تختصُّ بمن أنصف بالرحمة وتحقق بها بخلاف من فيه أدنى رحمة . وفي هذه القِصَّة المفيدة التَّربويَّة فوائد لا تكاد تحصر ؛ ومنها :

١ - جواز استحضار ذوي الفضل للمحتضر لرجاء بركتهم ودعائهم ، وجواز القسم

=

عليهم لذلك .

* ولَسَيِّدُنَا أَسَامَةُ - رضي الله عنه - قصص من السَّيِّرة أعطر من المسك الأذفر ، وأرق من نسيم السَّحَر ، ولو رحنا نستقصي معه الحديث لوجدتنا في حديقة غناء ذات أفنان ، نمتع خلالها الأسماع بأعذب الألحان ، وننزه الأبصار بأجمل خلق الرِّحمن ، وقد اقتطفنا في هذه الفقرة ما يروي الظَّمآن .

مجاهدٌ موفقٌ وقائدٌ مُظفرٌ :

* إِنَّ المتأملَ في سير أبناء الصَّحابة الكرام ، وسير الصَّحابة في مختلف ألوانهم وأجناسهم ، يجد أنَّ حبيبنا وسَيِّدنا رسولَ الله ﷺ قد اصطفَى في حياته الشَّريفة أبناء وآباء من الموالى ، ورفعهم إلى أعزِّ مكانة وأسماءها ، فقد أقرَّ جماعة من الموالى على حكم العرب لأهليتهم ومقدرتهم القيادية ، وحصافتهم ، فزيدُ بنُ حارثة اشترته أمنا خديجة ، ثمَّ أهدته لرسولِ الله ﷺ فأعتقه وتبنَّاه ، فكان القائد الأوَّل والأعلى في سرِّيَّة مؤتة ، كما كان زيدٌ - رضي الله عنه - على رأس أعمال كثيرة قبلها ، وأسامةُ ابنه هو القائد الذي

-
- = ٢ - جوازُ المشي إلى التَّعزية والعيادة بغير إذن بخلاف الوليمة .
- ٣ - استحبابُ إبرار القَسَم ، وأمرُ صاحب المصيبة بالصَّبْر قبل وقوع الموت ، ليقع وهو مستشعر بالرِّضا مقاوماً للحزن بالصَّبْر .
- ٤ - إخبارُ مَنْ يُستدعى بالأمر الذي يُستدعى من أجله .
- ٥ - تقديمُ السَّلام على الكلام .
- ٦ - عيادةُ المريض ولو كان مفضولاً أو صبيّاً صغيراً .
- ٧ - لا ينبغي لأهل الفضل أن يقطعوا النَّاس عن فضلهم .
- ٨ - حسنُ الأدب في السُّؤال لتقديمه قوله « يا رسولَ الله » على الاستفهام .
- ٩ - التَّرجيبُ في الشَّفقة على خلقِ الله والرَّحمة لهم ، والتَّرهيب من قساوة القلب وجمود العين .
- ١٠ - جوازُ البكاء من غير نوح ونحوه . والله تعالى أعلم .

عَقَدَ له الحبيب المصطفى ﷺ قبيل وفاته لواء جيشٍ يضمُّ أكابر الصَّحابة من المهاجرين والأنصار ، ومن بينهم شيخا الصَّحابة وأعيانهم ؛ العمران الأكبران والوزيران الصَّاحبان : أبو بكر ، وعمر - عليهما سحائب الرِّضوان - ، كما كان سلمان الفارسيّ ، وصهيب الرُّوميّ ، وبلال الحبشيّ من خاصّة الصَّحابة المقرّبين إلى حبيبنا رسول الله ﷺ ، وأثبتوا جدارتهم في المهمّات التي أوكلت إليهم ، ونجحوا فيها نجاحاً باهراً ملفتاً للأنظار .

* ولم يكن الصَّحابة يتفاوتون عند رسول الله ﷺ ؛ لأنَّهم من العرب ، أو من عُليا القبائل المشهورة في الجزيرة العربيّة ، وإنَّما كانوا يتفاضلون لديه من خلال أعمالهم وانتمائهم الصَّحيح للإسلام ، وكان من أصحاب مشورة النَّبي ﷺ شباب متألقون من أبناء الصَّحابة ، وقد جعلهم يتصدّرون المجالس والضُّفوف كمالُ إيمانهم وحسن أحدوثتهم ، وجيل بلائهم في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - . وكانت سيرة الصَّادق المصدوق ﷺ هذه بعض ما أمر الله - عزَّ وجلَّ - به في القرآن الكريم ، حيث فاضلَ جلَّ شأنه بين النَّاس بالتَّقوى ، وجعل جزاءهم رهنأ بعملهم ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بهذا العمل وهذه التَّقوى .

* ونحنُ نعلمُ أنَّ سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - ربيبُ بيتِ النُّبوّة ، وفيه تلقى الإعدادَ لإعلاء كلمة الله ؛ والجهد في سبيله ، وتطلّع إلى لقاء الكفّار وهو لا يزال فتى غصّ الإهاب لم يشتدَّ عوده ، أو تصلبَ قناته ؛ فكان هذا الابن مثلاً يُحتذى به في الشَّجاعة والإقدام ، وكذلك في الإخلاص لإعلاء شأن الإسلام سواء أكان قائداً موفّقاً مظفّراً ، أم جندياً من جنود المدرسة المحمّديّة الباسلة .

* وينطقُ تاريخُ سيّدنا أسامة الجهاديّ بكلمات تشعُّ نوراً ، ومواقف ترشحُ بالفضل عمّا قدّمه من مآثر جليلة في ساحات الجلال ؛ وميادين الجهاد .

* ففي غزوة أُحُدٍ لم يسمح له الحبيب المصطفى ﷺ أن يخوضَ غمار المعركة ؛ لأنَّه لم يبلغ سنَّ الجندیّة والقتال ، فهو لا يزال فتى يفعه كزهره غافية

في جفن وردة مفتوحة في يوم من أيام الربيع الأسر السّاحر ، فردّه ﷺ مع ثلثة من أبناء الصّحابة وفتيانهم ، فتألّموا ، ورجعوا وأعينهم تفيض من الدّمع حزناً ؛ لأنّهم لم يجاهدوا الكفّار والمشرّكين ، ولم يغلظوا عليهم ويذيقوهم حرّ السيّوف ، ولسّعات الرّماح ، ووخر السّهام .

* بيد أنّ حُزْنَ أسامة - رضي الله عنه - وتصدّع قلبه قد رآب يوم غزوة الأحزاب ؛ إذ جعل يرفع قامته لبيدو طويلاً ، وإذ ذاك يجيزه الحبيب المصطفى ﷺ ، فكان حظّه عظيماً يومها ؛ إذ رُقّ له رسولُ الله ﷺ ، وأجازه ، وأدخله في سلكِ المجاهدين ، وعمره يومها قرابة خمس عشرة سنة .

* ومن هذه الحادثة استنبط العلماء أنّ سنّ التّكليف بالتكاليف الشرعيّة هو السنّ الذي أجازه النّبِيُّ ﷺ لأسامة وأبناء الصّحابة ، وهو خمسة عشر عاماً . وقد حضر سيّدنا أسامة المغازي النّبويّة بمعيّة سيّدنا رسول الله ﷺ منذ غزوة الأحزاب إلى حنين ، ما عدا سرّيّة مؤتة ، فقد حضرها جندياً تحت إمرة أبيه زيد بن حارثة - رضي الله عنه - ، واستشهد زيد يوم مؤتة وصارت الرّاية يومها إلى سيّدنا سيف الله خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ، فقال النّبِيُّ ﷺ حين بلغه أنّ الرّاية صارت إلى سيّدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - : « فهلاًّ إلى رجلٍ قُتِلَ أبوه » ^(١) يعني أسامة بن زيد - رضي الله عنهما وأرضاهما ، وحشرنا في معيتهما - . ورجع أسامة مع جيش مؤتة ومجاهديه إلى المدينة راكباً جواد أبيه الذي حظي بالشّهادة عليه .

* تابع سيّدنا أسامة الجهاد تحت الرّاية المحمّديّة ، ولمّا كان يوم حنين كان سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - من رجال أهل البيت ^(٢) الذين ثبتوا يومها مع

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٥٢) ، و « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٢) .

(٢) قلنا في كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » ما رسمه ونصّه : « وثبت معه ﷺ يومها من أهل البيت : عمّه العباس ، وابنه الفضل ، وعليّ بن أبي طالب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعه بن الحارث ، كما ثبت معه =

حبیبنا رسول اللہ ﷺ ، ومنہم : سیّدنا العباس بن عبد المطلب ، وابنه قثم ، وابنه الفضل ، وسیّدنا علی بن ابي طالب ، وأبو سفیان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر ، وكذلك سیّدنا الصّحابة الأخیار : أبو بكر وعمر - رضي الله عنهم أجمعين - .

* وقبيل وفاة النّبي ﷺ جعل أسامة بن زيد أميراً على جيش كبير فيه أعيان النّاس وخيارهم ، وأمره أن يغيّر على مؤتة وأبني من مشارف الشّام ، فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن سيّدنا أسامة بن زيد قال : « بعثني رسول الله ﷺ إلى قرية يقال لها : أبني ، فقال : « ائتها صباحاً ثمّ حرّق » ^(١) .

* وأمر رسول الله ﷺ النّاس بالتهيؤ لغزو الرّوم ، ثمّ دعا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - ، فقال له : « سِرْ إلى موضع مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغز صباحاً على أهل أبني ، وحرّق عليهم ، وأسرع السّير تسبق الأخبار ، فإن ظفرك الله ، فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون والطلائع أمامك » ^(٢) .

* ثمّ حمّ رسول الله ﷺ وصديع ، ولكنه عقد لأسامة لواء بيده الشّريفة ، ثمّ قال : « اغز بسم الله ، في سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله » . فخرج سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بريدة بن الحصيب

= أبو بكر ، وعمر ، وأيمن بن عبّيد - ابن أم أيمن - وأسامة بن زيد ، وجعفر بن أبي سفیان بن الحارث ، وهؤلاء عشرة رجال ، ولهذا قال سيّدنا العباس - رضي الله عنه - قصيدة عينية منها :

نصّرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه وأفسّوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه بما سّاه في الله لا يتوجّع
« رجال أهل البيت » (ص : ١٧٩) .

(١) « المسند » (٨ / ١٨٤) ، حديث رقم : (٢١٨٤٤) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٢ / ١٩٠) بتصرّف يسير جداً .

الأسلميّ^(١) - رضي الله عنه - ، وعسكرَ بالجرف ، فلم يبقَ أحدٌ من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا أخرج في هذه الغزوة ، فيهم أبو بكر ، وعمرُ ، وأبو عبيدة ، وسعدُ بن أبي وقاص ، وسعيدُ بن زيد ، وقتادةُ بن النعمان ، وسلمةُ بن أسلم وغيرهم ، فتكلّم قومٌ وقالوا : « يستعملُ هذا الغلام على المهاجرين الأولين ! ؟ ! » فغضب رسولُ الله ﷺ غضباً شديداً ، وخرجَ وقد عصبَ على رأسه عصابة وعليه قطيفة ، فصعدَ المنبر ، فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال : « أمّا بعد : أيُّها النَّاس ! فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة ، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله ! وايم الله ! إن كان للإمارة لخليقاً ، وإنَّ ابنه من بعده لخليقٌ للإمارة ، وإن كان لمن أحبَّ النَّاس إليَّ ، وإنَّهما لمخيلان لكلِّ خير ، واستوصوا به خيراً ، فإنَّه من خياركم »^(٢) ، ثمَّ نزلَ ﷺ فدخل بيته ، وكان ذلك قبل وفاته

(١) اقرأ سيرة سيّدنا بريدة بن الحُصيب الأسلميّ في الباب الثَّالث من كتابنا : « فرسان من عصر النُّبوّة » (ص : ٧٠٥ - ٧١٥) ، ففي سيرته فوائد تجلّو الأرواح .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٢ / ١٩٠) بتصرف يسير . و« مخيلان » : مظهرتان لكل خير . وللحديث أصلٌ في الصّحيحين .

ولنقرأ الآن هذه التّغريدة الموحية التي تحدّثت عن الاحتجاج على قيادة سيّدنا أسامة لجيش المسلمين الغازي ، والمقيم بالجرف خارج المدينة المنوّرة :

المسلمون تجمّعوا أنصارهم ومهاجرين
قد عسكروا بالجرف خارج يثرب كمقاتلين
فيهم أبو بكر كذا الفاروق بين الدّاهيين
بعض الرّجال تحدّثوا مع بعضهم متهامسين
قالوا أسامة ليس أهلاً أن يقود المسلمين
هو لا يزال فتى صغيراً في شيوخ فاضلين
سمع النّبي لما يقال فنار ثورة غاضبين
وأتى إليهم عاصباً للرّأس في ألم دفين

بيومين ، وثقل على الحبيب المصطفى ﷺ ، فجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة » .

* وقبل وفاة النبي ﷺ بيوم ، دخل أسامة عليه ، وطأطأ أسامة رأسه ، فقبله ، ورسول الله ﷺ لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ، ثم يضعهما على أسامة ، قال أسامة - رضي الله عنه - : « عرفت أنه يدعو لي » . ورجع أسامة إلى معسكره ، ثم دخل يوم الاثنين (١٢ ربيع الأول سنة : ١١ هـ) وأصبح رسول الله ﷺ مفيقاً ، فجاءه أسامة ، فقال له ﷺ : « اغد على بركة الله . فودعه أسامة وخرج إلى معسكره ، وأمر الناس بالرحيل ، وبينما هو كذلك أتاه رسول من جهة أمه يقول : « إن رسول الله ﷺ يموت » . فأقبل أسامة إلى المدينة ومعه عمر وأبو عبيدة ، فانتهاوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت ، فتوفي ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة (١١ هـ) . ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزته عنده ، فلما بُويع لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بالخلافة كان أول أمر أصدره أن قال : « لِيَتِمَّ بَعَثُ أُسَامَةَ » .

* فقد أدرك سيّدنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بإلهامه وصفاء سريرته أن الإسلام في نقاء جوهره دين مساواة بين الناس أجمعين ، كما أدرك سيّدنا أبو بكر - رضوان الله عليه - أن دعوة الإسلام هي دعوة إلى الحق ، وهي

فَرَقَى لِمَنْبَرِهِ وَبَعْدَ الْحَمْدِ نَادَى السَّامِعِينَ
فِي شَأْنِ تَأْمِيرِ أُسَامَةَ قَدْ غَدَوْتُمْ طَاعِينَ
فِي شَأْنِ تَأْمِيرِ أَبَاهُ فَقَدْ طَعَنْتُمْ سَابِقِينَ
تَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَأَهْلٌ لِلْإِمَارَةِ صَادِقِينَ
وَأُسَامَةُ هُوَ مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ عِنْدِي عَنْ يَقِينَ
إِنِّي لَا أُوصِيكُمْ بِهِ هُوَ مَنْ خَارَ الْمُؤْمِنِينَ
فَلْيَمْضِ بَعَثُ أُسَامَةَ كَوْنُوا لِأَمْرِي طَائِعِينَ

موجهةً إلى النَّاسِ كافَّةً في مشارق الأرض ومغاربها ، لذلك كان الصَّدِيق الأكبر - رضي الله عنه - يَكْبِرُ زِيداً لَأَنَّهُ كبير المكانة عند رسول الله ﷺ .

* وكان سَيِّدنا أَسامة - رضي الله عنه - فُتِيَ حَدَثاً كالغصنِ الرَّطِيبِ يَمِيسُ دلالةً وحيويةً وفتوةً وصلابةً ؛ إذ لَمَّا يَبْلُغُ يومها العشرين ، وإِنَّمَا وَلَاهُ النَّبِيُّ ﷺ على الجيش ليجعلَ له فخارَ النَّصر ما يجزي به استشهاد أبيه زيدٍ في مؤتة قبل أكثر من سنتين ، وليعوده ويعودَ الفتيان النَّاشِئين الاضطلاع بجسام التَّبعات ، ولقد أمره ﷺ أَنْ يوطئ الخيل تخومَ البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأنَّ يرهَبَ أعداءَ الله ، وإذا ما تَمَّ له النَّصر ، فليسرَّ بالعودة غانماً مظفراً .

* ولقد علمنا أنَّ كثيرين قد تذرَّوا منذ اليوم الأوَّل من تعيين فتى كَأَسامة - رضي الله عنه - على رأسِ جيش يضمُّ صفوة المهاجرين والأنصار وجلَّتْهم ، وتحدَّثوا في ذلك ، ورأوا في ذلك شيئاً يحركُ كوامنهم ، فعرفهم رسولُ الله ﷺ بأنَّ هذا الفتى المحبوبَ خَلِيقٌ بالإمارة ، فتلاشى تذرُّمهم ، وخفت حدة اعتراضهم على هذا الأمر .

* تَمَّت البيعةُ المباركةُ بالخلافةِ لأبي بكر الصَّدِيق - رضي الله عنه - ؛ وإذ ذاك أمر بإِنفادِ بعث أَسامة - رضي الله عنه - ، فأخذت بعض بوادر التَّذمُّر تَبْرُقُ في الأفق ، وتلوح من بعيد وهي تلتَمِسُ تغيير هذا الفتى القائد ، أو إبقاء الجيش الغازي في المدينة المنورة ؛ لأنَّ الرَّدَّةَ قد ظهرت في بعض أحياء العرب وأفضوا إلى الخليفة أبي بكر في رغبتهم هذه .

* لكنَّ الخليفة الرَّاشِدِيَّ الحازِمَ البطلَ وقفَ وقفةً صِدِّيقَةً مباركةً مستمدةً من الإلهام الإلهي ، ولم يسمع لهذا وذاك وخالفهم أجمعين ، وأصرَّ على أن تستمرَّ الحملةُ العسكريَّةُ في تحرُّكها إلى وجهتها التي أرادها رسولُ الله ﷺ ، مهما كانت الأحوال ، والظُّروفُ ، والنتائجُ ، بل إنَّ سَيِّدنا الحِصيفَ أبا بكر - رضي الله عنه - عقد مجلساً في المسجد ، حضره كبار الصَّحابة من المهاجرين والأنصار ، وأوحى إليهم بحزم أن يخلعوا من صدورهم ونفوسهم فكرةً وضعها الحبيبُ المصطفى ﷺ بنفسه ، صارحهم بقوة

أنَّه سَيَنْقُذُ هَذَا الأَمْرَ النَّبَوِيَّ ، حَتَّى لَوْ تَخَطَفْتَهُ السَّبَاعُ ، ، قَالَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ لِلصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - فِي ذَلِكَ الاجْتِمَاعِ المِيمُونِ : « وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي بَكْرٍ بِيَدِهِ ، لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّ السَّبَاعَ تَخَطَّفُونِي لَأَنْفَذْتُ بَعْثَ أُسَامَةَ ، كَمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَلَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي فِي الْقُرَى لَأَنْفَذْتَهُ » .

* حَقًّا لَقَدْ كَانَ وَلِيُّ الأَوَلِيَاءِ ، وَصَفِيُّ الأَصْفِيَاءِ ، وَأَوَّلُ الخُلَفَاءِ ، سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَلَى حَقٍّ فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْثِ أُسَامَةَ ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مُتَابَعَةً وَمُوَافَقَةً لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَقَدْ سَجَلَتْ الأَحْدَاثُ وَالْأَيَّامُ صَحَّةَ وَإِصَابَةَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - .

* وَيَذْكُرُ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِأَنَّ الأَنْصَارَ طَلَبَتْ رَجُلًا أَقْدَمَ سَنًّا مِنْ أُسَامَةَ يَتَوَلَّى أَمْرَ الجَيْشِ ، وَأَرْسَلُوا إِلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ لِيَحْدِثَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقُ فِي هَذَا الأَمْرِ ، فَقَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ لَهُ : « إِنَّ الأَنْصَارَ تَطَلَّبُ رَجُلًا أَقْدَمَ سَنًّا مِنْ أُسَامَةَ » . فَوَثَبَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَكَانَ جَالِسًا ، فَأَخَذَ بِلَحْيَةِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، وَقَالَ لَهُ : « ثَكِلْتُكَ أُمَّكَ ، وَعَدَمْتُكَ يَا بَنَ الخَطَّابِ ! اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَتَأْمَرْنِي أَنْ أُنْزِعَهُ ؟ ! » فَخَرَجَ عُمَرُ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالُوا : « مَا صَنَعْتَ ؟ » .

فَقَالَ : « امْضُوا ثَكِلْتُكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ ، مَا لَقِيتُ فِي سَبِيكُمْ مِنْ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ » .

* سَمِعَ النَّاسُ مَقَالَةَ سَيِّدُنَا عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - الَّتِي بَلَغَهُ إِيَّاهَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا الإِذْغَانُ لِأَمْرِ الخَلِيفَةِ الَّذِي تَجَبُّ طَاعَتُهُ عَلَيْهِمْ ، وَخَرَجَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حَتَّى جَاءَ مَعَ سَرِ الْمُسْلِمِينَ بِالجَرْفِ ، فَأَشْخَصَهُمْ ، وَشَيَّعَهُمْ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَاكِبٌ عَلَى جَوَادِهِ ، لِيَزِيدَهُمْ لِإِمَارَةِ سَيِّدُنَا أُسَامَةَ إِذْعَانًا وَتَسْلِيمًا - وَكَانَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ النَّبِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ يَقُودُ دَابَّةَ أَبِي بَكْرٍ - وَكَأَنَّ الحَيَاءَ قَدْ غَلَبَ سَيِّدُنَا أُسَامَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنْ يَرَى الخَلِيفَةَ وَهُوَ شَيْخٌ وَقَوْرٌ ، صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَخَلِيفَتُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَسِيرُ مَاشِيًّا إِلَى جَانِبِهِ ، وَدَابَّتُهُ مِنْ

ورائه يقودها عبد الرَّحْمَنِ بن عوف ، فقال أسامةُ في أدبِ الأبناءِ الممزوج بالاستحياء : « يا خليفةَ رسولِ الله ! واللهِ لتركبَنَّ أو لأنزلنَّ » .

فقال أبو بكر - رضوان الله عليه - : « واللهِ لا تنزلُ ، واللهِ لا أركبُ ، وما عليَّ أن أغبَرَ قدميَّ في سبيلِ الله ساعةً ؟ ! ! » .

* ثمَّ إنَّ سيِّدنا أبا بكر الصِّدِّيق قال لأسامة - رضي الله عنهما - : « إنَّ رأيتَ أن تعينني بعمر ، فافعلْ » . فأذن سيِّدنا أسامةُ لعمرَ أن يدعَ الجيشَ ، وأن يرجعَ مع أبي بكر - رضي الله عنهم أجمعين - .

* أذن مؤدَّن الجيش أن سيروا على بركةِ الله ، فهبَّ الجنودُ في نشاطٍ عجيب ، وأن لأبي بكر خليفة رسول الله ﷺ أن يزودَ جنودَ الله بوصيةً ماتعةً نافعةً ، ذات معانٍ يانعةً ، وفوائدَ جامعةً ، وقوافٍ ساطعةً ، فوقفَ في النَّاسِ المجاهدين خطيباً بعد أن بَسَمَلَ وَحَمَدَلَ وَحَوَقَلَ وَهَلَّلَ وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! قفُّوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأةً ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ، ولا بقرةً ، ولا بعيراً إلا لمأكلةً ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطَّعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسمَ الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحَّصُوا - حَلَقُوا - أوساطَ رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسَّيف خفقا ، اندفعوا باسمِ الله » ^(١) .

* وأوصى سيِّدنا أبو بكر أسامة - رضي الله عنهما - أن يفعلَ ما أمره به رسول الله ﷺ ، وألاَّ يقصِّرَ في شيء .

* وسار الجيشُ على بركةِ الله مزوداً بالنَّصائحِ النَّبَوِيَّةِ ، ثمَّ الوصايا

(١) انظر تسلسل هذه الأخبار والأحداث في : « تاريخ الطبري » (٢ / ٢٤٦) .

الصَّدِيقِيَّةَ ، ونَقَذَ القائدُ الموقِّقُ أسامةُ الهديَّ المحمَّديَّ ، وقضى على أعداءِ اللَّهِ ، وأعداءِ رسوله ﷺ ، ولمَّا أتمَّ خطَّته الحربيَّةَ ، عاد بالجيش مظفراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي استشهد عليه أبوه زيد .

* عاد سيِّدنا أسامة بالجيش الظَّافر إلى المدينة المنوَّرة ، لم يُغْرِه النَّصرُ أنْ يقتفي أثر أعدائه ، بل التزم الخطَّة التي أوصاه بها الصَّدِّيق الأكبر - رضي اللَّهُ عنه - ، عاد سيِّدنا أسامة وقد زادت حادثة سنِّه في جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تذرَّوا قبيل أيَّام معدودات لإمارته يحدثون بلسان الفخر والإعجاب بحسن بلائه ، وعظيم إقدامه ، ويهتفون هتاف الصَّدق مردِّدين قول الصَّادق المصدوق ﷺ : « إِنَّهُ لَخَلِيقٌ لِلإِمَارَةِ ، وإنْ كَانَ أبُوهُ لَخَلِيقاً لَهَا » .

* عاد الفتى الشَّبْلُ المنتصر بجيش المسلمين ظافراً منصوراً ، ولمَّا بلغ مشارف المدينة النَّبَوِيَّةَ ، تلقَّاهُ صَدِّيقُ الأُمَّة وخليفة الحبيب المصطفى ﷺ بظاهر المدينة ، وكان أبو بكر - رضي اللَّهُ عنه - قد خرج في جماعةٍ من أعيان الصَّحابة من المهاجرين والأنصار للقائه وكلُّهم فرحٌ وسرورٌ ، وتهلُّلٌ وحبورٌ ، وتلقَّاه أهل المدينة الذين خفَّوا مسرعين في أثر أبي بكر وصحبه بصيحات التَّكبير والتَّهلِيل ، وأصوات الإعجاب والتَّقدير لبسالته وبسالة جيشه ، ودخل سيِّدنا المحبوبُ أسامةُ المدينة المنوَّرة تحيَّطُ به هالةٌ من فخر النَّصر والظَّفَر ، فتوجَّه من فوره إلى المسجد ، فركز اللواء الذي عقَّده له رسولُ اللَّهِ ﷺ ، ثمَّ صلَّى شكرًا لله - عزَّ وجلَّ - على ما نصره ، وأعزَّ بجيش المسلمين كلمة الحقِّ ودين الهدى ، وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين يوماً من مغادرته إيَّاهَا .

* وما أجمل أن نستريح الآن في ظلالِ الأدب ، وأن نستروح هذه اللَّفَحَات التي تجلو الثُّقُوس ، وتجدد النَّشاط ، فمع هذه الهمسات التي تجمل قصَّة سريَّة سيِّدنا أسامة - رضي اللَّهُ عنه - إلى أرض الشَّام :

سِرِّ يَا أُسامَةَ ما لجيشك هازمٌ أنتَ الأميرُ وإنْ تَعَتَّبَ واهمٌ

قالوا غلامٌ للكتائبِ قائدٌ
 غضبَ النَّبِيُّ وقال إنِّي بالذي
 إنَّ يجهلوه فقد عرفْتُ مكانه
 ولئن رموه بما يسوء فقد رموا
 نقموا الإمارةَ فيهما وهما لها
 الخيرُ فيه وفي أبيه فآمنوا
 مات الرّسولُ المُجتبى مات الذي
 طاشت لمصرعه عقولُ رُجَّحٍ
 عاد ابنُ زيدٍ بالكتائبِ ما لوى
 يمشي الخليفةُ لائذاً بركابه
 وأبى الأميرُ فقال دونك مركبي
 ولئن أبيتَ لأنزلنَّ كرامةً
 قال الخليفةُ ما أراك بمنصفي
 أنا من جنودك لو ملكْتُ رأيتني
 سرّ يا أسامةُ فالقواضِبُ لم تمت
 زلزل جنود الروم واهدم ملكهم
 قتلوا أباك فلا تدعُهم واعتصم
 ولقد هزمت جموعهم فتفرّقوا
 ولئن أزلت ديارهم ونخيلهم
 عذ يا بن زيد باللواء مظفراً
 هلذا أبو بكرٍ مشى في صحبه
 أشكرُ صنيع الله يا شيخ الوغى
 حبّ الرّسول لك البشارة إنّه

وفتى على الصّيد الخضارم حاكمٌ
 جهل الغضاب السّاخطون لعالمٌ
 والعذلُ عندي لا محالة قائمٌ
 من قبل والدّه ولجّ التّاقمُ
 أهل فكلُّ أحوذني حازمٌ
 يا قوم وانطلقوا لما أنا عازمٌ
 أحيّا نفوسَ النَّاس وهي رمائمٌ
 ووهت قوَى مشدودةٌ وعزائمٌ
 من عزمه الحدّث الجليلُ العارمُ
 وكأنّما هو سائقٌ أو خادمٌ
 لا تمشِ إنّي إن فعلتُ لعانمُ
 لك فاقضِ أمرك لا نبا لك صارمُ
 دعني فلاسلام حقّ لازمٌ
 تحت اللّواء فهالكٌ أو سالمٌ
 هي ما ترى وهو الجهادُ الدّائمُ
 في عزّه العاليي فنعم الهادمُ
 منهم برّبك إنّه لك عاصمٌ
 وشفاك منهم جيشك المتلاحمُ
 من بعدما ظلموا فما لك لائمٌ
 وأنعم فبال محمد بك ناعمٌ
 يلقاك مبتهجاً وركبك قادمٌ
 إنّ الذي عاب الغلام لنّادمٌ
 شرف له فوق النّجوم دعائمٌ^(١)

(١) « ديوان مجد الإسلام » (ص : ٥٦٧ - ٥٦٩) بانتقاء .

* ومن العجيب أنَّ هرقل ملك الروم أخبروه بوفاة النَّبِيِّ ﷺ ، وكذلك بإغارة سيِّدنا أسامة في ناحية أرضه خبراً واحداً ، فقالت الروم متعجِّبين : « ما بالي هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا » . قال عروة بن الزُّبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « فما رُوي جيشٌ كان أسلمَ من ذلك الجيش » (١) .

حافظٌ واعٍ :

* لئن أبدعَ سيِّدنا أسامةُ بنُ زيد في ميادين النَّزال والجهادِ والبطولة ، لقد كان من السَّوابق في ميدان العلم والفقه ، فقد كان هذا الفتى المجاهدُ عالماً فقيهاً ، مفتياً محدثاً ، واعياً راوياً للحديث النَّبَوِيِّ ، يقصدهُ محبُّو المعرفة ، وطلَّابُ العِلْمِ للاستفادة ممَّا علَّمه اللهُ - عزَّ وجلَّ - ، من علمٍ وفتوى ، وقد عدَّه ابنُ حزم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أصحابِ الفُتيا من الصَّحابة .

* روى سيِّدنا أسامة الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ ، وعن أبيه زيد ، وعن أمِّنا أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة (٢) - رضي الله عنها وأرضاها - .

* قال الإمام النَّوَوِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رواية سيِّدنا أسامة - رضي الله عنه - : « روي لأسامة عن رسولِ الله ﷺ مئة وثمانية وعشرون حديثاً ، اتَّفَقَ البخاريُّ ومسلمٌ منها على خمسة ، وانفرد البخاريُّ بحديثين ، ومسلمٌ بحديثين » (٣) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٦٨) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٥١) ، مع الجمع بينهما .

(٢) اقرأ سيرة السيِّدة الحصيصة الجليلة النَّبيلة أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة المخزومية - رضي الله عنها - في الباب الأوَّل من كتابنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٢٤٣ - ٢٩٠) ، ط : ٦ - دار الإمامة بدمشق ؛ فسيرتها رحلة علمية دانية القطوف بإذن الله ، وفيها فوائد حسان ، ومعارف كعقود الجمان .

(٣) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١١٢) . بينما قال الإمامُ الذهبيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن سيِّدنا =

* روى عنه من أعلام الصحابة ومشاهيرهم وعلمائهم : سيّد الحفاظ الأثبات ، اللبيب المجتهد الفقيه الأديب سيّدنا أبو هريرة الدّوسي^(١) - رضي الله عنه وأرضاه - ، وروى عنه كذلك ترجمان القرآن ، وخبر الأمة وبحرها ، نجم العبادة سيّدنا الأمير النبيل الفقيه المفتي المفسر الحكيم عبد الله بن عباس^(٢) - رضي الله عنهما - .

* وروى عنه من أهل بيته : ابنه : الحسن ومحمّد ، وروى عنه من أبناء الصحابة : عمرو بن عثمان بن عفّان ، وعامر بن سعد بن أبي وقاص ، وعروة بن الرّبير بن العوّام ، وغيرهم ، كما روى عنه جماعات من كبار التابعين ، ومنهم : أبو سعيد المقبري ، وعطاء بن أبي رباح ، وأبو عثمان التّهدي ، وغيرهم^(٣) .

* ومن مروياته المفيدة النّافعة - وكلّها نافعة مفيدة - ما جاء في « الصّحيحين » وغيرهما في عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن

= أسامة : « له في مسند بقيّ مئة وثمانية عشر حديثاً ، منها في البخاري ومسلم خمسة عشر ، وفي البخاريّ حديث ، وفي مسلم حديثان » . « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٧) .

(١) اقرأ سيرة سيّد الحفاظ الأثبات ، وحافظ الصحابة المكثّر سيّدنا أبي هريرة ، في الباب الثّاني من كتابنا : « علماء الصحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٢٨٥ - ٣٧٩) ، طبعة دار اليمامة بدمشق ، ففي سيرته سبحات تتألّق خلالها بين روض العلم والحكمة .

(٢) اقرأ سيرة سيّدنا عبد الله بن عباس في الباب الأوّل من موسوعتنا : « علماء الصحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٢١ - ٧٨) ، فسيرته بحر من الفوائد والقلائد والفرائد - رضي الله عنه وأرضاه - .

(٣) « تهذيب التّهذيب » (١ / ٢٠٨) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٤٩٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٤٨) ، مع الجمع بينها .

المنكر ويفعلُهُ ، ما أخرجه بسند عنه قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فْتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ ، فيقولون : يا فلان ! مالك ؟ أَلَمْ تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، قد كنتُ آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » (١) .

(١) أخرجه الشَّيْخَانُ ؛ البخاريُّ في بدء الخلق برقم : (٣٢٦٧) ، والفتن برقم : (٧٠٩٨) ، ومسلم في الزُّهد والرَّقَائِقِ برقم : (٢٩٨٩) ، واللفظ له ، وأحمد في مواضع برقم : (٢١٨٤٣ ، ٢١٨٥٣ ، ٢١٨٥٩ ، ٢١٨٧٨) . ومعنى قوله « فْتَنْدَلِقُ » : الاندلاقُ خروج الشيء بسرعة وتتابع ، يقال : اندلق السَّيل على القوم ؛ أي : هجم متدفقاً سريعاً . و « أَقْتَابُ بَطْنِهِ » : أمعاء بطنه ، والأقْتَابُ : جمعٌ ، مفردة : قُتْبٌ وقُتْبٌ . ولفظ البطن مذكَّر ، وحكى أبو عُبَيْدَةَ أَنَّ تأنيثه لغة . و « الرَّحَى » : الرَّحَا : مؤنثة اللفظ ، وهي الحجر العظيم الذي يطحنُ به ، وألف الرَّحَا تكتب بالياء ، وتكتب بالألف ؛ لأنَّ أصلها متردِّد بين الياء والواو ، تقول : رَحِيتُ الرَّحَى ؛ أي : عملتها ، وتقول : رَحَوْتُ الرَّحَى أيضاً ، وتثنية رَحَا : رَحَوَانٍ ورَحِيَانٍ ، وجمعها : أَرَحَ وأَرَحَاءُ . و « يا فلان » : فلان وفلانة : كناية عن الذكر والأنثى من النَّاسِ ، وهما معرفتان ، فإذا كُنيت بهما في غير النَّاسِ قلت : الفلان والفلانة ، بالألف واللام . و « مالك ؟ » ؛ يعني : أي شيء كائن لك حتَّى صرْتَ من أهل النَّار ؟ و « بلى » حرف جواب ، ولا تأتي إلا بعد نفي ، ولا يصحَّ استعمال حرف نعم في مواقع بلى ؛ لأنَّ نعم حرف جواب لتحقيق ما جاء قبلها وتصديقه موجباً كان أو منفيّاً .

وممَّا يستفادُ من هذا الحديث الشَّرِيف :

- ١ - ينبغي على الرَّجُلِ الذي يدعو إلى الله - عزَّ وجلَّ - أن يكون متحلياً بما يدعو النَّاسَ إليه من قول أو عمل .
- ٢ - عذابُ الذي يخالفُ الأوامرَ الإلهية - وقد جعل من نفسه داعياً إلى الله - أشدَّ من عذاب غيره ؛ لأنَّ مسؤوليته في الدُّنْيَا أكبر من مسؤوليته غيره .
- ٣ - التَّربِيَةُ بوسيلة التَّرهيب من العواقب الوخيمة .

=

* ومن مرويات سيّدنا أسامة المشهورة في الصّحيح وغيره ، ما أخرجه البخاريّ رحمه الله وغيره بسندٍ عن أبي عثمان التّهدي ، عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - ، عن النّبيّ صلى الله عليه وآله قال : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضّرّ على الرّجال من النّساء » ^(١) .

* وفي مجال الوقاية من الأمراض أخرج الإمام أحمد بسنده عن سيّدنا أسامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا سمعتم بالطّاعون بأرض ، فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » ^(٢) .

* ومرويات سيّدنا أسامة كثيرةٌ منثورةٌ في مصتفات الحديث المتعدّدة في الصّحيح ؛ والسّنن ؛ والمسانيد ؛ والمعاجم ؛ وغيرها ، وقد مرّ كثير من مروياته في ثنایا ترجمته ، وعرفنا بعض أحكامها .

* عاش سيّدنا أسامة - رضي الله عنه - حياةً مليئةً بالعمل ، فلم يحفل بالدّنيا ولا بزخرفها ، وكان الخلفاء الرّاشدون يجعلونه لمحله من قلب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثمّ عاش شطراً من خلافة سيّدنا معاوية يتمتّع بالمكانة نفسها التي كان يلقاها في ظلال الخلافة الرّاشدة .

* وتذكر المصادر بأنّ سيّدنا أسامة قد سكن المِرّة ^(٣) مدّةً ، ثمّ رجع إلى

٤ - الإخلاص والصّفاء من ألوان نجاح الدّعوة إلى الله - عزّ وجلّ - .

٥ - الاستقامة عين الكرامة وخصوصاً الاستقامة على أمر الله - عزّ وجلّ - .

(١) أخرجه البخاريّ برقم : (٥٠٩٦) ، ومسلم برقم : (٢٧٤٠) ، وأحمد برقم : (٢١٨٨٨) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٢٤٨) ، وغيرها كثير .

(٢) « المسند » (٨ / ١٨٦) ، ورواه أحمد في مواضع أخرى في مسند سيّدنا أسامة .

(٣) (المِرّة) : قرية في جنوب غربي دمشق ، نزل بها عدد من الصّحابة ، وهي معروفة الآن بأنّها من أحياء دمشق . ولابن طولون الصّالحي كتابٌ في تاريخ المِرّة =

المدينة المنورة فمات بها سنة (٥٤ هـ) .

* وأورد ابن عساكر رحمته الله أَنَّ سَيِّدَنَا أُسَامَةَ - رضي الله عنه - : « خرج إلى وادي القرى إلى ضيعة له فتوفي بها ، وخلفَ في المِرَّة ابنةً له يُقال لها فاطمة ، ولم تزل مقيمة بها إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز ، فجاءت ، فدخلت عليه ، فقام من مجلسه ، وأقعدها فيه ، وقال : حوائجك يا فاطمة .
قالت : تحملني إلى أخي ، فجهَّزَهَا وحملها » (١) .

* وعن الأوزاعي رحمته الله قال : « دخلت فاطمة بنت أسامة على عمر بن عبد العزيز ، ومعها مولاة لها تمسكُ بيدها ؛ فقام لها عمر ، ومشى إليها حتَّى جعل يده في يدها ، أو يدها في ثيابها ، ومشى حتَّى أجلسها في مجلسه ، وجلس بين يديها ، وما ترك لها حاجة إلا قضاها - رضي الله عنهم - » (٢) .

* وقريبٌ من هذا ما جاء عند البخاريّ بسنده عن عبد الله بن دينار قال : « نظر ابنُ عمر - وهو في المسجد - ، إلى رجلٍ يسحبُ ثيابه في ناحية من المسجد فقال : انظر مَنْ هذا ؟ ليت هذا عندي . قال له إنسان : أما تعرفُ هذا يا أبا عبد الرحمن ؟ هذا محمدُ بنُ أسامة . فطأطأ ابنُ عمر رأسه ، ونقرَ بيديه في الأرض ، ثمَّ قال : لوراه رسولُ الله ﷺ لأحبَّه » (٣) .

= اسمه : « المعزة فيما قيل في المزة » ، والكتاب مطبوع .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣١٩ - ٣٢٠) . و « وادي القرى » : سمي بذلك لكثرة قراه ، وهو بين المدينة وتبوك ، وأعظم مدنه اليوم : مدينة العلا ، شمال المدينة ، على مسافة (٣٥٠ كَيْلًا) ويُعرف اليوم : وادي العلا . « المعالم الأثرية » (ص : ٢٢٤) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١١٥) .

(٣) أخرجه البخاريّ برقم : (٣٧٣٤) . وقوله : « ليت هذا عندي » ، أي : قريباً مني حتَّى أنصحهُ وأعظهُ . وقد روي بالباء الموحدة - أي : عبي - من العبودية ، وكأنَّه على ما قيل كان أسود اللون . وقوله : « لأحبَّه » ؛ لأنَّ ابن عمر رأى محبَّة النَّبي ﷺ =

* وبعد : فقد كانت الرحلة ممتعةً محبوبةً مع سيّدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - ، نرجو الله - عزّ وجلّ - أن يهبنا لأسامة ، وأن يجمعنا معه يوم القيامة ، وأن يحلّنا دار المقامة .



= لزيد بن حارثة وأمّ أيمن وذريتهما .

عبدُ اللَّهِ بنُ عامر

رضي الله عنهما

- * قال عنه الصَّادِقُ المصدوقُ عليه السلام : « هذا يشبهُنا » .
- * كان كريم الأمّهات والعَمَّات والخالات ؛ جواداً سخياً .
- * فتح خراسان وفارسَ ؛ وكان قائداً ميمون النّقيّة .

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

« هَذَا يُشْبِهُنَا » :

* أَخْبَارُ هَذَا الصَّحَابِيِّ ابْنِ الصَّحَابِيِّ تَفَتَّرَ عَنْ ثَغْرِ يَبْتَسِم ، وَهِيَ كَرِيحِ الصَّبَا الَّتِي تَنْسَم ، وَكَالزَّهَرِ فِي الرَّوْضِ يَبْسَم :

خُصِصَتْ بِفَضْلِ لَيْسَ يُوجَدُ مِثْلُهُ وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وُلِدَ هَذَا الصَّحَابِيُّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ بِأَرْبَعِ سِنِينَ ، وَلَمَّا اعْتَمَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَدَخَلَ مَكَّةَ ، أُتِيَ بِهَذَا الْغُلَامِ وَهُوَ صَغِيرٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَحَنَنَهُ ، فَتَلَمَّظَ وَتَثَاءَبَ ، وَجَعَلَ الْحَبِيبُ الْمَصْطَفَى ﷺ يَتَفَلُّ فِي فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذَا ابْنُ السُّلَمِيَّةِ ؟ » .

فَأَشَارُوا بِأَنَّهُ هُوَ ابْنُ السُّلَمِيَّةِ قَرِيبُهُ .

فَقَالَ : « هَذَا يُشْبِهُنَا » أَوْ قَالَ : « هَذَا ابْنُنَا وَهُوَ أَشْبَهُهُمْ بَنَا وَهُوَ مُسْقَاءٌ » . وَجَعَلَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ يَتَفَلُّ فِي فِيهِ ، وَيَعُوْذُهُ ، وَأَخَذَ الْغُلَامُ يَبْتَلِعُ رَيْقَ الْحَبِيبِ الْمَصْطَفَى ﷺ وَيَتَسَوَّغُهُ ، فَقَالَ ﷺ : « إِنَّهُ لِمُسْقِيٌّ » فَكَانَ هَذَا الْغُلَامُ فِيمَا بَعْدُ لَا يَعَالِجُ أَرْضَاءً إِلَّا ظَهَرَ لَهُ الْمَاءُ ، بِإِذْنِ فَاطِمَةَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَمْ يَزَلْ شَرِيفاً سَخِيّاً مُعْطَاءً ، وَلَهُ الْمَكَانَةُ السَّامِقَةُ بَيْنَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ ، وَبَيْنَ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الثُّجَبَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

* كَانَ هَذَا الصَّحَابِيُّ اللَّيْبُ مِنْ جِلَّةِ الْأَسْخِيَاءِ ، وَمِنْ سَادَةِ الْكِرْمَاءِ ،

ومن عليّة الشُّرفاء ، وكان كريم الأمّهات والعَمَّات والخالات ، كثير المناقب كثير الفُتوحات ، يقرنُ اسمه بكثير من الانتصارات والإصلاحات .

* هذا الصَّحابيّ ابنُ الصَّحابيّ هو عبدُ اللَّهِ بنُ عامر بن كُريز بن ربيعةَ بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشيّ العبشميّ ^(١) الذي افتتح إقليم خراسان .

* وأبوه عامر من أقرباء النَّبيِّ ﷺ ، فهو ابنُ عمّته البيضاء بنت عبد المطلب القرشيّة الهاشميّة ، وتكنى أمّ حكيم ، ومن المظنون أنّها لم تُدرِك نبوة المصطفى ﷺ ، تزوّجها كُريزُ بنُ ربيعة العبشميّ ، فولدت له عامراً والد الأمير التّجيب عبد اللَّهِ بن عامر ، وولدت له أيضاً أروى بنت كُريز ^(٢) والدة سيّدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - .

* أسلم عامر بن كُريز يوم الفتح الأعظم ، يوم دخل النَّاس في دينِ الله أفواجا ، وبقي إلى خلافة ابنِ أخته عثمان بن عفّان ، وقدم على ابنه عبدِ اللَّهِ بن عامر البصرة لما استعمله سيّدنا عثمان عليها وعلى خراسان .

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٨٨) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٣٨٤ - ٣٩١) ، و« فتوح البلدان » للبلاذريّ (الفهارس ، ص : ٦٣٦) ، و« الرّوض المعطار » (الفهارس ، ص : ٦٩٩) ، و« سير أعلام النّبلاء » (٣ / ١٨ - ٢١) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٣٥١ - ٣٥٣) ، و« أسد الغابة » (٣ / ١٨٤ - ١٨٥) ، ترجمة رقم : (٣٠٣١) ، و« تهذيب التّهذيب » (٥ / ٢٧٢ - ٢٧٤) ، و« طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٤ - ٤٩) ، و« معرفة الصّحابة » (٣ / ٢٠٥) ترجمة رقم : (١٧٠٩) ، وغيرها ممّا لا يُحصى .

(٢) اقرأ سيرة الصّحابيّة الكريمة التّجيبية أروى بنت كُريز في كتابنا : « نساء من عصر النّبوة » (ص : ١٠٩ - ١١٤) ، طبعة دار ابن كثير الثالثة ٢٠٠٣ م ، ففي سيرتها موافق جليّة ، وأعمال نبيلة ؛ فهي واحدة من أمّهات كبار الصّحابة المهاجرين ، وهنّ : أمّ عثمان ، وأمّ طلحة ، وأمّ عمار ، وأمّ أبي بكر ، وأمّ الرُّبيرة ، وأمّ عبد الرّحمن بن عوف - رضي الله عنهنّ أجمعين - .

* وأمُّ عبد الله هي دِجَاجَةُ بِنْتُ أَسْمَاءَ بْنِ الصَّلْتِ السُّلَمِيَّةِ ، ولدت لعامر بن كُريز عبد الله بن عامر ، ثم تزوجها عُمير الليثي فولدت عُبيد بن عمير الفقيه المحدث ، ثم تزوجها الأسود فولدت له عبد الله بن الأسود ، فكان يُقال لها : أمّ العبادلة ^(١) .

* يُعَدُّ سَيِّدَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ - رضي الله عنهما - من صغارِ الصَّحابة ، فقد رأى الصَّادِقَ المصدوقَ عليه السلام ، وروى عنه حديثاً ، أخرجه (الحاكم) في « المستدرک » بسندٍ رفعه إلى حنظلة بن قيس ، عن عبد الله بن عامر بن كُريز ، وعبد الله بن الزُّبير - رضي الله عنهما - أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » ^(٢) .

* وذكرَ الْمُضْعَبُ الزُّبَيْرِيُّ في « نَسَبِ قُرَيْشٍ » حادثةً تدلُّ على أَنَّ سَيِّدَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرٍ قد سمعَ من النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : « إِنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ - رضي الله عنهما - أرادَ أَنْ يَصْطَفِيَ أَمْوَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ - رضي الله عنهما - ، فقال ابنُ عامرٍ : « قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « المقتولُ دُونَ مَالِهِ شَهِيدٌ » واللهِ لَا قَاتِلَتَهُ حَتَّى أُقْتَلَ دُونَ مَالِي » ^(٣) .

* ولا توجد لسَيِّدَنَا عبد الله بن عامر - رضي الله عنهما - روايةٌ في كتب الحديث السَّنَّةِ ، وأكَّد ابنُ قتيبة بأنَّ ابنَ عامرٍ له حديثٌ واحدٌ ، فقال : « وبلغني أنَّه لم يرو عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً واحداً » ^(٤) .

(١) « نواذر المخطوطات » (١ / ٧٩) . وقوله « أمّ العبادلة » : هذه التَّسمية على التَّغليب ، وإلاَّ فَإِنَّ وَلَدَ عمير الليثي هو عبيد بن عمير ، وكان عبيد بن عمير ، قاضي أهل البصرة ، وتوفي سنة (٦٨ هـ) رحمته الله .

(٢) « المستدرک » (٣ / ٧٤١) برقم : (٦٦٩٧) ، والحديث ذو سندٍ ضعيف ، لكن له في الباب ما يقوِّيه .

(٣) « نسب قريش » (ص : ١٤٨ - ١٤٩) بتصرف يسير جداً .

(٤) « المعارف » (ص : ٣٢١) .

مكانته عند الأعيان :

* لهذا الصحابيِّ ابنِ الصحابيِّ مكانةٌ مرموقةٌ عند كبار الصحابة ، وعند العلماء الذين تحدّثوا عنه في مصنّفاتهم ، فقد كان من شبابِ الصحابة العَبْشَمِيِّين ذوي الشَّرَفِ والسُّؤدد ، والكفاءة ، والمقدرة ، بالإضافة إلى الذِّكاء وحُسن الأخلاقِ مع النَّاسِ .

* انتزع سيّدنا عبدُ الله بنُ عامر ثناءَ أعيانِ الصحابة وإعجابهم بشخصيّته وسلوكه ونهجه القويم ؛ ومنهجاه السّليم .

* وممّن أثنى على سيّدنا عبد الله بن عامر سيّدنا أبو موسى الأشعريّ ^(١) - رضي الله عنه - ، وذلك عندما استعمل سيّدنا عثمان - رضي الله عنه - عبدَ الله بنَ عامر على البصرة - وكان عبدُ الله فتّى يافعاً وشاباً مجتمعاً قد بلغ أشده ، لم يلهُ بنانٌ مخضّبٌ ، بل كان عالي الهمة ، سامي الخصال - وعندها خاطبَ سيّدنا أبو موسى أعيان البصريين وجلّتهم ، وقال : « قد أتاكم فتّى من قريش ، كريمُ الأمّهات والعَمّات والخالات ، يقولُ بالمال فيكم هكذا وهكذا » ^(٢) .

(١) اقرأ سيرة الصحابيِّ ذي الصّوت الدّاوديّ في الباب الثّالث من كتابنا : « علماء الصحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٥٨٧ - ٦٣٥) فقراءة سيرته نزهة للمجالس ، وبهجة للمجالس ، وفيها فوائد جمة بإذن الله .

(٢) انظر : « نسب قريش » (ص : ١٤٧ - ١٤٨) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٤) .

ووصف سيّدنا عثمان بنُ عفّان - رضي الله عنه - عبدَ الله بنَ عامر ، وصفاً دقيقاً جميلاً صحيحاً مضمخاً بالثناء والمجد فقال : « لقد رفعك السُّؤدد إلى موضعٍ لا يناله إلا الشّمس والقمر » . « التّذكرة الحمدونيّة » (٢ / ١٠٩) .

وعن برّ ابن عامر بأبي موسى الأشعريّ - رضي الله عنهم - يقول ابنُ سعد رحمّه الله : « قال أبو موسى - رضي الله عنه - : والله لقد عزلني عثمان عن =

* وسأل قُبَيْصَةُ بْنُ جَابِرٍ سَيِّدَنَا مَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ قَرِيْشٍ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ عِدَّةً مِنَ الْأَعْيَانِ وَذَكَرَ مَنَاقِبَهُمْ : « ... وَأَمَّا فَتَاهَا نَائِلًا وَتَوَسُّعًا فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ بْنِ كُرَيْزٍ » ^(١) .

* وَلَمْ يَقُلْ مَعَاوِيَةُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي يَشْنِي خِلَالَهَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ عَبَثًا أَوْ مُحَابَاةً لِابْنِ عَامِرٍ ، أَوْ لِقُبَيْصَةَ بْنِ جَابِرٍ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ كَلِمَةً حَقٌّ وَمَعْرِفَةٌ بِأَقْدَارِ النَّاسِ ، أَوْ رَدُّ الْبِلَازِرِيِّ مَا يُؤَيِّدُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَقَالَ : « قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَا يَزَالُ يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مِرْوَانَ الشَّيْءُ فَتَقْهَرُهُ ؛ وَتَسْتَعْلِيهِ ؛ وَتَظْفَرُ بِهِ !

فَقَالَ ابْنُ عَامِرٍ : إِنَّهُ يَجِدُنِي عِضًّا .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِنَّكَ لَوْ لَقِيتَ رَجُلًا عَرَفَكَ نَفْسَكَ .

قَالَ : فَكُنْ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : أَنَا ابْنُ هَنْدٍ .

قَالَ ابْنُ عَامِرٍ : أَنَا ابْنُ أَمِّ حَكِيمٍ .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : ارْتَفَعْتَ جَدًّا .

= البصرة ، وما عندي دينار ولا درهم ، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيَّ أُعْطِيَهُ عِيَالِي مِنَ الْمَدِينَةِ ، وما كنتُ لأفارق البصرة وعندي من مالهم دينار ولا درهم فَأَتَاهُ ابْنُ عَامِرٍ فَقَالَ : يَا أَبَا مُوسَى مَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي أَخِيكَ أَعَرَفُ بِفَضْلِكَ مِنِّي ، أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ إِنْ أَقَمْتَ ، وَالْمَوْصُولُ إِنْ رَحَلْتَ .

قَالَ جَزَاكَ اللَّهُ يَا بَنَ أَخِي خَيْرًا . ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْكُوفَةِ . وَكَانَ ابْنُ عَامِرٍ رَجُلًا سَخِيًّا شُجَاعًا وَصُولًا لِقَوْمِهِ وَلِقَرَابَتِهِ ، مُحِبًّا فِيهِمْ رَحِيمًا « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٥ / ٤٥) بِاخْتِصَارِيسِير .

(١) « أَنْسَابُ الْأَشْرَافِ » الْقِسْمُ الرَّابِعُ ، الْجُزْءُ الْأَوَّلُ ، بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ (ص : ٤٢) ، تَحْقِيقُ الدُّكْتُور : إِحْسَانُ عَبَّاسٍ .

قال ابنُ عامر : وانخفضتَ يا أميرَ المؤمنين ، أمُّ عبدِ الله بن عامر
دجاجة بنت أسماء بن الصَّلْت ، وأخت أبيه أروى بنت كريز وأمها أم حكيم
البيضاء بنت عبد المطلب « (١) .

* وحَدَّثَ قبيصةُ بنُ جابر أيضاً عن معاويةَ في حديثه ، لَمَّا سألَهُ عَمَّنْ
يرى لهذا الأمر من بعده ، يعني الخلافة ، قال : « وأُمَّا فتاها حياءً وحلماً
وسخاءً فابن عامر » (٢) .

* أُمَّا سَيِّدنا عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - فقد أحلَّ عبدَ الله بنَ
عامر - رضي الله عنهما - ما يستحقُّ من المكانة ، واعتبره أنجدَ النَّاسِ

(١) المصدر السَّابِق عِنه (ص : ٤٣ - ٤٤) ، وذكر البلاذري أيضاً في هذا المصدر ذاته
أنَّ معاوية - رضي الله عنه - قال حين ماتَ سَيِّدنا عبد الله بن عامر بن كريز : « بِمَنْ
أباهي بعد ابن عامر ؟ » . « أنساب الأشراف » (ص : ١٣١) .

وفي رواية : « أَنَّ سَيِّدنا معاوية - رضي الله عنه - قال : « يرحمُ الله
أبا عبد الرَّحْمَنِ ، بمن نفاخر ، وبمَنْ نباهي ؟ » . « طبقات ابن سعد »
(٤٩ / ٥) .

وممَّنْ شهد لسَيِّدنا عبد الله بن عامر بالسَّيرة الحسنة والاستقامة ، ودافع عنه
الصَّحَابِيُّ أبو بكره الثَّقَفِيُّ مولَى النَّبِيِّ ﷺ ، فعن زيادِ بنِ كُسيب العدوي قال : « كان
عبدُ الله بنُ عامر يخطبُ النَّاسَ ، عليه ثيابُ رفاق ، مرجلٌ شَعْرُه ، فصلَّى يوماً ثَمَّ
دخل ، وأبو بكره جالسٌ إلى جنب المنبر ، فقال أبو بلال مرداس بن أدية - من
الخوارج - : ألا ترون إلى أميرِ النَّاسِ وسَيِّدهم يلبسُ الرِّقاق ، ويتشبه بالفَسَّاق ؟ !

فسمعه أبو بكره فقال لابنه الأصيلع : ادعُ لي أبا بلال ، فدعاهُ فقال له
أبو بكره : أما إِنِّي قد سمعتُ مقالتك للأمير أنفاً ، وقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ
يقول : « مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ الله أَكْرَمَهُ الله ، ومن أَهَانَ سُلْطَانَ الله أَهَانَهُ الله » .
« مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٦) . وانظر : « سير أعلام النبلاء »
(٣ / ١٩ - ٢٠) ، وتخريج الحديث فيه .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ١٨٩) .

وأمجدهم ، فكان ممّا قال يوم الجمل : « أتدرون مَنْ حاربتُ ؟ حاربتُ أمّجَدَ النَّاسِ - أو أنجدَ النَّاسِ - يعني ابن عامر ، وأشجعَ النَّاسِ يعني الرُّبَيْرِ ، وأدهى النَّاسِ يعني طلحة » ^(١) !!! .

* وقد أثنى على سيّدنا عبد الله بن عامر أكابرُ العلماء والمؤرّخين وكتّاب التّراجم ، ومنهم ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ حيث قال : « كان كثير المناقب ، وهو الذي افتتحَ خراسان ، وقُتِلَ كسرى في ولايته ، وأحرَمَ من نيسابور شكراً لله ، وهو الذي عمل السّقايات بعرفة ، وكان سخيّاً كريماً » ^(٢) .

* وأثنى على ابن عامر ابنُ سعد رَحِمَهُ اللهُ فقال : « وكان سخيّاً ، كريماً ، كثير المال والولد ، ولَدَ له عبد الرّحمن وهو ابن ثلاث عشرة سنة » ^(٣) .

* وقال : « وكان ابنُ عامر رجلاً سخيّاً شجاعاً وصُولاً لقومه ولقرايته ، محبباً فيهم ، رحيماً ، ربّما غزا فيقعُ الحِملُ في العسكر فينزُلُ فيصلحه » ^(٤) .

* وعن أوّلياته النّافعة والمفيدة يقول ابنُ سعد رَحِمَهُ اللهُ أيضاً : « وهو اتّخذ السُّوق للنّاس بالبصرة ، اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً وهو أوّل مَنْ لبس الخزّ بالبصرة وهو أوّل من اتّخذ الحياض بعرفة ، وأجرى إليها العين ، وسقى النَّاس الماء ، فذلك جارٍ إلى اليوم » ^(٥) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٨) . وقال عنه سيّدنا عليّ - رضي الله

عنه - : « هو سيّد فتیان قریش غیر مدافع » . « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٧) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٤) . وأثنى عليه عزّ الدّين ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ

فقال : « وكان كريماً ميمون النّقيية ، واستعمله عثمان على البصرة ، وولاه بلاد فارس ، فافتتح خراسان كلها وكان أحد الأجواد الممدوحين » . « أسد الغابة » (٣ / ١٨٤ - ١٨٥) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٥) .

(٤) المصدر السّابق ذاته (٥ / ٤٥) بتصرّف يسير .

(٥) المصدر السّابق (٥ / ٤٧) .

* وبالإضافة إلى أنَّ سَيِّدنا عبد الله بن عامر كان جواداً كريماً ، ميموناً ، جريئاً ، شجاعاً ، أجودَ أهل البصرة في عصره ، ومن أجود أبناء الصَّحابة ، فقد أشاد الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ بِهِ فقال في مختتم ترجمته له : « وكان من كبار ملوك العرب ، وشجعانهم ، وأجوادهم ، وكان فيه رفقٌ وحلمٌ » (١) .

* وقال في موضع آخر : « وقد فتح الله على يدي عبد الله فتوحاً عظيمةً وكان سخيّاً ، شجاعاً ، وصولاً لرحمه ، فيه رفقٌ بالرعيّة » (٢) .

* وعن ظهور الماء بين يديه قال المصعبُ الزُّبيريُّ : « وكان لا يعالجُ أرضاً إلا ظهرَ له فيها الماء ، وله النَّبَاحُ الذي يُقال له نِباح ابن عامر ، وله الجُحفة ، وله بستانُ ابن عامر بنخلة على ليلةٍ من مكّة ، وله آثارٌ في الأرض كثيرة » (٣) .

* وهذا الأمرُ ، أمرُ ظهور الماء موافقٌ لما قال النَّبِيُّ ﷺ عنه : « أرجو أن يكون مسقيّاً » فكان كذلك ، حتّى كان يقال : « لو أنَّ عبد الله بن عامر قدَحَ حجراً أمامه ، يخرجُ الماء منه » (٤) .

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٢١) ، وقال عنه ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ : « كان عبدُ الله بنُ عامر سخيّاً كريماً حليماً ميمون النّقيبة ، كثير المناقب » . « الاستيعاب » (٢ / ٣٥٢) ، وعنه قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وهو الرّجل الذي له من الحسنات ، والمحبة في قلوب النّاس ما لا ينكر » . « منهاج السّنة » (٣ / ١٨٩ - ١٩٠) .

(٢) « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٢٥٩) بتصرّف يسير .

(٣) « نسب قریش » (ص : ١٤٨) .

(٤) « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٢٥٨) .

وجاء عند ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ قوله : « كان يُقال : لو أنَّ عبد الله قدَحَ حجراً أمامه ؛ يعني : لخرج الماء من الحجر ببركته ، وكان عبدُ الله لا يعالجُ أرضاً إلا ظهرَ =

شَهَامَتُهُ وَسَخَاؤُهُ :

* تَفْتَرُ أَخْبَارُ جُودِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ عَنْ ثَغْرِ بَسَامٍ ، وَتَفْصَحُ عَنْ طِيبِ عَرْفِ عُدُوهِ الْمُعْطَارِ ، وَعَنْ يَقِينِهِ وَإِيمَانِهِ بِالرَّزَاقِ الْغَفَّارِ ، وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ عَمَلُ الْأَبْرَارِ .

* وَمَنْ الْوَاضِحُ بَأَنَّ الْجُودَ مَعْنَاهُ : بَذْلُ الْمَالِ لِلنَّاسِ وَأَنْفَعُهُ مَا يُصْرَفُ فِي وَجْهِ اسْتِحْقَاقِهِ ، فَالْجُودُ حَارِسُ الْأَعْرَاضِ ، وَرَافِعُ النَّاسِ إِلَى دَرَجَاتِ السِّيَادَةِ ، وَأَجْمَلُ الْجُودِ وَأَنْفَعُهُ مَا كَانَ عَنْ سَجِيَّةٍ وَطَبِيعَةٍ ، لَا عَنْ تَكَلُّفٍ وَتَظَاهَرٍ .

* كَانَ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنَ الْأَجْوَادِ الْأَخْيَارِ ، وَمُنَاقِبُهُ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ تَهْدَبُ الثُّمُوسَ وَتَمُدُّهَا بِمَدَادِ الْإِيثَارِ ، وَتَدْفَعُهَا إِلَى السَّخَاءِ وَعَدَمِ الْإِقْتَارِ .

* وَمِنْ بَدَائِعِ قَصَصِ جُودِهِ الْمَمْزُوجِ بِالْوَفَاءِ وَالشَّهَامَةِ ، مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَزَارِيُّ قَالَ : « اشْتَرَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ مِنْ خَالِدِ بْنِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ دَارَهُ الَّتِي فِي الشُّوقِ ؛ لِيُشْرَعَ بِهَا دَارَهُ عَلَى الشُّوقِ ، بِثَمَانِينَ أَوْ بِسَبْعِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ سَمِعَ بَكَاءَ أَهْلِ خَالِدٍ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : مَا هَؤُلَاءِ ؟

قَالُوا : يَبْكُونَ دَارَهُمْ .

قَالَ : يَا غَلَامُ ! فَاتْتَهُمْ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الدَّارَ وَالْمَالَ لَهُمْ جَمِيعاً » (١) .

* وَمِنْ مُسْتَجَادِ فِعْلَاتِ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى قُصَّادِهِ ، وَطَالِبِي رَفْدِهِ مَا سَاقَهُ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « تَارِيخِهِ » قَالَ : « لَمَّا وَلِيَ ابْنُ عَامِرٍ

= له الماء » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٥) .

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٩) .

البصرة ؛ انحدر عليه صديقان له من أهل المدينة ، حتّى سارا إلى البصرة ، ثمّ إنّ أحدهما ندّم على مسيره ، وكان نزيهاً غنيّ القلب فقال لصاحبه : أنا راجع .

قال : أنشدك الله أبعد الشقّة البعيدة ، والثّفقة الكبيرة ترجع صفراً ؟ !

قال : إنّني لم أزل عن ابن عامر غنياً ، والذي أغناه قادرٌ أن يغنيني عنه ، ثمّ اعتزّم فرجع عنه ، ولم يلقَ ابنَ عامر فقال صاحبه : ما علمتُ من رجوعه شيئاً إلا وقد ساءني ، غير أنّي كنتُ أتسلّى عن ذلك بفراغ وجه ابن عامر لي ، وأملتُ أن يجعل لي صِلتي وصلةً صاحبي . وكان لابن عامر رجلٌ مقيمٌ بالمدينة ، فكتب إليه بشخص من شَخَصَ يريده ، ولا يقدم الرجل إلا على جائزة معدّة ، وأمر قد أُحكِمَ له ، فلمّا دخلَ عليه قال له : أين أخوك ؟ فقصّ عليه القصصَ فأمر للمقيم بصلّة ، وأضعفَ ذلك للطّاعن ، فخرج المقيم وهو يقول :

<p>أمامة ما حرصُ الحريصُ بنافع خرجنا جميعاً من مساقطِ روسنا فلمّا أنخنا النّاعجات ببابه فقال ستكفيني عطيةً قادرٍ فقلتُ خلا لي وجهه ولعلّه فلمّا رآني سألَ عنه صباةً فأضعفَ عبدُ الله إذ غابَ حظّه وأبئتُ وقد أيقنتُ أن ليس نافعي</p>	<p>فتيلاً ولا زهدُ المقيم بضائر على ثقةٍ منّا بجودِ ابن عامر تخلّفَ عني الخزرجي ابنُ جابر على ما أراد اليوم للنّاس قاهر سيجعلُ لي حظّ الفتى المتأخّر إليه كما حنّت طرابُ الأعبار على حظّ لهفانٍ من الجوعِ فاغر ولا ضائري شيءٍ خلاف المقادر» (١)</p>
--	---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٩ - ٢٩٠) . وفي قصّة أخرى بالمعنى ذاته وفيها إفصاح عن اسم الأنصاريّ تقولُ القصّة : « إنّ الرّجلين اللّذين قصدها هما : ابن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ؛ وآخر من ثقيف ، وأنّ الأنصاريّ لمّا كانا بناحية البصرة ، قال للثّقفيّ : هل لك في رأي رأيته ؟

* ومن قصصه السَّائرة ، وأخباره الآسرة ؛ التي تشيرُ إلى الشَّرَف والرَّئاسة والسِّيادة ، وعلو الهِمَّة والريادة ، ومكارم الأخلاق ، وكريم الأعراق ، ما وردَ عن مواساته أهل البصرة في مجاعةٍ حلَّت بِدارِهِم مدَّةً من الزَّمان ، تقولُ القِصَّة : « أصاب النَّاسَ بالبصرة مجاعةٌ ، فكان ابنُ عامر يُغدِّي عشرة آلاف ، ويعشي مثلهم حتَّى تجلَّتِ الأُرْمة ، فكتبَ إليه عثمان - رضي الله عنه - يُجزيه خيراً ، وأمرَ له بأربع مئة ألف معونة على نوائبه ، وكتبَ إليه : لقد رفعَكَ السُّودد إلى موضع لا يناله إلا الشَّمس والقمر ، فتوحَّ أن يكونَ ما أعطيتَ الله ، فإنَّه لا شرفَ إلا ما كان فيه وله » ^(١) .

* وهذه رقيقةٌ تفصِّحُ عن مكانة سيِّدنا ابن عامر في قلوب النَّاس خاصَّتْهم وعامَّتْهم ، حاضرهم وباديهم ، كما تفصِّحُ عن سخائه ، وحسنِ نواله ، ورقة فؤاده إزاء المحتاجين الذين أملوا فيه الخير ، وطرقوا بابه ، وعَقَدُوا على جوده الآمال . فلنقرأ ما جادَتْ به يَدُ تاريخ هذا الصَّحابيِّ

قال : اعرضه .

قال : رأيتُ أن ننيحَ رواحِلنا ، ونتناول مطاھرنا ، ونمسَّ ماء ثم نصلي ركعتين ، ونحمد الله على ما قضى من سفرنا .

قال : هذا الذي لا يردُّ ، فتوضَّيا ، ثمَّ صلياً ركعتين ركعتين ، فالتفتَ الأنصاريُّ للثَّقفيِّ ، فقال : يا أخا ثقيف ما رأيك ؟

قال : وأيِّ موضع رأي هذا ؟ ! قضيتُ سفري ، وأنصبتُ بدني ، وأنضيتُ راحلتي ، ولا مؤمِّل دون ابن عامر ، فهل لك رأي غير هذا .

قال : نعم ، إنِّي لمَّا صليتُ هاتين الركعتين فكَّرتُ ، فاستحييتُ من ربِّي أن يراني طالباً رزقاً من غيره ، اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ، ثمَّ ولَّيْتُ إلى المدينة القِصَّة . « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٩٠) ، وانظر : « ربيع الأبرار » (٥ / ٣٧٦ - ٣٧٧) .

(١) « التَّذكرة الحمدونيَّة » (٢ / ١٠٩) .

المعطاء : « وقف أعرابيٌّ على سيّدنا عبد الله بن عامر - رضي الله عنهما - في بيته بالبصرة ، فأخذ يخاطبه قائلاً : يا قمر البصرة ، وشمس الحجاز ، ويا بن ذرّوة العرب ، وترّب بطحاء مكّة ، نزعت بي الحاجة ، وأكّدت بي الآمال إلا بفنائك ، فامنحني بقدر الطّاقة والوسع ، لا بقدر المحتد ، والشّرف والهمة ، فأمر له بعشرة آلاف ، فقال الأعرابيُّ متعجباً : ماذا ؟ تمرّة ، أو رطبّة ، أو بُسرة ؟

فقال له : لا هذه ولا تلك ، بل دراهم .

فكاد يصعق من شدّة الفرح ثمّ توجّه إلى الله - عزّ وجلّ - داعياً فقال : « ربّ إنّ ابن عامر يجاودك ، فهَبْ له ذنبه في مجاودتك » ^(١) .

(١) « التّذكرة الحمدونيّة » (٢ / ٣٥٨) بتصرف يسير . ومن أجمل ما مُدِح به عبد الله بن عامر قول زياد الأعجم فيه :

أخ لك ما تراه الدّهر إلا	على العِلّاتِ بسّاماً جواداً
سألناه الجزيلَ فما تلّكنا	وأعطى فوق مُنيتنا وزاد
وأحسنَ ثمّ أحسنَ ثم عدنا	فأحسنَ ثم عدتْ له فعادا
مراراً ما أعودُ إليه إلا	تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

« التّبیین » (ص : ١٩٩) ، و « بهجة المجالس » (١ / ٦٦٥ - ٦٦٦) ،

وغيرها .

وممّا يندرجُ تحت هذا ما وافق به المصادِرُ قالت : سأل الوليدُ بن عقبة مروان بن الحكم وهو على المدينة ، والمغيرة بن شعبة وهو على الكوفة ، فلم يجدْ عندهما طائلاً ، فأنحدر إلى عبد الله بن عامر وهو على البصرة ، فقضى عنه دينه مئة ألف ، وأجازه بمئة ألف ، فقال :

ألا جعلَ اللهُ المِغيرةَ وابنه	ومروانَ نعلني بذلةٍ لابن عامر
لكي يقيه الحَرَّ والقَرَّ والأذى	ولسَعِ الأفاعي واحتدامَ الهواجر

« مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٤) ، و « نسب قريش » (ص : ١٤٨) ،

و « التّذكرة الحمدونيّة » (٢ / ٣١٤) .

* ومن صور جوده النَّادر ما ورد أنَّه : « أراد أن يكتب لرجل خمسين ألفاً ، فجرى القلمُ بخمس مئة ألفٍ ، فراجعهُ الخازنُ ، فقال : أنفذهُ ، فوالله لإنفاذهُ وإن خرجَ المالُ أحسن من الاعتذار ، فاستسرفهُ فقال : إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيراً حَرَفَ القلمُ عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته وأنا أردتُ شيئاً ، وأراد الجوادُ الكريمُ أن يعطي عبده عشرة أضعافه ، فكانت إرادةُ الله الغالبة ، وأمرهُ النَّافذُ » (١) .

* ويذكرُ الزُّبيرُ بنُ بَكَارٍ موقفاً متألقاً في جُودِ عبدِ الله بنِ عامرٍ فيقول : « حدَّثني عمِّي قال : أُرْتَجَّ على عبدِ الله بنِ عامرٍ وهو على منبرِ البصرة في يومِ الأضحى ، فقال : والله لا أجمعُ عليكم عيًّا ولؤماً ، مَنْ أخذَ شاةً من السُّوقِ فهي له ، وثمرتها عليَّ » (٢) .

(١) « التَّذكرة الحمدونيَّة » (٢ / ٣٥٧ - ٣٥٨) فأكرمَ بجود عبد الله وأعظمَ بكلامه ! .

(٢) « الأخبار الموقَّعات » (ص : ٢٠٥) . ومن الطَّرائف الجميلة التي تتعلَّق بالحصر والعِي عن المنبر ، ما ذكره الزُّبيرُ بنُ بَكَارٍ قال : « شكَا عبدُ الله بنُ عامرٍ إلى زيادِ بنِ أبيه - وهو كاتبُهُ على العراق - الحصرَ على المنبر ، فقال : أما إنَّك لو سمعتَ كلامَ غيرك في ذلك الموقف استكثرتَ ما يكون منك .

قال : فكيف أسمعُ ذاك ؟

قال : رُخ يومَ الجمعة ، وكنُ من المقصورة بالقُرب حتَّى أسمعك حُطْبَ النَّاسِ . فلمَّا كان يومَ الجمعة ، قال زيادُ : إنَّ الأميرَ سَهْرَ البارحة ، فليس يمكنه الخروجُ إلى الصَّلَاة ، والتفتُ إلى رجلٍ من سادة بني تميم ، فقال له : قمْ فاخطبْ وصلِّ بالنَّاس ، فلمَّا أوفى على ذروة المنبر قال : الحمدُ لله الذي خَلَقَ السَّمَوَات والأرض في سِتَّةِ أشهر !

قالوا : قَبَّحَكَ اللهُ ، اللهُ - جَلَّ ثَنَاهُ - يقول : ﴿ سِتَّةَ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : ٥٤ ، ويونس : ٣ ، وهود : ٧ ، والفرقان : ٥٩ ، والسجدة : ٤ ، وقى : ٣٨ ، والحديد : ٤] ، وتقول أنت : في سِتَّةِ أشهر ! !

فنزل ، والتفتُ إلى شريفٍ لربيعة ، فقال له : قمْ فاخطب ، فلمَّا ارتقى على =

* ويتحفنا القاضي الرَّشِيدُ بْنُ الرَّبِيرِ في كتابه « الدَّخَائِرُ وَالتُّحَفُ » بهذه الدَّخِيرَةُ الْقِيَمَةُ الَّتِي تَزِيدُ رَصِيدَ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ فِي مَقَامِ الْجُودِ فيقول : « قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ لَامْرَأَتِهِ أُمَامَةَ بِنْتَ الْحَكَمِ بْنِ الْمَنْذَرِ بْنِ الْجَارُودِ الْخَزَاعِيَّةِ : إِنَّ وَلَدَتِ لِي غُلَامًا فَلِكِ حُكْمُكَ .

فَقَالَتْ : أَلَا اسْتَشْنَيْتَهُ قَلِيلًا ؟

قَالَ : قَدْ قُلْتُ .

فَوَلَدَتْ غُلَامًا أَحْوَلَ ، فَاعْتَمَّ بِذَاكَ ابْنُ عَامِرٍ ، قَالَتْ : أَفْتَرَاكَ تَجِيزُ حُكْمِي ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَتْ : فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تَطْعَمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى أَلْفِ خُوانٍ فَالْوَدَجَاءُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ .

= المنبر ضَرَبَ بِطَرْفِهِ ، فَوَقَعَ عَلَى جَارٍ لَهُ كَانَ يَخَاصِمُهُ فِي حَدٍّ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَأَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَجَارِهِ : أَمَّا بَعْدُ : فَإِنْ نَزَلْتُ إِلَيْكَ يَا أَصْلَحُ لَأَفْعَلَنَّ بِكَ وَلَأَفْعَلَنَّ فَأَنْزَلُوهُ .

فَالْتَفَتَ إِلَى رَئِيسٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْأَزْدِ ، فَقَالَ لَهُ : انْهَضْ فَأَقِمْ لِلنَّاسِ صَلَاتَهُمْ ، فَلَمَّا تَسَنَّمَ الْمُنْبَرُ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَمْ يَدِرْ مَا يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! قَدْ وَاللَّهِ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَحْضَرَ الْيَوْمَ ، فَقَالَتْ لِي امْرَأَتِي : أَنْشَدْتِكَ بِاللَّهِ إِنْ تَرَكْتَ فَضَلَ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَطَعْتُهَا ، فَوَقَفْتُ هَذَا الْمَوْقِفَ الَّذِي تَرَوْنَ ، فَأَشْهَدُوا جَمِيعًا أَنَّهَا طَالِقٌ ، فَأَنْزَلُوهُ إِنْزَالًا عَنِيفًا ، وَأَرْسَلَ زِيَادٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ : إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَقِيمُ لِلنَّاسِ صَلَاتَهُمْ ، وَلَا بَدَأَ أَنْ تَحْمِلَ عَلَى نَفْسِكَ ، فَخَرَجَ ، فَخَطَبَ ، فَتَبَيَّنَ فَضْلُهُ فِي النَّاسِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ . « الْأَخْبَارُ الْمَوْقِفِيَّاتُ » (ص : ٢٠٣ - ٢٠٤) ، وَانْظُرْ : « مُخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ » (١٢ / ٢٨٦) ، وَفِيهِ : « إِنَّهُ صَعِدَ مِنْبَرُ الْبَصْرَةِ ، فَخَصِرَ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةً مَنْ تَرَى أَصَابَهُ أَكْبَرَ مِمَّا أَصَابَكَ » .

وكان النَّاسُ يَعدُّونَ هذا من الخِزَاعِيَّةِ ، فلمَّا كان اليَومُ السَّابعُ عَقَّ عنه بألفِ شاةٍ ، وكان ابنُ عامرٍ أوَّلَ مَنْ فَعَلَ هذا « (١) .

* إِنَّ قِصَصَ سِخَاءِ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ لَا يَمَلُّ سَامِعُهَا ، وَهِيَ مَنُورَةٌ فِي ثَنَائِيَا تَرْجُمَتِهِ فِي الْمَصَادِرِ الْمُوثُوقَةِ .

الْفَاتِحُ الْمَظْفَرُ :

* آثَارُ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ فِي الْفُتُوحَاتِ آثَارٌ حَمِيدَةٌ جَلِيلَةٌ ، وَأَعْمَالُهُ فِي نَشْرِ دِينِ اللَّهِ رَشِيدَةٌ نَبِيلَةٌ ، فَقَدْ قَيَّضَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِهَذَا الصَّحَابِيِّ الشُّجَاعِ الطُّرُوفَ الْمُنَاسِبَةَ ، فَتَمَكَّنَ بِفَضْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى آمَالِ الْفَرَسِ ، وَبَثَّرَ أَحْلَامَهُمْ ، وَكَسَحَ تَطَلُّعَاتَهُمْ بِشَكْلِ كَامِلٍ حِينَما قَوَّضَ مُلُوكَهُمْ ، وَقَضَى عَلَى آخِرِ رَمَقٍ مِنْ أَمْلِهِمْ ، وَنَسَفَ بِسَيْفِهِ آخِرَ مَلُوكِهِمْ يَزْدَجَرْدُ بْنُ شَهْرِيَّارِ بْنِ كَسْرَى ؛ وَخِرَزَادَ مَهْرَ أَخَا رِسْتَمِ ، وَكَانَا قَدْ تَزَعَّمَا الْفُرسَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ .

* قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ فَتُوحَاتِ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ وَعَنْ يُمْنِهِ وَبَرَكَتِهِ عَلَى جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ : « وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَ خِرَاسَانَ ، وَقُتِلَ كَسْرَى فِي وَلَايَتِهِ ، وَأَحْرَمَ مِنْ نِيسَابُورٍ شُكْرًا لِلَّهِ ، وَعَمِلَ السَّقَايَا بِعَرْفَةٍ ، وَكَانَ سَخِيًّا كَرِيمًا » (٢) .

* وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ فَتُوحَاتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « وَهُوَ افْتَتَحَ عَامَّةَ فَارِسَ ، وَخِرَاسَانَ ، وَسَجِسْتَانَ ، وَكَابِلَ ... » (٣) .

(١) « الذَّخَائِرُ وَالتَّحْفُ » (ص : ١١١) ، وَانْظُرْ : « التَّذَكُّرَةُ الْحَمْدُونِيَّةُ » (٢ / ٣٥) .

(٢) « سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ » (٣ / ١٩) .

(٣) « الْمَعَارِفُ » (ص : ٣٢١) .

* وقال ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ عن الموضوع ذاته : « وَذُكِرْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عامر بعوثٌ وسرايا ، وفتوحاتٌ وغنائم كثيرة » (١) .

* ونحنُ ذاكروا بعضَ المواقفِ العطرة الرَّأكية من فتوحات هذا البطل المسقَّاء ، الأريب اللبيب المعطاء ، لترسمَ شخصيته في القلوب والأذهان ، فقد افتتح كثيراً من البلدان ، في عهدِ سيِّدنا عثمان - رضي الله عنهما - ، وأدخلنا في معيتهما واسع الجنان .

* فمن المدن الشهيرة التي افتتحها عبدُ الله بنُ عامر - رضي الله عنهما - مدينة « أبرشهر » ، وعن هذه المدينة الشهيرة في التاريخ التي افتتحها عبدُ الله بنُ عامر - رضي الله عنهما - يصفُها « الحميريُّ » في « الرِّوض المِعطار » فيقول : « أبرشهر : هي مدينةُ نيسابور ؛ وقصدها غازياً الأحنفُ بنُ قيس من قِبَلِ ابنِ عامر ، فَلَقِيَهُ الْهَيَّاطَةُ فَقَاتَلَهُمْ فَهَزَمَهُمْ ، ثُمَّ أَتَى ابْنُ عامر نيسابور فافتتحَ مدينةَ أبرشهر هذه ، قِلَ صَلْحاً ؛ وقيل عنوةً ، وفتح ما حولها : طوس ، وبيورد ، ونسا ، وسرخس ، ولَمَّا افتتحها ابنُ عامر

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٦) . ومن الجدير بالذكر أنَّ سيِّدنا عبد الله بن عامر - رضي الله عنهما - كان ذا خبرة بقيادة النَّاس وسياستهم وفهم أحوالهم ، فعندما تمرَّد أهل الكوفة في عهد سيِّدنا عثمان - رضي الله عنه - ، استدعى عثمان ولاته على البلدان ، فحضر منهم : معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله بن سعد ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص - رضي الله عنهم أجمعين - ، وطلب منهم أن يشيروا عليه في أمر الكوفة ، فقال له عبد الله بن عامر : « إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لَأَنْهُمْ غَيْرُ مُشْغُولِينَ بِالْجِهَادِ ، وَهُمْ مُتَفَرِّغُونَ لِلْإِسَاعَاتِ وَالْفِتَنِ ، يَمْلَأُونَ بِهَا أَوْقَاتَهُمْ ، وَيُشْغَلُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ . أَرَى لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِجِهَادِ الْأَعْدَاءِ ، يُشْغَلَهُمْ عَنْكَ وَأَنْ تُبْقِيَهُمْ فِي الْمَغَازِي ، وَأَنْ تَوْفِقَهُمْ عَلَى الثَّغُورِ ، فَلَا يَكُونُ هُمٌّ أَحَدَهُمْ إِلَّا نَفْسُهُ ، وَلَا يَفْكَرُ إِلَّا فِي دَابَّتِهِ وَسِلَاحِهِ وَقِتَالِهِ ، وَإِزَالَةِ قَتْلِ فِرْوَتِهِ ! ! » .

أعطوه جاريتين من آل كسرى» (١) .

* ولَمَّا افْتَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ «هَرَاةَ» وَبَادَغِيشَ «فِي خِرَاسَانَ قَالَ لَهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَوَجْوهُ مِنَ النَّاسِ : « مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ مَا فَتَحَ عَلَيْكَ فَارِسَ وَكِرْمَانَ وَسَجِسْتَانَ وَسَائِرَ خِرَاسَانَ » . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « لَا جَرَمَ ، لِأَجْعَلَنَّ شُكْرِي لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ أَنْ أَخْرَجَ مَعْتَمِرًا مِنْ مَوْقِفِي ، وَأَحْرَمَ بَعْمَرَةَ مِنْ نَيْسَابُورَ » . فَلَمَّا قَدَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَامَهُ عَلَى إِحْرَامِهِ مِنْ خِرَاسَانَ ، وَقَالَ لَهُ : « لَيْتَكَ تَضَبَّطَ الْمِيقَاتِ الَّذِي يَحْرُمُ مِنْهُ النَّاسُ » (٢) .

* وَذَكَرَ «الْبَلَاذِرِيُّ» أَنَّ سَيِّدَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرٍ قَدْ وَجَّهَ جَيْشًا إِلَى «هَرَاةَ» ، فَبَلَغَ مَلِكُهَا ذَلِكَ ، فَشَخَّصَ إِلَى ابْنِ عَامِرٍ ، وَمِنْ ثَمَّ صَالَحَهُ عَنْ هَرَاةَ وَبَادَغِيشَ ، وَبُوشَنَجَ ، فَكَتَبَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كِتَابًا فِي ذَلِكَ هَذَا نَصَّهُ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ عَظِيمَ هَرَاةَ وَبُوشَنَجَ وَبَادَغِيشَ ، أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَمَنَاصِحَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِصْلَاحِ

(١) «الرَّوَضُ الْمَعْطَارُ» (ص : ٩) .

(٢) «مختصر تاريخ دمشق» (١٢ / ٢٨٨) ، و«الرَّوَضُ الْمَعْطَارُ» (ص : ٧٣ - ٧٤) مع الجمع والتصرف اليسير .

قال ابن حجر رحمته الله : « افْتَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ فِي إِمَارَتِهِ خِرَاسَانَ كُلَّهَا ، وَسَجِسْتَانَ وَكِرْمَانَ وفي إِمَارَتِهِ قُتِلَ يَزْجَرْدُ آخِرُ مَلُوكِ الْفَرَسِ ، وَأَحْرَمَ ابْنُ عَامِرٍ مِنْ خِرَاسَانَ ، فَقَدَّمَ عَلَى عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فَلَامَهُ وَقَالَ : غَرَزْتَ بِنَفْسِكَ . قَالَ الْبَخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» : وَكَرِهَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَحْرَمَ مِنْ خِرَاسَانَ وَكِرْمَانَ وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدَ : لَمَّا فَتَحَ خِرَاسَانَ ، قَالَ : لِأَجْعَلَنَّ شُكْرِي أَنْ أَحْرَمَ مِنْ مَوْضِعِي ، فَأَحْرَمَ مِنْ نَيْسَابُورَ ، فَلَمَّا قَدَّمَ عَلَى عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَامَهُ قَالَ أَبُو عَمْرٍ : قَدَّمَ ابْنُ عَامِرٍ بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ فَفَرَّقَهَا فِي قَرِيشَ وَالْأَنْصَارَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْحِيَاضَ بَعْرَةً ، وَأَجْرَى إِلَى عَرَفَةَ الْعَيْنَ » «تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ» (٥ / ٢٧٣) بِتَصْرُفٍ .

ما تحت يديه من الأرضين ، وصالحه عن هراة سهلها وجبلها ، على أن يؤدي من الجزية ما صالحه عليه ، وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلاً بينهم ، فمن منع ما عليه فلا عهد ولا دمة . وكتب ربيع بن نهشل ، وختم ابن عامر ^(١) .

* ومن المدن الشهيرة التي افتتحها سيّدنا عبد الله بن عامر مدينة « بلخ » ، وبلخ مدينة خراسان العظمى ، ودار مملكة الأتراك ، وبها العساكر والأجناد والملك ، والقواد والعمّال ، والأسواق العامرة ، والمتاجر والأموال الواسعة ، والأحوال الصالحة ، تحيط بها الكروم والبساتين والمنتزهات ، وبها مدارس للعلوم ، ومقامات للطلاب .

* وفي فتح هذه المدينة قال أصحاب المغازي ما مفادُه : « بعث عبد الله بن عامر - رضي الله عنهما - الأحنف بن قيس إلى بلخ ، فسار إليهم من مرو الرّوذ ، فحاصروهم ، فصالحه أهلها على أربع مئة ألف ، فرضي بذلك ، ومضى إلى خوارزم فأقام حتّى هجم الشتاء ، فقال لأصحابه : ما ترون ؟

فقال له حصين : قد قال عمرو بن معدي كرب :

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
فأمر الأحنف بالرحيل ، ثمّ انصرف إلى بلخ ، وقد قبض ابن عمّه ما صالحهم عليه ، ووافق مهرجاناتهم وهو يجيئهم ، فأنفذوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع ودواب فقال : هذا لم نصالحكم عليه .

قالوا : لا ، ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم لمن ولينا نستعطفه

به .

قال : ما أدري ما هذا ، وإنّي لأكره أن أردّه ولعلّه من حقّي ، ولكنّي أقبضه وأعزله حتّى أنظر .

(١) « فتوح البلدان » (ص : ٥٠١) .

وقدم الأحنف ، فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا مثل ما قالوا له ، فقال الأحنف : آتي به الأمير ، فحملة إلى ابن عامر وأخبره به ، فقال : اقبضه يا أبا بحر ، فهو لك .

قال : لا حاجة لي فيه .

فقال ابن عامر : ضمّه إليك ، وكان مضمماً ^(١) .

من إصلاحاته في البصرة :

* لما تذكّر البصرة في العهد الراشديّ يذكّر معها الصحابيّ ابن الصحابيّ عبد الله بن عامر - رضي الله عنهما - ؛ إذ إنّ له من الإصلاحات الاقتصادية والعمرانيّة ما يرفع الرّؤوس ويثلج الصّدور ، وهذه الإصلاحات المباركة لا تقلّ أهميّة عن فتوحاته الباهرة ، وانتصاراته القاهرة لأساطين الفرس الذين تلاشوا أمام جيوشه ، وانحسرت آمال كبارهم أمام عزّمتِه وغضبتيه المُضريّة لإعزاز دين الله - عزّ وجلّ - .

* فمن أعماله التي تُحتسب في رصيده الخير ؛ أنّه اشترى سوق البصرة من ماله الخاص ، ومن ثمّ وهبهُ لأهلها . وكان هذا السوق مهمّاً جداً ، بحيث يتوسّط مدينة البصرة ، وكان السوق قائماً على ضفاف النّهر الذي يتوسّط البصرة ، ولا ريب في أن هذا الاختيار هو اختيارٌ موفّقٌ ، صادرٌ عن خبرة وعن دراية بأحوال النّاس وأمور معاشهم ومعيشتهم ؛ لأنّه يجعل السوق التجاريّ

(١) « الرّوض المعطار » (ص : ٩٦) ، و« فتوح البلدان » (ص : ٥٠٤) .

أقول : « فتح سيّدنا عبد الله بن عامر - رضي الله عنه - من البلاد والنّواحي وله بها آثارٌ جميلة ، وقد ذكر شطراً من هذه الفُتوحات عدد من المؤرّخين ، ومنهم : البلاذريّ ، والطّبريّ ، وابن الأثير ، والحميريّ ، وغيرهم ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى المصادر المذكورة ، وإلى كتاب : « فنّ الحرب الإسلاميّ » لبسام العسليّ وغيرها ، والله تعالى أعلم » .

مركزاً مهماً ، ومكاناً سهلاً في وسط المدينة ، ليسهل التعامل لمعظم الصّادرين والواردين عليه .

* وتذكرُ المصادر المتنوّعة أعمالاً عظيمةً لسَيِّدنا عبد الله بن عامر ، ومنها ما يتعلّق بمجال الرّي ، فقد أُولِيَ ابنُ عامر كبيرَ عنايته لهذا الأمر ، وذكرَ ابنُ قتيبة أعمالاً عديدةً لابن عامر ومنها قوله : « واتَّخذ النَّبَّاح ، وغرس فيها ، فهي تُدعى نباح ابن عامر ، واتَّخذ القريبتين وغرسَ بها نخلاً ، وأنبطَ عيوناً تعرف بعيون ابن عامر على طريق المدينة واتَّخذ بعرفات حياضاً ونخلاً ، واحتفرَ بالبصرة نهرين ، أحدهما في الشّرق ، والآخر يُعرف بأمّ عبد الله ، وأمّ عبد الله : أمّه ، واسمها دُجاجة بنت أسماء السُّلمية ، وحوض أمّ عبد الله بالبصرة منسوب إليها ، وعبد الله بن عامر حفر نَهْر الأُبلة ، وكان يقول : لو تُركت لخرجتِ المرأةُ في حِداجتها على دابتها ، تردُّ كلَّ يوم على ماء وسوق حتّى توفي في مكة » (١) .

* ومن الواضح لكلّ ذي بَصَرٍ وبصيرة ؛ أنّ سَيِّدنا عبد الله بن عامر - رضي الله عنه - كان شديد الرّغبة في الإصلاح لصالح المسلمين ، فقد أدّت فتوحاته المظفّرة الموقّعة إلى انتشار الرّخاء التّجاريّ على أرجاء البصرة وما حولها ، ولهذا ساعد النّاس على تنمية أموالهم من خلال تجارتهم في أسواق البصرة ، وانصبابهم عليها ، وبالتالي نلحظ أنّ الحياة الاجتماعيّة شرعتْ تنمو بوضوح في مدينة البصرة ، وتنشط نشاطاً عجيباً جعلها القاعدة العظمى للخلافة الإسلاميّة في فتوحاتها ببلاد المشرق عصر ذاك .

* إذاً ؛ كانت الحركة التّجاريّة ، والحالة الماليّة لمدينة البصرة ممتازة ، فالفتوحاتُ الواسعةُ في المشرق ، والانتعاشُ التّجاريُّ للبصرة ، واستقرار أجنحة الأمن فيها ، واستيطان عددٍ كبير من أبناء الصّحابة وغيرهم من النّاس في هاتيك النّواحي ، ثمّ شخصيّة سَيِّدنا عبد الله بن عامر المتألّقة المحبوبة ؛

(١) « المعارف » (ص : ٣٢١) بشيء من التّصرّف .

إذ جعل باب الإمارة مفتوحاً لمن أراد أدنى حاجة ، هذه الأمور جميعها جعلت البصرة قرينةً بابن عامر ، وجعلت منها واحةً آمنٍ وأمانٍ لمن قصدها ساكناً ، أو تاجراً ، أو طالباً للعلم ، ولهذا طفق الناس يقولون : « قال ابنُ عامر ، وفعل ابنُ عامر ^(١) » .

وهذا القولُ وأمثاله يؤكِّدُ سيرةَ ابن عامر الحميدة التي اجتذبت قلوبَ النَّاسِ إليه ، وجعلتهم يكثرون من الثناء عليه .

يرحمُ اللهُ ابنَ عامر :

* بعد أن استشهد سيِّدنا عثمان - رضي الله عنه - ، لحق سيِّدنا عبد الله بن عامر بالشَّام ، حتَّى نزلَ دمشق ، ثمَّ إنَّ سيِّدنا معاوية لما تمَّ له الأمر ولَّى على البصرة بُسرَ بنَ أبي أرطاة ، ثمَّ عزله عنها ، فقال له سيِّدنا عبدُ الله بنُ عامر - رضي الله عنه - : « إنَّ لي بها ودائع عند قوم ، فإنَّ لم تولِّني البصرة ذهبتُ » ^(٢) ، فولاه البصرة ثلاث سنين عدداً ، ثمَّ عزله .

(١) « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٧) ، ومن الجدير بالذكر أنَّ سيِّدنا ابن عامر لما سمع النَّاسُ يثنون عليه قال : « إذا طابت الكسبة زكَّتِ الثَّفَّة » .

ومن شدَّة حُبِّ النَّاسِ لابن عامر طلبوا من الخليفة عثمان - رضي الله عنه - أن يقرَّه على عمله ، وذلك لما استُعْتِبَ سيِّدنا عثمان - رضي الله عنه - من عماله ، كان فيما شرطوا عليه أن يقرَّ عبد الله بن عامر بالبصرة ، لتحبيبه إليهم وصلَّته لهذا الحيِّ من قريش . « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٧) بتصرُّف .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٨) . وعن ولاية عبد الله بن عامر البصرة في عهد معاوية يمكن أن نستخلص من « تاريخ الطُّبري » ما مفاده : « ففي هذه السَّنة - أي : ٤١ هـ - ولَّى معاوية عبدَ الله بنَ عامر البصرة ؛ وحرب سجستان ، وخراسان ، ولم يكن تعيينُ عبد الله بن عامر على البصرة لأسبابٍ شخصيَّة ، لأنَّه لم ترِدْ روايةٌ صحيحةٌ تؤكِّد ذلك ، ولكنَّ اختيارَ معاوية لعبد الله بن عامر كان نتيجة خبرته السَّابقة في ولاية البصرة ، وحرب سجستان =

* ولعزله عن مدينة البصرة من قِبَل سَيِّدنا معاوية قَصَّةٌ تسيلُ لطافةً وظرفاً وملاحةً ، وقد ساقها ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ في « تاريخه » اللطيف المفيد فقال : « كان عبدُ الله بنُ عامر - رضي الله عنهما - بالبصرة عاملاً لمعاوية - رضي الله عنه - ، فَضَعَّفَ في عمله حتَّى شُكِيَ إلى معاوية - رضي الله عنه - ، فلمَّا أُكثِرَ عليه في أمره ، كتبَ كتاباً يسأله من خلاله أن يزوره في دمشق الشام زُورَةً ، فقدمَ عليه ابنُ عامر ؛ وكان يزوره ، ويأتيه ويتغدَّى عنده ، فلمَّا قضى ابنُ عامر حاجاته دخلَ على معاوية ليوذِّعَه ، ويرجعَ إلى عمله ، فودَّعَه ، وقَبِلَ معاوية وداعه ، ثمَّ قال له : يا بن عامر ! إنِّي سائلُك ثلاثاً :

فقال عبدُ الله : هي لك ؛ وأنا ابنُ حكيم .

قال : تردّ عليَّ عَمَلي ، ولا تغضب عليَّ .

قال : قد فعلتُ .

قال : وتهب لي مالكَ بعرفة .

قال : قد فعلتُ .

قال : وتهب لي دورك بمكة .

قال : قد فعلتُ يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : وصلَّتْكَ رحمٌ .

قال ابنُ عامر : وإنِّي سائلُك يا أمير المؤمنين ثلاثاً ، فَقُلْ : قد فعلتُ .

قال معاوية : قد فعلتُ وأنا ابنُ هند .

= وخراسان أيام عثمان - رضي الله عنه - ، فما كان من معاوية إلَّا أن أسند الأمر إلى أهله ، ووضعَ الرِّجلَ المناسب في المكان المناسب ، وبعد أن أمضى عبد الله بن عامر ثلاثة أعوام يمكن خلالها من تثبيت الفتح في سجستان وخراسان ، واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية ، ثم عزله معاوية ، وولَّى الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة » .

قال : تردُّ إليَّ مالي بعرفة .

قال : رددتُ إليك مالك بعرفة .

قال : وتنكحني هند بنت معاوية .

قال : قد فعلتُ .

قال : ولا تحاسب لي عاملاً ، ولا تتبع أثري .

قال : قد فعلتُ « (١) » .

* وكانت هندُ بنتُ معاوية عند عبد الله بن عامر بن كُريز ، ثمَّ عند عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان فماتت عنده .

* قال الحاكمُ رَحِمَهُ اللهُ فِي « المستدرک » وغيره ما مفاده : « كان معاوية - رضي الله عنه - قد زَوَّجَ عبدَ الله بنَ عامر - رضي الله عنهما - ابنته هنداً ، وكانت من فواضل بنات الصَّحابة ونساء عصرها ، وكانت أبرَّ شيء بعد الله بن عامر ، فجاءته ذات يوم بالمرأة ، فالتقى وجهه وجهها ، فرأى شبَّابها وجمالها ، ورأى الشَّيب قد غزا لحيته ومفرقه ، وألحقه بالشَّيوخ ، فرفع رأسه إلى هندٍ وقال لها : الحقني بأبيك ! فانطلقت هند حتَّى دخلت على أبيها وهي تمشي على استحياء ، فأخبرته ، فقال معاوية - رضي الله عنه - : وهل تُطلِّقُ الحرَّة ؟ !

فقالت هند : ما أتى من قبلي ، فأخبرته خبرها .

فأرسل معاوية إلى عبد الله بن عامر فقال له : أكرمتك بابنتي ثمَّ رددتها

عليَّ ؟ !

فقال : يا أمير المؤمنين ! أخبرك عن ذاك ، إنَّ الله - تبارك وتعالى - قد

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٨٨ - ٢٨٩) . قال الإمام الذَّهبي رَحِمَهُ اللهُ : « ولي

ابن عامر البصرة لعثمان ، ثمَّ وفد على معاوية ، فزوجه بابنته هند ، وداره بدمشق بالحويرة هي دار ابن الحرساني » . « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٨) .

مَنْ عَلَيَّ بِفَضْلِهِ ، وَجَعَلَنِي كَرِيماً ، وَلَا أَحَبُّ إِلَّا كَرِيماً ، لَا أَحَبُّ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيَّ أَحَدٌ ، وَأَنَّ ابْنَتَكَ هِنْدًا قَدْ أَعْجَزْتَنِي بِمَكَافَأَتِهَا لِحَسَنِ صَحْبَتِهَا ؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا شَيْخٌ وَهِيَ شَابَةٌ لَا أَزِيدُهَا مَالاً ، وَلَا شَرَفًا إِلَى شَرَفِهَا ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّهَا إِلَيْكَ لِتَزُوجَهَا فَتًى مِنْ فَتَيَانِكَ ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَّةٌ مُصْحَفٌ « (١) .

* وَلَمَّا تَرَجَمَ ابْنُ عَسَاكِر رَضِيَ اللَّهُ لَهُنَدَ بِنْتَ مَعَاوِيَةَ قَالَ مَا خَلَاصَتُهُ : « هِنْدُ بِنْتُ مَعَاوِيَةَ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ الْأُمَوِيَّةِ زَوْجَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ كَانَتْ دَارَهَا بِدِمَشْقَ بِدَرْبِ الْقَلْبِيِّ ، تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِبَنِي حُجْبِجَةَ وَأُمُّ هِنْدٍ هِيَ فَاحِشَةُ بِنْتُ قَرْظَةَ وَلِهِنْدٍ وَرَمْلَةٌ بِنْتُ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ :

أُوْمِلُ هِنْدًا أَنْ يَمُوتَ ابْنُ عَامِرٍ وَرَمْلَةً يَوْمًا أَنْ يَطْلُقَهَا عَمْرُو » (٢)

* ظَلَّ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَرِيزٍ مَرْعِي الْجَانِبِ ، مُوفُورَ الْهَيْبَةِ وَالْمَكَانَةِ مِنْ قَبْلِ مَعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَامْتَدَّتْ الْحَيَاةُ بِابْنِ عَامِرٍ إِلَى نَهَايَةِ خِلَافَةِ سَيِّدِنَا مَعَاوِيَةَ ، حَيْثُ وَافَتَهُ الْمَنِيَّةُ بِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ ، فَدُفِنَ بِعُرْفَاتٍ ، وَعَقِبَهُ كَثِيرٌ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ (٥٩ هـ) . وَأَوْصَى إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَحَضَرَهُ ابْنُ عَمْرِو عِنْدَ وَفَاتِهِ ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا اتَّخَذَ مِنَ الْحَيَاضِ بِعُرْفَاتٍ ، وَبِأَثَارِهِ فِي الْأَرْضِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ ابْنُ عَمْرِو : « إِذَا طَابَتِ الْمَكْسَبَةُ ، زَكَتِ التَّقَفَةُ ، وَسُتِرْدُ فَتَعْلَمُ » (٣) .

* وَأُورِدَ ابْنُ عَسَاكِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لَمَّا مَرَضَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهِمْ ابْنُ عَمْرِو قَالَ : مَا تَرَوْنَ

(١) « المستدرک » (٣ / ٧٤١ - ٧٤٢) ، برقم : (٦٦٩٧) ، وانظر : « تاریخ دمشق » (تراجم النساء ، ص : ٤٦٢) ، و « نسب قريش » (ص : ١٤٩) ، و « أعلام النساء » (٥ / ٢٥٣) ، وغيرها كثير .

(٢) « تاریخ دمشق » (تراجم النساء ، ص : ٤٥٩) باختصار .

(٣) « المعارف » (ص : ٣٢١ - ٣٢٢) بتصرف .

في حالي ؟ فقالوا : ما نشكُّ لك في النَّجاة ، قد كُنْتَ تقري الضَّيف ، وتعطي المختبط « (١) .

* وعن ميمون قال : « بعثَ عبدُ اللَّهِ بنُ عامر حين حضرته الوفاة إلى مشيخة أهل المدينة ، وفيهم ابنُ عمر ، فقال : أخبروني كيف كانت سيرتي ؟ قالوا : كنتَ تصدِّقُ ، وتعتقُ ، وتصلُّ رحمك ، وابن عمر ساكتٌ ، فقال : يا أبا عبد الرَّحْمَنِ ! ما يمنعك أن تتكلَّم ؟ قال : قد تكلم القوم . قال : عزمتُ عليك لتكلمنَّ .

فقال ابنُ عمر : إذا طابت المكسبةُ زكَتِ النَّفَقَةُ ، وستقدم فترى « (٢) . * توفي ابنُ عامر قبل معاوية بسنة ، في سنةٍ تسع وخمسين ، فقال سيِّدنا معاوية - رضوانُ اللَّهِ عليه - : « يرحمُ اللَّهُ أبا عبدِ الرَّحْمَنِ ؛ بِمَنْ نفاخر وبِمَنْ نُباهي ؟ » (٣) .

* رضي اللَّهُ عن الصَّحابيِّ ابنِ الصَّحابيِّ عبدِ اللَّهِ بنِ عامر ، صاحب العمل الرَّأهر ، والقلب الطَّاهر ، والوجه الباهر ، والفتاح الشَّجاع الظَّافر ، والمصلح الكريم الماهر ، والابن الشَّاكر الدَّاكر ؛ وجمعنا وإيَّاه في الجَنَّة تحت راية سيِّد الأوائل والأواخر ، محمَّد ﷺ ، وغفرَ لنا ورحمنا وأكرمنا بعفوه إنَّه الغنيُّ القادر .



(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٩١) . وقوله « المختبط » : الذي يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ، ولا يد سلفت منه إليه ولا قرابة .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٢٩١) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٩) .

عبد الرحمن بن أبي بكر

رضي الله عنهما

- * ابن الصديق الأكبر ؛ وشقيق أمنا عائشة أم المؤمنين .
- * أبوه صحابي ، وجدّه صحابي ، وهو صحابي ، وابنه صحابي .
- * كان شجاعاً رامياً ؛ وله أعمال عظيمة في الإسلام .

عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما

سَجَايَا مُتَفَرِّدَةٌ :

* ينفرد ابنُ الصَّحَابِيِّ هَذَا بِمِيزَاتٍ كَرِيمَةٍ لَمْ تَتَوَفَّرْ لِغَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

* وَقَبْلَ أَنْ نَسْتَرْسَلَ فِي سِيرَتِهِ ، دَعَوْنَا نَقْرَأَ هُؤَيَّتَهُ الَّتِي تَقُولُ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقُ ^(١) ، شَقِيقُ سَيِّدَتِنَا الصَّدِيقَةِ بِنْتِ الصَّدِيقِ أُمِّنَا عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

* وُلِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَسَمَّ فَجْرُ الْإِسْلَامِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الرُّوحُ الْأَمِينُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَلْبِ الْأَمِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِيَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .

(١) « أنساب الأشراف » (١ / ٣٢١ ، ٤٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٩) ، و« المعارف » (ص : ١٧١ ، و١٧٣ ، و١٧٤ ، و١٧٨ ، و٢٣٣ ، و٥٩١) ، و« طبقات ابن سعد » (الفهارس : ٨ / ١٠٩) ، و« البداية والنهاية » (٨ / ٨٨ - ٨٩) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية ، ص : ٢٦٥ - ٢٦٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٧٩ - ٢٨٦) ، و« التبيين » (ص : ٢٧٤ - ٢٧٦) ، و« المستدرک » (٣ / ٥٣٨ - ٥٤٢) ، و« معرفة الصحابة » (٣ / ٢٦٣ - ٢٦٤) ترجمة رقم : (١٨١٢) ، و« الإصابة » (٢ / ٣٩٩ - ٤٠١) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٣٩١ - ٣٩٤) ، وغيرها كثير جداً .

* على بساط الأرض الطاهرة الطيبة المباركة مكة شبَّ عبد الرَّحْمَنِ وارتشف من فصاحة قريش ، وبلاغة أسرته ، ما جعله أحد الشعراء المُجيدِين من أبناء الصَّحابة ، بالإضافة إلى سجايا لطيفة تفرَّد فيها هذا الابن السيِّد المفضال ، فما السَّجايا والخلال التي تمتَّع بها ابنُ أبي بكر رضي الله عن أبيه ، وعنه وعن الصَّحابة وأبنائهم أجمعين ؟

* فأوَّلُ سَجِيَّةٍ أَنَّ سيِّدنا وحبیبنا رسولَ الله ﷺ صهره على شقيقته الصَّدِيقَةِ الصَّادِقَةِ ، أظهِرِ الطَّاهِرَاتِ ، وأفقه نساءِ الأُمَّةِ العالِمَاتِ ، عائشة ^(١) التي نزلت براءتها من فوق سبع سماوات ، لِيُتْلَى في المحارِبِ تلك الآيات ، إلى أن يرثَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - الأرضَ والسَّمَوَاتِ ، ولتشهد لها بأنَّها سيِّدَةُ السيِّدَاتِ ، وقدوةُ المؤمنات ، وصاحبةُ الكرامات ، ويكفيها فخراً يكفيها أنَّها زوج أشرف الكائنات ﷺ .

* والسَّجِيَّةُ الأُخْرَى لعبد الرَّحْمَنِ التي تُطاول الجوزاء أنَّه اتَّفَقَ له ولأبيه ، وجَدَّه ، وابنه ، ما لم يَتَّفَقْ لغيره من أبناء الصَّحابة القرشيين ؛ فقد كان هؤلاء الأربعةُ صحابةً صحبوا النَّبِيَّ ﷺ ورأوه . قال ابنُ قتيبة رَحِمَهُ اللهُ : « أربعة رأوا رسولَ الله ﷺ في نسق : أبو قحافة ، وابنه : أبو بكر الصَّدِيق ، وابنه : عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر ، وابنه : محمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ - رضي الله عنهم أجمعين - » ^(٢) . ويضاف

(١) اقرأ سيرة الصَّدِيقَةِ الصَّادِقَةِ الطَّاهِرَةِ أُمِّنا عائشة - رضي الله عنها - في الباب الأوَّل من كتابنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ١٢٣ - ١٨٨) ، ط : ٦ ، ففي سيرتها كفاية للأخيار ، وربيع للأبرار .

(٢) « المعارف » (ص : ٥٩١) . وقال الإمام النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وغيره : « قال العلماء : ولا نعلم أربعة ذكور مسلمين متوالدين بعضهم من بعض ، أدركوا النَّبِيَّ ﷺ وصحبوه ، إلا أبو قحافة ، وابنه أبو بكر ، وابنه عبد الرَّحْمَنِ ، وابنه محمَّد بن عبد الرَّحْمَنِ أبو عتيق - رضي الله عنهم أجمعين - . » تهذيب الأسماء واللغات =

إلى هذا أنَّ أمَّه السيِّدة الفاضلة أمّ رومان^(١) من كبار الصَّحابيات وهي حماةُ رسول الله ﷺ ، ولها من المواقف الحِسان ، ما يعجزُ عن وصفه اللسان ؛ ويصعبُ نظمه على أئمة الفصاحة والبيان . كما أنَّ جدَّته لأبيه سلمى بنت صخر^(٢) أم الخير تُعدُّ من خيار الصَّحابيات ، اللواتي أغنَّين السَّيرة بمآثرهنَّ الكريمة ؛ وأعمالهنَّ العظيمة ؛ ولو رحَّحُ أحدثكم عن هذه السَّجِّية وحدها لطال بنا الوقوف ، ولكِنَّه وقوفٌ ممتعٌ مفيدٌ أسرُّ ساحرٌ ، ويكفي سيِّدنا عبد الرَّحمن من المفآخر أنَّ أباه الصَّديق أوَّل الخلفاء الرَّاشدين ، وأوَّل العشرة المبشِّرين بالجنَّة^(٣) ، وأوَّل مَنْ قَمَعَ حركة المرتدِّين ، وفضائله

= (١ / ٢٩٤) ، وانظر : « المستدرک » (٣ / ٥٤٠ - ٥٤٤) ، وانظر : « التَّبيين » (ص : ٢٧٦ - ٢٧٧) ، وغيرها .

قال الإمام النَّووي رَحِمَهُ اللهُ فِي موضع آخر من « تهذيبه » : « قال العلماء : لا يُعرف أربعة متناسلون بعضهم من بعض صحبوا رسول الله ﷺ إلا آل أبي بكر الصَّديق وهم : عبد الله ابن أسماء بنت أبي بكر الصَّديق بن أبي قحافة ، فهؤلاء الأربعة صحابة متناسلون ، وأيضاً : أبو عتيق بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة - رضي الله عنهم - . » تهذيب الأسماء واللغات (٢ / ١٨١) .

(١) طالع سيرة السيِّدة النَّبيلة أمّ رومان بنت عامر الكنانية في كتابنا : « نساء مبشَّرات بالجنَّة » ، ط : ٥ ، (ص : ٨٢ - ٩٤) ، فإنَّ في سيرتها مناهل تروي القلوب الحرَّى التي توذُّ الاقتداء بها وبأعمالها - رضي الله عنها - .

(٢) اقرأ سيرة المؤمنة الصَّادقة المهاجرة سلمى بنت صخر في كتابنا : « نساء من عصر النَّبوة » ط : ٣ - ٢٠٠٣ م ، فقراءة سيرتها تدخلُ إلى الثَّقوس السُّرور ؛ بإذن العزيز الغفور .

(٣) العشرة المبشَّرون بالجنَّة قرشيون أعلامٌ فضلاءُ أعيانٌ لهم ميزاتٌ لم تتوفَّر لغيرهم ، ولهم فضائلٌ نبيلة ، وأحوالٌ جلييلة ، وهم معروفون لدى الخاص والعام ، وأوَّلهم سيِّدنا أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلي ، فطلحة ، فالزُّبير ، فسعد ، فسعيد ، فأبو عبيدة ، فبعد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنهم ، وحشرنا في معيَّتهم ، وعفا عن=

بفضله ، وأدخلنا الجنة برحمته .

أقول : « قد تفنّن الشعراء العلماء ، والأدباء البلغاء ، والمحبتون الأئنياء ، بنظم أسماء هؤلاء العشرة الفضلاء ، وأتوا بالعجيب المطرب ، واللطيف المغرب ، ومن يتتبع هذا الأمر يتحصّل لديه أكثر من مجلّد ؛ وقد اقتطف من تاريخ العلماء ما جادت به قرائحهم في هذا المضممار الكريم ، ومنه قول عبد القادر بن عبد الوهاب المحيوي القرشي :

بجنة الخلد خير الخلق بشر من بذكر أسمائهم نظمي حوى شرفا
سعد سعيد زبير وابن عوف أبو عبدة طلحة والأربع الخلفا
وقوله أيضاً :

قد بشر المصطفى من صحبه برضا رب العباد أناساً فضلهم غابر
عتيق فاروق عثمان ابن عوف علي سعد سعيد زبير طلحة عامر
وقال عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازناني المهراني في العشرة المشهود لهم بالجنة :

وأفضل أصحاب النبي مكانة ومنزلة من بشروا بجنان
سعيد زبير سعد عثمان عامر علي ابن عوف طلحة العمران
و« العمران » لقب سيدنا أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ، ويقال لهما أيضاً : القمران ، الوزيران ، الصّاحبان ، الشّيخان ، الإمامان ، الخليفتان ، المهديّان ، الصّجيعان

وقال محمّد بن محمّد بن محمّد النّوري الميموني :

وأفضل خلق الله بعد نبيّا عتيق ففاروق فعثمان مع علي
وسعد سعيد وابن عوف وطلحة وعامر منهم والزبير فتمّ لي
وقال محمّد بن محمّد ابن الشّحنة الحلبي :

أسماء عشر رسول الله بشرهم بجنة الخلد عمّن زانها وعمر
سعد سعيد علي عثمان طلحة أبو بكر ابن عوف ابن جراح الزبير عمر

لا تُحصر - رضي الله عنه - .

* ومن السَّجَايا اللطيفة التي تخصُّ سيِّدنا عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر - رضي الله عنه وعن أبيه - : أنَّ اثْنَيْنِ من العشرة المبشرين بالجنة كانا أزواج أختَيْهِ الأخريين ، فأسماءُ بنتُ أبي بكر ^(١) : زوجها الزُّبير بن العوّام ؛ وأمّ كلثوم بنت أبي بكر ^(٢) : زوجها طلحةُ بنُ عُبَيْدِ الله - رضي الله عنهم أجمعين - .

* ثمَّ إنّ سيِّدنا عبد الرَّحْمَنِ كان اسمه عبد العزّي ، أو عبد الكعبة ،

وقال ابن جابر الأندلسي في العشرة المبشرين بالجنة :

أزكىّ صلاتي على الهادي وعترته	وصحبه وخصوصاً منهم عشرة
صديقهم عمر الفاروق أحزمهم	عثمان ثمّ عليّ مهلك الكفرة
سعدٌ سعيدٌ زبيرٌ طلحةٌ وأبو	عبدة وابن عوف عاشر العشرة

وقال ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللهُ في العشرة المبشرين بالجنة فأحسن وأبدع :

نالوا السَّيَادَةَ في دنيا وآخره	والسَّيَقَ والفضل والتَّقديم والشُّرفا
وبالرِّضَا خُصَّ منهم عشرة زُهِرُ	يا ويح من في موالاة لهم وقفا
سعدٌ سعيدٌ زبيرٌ طلحةٌ وأبو	عبدة وابن عوف قبله الخلفا

وقال أبو بكر الصّوفي فيهم :

عتيقٌ والفتى عمر التَّقِيّ	وعثمان ومولانا عليّ
وظلحة وابن عوف وابن زيد	وسعد من بهم فخرت لؤي
كذلك أبو عبدة فهو منهم	وليئهم الحواريّ الكميّ

(١) اقرأ سيرة السيِّدة النبيلة أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين في الباب الأوّل من كتابنا : « بنات الصّحابة » (ص : ٤٠ - ٧٢) ، ط : ٢ - ٢٠٠٥ م ؛ فالحياة مع سيرتها تنعش الأرواح وتصلق النفوس .

(٢) اقرأ سيرة أمّ كلثوم بنت أبي بكر في كتابنا : « نساء من عصر التّابعين » (ص : ١٥٨ - ١٦٦) ، ط : ٤ - ٢٠٠٢ م ، فهي موفّقة بنت موفّق ، وسيرتها كخواتم الزّهر الغافي التي تسقط من أنامل الأغصان .

فسمّاه الصّادقُ المصدوقُ ﷺ عبد الرَّحمن ، وكان هذا الابنُ الموفّقُ أكبرَ أولادِ سيّدنا أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - ، وكان من الرُّماة المذكورين ، ومن الشُّجعان المعروفين ، وله في ميادين القتال آثارٌ مذكورة ، ومواقفٌ مشهورة .

* ومن العجيب في سيرة هذا البطل الهُمام ، والليث الضّرغام ، أنّه تأخّر دخوله في الإسلام ، بل إنّهُ أسلم بعد الهجرة النبويّة ببضعة أعوام ، ثمّ هاجر إلى المدينة والتحق بذوي الخير والأفهام ، ونجا من عبادة الأوثان والأصنام ، وغدا أحد أبناء الصّحابة الأعلام ، ولكن كيف كانت حياة سيّدنا عبد الرَّحمن قبل الإسلام ؟

تاجرٌ وامقٌ :

* ذكرت بعض المصادر ، وبعضُ كتب الأخبار أنّ عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، قدّم الشّام في تجارةٍ له ، وكان له بعض الأخبار مع ابنة ملك الشّام ، وذلك قبل الإسلام .

* كان ذلك لما انطلق عبد الرَّحمن من مكّة في تجارةٍ له إلى بلاد الشّام مع قافلة من قريش ؛ وسار عبد الرَّحمن مع صحبه وهو لا يزال فتى في ميعة الصّبا والشّباب . وكان مطمئنً النَّفس ، ناعم البال ، ترتسمُ على وجهه علامات الرّضا ، وتنبعثُ من عينيه أحلامُ الأمل ، وتستقرُّ على شفتيه ابتسامةٌ عذبةٌ ؛ إنّهُ يرى الدُّنيا مقبلةً تُجرُّ أذيالَ الرّهو والزّينة ، فشغفته حبّاً ، فما رأى إلا جمالها البرّاق ، وما أحسَّ إلا حنانها اللطيف ، وما ذاق إلا عذبَ نَميرها السّلسبيل ، فهو ابنُ سيّدٍ حسيبٍ نسيبٍ من سادات مكّة العظام ، وقد رُزقَ بسطةً في العيش ، فتجارتهُم واسعةٌ تجوبُ الآفاق في الشّتاء والصّيف ، ومألهم كثيرٌ ينمو ويزيدُ بأعمال التّجارة ، وهامو ذا الآن يتاجرُ بأموال أبيه أبي بكر - رضي الله عنه - ، إنّهُ يغدُو السّير نحو الشّام ، أرض المال والجَمال ، وإنّهُ يتلهّفُ شوقاً ليراها ، فقد حدّثه أبوه الأحاديث الرّقيقة عنها ، وعن جنّاتها المزهرة ، وأنهارها العذاب التي تنسابُ بين بساطينها المثمرة ، فتجعل منها

لوحاتٍ أنيقةً متفرّدةً في الوجود ، تسبّحُ في كلّ حين ربّها المعبود ؛ كما حدّثه أبوه عن مبانيها الحِسان ، وأسواقها التي تأسر الجنان ، وتستولي على الباب الثّجار من جميع البلدان .

* وصلتِ القافلةُ الشّامَ ، وحطّت رحالها في أسواقها ، وأخذ الفتى القرشيّ في البيع والشّراء ، حتّى انقضت بضعة أيّام ، فربح مالاً وفيراً ؛ وكذلك سائر من معه من تجّار قريش .

* وبعد أن نفقت تجارة عبد الرّحمن ، رأى أن يجوسَ خلال الدّيار الشّاميّة ، يسمعُ نغمات الأطيّار ، على ضفاف الأنهار ، ويشاهدُ جمالها ، ويرى آثارها ، فشرعَ يضربُ في منابها ، حتّى بلغ بناءً فخماً ، فأخذ يتطلّع إليه ، ويدورُ من حوله ، فحانت منه التفاتة ، فبصُرَ بفتاة تحاكي البدرَ جمالاً ؛ وتضارعهُ حسناً ودلالاً ، تجلسُ على طنفسة ، ومن حولها ولائدها ، فكأنّها قمرٌ عند السّحر ، تحفُّ به نُجيماتٌ غافيةٌ ، أو زهرةٌ شاميّةٌ قد تفتّحت وحولها الأكمام ، فجذبهُ هذا المنظرُ ، وذاك الجمالُ ، فوقفَ مأخوذاً يتجلّى ذلك الحُسنُ الفَتان ، وقلبه يخفقُ خفقاتٍ سريعةً ، وظلّ واقفاً مشغولَ البال ، حتّى قامت من مجلسها ، ودخلتُ إلى قصرها ، فالتقطَ أنفاسه ثمّ انصرفَ عن ذلك المكان ، وهو يفكرُ في هذه الغادة الغيداء ، التي كسيت حُللَ الحُسنِ والبهاء ، ولم تكن هذه الفاتنةُ سوى ليلى بنتِ الجودي ملك الشّام ، وذلك القصر الفخمُ له .

* أخذ طيفُ خيال ليلى بنتِ الجودي مساحةً كبيرةً من فكرِ عبد الرّحمن ، وأمضى تلك الليلةَ التي رآها بين الأحلام والآمال ، ولم تكتحل عيناهُ بالنّوم ، وإنّما انتظرَ إلى أن تنفّس الصّبح ، فهبّ مسرعاً ، واتّجه نحو قصرها لعلّه يلمحُها ؛ فيسكنُ بعضُ ما به ؛ ولم يلبثُ إلا قليلاً حتّى خرجتُ إلى مكانها بالأمس وخلفها وحولها ولائدها ؛ فشرعَ بالارتياح لرؤيتها ، ولكنّ أتّى له أن يصلَ إليها وهي ابنة ملك الشّام ؟ وهو ابنُ كبير من الثّجار في أرض الحجاز ! ؟

* أَدْن مؤذَن القافلة القرشيَّة بالرَّحيل ، فانطلقَ عبدُ الرَّحْمَن مع الرَّكَب القرشيِّ نحو مراتع طفولته ، ولكِنَّه ترك فؤادَهُ في الشَّام مشغولاً بابنة الجودي الغسانيَّة ، حتَّى إذا أوغلت القافلةُ في البيداء ، زاره طيفُ محبوبته ، وتذكَّر ملاحظتها وجمالها ، فأخذ يتغرَّز فيها بقوله :

تذكَّرتُ ليلِي والسَّماوَةُ دونَها فما لابنةُ الجُودي ليلِي وما ليا
وأنى تُعاطي قلبَه حارِثِيَّةٌ تحلُّ بِبُصرِي أو تحلُّ الجَواييا
وأنى تُلاقِيها بلي ولعلَّها إذا النَّاسُ حَجُّوا قابلاً أن توافيا
* وقال عبدُ الرَّحْمَن في ابنة الجودي ليلِي :

يا بنةَ الجُودي قلبِي كئيب مُستَهامٌ عندها ما يُنيب
جَاوَرَت أَخوالَها حَيَّ عكَّ فَلِعَكَ مَنْ فؤادي نصيب
* وتمضي الأيام ، ويتزوَّج عبدُ الرَّحْمَن ، ولكنْ لم تستطع واحدةٌ من زوجاته أن تنسيه ليلِي بنت الجودي ، بل ظلَّت صورتُها مجاورةً لمخيلته .

* وفي إِبَّان الخلافة الرَّاشدة في العهد العمريِّ الميمون ، وكان سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - قد علِمَ ما يكابذهُ عبدُ الرَّحْمَن من وَجْد ، فأمرَ أميرَ عسكره إن وَقَعَت ليلِي في السَّبايا أن يدفعَها إلى عبدِ الرَّحْمَن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - .

* انطلق سيِّدنا عبدُ الرَّحْمَن إلى الشَّام ولحقَّ بكتائب المجاهدين ، وانتظَمَ في جيوشِ المسلمين الفاتحين ، حتَّى كاد مُلْكُ الشَّام يُطوى جميعُهُ ؛ وكان قول سيِّدنا عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - لا يغيبُ عن خاطر عبدِ الرَّحْمَن : « إن وقعت ليلِي في الأسر فادفعوها إلى عبدِ الرَّحْمَن » ، وتحقَّق قول عمر - رضي الله عنه - ، وجيء بليلى أسيرةً إلى فسطاط القائد المظفَّر سيِّدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ، فدعا بعبدِ الرَّحْمَن بن أبي بكر ، وأعطاه ابنة الجودي امتثالاً للأمر الصَّادر من الفاروق عمر في المدينة المنوَّرة .

* انفرجت شَفَتَا عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر - رضي الله عنهما - عن ابتسامية ممزوجة بشكر الله - عزَّ وجلَّ - ، وحمده وتسييحه ؛ إذ تحقَّق حلمه وأمله بليلى ، فأخذها فرحاً لا يكاد يصدقُ أَعْلَى الأرض يسير ، أم بأجنحة يطير .

* نزلت ليلى من قلب عبد الرَّحْمَنِ منزلاً رحباً ، ووقعت منه موقِعاً حسناً ، فحذبَ عليها ، وأكرمَ مثواها ، وحملها معه ، وقفلَ عائداً إلى المدينة المنورة ، وأغرمَ بها ، وشُغِفَ بجمالها شغفاً شديداً ؛ واستولت على قلبه ، فلم يعدْ يدور على نساءه ، ممّا جعلهنَّ يتأججنَ غيره ، وتشتعل نفوسهنَّ بالحسدِ لهذه الوافدة الشَّامية المليحة ، فعقدن مجلساً فيما بينهنَّ ، وقررن أن يشكون عبد الرَّحْمَنِ إلى أخته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ، فخرجن إليها ، ثم شكّون إليها ما أصابهنَّ من إعراض عبد الرَّحْمَنِ عنهنَّ ، وإهماله لهن ، والتمسن منها أن ترقِّق قلبه عليهنَّ .

* استجابت أمنا عائشة - رضي الله عنها - لرغبة هؤلاء النسوة الْمُتَظَلِّمات ، فأرسلت إلى أخيها عبد الرَّحْمَنِ ، فعاتبته على ذلك ، ولأَمَّتْهُ على إفراطه ، فقال لها : « والله يا أُخِيَّةُ إِنِّي لأرشفُ من ثناياها حبَّ الرُّمَّانِ » .

* ولكنَّ حُبَّ عبد الرَّحْمَنِ لغادته ليلى ؛ وارتشافه حبَّ الرُّمَّان ؛ لم يعدْ بنفس الوهج الذي كان عليه ، وإنَّما أخذ يخبو كلما تقادمت الأيام ، وبدأ إعجابه بليلاه ينحسر شيئاً فشيئاً ، وخصوصاً عندما رأى نساءه يتوددن إليه ، فطفق يصحو من حلمه اللذيد ، وشرع ينظرُ إلى الأمر بمنظار العقل بعيداً عن العاطفة ، لقد هجرَ نساءه من أجلِ ليلى ، وإنَّ كانت تمتازُ بالحسن فكلهنَّ حسناوات ، فما باله قد أوقف حبه عليها وحدها ؟ !

* بدأ عبد الرَّحْمَنِ يعيدُ الكرةَ تلو الكرة في هذا الأمر ، وخرج ووصل حبال الودِّ مع نساءه ، وبهتَ حبه لليلى وخَفَّتْ وهجه ، فتألَّمت لذلك ، وحزنت حزناً شديداً ، وأخذت عبراتها تنهمرُ انهماراً على وجنتيها ، وغدت

الدُّنْيَا موحشة أمام ناظرَيْهَا ، وأصابها وجعٌ ، فأثّر فيها ، وسقطت أسنانُها ، وتغيّر شكلُ فمها ، فجفّاها ، فشكّته إلى سيّدتنا عائشة شقيقته وأخبرتْها بما ألمّ بها وما أهمّها ، فبعثت أمنا عائشة - رضي الله عنها - إلى شقيقها عبد الرّحمن فلمّا أقبل قالت له : « يا عبد الرّحمن ! لقد أحببت ليلِي فأفرطت ، وأبغضتْها فأفرطت ، فإمّا أن تنصفها ، وإمّا أن تجهزها إلى أهلها » . فجهّزها إلى أهلها ، وسرّحها سراحاً جميلاً ، وكانت من بنات الملوك ^(١) .

نحو الثور :

* رحلة سيّدنا عبد الرّحمن بن أبي بكر - رضوان الله عليه - نحو نور الإسلام رحلة شائقة ، وإن كانت شائكة شائقة ، ولكنه استسلم بجوارحه إلى العزيز العليم بعد أن قضى شطراً من حياته ؛ يعيش مع أئمة الشّرك في مكّة المكرمة يحاربُ المسلمين ويسمعُهم ما يكرهون ، بل كان يشارك قريشاً جمعها الجموع لحرب محمّد رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه .

* ومن الممتع في حياة هذا الابن الشّجاع ، أنّ أباه أبا بكر الصّدّيق - رضي الله عنه - كان أوّل مَنْ بادر من الرّجال إلى تصديق الصّادق

(١) وردت هذه القصّة في كثير من المصادر المتنوّعة ، وقد تصرّفت فيها بعض التّصرّفات حتّى أظهرتها في هذا القلب الجميل دون الخروج عن مضمون الرّوايات . ومن المصادر التي أوردت القصّة : « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٢ - ٢٨٣) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٤٧٢ - ٤٧٣) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٣٦٣ - ٣٦٤) ، و« البداية والنهاية » (٨ / ٩٠) ، و« المستدرک » (٣ / ٥٣٨ - ٥٣٩) ، و« نسب قريش » (ص : ٢٧٦) ، و« الإصابة » (٤ / ٣٩٠) ، و« الإصابة » أيضاً (٢ / ٤٠٠) ، و« مصارع العشاق » (٢ / ٢١٤) ، و« التّبیین » (ص : ٢٧٦) ، و« أعلام النّساء » (٤ / ٣٠٠ - ٣٠١) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٣٩٢ - ٣٩٣) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية ، ص : ٢٦٦ - ٢٦٧) ، وغيرها كثير جداً .

المصدق رسول الله ﷺ ، ولأزم الصدق ، وكانت له في الإسلام مواقف رفيعة رقيقة الستور ، تملأ بجلالها وجمالها الصدور والسطور ، وكم لسيدنا أبي بكر من مواقف وآثار حسان من أول ساعة أسلم فيها إلى آخر نفس من حياته المباركة !

* قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رضي الله عنه وأرضاه - : « وَمَنْ يُحْصِي مَنَاقِبَهُ ، وَيُحِيطُ بِفَضَائِلِهِ ، غَيْرَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ؟ ! وَلَكِنْ لَا بَدْءَ مِنَ التَّذَكُّرِ يُنْبِذُ مِنْ ذَلِكَ تَبَرُّكاً لِلْكِتَابِ بِهَا » (١) .

* كَانَ سَيِّدُنَا الْمَبْجَلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رضي الله عنه - من أكابر قريش ورؤسائها في الجاهلية ، ومن أهل مشاورتهم وحلهم وعقدتهم ، محبباً فيهم ، ومألفاً لهم ، فلمَّا أشرق نور الإسلام ، وهبَّت رياح الإيمان ؛ أثر دين الله - عَزَّ وَجَلَّ - على ما سواه ، ودخل فيه أكمل دخول ، ولم يزل مترقياً في معارفه ، متزايداً في محاسنه حتَّى توفي ، وصحب النَّبِيُّ ﷺ من حين أسلم ، إلى أن توفي ﷺ ، فلم يفارقه في حضر ولا سفر ، وهاجر مع الصَّادق المصدق ﷺ ، وترك عياله وأولاده وماله رغبة في طاعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وطاعة رسوله ﷺ ، فأقام مع رسول الله ﷺ ثلاثة أيَّام ، وكان معه في الغار ، وكفاه بها من منقبة والله درّ من قال في هذا الشأن المذكور في القرآن :

لَا تُفْضَلُ عَلَى الْعَتِيقِ صَدِيقاً فَهُوَ صَدِيقُ أَحْمَدَ الْمُخْتَارِ
وَإِنْ ارْتَبْتَ فِي الْأَحَادِيثِ فَاقْرَأْ ﴿فَإِنَّكَ أَثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْفَكَارِ﴾ (٢)

* بالإضافة إلى سَبَقِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ - رضي الله عنه - إلى واحدة الإيمان ، فَإِنَّ زَوْجَهُ أُمَّ رومانَ أُمَ عبد الرَّحْمَنِ كانت من المسارعات إلى دوحه التَّوْحِيدِ أيضاً ، وأُمًّا عائشة - رضي الله عنها - فَإِنَّهَا فَتَحَتْ عَيْنَهَا فوجدت

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٨٢) .

(٢) اقتباس من سورة التَّوْبَةِ ، الآية : (٤٠) .

أبويها مسلمين ، أمّا عبد الرَّحْمَنِ فقد كان فتى يافعاً يوم أخذ النَّبِيُّ ﷺ يدعو إلى الإسلام ، فلم يُسلم ؛ ولم يؤمنُ بما نزل من القرآن والذِّكْر الحكيم ، ولعلّه قد استاء من إسلام أسرته ، وسبقها إلى دين الله - عزَّ وجلَّ - ، ولم يستجب بادئ الأمر لدعوة الثَّور ، وظلَّ مع آلهة قومه ، وخشي أن تغضب عليه الأصنام ، فلم يهجرها ، ولم يفارقها ، وإنَّما هجر أهله وهجر دعوة الخير والسَّناء ؛ وناصب المسلمين العداة .

* ولمّا هاجر سيّدنا أبو بكر - رضي الله عنه - إلى المدينة ، لحقته زوجته وابنته عائشة وسائر أسرته ؛ خلا عبد الرَّحْمَنِ الذي اغتاظ لهذه الهجرة إلى بلد ناءٍ عن أم القرى ، وغضب غضباً شديداً ؛ لأنَّ شمل الأسرة قد تشتَّت بزعمه ، وما علم أنَّ هؤلاء السَّابِقين هم سادة السَّادة .

* انقضت سنةٌ وبعضُ السَّنة على الهجرة ، فإذا بغزوة بدر قد طرقت الأبواب في مكّة ، فهبَّ النَّاسُ وتجهَّزوا سراعاً وخرجوا لبدر ليحاربوا المسلمين ويحسموا أمرهم ، وهم يظنون أنَّهم أكلةُ رأسٍ ، وكان عبد الرَّحْمَنِ بين المشركين يسير إلى بدر يمتطي حصانه ، ويحملُ سنانَه ، ليحارب أهله وخلّانَه .

* فوق صعيدِ بدرٍ ظهرَ عبد الرَّحْمَنِ على حصانٍ له اسمه « اليعسوب » ، فرآه سيّدنا أبو بكر الصّدِّيق - رضي الله عنه - ، فدعاه إلى المبارزة ، وقال مُستأذناً رسولَ الله ﷺ في الخروج لقتال ابنه : « دعني يا رسولَ الله ! أكنُ في الرّحلة الأولى » فقال له النَّبِيُّ ﷺ : « متّعنا بنفسك يا أبا بكر ! أما تعلم أنَّك عندي بمنزلة السَّمْع والبصر ؟ ! » ^(١) .

(١) انظر : « البداية والنهاية » (٣ / ٢٩٢) ، و « السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة » لمحمّد أبو شهبه (٢ / ١٤٨) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٣٦٣) ، مع الجمع والتصرّف بينها . ومن اللطائف المنيفة ، والظرائف اللطيفة ما نُقل من أنَّ سيّدنا أبا بكر الصّدِّيق - رضي الله عنه وأرضاه - قال لابنه عبد الرَّحْمَنِ يومَ بدر ، وهو مع =

* دارت الدائرةُ على المشركين ، فَهَزِمُوا وولوا الدُّبُرَ ، وكان عبد الرَّحْمَنِ مع الفَارِيزِ ، لا يلوي على شيء مخافةً أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُؤْسَرَ . وظلَّ في مَكَّةَ إلى أَنْ كانت غزوة أحد ، فخرج مع الخارجيين ، وشاركهم في قتال المسلمين ، ولمَّا وضعت الحربُ أوزارها ، عاد عبد الرَّحْمَنِ إلى مَكَّةَ وظلَّ بها بضع سنين لم يُسمع له صوتٌ في حرب أو قتال .

* قال الإمامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : « شهد عبد الرَّحْمَنِ بدرًا وأُحُدًا مع الكُفَّار ، وأسلم في هدنةِ الحُدَيْبية ، وحَسُنَ إسلامه » (١) .

* وقال غيره : « خرجَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَبِي بكرٍ في فتيةٍ من قريش ، هاجروا إلى النَّبِيِّ ﷺ قبل الفتح ، وكان امرأً صالحاً فيه دعابة » (٢) .

= المشركين : « أَيْنَ مالي يا خبيث ؟ » فردَّ عليه ابنه عبد الرَّحْمَنِ بكلامٍ يفهم من خلاله أَنَّهُ لم يبقَ منه إلا عدَّةُ الحرب ، وإلا فرسٌ سريعة الجري يقاتل عليها شيوخ الضَّلَّال . « البداية والنهاية » (٣ / ٢٩٢) بتصرُّف .

وجاء في كتب السِّيرة أَنَّ عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ أَبِي بكرٍ قد خرجَ يومَ أحدٍ إلى ساحة المعركة ، فقال : « مَنْ يبارز ؟ » فنهضَ إليه أبوه سيِّدنا أبو بكرٍ - رضي الله عنه - شاهراً سيفه ، فقال له سيِّدنا وحبیبنا الصَّادق المصدوق ﷺ : « شَمَّ سيفك - أغمدته - وارجعْ إلى مكانك ، ومتعنابنفسك » .

وأخرج الحاكمُ بسنده عن عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، قال : « قال عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَبِي بكرٍ لأبي بكرٍ - رضي الله عنه - : « قد رأيتُكَ يومَ أحدٍ فصَفَحْتُ عنك . فقال أبو بكرٍ : للكنِّي لو رأيتُكَ لم أَصْفَحْ عنك » . « المستدرک » (٣ / ٥٣٩ - ٥٤٠) .

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٣٩٥) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٤٧١) ، و« البداية والنهاية » (٨ / ٨٨) ، و« المستدرک » (٣ / ٥٣١) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٣٩٢) ، و« الإصابة » (٢ / ٤٠٠) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٣٦٣) ، مع الجمع بينها .

* ولمّا بايع عبدُ الرَّحْمَنِ رسولَ اللَّهِ ﷺ على الإسلام ، أحبَّ ﷺ أنْ يَمْسَحَ كلَّ عِوَالِقِ الجَاهِلِيَّةِ عنه ، فأوَّلُ شيءٍ عَمِلَهُ غَيَّرَ اسمَه ، وهذا ما أخرجَه الحاكم في « مستدركه » بسنده عن أبي عُبيدة معمر بن المثنى ، قال : « كان اسمُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ أبي بكر الصِّدِّيقِ في الجَاهِلِيَّةِ عبدَ العَزْرَى ، فسَمَاهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ عبدَ الرَّحْمَنِ » (١) .

* وقال الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في « التَّلْخِصِ » : « عبدُ الرَّحْمَنِ بنِ أبي بكر الصِّدِّيقِ ، كان اسمُه عبدَ العَزْرَى ، قاله أبو عُبيدة بن المثنى ، فغيَّرَه النَّبِيُّ ﷺ ؛ وكنيته : أبو عبدِ اللَّهِ ، وقيل : أبو محمَّد ، وهو شقيقُ عائشة - رضي اللَّهُ عنهما - » .

حياته وأنفاسه الإسلامية :

* صاغ الإسلامُ الحنيفُ من أبناء الصَّحابة رجالاً فتحوا العالم ، كما فتحوا القلوبَ وجعلوها رقيقةً رقةً نُسيماتِ السَّحَرِ في يومٍ لطيفٍ من أيَّامِ الرَّبيع ، تستوعب كلَّ خير ، وتدعو إلى كلِّ خير .

* ومنذ أنْ بايعَ عبدُ الرَّحْمَنِ الصَّادق المصدوق ﷺ ، لزم الاستقامة والصِّدْقَ قولاً وفِعْلاً ، فقد أخرج الحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ في « مستدركه » بسنده عن سعيد بن المسيَّب رَحِمَهُ اللَّهُ قال : « ما تعلَّقَ على عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ أبي بكر بكذبةٍ في الإسلام » (٢) . وفي لفظ آخر في حديث : « وكان عبدُ الرَّحْمَنِ بنِ أبي بكر لم يجربْ عليه كذبة قط » (٣) .

* كان عبدُ الرَّحْمَنِ - رضي اللَّهُ عنه - شجاعاً رامياً حسن الرَّمي سَخِرَ

(١) « المستدرک » (٣ / ٥٣٨) . وانظر : « أسد الغابة » (٣ / ٣٦٣) ،

و « الاستيعاب » (٢ / ٣٩٣) .

(٢) « المستدرک » (٣ / ٥٤٠ - ٥٤١) ، حديث رقم : (٦٠١٠ ، ٦٠١٤) .

(٣) « الإصابة » (٢ / ٤٠٠) ، و « البداية والنهاية » (٨ / ٨٩) .

هذه المواهب في سبيل خدمة دين الله - عز وجل - ونصرة الحق ، فمنذ أن أسلم شهد المغازي النبوية ، قال ابن كثير وغيره : « أسلم عبد الرحمن في هدنة الحديبية ، وهاجر إلى المدينة قبل الفتح ، وأطعمه رسول الله ﷺ من خبير كل سنة أربعين وسقاً ، وكان من سادات المسلمين . . . » (١) .

* وَكُتِبَ لهذا السيد المسود عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - أن يكسب شرف الحج بمعية الهادي البشير ﷺ ، كما كلفه ﷺ أن يذهب بأخته عائشة لتعتمر من التّعيم ؛ لأنها لم تتمكن عند القدوم من أداء العمرة بسبب حيضتها .

* كان ذلك أيام الحج لما نزل ﷺ بالمحصب (٢) ، فصلّى هناك الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، ورقد رقدة ، فجاءته أمنا عائشة - رضوان الله عليها - وقالت له : « يا رسول الله ! أرجع بحجة ليس معها عمرة ؟ ! » فدعا أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقال له : « اخرج بأختك إلى الحرم ، ثم افرغا من طوافكما حتى تأتيا ههنا بالمحصب » .

قالت : « فاعتمرنا من التّعيم مكان عمرتي التي فاتتني ، وفرغنا من الطّواف في جوف الليل ، فأتيناه وهو بالمحصب ، فقال : « فرغتما من طوافكما ؟ » قلنا : « نعم » ؛ فأذن في الناس بالرحيل ، فارتحل وطاف بالبيت ، وصلى بهم الصّبح عند الكعبة ، ثم خرجوا من مكة ، وانصرف الناس

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٨٨) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨١) ، و« التّبيين » (ص : ٢٧٥) ، وغيرها .

(٢) « المحصب » : بالضم ، ثم الفتح ، وصاد مهملة مشددة ، على وزن اسم مفعول من الحصاء ، أو الحصب : وهو الرمي بالحصي ، وهي صغار الحصى وكباره : وهو موضع فيما بين مكة ومنى ، وهو إلى منى أقرب . ويعرف المحصب اليوم بمجر الكبش ، وهو ممّا يلي العقبة الكبرى من جهة مكة إلى منفرج الجبلين . « المعالم الأثيرة » (ص : ٢٤٠) .

إلى بلادهم ، وعاد رسولُ الله ﷺ والذين معه إلى طيبة المدينة المنورة ، وهم يكبرون ، ويهللون ، ويقولون : « آيئون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدقَ الله وعده ، ونصرَ عبده ، وهزمَ الأحزاب وحده » (١) .

* ولحق رسولُ الله ﷺ بعد حجّته بالرّفيق الأعلى وهو راضٍ عن ابن الصّحابي أبي بكر ؛ وعقب وفاته ﷺ ظهر المرتدّون ، فرماهم سيّدنا أبو بكر - رضي الله عنه - برجال يحبّون الموتَ على الحياة ، وكان على رأسهم : سيفُ الله سيّدنا خالدُ بنُ الوليد ، وعبد الرّحمن بنُ أبي بكر ، وعددٌ من أكابر أبناء الصّحابة ورجالهم الأشداء .

* شهد سيّدنا عبد الرّحمن فتح اليمامة معقل المرتدّين ، وأبلى في قتالهم بلاءً حسناً ، وقتلَ يوم اليمامة سبعةً من فجّارهم ، وهو الذي قتلَ محكمَ بن الطفيل - صديق مسيلمة الكذاب على باطله - وكان محكم - وهو محكم اليمامة - الرّجل الثّاني في بني حنيفة بعد مُسيلمة الكذاب ، وكان هذا الخبيثُ الفاجرُ مهيباً شجاعاً فارساً شرساً ، وخطيباً لسنّاً مفوهاً ، وزعيماً قائداً مسموعَ الكلمة في بني حنيفة ، فعندما شعر هذا الأفاكُ الخبيثُ بأنّ أبطال المسلمين وفرسانهم شرعوا يهدمون صفوفَ قومه ، ويذيقونهم حرّاً سيوفهم

(١) « الرّسالة المحمّديّة » (ص : ٦٠٩) ، و « السّيرة النّبويّة » لمحمّد أبو شهبة (٢ / ٥٨٠) ، مع الجمع والتّصرّف . وعن عمرة عائشة بصحبة أخيها عبد الرّحمن ، أخرج الحاكم رحمه الله في « المستدرک » بسنده عن حفصة بنت عبد الرّحمن بن أبي بكر ، عن أبيها أنّ النّبي ﷺ قال له : « أردفَ أختك عائشة ، فاعمرها من التّنعيم ، فإذا هبطت الأكمة ، فمرها فلتحرم فإنّها عمرةٌ متقبّلة » « المستدرک » (٣ / ٥٤٢) .

أقول : « لهذا الحديث أصلٌ في الصّحيح فهو عند البخاريّ في الجهاد والسّير برقم : (٢٩٨٥) ، وعند مسلم برقم : (١٢١٢) » .

ولسعات رماحهم ، ووخزات سهامهم ، وأنهم قرييون من مقر قيادة المتنبي المزعوم مسيلمة أحسن بصعوبة الموقف ، ولاحظ بأن زمام الأمور أخذ يفلت من أيدي بني حنيفة ، وكان خارج الحديقة - حديقة مسيلمة الكذاب - يقود بني حنيفة نيابة عن كذاب اليمامة القابع في داخل الحديقة يتلقى الوحي - بزعمه - فقد شعر أن خيل المسلمين تكاد تخالط من يحيطون به ويحمونه ، هنالك وقف خطيباً في بني حنيفة يحرضهم على الثبات ، ويشد من عزائمهم التي تلاشت أمام المسلمين ، ويطالبهم بأن يحافظوا على النساء ، وأن يخرجوا حسبهم .

* لكن هجمات المسلمين نحوه لم تسمح له بأن يتابع الخطابة ، وبث الهمم في نفوس بني حنيفة ، وعندها أصدر أمراً سريعاً عاجلاً إلى من حوله في ساحة القتال أن يتركوا أماكنهم ، وأن يدخلوا الحديقة ، ومن ثم يتحصنوا بها ، ونادى بأعلى صوته في الحنفيين : « يا بني حنيفة ! ادخلوا الحديقة ^(١) ، فإنني سأمنع أديباركم » .

(١) وفي رواية أخرى قريبة من هذه الرواية تقول : « رأى محكم بن الطفيل فرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : يا بني حنيفة ! الحديقة ؛ يريد منهم أن يحتموا بها . وكانت هذه الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة ، وتدعى حديقة الرحمن ، وكانت فسيحة الأرجاء ، منيعة الجدران كأنها الحصن ، وقد فروا إليها ، وتحصنوا بها من هزيمتهم ، بعد أن خزر الألو ف منهم صرعى مجذلين في الميدان بسيوف المسلمين ، ووقف محكم برجاله يحمي ظهورهم في أثناء فرارهم ، وإنه لذلك يحاول صد المسلمين ، ويحرض رجاله على دفعهم ، ويقاتل وإياهم أشد قتال حتى يتحصن قومه ؛ إذ رماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم وقع في نحره فقتله » . « الصديق أبو بكر » (ص : ١٥١) .

ونقل ابن عساكر رحمته الله عن مصعب بن عبد الله قال : « وقف محكم اليمامة يوم الحديقة على ثلثة فحماها ، فلم يجترئ عليه أحد ، فرماه عبد الرحمن بن أبي بكر فقتله ، فدخل المسلمون من تلك الثلثة . قال : وكان أحد الرماة » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٢) .

* وقف الخبيث في ثلثة حائط يحمي قومه ، فبُصر به سيّدنا عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكر - رضي الله عنهما - ، وهو يقاتلُ عن قومه أشدَّ القتال ، فعجم قوسه ، ورماه بسهم وهو يخطبُ ويقاتل ، فسقط محكم قتيلاً ، فكان كأمسِ الدّابر ، فهتفَ المسلمون : الله أكبر ، ثمّ دخلوا من الثُّلثة ، فخلصوا إلى مسيلمة الكذاب فألحقوه بمحكم إلى جهنّم ، وبئس القرار .

* ظلَّ سيّدنا عبد الرَّحْمَنِ - رضي الله عنه - فارساً من فرسان أبناء الصّحابة لا يتخلّف عن فتح من الفتوح أو معركة يجاهد خلالها لإعلاء كلمة الله - عزّ وجلّ - ، فقد شهد فتح الشّام ، وكان معظماً بين أهل الإسلام ، ويُقِلّ - كما أسلفنا - ليلى بنت الجودي ملك عرب الشّام .

* ولمّا مرض سيّدنا أبو بكر الصّدّيق - رضوان الله عليه - مرض الموت ، أوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس - رضي الله عنها - ، وابنه عبد الرَّحْمَنِ - رضي الله عنه - ، وكان سبب مرض أبي بكر أنّه سُمّ ، وقيل : اغتسل في يوم بارد فحُمّ ومرض خمسة عشر يوماً ، وكان سيّدنا عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - يصليّ بالنّاس حين تُقِلّ أبو بكر - رضي الله عنه - . فلمّا مات حُمِلَ على السّرير الذي كان ينام عليه النّبيّ ﷺ ؛ وهو سرير عائشة ، فاشتراه رجلٌ من موالى سيّدنا معاوية - رضي الله عنه - بأربعة آلاف درهم ، فجعله للنّاس ، وهو بالمدينة ؛ وصلّى عليه سيّدنا عمر بن الخطّاب ، ونزل في حفرته عمر ، وطلحة ، وعثمان ، وابنه عبد الرَّحْمَنِ ، ودُفن مع الحبيبِ المصطفى الصّادق المصدوق ﷺ في بيت أمنا الصّدّيقة الطّاهرة عائشة - رضي الله عنها وأرضاها ^(١) - .

* عاش سيّدنا عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكر - رضي الله عنه - في ظلالِ

(١) انظر : « المعارف » (ص : ١٧١) بشيء من التّصرّف . وانظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٠٨) .

الخلافة العمرية ، وكان مثال المؤمن المطيع لأوامر الله - عز وجل - ، يشارك المؤمنين في شؤونهم في شتى المجالات النافعة .

* كان سيّدنا عبد الرّحمن بن أبي بكر هو الذي كَشَفَ الْمُخْبَأَ من غَدْر سيّدنا عمر - رضي الله عنه - ، وبحصافته عرفَ من نَفَذَ جريمة قَتْلِهِ - رضي الله عنه - ، وعرفَ الثَّالوثَ القاتِلَ الغادرَ تحت جنح الظّلام وسدول الليل البهيم ، فقد كان الغادرون يمثلون كيد اليهود وغدرهم ، وحنق الفرس ومكرهم ، وخبث الرّوم وكفرهم ، فلم يكنْ لهؤلاء الحاقدين همٌّ سوى التَّخْلُصِ من عدل الفاروق عمر الذي أخرج بقيّة اليهود من جزيرة العرب لغدرهم ، وحطم كبرياء الفرس وأذلّهم وأرغم أنوف الرّوم وكبّتهم ، فقد كانت المؤامرات الخبيثة تنبعث من هؤلاء وأتباعهم ، وكانت تُنْسَجُ وتُحَاكُ في الظّلام ، لتأخذ سيّدنا عمر على غرة وغفلة عن أعين النّاس ؛ إذ ليس عندهم القدرة أن يقفوا أمام عمر في رابعة النّهار ، فقد كانت هيئته تُذهِبُ بنفوس هؤلاء وأشباههم ، وتجعلهم خفافيش لا يكادون يَعُون ما حولهم ؛ إذن ، فليكونوا حلفاء الظّلام والغدر والخيانة .

* فقد عقدَ ثلاثةٌ من الوافدين على المدينة المنورة مجلساً في ظلام الليل ، وقرروا أن يغتالوا سيّدنا عمر ، وهم : أبو لؤلؤة المجوسي ، والهرمزان الذي أظهر إسلامه ، وجُفينة النّصرانيّ الغادر ، وآهم سيّدنا عبد الرّحمن بن أبي بكر وهم يتناجون بالإثم ، ويتهامسون فيما بينهم ، فاقترَبَ منهم ، وما كادوا يرونه قادماً حتّى هبّوا مولّين الأدبار ، وسقطَ منهم خنجر له رأسان ، وتعجّبَ لِمَ فرَّ هؤلاء من أمامه وهو لا يريدُ بهم شرّاً ! ولكنّ مقتلَ سيّدنا عمر غدرّاً كشفَ له ما كان يصنعه هؤلاء في تحلّقهم واختفائهم تحت سواد الليل .

* ولترك سيّدنا عبد الرّحمن بن أبي بكر يروي قصّة اتفاق هؤلاء الثلاثة على قتل سيّدنا عمر ، وذلك فيما ذكره ابن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسند عن سعيد بن المسيّب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّدّيق قال حين قُتِلَ

عمر - رضي الله عنه - : « قد مررتُ على أبي لؤلؤة قاتل عمر ، ومعه جُفينة ،
والهرمزان ، وهم نَجِيٌّ ، فلَمَّا بَغَتْهُمْ ثاروا ، فسَقَطَ من بينهم خنجرٌ له رأسان ،
ونصابة وسطه ، فانْظَرُوا ما الخنجر الذي قُتِلَ به عمر » (١) .

* فنظر القومُ ، فوجدوه الخنجر ذاته الذي وصفَ لهم سيّدنا
عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر ، وخرج في طلب أبي لؤلؤة رجلٌ من بني تميم يُدعى
حِطَّان ، فرجعَ إليهم التَّمِيمِيُّ - وقد كان ألْظَّ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتّى
أخذه - وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر - رضي الله
عنهما - .

* تابع سيّدنا عبد الرَّحْمَن حياته في الخلافة الرَّاشِدة ، فشهد موقعةَ
الجمالِ مع أخته أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ، ولمّا دعا سيّدنا
معاوية - رضي الله عنه - إلى بيعة ابنه يزيد رفض سيّدنا عبد الرَّحْمَن بن
أبي بكر البيعة ، وقال : « أهرقليّة ، إذا مات كسرى كان كسرى مكانه ؟
لا نفعلُ والله أبداً » (٢) .

* وتذكر المصادر بأنّ سيّدنا معاوية - رضي الله عنه - بعث إلى سيّدنا
عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - بمئة ألف درهم بعد أن أبى البيعة

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٥٥) ، ونقرأ هذا الخبر بشكل أكثر وضوحاً عند الإمام
الدّهبيّ رَحِمَهُ اللهُ حيث نقل عن التّابعيّ الجليل سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللهُ أنّه
قال : « اجتمع أبو لؤلؤة ، وجُفِينَةُ رجلٌ من الحيرة ، والهُرمزان ، معهم خنجرٌ له
طرفان مَمْلُكُهُ في وسطِهِ ، فجلسوا مجلساً ، فأثارهم دابةٌ فوقَ الخنجر ، فأبصرهم
عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر ؛ فلَمَّا طُعِنَ عمرُ ، حكى ، عبد الرَّحْمَن شأن الخنجر
واجتماعهم ، وكيفية الخنجر ، فنظروا فوجدوا الأمر كذلك » . « تاريخ
الإسلام » (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٣٠٦ - ٣٠٧) .

(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ٨٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٣) ،
و« أسد الغابة » (٣ / ٣٦٤) ، وغيرها .

ليزید بن معاویة ، فردّها ، وأبى أن يأخذها ، وقال : « لا أبيع ديني بدنياي » (١) .

* ومجمل قصّة بيعة أهل المدينة ليزید بن معاویة ، وقصّة رفض سيّدنا عبد الرّحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - ، يمكن لنا أن نستعرضها موجزة في الفقرات البسيطة الواضحة فيما يأتي .

* أرسل سيّدنا معاویة - رضي الله عنه - إلى الأقاليم يطلب منهم أن يبايعوا ابنه يزيد ، وكذلك أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها مروان بن الحكم أن يأخذ البيعة ليزید ؛ لأنّ فيها كبراء الصّحابة ، وبقية أكابر أبناء الصّحابة كالعبادلة ، وابن أبي بكر ، وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - . فقام مروان بن الحكم خطيباً ، ودعا النّاس إلى بيعة يزيد ؛ وحذّره من التّفرقة والفتنة وقال : « سُنّة أبي بكر الرّاشدة المهدية » ، واستدلّ مروان على ذلك بولاية العهد من سيّدنا أبي بكر لسيّدنا عمر - رضي الله عنهما وأرضاهما - .

* ولكن فتى البيت البكريّ وحصيف أبناء الصّحابة ردّ على مروان ردّاً مقنعاً ، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة ، وبيعة أبي بكر - رضي الله عنه - ، ثمّ قال بصوت واضح مسموع : « . . . فقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة ، وعمد إلى رجل من بني عدي بن كعب ؛ إذ رأى أنّه لذلك أهل ، فبايعه » ، ثمّ قال : « هذه البيعة شبيهة ببيعة هرقل وكسرى » .

* حاول سيّدنا معاویة أن يثني أهل المدينة عن معارضتهم وأرسل زياد بن أبي سفيان لهذه المهمّة ، وخطب أهل المدينة ، وفصّل وأجمل وقرب وبعد ، ولكنّ النتيجة كانت هي هي ، أو قريبة من هي ، وكرّر سيّدنا

(١) « المستدرک » (٣ / ٥٤٢) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٣٦٤) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٣) ، وغيرها . وقال القاسم بن محمّد عن امتناع عبد الرّحمن من بيعة يزيد : « إنّ عبد الرّحمن بن أبي بكر امتنع من بيعة يزيد ، فقال له معاویة : كنّ على ما في نفسك » « تاريخ أبي زرعة » (ص : ٦٧) .

عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر - رضي الله عنهما - اعترضه على البيعة بحزم ، وطلب منهم أن يقتفوا في ذلك أثرَ رسولِ الله ﷺ ، وأثر أبي بكر ، أو عمر - رضي الله عنهما - .

* كانت معارضة عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر ، وبعض أبناء الصَّحابة تدلُّ على وعي سياسي ، وأدركوا أنَّ الأمر سيتغير مع مرور الزَّمن ؛ وأنَّ الخلافة ستغدو وراثية تأتي ابنَ الخليفة منقاداً تجرُّ أذيالها ، ولا تصلحُ إلا له ، ولا يصلحُ إلا لها .

* وكان سيِّدنا معاوية - رضي الله عنه - يرنو من خلال هذه البيعة إلى مصلحة الأُمَّة ؛ لأنَّه كان يتوسَّم بيزيد النَّجاة الدُّنيوية ؛ لأنَّ أولاد الملوك لهم معرفة بالحروب ، وترتيب الملك ، والقيام بأبتهته ، وكان يظنُّ ألا يقوم أحد من أبناء الصَّحابة القرشيين - خاصة - بهذا الأمر المهم .

رحلة الخلود الحقيقية :

* في سنة (٥٨ هـ) أو بعدها بقليل ، خرج سيِّدنا عبد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر - رضي الله عنهما - من المدينة المنورة ، واتَّجه مع رفاقه نحو أمِّ القرى مكة المكرمة ، ولمَّا كان قريباً منها أرخى الليل سدوله على الدُّنيا ، فبات جميعهم على بضعة أميال من مكة ، ولقَّهم الليلُ بسواده ، ونام سيِّدنا عبد الرَّحْمَنِ وهو يتأمَّل أن يسفر الصَّباح عن مسمِّه في اليوم الآتي ليرى مراتع صباه ، وليطوف بالبيت العتيق ، ويؤدِّي بعض الأمور التي تخصُّه ، واستسلم عبد الرَّحْمَنِ للنَّوم وهو يذكرُ الله - عزَّ وجلَّ - .

* تنفَّس الصُّبْحُ ، وتبسَّم الفجر ؛ وأخذت الكائنات تسبِّح ربَّها ، ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : ٤١] ، وقَعَدَ الثُّوَامُ وشرعوا يذكرُون الله - عزَّ وجلَّ - ، وانتظروا سيِّدنا عبد الرَّحْمَنِ ليقومَ من نومه ، وما دروا أنَّه الآن في رحلة خلودٍ إلى بديع السَّموات والأرض ، وأنَّه ذهب تاركاً وراءه زخرف الدُّنيا وغرورها ، وودَّع عالم الخيال ، وصار مجاوراً

للكبير المتعال ، الذي : ﴿ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ ﴾ [الحج : ١٨] .

* استرجع أصحابه ، وعلموا أنَّ الموتَ نهايةُ كلِّ حيٍّ ، وشرعوا
يجهِّزون عبدَ الرَّحْمَنِ ، ثُمَّ حملُوهُ على الأعناقِ وانطلقوا به حتَّى دفنُوهُ في
مَكَّةَ ، وهم محزونون لفراقهِ ؛ إذ إنَّه سيِّدٌ كريمٌ ، وابنُ سيِّدٍ كريمٍ ، جليل
القدر عند رسولِ اللَّهِ ﷺ .

* قال القاسمُ بنُ محمَّدٍ : « توفي عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكرٍ في مقيل
قاله ، على غير وصيَّة ، فأعتقتُ عنه عائشة - رضي الله عنها - رقيقاً من تلاده ،
ترجو أن ينفعه الله بذلك بعد موته » (١) .

* وعن ابن أبي مليكة : « أنَّ عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ أبي بكرٍ توفي بالحُبَشِيِّ
على رأسِ أميالٍ من مكة ، فنقلَه ابنُ صفوان إلى مكة ، فبلغ ذلك
عائشة - رضي الله عنها - ، فقالت : ما آسى من أمره إلا على خصلتين : إنَّه
لم يعالج ، ولم يدفن حيث مات . قال نافع : وكان مات فجأة » (٢) .

* وقال ابنُ أبي مليكة أيضاً : « مات عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكرٍ
بالصَّفاح ، أو قريباً منها ، فحملناه على عواتقِ الرِّجال حتَّى دفنناه بمَكَّةَ ،

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٥) . وقال القاسم بن محمَّد : « انصرف
معاوية حين قدم المدينة من مكة ، فلم يلبث ابنُ أبي بكرٍ إلا يسيراً حتَّى توفي ، بعدما
خرجَ معاويةُ من المدينة » . (تاريخ أبي زرعة ص ٦٧) .

(٢) المصدر السابق عينه ، وانظر : « معرفة الصَّحابة » (٣ / ٢٦٤) . وقالت
صفية بنت شيبه : « توفي عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ أبي بكرٍ في وادي الحبشة قريباً من مكة ،
فخرجتُ إليه قريش من مكة ، فنقلوه إلى أعلى مكة » . « تاريخ أبي زرعة الدمشقي »
(ص : ٦٧) . و « والحُبَشِيُّ » : جَبَلٌ أسودٌ فيه جُدُدٌ بيض ، يقع جنوب مسفلة مكة
على عشرة أكيال . ويُقال له : حَيْش . « المعالم الأثيرة » (ص : ٩٦) .

فقدِمَتْ عائشة - رضي الله عنها - بعد وفاته ، فقالت : أين قبر أخي ؟ فأتتهُ
فَصَلَّتُ عليه « (١) .

* وعنه قال : « لَمَّا قَدِمْتُ عائشةُ مَكَّةَ ، أَتَيْتُ قَبْرَ أَخِيهَا ، فَبَكَتُ عَلَيْهِ ،
وَقَالَتْ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ حَضَرْتُكَ حَيْثُ مُتَّ لَدَفَنْتُكَ مَكَانَكَ ، وَلَوْ حَضَرْتُ
مَا بَكَيْتُ » (٢) .

* وَكَانَتْ أُمْنَا الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - تَقُولُ عَنْ
أَخِيهَا سَيِّدِنَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي
مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا دَفَنْتُهُ إِلَّا حَيْثُ مَاتَ ، وَمَا أَدْخَلْتُهُ مَكَّةَ » .

* وَذَكَرُوا أَنَّ أُمْنَا عَائِشَةَ لَمَّا زَارَتْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِأَعْلَى مَكَّةَ
قَالَتْ : « أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شَهِدْتُكَ لَمْ أَبْكِ عَلَيْكَ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَكَ لَمْ أَنْقَلِكَ مِنْ
مَوْضِعِكَ الَّذِي مِتَّ فِيهِ » ، ثُمَّ تَمَثَّلَتْ بِشَعْرِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ فِي أَخِيهِ مَالِكٍ :

وَكُنَّا كَنَدِمَانِي جَزِيمَةَ حَقْبَةٍ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لِطَوْلِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا (٣)

(١) المصدر السابق نفسه . و« الصَّفاح » : صِفَاح : عَلَى وَزْنِ فَعَالٍ : مَوْضِعٌ بَيْنَ حَنِينٍ
وَأَنْصَابِ الْحَرَمِ .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٦) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٣٩٣) ،
و« الإصابة » (٢ / ٤٠١) .

(٣) « البداية والنهاية » (٨ / ٨٩) ، و« الأخبار الموفقيات » (ص : ٤٧٣) ،
و« المستدرک » (٣ / ٥٤١) ، و« التّعازي والمراثي » (ص : ١٤٧) ، وَمِنْ
الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْبَيْتَيْنِ اللَّذَيْنِ تَمَثَّلَتْ بِهِمَا أُمْنَا عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - هُمَا مِنْ
قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ جَمِيلَةٍ مَاتِعَةٍ مَمْتَعَةٍ لِمَتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ الْيَرْبُوعِيِّ ، يَرِثِي بِهَا أَخَاهُ مَالِكَا ،
وَكَانَ قُتِلَ فِي الرِّدَّةِ ، قَتَلَهُ سَيِّدُنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي خِلَافَةِ سَيِّدِنَا
أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَأَوَّلِ الْقَصِيدَةِ :

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي بِتَأْيِينِ هَالِكٍ وَلَا جَزَعًا مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعُ=

* ومن المفيد ذكره ههنا أنَّ متمم بن نويرة التميمي اليربوعي هو صاحب المراثي الشهيرة بأخيه مالك بن نويرة ، وكان متمم أعور حسن الإسلام ، وأكثر شعره في مراثي أخيه ، وهو القائل :

كُلُّ فِتَى فِي النَّاسِ بَعْدَ ابْنِ أُمِّهِ كَسَاقِطَةٍ إِحْدَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَبْلِ

* وتمثّل به عمر بن عبد العزيز لما مات إخوته ، ويروى أنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لِلْحُطَيْثَةِ : « هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِأَبْكِي مِنْ هَذَا ؟ » قال : « لَا وَاللَّهِ مَا بَكَى بِكَاءِ عَرَبِيٍّ قَطُّ وَلَا يَبْكِيهِ » .

* وقال غيره : « كَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يَسِيرَانِ ، فَعَرَضَ لِهَمَا مَتَمُّ ، فَوَقَفَا لِمَضْيَ ، فَوَقَفَ ، فَتَعَجَّلَا ، فَتَعَجَّلَ ، فَقَالَ : مَا أَثْقَلَكُمَا ، هَبَانِي أَغْدِرُ النَّاسَ ، أَغْدِرُ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ هَبَانِي خَفْتُ الضَّلَالِ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَهْتَدِيَ بِكُمَا ، هَبَانِي خَفْتُ الْوَحْشَةَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَأْنَسَ بِكُمَا ؟ ! فَقَالَا : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مَتَمُّ بْنُ نُوَيْرَةَ ، فَقَالَا : مَلَلْنَا غَيْرَ مَمْلُولٍ ، هَاتِ أَنْشَدُنَا ، فَأَنْشَدَهُمَا أَوَّلَ قَصِيدَتِهِ الْعَيْنِيَّةِ :

لِعَمْرِي مَا دَهْرِي بِتَأْبِينِ مَالِكٍ وَلَا جَزَعًا مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا . . . » ^(١)

* وَلَمَّا تَوَفَّى سَيِّدُنَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ دَخَلَ فِي نَفْسِ أَمْنٍ عَائِشَةُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَوْقِفًا حَدَّثَ أَمَامَهَا أَذْهَبَ مَا بِنَفْسِهَا ، وَهَذَا الْمَوْقِفُ يَرَوِيهِ عِلْقَمَةُ بْنُ أَبِي عِلْقَمَةَ عَنْ أُمِّهِ : « أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ بَيْتَ عَائِشَةَ - رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا - ،

= ومنها قوله :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى يُصِيبُ مَتَالَعًا أَوْ الرَّكْنَ مِنْ سَلَمِي إِذَا لَتَضُنَّضَعَا إِلَى أَنْ قَالَ :

لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تُلِمَ مُلِمَةً عَلَيْكَ مِنَ اللَّائِي يَدْعُنَكَ أَجْدَعَا

« شرح شواهد المغني » (٢ / ٥٦٥ - ٥٦٧) باختصار .

(١) « الإصابة » (٣ / ٣٤٠) بتصرف يسير .

فصلت عند بيت النبي ﷺ وهي صحيحة ، فسجدت ، فلم ترفع رأسها حتى ماتت ، فقالت عائشة : الحمد لله الذي يحيي ويميت ، إن في هذه لعبرة لي في عبد الرحمن بن أبي بكر ، رقد في مقيل له قاله ، فذهبوا يوقظونه ، فوجدوه قد مات ، فدخل نفس عائشة تهمته أن يكون صنع به شر ، أو عجل عليه فدفن وهو حي ، فرأت أنه عبرة لها ، وذهب ما كان في نفسها من ذلك « (١) .

* وحينما مات سيدنا عبد الرحمن أخو أمنا عائشة فجأة ، شق عليها ، وقالت : « لو كان أصيب في بعض جسده لكان أحب إلي » ، ثم قالت : « أما إنها أخذة أسف ، وتخفيف عن المؤمن » (٢) .

* ولما قدمت سيدتنا عائشة قبر أخيها رويت حزينه أشد الحزن ، فقالت لها امرأة : « وإنك لتفعلين مثل هذا يا أم المؤمنين ؟ » قالت : « وما رأيتني فعلت ؟ إنه ليست لنا أكباد كأكباد الإبل » ، ثم أمرت بفسطاط ، فضربت على القبر ، ووكلوا به إنساناً ، وارتحلت ؛ فقدم ابن عمر - رضي الله عنهما - فرأى الفسطاط مضروباً ، فسأل عنه ، فحدثوه ، فقال للرجل : « انزعه » . فقال : « إنهم واكلوني » . قال : « انزعه » ثم إنه أخبرهم قائلاً : « إن عبد الرحمن يظله عمله » (٣) .

* قال أبو زرعة الدمشقي : « توفي عبد الرحمن بن أبي بكر بعد

(١) « المستدرک » (٥٤٧٣) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٥) .
« نفس » : منصوب بنزع الخافض ؛ أي : في نفسها .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٥) . وقال مالك بن أنس « توفي عبد الرحمن بن أبي بكر في نومة نامها » . « تاريخ أبي زرعة الدمشقي » (ص : ٦٦) .

(٣) « البداية والنهاية » (٨ / ٨٩) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (١٤ / ٢٨٦) ، مع الجمع والتصرف .

منصرف معاوية من المدينة في قدمته التي قدم فيها لأخذ البيعة ليزيد ، وتوفيت عائشة بعد ذلك بيسير سنة (٥٩ هـ) .

* وقال العسكري رحمته الله : « هو أول من مات من أهل الإسلام فجأة » وأرخ ابن حبان وفاته تبعاً للبخاري سنة (٥٨ هـ) ^(١) .

مكانته في البيت النبوي :

* كان سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - قريباً من بيت النبوة ، يشهد بعض أحداثه ، ويعرف بعض أحكام الإسلام التي تصادفها ، فقد دخل في أواخر أيام حياة النبي صلى الله عليه وسلم بيت أخته الصديقة الصادقة عائشة - رضي الله عنها - وبیده سواك ^(٢) أخضر لطيف ، فأمر الحبيب

(١) « تهذيب التهذيب » (٦ / ١٤٧) .

(٢) « سواك » : السواك . قال أهل اللغة : « يُطلق على الفعل ، وعلى الآلة ، وذكر صاحب « المحكم » : أنه يذکر ويؤث ، يقال : ساك فمه يسوكه سوكاً ، فإن قلت : استاك لم يذکر الفم وجمع سواك : سوك ، مثل : كتاب : كتب » .

وقيل : إن السواك مأخوذ من ساك إذا ذلک ، وقيل : من جاءت الإبل تساوك ؛ أي : تتمايل هزاً . وهو في اصطلاح العلماء : استعمال عود أو نحوه في الأسنان لتذهب الصفرة وغيرها .

والسواك سنة وليس بواجب إجماعاً ؛ واعلم أن السواك مستحب في جميع الأوقات ، ويشتد استحبابه في خمسة أوقات :

أحدها : عند الصلاة ، سواء أكان متطهراً بماء ، أم تراب ، أم غير متطهر كمن لم يجد ماء ولا تراباً .

الثاني : عند الوضوء .

الثالث : عند قراءة القرآن .

الرابع : عند الاستيقاظ من النوم .

الخامس : عند تغير الفم ، ويكون تغيره بأشياء منها : ترك الأكل والشرب ، وطول السكوت ، وكثرة الكلام .

المصطفى ﷺ أمنا عائشة أن تأخذه ، فأخذته ومضغته حتى صار لينا طريا ، ثم أعطته رسول الله ﷺ فاستن به ، ثم وضعه .

* روت أمنا عائشة - رضي الله عنها - خبر سواك أخيها عبد الرحمن فقالت : « كان من نعمة الله علي ، وحسن بلائه عندي أن رسول الله ﷺ مات في بيتي ، وفي يومي ، وبين سحري ونحري ، وجمع بين ريقه وريقه عند الموت » . فقال لها ابن أخيها القاسم بن محمد : « قد عرفنا كل الذي تقولين » ، فكيف جمع بين ريقك وريقه ؟ » .

قالت - رضي الله عنها وأرضاها - : « دخل عبد الرحمن بن أم رومان أخي علي النبي ﷺ يعودُهُ ، وفي يده سواك رطب ، وكان رسول الله ﷺ مولعا بالسواك ، فرأيت رسول الله ﷺ يُشخصُ بصره إليه ، فقلت : يا عبد الرحمن ! اقضم السواك ! فناولنيه ، فمضغته ، ثم أدخلته في في رسول الله ﷺ ، فتسوك به ، فجمع بين ريقه وريقه » (١) .

* وعن تسوك رسول الله ﷺ بسواك سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - ، نقرأ ما جاء في الصحيح وغيره ، بسند عن أمنا عائشة - رضوان الله عليها - أنها كانت تقول : « إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي ، وفي يومي ، وبين سحري ونحري ، وأن الله

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٢ / ٢٣٤) بشيء من التصريف اليسير . وما أجمل أن نقرأ هذه الهمسة اللطيفة الموحية :

لما أصاب المصطفى الآلام في المرض المشين
قال اجعلوني عند عائشة أقر وأستكين
في بيتها قد ظل مع آلامه حتى اليقين
قد شاركته مرارة الآلام في حزن دفين
قد أسندته لصدورها بالود والحب المتين
من فوق ذاك الصدر فاضت روحه في الخالدين

جمع بين ريقه وريقه عند موته : دخل عليَّ عبد الرَّحْمَنِ وبیده السَّوَاك ، وأنا مسندٌ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فرأيتُه ينظرُ إليه ، فعرفتُ أنَّه يحبُّ السَّوَاك ، فقلتُ : آخذه لك ؟ فأشارَ برأسه أنْ نَعَمْ ، فتناوله فاشتدَّ عليه ، وقلتُ : أليته لك ؟ فأشارَ برأسه أنْ نَعَمْ ، فليته ، فأمره ؛ وبين يديه ركوةٌ - أو عُلبَةٌ يشكُّ عمرُ بنُ سعيدٍ أحدَ رواة الحديث - فيها ماء ، فجعلَ يُدخلُ يديه في الماء ، فيمسحُ بهما وجهه يقول : « لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ ، إنَّ للموتِ سَكَراتٍ » ، ثمَّ نصبَ يده فجعلَ يقول : « في الرَّفِيقِ الأعلَى » حتَّى قُبِضَ ومالتْ يدهُ ^(١) .

* وكان لسيدنا عبد الرَّحْمَنِ مكانةٌ متميزةٌ عند الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ ، فقد ذكره ﷺ في أَيْامِهِ الأخيرة من الدُّنْيَا قبل أنْ يلحقَ بالرَّفِيقِ الأعلَى ، وطلبَ منه أنْ يأتيه لِيَكْتُبَ لأبي بكرٍ كتاباً لا يُخْتَلَفُ عليه ، وهذا ما أخرجه ابنُ سعدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بسندهٍ عن سيِّدتنا النَّجِيةِ الحَصِيْفَةِ عائِشةَ - رضي الله عنها - قالت : « لَمَّا ثَقُلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، دعا عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ أبي بكرٍ فقال : « ائتني بكتفٍ حتَّى أَكْتُبَ لأبي بكرٍ كتاباً لا يُخْتَلَفُ عليه » فذهبَ عبدُ الرَّحْمَنِ ليقومَ ، فقال : « اجلسْ ، أبيتُ اللهُ والمؤمنون أنْ يُخْتَلَفَ على أبي بكرٍ » ^(٢) وفي رواية : « معاذُ اللَّهِ أنْ يَخْتَلَفَ المؤمنون في أبي بكرٍ » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاريُّ بهذا اللفظ في المغازي برقم : (٤٤٤٩) ، وأخرجه أيضاً في مواضع أخرى برقم : (٨٩٠ ، ١٣٨٩ ، ٣١٠٠ ، ٣٧٧٤ ، ٤٤٣٨ ، ٤٤٤٦ ، ٤٤٥٠ ، ٤٤٥١ ، ٢٢١٧ ، و ٦٥١٠) ، وأحمد في « المسند » في مواضع عن عائِشةَ ، والنَّسَائِي في الجنائز (٤ / ٦ - ٧) . وقوله : « فليته » ؛ أي : لينت السَّوَاك . و« أمره » : أمره على أسنانه فاستاك به . و« سحري » : السَّحَر : الرُّثَّة . والمقصود هنا : الصَّدْر .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٨٠) . وانظر : « أنساب الأشراف » (١ / ٥٤١) .

(٣) المصدر السابق نفسه . وجاء هذا الخبر عند البلاذريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بنحو قريب عن عبدِ اللَّهِ بنِ أبي مليكة قال : قال النَّبِيُّ ﷺ في مرضه لعائِشةَ : « ادعي لي عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ أبي بكرٍ أَكْتُبَ لأبي بكرٍ كتاباً ، فلا يَخْتَلَفُ فيه المسلمون بعدي » ، =

من مروياته الحديثية :

* هذا الابن الكريم ابن الكريم ممن روى الحديث النبوي الشريف عن النبي ﷺ ، وعن أبيه ، وهو الابن الذي روى عن النبي ﷺ ؛ إذ لم يؤثر لأخويه عبد الله ومحمد الرواية المباشرة عنه ﷺ .

* وروى عن سيدنا عبد الرحمن من أهل بيته وأقربائه : ابنه : عبد الله ، وابنته : حفصة ، وابن أخيه : القاسم بن محمد .

* كما روى عنه الحديث عدد من أكابر علماء التابعين وأعيانهم من مثل : عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وأبو عثمان النهدي ، وعبد الله بن أبي مليكة ، وموسى بن وردان ، وميمون بن مهران ، وشريح القاضي ، وغيرهم (١) .

* قال الإمام النووي رحمه الله وغيره : « روي له عن رسول الله ﷺ ثمانية أحاديث ، اتفق الشيخان : البخاري ومسلم على ثلاثة منها » (٢) . بينما أخرج له الإمام أحمد في مسنده (١٢ حديثاً بالمكرر) ، وله أحاديث في معظم الكتب المتخصصة بهذا الشأن المبارك .

= ثم قال : « دعيه ، معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر » .

وفي هذه إشارة واضحة إلى استخلافه ﷺ أبا بكر ، فقد جاء عن سيدنا جبير بن مطعم - رضي الله عنه - : « أن امرأة أتت النبي ﷺ تسأله شيئاً ، فقال : « أرجعي إليّ » قالت : فإن رجعت فلم أجذك يا رسول الله ؟ - تعرض بالموت - فقال لها : « إن رجعت فلم تجدني ، فألقي أبا بكر » . وهناك آثار كثيرة صحيحة تدل على هذا الأمر . انظر : « أنساب الأشراف » (١ / ٥٤٠ - ٥٤٣) . والله تعالى أعلم .

(١) « تهذيب التهذيب » (٦ / ١٤٧) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٣٦٣) ، و« الإصابة » (٢ / ٤٠٠) ، وغيرها كثير .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٩٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٤٧٢) .

* وتدورُ الأحاديث التي رواها سيّدنا عبد الرَّحْمَن - رضي الله عنه - حولَ موضوعات متنوعة كالصَّلَاة ، والعمرة ، والمناقب ، والجهاد ، والسَّير ، والأدب ، والهبة ، والحجّ ، والبيوع وغيرها .

* ومن مروياته في « الصَّحِيحَيْن » وغيرهما ما أخرجه بسندٍ عن أبي عثمان التَّهْدِيّ البصريّ عن عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - قال : « كُنَّا مع النَّبِيِّ ﷺ ثلاثين ومئة ، فقال النَّبِيُّ ﷺ : « هل مع أحدٍ منكم طعامٌ ؟ » فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه ، فَعَجِنَ ، ثُمَّ جاء رجل مشرك مُشْعَان طویل بغنم يسوقها ، فقال النَّبِيُّ ﷺ : « أبيعُ أم عطيةٌ ؟ » أو قال : « أم هَبّةٌ ؟ » فقال : لا ، بل يبيعُ ، فاشتري منه شاة ، فَصَنَعْتُ ، وأمرَ رسولُ الله ﷺ سوادَ البطن أن يُشَوِّى ، قال : وإيمُ الله ! ما من الثلاثين ومئة إلا حَزَّ له رسولُ الله ﷺ حُرَّةً من سواد بطنها ، إن كان شاهداً أعطاه ، وإن كان غائباً خَبَأَ له .

قال : وجعل قصعتين ، فأكلنا منهما أجمعون وشبعنا ، وفضل في القصعتين ، فحملته على البعير ، أو كما قال « (١) » .

(١) أخرجه البخاريّ في مواضع برقم : (٢٢١٦ ، و ٢٦١٨ ، و ٥٣٨٢) ، ومسلمٌ في الأشربة برقم : (٢٠٥٦) ، واللفظُ له ، وأحمدٌ في « المسند » (١ / ٤١٨ - ٤١٩) ، حديث رقم : (١٧٠٣) ، وأيضاً برقم : (١٧١١) ، ومعنى قوله « مُشْعَان » : طویلٌ منتفشُ الشَّعر ومتفرقه . و« سوادُ البطن » : الكبد ، و« وإيمُ الله » : قَسَم . و« حُرَّة » : القطعة من اللحم وغيره . و« أو كما قال » : شكٌّ من الراوي . قال النَّوَوِيّ رَحِمَهُ اللهُ : « وفي هذا الحديث معجزتان ظاهرتان لرسول الله ﷺ ، إحداهما : تكثيرُ سواد البطن حتَّى وسع هذا العدد . والأخرى : تكثيرُ الصَّاع ولحم الشَّاة حتَّى أشبعهم أجمعين ، وفضلت منه فضلة حملوها لعدم حاجة أحدٍ إليها » « المنهاج » (ص : ١٥٥٧) .

وفي الحديث فوائد كثيرةٌ منها : مواساة الرِّفقة فيما يعرض لهم من طرفه =

* وفي فَضْلِ الْأَمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « مَسْنَدِهِ » بِسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَهَلَّا اسْتَزِدُّتَهُ ؟

قَالَ : « قَدْ اسْتَزِدُّتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » .

قَالَ عُمَرُ : فَهَلَّا اسْتَزِدُّتَهُ ؟

قَالَ : « قَدْ اسْتَزِدُّتُهُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا » . وَفَرَّجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ - أَحَدُ رَوَاةِ الْحَدِيثِ - بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَبَسَطَ بَاعِيَهُ ، وَجَثَا عَبْدُ اللَّهِ ، وَقَالَ هِشَامٌ - أَحَدُ رَوَاةِ الْحَدِيثِ - وَهَذَا مِنْ اللَّهِ لَا يُدْرِي مَا عَدَدُهُ « (١) .

* وَمِنْ الْمَرْوِيَّاتِ الدَّائِعَةِ السَّاطِعَةِ الَّتِي نَقَرْنَا مِنْ خِلَالِهَا عَنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَمَنِّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسْنَدِهِ عَنْ قَيْسِ بْنِ زَيْدٍ ، عَنْ قَاضِي الْمَصْرَيْنِ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَدْعُو اللَّهُ بِصَاحِبِ الدِّينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيَقَالَ : يَا بَنَ آدَمَ ! فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدِّينَ وَفِيمَ ضَيَّعْتَ حَقُوقَ النَّاسِ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ! إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُهُ فَلَمْ أَكُلْ ، وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أَلْبَسْ ، وَلَمْ أَضَيِّعْ ، وَلَكِنْ أَتَيْتُ عَلَى يَدَيَّ ؛ إِمَّا حَرَقَ ، وَإِمَّا سَرَقَ ، وَإِمَّا وَضِيعَةً - وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ : إِنَّْمَا ذَهَبَ فِي غَرَقٍ ، أَوْ حَرَقٍ ، أَوْ سَرَقَةٍ ، أَوْ وَضِيعَةٍ - فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : صَدَقَ عَبْدِي ، أَنَا أَحَقُّ مِنْ

= وغيرها . وفيه : إِذَا غَابَ بَعْضُهُمْ خُبْرُ نَصِيحَتِهِ . وفيه : قَبُولُ هَدِيَّةِ الْمُشْرِكِ . وفيه : ظُهُورُ الْبَرَكَةِ فِي الْاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ ، وَالْقَسَمُ لِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ وَإِنْ كَانَ الْمَخْبُرُ صَادِقًا .

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١ / ٤١٩) ، حَدِيثُ رَقْمٍ : (١٧٠٦) .

قضى عنك اليوم ، فیدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه ، فترجح حسنة على سيئاته ، فیدخل الجنة بفضل رحمته » (١) .

* وبعد فهذه قلائد من عقيق ، تحكي شيئاً من سيرة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، فرضي الله عنه وأرضاه ، وأدخلنا الجنة وإياه .



(١) « المسند » (١ / ٤١٩ - ٤٢٠) ، حديث رقم : (١٧٠٧ - ١٧٠٨) .

عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ

رضي الله عنهما

- * من نُجَبَاءِ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ ؛ وَأَخْبَارُهُ مشهورة .
- * شهيدُ ابنِ شَهِيدَيْنِ ؛ وهو عميدُ الأسرة الياسريَّة .
- * شهدَ له النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ ؛ وَقُتِلَ سنة (٣٧ هـ) .

عمّار بن ياسر رضي الله عنهما

أسرة من أهل الجنة :

* إنَّ فضلَ سيّدنا محمّدٍ رسولِ الله ﷺ وعطفَهُ قد عمّ الأنام ، فاستفاد منه الخاص والعام ، والوالد والمولود ، والسَّيّد والمسود ، وممّن ساد وجاد ، وأفاد واستفاد ، وغدا من أعيانِ الثُّجباء ، ومن عمالقةِ الأصفياء ، ومن ساداتنا الأمراء : عمّارُ بنُ ياسر بنِ عامر العنسيّ المكيّ الشّاميّ الدّمشقيّ ^(١) ، أبو اليقظان ، الممتلئُ من الإيمان ، والمطمئنُّ بالإيقان ، أحدُ السّابقين الأوّلين ، والأعيان البدرين ، والأولياء المحبّين ، كان له من النّبيّ ﷺ إذا استأذن البشاشة والتّرحيب ، والبشارة بالتّطيب ، كان لزينة الدّنيا واضعاً ،

(١) مصادر ترجمة سيّدنا عمّار بن ياسر لا يستطيع الباحثُ حصرها ، ومنها : « حلية الأولياء » (١ / ١٣٩ - ١٤٣) ، و« سيرُ أعلام الثُّبلاء » (١ / ٤٠٦ - ٤٢٨) ، و« مختصرُ تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٤ - ٢٣٤) ، و« طبقاتُ ابن سعد » (٣ / ٢٤٦ - ٢٦٤) ، و« معرفة الصّحابة » (٣ / ٤٥١ - ٤٥٤) ، ترجمة رقم : (٢١٦٠) ، و« شرح حياة الصّحابة » (الفهارس : ٤ / ٨٠٩) ، و« المعارف » (ص : ٢٥٦ - ٢٥٨) ، و« تاريخ بغداد » (١ / ١٥٠ - ١٥٣) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٣٧ - ٣٨) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٦٢٦ - ٦٣٢) ، ترجمة رقم : (٣٧٩٨) ، وكتب الصّحيح والتّواريخ وغيرها كثير .

ولأنصارِ الدِّينِ رافعاً ، ولإمام الهدى تابِعاً .

* وسَيِّدنا عَمَّار - رضي الله عنه - مع هذا كلِّه ، أحدُ المشاهير الأَكابر من أبناء الصَّحابة الكرام ، ومَمَّن نَجَدُ في سِيرهم وأخبارهم الفائدة والمتعة على مرِّ الأَيَّام والأعوام ، فهو أحدُ أعيان الأعلام ، ومن المسارعين إلى مغفرة ربِّ الأَنام ، وهو أوَّل مَنْ بنى مسجداً لله تعالى في الإسلام .

* كان إسلامُ عَمَّار مع المبكرين حينما كان الحبيبُ المطصفي ﷺ يدعو إلى الله - عزَّ وجلَّ - في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، إذ أسلم بعد بضعة وثلاثين رجلاً ، فهو قديمُ إسلامه ، طويلةٌ صُحبته ، جميلةٌ سيرته ، صافيةٌ سريره - رضي الله عنه - .

* وأُسرةُ ياسر بن عامر أبي عَمَّار من الأُسَر الصَّابرة في تاريخ الدَّعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - في المرحلة المكيَّة المباركة ، وهذه الأُسرة الياسريَّة المؤمنة من الأُسَر المُبشرة بالجنَّة ، ومن الأُسَر ذات الماضي الوضيء في الثَّبات على توحيد الله - عزَّ وجلَّ - أمام عتوِّ المشركين وعنادهم وكُفْرهم .

* وقد خَطَّتْ بأحرف من نور أُسرةُ هذا الرَّجل العَلَم - ياسرُ بنُ عامر ، وابناءهُ : عَمَّارُ بنُ ياسر ، وعبدُ الله بنُ ياسر ، وأمُّهُما السَّيِّدةُ سُمَيَّة بنتُ خُباب رضي الله عنهم - في ديوان العِظام ، وسجَّلَ البطولات الفدائيَّة أَجملَ صور الصَّبَر الصَّبور ، واحتمال أشدِّ الأذى والعذاب ، وأقسى البلاء ، كانت أَحرفاً من نور التَّضحية والفداء بالنَّفْس في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - ، ومن أَجل الدِّين الذي استناروا بسنَّائِهِ وضيائِهِ ، وقد مات ياسر - رضي الله عنه - تحت العذاب ، كما ماتت سُمَيَّة - رضي الله عنها - بطعنةٍ فاجرةٍ غادرةٍ من الخبيث أبي جهل ، ورُمي عبدُ الله فَسَقَطَ ، ولم يبقَ منهم إلَّا عَمَّار - رضي الله عنه - ، فكانت له آثارُ الصَّدق والوفاء في جميع المواقف النَّديَّة ، ومواطنِ الجهاد التي شهدها بالمعيَّة النَّبويَّة .

* كان رسولُ الله ﷺ يمرُّ بأفراد الأُسرة الفاضلة وهم يُعذَّبون فوقَ بطحاء

مَكَّةَ ورمالها ، فيقول : « صَبْرًا آل ياسر فَإِنَّ موعدكم الجنة » . والرَّسُولُ ﷺ ما ينطقُ عن الهوى ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ، فهذه الأُسْرَةُ الصَّابِرَةُ من أُسْرِ الجنةِ إِنَّ شاءَ اللهُ ، ونرجو اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يحشرنا معها ، وَأَنْ يعفوَ عَنَّا برحمتهِ ، ويدخلنا برحمته في عبادهِ الصَّالحين .

* أَمَّا كَيْفَ تَكُونَتْ هَذِهِ الأُسْرَةُ اليمانيَّةُ المباركةُ ، وسكنتُ مَكَّةَ ، فَإِنَّ لذلك سبباً ذكرتهُ المصادِرُ ، فقالت ما مفادهُ : « قدم ياسرُ بْنُ عامرٍ ، وأخواه : الحارثُ ومالكُ من اليمنِ إلى مَكَّةَ المَكْرَمَةِ يطلبون أَخاً لَهُمْ ، فرجعَ الحارثُ ومالكُ إلى اليمنِ ، بينما أقام ياسرُ في مَكَّةَ حيث طابَ لَهُ المَقَامُ فيها ، ومن ثَمَّ حالفَ أبا حذيفةَ بَنَ المغيرةِ المخزوميَّ ، وزَوَّجَهُ أَبُو حذيفةَ أَمَةً لَهُ يُقالُ لها : سُمَيَّةُ بنتُ خَبَّاطٍ ، فولدتَ لَهُ عماراً ، فأعتقه أَبُو حذيفةَ ، ولم يزلْ ياسرُ وَعَمَّارُ مع أَبِي حذيفةَ إلى أَنْ مات ، وجاءَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بالإسلام ، فأسلمَ ياسرُ وَسُمَيَّةُ وَعَمَّارُ وَأخوهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ ياسرٍ » ^(١) .

* وبدايةُ قِصَّةِ إسلامِ عَمَّارِ بْنِ ياسرٍ بدايةٌ لطيفةٌ ، رواها سَيِّدُنَا عَمَّارُ نَفْسُهُ فقال : « لقيْتُ صَهِيبَ بَنَ سِنانٍ ^(٢) على بابِ دارِ الأرقمِ ، ورسولُ اللهِ ﷺ فيها ، فقلتُ لَهُ : ما تريدُ ؟ !

قال لي : ما تريدُ أَنْتَ ؟

فقلتُ : أردتُ أَنْ أدخلَ على مُحَمَّدٍ ، فأسمعَ كلامه .

قال : وأنا أريدُ ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرضَ علينا الإسلامَ ، فأسلمْنَا ، ثُمَّ مكثْنَا يوماً على ذلك

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٤ - ٢٠٥) ، و « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٤٦) ، مع الجمع بينهما .

(٢) اقرأ سيرة الصَّحابي النَّبيلِ ؛ والمهاجر الجليل صَهِيبَ بَنَ سِنانٍ في كتابنا : « رجال مبشرون بالجنة » (ص : ٤٤٨ - ٤٦٤) ، دار ابن كثير - دمشق - ط : ٥ - ٢٠٠٣ م ، ففي سيرته مواقفٌ تنضحُ بالطَّيبِ ، وتدلُّ على صدقِ محبَّتهِ للنَّبِيِّ الحبيبِ ﷺ .

حَتَّى أَمْسِينَا ، وَنَحْنُ مُسْتَخْفُونَ » (١) .

* كَانَ إِسْلَامُ عَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بَعْدَ بَضْعَةِ وَثَلَاثِينَ رَجُلًا ، وَهُمَا مِنَ السَّبْعَةِ الْأَوَائِلِ الَّذِينَ أَظْهَرُوا إِسْلَامَهُمْ فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ حَسَبَ تَقْرِيرِ مُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ التَّابَعِيِّ الْجَلِيلِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ : « أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَبِلَالٌ ، وَخُبَّابٌ ، وَصُهَيْبٌ ، وَعَمَّارٌ ، وَسَمِيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ » (٢) . وَفِي رَوَايَةٍ : « وَالْمَقْدَادُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ خُبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ » .

* قَالَ : « فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ ، فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ ؛ وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ ، وَصَهْرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ ، حَتَّى بَلَغَ الْجَهْدُ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ ، حَتَّى جَعَلَ يَسِيلُ مِنْهُ الصَّدِيدُ ، فَأَعْطَوْهُمْ مَا سَأَلُوا ، فَجَاءَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَوْمَهُ بِأَنْطَاعِ الْأَدَمِ فِيهَا الْمَاءُ ، فَأَلْقَوْهُمْ فِيهَا ، ثُمَّ حَمَلُوا بِجَوَانِبِهِ ، إِلَّا بِلَالَ فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ ، فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا ، وَأَمَرُوا صَبْيَانَهُمْ يَطْوِفُونَ بِهِ فِي شَعَابِ مَكَّةَ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ . وَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ عَدُوَّ اللَّهِ بِحَرْبَتِهِ ، وَجَعَلَ يَشْتُمُ سَمِيَّةَ ، وَيَطْعُنُ بِحَرْبَتِهِ فِي قَبْلِهَا ، حَتَّى قَتَلَهَا ، فَكَانَتْ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ » (٣) .

الصَّابِرُ الْمُطْمَئِنُّ :

* لَمَّا أَسْلَمَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كَانَ فِي حُدُودِ الْأَرْبَعِينَ ،

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٦) ، وانظر : « طبقات ابن سعد »

(٣ / ٢٤٧) ، و« المستدرک » (٣ / ٤٤٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٧) ، و« حلية الأولياء » (١ / ١٤٠) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٠٨ - ٤٠٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق »

(١٨ / ٢٠٧) ، مع الجمع والتصرف بينهما .

فهو مقاربٌ لِسِنِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فقد روي عن عَمَّار - رضي الله عنه - قال : « كُنْتُ تَرْباً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لم يكن أحدٌ أقربَ به سناً مِنِّي » (١) .

* وصف الرِّوَاةُ شَخْصِيَّةَ سَيِّدِنَا عَمَّار - رضي الله عنه - فقالوا : « كان عَمَّارٌ - رضي الله تعالى عنه - آدَمَ ، طويلاً ، مضطرباً ، أشهلَ العينين ، بعيدَ ما بين المنكبين ، جَعَدَ الشَّعْرَ ، لا يَغْيِرُ شَيْبَهُ » (٢) .

* وَلَمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى سَيِّدِنَا عَمَّارٍ بِالْإِيمَانِ ، أَصْبَحَ مَمَّنْ تَخَافُهُ قَرِيشٌ وَتَخْشَاهُ ، وَتَرْتَعِدُ مَمَّنْ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ؛ مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ مِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ ؛ لِيَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ إِلَى الشِّرْكِ وَالْوثنِيَّةِ وَتَبَذُّ الدِّينَ الْجَدِيدَ .

* قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الرُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « الْمُسْتَضْعَفُونَ قَوْمٌ لَا عِشَائِرَ لَهُمْ بِمَكَّةَ ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا قُوَّةٌ ، فَكَانَتْ قَرِيشٌ تَعَذِّبُهُمْ فِي الرَّمْضَاءِ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ ، لِيَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ » (٣) .

* صَبَرَ سَيِّدُنَا عَمَّارٌ عَلَى تَعَذِيبِ الْمُشْرِكِينَ صَبْرًا جَمِيلًا ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُعَذَّبُونَ الْمُسْتَضْعَفِينَ زُرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا ؛ وَمِنَ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَعَذِّبُهُمْ : آلُ يَاسِرٍ ، وَهُمْ : عَمَّارٌ ، وَأُمُّهُ ، وَأَبُوهُ ، وَقَدْ نَقَلَ لَنَا سَيِّدُنَا عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ - رضي الله عنه - صُورَةَ مِنْ صُورِ فَجْوَرِ قَرِيشٍ وَتَعَذِيبِهِمْ لِعَمَّارٍ وَذَوِيهِ فَيَقُولُ : « أَقْبَلْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْذُ بِيَدِي نَتَمَاشَى فِي الْبَطْحَاءِ حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى أَبِي عَمَّارٍ ، وَعَمَّارٍ ، وَأُمِّهِ ، وَهُمْ يُعَذَّبُونَ ، فَقَالَ يَاسِرٌ

(١) « المستدرك » (٣ / ٣٣٤) برقم : (٥٦٥٤) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٦) .

(٢) « المستدرك » (٣ / ٤٣٣) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٦) ، مع الجمع بينهما .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٧) ، و« طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٤٨) .

لِلنَّبِيِّ ﷺ : الدَّهْرُ هَكَذَا ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ : « اصْبِرْ » ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ » (١) .

* أَغْرَقَ الْمُشْرِكُونَ فِي فُجُورِهِمْ ، فَقَدْ عَذَّبُوا عَمَّاراً بِالنَّارِ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمُرُّ بِهِ ، وَيُمِرُّ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَى رَأْسِ عَمَّارٍ ، ثُمَّ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٦٩] ، عَلَى عَمَّارٍ كَمَا كُنْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاطِلِيَّةُ » (٢) .

* وَعَنِ الْآثَارِ الْجَسَدِيَّةِ الْمُؤَلِّمَةِ الَّتِي خَلَّفَهَا الْمُشْرِكُونَ عَلَى ظَهْرِ سَيِّدِنَا عَمَّارٍ ، يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ : « أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ مُتَجَرِّدًا مِنْ سَرَائِلَ ، قَالَ : فَنَظَرْتُ إِلَى ظَهْرِهِ فِيهِ حَبْطٌ كَثِيرٌ - أَوْ خِيْطٌ كَبِيرٌ - ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا مِمَّا كَانَتْ تَعَذِّبُنِي بِهِ قُرَيْشٌ فِي رَمَضَانَ » (٣) .

* وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِ الْمُشْرِكِينَ لِسَيِّدِنَا عَمَّارٍ ، فَإِنَّهُ ظَلَّ ثَابِتَ النَّفْسِ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ ، لَا يَحِيدُ قَيْدَ أُنْمَلَةٍ عَنْ مُحَبَّتِهِ لِلْمَلِكِ الدِّيَّانِ ، وَلِلرَّسُولِ ﷺ ، وَهَذَا الثَّبَاتُ وَالْحُبُّ الْعَجِيبُ كَانَ يُورِّقُ الْمُشْرِكِينَ ، وَيَزِيدُهُمْ حَقْدًا وَغِيظًا عَلَى عَمَّارٍ وَالَّذِينَ عَلَى صِفَتِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَانَ الْفَجْرَةُ الْكُفْرَةُ

(١) « طبقات ابن سعد » (١ / ٢٤٨ - ٢٤٩) ، و« سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٨) ، وفي رواية لعثمان أيضاً قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لعَمَّارٍ ولأبيه ولأُمِّه وهم بمكة والمشركون يعذبونهم : « صبراً آل ياسر ، فإنَّ موعدكم الجنة » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٨) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨ / ٢٩٣) من حديث سيِّدنا عثمان أيضاً ، وقال : « رواه الطَّبْرَانِيُّ ورجاله ثقات » .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٠ - ٤١١) بتصرف يسير . وانظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٤٨) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٤٨) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٨) .

يعمدون إلى تعذيبهم بطريقة لا تُطاق ؛ حتّى يذكروا آلهتهم ولو بكلمة ليس فيها تحقيرٌ أو ازدراء ، فكان بعضُ المؤمنين يُواتيهم بلسانه لكي يخففوا عنه العذاب ، وهذا ما كان محصّله مع سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - .

* روى أحدُ أهل بيت عمّار عمّا لاقاه عمّار من أهوالٍ مع المشركين ، فيقولُ ابنُه محمّد بنُ عمّار بن ياسر ما صورته : « أخذ المشركون عمّار بن ياسر - رضي الله عنهما - ، فلم يتركوه حتّى نال من رسولِ الله ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير ؛ فلمّا أتى النّبي ﷺ ، قال : « ما وراءك ؟ » .

قال : شرٌّ يا رسولَ الله ، والله ما تُرِكْتُ حتّى نِلْتُ منك ، وذكرتُ آلهتهم بخير .

قال ﷺ : « فكيف تجدُ قلبك ؟ » .

قال : مُطمئنٌ بالإيمان .

قال : « فإن عادوا فعدّ » (١) .

* لم يكن سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - يفكر في نفسه فحسب ، وإنّما كان ينظرُ إلى أصحابه المُستضعفين ؛ ممّن يلاقون مرّ العذاب على أيدي المشركين ، وها هو ذا يذكر سيّدنا بلال بن رباح ، وأمّه حمامة ، وأصحابه ، وما كانوا فيه من البلاء والمرارة والصّبر على كيد الخائنين ، ثمّ يذكر إعتاق أبي بكرٍ إيّاهم - وكان اسم أبي بكر عتيقاً رضي الله عنه - فيقول :

جزى الله خيراً عن بلالٍ وصحبهِ	عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهلٍ
عشيّة همّا في بلالٍ بسوءٍ	ولم يحذروا ما يحذرُ المرءُ ذو العقلِ
بتوحيده ربّ الأنام وقوله	شهدتُ بأنّ الله ربّي على مهلٍ
فإن يقتلوني يقتلوني ولم أكن	لأشرك بالرحمّلن من خيفة القتلِ
فيا ربّ إبراهيم والعبد يونسِ	وموسى وعيسى نجّني ثم لا تبلى

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٤٩) ، و « حلية الأولياء » (١ / ١٤٠) .

لمن ظلَّ يهوى الغيَّ من آلِ غالبٍ على غيرِ برٍّ كان منه ولا عدلٍ (١)

* ولَمَّا كان سيِّدنا عَمَّار يلقى الجهد من الكفَّار ، كان النَّبِيُّ ﷺ يأخذُ بيده إلى طريق النَّجاة والفلاح ، وهذا ما رواه التابعيُّ الجليلُ مُحَمَّدُ بْنُ سيرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « لقي النَّبِيُّ ﷺ عَمَّاراً - رضي الله عنه - وهو يبكي ، فجعل يمسحُ عن عينيه ويقول : « أخذك الكفَّار فغطوك في النَّار ، فقلتُ كذا وكذا ، فإنَّ عادوا فقلَّ ذاكَ لهم » (٢) .

هل نزلَ قرآنٌ في عَمَّار ؟ :

* أورد عددٌ من أعيان المفسِّرين أن آيات كثيرة قد نزلت في بعض أبناء الصَّحابة ؛ وقد نزل عددٌ من الآيات في شأن سيِّدنا عَمَّار بن ياسر - رضي الله عنهما - تزكي فعله وإيمانه وصبره في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - .

* ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، أورد الإمامُ القرطبيُّ : « بأنَّها نزلت في عَمَّار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون » (٣) .

* وذكر القرطبيُّ وغيره في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٩] ؛

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٩ - ٢١٠) ، و « حلية الأولياء » (١ / ١٤٨) ، و « شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٤٧٦ - ٤٧٧) .

(٢) « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٥٧٢) . قال الذهبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موضحاً هذا الحديث ومعلقاً عليه : « قلتُ : حين تكلم يعني بالكُفر ، فَرُخِّصَ له في ذلك ؛ لأنَّه مُكْرَهٌ » . « تاريخ الإسلام » (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٥٧٢) .

(٣) « تفسير القرطبي » (٤ / ٥٨) .

قالوا : « نزلت في معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان ، وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير ، وبني قريظة ، وبني قينقاع إلى دينهم » (١) .

* وفي سورة النحل نصيب طيب لسيدنا عمّار - رضي الله عنه - ، ففي تفسير قوله - عز وجل - : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ ... ﴾ [النحل : ١٠٦] ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : « نزلت في عمّار - رضي الله عنه - ، وذلك أنّ المشركين أخذوه وأباه ياسراً ، وأمه سمية ، وصهيياً ، وبلاً ، وخباباً ، وسالماً ، فأما سمية : فإنّها رُبِطت بين بعيرين ، ووجئ قلبها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتلين قتلا في الإسلام . وأما عمّار : فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فأخبر النبي ﷺ بأنّ عمّاراً كفر ، فقال ﷺ : « كلاً ، إنّ عمّاراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه ، وأخلط الإيمان بلحمه ودمه » . فأتى عمّار - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال : « إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (٢) .

* روي أنّ سيدنا عمّاراً - رضي الله عنه - شكى إلى رسول الله ﷺ ما صنّع به من العذاب ، وما سامح به من القول ، فقال له ﷺ : « كيف تجد قلبك ؟ » .

قال : « أجده مطمئناً بالإيمان » .

قال ﷺ : « فأجبتهم بلسانك فإنه لا يضرّك ، وإن عادوا فعُد » (٣) .

(١) « تفسير القرطبي » (٤ / ١١٠) ، و « أسباب النزول » للواحدي (ص : ٩٢) ، وغيرهما من مصادر .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي (ص : ٢٣٧) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٩) ، و « الاستيعاب » (٢ / ٤٧١) .

(٣) « تفسير ابن عطية » (ص : ١١١٧) .

* وعن قتادة في بيان قوله - عز وجل - : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ... ﴾ [النحل : ١٠٦] الآية ، قال : « ذُكِرَ لَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَمَّار - رضي الله عنه - ، أَخَذَهُ بَنُو الْمَغِيرَةِ ، فغَطَّوْهُ فِي بَثْرِ مِيمُونَ حَتَّى أَمْسَى ، فَقَالُوا : اكْفُرْ بِمُحَمَّدٍ ، وَأَشْرِكْ ، فَتَابَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَلْبُهُ كَارِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل : ١٠٦] يقول : مَنْ أَتَاهُ عَلَى خِيَارِ اسْتِحْبَابٍ لَهُ فَعَلِيهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (١) .

* ونقرأ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ٥١] قال عِكْرَمَةُ : « جَاءَ آلُ شَيْبَةَ وَعَتْبَةُ ابْنِ أَرْبِيعَةَ ، وَنَفَرُوا مَعَهُمَا إِلَىٰ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّ ابْنَ أَخِيكَ مُحَمَّدًا يَطْرُدُ مَوَالِينَا وَحُلَفَاءَنَا ، فَإِنَّمَا هُمْ عبيدنا وعسفاؤنا - أجراؤنا - كان أعظم في صدورنا ، وَأَطْوَعُ لَهُ عِنْدَنَا . فَأَتَىٰ أَبُو طَالِبٍ النَّبِيَّ ﷺ ، فَحَدَّثَهُ بِالَّذِي كَلَّمُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عز وجل - : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥١ - ٥٢] قال : وَكَانُوا بِلَالًا ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ مَوْلَىٰ أَبِي حذيفة بن المغيرة ، وسالماً مَوْلَىٰ أَبِي حذيفة بن عتبة ، وَصُبَيْحًا مَوْلَىٰ أَسِيدٍ ، وَمِنَ الْحُلَفَاءِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَالْمُقَدَّادِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِمْ » (٢) .

* قال ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : « الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ - عز وجل - : ﴿ الَّذِينَ ﴾ : ضَعْفَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا : بِلَالٌ وَعَمَّارٌ ، وَابْنُ أُمِّ عَبْدِ ، وَمُرْتَدُ الْغَنَوِيِّ ، وَخَبَّابٌ ، وَصُهَيْبٌ ، وَصُبَيْحٌ ، وَذُو الشَّامَلِينَ ، وَالْمُقَدَّادُ ، وَنَحْوُهُمْ . وَسَبَبُ الْآيَةِ أَنَّ الْكُفَّارَ ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ : نَحْنُ لَشَرَفْنَا

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٠) ، و« تفسير ابن عطية » (ص : ٦٢٣) .

وأقدارنا لا يمكننا أن نختلط بهؤلاء ، فلو طردتهم لاتبعناك وجالسناك « (١) .

* ومما يخص سيدنا عمّار بن ياسر من الآيات والذكر الحكيم ، ما ذكره المفسرون في تفسير قول الله - عز وجل - : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٦٦] ، قالوا : « نزلت في عبد الله بن مسعود ، وعمّار بن ياسر » (٢) .

* وقال ابن عطية رحمه الله : « قال أبو إسحاق السبيعي : لما نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ الآية ، قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إن من أمّتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الرّواصي » . وروي أن رسول الله ﷺ ذكرهم فقال : « ثابت بن قيس ، وعمّار ، وابن مسعود ، من القليل » . وذكر بعضهم أنه سيدنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ، وأنّ أبا بكر - رضي الله عنه - قال : « لو كتبت علينا لبدأت بنفسي وبأهل بيتي » (٣) .

* وعن عكرمة في تفسير قوله - عز وجل - : ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيثًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، قال : « المراد به عمّار بن ياسر - رضي الله عنه - » (٤) .

* وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - عز وجل - : ﴿ أَمَنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ أَلْيَلٍ سَاجِدًا وُقَايِمًا ﴾ [الزمر : ٩] ، قال : « نزلت في عمّار بن ياسر - رضي الله عنهما - » . وفسّر ابن عباس - رضي الله عنهما - كلمة

(١) « تفسير ابن عطية » (ص : ٦٢٣) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٠) ، و« تفسير ابن عطية » (ص : ٤٥٣) .

(٣) انظر : « تفسير ابن عطية » (ص : ٤٥٣) بتصرّف .

(٤) « تفسير ابن عطية » (ص : ٦٥٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٠) ،

مع الجمع بينهما .

« القانت » : بالمطيع ، والقنوت في الكلام يقع على القراءة ، وعلى طول الكلام في الصلاة . ويقع القنوت على الدعاء وعلى الصمت . وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أَنَّ الْقَنُوتَ طَاعَةٌ . وقال جابر بن عبد الله : سئل رسول الله ﷺ : أي الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » (١) .

* ومن الأرصدة القرآنية النفيسة لسيدنا عمّار - رضي الله عنه - ما جاء في تفسير قوله - عز وجل - : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴾ [ص : ٦٢] ، قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ : « الضمير في ﴿ وَقَالُوا ﴾ لأشراف الكفار ورؤسائهم ، أخبر الله تعالى عنهم أنهم يتذكرون - إذا دخلوا النار - لقوم من مستضعفي المؤمنين ، فيقولون هذه المقالة ، وهذا مُطَرَّدٌ في كل أمة جاءها رسول ؛ وروي أَنَّ الْقَائِلِينَ مِنْ كَفَّارِ عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ هم : أبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأهل القليب ، وَمَنْ جَرَى مجراهم ، وَأَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ يُشِيرُونَ إِلَى ذِكْرِهِمْ ، هم : عمّار بن ياسر ، وسلمان ، وصهيب ، ومثلهم ، قاله مجاهد وغيره . والمعنى كُنَّا فِي الدُّنْيَا نَعُدُّهُمْ أَشْرَارًا لَا خَلَاقَ لَهُمْ » (٢) .

الطَّيِّبُ الْمُطِيبُ :

* صحبَ سَيِّدُنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ - رضوان الله عليه - رسولَ الله ﷺ صحبةً مباركة ؛ وكان من الثَّجَاءِ الرُّفَقَاءِ الْوُزَرَاءِ الَّذِينَ حَظُّوا بِالْخَيْرَاتِ ، وَفَازُوا بِرِضْوَانِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ، وَذَكَرَهُمُ الْحَبِيبُ الْمُطِصْفِيُّ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ السَّادَاتِ .

* أخرج الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ بسندٍ عن عبد الله بن مُلَيْلٍ قال : سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب - رضي الله عنه - يقول : سمعتُ رسولَ الله ﷺ

(١) « تفسير ابن عطية » (ص : ١٦١٢) ، و« أسباب النزول » للواحدي (ص : ٣٠٥) ، مع الجمع والتصرف .

(٢) « تفسير ابن عطية » (ص : ١٦٠٥) .

يقول : « ليس من نبيّ كان قبلي إلا قد أُعطيَ سبعة نقباءَ وزراءَ نجباء ، وإنّي أُعطيْتُ أربعةَ عشرَ وزيراً نقيباً نجيباً ، سبعة من قريش ، وسبعة من المهاجرين » (١) .

* ترى من هؤلاء السبعة من قريش ، والسبعة من المهاجرين ؟ ! في الحديث الآتي الذي أخرجه الإمام أحمد وغيره تعرّف أسماءهم بالتفصيل .

* جاء عند الإمام أحمد في « مسنده » ، وعند غيره ، بسندٍ رفعوه إلى سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إنّه لم يكن قبلي نبيّ إلا قد أُعطيَ سبعة رفقاء نجباء وزراء ، وإنّي أُعطيْتُ أربعةَ عشرَ : حمزة ، وجعفر ، وعليّ ، وحسن ، وحسين ، وأبو بكر ، وعمر ، والمقداد ، وعبدُ الله بنُ مسعود ، وأبو ذرّ ، وحذيفة ، وسلمان ، وعمّار ، وبلال » (٢) .

وفي رواية : « أُعطيَ كلُّ نبيّ سبعة نجباء ، وأُعطيَ نبيّكم أربعةَ عشرَ نجيباً ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعبدُ الله بن مسعود ، وعمّار بن ياسر » (٣) .

* كما أنّ سيّدنا عماراً - رضي الله عنه - استفاد من الصُّحبة بأن وُقِّقَ لعملِ أهل الجَنَّة ، فاشتاقَتْ إليه الجَنَّة ، كما ذكرَ ذلك المصطفى المجتبى ﷺ فيما أخرجه الحاكمُ رحمه الله وغيره بسندٍ عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : « اشتاقت الجَنَّةُ إلى ثلاثة : عليّ ، وعمّار ، وسلمان » (٤) .

(١) أخرجه أحمد (١ / ١٩٠) برقم : (٦٦٥) .

(٢) أخرجه أحمد (١ / ٣١٢) ، برقم : (١٢٦٢) ، وانظر : « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٢ - ٤١٣) وتخريج الحديث فيه .

(٣) أخرجه أحمد (١ / ٣١٤) ، برقم : (١٢٧٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣ / ١٤٨) برقم (٤٦٦٦) ، وانظر : « سير أعلام النبلاء » (١ / ٣٥٥) ، وتخريج الحديث فيه .

* وعن سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - قال : « استأذن عمّارٌ عليّ النَّبِيَّ ﷺ فقال : « الطَّيِّبُ الْمُطَيَّبُ ؟ ! ائذن له » (١) .

* وهذا الحديث الأليف اللطيف أخرجه الترمذي وغيره بسندٍ عن أبي إسحاق ، عن هانئ بن هانئ ، عن عليّ - رضي الله عنه - قال : « جاء عمّار بنُ ياسر يستأذن عليّ النَّبِيَّ ﷺ فقال : « ائذنوا له مرحباً بالطَّيِّب المطَّيَّب » (٢) .

* وقد شهد للطَّيِّب المطَّيَّب بالإيمان الصّادق المصدوق ﷺ فقال : « إنّ عمّاراً مُلئَ إيماناً من قرنه إلى قدمه » ، وفي لفظ : « إلى مشاشه » (٣) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٢) ، ومما يندرج تحت هذا الأمر وهو الإذن النبويّ لعمّار - رضي الله عنه - ، واستفادة عمّار من المعية النبويّة ما أخرجه الحاكم عن عمّار نفسه : « أنّه دخلَ عليّ رسولَ الله ﷺ وهو يوعكُ ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك رقيةً رقاني بها جبريل ؟ » . قلتُ : بلى يا رسول الله .

قال : فعلمه : « بسم الله أريقك ، والله يشفيك ؛ من كلّ داء يؤذيك ، خذها فلتهنك » . « المستدرک » (٣ / ٤٤٤) ، برقم : (٥٦٨١) وقال الحاكم : « صحيحٌ عليّ شرط مسلم ولم يخرجاه » .

(٢) أخرجه الترمذي ، انظر : « تحفة الأحوذّي » (١٠ / ٢٩٨) ، برقم : (٣٨٨٥) ، وحسنه واللفظ له . وابن ماجه برقم : (١٤٦) ، والحاكم (٣ / ٤٣٧) ، برقم : (٥٦٦٢) وصحّحه ووافقه الذهبيّ ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٤٠) ، وقوله : « مرحباً بالطَّيِّب المطَّيَّب » : يقال : مرحباً به ؛ أي : أصاب رجلاً وسعة ، وكُنِيَ بذلك عن الانشراح ، والمراد بالطَّيِّب المطَّيَّب : الطَّاهِر المطهَّر ، وفيه مبالغة كظُلّ ظليل ، ولعلّ جوهر ذاته طاهرٌ طيّبٌ ثمّ طيّبه وهذّبه الشرائع والعمل فصار نوراً عليّ نور . والله أعلم .

(٣) « حلية الأولياء » (١ / ١٣٩ - ١٤٠) ، و« سنن ابن ماجه » ، برقم : (١٤٧) ، و« مجمع الزوائد » (٩ / ٣٩٥) . و« المشاش » : رؤوس العظام .

* ولهذا لما سُئِلَ سيّدنا عليٌّ - رضوان الله عليه - عن عمّار - رضي الله عنه - أجاب إجابة شافية وافية موافقة للحديث النبويّ فقال : « مؤمنٌ نسيّ ، وإنْ ذكّرتَه ذكّرَ ، قد دخلَ الإيمانُ في سمعه وبصره » ^(١) وذكر ما شاء من جسده .

* وعند النّزالِ بنِ سبرة الهلاليّ كلامٌ أكثرُ تفصيلاً من إجابة سيّدنا عليٍّ عن سيّدنا عمّار ، قال : « وافقنا من عليٍّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذات يوم طيّب نفس ، فقلنا له : يا أمير المؤمنين ! حدّثنا عن عمّار بن ياسر - رضي الله عنهما - ، قال : ذاك امرؤ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : عمّار خلطَ الله الإيمانَ ما بين قرنيه إلى قدمه ، وخُلِطَ الإيمانُ بلحمه ودمه ، يزولُ مع الحقِّ حيثُ زال ، وليس ينبغي للنّار أنْ تأكلَ منه شيئاً » ^(٢) .

* كما جاء عن سيّدنا عليٍّ - رضي الله عنه - قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « دُمُ عمّار ولحمُهُ حرامٌ على النّار أنْ تطعمه » ^(٣) .

* ولشّدة صفاء سريرة سيّدنا عمّار وعلا نيته أجاره الله - عزّ وجلّ - من الشّيطان على لسان حبيبنَا رسولَ الله ﷺ ، قال خيثمة بنُ عبد الرّحمن : « قلتُ لأبي هريرة - رضي الله عنه - : حدّثني ، فقال : تسألني وفيكم علماء أصحاب محمّد ﷺ ، والمُجَارُ من الشّيطان عمّار بن ياسر ؟ » ^(٤) .

* كما أنّ الصّحبة الطّويلة ، قد جعلت من سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - علماً مرموقاً من أعلام الصّحابة الكرام ، كما جعلت منه مُحبّاً محبوباً من

(١) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٤) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٣) .

(٣) « مجمع الزوائد » (٩ / ٢٩٥) .

(٤) انظر : « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٨) وتخرّيج الحديث فيه .

رسول الله ﷺ ، فقد لحقَ ﷺ بالرَّفيق الأعلى وهو يحبُّ عمَّاراً - رضي الله عنه - ، وقد شهد لعمَّار بهذا الحبِّ النَّبويِّ أكثر من صحابي ، فعن عثمان بن أبي العاص الثَّقفي ^(١) - رضي الله عنه - قال : « رجلان مات رسولُ الله ﷺ وهو يحبُّهما : عبدُ الله بن مسعود ، وعمَّار بن ياسر » ^(٢) .

* وشهد لعمَّار بهذا الشَّرف الجليل سيِّدنا عمرو بن العاص ^(٣) - رضي الله عنه - ؛ إذ قال لابنه العالم النَّبيل سيِّدنا عبدُ الله بن عمرو ^(٤) - رضي الله عنه - وهو في آخر حياته : « أيُّ بني ، أشهدُ على رجلين توفِّي رسولُ الله ﷺ وهو يحبُّهما : ابنُ أمِّ عبد - يعني : عبدُ الله بن مسعود - ، وابنُ سمية - يعني : عمَّار بن ياسر - » ^(٥) .

* وكان الحبيب المصطفى ﷺ قد أشار إلى هدي عمَّار - رضي الله عنه - فقال : « اقتدوا باللَّذين من بعدي : أبي بكر ، وعمر ، واهتدوا بهدي عمَّار ، وتمسَّكوا بعهد ابنِ أمِّ عبد » ^(٦) .

(١) اقرأ ترجمته في « أسد الغابة » (٣ / ٤٧٥ - ٤٧٧) ، ترجمة رقم : (٣٥٧٥) ، ففي ترجمته فوائد جمة نافعة .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٣) .

(٣) اقرأ سيرة سيِّدنا عمرو بن العاص في الباب الأوَّل من كتابنا : « فرسان من عصر النبوة » (ص : ٢٧٩ - ٢٩٩) تجد فائدة كبرى .

(٤) اقرأ سيرة سيِّدنا عبدُ الله بن عمرو في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ١٢٧ - ١٦٦) .

(٥) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٣) بشيء من التَّصرُّف .

(٦) انظر : « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٤ - ٤٧٨) ، وتخريج الحديث فيه والتَّعليق المفيد عليه أقول : « ومن هدي سيِّدنا عمَّار - رضي الله عنه - في الصَّلَاة ، واقتفائه المنهج السَّوي ، والنَّهج النَّبويِّ ما جاء في « المستدرک » عن أبي وائل قال : خطبنا عمَّار بن ياسر - رضي الله عنه - ، فأبلغ وأوجز ، فقلنا : يا أبا اليقظان ، لقد أبلغت =

مشاهدُهُ وشجاعته :

* أجمع أهل العلم على أَنَّ سَيِّدَنَا عَمَّاراً من المهاجرين الأولين ، ومَمَّنْ صَلَّى القِبْلَتَيْنِ ؛ وكانت هجرته إلى المدينة المنورة مع الأوائل الذين خرجوا إليها ، وهذا ما أثبتته التَّابِعِيُّ الجليلُ الفقيهُ عطاءُ بن أبي رباح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : « هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، والسَّيِّدَةُ أُم سلمة ، وخرج معهم عَمَّار بن ياسر ، وكان حليفاً لهم » (١) .

* وفي المدينة المنورة تَمَّتِ المؤاخاةُ بين المهاجرين والأنصار ، وآخَى رسولُ الله ﷺ بين عَمَّار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان - رضي الله عنهم أجمعين - ، وشهد عَمَّارٌ بدرًا وأُحُدًا والخندقَ والمشاهدَ كُلَّهَا مع رسولِ الله ﷺ .

* وَلَحَّصَ ابنُ عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حياةَ سَيِّدَنَا عَمَّار الجهاديةَ بِجُمْلَةٍ بسيطةٍ ولطيفةٍ ومفيدةٍ ، فكان ممَّا قال : « هو من السَّابِقِينَ الأولين ، والمعدِّبِينَ في الله ، ذو الهجرتين ، مَخْتَلَفٌ في هجرته إلى الحبشة ، بدري ، لم يشهد بدرًا ابنُ مؤمنين غيره » (٢) سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ : « الطَّيِّبُ الْمُطَيَّب » ؛ وَرَحَّبَ بِهِ ، وقال : « مُلِيَ إِيمَانًا إِلَى مشاشه » ، وضربَ خاصرته

= وأوجزت . فقال : إِنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إِنَّ طَوْلَ الصَّلَاةِ ، وقصر الخطبةِ مِئْتَةٌ من فقه الرِّجْلِ ، فأطيلوها الصَّلَاةَ وأقصروا الخطبة » . « المستدرك » (٣ / ٤٤٤) ، برقم : (٥٦٨٣) ، و« المسند » برقم : (١٨٣٤٥) .

(١) انظر : « المستدرك » (٣ / ٤٣٤) ، برقم : (٥٦٥٣) .

(٢) هذا القول صحيح ، ولكن إذا نظرنا في حياة الصَّحابة وأبنائهم ، ووسَّعنا الدَّائِرَةَ قليلاً ، يمكننا أن نقول عندئذ : « إِنَّ أبوي سَيِّدَنَا أبي بكر - رضي الله عنه - كانا مسلمين : أبو قحافة - وإن تأخَّر إسلامه قليلاً - ، وأم الخير . وأبو بكر - رضي الله عنه - من المهاجرين ، ومن البدرين ، وأبواه مؤمنان رضي الله عنهم أجمعين ، وحشرنا في معيتهم ، وغفر لنا وعمَّنَا برحمته الواسعة ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مجيب » .

وقال : « هذه خاصرة مؤمنة » ، وقال : « مَنْ حَقَّرَ عَمَّاراً حَقَّرَهُ اللَّهُ » . شهد المشاهد كُلُّهَا ، بعثه عمرُ بنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - إلى الكوفة أميراً ، وقُتِلَ مع عليٍّ - رضي الله عنه - بصفين سنة سبع وثلاثين ، ووعدهُ ﷺ وآله الجنة ، ونزل فيه آياتُ من القرآن ، وآخى سيِّدنا رسولُ الله ﷺ بينه وبين حذيفةَ بنِ اليمان - رضي الله عنهم أجمعين - « (١) » .

* ومنذ أن استقرَّ سيِّدنا عمَّار في المدينة المنورة ، نذر نفسه ليجاهد في سبيلِ الله - عزَّ وجلَّ - ، حتَّى قاتل الإنسَ والجنَّ ، وتغلَّبَ على الجنِّ ، وقد روى سيِّدنا عمَّار كيف قهر الجنَّ ، فتعالوا نستمع منه إلى رحلة جهاده ، ونقرأ هذه الصَّحيفة النَّاصعة التي ترسمُ جانباً من شجاعته وجهاده الإنسَ والجنَّ .

* قال سيِّدنا عمَّارُ بنُ ياسر - رضي الله عنهما - : « قاتلتُ مع رسولِ الله ﷺ الإنسَ والجنَّ .

ف قيل له : ما هذا ؟ قاتلتَ الإنسَ ، فكيفَ قاتلتَ الجنَّ ؟ !

قال : نزلنا مع رسولِ الله ﷺ منزلاً ، فأخذتُ قربتي ودلوي لأستقي ؛ فقال لي رسولُ الله ﷺ : « أما إنَّه سيأتيكَ آتٍ يمنعُكَ من الماء » .

فلَمَّا كُنْتُ على رأسِ البئر ، إذا رجلٌ أسود كأنَّه مَرَسٌ ، فقال : والله لا تستسقي اليوم منها ذنباً واحداً .

فأخذتُهُ وأخذني ، فصرعته ، ثمَّ أخذتُ حجراً فكسرتُ به أنفه ووجهه ، ثمَّ ملأتُ قربتي ، فأتيْتُ بها رسولُ الله ﷺ ، فقال : « هل أتاك على الماء من أحدٍ ؟ » .

فقلت : عبدٌ أسودٌ .

فقال ﷺ : « ما صنعتَ به ؟ » .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٠٥) بشيء من التصرّف .

فقصصْتُ عليه القصَّة ، فقال : « أتدري مَنْ هو ؟ » .

قلتُ : لا .

قال ﷺ : « ذاك الشَّيْطان ، جاء يَمْنُكَ من الماء » ^(١) .

* وشهد سيِّدنا عمَّارٌ - رضي الله عنه - كثيراً من المغازي والأعمال ، وكان له كبير الأثر فيها ؛ فقد شارك في بناء المسجد وكان له دورٌ جميل ومؤثِّر ، وهذا ما نقله لنا سيِّدنا أبو سعيد الخُدريّ ^(٢) أحدُ علماء الصَّحابة الحفَّاظ المكثرين ، فيقول : « لَمَّا أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ في بناء المسجد ؛ جَعَلْنَا نَحْمِلُ لَبَنَةً لَبَنَةً ، وجعل عمَّارٌ يَحْمِلُ لَبْنَتَيْنِ لَبْنَتَيْنِ ، فجئتُ ، فحدَّثني أصحابي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جعل يَنْفُضُ التُّرابَ عن رأسِهِ ويقول : « ويحك ابنَ سَمِيَّة ؛ تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّة » ^(٣) .

* وجاء عن أمِّنا أُمِّ سلمة - رضي الله عنها - أنَّها قالت : « إِنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ ليعاطيهم يومَ الخندق حتَّى اغْبَرَ صدره وهو يقول :

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ
وجاء عمَّار ، فقال : « ويحك يا بَنَ سَمِيَّة ! تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّة » ^(٤) .

* وتوفي رسولُ اللَّهِ ﷺ وهو راضٍ عن عمَّار الذي تابع رحلةَ جهاده في

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٥١) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (١ / ٤١٢) .

(٢) اقرأ سيرة سيِّدنا أبي سعيد الخُدريّ في الباب الثَّاني من كتابنا : « علماء الصَّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٥٠١ - ٥٥٠) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٥٢) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبيّ (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٥٧٧) .

(٤) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٥٢) وللحديث أصل في الصَّحاحين ، فقد أخرجه البخاري برقم : (٤٤٧) ، ومسلم برقم : (٢٩١٥) .

العهد الرَّاشدي ، فقاتلَ المرتدّين ، وكان يصيُحُ يومها : « يا معشرَ المسلمين ! أَمِنَ الجَنَّةَ تفرون ؟ أنا عَمَّار بن ياسر ، هلموا إليَّ ، وهو يقاتل أشدَّ القتال ، وأذنه قد قُطعت فهي تذبذب » (١) .

أخباره مع الصَّحابة :

* لسَيِّدنا عَمَّار بن ياسر - رضي الله عنهما - مواقف لا تُنسى مع عدد من كبراء الصَّحابة وأعلامهم وأعيانهم وعلمائهم ، وهذه الأخبارُ تسرُّ الفؤاد ، وتضفي على النفوس الوداد .

* فهناك بعض الأخبار العُمرِيَّة العَمَّارِيَّة الجميلة ، ومنها أَنَّ سَيِّدنا عمر - رضي الله عنه - جعله أميراً على الكوفة ، وكتبَ إليهم قائلاً : « أمّا بعد : فَإِنِّي بعثتُ إليكم عَمَّارَ بنَ ياسر أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وإِنَّهما لمن الثُّجباء من أصحاب مُحَمَّد ﷺ من أهل بدر ، فاسمعوا لهما وأطيعوا ، واقتدوا بهما ، وقد أثرتكم بهما على نفسي » (٢) .

* ومن العجيب أَنَّ الكوفيين قالوا لسَيِّدنا عمر - رضوان الله عليه - : « إِنَّ عَمَّاراً غير عالم بالسياسة » (٣) فعزَّله سَيِّدنا عمر .

(١) « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٥٨٠) بشيء من التَّصَرُّف .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٢٢) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٩) ، و « المستدرک » (٣ / ٤٣٨) ، برقم : (٥٦٦٣) .

(٣) « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٥٨٠) . أورد الذهبي رحمه الله عن حبيب بن أبي ثابت قال : « سألهم عمرُ عن عَمَّار ، فأثنوا عليه ، وقالوا : والله ما أنت أمرته علينا ، ولكنَّ الله أمره . فقال عمر : اتقوا الله ، وقولوا كما يُقال ، فوالله لأنَّا أمرته عليكم ، فإن كان صواباً ، فمن قبل الله ، وإن كان خطأ إنَّه من قبلي » . « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٢٣) . وقال الذهبي رحمه الله : « ويُقال : سَعَوْا بعَمَّار إلى عمر في أشياء كرهها له ، فعزَّله ، ولم يؤنبه » .

* وقال سيّدنا عمر لعَمَّار - رضي الله عنهما - بعد عزله عن الكوفة : « أبا الله ! ساءك حين عزلتكَ ؟ » .

قال : « تألله ! ما فرحتُ حين استعملتني ، ولقد ساءني حين عزلتني » ، وفي رواية : « لقد ساءني حين استعملتني ، وساءني حين عزلتني » (١) .

* ولعمَّار وابن مسعود - رضوان الله عليهما - أخبارٌ محمودة رشيدة ؛ وفيها أحكام لطيفة مفيدة ، ومنها ما رواه عبدُ الله بنُ مسعود - رضي الله عنه - قال : « بينا نحنُ يوم الجمعة في مسجد الكوفة ، وعمَّار بن ياسر أمير الكوفة لعمر بن الخطَّاب ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال ؛ إذ نظر عبدُ الله بن مسعود إلى الظِّلِّ فرآه قدر الشَّراك ، فقال : إنَّ يُصِيبَ صاحبُكم سنة نبيكم ﷺ يخرج الآن . فوالله ما فرغ عبدُ الله بنُ مسعود من كلامه حتَّى خرجَ عمَّار بن ياسر يقول : الصَّلَاة » (٢) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٣) ، و « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٢٣) ، و « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٥٦) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٠) ، ونجد سيّدنا عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يشهد لسيّدنا عمَّار - رضي الله عنه - بالحقِّ ، فعن سالم بن أبي الجعد قال : « جاء رجلٌ إلى عبدِ الله بنِ مسعود - رضي الله عنه - ، فقال له : « يا أبا عبد الرّحمن ! إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد آمننا من أن يظلمنا ، ولم يؤمننا من أن يفتنَّا ، رأيتُ إن أدركت فتنة ؟ قال : عليك بكتابِ الله .

قال : رأيتُ إن كان كلُّهم يدعو إلى كتابِ الله ؟

قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إذا اختلفَ النَّاسُ كان ابنُ سميّة مع الحقِّ » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٥) .

وفي رواية أنَّ عبدَ الله بنَ مسعود - رضي الله عنه - قال للرجل : « انظر عمَّار بنَ ياسر أين يكون ، فكُنْ معه ، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « عمَّار يزول مع الحقِّ حيث يزول » .

* وذكروا أَنَّ عَمَّارَ بنَ ياسرٍ قد مرَّ على عبدِ اللَّهِ بنِ مسعود وهو يصلحُ داره فقال : « كيف ترى يا أبا اليقظان ؟ » .

قال : أراك بنيتَ شديداً ، وأملتَ بعيداً ، وتموت قريباً « (١) .

* كان سيِّدنا عَمَّار - عليه رحمة الغفار - يجلُّ أَمَّنَا الصَّدِيقَةَ بنتَ الصَّدِيقِ عائشة - رضي الله عنها وعن أبيها - ، فقد سمعَ رجُلًا نالَ من أَمَّنَا عائشة - رضي الله عنها - عند سيِّدنا عليٍّ - رضي الله عنه - فقال له عَمَّارُ بنُ ياسر - رضي الله عنهما - : « اسكُتْ مقبوحاً منبوحاً ، أتؤذي حبيبة رسولِ اللَّهِ ﷺ » (٢) .

* وفي رواية أَنَّ سيِّدنا عَمَّاراً - رضي الله عنه - قال للرجل : « اسكُتْ مقبوحاً منبوحاً ، فأشهدُ أَنَّها زوجةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ في الجنة » (٣) .

* ومن روائع القصصِ المفيدِ ، مع خالدِ بنِ الوليد - رضي الله عنه - ، تظهرُ لنا مكانةَ عَمَّارٍ في عالمِ الصَّحابةِ الأخيارِ ، حيث أشارَ النَّبِيُّ ﷺ إلى وجوبِ محبةِ عَمَّارِ بنِ ياسرٍ عندما اختلفَ مع سيِّدنا خالد ، ترى ما أحداثُ هذه القصة ؟

* سيِّدنا عبدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - عنده الخبرُ اليقين عن هذه القصة الماتعة ، فيقول : « بعثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ خالدَ بنَ الوليد - رضي الله عنه - في سرِّيَّة - ومعه في السَّرِّيَّةِ عَمَّارُ بنُ ياسرٍ رضي الله عنهما - إلى حيٍّ من قريشٍ أو من قيس ، حتَّى إذا دنوا من القوم ، جاءهم النَّذيرُ فهربوا ، وثبت رجلٌ منهم كان قد أسلم هو وأهل بيته ، فقال لأهله : كونوا

(١) المصدر السابق (١٨ / ٢٢٢) ، وانظر : « حلية الأولياء » (١ / ١٤٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣ / ٤٤٤) ، برقم : (٥٦٨٤) ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٥) .

على رجل حتى آتيكم . فانطلق حتى دخل في العسكر ، فدخل على عمّار بن ياسر - رضي الله عنهما - ، فقال : يا أبا اليقظان ، إنّي قد أسلمتُ وأهل بيتي فهل ذلك نافعي ، أم أذهب كما ذهب قومي ؟

فقال له عمّار - رضي الله عنه - : أقم ، فأنت آمن .

فرجع الرجل فأقام ، وصَبَّحهم خالد بن الوليد ، فوجد القوم قد أنذروا ، وذهبوا فأخذ الرجل ، فقال له عمّار : إنّه ليس لك على الرجل سبيل ، إنّي قد أمنتّه ، وقد أسلم .

قال خالد : وما أنت وذاك ؟ أتجير عليّ وأنا الأمير ؟ !

قال عمّار : نعم ، أجيرُ عليك ، وأنت الأمير ، إنّ الرجل قد أسلم ولو شاء لذهب كما ذهب قومه .

فتنازعا في ذلك ، حتى قدما المدينة المنورة ، فاجتمعا عند رسول الله ﷺ ؛ فذكر عمّار للنبي ﷺ الذي كان من أمر الرجل ، فأجاز أمان عمّار ، ونهى يومئذ أن يجير رجل على أمير ، فتنازع عمّار وخالد - رضي الله عنهما - عند رسول الله ﷺ حتى تشاتما .

فقال خالد بن الوليد - رضي الله عنه - : أيشتمني هذا العبد عندك ؟ ! أما والله لولاك ما شتمني .

فقال نبي الله ﷺ : « كَفَّ يا خالد عن عمّار ، فإنّه من يبغض عمّاراً يبغضه الله - عزّ وجلّ - ، ومن يلعن عمّاراً يلعنه الله » .

وقام عمّار - رضي الله عنه - فانطلق ، فاتّبعه خالد - رضي الله عنه - وأخذ بثوبه ، فلم يزل يترصّاه ، حتى رضي عنه . وفيه نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] يعني : السرايا ﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ حتى يكون الرسول هو الذي يقضي فيه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، حتى فرغ من الآية « (١) » .

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢١٤) ، وأخرجه الحاكم في « المستدرک » =

* ولَسَيِّدُنَا عَمَّارٌ وَعَلِيٌّ - رضي الله عنهما - مواقفٌ وقصصٌ تنعش
 الفؤاد ، ومنها مرافقةُ سيِّدنا عَمَّارٍ لعلِّي - رضي الله عنهما - في غزوة العُشيرة أو
 العُشيرة ، وذلك في جمادى الأولى سنة اثنتين من الهجرة ، ويومها قال ﷺ
 لعلِّي : « يا أبا تراب » ، وهذا سيِّدنا عَمَّارٌ يعمُرُ ثقافتنا بهذه الواقعة
 فيقول : « كنتُ أنا وعلِيٌّ بنُ أبي طالب رفيقَيْن في غزوة العُشيرة من بطن
 ينبع ، فلمَّا نزلها رسول الله ﷺ ، أقام بها شهراً ، فصالح بها بني مُدَلج
 وحلفاءهم من بني ضمرة ، فوادعهم ، فقال لي علي بن أبي طالب : هل لك
 يا أبا اليقظان أن تأتي هؤلاء النفر - من بني مدلج يعملون في عين لهم - ننظر
 كيف يعملون ؟ ! فأتيناهم ، فنظرنا إليهم ساعة ، فغشينا النوم ، فعمدنا إلى

= (٣ / ٤٤٠ - ٤٤١) ، وفيه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لخالد في نهاية القصة : « يا خالد !
 لا تسبَّ عَمَّاراً فإنه من يسبَّ عَمَّاراً يسبَّ الله ، ومن يبغض عَمَّاراً يبغضه الله ، ومن
 يسفه عَمَّاراً يسفه الله » . قال خالد : استغفر لي يا رسول الله ! ، فوالله ما منعتني أن
 أجيبه إلا تسفيهي إياه . قال خالد : وما من شيء أخوف عندي من تسفيهي عَمَّار بن
 ياسر يومئذ . « المستدرک » (٣ / ٤٤٠) ، برقم : (٥٦٧٠) . وفي رواية قال
 خالد : « فخرجتُ من عند رسول الله ﷺ ، فلم أزل أطلبُ إلى عَمَّار حتى استغفر
 لي » . « المستدرک » (٣ / ٤٤٢) ، برقم : (٥٦٧٥) .

وأورد ابنُ عطيَّة رَحِمَهُ اللهُ قصَّةَ عَمَّارٍ وخالد - رضي الله عنهما - ، وقال في آخرها
 ما خلاصته : أنَّ عَمَّاراً قال لخالد بعد أن أسر الرجل : « خلَّ عن الرجل فإنه قد
 أسلم ، وإنَّه في أمانٍ مِنِّي . فقال خالد : وأنت تجير ؟ فاستبَّ وارتفعا إلى
 رسول الله ﷺ فأجاز أمان عَمَّار ، ونهاه أن يجيرَ الثانية على أمير ، واستبَّ عند
 رسول الله ﷺ ، فقال خالد : يا رسول الله ! أتترك هذا العبد الأجدع يستبني ؟

فقال رسول الله ﷺ : « يا خالد ! لا تسبَّ عَمَّاراً فإنه من سبَّ عَمَّاراً سبَّ الله ،
 ومن أبغض عَمَّاراً أبغضه الله ، ومن لعنَ عَمَّاراً لعنه الله » . فغضبَ عَمَّار ، فقام
 فذهب ، فتبعه خالد حتى اعتذر إليه فتراضيا ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، وطاعة الرَّسول هي : اتِّباع سنته » .
 « تفسير ابن عطيَّة » (ص : ٤٤٩ - ٤٥٠) .

صور من النَّخل في دُفْعاء من الأرض ، فمنا فيه ، فوالله ما أهَبْنَا
إلا رسول الله ﷺ يحركنا بقدمه ، فجلسنا ، وقد تترَبَّنَا من تلك الدُفْعاء ،
فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلِّي : « يا أبا ثُرَاب » لما عليه من الثُّراب ،
فأخبرناه بما كان من أمرنا » (١) .

كَلِمَاتُ تَعْمُرُ الْقُلُوبَ :

* آتِ الصُّحْبَةَ النَّبَوِيَّةَ الطَّوِيلَةَ ثَمَارَهَا الْيَانِعَةَ فِي حَيَاةِ عَمَّارٍ - رَضِيَ اللَّهُ
عنه - ، وَهَذِهِ الصُّحْبَةُ الْكَرِيمَةُ وَالرَّحْلَةُ الْعَلَمِيَّةُ صَقَلَتْ عَمَّاراً وَجَعَلَتْ مِنْهُ
حَكِيماً ذَا تَجَرِبَةٍ ، فَهُوَ يَنْطِقُ عَنْ حِكْمٍ مِثْلِ الْجَمَانِ ، وَمَعْظَمُهَا مُسْتَقَى مِنْ
الْآدَابِ النَّبَوِيَّةِ الثَّرَّةِ .

* وَمِنْ حِكْمِهِ الْمُفِيدَةِ مَا ذَكَرَهُ الرَّبِيعُ بْنُ عَمِيلَةَ قَالَ : « كُنَّا مَعَ عَمَّارِ بْنِ
يَاسِرٍ فِي الْمَسْجِدِ ، وَعِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ ، فَذَكَرُوا الْمَرَضَ ، فَقَالَ
الْأَعْرَابِيُّ : مَا مَرَضْتُ قَطَّ ، فَقَالَ عَمَّارٌ : مَا أَنْتَ ؟ أَوْلَسْتَ مَتَا ؟ إِنَّ الْمُسْلِمَ
يُتَلَى بِالْبَلَاءِ ، فَيَكُونُ كَقَارَةِ خَطَايَاهُ ، فَتَتَحَاتُّ كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ ، وَإِنَّ
الْكَافِرَ يُتَلَى ، فَيَكُونُ مِثْلَهُ كَمِثْلِ الْبَعِيرِ عُقْلَ ، فَلَا يَدْرِي لِمَ عُقِلَ ، وَأُطْلِقَ
فَلَا يَدْرِي لِمَ أُطْلِقَ » (٢) .

* وَلَهُ فِي السِّتْرِ عَلَى الْمَخْطِئِ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ تَنْفَعُ فِي إِصْلَاحِ النَّفُوسِ ، فَعَنْ
عُكْرَمَةَ : « أَنَّ عَمَّاراً أَخَذَ سَارِقاً قَدْ سَرَقَ عَيْتَهُ ، فَقَالَ : أَسْتُرْ عَلَيْهِ لَعَلَّ اللَّهَ
يَسْتُرْ عَلَيَّ » (٣) .

(١) « البداية والنهاية » (٣ / ٢٤٧) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (المغازي ،
ص : ٤٧ - ٤٨) ، و« طبقات ابن سعد » (٢ / ٩ - ١٠) ، و« تفسير القرطبي »
(٤ / ١٩٢) ، وأخرجه أحمد في « المسند » (٦ / ٣٦٥) ، برقم :
(١٨٣٤٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٢) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٣) .

* ومن بدائع كلماته السَّواطع في معرفة الإيمان ، والوصول إلى شاطئ الأمان ، والحياة بسلام وحبٍّ ووثام قوله : « ثلاثٌ من الإيمان ، مَنْ جمعهنَّ جمعَ الإيمان : الإنفاقُ من الإقتار ؛ تنفُّقُ وأنتَ تعلمُ أنَّ اللهَ سيخلفُ لك ، وإنصافُ النَّاسِ منك لا تُلجئُهم إلى قاض ، وبذلُ السَّلام للعالم » (١) .

* وفي مكانة الأعيان يقولُ : « ثلاثةٌ لا يستخفُّ بحقِّهم إلا منافقٌ بيِّنُ نفاقه : الإمامُ المقسط ومعلِّمُ الخير ، وذو الشَّيبة في الإسلام » (٢) .

* وكان - رضي الله عنه وأرضاه - يقولُ دائماً واعظاً جلساءه بهذه الحكمة الماتعة : « كفى بالموتِ موعظة ، وكفى باليقين غنى ، وكفى بالعبادة شغلاً » (٣) .

* وعلى الرِّغم من حِكَمِ سيِّدنا عمَّار الغنيَّة ، فإنَّه كان كما وصفه أبو نوفل بن أبي عقرب قال : « كان عمَّارُ بنُ ياسر - رضي الله عنهما - قليلَ الكلام ، طويلَ السَّكوت - وفي رواية : طويل الحزن والكآبة - وكان عامة قوله : عائذ بالرحمن من فتنة ، عائذ بالرحمن من فتنة » (٤) .

* ومن كلماته الجامعة في الدُّعاء ، التي تنبئُ عن طيب عنصره وشدة خشيتِه من الله - عزَّ وجلَّ - ، ما جاء عن موسى بن عقبة ، أنَّ سيِّدنا عمَّار بن ياسر - رضي الله عنه وأرضاه - كان يدعو فيقول : « اللهم ! اجعلني من عبادك الصَّالحين ، وأعطني من صالح ما تُعطي عبادك الصَّالحين ، من الأمانة ،

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٣) ، و« حلية الأولياء » (١ / ١٤١) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) « حلية الأولياء » (١ / ١٤٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٢٤) ، و« مختصر

تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٤ - ٢٢٥) ، مع الجمع بينها .

والإيمان ، والأجر ، والعافية ، والمال ، والولد النافع غير الضار ولا المضر
ولا الضال ولا المضل » ^(١) .

* وَحُفِظَ مِنْ أَدْعِيَةِ عَمَّار - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ يَسِيرُ إِلَى صَفِّينَ
عَلَى شَطِّ الْفُرَاتِ : « اللَّهُمَّ ! لَوْ أَعْلِمُ أَنَّهُ أَرْضِي لَكَ أَنْ أُرْمِيَ بِنَفْسِي مِنْ هَذَا
الْجَبَلِ ، فَأَتَرَدَّى فَأَسْقُطَ فَعَلْتُ ، وَلَوْ أَعْلِمُ أَنَّهُ أَرْضِي لَكَ أَنْ أَوْقَدَ نَارًا عَظِيمَةً
فَأَقَعَ فِيهَا فَعَلْتُ ، اللَّهُمَّ ! لَوْ أَعْلِمُ أَنَّهُ أَرْضِي لَكَ عَنِّي أَنْ أَلْقِيَ بِنَفْسِي فِي الْمَاءِ
فَأَغْرُقَ نَفْسِي فَعَلْتُ » ^(٢) .

* وَلِعَمَّار - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي فَضِيلَةِ النَّسَبِ قَوْلُهُ : « مَا أَحْسَنَ أَنْ
يَقُولَ الْعَبْدُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، عَدَدَ كُلِّ مَا خَلَقَ » .

* وَلَسَيِّدُنَا عَمَّارُ حَكَمَ وَفَوَائِدُ وَنَصَائِحُ تَكَفَّلَتْ بِذِكْرِهَا الْمَصَادِرُ
الْمُتَنَوِّعَةُ ، وَقَدْ أوردنا منها ما يبلى الصَّدَى وَيُشْفِي الْفؤَادَ .

نماذج من مروياته :

* عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْأَخْيَارِ
الَّذِينَ رَوَوْا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ صَحْبَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، وَعِرَاقَتِهِ
فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّهُ مَمَّنْ رَوَى الْعَشْرَاتِ وَشَيْءٌ ، فَقَدْ أَحْصَى لَهُ أَصْحَابُ
الْحَدِيثِ (٦٢ حَدِيثًا) . قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : « لَهُ عَدَّةٌ أَحَادِيثُ : فِيهَا
مُسْنَدٌ بَقِيَ لَهُ اثْنَانِ وَسِتُونَ حَدِيثًا ، وَمِنْهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ خَمْسَةٌ » ^(٣) .

* وَقَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : « رَوَى لَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اثْنَانِ

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٤) .

(٢) « حلية الأولياء » (١ / ١٤٣) ، و « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٥٨) ، و « مختصر
تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٥) ، و « صفة الصفوة » (١ / ٤٤٥) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٠٧) .

وستون حديثاً ، اتَّفقا على حديثين منها وانفرد البخاري بثلاثة ، ومسلم
بحديث « (١) » .

* روى عنه عدد من علماء الصَّحابة (٢) ومنهم : سيّدنا عليُّ بنُ
أبي طالب ، وعبدُ الله بنُ عَبَّاس ، وأبو موسى الأشعريّ ، وجابر بنُ
عبد الله - رضي الله عنهم أجمعين - .

* كما روى عنه عددٌ من أعيان الصَّحابة ، ورجال عصر النُّبوّة ،
ومنهم : أبو أمّامة الباهليّ ، وأبو الطفيل ، وعبدُ الله بنُ جعفر ، وأبو لاس
الخزاعيّ (٣) ، وغيرهم من الصَّحابة - رضي الله عنهم أجمعين ، وحشرنا في
معيتهم ، وغفر لنا ، وأدخلنا برحمته في عباده الصّالحين - .

* وروى عنه من أهل بيته من أولاده : محمّد ، وأبو عبيدة . كما روى
عنه عددٌ من أعيان التّابعين وأكابرهم ، ومنهم : محمّد ابن الحنفية ،
وسعيد بن المسيّب ، وزرّ بن حبّيش ، وقيس بن عباد ، وآخرون « (٤) » .

* تتضمّنُ مرويات سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - بعض أبواب العلم ،
ومنها : الصّلاة ، التّيمم ، الإيمان ، المناقب ، الصّوم ، الفتن ، وغيرها
مما يتعلّق بالسّير والمغازي ، وما ينطوي تحتها من سائر أبواب العلم .
وأحاديثه موجودة في الصّحيحين والسّنن والمسانيد وسائر كتب الحديث .

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٣٧) .

(٢) اقرأ موسوعتنا المباركة « علماء الصَّحابة - رضي الله عنهم - » في حلّته الجميلة ،
وأبوابه الأربعة ، ففيه - بإذن الله - ما يسرّ الفؤاد ، ويزيد ما بيننا وبينهم الحبّ
والوداد - رضي الله عنهم أجمعين - .

(٣) « تهذيب التّهذيب » (٧ / ٤٠٩) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٦٣٢) ، و« تهذيب
الأسماء واللغات » (٢ / ٣٧) ، و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٤٥١) .

(٤) « تهذيب التّهذيب » (٧ / ٤٠٩) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبيّ (عهد الخلفاء
الرّاشدين ، ص : ٥٧٠) .

* ومن الأحاديث التي أخرجها الإمام أحمد في « مسنده » التي تتعلق بالصلاة والدُّعاء ، ما أخرجه بسنده عن أبي مجلز قال : « صَلَّى بنا عَمَّارُ صَلَاة فَأَوْجَزَ فِيهَا ، فَأَنكَرُوا ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَلَمْ أَتَمِّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ؟ قَالُوا بَلَى .

قال : أما إِنِّي قد دعوت فيهما بدعاء كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يدعو به : « اللَّهُمَّ ! بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلقِ أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، أسألك خشيتك في الغيب والشَّهادة وكلمة الحقِّ في الغضب والرضا ، والقصدَ في الفقر والغنى ، ولذة النَّظرِ إلى وجهك ، والشَّوقِ إلى لقائك ، وأعوذُ بك من ضراءٍ مُضرةٍ ، ومن فتنةٍ مضلةٍ ، اللَّهُمَّ ! زَيِّناً بزيينة الإيمان ، واجعلنا هداةً مهديين » (١) .

* وممَّا جاء في الصَّحيح وغيره في صفة التَّيَمُّم ما روي عن عَمَّار بن ياسر - رضي الله عنهما - ، قال : « بعثني رسولُ اللَّهِ ﷺ في حاجة فأجَنَّبْتُ فلم أجد الماء ، فتمرَّغتُ في الصَّعيد كما تتمرَّغ الدَّابة ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فذكرت ذلك له فقال : « إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا » ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ، ثُمَّ مَسَحَ الشَّمَالَ عَلَى الْيَمِينِ وَظَاهَرَ كَفَّيْهِ وَوَجْهَهُ » (٢) .

(١) « المسند » (٦ / ٣٦٦) ، حديث رقم : (١٨٣٥٣) .

(٢) متَّفَقٌ عَلَيْهِ ، واللفظ لمسلم وهو جزء من حديث برقم : (٣٦٨) ، وأخرجه البخاريُّ برقم : (٣٣٨) ، وأبو داود برقم : (٣٢١) ، وابن ماجه برقم : (٥٦٩) ، وابن جَبَّان في « صحيحه » برقم : (١٣٠٤) ، وأحمد في مواضع برقم : (١٨٣٥٦) ، و ١٨٣٥٧ ، و ١٨٣٦٠ ، و ١٨٣٦٢) ، ومصادر حديثيَّة أخرى . وقوله « فأجَنَّبْتُ » ؛ أي : صرت جنباً ، يقال : أجنب ؛ أي : صار جنباً ولا يقال : أجنب بصيغة المجهول . و« تمرَّغت » : تقلَّبت ، وكأنَّ عَمَّاراً - رضي الله عنه - استعمل القياس ، وهو أنَّه لما كان نائباً عن الغسل فحقَّه أنَّ يَعْمَ . و« إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ » : فيه دلالة على أنَّ هذه هي الصَّفة المشروعة وأنَّه =

في مقعد صدق :

* عاش سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - عيشة السُّعداء ؛ ينعم بحبّ الحبيب المصطفى ﷺ وعطفه ، ثمّ كان موفور المكانة عند ساداتنا الخلفاء الرّاشدين الذين أحلّوه من قلوبهم المكان الأوفى ، ومن نفوسهم المحلّ الأسنى ، ومن ثمّ ظلّ سيّدنا عمّار مع سيّدنا عليّ لا يفارقه في حلّ أو سفر ، فشهد معه معركة الجمل وصفين ، وقُتل في صفين - رضي الله عنه - ، قتله الفئة الباغية كما أخبره رسولُ الله ﷺ بقوله : « تقتلك الفئة الباغية » (١) ، وكما قال عمّار نفسه : « قبلتُنا واحدة ، ودعوتنا واحدة ، ولكنّهم قوم بغوا علينا فقاتلناهم » (٢) .

* كان سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - مناراً واضحاً في صفين ، يراه الصّحابة الكرام ، ويتبعونه حيثُ سار ؛ لأنّهم يعرفون أنّه مع الحقّ ، وكان خزيمة بنُ ثابت - رضي الله عنه - قد شهد معركة الجمل وهو لا يسألُ سيفاً ، ثمّ شهد صفين وقال : « أنا لا أضلّ أبداً حتّى يقتل عمّار ، فأنظر مَنْ يقتله ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « تقتله الفئة الباغية » ، فلمّا قُتل سيّدنا عمّار بن ياسر قال خزيمة : « قد بانت لي الضّلالة » ، ثمّ اقترب ، فقاتل حتّى قُتل رضي الله عنه (٣) .

= الواجب المجزئ ، ودلّ على أنّه يكفي ضربة واحدة ، وأنّه يكفي من اليد الكفّين والراحيتين حيث قال : مسح الشّمال على اليمين وظاهر الكفين ؛ وأفهم أنّ التّرتيب بين اليدين والوجه غير واجب .

قال الإمام النّووي رحمه الله : « وفي قصّة عمّار جواز الاجتهاد في زمن النّبي ﷺ ، فإنّ عمّاراً - رضي الله عنه - اجتهد في صفة التّيمم » . « المنهاج » (ص : ٤١١) .

(١) أخرجه مسلم برقم : (٢٩١٦) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٦) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٢٩) .

* كان لمقتل سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - أثرٌ كبيرٌ على كثيرٍ من أعلام الصّحابة وأعيانهم ، ومنهم عمرو بنُ العاص - رضي الله عنه - الذي قال لما بلغه مقتل الطّيب المطيّب عمّار : « وددت أنّي متٌ قبل هذا بعشرين سنة » (١) .

* وقُتِلَ عمّار - رضي الله عنه - يوم قُتِلَ وهو مجتمعُ العقل ، قد تجاوز التسعين ، فهو من الصّحابة المعمرين ، وكان مقتله في صيفين سنة سبع وثلاثين من الهجرة ، ودُفِنَ هناك ، وكان قد قُتِلَ في وقعة صيفين جماعة كثيرة من الفريقين .

* وعن مجاهد قال : « لما قُتِلَ عمّار - رضي الله عنه - ، قال عبد الله بنُ عمرو - رضي الله عنهما - : إنّنا لله وإنّا إليه راجعون ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لعمّار : « تقتلك الفئة الباغية » (٢) .

* قال النووي رحمه الله معلقاً على هذا الحديث المتواتر المشهور : « قال العلماء : هذا الحديث حجة ظاهرة في أنّ عليّاً - رضي الله عنه - كان محقّاً مُصيباً ، والطائفة الأخرى بغاة لكتّهم مجتهدون ، فلا إثم عليهم لذلك . . . وفيه : معجزة ظاهرة لرسولِ الله ﷺ من أوجه ، منها : أنّ عمّاراً يموتُ قتيلاً ، وأنّه يقتله مسلمون ، وأنّهم بغاةٌ ، وأنّ الصّحابة يقاتلون ، وأنّهم يكونون فرقتين باغيةً وغيرها ، وكلّ هذا قد وقّع مثل فلق الصّبح ، صلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى ، إنّ هو إلا وحي يوحى » (٣) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٥٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٨ / ٢٣٣) ، أقول : « كان سيّدنا عمّار - رضي الله عنه - قد أوصى أن يُدفنَ بثيابه ، إنّ هو قُتِلَ ؛ فلما قُتِلَ دفنه سيّدنا عليٌّ - رضي الله عنه - في ثيابه ، ولم يغسله ؛ لأنّه شهيدٌ ، والشّهيدُ يكفنُ في ثيابه ولا يغسلُ والله تعالى أعلم » .

(٣) « المنهاج » (ص : ٢٠١١) .

* وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ أيضاً في موضع آخر من كتاب آخر : « وكانت الصَّحابةُ يومَ صفينَ يتبعونه - أي : لعمَّار - حيثَ توجَّهَ لِعَلَّهم بأنَّه مع الفئَةِ العادلةِ لهذا الحديث - أي : تقتله الفئَةُ الباغية - » (١) .

* في بداية ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ كلامٌ نفيسٌ على هذا الحديث حيث قال : « وهذا مقتل عمَّار بن ياسر - رضي اللهُ عنه - مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، قتله أهل الشام ، وبأنَّ وظهَرَ بذلك سرَّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أنَّه تقتله الفئَةُ الباغية ، وبأنَّ بذلك أنَّ عليّاً محقٌّ ، وأنَّ معاوية باغٍ ، وما في ذلك من دلائلُ البُتُوَّة » (٢) .

* وقال في موضع آخر : « كان عليٌّ وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحقِّ من أصحاب معاوية ، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم ، كما ثبت في « صحيح مسلم » من حديث شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : حدَّثني مَنْ هو خيرٌ مِنِّي - يعني : أبا قتادة - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعمَّار : « تقتلك الفئَةُ الباغية » (٣) .

* تعرَّضَ القاضي الحضيفُ أبو بكر ابن العربي إلى موضوع هذا الحديث لما تحدَّث في « أحكام القرآن » عن قوله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات : ٩] قال : « هذه الآيةُ هي الأصلُ في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصَّحابة ، وإليها لجأ الأعيان ، من أهل الملة ، وإياها عنى النَّبيُّ ﷺ بقوله : « تقتلُ عمَّاراً الفئَةُ الباغية » (٤) .

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٣٨) .

(٢) « البداية والنهاية » (٧ / ٢٦٦) .

(٣) « البداية والنهاية » (٦ / ٢١٤) .

(٤) « أحكام القرآن » (٤ / ١٧١٧) .

* وقال ابنُ العربي أيضاً في هذا المضمَر : « تَقَرَّرَ عند علماء المسلمين ، وثبتَ بدليل الدين ، أنَّ عليّاً - رضي الله عنه - كان إماماً ، وأنَّ كلَّ مَنْ خرج عليه باغٍ ، وأنَّ قتالَه واجبٌ حتَّى يفيء إلى الحقِّ ، وينقاد إلى الصِّلح » (١) .

* إِنَّ أقوالَ العلماء من الصَّحابة والتَّابعين وغيرهم من فقهاء الأُمَّة ؛ تشيرُ إلى أنَّ الفئةَ الباغيةَ هي التي قَتَلَتْ عَمَّاراً - رضي الله عنه - ، ولكنَّ جميع هؤلاء العلماء لم يكفروا هذه الفئة ، وأقوالهم في هذا الأمر تملأ رُحْبَ المصادر الموثوقة المنصفة .

* وما دمنا في رحابِ هؤلاء العلماء الجهابذة ، والأعلام الكبار ، نستضيء بآرائهم ، ونستفيد من معارفهم ، فلماذا نجد صاحب كتاب « رجال حول الرِّسول » يتكلَّف بكلامٍ خطير ؟ وفيه ما فيه من تلويحٍ وتلميحٍ وتصريحٍ وطعنٍ بالصَّحابة ؛ وآراء مريضة ممرضة إثمها أكثرُ من نفعها ، تتضمنها كلماتٌ مزخرفةٌ ، ولكِنَّها خاويةٌ من النِّفع ، فاسمعْ إليه وأمعنِ النَّظَرَ فيما يقول في ترجمته لسَيِّدنا عَمَّار بن ياسر - رضي الله عنه - : « وقد كانت نبوءة الرِّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام تأتلقُ أمامَ عينيه بحروف كبيرة : « تقتل عَمَّاراً الفئةَ الباغيةُ » ، من أجلِ هذا كان صوتهُ يجلجلُ في أفقِ المعركة بهذه التَّغريدة : « اليوم ألقى الأُحبة ، محمّداً وصحبه » ، ثمَّ يندفعُ كقذيفةٍ عاتيةٍ صوب مكان معاوية ومَنْ حوله من الأمويين ، ويرسلُ صياحه عالياً مُدْمِماً :

لقد ضَرَبْنَاكم على تَنزِيلِهِ واليوم نضربُكم على تَأْوِيلِهِ
ضَرْباً يزيلُ الهَامَ عن مَقِيلِهِ ويذهلُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ
أو يرجعُ الحقُّ إلى سِيلِهِ

وهو يعني بهذا أنَّ أصحابَ الرِّسول السَّابِقين ، وعَمَّاراً منهم ، قاتلوا

(١) المصدر السَّابِق (٤ / ١٧١٨) .

الأمويين بالأمس ، وعلى رأسهم أبو سفيان الذي كان يحملُ لواء الشُّرك ، ويقودُ جيوشَ المشركين . . . قاتلوهم بالأمس ، وكان القرآنُ الكريمُ يأمرهم صراحةً بقتالهم ؛ لأنَّهم مشركون . . . أمّا اليوم ، وإن يكونوا قد أسلموا ، وإن يكن القرآنُ الكريمُ لا يأمرهم صراحةً بقتالهم ، إلا أنَّ اجتِهَادَ عمَّارٍ - رضي الله عنه - في بحثه عن الحقِّ ، وفهمه لغايات القرآن ومراميهِ ، يقنعانه بقتالهم حتَّى يعودَ الحقُّ المُعتَصَبُ إلى ذويه ، وحتَّى تنطفئَ إلى الأبدِ نار التَّمَرْد . ويعني كذلك ، أنَّهم بالأمس قاتلوا الأمويين لكفرهم بالذِّين ، وكفرهم بالقرآن واليوم يقاتلونهم لانحرافهم بالذِّين ، وزيغهم عن القرآن الكريم ، وإساءتهم تأويله وتفسيره ، ومحاولتهم تطويع آياته ومراميهِ لأغراضهم وأطماعهم ! ! ! ! » (١) .

(١) « رجال حول الرسول » (ص : ٢٧٦ - ٢٧٧) ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٧٣ م . ولاحظ عبارات خالد محمد خالد التي لا تستند إلى الحقائق ، ولا إلى مصادر موثوقة ، وفيها من الأهواء الهوجاء ما لا يخفى على كلِّ محبِّ للصَّحابة ، ومن أمثلة كلماته قوله : « يندفع كقذيفة عاتية صوب مكان معاوية . . . » ، و« قاتلوا الأمويين بالأمس وعلى رأسهم أبو سفيان . . . » ، و« أمّا اليوم ، وإن يكونوا قد أسلموا . . . » ، و« اليوم يقاتلونهم لانحرافهم بالذِّين . . . » . ومثل هذه الكلمات الخطيرة المرعبة تجعل القارئ يضطرب في فهم المعلومات الصَّحيحة

أقول : « أسهمت كثير من كتب الأسمار والأدبيات والمجالس والمستطرفات وما شابه ذلك في تشويه صور بعض الصَّحابة وسلوكهم ، والطَّعن عليهم وفيهم ، وذلك بذكر طرائف ؛ الغاية منها : الغضُّ من شأن هؤلاء الصَّحابة ، ومن ذلك ما جاء في بعض المصادر الأدبيَّة التي تغضُّ من شأن سيِّدنا معاوية وتسيء إليه » .

« ذَكَرَ معاويةُ عند شريك بن عبد الله بالحلم ، فقال : وهل كان معاويةُ إلا معدن السَّفَه ! والله لقد أتاه قتلُ أمير المؤمنين ، وكان متكئاً فاستوى جالساً ، ثمَّ قال : يا جارية غيّني فالיום قرَّت عيني ؟ ! ! ؟ ! ! ، فأنشأت تقول :

* والحقيقة ، فإننا لا ندري مَنْ أين هبطت هذه الأحقاد على صاحب كتاب « رجال حول الرسول » ، ولا ندري مَنْ أين جاء بقوله : « قاتلوا الأمويين لكفرهم بالدين ، وكفرهم بالقرآن . . . واليوم يقاتلونهم لانحرافهم

= ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرّت عيون الشاميين
أفي شهر الصّيام فجتمعونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير مَنْ ركب المطايا وأفضلهم وَمَنْ ركب السفينا
فرفع معاوية عموداً كان بين يديه ، ف ضرب رأسها ، ونثر دماغها ، فأين حلمه
ذلك اليوم ؟ ؟ ؟ !

وقال له بعضُ العوام : عرّفتي بعضَ مناقب معاوية : فقال : مِنْ مناقبه أن أباه قاتلَ النَّبي ، وهو قاتلُ الوصي ؟ ! وأمه أكلت كبد عم النَّبي ، وابنه حرّ رأس ابنة النَّبي ، فأَي منقبة أكبر من هذه ؟ ؟ ؟ ! .

وهذه مصيبة كبرى ، وداهية دهما ، وفرية حُبلى تتحدّث عن سيّدنا معاوية وتتهمه بالشُّرك وهي : « مرض معاوية ، فدخل إليه طبيب فقال : لا بأس عليك ، إنَّكَ تبرأ فبرئ ، ثم مرض فدخل إليه نصرانيّ ؛ وقال : عندنا تعويد ، مَنْ علّق عليه يبرأ من علته ! فأخذه وعلّقه عليه ؟ ؟ ! فدخل إليه الطَّبيب فخرج وقال : إنَّه ميّت لا محالة ؟ ؟ ! فمات من ليلته ، فقليل للطَّبيب في ذلك ، فقال : روي عن أمير المؤمنين أنَّ معاوية لا يموت حتّى يُعلّق في عنقه صليباً ، والتَّعويذ الذي كان عليه مصلّب ، فعلمت أنّه يموت » !!!!!

وذكروا أنَّ معاوية قال : « والله لأضربنّ عليّاً بخمسين ألفاً لا يقرؤون الفاتحة ! » وقيل لبعضهم : « أتستم معاوية خالك وخال أمير المؤمنين ؟ فقال : أمّا أمي فنصرانيّة ، فإن شاء أن يكون خالي فليكن على بركة الله ؟ ؟ ! » « محاضرات الأدباء » (٤ / ٢٧٨ - ٢٨٠) دار صادر .

أقول : « إنَّ القارئ الحصيف الكريم لا تخفى عليه أمثال هذه الأكاذيب البلهاء السَّخيفة ، والحمقاء الخفيفة التي لا تسمن ولا تغني ، نسأل الله اللطف ، ونسأله العافية » .

بالدين و » . لا ندري من أين أتى بهذه الأحكام الخطيرة ، ولم يذكر لنا مصدراً اعتمد عليه في ذلك ، ولو تابع هذا الكاتب سيرة في ترجمته دون أن يُعَرِّض بأكابر الصحابة وينتقصهم لكان خيراً له وأحسن ، فنحن والله نحُبُّ عمَّاراً وعليّاً ومعاويةً وسائر الصحابة محبةً عظيمةً ، ولا يحقُّ لنا أن نتجاوز قدرنا في الحكم على هذا وذاك دون دليل شرعي . - ومن نحن حتى نحكم على فعل أي صحابي ؟ ! بل نعلمه ، بل قلامه ظفره ، فضلاً عن أن نُقيّم منهجه وسلوكه - ! ! ونحن مع سيدنا عليّ قلباً وقالباً ، ونسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يحشرنا معه تحت لواء سيدنا محمد ﷺ ، بيد أننا لا ننتقص أحداً من الصحابة مهما كان الأمر ، فالله - عزَّ وجلَّ - هو الحكم العدل ، وهو العليم الخبير البصير بأحوال عباده . ولنا في هذه القصة الجميلة دليلٌ لتترك الأمر إلى خالقه ، ذكر ابن سعد وغيره أنَّ عمرو بن شرحبيل أو ميسرة - وكان من أفاضل أصحاب عبد الله بن مسعود - رأى رؤيا في المنام فقال : « رأيتُ كأني أدخلتُ الجنةَ ، فإذا قباب مضروبةٌ ، فقلتُ : لمن هذه ؟

قالوا : لذي الكلاع وحوشب ، وكنا ممن قُتِلَ مع معاوية .

قلت : فأين عمَّار وأصحابه ؟

قالوا : أمامك .

قلت : وقد قتل بعضهم بعضاً ؟ !

قالوا : نعم ، إنَّهم لقوا الله فوجدوه واسعَ المغفرة » (١) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٦٣ - ٢٦٤) ، و « مختصر تاريخ دمشق »

(١٨ / ٢٣٤) ، و « سير أعلام النبلاء » (١ / ٤٢٨) . وما أجمل ما قاله الآجريُّ

في هذا المجال : « مَنْ جاء إلى أصحاب رسول الله ﷺ حتَّى يطعنَ في بعضهم ،

ويهوئُ بعضهم ؛ ويذمُّ بعضاً ، ويمدحُ بعضاً ، فهذا رجلٌ طالبُ فتنة ، وفي الفتنة

وقع ؛ لأنَّه واجبٌ عليه محبةُ الجميع ، والاستغفار للجميع رضي الله عنهم » .

« الشريعة » (ص : ٧١٠) .

* وفي رواية أخرى عن الأعمش عن أبي الصُّحَي قال : « رأى أبو ميسرة في المنام روضة خضراء ، فيها قبابٌ مضروبةٌ ، فيها عمّار ، وقبابٌ مضروبةٌ فيها ذو الكلاع ، قال : قلتُ : كيف هذا وقد اقتتلوا ؟ ف قيل لي : وجدوا ربّاً واسعَ المغفرة » ^(١) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٦٤) . أقول : « اللهم ربنا يا واسع المغفرة ، اغفر لنا ، وارحمنا ، واسترنا ، وأكرمنا بعفوك ، واجعلنا من محبي الصّحابة وأبناء الصّحابة ، واحشرنا معهم يا واسع المغفرة » . وأقول أيضاً : « ينبغي علينا أن نطلع على آراء أهل العلم من السّلف ، وعلى أقوالهم فيما شَجَرَ بين الصّحابة - رضي الله عنهم - ، إذ إنّ علماء السّلف قد أبانوا هذا الأمر ، ووقّوه حقّه » .

فمن الأقوال الشّافية الوافية الكافية ، ما جاء عن الحسن البصريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينما سُئِلَ عن قتالِ الصّحابة فيما بينهم ، فقال : « قتالُ شهيدٍ أصحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا » .

وقال أبو عبد الله بن بطة أثناء عرضه لعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة : « . . . ومن بعد ذلك نكفُّ عمّا شَجَرَ بين أصحابِ رسولِ الله ﷺ ؛ فقد شهدوا المشاهدَ معه ؛ وسبقوا النَّاسَ بالفضل ، فقد غفرَ اللهُ لهم ، وأمرَك بالاستغفار لهم ، والتَّقرُّب إليه بمحبَّتِهِمْ ، وفرض ذلك على لسان نبيِّه وهو يعلم ما سيكون منهم ، وأنَّهم سيقْتَلون ، وإنَّما فضلوا على سائر الخلق ؛ لأنَّ الخطأ والعمد قد وُضِعَ عنهم ، وكلَّ ما شَجَرَ بينهم مغفور لهم » .

وقال الآجُرِّي : « مِنْ صِفَةِ مَنْ أَرَادَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - به خيراً ، وسلَّم له دينه ، ونفعه اللهُ الكريم بالعلم ، المحبة لجميع الصّحابة ؛ ولأهل بيتِ رسولِ الله ﷺ ، ولأزواجِ رسولِ الله ﷺ ، والافتداء بهم ، ولا يخرج بفعلٍ ولا بقولٍ عن مذاهبهم ، ولا يرغب عن طريقتهم ، وإذا اختلفوا في بابٍ من العِلْم ، فقال بعضهم : حلال ، وقال الآخر : حرام ، نظرَ أيُّ القولين أشبه بكتابِ الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وسُنَّة رسولِ الله ﷺ ، وسأل العلماء عن ذلك إذا قَصَرَ علمُهُ ، فأخذ به ، ولم يخرج عن قول بعضهم ، وسأل الله - عَزَّ وَجَلَّ - السّلامَةَ ، وترخَّم على الجميع » . « الشّريعة » (ص : ٤٣٥) .

* رضي الله عن الطَّيِّبِ الْمُطَيَّبِ سيِّدنا عَمَّار ، وأدخلنا برحمته الجنَّةَ مع الأبرار ، وغفر لنا خطايانا إِنَّه كريمٌ غَفَّار .

* اللهمَّ ! اجعلْ قلوبنا عامرةً بذكرك ، محبةً لنبِّيك ، وأصحابه الكرام وأبنائهم ، الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

* يا ربَّنَا رحمتك نرجو ، فلا تكلِّنا إلى أنفسنا طرفَةَ عين ، ولا أقلَّ من ذلك ، وأصلحْ قلوبنا ونفوسنا وأعمالنا ، حتَّى نصلَّ إليك وأنتَ راضٍ عَنَّا .

* اللهمَّ ! اجمعنا بسيِّدنا عليٍّ وعمَّار ومعاوية ، في جنَّةٍ عالية ، قطوفها دانية ، واغفرْ لنا يا رحيم ، وأكرمنا يا كريم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .



عمرُ بنُ أبي سلمة

رضي الله عنهما

- * أبواه صحابيان من أصحابِ الهجرتين ؛ وهو صحابيٌّ كريم .
- * ربيبُ الصادقِ المصدوقِ عليه السلام ، وروى عنه (١٢ حديثاً) .
- * من أبناءِ الصحابةِ المُعمَّرين ؛ وتوفي بالمدينة سنة (٨٣ هـ) .

عمرُ بنُ أبي سلمة رضي الله عنهما

رَبِيبُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ :

* هل تعلمون أنَّ هذا الصَّحَابِيَّ ابْنَ الصَّحَابِيَّ ابنِ الصَّحَابِيَّةِ تَرَبَّيَ في
أطهر بيت في الدُّنْيَا ؟ !

* وهل تعلمون أنَّ هذا الفتَى النَّبِيلَ قد حظي بالعناية المحمَّديَّة منذ أن
صارت أمُّه إحدى نساء أهل البيت من أمَّهات المؤمنين ؟ !

* وهل تعلمون أنَّ هذا الفتَى اللَّيِّبَ زَوْجَ أمِّه بالنَّبِيِّ ﷺ ؛ وهو لا يزالُ
في عمر زهرة بيضاء تداعبها أنفاس الرِّبيع ؟ !

* هذا الرَّيِّبُ السَّعِيدُ هو عمر بنُ أبي سلمة بن عبد الأسد ، أبو حفص
القرشيَّ المخزوميَّ المدنيَّ الحبشيَّ المولود (١) .

(١) « زاد المعاد » (الفهارس : ٦ / ٣٦١) ، و« مشاهير علماء الأمصار »
(ص : ٥٠) ، ترجمة رقم : (١٢٤) ، و« سير أعلام النبلاء »
(٣ / ٤٠٦ - ٤٠٨) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٦٨٠) ، ترجمة رقم : (٣٨٣٠) ،
و« التَّيِّين » (ص : ٣٤٢) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٦) ،
و« تهذيب التَّهْذِيب » (٧ / ٤٥٥ - ٤٥٦) ، و« الإصابة » (٢ / ٥١٢ - ٥١٣) ،
و« الاستيعاب » (٢ / ٥٦٧) ، و« المعجم الكبير » للطَّبْرَانِيَّ (٩ / ٢١ - ٢٨) ،
و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٣٥٢ - ٣٥٥) ترجمة رقم (١٩٩٧) ، وغيرها .

* وُلِدَ سَيِّدُنَا عَمْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي الْحَبْشَةِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِبُضْعِ سَنِينَ ، وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَبَوَاهُ مُهَاجِرِينَ إِلَيْهَا ، وَلَهُ إِخْوَةٌ وَهُمْ : سَلَمَةُ ، وَزَيْنَبُ ، وَدُرَّةُ ، وَأُمُّهُمْ سَيِّدَتُنَا أُمُّ سَلَمَةَ الْمَخْزُومِيَّةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

* فِي بَيْتِ الثُّبَوَةِ الطَّاهِرِ لَقِيَ سَيِّدُنَا عَمْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - رِعَايَةً وَعُظْفًا وَتَوْجِيهًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى غَدَا مِنْ جَلَّةِ كِبَرَاءِ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ مِنْهُمْ وَالْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ .

* وَمِنْ أَلْوَانِ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي تَلَقَّاهَا سَيِّدُنَا عَمْرُ : آدَابُ الْأَكْلِ ، إِذْ نَقَلَ صُورَةَ تَرْبِيَةٍ فَرِيدَةٍ فِي عَالَمِ التَّرْبِيَةِ الْحَقَّةِ ، وَذَكَرَ كَيْفَ وَجَّهَهُ النَّبِيُّ ﷺ - وَهُوَ صَبِيٌّ - إِلَى آدَابِ الطَّعَامِ بِجَمِيعِ أَشْكَالِهِ وَصِفَاتِهِ .

* عَلَّمَهُ الْحَبِيبُ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنْ يَبْدَأَ قَبْلَ الطَّعَامِ بِالتَّسْمِيَةِ ، وَأَنْ يَأْكُلَ بِالْيَمِينِ ؛ « وَمِنْ هُنَا كَانَ الْبَدْءُ بِالتَّسْمِيَةِ ، وَبِالْيَمِينِ وَالْأَيْمَنِ ، إِشَاعَةً لَجَوْزٍ مِنَ الْيُمْنِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَطَامِنَ انْدِفَاعُ الشَّهْوَةِ ، وَبِالْثَّلَاثِ يَتِمَكَّنُ الصَّغِيرُ مِنَ السَّيْرِ فِي طَرِيقِ تَحْصِيلِ هَذِهِ الْفَضَائِلِ بِقَدْرِ ابْتِعَادِهِ عَنْ أَضْدَادِهَا مِنَ الرِّذَائِلِ ، وَهَذَا مَا تَوَخَّاهُ الْإِسْلَامُ حِينَ شَرَعَ التَّسْمِيَةَ فِي أَوَّلِ الْأَكْلِ وَوَسْطِهِ ، وَالْحَمْدُ فِي آخِرِهِ ، وَاسْتَحَبَّ الْبَدْءَ بِالْيَمِينِ ، وَكَرِهَ ذِمَّ الطَّعَامِ ، بَلْ شَرَعَ الدَّعَاءَ لِأَهْلِ الطَّعَامِ » (١) .

* أَفْرَدَ فَقْهَاءُ الْإِسْلَامِ وَعُلَمَاؤُهُمْ وَمُرَبِّوهُمْ فُصُولًا قِيَمَةً فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ تَحَدَّثُوا مِنْ خِلَالِهَا عَنْ تَرْبِيَةِ الصِّبْيَانِ وَتَأْدِيبِهِمْ بِكُلِّ الْأَحْوَالِ ، وَتَحَدَّثُوا عَنْ التَّأْدِيبِ وَأَصُولِهِ فِي شَأْنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَمَمَّنْ حَلَّقَ فِي هَذَا الْأَمْرِ التَّرْبَوِيِّ وَالنَّفْسِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي « إِحْيَائِهِ » حَيْثُ قَالَ فِي شَأْنِ تَأْدِيبِ الصَّبِيِّ وَتَعْلِيمِهِ وَتَعْوِيدِهِ آدَابَ الطَّعَامِ فَقَالَ : « وَأَوَّلُ مَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ

(١) « أَوْلَادُنَا » د . محمود عمارة (ص : ٢٣٣) .

شَرُّهُ الطَّعَام ، فينبغي أَنْ يُوَدَّبَ فيه ، مثل أَنْ لَا يَأْخُذَ الطَّعَام إِلَّا بِيَمِينِهِ ، وَأَنْ يَقُولَ عَلَيْهِ : « بِسْمِ اللَّهِ » عِنْدَ أَخْذِهِ ، وَأَنْ يَأْكُلَ مِمَّا يَلِيهِ ، وَأَلَّا يَبَادِرَ إِلَى الطَّعَام قَبْلَ غَيْرِهِ ، وَأَلَّا يَحْدَقَ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَلَا إِلَى مَنْ يَأْكُل ، وَأَلَّا يَسْرَعَ فِي الْأَكْلِ ، وَأَنْ يَجِدَّ الْمَضْغَ ، وَأَنْ لَا يُوَالِيَ بَيْنَ اللَّقْمِ ، وَلَا يُلْطَخَ يَدُهُ وَلَا ثَوْبُهُ ، وَأَنْ يَعُودَ الْخَبْزَ الْقَفَارَ - الْخَبْزَ الْيَابِسَ وَحْدَهُ - فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ، حَتَّى لَا يَصِيرَ بَحِثَ يَرَى الْأَدَمَ حَتْمًا ، وَيَقْبَحَ عِنْدَهُ كَثْرَةُ الْأَكْلِ ، بِأَنْ يَشْبَهَ مَنْ يَكْثُرُ الْأَكْلَ بِالْبَهَائِمِ ، وَبِأَنْ يَذُمَّ بَيْنَ يَدَيْهِ الصَّبِيُّ الَّذِي يَكْثُرُ الْأَكْلَ ، وَيَمْدَحَ عِنْدَهُ الصَّبِيُّ الْمَتَأَدَّبَ الْقَلِيلَ الْأَكْلَ ، وَأَنْ يُحِبَّ إِلَيْهِ الْإِيثَارُ بِالطَّعَامِ ، وَقَلَّةُ الْمَبَالَاةِ بِهِ ، وَالْقَنَاعَةُ بِالطَّعَامِ الْخَشَنِ أَيْ طَعَامِ كَانَ « (١) » .

« يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ . . . » :

* لَمَّا صَارَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - رَيْبَ الْحَبِيبِ الْمِصْطَفَى ﷺ عَلمَهُ أَدَبُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَهَذَا التَّعْلِيمُ لِابْنِ هَذَا الصَّحَابِيِّ ؛ جَعَلَ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمًا رَحِمَهُمَا اللَّهُ يَخْصَّانَ صَحِيحِيهِمَا بِحَدِيثِ سَيِّدُنَا عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ ، وَيَعْقِدَانِ بَابًا فِي هَذَا الْمَضْمَارِ الْأَنِيقِ . فَقَدْ عَقَدَ الْبَخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْأَطْعِمَةِ بَابًا عَنْوَانَهُ : « بَابُ التَّسْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ وَالْأَكْلِ بِالْيَمِينِ » ، وَعَقَدَ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْأَشْرَبَةِ بَابًا عَنْوَانَهُ : « بَابُ آدَابِ الطَّعَامِ وَالشُّرَابِ وَأَحْكَامِهِمَا » وَحَذَا حَذَوْهُمَا الْإِمَامَانِ : أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ أَجْمَعُونَ حَدِيثَ سَيِّدُنَا عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الَّذِي يَعَدُّ فَصْلًا تَرْبُويًّا فَرِيدًا فِي عَالَمِ التَّرْبِيَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا .

* أَخْرَجَ الشَّيْخَانُ الْجَلِيلَانِ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِسَنَدِهِمَا عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ : « كُنْتُ غُلَامًا فِي

(١) « الْمَهْدَبُ مِنْ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ » (٢ / ٥١) . وَلِلْمَزِيدِ مِنْ هَذِهِ الْإِشْرَاقَاتِ اللَّطِيفَةِ ، اقْرَأْ كِتَابَنَا : « الْأَطْفَالُ وَالطُّفُولَةُ بَيْنَ الْأَدَبِ وَالثَّقَافَةِ - رُؤْيَا إِسْلَامِيَّةً نَفْسِيَّةً » ، فِيهِ فَائِدَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ .

حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وكانت تطيشُ يدي في الصَّحفة ، فقال لي رسولُ اللَّهِ ﷺ : « يا غلامُ ! سَمِّ اللَّهَ ، وكُلْ بيمينك ، وكلْ ممَّا يليك » ؛ فما زالت تلك طِعْمَتِي بعد » ^(١) .

(١) أخرجه البخاريُّ برقم : (٥٣٧٦) ، واللفظ له ، ومسلمٌ برقم : (٢٠٢٢) ، وأبو داود برقم : (٣٧٨٧) ، والترمذيُّ برقم : (١٨٥٨) ، وقوله : « غلاماً » ؛ أي : دون البلوغ ، يُقال للصَّبِيِّ من حين يولد إلى أن يبلغَ الحلم غلام . و« حَجَرٌ » : في تربيته وتحت نظره ، وأنه يربِّيه في حضنه تربية الولد . قال عياض : « الحجرُ يطلق على الحضن وعلى الثَّوب ، فيجوز فيه الفتح والكسر ، وإذا أُريد به معنى الحضانة فبالفتح لا غير ، فإن أُريدَ به المنع من التَّصرف فبالفتح في المصدر ، وبالكسر في الاسم لا غير » . و« تطيشُ » : بكسر الطاء : تحرك وتمتدَّ وتميل إلى نواحي القصعة ، ولا تقتصر على موضع واحد . قال الطَّيِّبِي : « والأصل أطيش بيدي ، فأسند الطَّيش إلى يده مبالغة » . وقال غيره : « معنى تطيشُ : تخفَّ وتسرعُ » . و« الصَّحفة » : الصَّحفة كالقصعة . و« يا غلامُ سَمِّ اللَّهَ » : قال النَّوويُّ : « أجمع العلماء على استحباب التَّسمية على الطَّعام في أوَّلِهِ » . و« كُلْ بيمينك وممَّا يليك » : وجوب الأكل باليمين ، وقد ورد الوعيدُ في الأكل بالشَّمال ؛ وثبت النَّهي عن الأكل بالشَّمال ، وأنه من عمل الشَّيْطان من حديث عائشة رفعتَه : « مَنْ أَكَلَ بِشِمَالِهِ أَكَلَ الشَّيْطان معه » ، ونقل الطَّيِّبِي أنَّ معنى قوله : « إِنَّ الشَّيْطان يأكلُ بِشِمَالِهِ » ؛ أي : يحمل أوليائه من الإنس على ذلك ليضاد به عباد اللَّه الصَّالحين » . قال الطَّيِّبِي : « وتحريره لا تأكلوا بالشَّمال ، فإن فعلتم كنتم من أولياء الشَّيْطان ، فإنَّ الشَّيْطان يحملُ أوليائه على ذلك » ، إنَّ الشَّيْطان يستحلُّ الطَّعام إذا لم يُذكر اسمُ اللَّه عليه ، وتُرفعُ البركةُ من الطَّعام إذا لم يذكر اسم اللَّه عليه . وقال القرطبيُّ : « هذا الأمرُ على جهة النَّدب ؛ لأنَّه من باب تشريف اليمين على الشَّمال ؛ لأنَّها أقوى في الغالب ، وأسبق للأعمال ، وأمكن في الأشغال ، وهي مشتقة من اليمن ، وقد شَرَفَ اللَّهُ أصحابَ الجَنَّةِ ؛ إذ نَسَبَهُم إلى اليمين ، وعكسه في أصحاب الشَّمال ، وعلى الجملة فاليمينُ وما نسب إليها ، وما اشتقَّ منها محمود لغةً وشرعاً وديناً ، والشَّمال على نقيض ذلك ، وإذا تقرر ذلك فمن الآداب المناسبة لمكارم الأخلاق والسَّيرة الحسنة عند الفضلاء اختصاص اليمين بالأعمال الشَّريفة والأحوال=

* وأخرج البخاري رحمه الله عن عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - قال : « أَكَلْتُ يَوْمًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا ، فَجَعَلْتُ أَكُلُ مِنْ نَوَاحِي الصَّحْفَةِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلْ مِمَّا يَلِيكَ » (١) .

* وأخرج البخاري رحمه الله بسنده عن وهب بن كيسان أبي نعيم قال : « أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِطَعَامٍ ، وَمَعَهُ رَبِيبُهُ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ ،

= النّظيفة » . و« طِعْمَتِي » : بكسر الطاء ؛ أي : صفة أكلني ؛ أي : لزمته ذلك وصار لي عادة . والمراد جميع ما تقدم من الابتداء بالتسمية والأكل باليمين ، والأكل مما يليه .

وفي الحديث فوائد منها : أنّه ينبغي اجتناب الأعمال التي تشبه أعمال الشياطين والكفار ، وأنّ للشيطان يدَيْن ، وأنّه يأكل ويشرب ويأخذ ويعطي .

وفيه : جواز الدُّعاء على مَنْ خالف الأمر الشرعي .

وفيه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتّى في حال الأكل .

وفيه : استحباب تعليم أدب الأكل والشرب للصغار خصيصاً .

وفيه : منقبة لسيدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - لامتناله الأمر ، ومواظبته على مقتضاه .

قال النووي رحمه الله : « في هذه الأحاديث استحباب الأكل والشرب باليمين ، وكراهة ذلك بالشمال ، وكذلك كلّ أخذٍ وعطاء وهذا إذا لم يكن عذر من مرض أو جراحة فإن كان فلا كراهة » . « فتح الباري » (٩ / ٤٣٢ - ٤٣٤) بتصرف .

وفي التعليق على حديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - يستنبط الإمام النووي رحمه الله بعض السنن فيقول : « وفي هذا الحديث بيان ثلاث سنن من سنن الأكل ؛ وهي : التسمية ، والأكل باليمين ، والأكل مما يليه ؛ لأنّ أكله من موضع يد صاحبه سوء عشرة ، وترك مروءة ، فقد يتقدّره صاحبه لا سيما في الأوراق وشبهها ، وهذا في الثريد والأوراق وشبهها » . « المنهاج » (ص : ١٥٣٢) .

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة برقم : (٥٣٧٧) .

فقال : « سَمَّ الله ، وكُلَّ ممَّا يليك » (١) .

* ومن المؤكَّد أنَّ المراد بالتَّسمية على الطَّعام قول : « بسم الله » في ابتداء الأكل ، وأصرَّح ما ورد في صفة التَّسمية ما أخرجه أبو داود والترمذي من طريق أمِّ كلثوم عن عائشة مرفوعاً : « إذا أكل أحدكم طعاماً فليقلِّ بسم الله ، فإن نسي في أوَّلِهِ فليقلِّ : بسم الله في أوَّلِهِ وآخِرِهِ » ، قال الإمام النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي آدَابِ الْأَكْلِ مِنْ « الْأَذْكَارِ » : « أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّسْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ فِي أَوَّلِهِ وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُجْهَرَ بِالتَّسْمِيَةِ لِيَكُونَ فِيهِ تَنْبِيهُ لْغَيْرِهِ عَلَى التَّسْمِيَةِ ، وَلِيُقْتَدَى بِهِ فِي ذَلِكَ ، وَصِفَةُ التَّسْمِيَةِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي مَعْرِفَتُهُ ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يَقُولَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَإِنْ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، كَفَاهُ وَحَصَلَتِ السُّنَّةُ » (٢) .

قَمْ فزَوْجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ :

* كَانَ سَيِّدَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - صَبِيًّا عِنْدَمَا مَاتَ وَالِدُهُ شَهِيداً ، وَعُمَرُ هُوَ الَّذِي زَوَّجَ أُمَّهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ صَبِيٌّ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّهُ مِنَ الرِّضَاعِ .

* هَذِهِ الْحَادِثَةُ أَخْرَجَهَا النَّسَائِيُّ فِي النِّكَاحِ ، فِي بَابِ إِنْكَاحِ الْإِبْنِ أُمَّهُ ؛ بِسَنَدٍ رَفَعَهُ إِلَى ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ قَالَ : « حَدَّثَنِي ابْنُ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، بَعَثَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ يَخْطُبُهَا عَلَيْهِ ، فَلَمْ تَزَوِّجْهُ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَخْطُبُهَا عَلَيْهِ ؛ فَقَالَتْ : أَخْبَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنِّي امْرَأَةٌ غَيْرِي ، وَأَنْتِي امْرَأَةٌ مُصْبِيَّةٌ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِداً . فَأَتَنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « ارْجِعْ إِلَيْهَا ، فَقُلْ لَهَا : أَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي امْرَأَةٌ غَيْرِي ، فَسَادَعُو اللَّهَ لَكَ فَيَذْهَبَ غَيْرُكَ ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَطْعِمَةِ بِرَقْمِ : (٥٣٧٨) .

(٢) انظر : « الْأَذْكَارِ » (ص : ٢٦٤) بشيء من التَّصَرُّفِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي امْرَأَةٌ مُصِيبَةٌ فَسُكِّفَيْنِ صَبِيَانِكَ ، وَأَمَّا قَوْلُكَ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِدًا ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكَ شَاهِدًا وَلَا غَائِبًا يَكْرَهُ ذَلِكَ . فَقَالَتْ لَا بِنَهَا عَمْرٍ : قُمْ فَزَوِّجْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَزَوِّجْهُ « (١) .

* ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ عَنْ عَمْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، خَطَبَ أُمَّ سَلَمَةَ إِلَى ابْنِهَا عَمْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ ، فَزَوَّجَهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ صَغِيرٌ » (٢) .

* وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ سَيِّدَنَا عَمْرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمَّا زَوَّجَ أُمَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الْعَمْرِ بَضْعُ سَنِينَ ، وَمِثْلُهُ لَا يَزَوِّجُ ، وَلَمَّا قِيلَ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، قَالَ : « مَنْ يَقُولُ إِنَّ عَمْرَ كَانَ صَغِيرًا ؟ » .

* قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : « إِنَّ ثَبْتَ - هَذَا الْأَمْرُ - فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى وَجْهِ الْمَدَاعِبَةِ لِلصَّغِيرِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَفْتَقِرُ نِكَاحَهُ إِلَى وَلِيِّ » (٣) .

* وَنُقِلَ ابْنُ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَقِيلٍ أَنَّهُ قَالَ : « ظَاهِرُ كَلَامِ أَحْمَدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُشْتَرَطُ فِي نِكَاحِهِ الْوَلِيُّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ » (٤) .

* وَاسْتَبْعَدَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ عَمْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى

(١) « سَنَنِ النَّسَائِيِّ » (٦ / ٨١ - ٨٢) ، وَانْظُرْ : « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٨ / ٩١ - ٩٢) ، وَقَوْلُهُ « غَيْرِي » : عَلَى وَزْنِ : فَعْلَى مِنَ الْغَيْرَةِ ؛ أَيِ : هِيَ ذَاتُ غَيْرَةٍ . وَ« مُصِيبَةٌ » : ذَاتُ صَبِيَانٍ . وَ« سَكِّفَيْنِ » : مِنَ الْكِفَايَةِ . وَ« قُمْ فَزَوِّجْ » : قِيلَ : كَانَ عَمْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ صَغِيرًا ، فَالْوَلِيُّ حَقِيقَةٌ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(٢) « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٨ / ٩٢) .

(٣) « زَادُ الْمَعَادِ » (١ / ١٠٧ - ١٠٨) بِتَصَرُّفٍ .

(٤) « زَادُ الْمَعَادِ » (١ / ١٠٨) .

تزويج أمّه أمّ سلمة - رضي الله عنها - ؛ وزعم بأنّ عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - هو الذي زوّجها فقال : « فلَمَّا حَلَّتْ فِي شَوَّالٍ - سنة : ٤ هـ - خطبها رسولُ الله ﷺ إلى نفسها بنفسه الكريمة ، وبعث إليها عمر بن الخطّاب في ذلك مراراً ، فتذكر أنّها امرأةٌ غيـرى - أي : شديدة الغيرة - وأنّها مُصيبةٌ - أي : صبيان يشغلونها عنه ويحتاجون إلى مؤنة تحتاج معها أن تعمل لهم في قوتهم - فقال : « أَمَّا الصَّبِيَّةُ ؛ فإلى الله وإلى رسوله - أي : نفقتهم ليس إليك - وأَمَّا الغيرةُ فأدعو اللهَ فيذهبها » فأذنت في ذلك ، وقالت لعمر آخر ما قالت له : قم فزوّج النَّبِيَّ ﷺ ؛ تعني : قد رضيت وأذنت فتوهّم بعضُ العلماء أنّها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان إذ ذاك صغيراً لا يلي مثله العقد ، وقد جمعتُ في ذلك جزءاً مفرداً بيّنت فيه الصّواب في ذلك والله الحمد والمّة » (١) .

هل لك أمّ مثل أمّه ؟ ! :

* لعمر بن أبي سلمة - رضوان الله عليه - أخبارٌ لطيفةٌ ، وقصصٌ منيفةٌ مع بعض أبناء الصّحابة ؛ ومع بعض أعيان الصّحابة وكبرائهم وعلمائهم .

* فقد كان سيّدنا عبدُ الله بنُ الرُّبِير - رضي الله عنهما - صديقاً لسيّدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - ، وكان ابنُ الرُّبِير يقولُ : « عمرُ أكبرُ مني بستَين » (٢) . وكان ابنُ الرُّبِير يقولُ : « كنتُ أنا وعمر بن أبي سلمة يوم

(١) « البداية والنهاية » (٩٠ / ٤) ، وتابع ابن كثير قوله : « وإنّ الذي ولي عقدها عليه ابنها سلمة بن أبي سلمة ، وهو أكبرُ ولدها ، وساغ هذا لأنّ أباه ابنَ عمّها ، فلابن ولاية أمّه ، إذا كان سبباً لها من غير جهة البُنة بالإجماع ، وكذا إذا كان معتقاً أو حاكماً ، فأما محض البُنة فلا يلي بها عقد النكاح عند الشافعيّ وحده ، وخالفه الثلاثة : أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد رحمهم الله » . « البداية والنهاية » (٩٠ / ٤ - ٩١) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٤٠٨ / ٣) ، و« تهذيب التهذيب » (٤٥٦ / ٧) .

الخدق مع النسوة في أطم - حصن - حسان ، فكان يطأطي لي مرّة ، فأنظر ، وأطأطي له مرّة فينظر » (١) .

* وفي رواية أخرى عن ابن الزبير أنّه : « كان في فارح حسان يوم الخندق ، ومعهم عمر بن أبي سلمة ، فإني لأظلمه يومئذ ، وهو أكبر مني بستين ، فأقول له : تحملني حتّى أنظر ، فإني أحملك إذا نزلت ، فإذا حملني ثمّ سألني أن يركب ، قلت : هذه المرّة » (٢) .

* وكان لسيدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - مكانة كبرى عند فاروق الأمة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب يفضل عمر بن أبي سلمة للسابقة والنسب على غيره من أبناء الصحابة ، فقد فرض لأبناء المهاجرين ممن شهد بدرًا ألفين ، فمرّ به عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - ، فقال : « زيدوه ألفاً » .

فقال محمّد بن عبد الله بن جحش : « لأي شيء تزيده علينا ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما كان لأبائنا ! » .

قال عمر - رضي الله عنه - : « فرضت له بأبي سلمة ألفين ، وزدته

(١) « تاريخ الإسلام » (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ ، ص : ١٦٠) ، نقلًا عن « تهذيب الكمال » (٢ / ١٠١١) .

(٢) المصدر السابق ذاته (ص : ١٦١) ، وفي رواية للبيهقي رحمه الله عن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - قال : « جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم ، ومعهم عمر بن أبي سلمة ، فجعل يطأطي لي ، فأصعد على ظهره ، فأنظر ، قال : فنظرت إلى أبي وهو يحمل مرّة هلهنا ، ومرّة هلهنا ، فما يرتفع له شيء إلا أتاه ، فلمّا أمسى جاءنا إلى الأطم ، قلت : يا أبت ، رأيتك اليوم وما تصنع قال : ورأيتني يا بني ؟ قلت : نعم ، قال : فدّى لك أبي وأمي » . « البداية والنهاية » (٤ / ١٠٧ - ١٠٨) .

بأمّ سلمة - رضي الله عنهما - ألفاً ، فإن كانت لك أمّ مثل أم سلمة زدتك ألفاً » (١) .

* وشهد سيّدنا عمر بن أبي سلمة معركة الجمل مع سيّدنا عليّ ؛ قال الذّهبيّ : « طَلَبَ عليّ من أمّ سلمة أنْ تسيرَ معه نوبة الجمل ، فبعثتْ معه ابنها عمر ، وطال عمره وصار شيخَ بني مخزوم » (٢) .

* وقال ابنُ عبد البرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « وشهد مع عليّ - رضي الله عنه - الجمل ، واستعمله عليّ - رضي الله عنه - على فارس والبحرين » (٣) .

روايته عن النَّبيِّ ﷺ :

* عاش سيّدنا عمرُ بنُ أبي سلمة - رضوان الله عليه - شطراً من حياته بالبيتِ النَّبويّ ينعمُ بظلاله الوارفة بالإيمان ، الهامسة بطاعة الرَّحْمَنِ ، واقتدى في حياته بكثيرٍ من السّمائل المحمّديّة ، وحفظ بعض الأحاديث النَّبويّة .

* قال الإمامُ التَّوويّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « روي له عن رسولِ الله ﷺ اثنا عشر حديثاً ، روى البخاريّ ومسلمٌ منها حديثين » (٤) ، كما أنّ مروياته موجودةٌ في السُّنن الأربعة وغيرها .

* وقد روى سيّدنا عمرُ بنُ أبي سلمة عن النَّبيِّ ﷺ ، وحَدَّثَ أيضاً عن أمّه أمّ سلمة - رضي الله عنها وأرضاها - .

* روى الحديث عنه طائفةٌ من علماء التَّابعين وأعيانهم ، منهم : ابنه

(١) انظر : « شرح حياة الصّحابة » (ص : ٣٢١) بتصرّف .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٠٨) .

(٣) « الاستيعاب » (٢ / ٤٦٧) .

(٤) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٦) ، وانظر : « دليل الفالحين »

(٣ / ١٦٨) . أقول : « أخرج له الطَّبْرانيّ بالمكرّر : ٣٨ حديثاً » .

محمّد بنُ عمر ، وسعيد بنُ المسيّب ، وعروة بنُ كيسان ، وغيرهم (١) .

* وتمتاز مرويات سيّدنا عمر بن أبي سلمة بعدد من الفوائد ؛ إذ وقع فيها من التّصريح بأنّه شاهد النّبيّ ﷺ يفعل ما نقل عنه بالصّورة المحتملة ، وكذلك تعيين المكان الذي شاهده وهو بيت أم سلمة ، وهي والدته ، فقد كان عمرُ ربيب النّبيّ ﷺ ، ورأى ما لم يره غيره .

* فتعالوا نسرح النّظر في هذا الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريّ رحمه الله في صحيحه عن سيّدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - : « أنّه رأى النّبيّ ﷺ يُصلي في ثوب واحد في بيت أم سلمة ، وقد ألقى طرفيه على عاتقيه » (٢) .

* كان سيّدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه - قد تزوّج في حياة النّبيّ ﷺ ، فسأل عن القُبلة للصّائم ، وهذه المسألة جاءت في الصّحيح ؛ إذ أخرج مسلم رحمه الله عن سيّدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - : « أنّه سأل رسول الله ﷺ : أيقبل الصّائم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « سل هذه » - لأم سلمة - فأخبرته : أنّ رسول الله ﷺ يصنع ذلك ، فقال : يا رسول الله ! قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر » فقال له رسول الله ﷺ : « أما والله إنّني لأتقاكم لله ، وأخشاكم له » (٣) .

(١) « تهذيب التهذيب » (٧ / ٤٥٥ - ٤٥٦) ، و« سير أعلام النبلاء »

(٣ / ٤٠٧ - ٤٠٨) . وقال الذهبي رحمه الله في « تاريخه » : « له صحبة ورواية » .

« تاريخ الإسلام » (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ ، ص : ١٦٠) . وقال

ابن حجر رحمه الله : « روى عن النّبيّ ﷺ أحاديث في الصّحيحين وغيرها » .

« الإصابة » (٢ / ٥١٢) .

(٢) أخرجه البخاريّ في الصّلاة ، برقم : (٣٥٥) ، وهو عند مالك ، وأحمد ، والسّنن

الأربعة ، والبيهقيّ ؛ وأبي نعيم الأصبهانيّ ؛ وغيرهم .

(٣) أخرجه مسلم برقم : (١١٠٨) ، والطبراني برقم : (٨٢٩٤) . وقوله « إنّني =

* استدلل الإمام الذهبي رحمه الله من خلال هذا الحديث الشريف على أن سيدنا عمر بن أبي سلمة كان قد احتلم وكبر في حياة النبي ﷺ ، ولم يكن مولده سنة اثنتين من الهجرة فقال في « السير » : « ثم إنه - أي : عمر - في حياة النبي ﷺ تزوج وقد احتلم ، وكبر ، فسأل عن القبلة للصائم ، فبطل ما نقله أبو عمر في « الاستيعاب » من أن مولده بأرض الحبشة سنة اثنتين ، ثم إنه كان في سنة اثنتين أبواه - بل وسنة إحدى - بالمدينة ، وشهد أبوه بدرأ فأئى يكون مولده في الحبشة في سنة اثنتين ؟ بل ولد قبل ذلك بكثير » (١) .

* وفي الموضوع ذاته قال الذهبي رحمه الله في « تاريخه » : « قلت : وكان شاباً في أيام النبي ﷺ ، وتزوج إذ ذاك ، واستفتى النبي ﷺ عن تقبيل زوجته وهو صائم ، وهو أكبر من أخته : درة ، وزينب ، وقد مات أبوه سنة ثلاث ، فلعل مولد عمر قبل عام الهجرة بعام أو عامين » (٢) .

* ومن مرويات سيدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - في مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣) ، ما أخرجه الترمذي رحمه الله وغيره ، عن سيدنا عمر بن

= لأتقاكم الله ، وأخشاكم له » : سبب قول هذا القائل : « قد غفر الله لك » ، أنه ظن جواز التقبيل للصائم من خصائص رسول الله ﷺ ، وأنه لا حرج عليه فيما يفعل ؛ لأنه مغفور له ، فأنكر عليه ﷺ هذا وقال : « أنا أتقاكم الله تعالى وأشدكم خشية » فكيف تظنون بي ، أوتجوزون علي ارتكاب منهبي عنه ونحوه ؟

(١) « سير أعلام النبلاء » (٤٠٧ / ٣) .

(٢) « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ هـ ، ص : ١٦٠) ، وقال الذهبي رحمه الله في « السير » عن سيدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - : « ولد قبل الهجرة بستين أو أكثر ، فإن أباه توفي في سنة ثلاث من الهجرة ، وخلف أربعة أولاد ، لهذا أكبرهم ، وهم : عمر وسلمة ، وزينب ودرّة ، ثم كان عمر هو الذي زوج أمه بالنبي ﷺ ، وهو صبي » . « سير أعلام النبلاء » (٤٠٧ / ٣) .

(٣) قال الشيخ عبد الحق في « اللغات » : « اعلم أنه قد جاء أهل البيت بمعنى من حرم =

أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال : « نزلت هذه الآية على النبي ﷺ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : ٣٣] في بيت أم سلمة ، فدعا النبي ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً ، فجلّلهم بكساء ، وعليّ خلف ظهّره ، فجلّله بكساء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً » . قالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟

قال : « أنتِ على مكانك ، وأنتِ على خير » ^(١) .

= الصدقة عليهم ، وهم : بنو هاشم ؛ فيشمل آل العباس ، وآل عليّ ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل الحارث ؛ فإنّ كلّ هؤلاء يحرم عليهم الصدقة ، وقد جاء بمعنّى أهلهم ﷺ شاملاً لأزواجه المطهّرات ، وإخراج نسائه ﷺ من أهل البيت في قوله : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : ٣٣] مع أنّ الخطاب معهنّ سباقاً وسباقاً ، فأخرجهنّ ممّا وقع في البين يخرج الكلام عن الاتّساق والانتظام . قال الإمام الرّازي رحمه الله : إنّها شاملة لنسائه ﷺ ؛ لأنّ سياق الآية ينادي على ذلك ، فأخرجهنّ عن ذلك ، وتخصيصه بغيرهنّ غير صحيح ، والوجه في تذكير الخطاب في قوله : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، باعتبار لفظ الأهل أو لتغليب الرّجال على النّساء ، ولو أنّ الخطاب لكان مخصوصاً بهنّ ، ولا بدّ من القول بالتّغليب على أيّ تقدير كان ، وإلا لخرجت فاطمة - رضي الله عنها - ، وهي داخلة في أهل البيت بالاتّفاق . « تحفة الأحوذى » (١٠ / ٢٨٧) . وللمزيد من هذا الأمر اقرأ كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » ، وكتابنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » .

(١) أخرجه التّرمذي في التّفسير برقم : (٣٢٥٨) ، وفي المناقب برقم : (٣٨٧٥) ، والطّبراني برقم : (٨٢٩٥) ، وابن جرير في « تفسيره » (٨ / ١٢) ، وهو حديث حسن . وانظر : « تفسير ابن عطية » (ص : ١٥١٢) وغيرها . وقوله « الرّجس » : الشكّ ، وقيل : العذاب ، وقيل : الإثم ، والرّجس : اسم لكلّ مستقذر من عمل . و« يطهركم » : من الأرجاس والأدناس . و« فجلّلهم » : غطّاهم به . و« أنتِ على خير » : معناه : أنتِ خير وعلى مكانك من كونك من أهل بيتي ، ولا حاجة لك في الدّخول تحت الكساء ، كأنّه منعها عن ذلك لمكان سيّدنا =

* وأخرج الطبراني رحمه الله عن عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - : « أن رسول الله ﷺ دخل بيت أم سلمة ، فرأى عندهم مخثاً وهو يقول : يا عبد الله بن أمية ، لو قد فتحت الطائف ، لأريتك بادية بنت غيلان ، وهي تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فقال النبي ﷺ : « لا يدخلن عليكم هؤلاء » (١) .

* وعند الطبراني أيضاً عن عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود : « إن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد ، وإن القرآن أنزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، حلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وضرب أمثال ، وأمر وزاجر ، فحل حلاله ، وحرم حرامه ، واعمل بمحكمه وقف عند متشابهه ، واعتبر أمثاله ، فإن كلاً من عند الله ، وما يتذكر إلا أولو الألباب » (٢) .

* عاش سيّدنا عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - حياة طويلاً فقد عاش الخلافة الراشدة وكان مرعي الجانب (٣) ، ثم عاش خلافة سيّدنا معاوية

= عليّ - رضي الله عن أهل البيت أجمعين ، وحشرنا في معيهم - .

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٩ / ٢٦) ، برقم : (٨٢٩٧) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٩ / ٢٦) ، برقم : (٨٢٩٦) .

(٣) قال ابن قدامة رحمه الله في « التبيين » : « وفيه - أي : عمر - يقول رجل كانت له أرض مجاورة لعمر بن أبي سلمة ، وعاصم بن عمر بن الخطاب : فإن لها جارئين لن يغدرا بها ، ربيب النبي ﷺ ، وابن خير الخلائف » « التبيين » (ص : ٣٤٢) . قال ابن قدامة : « قيل : إن ابن خير الخلائف عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، انتقلت الأرض إليه » . « التبيين » (ص : ٣٤٢) .

أقول : « لعله قصد من قوله : ابن خير الخلائف ، سيّدنا عمر في زمانه ، والله أعلم » .

وشطراً من خلافة بني أمية ، وصار كبير بني مخزوم وشيخهم ومرجعهم ومُعَمَّرهم .

* قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ : « قلت : هو آخر مَنْ مات من الصَّحابة من بني مخزوم » (١) .

* وقال أيضاً : « وطال عمره ، وصار شيخ بني مخزوم » .

* أمّا وفاته فكانت بالمدينة المنورة سنة : (٨٣ هـ) ، أجمَعَ على هذا ثلَّةٌ من كُتَّاب التَّراجم والتَّواريخ ، واتَّفَقُوا على موته أَنَّهُ كان في السَّنة المذكورة (٢) .

* رضي الله عن الصَّحابيِّ ابن الصَّحابيِّ ابن الصَّحابيَّة عمر بن أبي سلمة ، وحشَرنا في زمرة ، وعفأنا ، وأدخلنا برحمته في عباده الصَّالحين ، ورزقنا حسنَ الخاتمة وأكرمنا بقول : « لا إله إلا الله » في كلِّ وقت وحين .



(١) « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ هـ ، ص : ١٦١) .

(٢) انظر مثلاً : « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٦) ، و « الاستيعاب » (٢ / ٤٦٧) ، و « الإصابة » (٢ / ٥١٣) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٦٨٠) وغيرها كثير .

عَمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ

رضي الله عنهما

- * من سادات الصَّحَابَةِ ، له أخبارٌ كثيرةٌ ، وروى (١٨٠ حديثاً) .
- * يُعدُّ من أبناء الصَّحَابَةِ الْعُلَمَاءِ الْقُضَاةِ الْفُقَهَاءِ الْمَجَاهِدِينَ .
- * له كراماتٌ منها أنَّ الملائكة كانت تصافحه وتُسَلِّمُ عليه .

عمران بن حصين رضي الله عنهما

القدوة الإمام :

* أسلمَ هذا الابنُ الصَّاحِبُ هو وأبوه وأبو هريرة في وقتٍ واحد ، سنة سبع ، عام خير .

* أوجز الإمامُ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ صفاته بقوله : « القدوةُ الإمامُ ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ » (١) .

* ولما ذكره ابنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ قال : « أسلمَ هو وأبو هريرة عام خير ، وشهد غزوات ، وكان من سادات الصَّحابة » (٢) .

* وفي أخباره قال القاضي محمَّد بنُ خلف بن حيَّان المعروف بوكيع : « هو وأبوه من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، ورويا جميعهما عن النَّبيِّ ﷺ ، فأما عمران فواسعُ الرواية ، وله أخبارٌ كثيرة » (٣) .

* وعمرانُ الذي نمتعُ الأسماع بسيرته ، ونحلِّي الأفواه بأخباره هو عمرانُ بنُ حصين بن عُبَيْد (٤) ، أبو نُجَيْد الخزاعيِّ الكعبيِّ - رضي الله عنه - ،

(١) « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٨) .

(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ٦٠) .

(٣) « أخبار القضاة » (١ / ٢٩٢) .

(٤) أخبار سيِّدنا عمران كثيرة ومنها في : « البداية والنهاية » (٨ / ٦٠) ، و« دلائل =

وهو أحدُ الأبناءِ التُّجباءِ الذين كانوا من مشهوري الصَّحابة وقُضاتهم وفُقهاءهم وفضلائهم .

* قدّم ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ الشَّخصيَّةَ العمرانيَّةَ موجزةً فقال : « عمرانُ بنُ حصين بن عبيد بن خلف الخزاعيِّ الكعبيِّ ، يكنى أبا نُجيد بابنه نُجيد بن عمران ، أسلمَ أبو هريرة وعمران بن حصين عام خيبر وكان من فضلاء الصَّحابة وفقهاءهم » (١) .

* ويظهرُ لي - والله أعلم - أنَّ سيِّدنا عمران - رضي الله عنه - أسلم قبل أبيه بزمن يسير ؛ لكنَّ « الحاكم » ذكَّرَ في « مستدركه » أنَّ سيِّدنا عمران : « أسلم قديماً هو وأبوه وأخته ، وغزا مع رسولِ الله ﷺ غزواتٍ ، ولم يزلْ في بلادِ قومه ، ثم تحوَّل إلى البصرة ، فنزلَ بها ، إلى أن مات بها » (٢) .

= الثُّبُوتُ « للبيهقيِّ (الفهارس : ٧ / ١٦٥) ، و « معرفة الصَّحابة » (٣ / ٤٧٨ - ٤٨١) ترجمة رقم (٢٢٠٤) . و « زاد المعاد » (الفهارس : ٦ / ٣٦١ - ٣٦٢) ، و « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٣٥ - ٣٦) . ، و « شرح حياة الصَّحابة » (الفهارس : ٤ / ٨١٣) ، و « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٧ - ٢٨١) ، و (٧ / ٩ - ١٢) ، و « الاستيعاب » (٣ / ٢٢ - ٢٣) ، و « تهذيب التَّهذيب » (٨ / ١٢٥ - ١٢٦) ، و « المعجم الكبير » (١٨ / ١٠٢ - ٢٤٣) ، وغيرها كثير جداً .

(١) « الاستيعاب » (٣ / ٢٢ - ٢٣) باختصار وتصرف يسير .

(٢) « المستدرک » (٣ / ٥٣٥) ، وقريبٌ من هذا الذي أورده الحاكم ؛ قال ابن سعد في « الطَّبقات » : عمرانُ بنُ الحصين بن عُبيد يكنى عمرانُ أبا نُجيد ، أسلم قديماً هو ، وأبوه ، وأخته ، وغزا مع رسولِ الله ﷺ غزواتٍ ، ولم يزلْ في بلادِ قومه ، وينزلُ إلى المدينة كثيراً إلى أن قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ ، ومُصِّرَتِ البصرةُ ، فتحوَّلَ إليها ، فنزلها إلى أن ماتَ بها ، وله بها بقيَّةٌ من ولدهِ خالد بن طليق بن محمَّد بن عمران بن الحصين ، وَلِيَ قضاء البصرة . « طبقات ابن سعد » (٧ / ٩ - ١٠) .

* ساق الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي « الإِصَابَةِ » خَبَرًا مُفِيدًا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً بَيِّنَةً عَلَى سَبْقِ إِسْلَامِ عِمْرَانَ لِأَبِيهِ حَصِينٍ ، كَمَا يَدُلُّ الْخَبَرُ عَلَى دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُصَيْنَ بْنِ عُبَيْدٍ إِلَى حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَالنَّجَاحِ وَالْفَلَاحِ ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ رَوَاهَا سَيِّدُنَا عِمْرَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « بَانَ قَرِيشًا جَاءَتْ إِلَى الْحُصَيْنِ - وَكَانَتْ تَعْظُمُهُ - فَقَالُوا لَهُ : كَلِّمْ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ آلِهَتَنَا وَيَسُبُّهُمْ ؛ فَجَاؤُوا مَعَهُ حَتَّى جَلَسُوا قَرِيبًا مِنْ بَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : « أَوْسِعُوا لِلشَّيْخِ » - وَعِمْرَانُ وَأَصْحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ - فَقَالَ حُصَيْنٌ : مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْنَا عَنْكَ أَنَّكَ تَسْتُمُّ آلِهَتَنَا وَتَذْكُرُهُمْ ، وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ حَصِينَةً وَخَيْرًا .

فَقَالَ : « يَا حَصِينُ ! إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ ؛ يَا حَصِينُ كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ ؟ » .

قَالَ : سَبْعًا فِي الْأَرْضِ ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ .

قَالَ : « فَإِذَا أَصَابَكَ الضَّرُّ مَنْ تَدْعُو ؟ » .

قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ .

قَالَ : « فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو ؟ » .

قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ .

قَالَ : « فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ ، وَتَشْرِكُهُمْ مَعَهُ ، أَرْضِيَّتَهُ فِي الشُّكْرِ أَمْ تَخَافُ أَنْ يَغْلِبَ عَلَيْكَ ؟ » .

قَالَ : وَلَا وَاحِدَةً مِنْ هَاتَيْنِ ، وَعِلِمْتُ أَنِّي لَمْ أَكَلِّمْ مِثْلَهُ .

قَالَ : « يَا حَصِينُ ! أَسْلَمَ تَسْلَمَ » .

قَالَ : إِنَّ لِي قَوْمًا وَعَشِيرَةً ، فَمَاذَا أَقُولُ ؟

قَالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَهْدِيكَ لِأَرْشِدِ أَمْرِي ، وَزِدْنِي عِلْمًا يَنْفَعَنِي » .

فقالها حصينٌ ، فلم يَقمَ حتَّى أسلمَ ، فقام إليه عمرانُ ، فقَبَّلَ رأسه ،
ويديه ، ورجليه ، فلَمَّا رأى ذلك النَّبيَّ ﷺ بكى ؛ وقال : « بكيتُ من صنيعِ
عمران ، دخل حُصينٌ وهو كافرٌ ، فلم يَقمَ إليه عمران ، ولم يلتفتْ ناحيته ،
فلَمَّا أسلمَ قضى حقُّه فدخلني من ذلك الرِّقَّة » . فلَمَّا أراد حصينٌ أن يخرجَ قال
لأصحابه : « قوموا فشيِّعوه إلى منزله » ، فلَمَّا خرجَ من سدَّة الباب رآته
قريش ، فقالوا : صَبَأً ، وتفرَّقوا عنه ^(١) .

(١) « الإصابة » (١ / ٣٣٦ - ٣٣٧) . وقوله « متوافرون » : كثيرون .
و« حصينة » : المراد : شديد الإحكام لدين آبائِهِ وأجدادِهِ ومعتقداته . و« إنَّ أبي
وأباك في النَّار » : هذا الكلامُ منه ﷺ من حُسْن العشرةِ للتَّسْلِيَةِ بالاشتراكِ في
المصيبة ؛ قال الإمامُ التَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ : « فيه أنَّ مَنْ ماتَ على الكُفْرِ فهو في النَّار ،
ولا تنفعه قرابة المقرَّبين ، وفيه أنَّ مَنْ ماتَ في الفترة على ما كان عليه العرب من عبادة
الأوثان فهو من أهل النَّار » . و« قوموا فشيِّعوه » : اخرجوا معه لوداعه . و« سُدَّة
الباب » : السُدَّة كالظِّلَّة على الباب لِتَقِي البابَ من المطر ؛ وقيل : الباب نفسه ،
وقيل : السَّاحة بين يديه . و« صَبَأً » : خرجَ من دينه ، واختارَ دينَ مُحَمَّد
رسولِ الله ﷺ ، واللهُ تعالى أعلم . وجاءَ في « الاستيعاب » في ترجمة حصينِ والدِ
عمران بن حصين - رضي الله عنهما - أنَّ : « حصينَ روى عنه ابنه عمران بن حصين والد
حديثاً مرفوعاً في إسلامه ، وفي الدَّعاء ، وروى عن الحسن البصريِّ أنَّه قال : بلغنا
أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له : « يا حُصينُ ما تعبدُ ؟ » .

قال : أعبدُ عشرةَ آلهه .

قال : « وما هم وأيهم ؟ » .

قال : تسعة في الأرض ، وواحد في السَّماء .

قال : « فمن لحاجتك ؟ » .

قال : الذي في السَّماء .

قال : « فَمَنْ لطلبتك ؟ » .

قال : الذي في السَّماء .

قال : « فمن لكذا ، فمن لكذا ؟ » كلَّ ذلك يقول الذي في السَّماء .

* وأكَّدَ الإمامُ أحمدُ إسلامَ حُصَيْنٍ في حديثٍ أخرجه بسنده عن عمران بن حصين أو غيره « أَنَّ حُصَيْنًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال : يا مُحَمَّدُ ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ كَانَ خَيْرًا لِقَوْمِهِ مِنْكَ ! كَانَ يَطْعُمُهُمُ الْكَبْدَ وَالسَّنَامَ ، وَأَنْتَ تَنْحَرُهُمْ . فقال له النَّبِيُّ ﷺ ما شاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ .

فقال له : ما تأمرني أن أقول ؟

قال : « قل : اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدٍ أَمْرِي » . فانطلق ، فأسلمَ الرَّجُلُ ، ثُمَّ جَاءَ ، فقال : « إِنِّي أَتَيْتُكَ فَقُلْتَ لِي : قل : قِنِي شَرَّ نَفْسِي وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدٍ أَمْرِي ، فما أقول الآن ؟

قال : « قل : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ ، وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَخْطَأْتُ ، وَمَا عَمِدْتُ ، وَمَا عَلِمْتُ ، وَمَا جَهِلْتُ » ^(١) .

فقيه البصرة وقاضيه :

* حينما انتظم سيِّدنا عمران بن حُصَيْنٍ - رضي الله عنهما - في صفوف الصَّحابة الكرام ، رَغِبَ في العِلْمِ ، وأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ ثُلَّةِ الصَّحابةِ العُلَماءِ ؛ فقد كان رسولُ اللَّهِ ﷺ والذين معه يَرِغَّبُونَ في العِلْمِ الإلهيِّ وَيُرَغَّبُونَ فيه ، وَيُعَلِّمُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ ما فيه من الإيمان والعمل ، ويشغلون به في ظعنهم

= قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فَأَلْغِ التَّسَعَةَ » . « الاستيعاب » (١ / ٣٣٢) بتصرف يسير .

(١) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » (٧ / ٢٢٧) ، برقم : (٢٠٠١٢) .

أقول : « يظهر أَنَّ عُبيدَ بْنَ خُلْفٍ والدَ حُصَيْنٍ وجدَّ عمران كان مَمَّنْ يَعْمَلُ الْخَيْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِدَلِيلِ ما جاء في « أخبار القضاة » عن سيِّدنا عمران بن حُصَيْنٍ ؛ أَنَّ أَبَاهُ حُصَيْنَ بْنَ عُبيد قال : قلت : يا رسولَ اللَّهِ ! أَرَأَيْتَ رَجُلًا كَانَ يَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَفُكُّ الْعَانِي ، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ ، فَهَلْكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ ! فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « هُوَ فِي النَّارِ » .

قال : فما أَتَتْ عَلَى عُبيدِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى مَاتَ مُشْرِكًا . « أخبار القضاة » (١ / ٢٩٢) . وانظر : « الإصابة » (١ / ٣٣٦) .

وإقامتهم ، وعُسْرِهِم ويُسْرِهِم ، كما كانوا يجمعون بين العِلْم والجهد والكسب ، وكان الخلفاء الرَّاشِدون - رضي الله عنهم - يرسلون الصَّحابة العلماء إلى البلدان لينشروا العِلْم ، ويفقهوا النَّاس في أمور الدِّين وأحكامه .

* فقد وقع اختيارُ الخليفة الرَّاشِدِيِّ عمر - رضي الله عنه - على سيِّدنا عمران بن حُصَيْن - رضي الله عنهما - ، وأرسله إلى البصرة ليفشي العِلْم والفقه بين أهلها ، أورد ابنُ سعد رَحِمَهُ اللهُ بسنده عن أبي الأسود الدَّوْلِيِّ قال : « قدِمْتُ البصرةَ وبها عمرانُ بنُ الحُصَيْن أبو التُّجِيد - رضي الله عنه - ، وكان عمر بنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - بعثَهُ يفقهُ أهلَ البصرة » (١) .

* وفي البصرة تفرَّغَ سيِّدنا عمرانُ بنُ حُصَيْن - رضي الله عنهما - للعلم وتعليم النَّاس ، بعد أن اشتعلَ رأسُه شيباً ، بيد أن فِكره يتوقَّد ذكاءً وفطنةً وهو يحدثُ النَّاس ، ويتحفهم بألوانِ المعارف ، فقد ذكر ابنُ سعد عن هلال بنِ يَسَاف قال : « قدِمْتُ البصرةَ ، فدخلتُ المسجدَ ، فإذا أنا بشيخٍ أبيضَ الرأسِ واللحيةِ مُسْتَنَدٌ إلى أسطوانة في حلقة يحدثهم ، فسألتُ : مَنْ هَذَا ؟ قالوا : عمرانُ بنُ حُصَيْن - رضي الله عنهما - » (٢) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٧ / ١٠) ، وانظر : « الإصابة » (٣ / ٢٧) ، و« المعجم الكبير » (١٨ / ١٠٣) ، و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٤٧٩) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٧ / ١٠ - ١١) . وقد أخرج الحاكم هذا الخبر بسنده عن هلال بن يساف قال : « انطلقتُ إلى البصرة ، فدخلتُ المسجدَ ، فإذا شيخٌ مُسْتَنَدٌ إلى أسطوانة يحدث يقولُ : قال رسولُ الله ﷺ : « خيرُ النَّاسِ قرني ، ثمَّ الذي يلونهم ، ثمَّ الذين يلونهم ، ثمَّ يأتي أقباطٌ يعطون الشَّهادة قبل أن يُسألوها » فقلتُ : مَنْ هَذَا الشَّيْخ ؟ قالوا : عمرانُ بنُ حُصَيْن - رضي الله عنهما - . « المستدرک » (٣ / ٥٣٥) . وقال الحاكم : « هذا حديثٌ عالٍ صحيحٌ على شرط الشَّيْخَيْن ولم يخرجاه » . وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في « التَّلْخِيس » : على شرط البخاري ومسلم .

* كان سيّدنا عمران - رضي الله عنه - يلبسُ الخُرَّ ، وهذا ما جاء عند ابن سعد عن أبي رجاء العطارديّ قال : « خرج علينا عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - في مطرٍ خُرٌّ لَمْ نَرَهُ عليه قطّ قبل ولا بعد ، فقال : قال رسولُ الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » (١) .

* شهد لسيّدنا عمران بالفضل والعلم كبار علماء البصرة من التّابعين وأعيانهم وفضلائهم ، ومن هؤلاء الأعيان الأعلام العالم العليم الشّهير : محمّد بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ ، وكذلك العالمُ الزّاهد محمّد بن المنكدر رَحِمَهُ اللهُ ، فقد قال هذان المحمّدان : « ما قدم البصرة أحدٌ من أصحاب النّبِيِّ ﷺ يُفَضَّلُ عَلَى عمرانَ بنِ حصين - رضي الله عنهما - » (٢) .

* كان سيّدنا عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - أديباً لَمَاحاً يَحِبُّ شِعْرَ الحِكمة ، فكان يتحف أصحابه بنفيس الآداب ، قال الإمامُ القدوةُ الحجةُ مُطَرِّفُ بنُ عبد الله بن الشّخير رَحِمَهُ اللهُ : « خرجتُ مع عمرانَ بنِ حُصين - رضي الله عنهما - من الكوفةِ إلى البصرة ، فما أتى علينا يومٌ إلا ينشدنا فيه شعراً ويقول : إِنَّ لَكُمْ فِي المعاريضِ لَمُنْدُوحَةً عَنِ الكَذِبِ » (٣) .

(١) المصدر السابق نفسه (١٠ / ٧) .

(٢) انظر : « طبقات ابن سعد » (٢٨٧ / ٤) ، و « معرفة الصّحابة » (٤٧٩ / ٣) ، و « المستدرک » (٥٣٦ / ٣) . وكذلك قال الحسن البصريّ ، وعندما ترجم ابنُ العماد في « شذراته » لسيّدنا عمران قال : « عمران بن حصين الخزاعيّ ، كثير المناقب ، ومن أهل السّوابق ، بعثه عمر يفتّهُ أهل البصرة ، وتولّى قضاءها ، وكان الحسنُ البصريّ يحلفُ بالله ، ما قدمها خيرٌ من عمرانَ بنِ حصين - رضي الله عنهما - » « شذرات الذهب » (٢٤٩ / ١) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٢٨٧ / ٤) . قال أبو الفضل الميدانيّ في « مجمعه » : « إِنَّ =

* وفي مجال القضاء والحكم بما أنزل الله تعالى كان سيّدنا عمران - رضي الله عنه - من خيرة قضاة البصرة وفقهائها ، إلا أنه رفض أن يتابع هذه المسؤولية ، واعتذر إلى الوالي ، وطلب منه أن يعزله .

* روي أن عبيد الله بن زياد استقضى سيّدنا عمران بن حصين - رضي الله عنهما - ، وخلال فترة قيامه بمهمته اختصم إليه رجلان في قضية ، فقامت على أحدهما البيّنة ولزمته الحجّة ؛ فقضى سيّدنا عمران عليه بما ثبت من الأدلّة ، بيد أن الرّجل لم يرضَ بالحكم ، وقال لسيّدنا عمران - رضي الله عنه - وهو خارجٌ من المقصورة : « يا أبا نُجيد ! والله لقد قضيتَ عليّ بالجور ، ولم تألُ عن الحقّ ، فوالله إنّها لباطل » .

قال سيّدنا عمران - عليه سحائب الرّضوان - : « الله الذي لا إله إلا هو ؟ ! » .

قال الرّجل : « نعم ، لقد قضيتَ بجور » .

قال سيّدنا عمران : « وكيف ذاك ؟ » .

فقال الرّجل : « يا أبا نُجيد ، لقد شهدَ عليّ برّور » .

فقال له سيّدنا عمران - رضي الله عنه - : « يا هذا ! ما قضيتَ به عليك فهو في مالي ، ووالله لا جلستَ هذا المجلس أبداً » .

= في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، هذا من كلام عمران بن حصين - رضي الله عنهما - . والمعارض : جمع المعارض ؛ يقال : عرفت ذلك في معارض كلامه ؛ أي : في فحواه . قلتُ : أجودُ من هذا أن يُقال : التّعريض ضدّ التّصريح ، وهو أن يلغزَ كلامه عن الظاهر ، فكلامه معرّض ، والمعارضُ جَمْعُهُ . ثمّ لك أن تثبتَ الياء وتحذفها ، والمندوحة : السّعة ، وكذلك التُّدْحَة ، يقال : إنّ في كذا ندحة ؛ أي : سعة وفسحة . يُضرب - هذا المثل - لمن يحسب أنه مضطر إلى الكذب » . « مجمع الأمثال » (١ / ٢٠) .

ثُمَّ إِنَّ سَيِّدَنَا عِمْرَانَ رَكِبَ ؛ فَدَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، وَقَالَ لَهُ : « اعْزِلْنِي عَنِ الْقَضَاءِ » .

قال ابنُ زيادٍ : « مهلاً يا أبا الثَّجِيدِ » .

قال سَيِّدُنَا عِمْرَانُ : « لا والله الذي لا إله إلا هو ، لا أقضي بين رجلين ما عبدتُ الله - عزَّ وجلَّ - » ^(١) .

* ومن محاسن أخبار سَيِّدَنَا عِمْرَانَ التي تدلُّ على ورعه وعلمه وزهده في الدُّنْيَا ، إنكاره عن قبولِ إمارة مقاطعة كبيرة وبلدة شهيرة ، وأثر السَّلامة لنفسه ولغيره ، بل أثر طاعة الله - عزَّ وجلَّ - على طاعة المخلوقين مهما بلغت رتبُهم ، فهو من أبناء الصَّحابة الذين لا يخضعون إلا لله تعالى .

* فمن التَّوَاسِمِ العِمْرَانِيَّةِ الباسمة النَّاعمة الموحية ؛ ما أخرجه الإمام أحمد رحمَهُ اللهُ عن عبد الله بن الصَّامِت - رضي الله عنه - قال : « أراد زيادُ أن يبعثَ عِمْرَانَ بنَ حصين - رضي الله عنهما - على خراسان ، فأبى عليه ، فقال له أصحابه : أتركتَ خراسانَ أن تكونَ عليها ؟

فقال : إنِّي والله ما يسرُّني أن أصلي بِحَرْهَا ، ويصلون ببردِها ، إنِّي أخافُ إذا كنتُ في نَحْرِ العدوِّ أن يأتيني بكتابٍ من زيادٍ فإن أنا مضيتُ هَلَكْتُ ، وإن رجعتُ ضَرَبْتُ عُنْقِي .

قال : فأرادَ الحَكَمَ بنَ عمرو الغفاريَّ عليها ، فانقادَ لأمره ، فقال عِمْرَانُ : ألا أحدُّ يدعولي الحَكَمَ .

قال : فانطلقَ الرَّسُولُ ؛ فأقبلَ الحَكَمُ إليه ، فدخلَ عليه ، فقال عِمْرَانُ للحَكَمَ : أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول : « لا طاعةَ لأحدٍ في

(١) انظر : « أخبار القضاة » (١ / ٢٩١) ، و « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٧) مع الجمع والتصرّف .

معصية الله - تبارك وتعالى ؟ - قال : نعم فقال عمران : الحمد لله ،
أو الله أكبر « (١) .

* وفي رواية : « أَنَّ زِيَادًا اسْتَعْمَلَ الْحَكَمَ بْنَ عَمْرِو الْغَفَارِيِّ ، فَقَالَ
عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « وَدِدْتُ أَتَى أَلْقَاهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ ،
فَلَقِيَهُ ، فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ : أَمَا عَلِمْتَ ، أَوْ مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ : « لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؟ - » .

قال : بلى .

قال : فذاك الذي أردت أَنْ أَقُولَ لَكَ « (٢) .

التزامه بالهدي النبوي :

* اهتمَّ الصَّحابة وأبناءؤهم أجمعون - رضي الله عنهم أجمعين - باجتماع

(١) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » (٧ / ٣٦٣ - ٣٦٤) ، حديث
رقم : (٢٠٦٧٩) . و« خراسان » : كانت مقاطعة كبيرة من الدولة الإسلامية ،
تتقاسمها اليوم إيران الشرقية « نيسابور » وأفغانستان الشمالية « هراة وبلخ » ،
ومقاطعة تركمانستان « مرو » . « المعالم الأثيرة » (ص : ١٠٨) . و« تكون
عليها » : تكون والياً عليها . و« أصلى بحرّها ويصلون ببردها » : معناها :
ما يعجبني أن أقاسي شدة الإمارة وأوساخها ، وزباد وأصحابه يختصون بهنيئها
ولذاتها ، فكما أَنَّ زِيَادًا وأقاربه يختصون بهنيئ الإمارة ولذاتها ، كذلك عليهم أن
يتولوا كدرها وقاذوراتها . و« الحكم بن عمرو الغفاري » : صحابي له أحاديث ،
ولسي خراسان ، ومات بمرو سنة ٤٥ هـ ، أو ٥٠ هـ ، أو ٥١ هـ . و« لا طاعة
لأحد . . . » : يريد ولاية الأمر إذا أمروا بما فيه معصية كالقتل ، والقطع ونحوه .

(٢) « المسند » (٧ / ٣٦٥) ، حديث رقم : (٢٠٦٨٦) . وفي رواية أخرى أَنَّ سَيِّدَنَا
عِمْرَانَ قَالَ لِلْحَكَمِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَذْكُرَكَ هَذَا الْحَدِيثَ » ،
وفي رواية أخرى قال : « فَكَبَّرَ عِمْرَانُ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - » « المسند »
(٧ / ٢٠٤) .

الكلمة ، واتّحاد الأحكام ، واتّباع الهدي النبويّ في القول والعمل ، وحرصوا على هذه الأمور حرصاً شديداً ليلقوا الله - عزّ وجلّ - وهو راضٍ عنهم .

* وسيّدنا عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - أحدُ أبناء الصّحابة الذين اجتهدوا في السّير على التّهجّ النبويّ ، والدّرب السّويّ ، والارتواء من المعين الرّويّ ، والعمل على مرضاة الرّبّ العليّ ؛ فيما يوكلُ إليهم من أعمال ، أخرج الحاكمُ عن إبراهيم بن عطاء عن أبيه : « أنّ زياداً أو ابن زياد بعثَ عمرانَ بنَ حصين - رضي الله عنهما - ساعياً ، فجاء ولم يرجع معه درهم ، فقال له : أين المال ؟

قال : وللمالِ أرسلتني ؟ ! أخذناها كما كنّا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ، ووضعناها في الموضع الذي كنّا نضعها على عهد رسول الله ﷺ » (١) .

* كان سيّدنا عمرانُ - رضي الله عنه - يرعّبُ في الاتّباع ، وينهى عن الابتداع ، فقد أخرج الإمامُ أحمد عن سيّدنا عمران بن حصين - رضي الله عنهما - قال : « نزل القرآن ، وسرّ رسولُ الله ﷺ السّننَ ، ثمّ قال : اتّبِعونا فوالله ، إن لم تفعلوا تضلّوا » (٢) .

* والاتّباعُ الذي يقصّدهُ سيّدنا عمران - رضي الله عنه - هو الالتزامُ الرّئيس بكتابِ الله - عزّ وجلّ - ، وبالسّنة النبويّة ؛ إذ إنّ كلا المصدرين هما سبيل السّعادة الأبدية وسبيل الفلاح في الدّنيا والآخرة ، ثمّ يحضُّ سيّدنا عمران على الاقتداء بالسّلف ، والإنكار على البدعة ، فقد أخرج ابنُ عبد البرّ رحمه الله

(١) « المستدرک » (٣ / ٥٣٥) ، حديث رقم : (٥٩٨٩) ، وقال أبو عبد الحاكم : « هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وقال الذهبي رحمه الله في التّليخيص : « صحيح » . وقوله « أخذناها » ؛ أي : المال ، وهو يذكر ويؤنّث .

(٢) « المسند » (٧ / ٢٢٨) ، حديث رقم : (٢٠٠١٨) .

في « جامع بيان العلم وفضله » عن سيّدنا عمران بن حصين - رضي الله عنهما - : « أنّه قال لرجل : إِنَّكَ امرؤٌ أحْمَقُ ، أَتَجِدُ في كتابِ اللهِ الظُّهرَ أربعاً لا تُجَهِّرُ فيها بالقراءة ؟ ثُمَّ عَدَدَ عليه الصَّلَاةَ والزَّكَاةَ ، ونحو هذا ، ثُمَّ قال : أَتَجِدُ في كتابِ اللهِ مُفَسِّراً ؟ إِنَّ كتابَ اللهِ أبهمَ هذا وإنَّ السُّنَّةَ تفسِّرُ ذلك » (١) .

* وذكر البيهقيّ موقفاً يسيِّرُ إلى غضب سيّدنا عمران على رجلٍ لم يلتزم المنهجَ السَّويَّ ، ولم يَرِدِ المنهلَ الرَّويَّ ، ولم يفتَفِ الأثرَ النَّبويَّ ، والسَّبيلَ المصطفويَّ ، ثُمَّ علّمه الصَّوابَ الجليَّ .

* أخرج البيهقيّ في « الدلائل » عن شبيب بن أبي فضالة المالكيّ قال : « لَمَّا بُنِيَ هذا المسجدُ - مسجد الجامع - إذا عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - جالسٌ ، فذكروا عند عمران الشِّفاعةَ ، فقال رجلٌ من القوم : يا أبا الثَّجيد ! إِنَّكُمْ لتحدِّثوننا بأحاديثٍ لم نجدُ لها أصلاً في القرآن ؟

قال : فغضبَ عمرانُ - رضي الله عنه - ، وقال لرجلٍ : قرأتَ القرآن ؟ قال : نعم .

قال : فهل وجدتَ صلاةَ العشاءِ أربعاً ، ووجدتَ المغربَ ثلاثاً ، والغداةَ ركعتينَ ، والظُّهرَ أربعاً ، والعصرَ أربعاً ؟ ! قال : لا .

قال : فَعَمَّنْ أخذتم هذا الشَّانَ ؟ أَلستم عَنَّا أخذتموه ، وأخذنا عن نبيِّ الله ﷺ ، ووجدتم في كلِّ أربعين درهماً ، وفي كلِّ كذا شاةً كذا ، وفي كلِّ كذا بعبيراً كذا ، أوجدتم في القرآن هذا ؟ !

(١) « شرح حياة الصَّحابة » (٣ / ٦٩٩) نقلاً عن « جامع بيان العلم » (٢ / ١٩١) .

قال : لا .

قال : فعَمَّنْ أخذتم هذا ؟ أخذناه عن النَّبِيِّ ﷺ وأخذتموه عَنَّا .

وقال : وجدتم في القرآن : ﴿ وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩] ، أَوْجَدْتُمْ : فطوفوا سبعا ، واركعوا ركعتين من خلف المقام ؟ أوجدتم هذا في القرآن ؟ فعَمَّنْ أخذتموه ؟ أَلستم أخذتموه عَنَّا ، وأخذناه عن رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأخذتموه عَنَّا ؟

قالوا : بلى .

قال : أوجدتم في القرآن لا جَلَبَ ، ولا جَنَبَ ، ولا شِغَارَ في الإسلام ؟ أوجدتم هذا في القرآن ؟

قالوا : لا .

قال عمران : فَإِنِّي سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « لا جَلَبَ ولا جَنَبَ ولا شِغَارَ في الإسلام » .

قال : سمعتم الله تعالى قال في كتابه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا خُلُودًا مَّا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ ﴾ [الحشر : ٧] ، قال عمران : فقد أخذنا عن نبيِّ اللَّهِ ﷺ أشياء ليس لكم بها علم .

قال : ثمَّ ذكر الشَّفَاعَةَ ، فقال : هل سمعتم الله تعالى يقول لأقوام : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ ٤٢ ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ ٤٣ ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴾ ٤٤ ﴿ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ ٤٥ ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ٤٦ ﴿ حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ ﴾ ٤٧ ﴿ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدر : ٤٢ - ٤٨] ، قال شبيب : فَأنا سمعتُ عمران يقول : الشَّفَاعَةُ نَافِعَةٌ دُونَ مَا تَسْمَعُونَ ^(١) .

(١) « دلائل النبوة » (١ / ٢٥ - ٢٦) . وقوله « جَلَب » بمعنى : الجلبة ، وهي التصويت . و« جَنَبَ » المعنى : أن يتخذ الفرس جنبيةً إلى جانب فرسه عند السِّبَاق ، =

صُحْبَةُ رَشِيدَةٍ وَأَحْكَامُ سَدِيدَةٍ :

* سَيِّدُنَا عِمْرَانُ - رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - مِنْ نِبْلَاءِ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ وَنِبَهَاثِهِمْ ، وَقَدْ أَسْفَرَتِ الصُّحْبَةُ النَّبَوِيَّةُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي أُثِرَتْ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ مِنْ مُحِبِّي الْعِلْمِ بِجَمِيعِ أَلْوَانِهِ وَأَشْكَالِهِ ؛ فَقَدْ شَهِدَ بَعْضُ الْمَشَاهِدِ وَالْمَغَازِي وَالْأَسْفَارِ ، وَحَظِيَ خِلَالُهَا بِالْعِلْمِ ؛ وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الصُّحْبَةِ نَتَعَرَّفُ قِصَّةً مَاتَعَةً فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ دَلَائِلِ التَّبَوُّةِ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْفَوَائِدِ الَّتِي رَافَقَتْ مَسِيرَةَ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي حَيَاةِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ ، وَعَايِنَهَا سَيِّدُنَا عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، وَمَنْ ثَمَّ رَوَاهَا لِلْأُمَّةِ بِأَسْلُوبِهِ الرَّقِيقِ الْأَنِيقِ الرَّصِينِ ، الْمَمْزُوجِ بِالتَّفَحُّاتِ الْبَلَاغِيَّةِ ، وَنَوَاسِمِ الْأَزَاهِرِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَبَسَاتِنِ الْمَعَانِي الْعِمْرَانِيَّةِ ، فَلَنَفْزِعَ إِلَى مَا جَاءَ فِي « الصَّحِيحَيْنِ » وَغَيْرِهِمَا ، لِنَقْرَأَ مَا جَادَتْ بِهِ قَرِيحَةُ سَيِّدِنَا عِمْرَانَ الَّتِي جَنَاهَا مِنْ ثَمَرَاتِ الصُّحْبَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَفَوَائِدِهَا التَّرْبَوِيَّةِ ، وَمَنْ ثَمَّ نَسْتَفِيدُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالدَّرُوسِ الْمُنْهَجِيَّةِ ، الَّتِي جَاءَتْ بَيْنَ أَرْدَانِ الْقِصَّةِ ، وَثَنَايَا أَكْمَامِهَا .

* أَخْرَجَ إِمَامَا أَهْلِ الْحَدِيثِ ، وَشَيْخَا هَذَا الشَّأْنِ الْمُبَارَكِ : الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - فِي « صَحِيحَيْهِمَا » ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ : الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَابَيْهَقِيُّ ، وَالْأَصْبَهَانِيُّ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - بِسَنَدٍ عَنْ سَيِّدِنَا عِمْرَانَ بْنِ حُصِينٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : « كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَإِنَّا أَسْرِينَا ؛ حَتَّى إِذَا كُنَّا فِي آخِرِ اللَّيْلِ وَقَعْنَا وَقْعَةً وَلَا وَقْعَةً أَحَلَّى عِنْدَ الْمُسَافِرِ مِنْهَا ، فَمَا أَيْقَظُنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَيْقَظَ فُلَانٌ ، ثُمَّ فُلَانٌ ، ثُمَّ فُلَانٌ ، ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الرَّابِعُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَامَ لَمْ يُوقَظْ حَتَّى يَكُونَ هُوَ يَسْتَيْقِظُ ؛ لِأَنَّا لَا نَدْرِي مَا يَحْدُثُ لَهُ فِي نَوْمِهِ . فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ ، وَرَأَى مَا أَصَابَ النَّاسَ - وَكَانَ رَجُلًا جَلِيدًا - فَكَبَّرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ ، فَمَا زَالَ يَكْبُرُ

= فَإِذَا شَارَفَ الْغَايَةَ انْتَقَلَ إِلَيْهَا ؛ لِأَنَّهُ أُودِعَ فَسَبَقَ عَلَيْهِ . وَ« الشَّغَار » : أَنْ يَزُوجَ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ عَلَى أَنْ يَزُوجَهُ الْآخَرُ ابْنَتَهُ وَلَا صَدَاقَ بَيْنَهُمَا .

ويرفعُ صوته بالتكبير ، حتَّى استيقظَ بصوته النَّبِيُّ ﷺ ، فلمَّا استيقظَ شكوا إليه الذي أصابهم ، قال : « لا ضيرَ - أولاً يضيرُ - ارتحلوا » ، فارتحلَ ، فسار غير بعيد ، ثمَّ نزلَ فدعا بالوضوء فتوضَّأ ، ونودي بالصَّلاة ، فصلَّى بالنَّاسَ ، فلمَّا انفتلَ من صلاته ، إذا هو برجلٍ معزِلٍ لم يُصَلِّ مع القوم ، قال : « ما منعك يا فلانُ أنْ تصلي مع القوم ؟ » .

قال : أصابتني جنابةٌ ولا ماء .

قال : « عليك بالصَّعيد فإنَّه يكفيك » .

ثمَّ سارَ النَّبِيُّ ﷺ ، فاشتكى إليه النَّاسُ من العطش ، فنزلَ ؛ فدعا فلاناً - كان يسمِّيه أبو رجاء نَسِيَه عوف - ودعا عليّاً ، فقال : « اذهبا فابتغيا الماء » ، فانطلقا ، فتلقيا امرأةً بين مَزَادَتَيْنِ - أو سَطِيحَتَيْنِ - من ماء على بعير لها ، فقالا لها : أين الماء ؟

قالت : عهدي بالماء أمسِ هذه السَّاعة ، ونفرنا خُلُوفاً ، قالا لها : انطلقي إذاً .

قالت : إلى أين ؟

قالا : إلى رسولِ الله ﷺ .

قالت : الذي يُقالُ له الصَّابئ ؟

قالا : هو الذي تعنين ، فانطلقي .

فجاءا بها إلى النَّبِيِّ ﷺ وحَدَّثَاهُ الحديث ، فاستنزلهما عن بعيرها ، ودعا النَّبِيُّ ﷺ بإناء ففرَّغَ فيه من أفواه المَزَادَتَيْنِ - أو السَّطِيحَتَيْنِ - وأوكأ أفواههما ، وأطلقَ العزالي ، ونودي في النَّاسَ : اسقوا واستقوا ، فسَقَى مَنْ شاء ، واستقَى مَنْ شاء ، وكان آخرَ ذاك أنْ أعطى الذي أصابته الجنابةُ إناءً من ماء ، قال : « اذهب فأفرغه عليك » . وهي قائمةٌ تنظرُ إلى ما يُفعل بمائها ، وإيْمُ الله لقد أفلَحَ عنها ، وإنَّه ليخيْلُ إلينا أنَّها أشدُّ مِلَّةً منها حين ابتدأ فيها . فقال

النَّبِيُّ ﷺ : « اجمعوا لها » فجمعوا لها - من بين عجوة ودقيقة وسويقة - حتى جمعوا لها طعاماً ، فجعلوها في ثوب ، وحملوها على بغيرها ، ووضعوا الثوب بين يديها ، قال لها : « تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً ، ولكن الله هو الذي أسقانا » .

فأتت أهلها وقد احتبست عنهم ، قالوا : ما حبسك يا فلانة ؟ قالت : العجب ، لقيني رجلان ، فذهبا بي إلى هذا الذي يُقال له الصَّابئ ، ففعل كذا وكذا ، فوالله إنه لأسحرُ النَّاسِ من بين هذه وهذه - وقالت بإصبعيها الوسطى والسَّبَّابة فرفعتهما إلى السَّمَاء تعني السَّمَاء والأرض - أو إنه لرسولُ الله حقاً ، فكان المسلمون بعد ذلك يُغيرون على مَنْ حولها من المشركين ، ولا يصيبون الصَّرمَ الذي هي منه ، فقالت يوماً لقومها : ما أرى إنَّ هؤلاء القوم يدعونكم عمداً ، فهل لكم في الإسلام ؟ فأطاعوها ، فدخلوا في الإسلام ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في التَّيَمِّم برقم : (٣٤٤) ، واللفظُ له . وأخرجه برقم : (٣٤٨ - ٣٥٧١) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصَّلَاة برقم : (٦٨٢) ، وأحمد في « المسند » (٧ / ٢٠٩ - ٢١٠) ، حديث رقم : (١٩٩١٩) ، والبيهقي في « دلائل الثبوت » (٤ / ٢٧٧ - ٢٧٩) وأيضاً (٦ / ١٣٠ و ١٣١) ، وأبو نُعَيْم الأصبهاني في « دلائل الثبوت » (٢ / ٥٢٧ - ٥٣١) ، برقم : (٣٢٠) ، و« المعجم الكبير » (١٨ / ١٣٢ - ١٣٤) ، و« البداية والنهاية » (٦ / ٩٨) ، وغيرها . وقوله « سفر » : قيل : عند رجوعهم من خيبر ، وقيل : بطريق تبوك ، وقيل : في الحديبية ؛ والله تعالى أعلم . و« أسرينا » : سرنا في الليل . و« كان أوَّل من استيقظ » : أبو بكر ، والثَّانِي عمران راوي القصة . و« لا ندرى ما يحدث له » : كانوا يخافون من إيقاظه قطع الوحي فلا يوقظونه لاحتمال ذلك . و« جليداً » : صلباً قوياً جهير الصوت ، وفي استعمال سيّدنا عمر - رضي الله عنه - التَّكْبِير سلوك طريق الأدب والجمع بين المصلحتين ، وخصَّ التَّكْبِير ؛ لأنَّه أصلُ الدُّعاء إلى الصَّلَاة . و« الذي أصابهم » : من نومهم عن صلاة =

* وهكذا لاحظنا الفوائد المهمة ، والفضائل الجمّة ؛ التي ساقها سيّدنا عمران - رضي الله عنه - من خلال هذا الحديث ، الذي روته كبريات المصادر الموثوقة ، وأمّهات كتب الحديث النبوي الشريف ، كما لاحظنا أنّ سيّدنا عمران - رضي الله عنه - كان يحضر المغازي النبويّة بمعيّة رسول الله ﷺ .

* أخرج الإمام البيهقي رحمه الله في « الدلائل » عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - ، قال : « غزوت مع النبي ﷺ وشهدت معه الفتح ، فأقام بمكة ثمان عشرة ليلة ، لا يصلي إلا ركعتين يقول : « يا أهل البلد صلّوا أربعاً فإنّا قومٌ سَفَرٌ » (١) .

= الصّبح حتّى خرج وقتها . و« لا ضير » : لا ضرر ، وفيه تأنيسٌ لقلوب الصّحابة لما عرض لهم من الأسف على فوات الصّلاة في وقتها بأنّهم لا حرج عليهم ؛ إذ لم يتعمّدوا ذلك . و« ارتحلوا » : بصيغة الأمر ، استدلالاً به على جواز تأخير الفائتة عن وقت ذكرها إذا لم يكن عن تغافل أو استهانة ؛ ويؤخذ من هذا الأمر أنّ مَنْ حصلت له غفلة في مكان عن عبادة استحَبَّ له التّحوّل منه . و« نودي بالصّلاة » : استدلالاً به على الأذان للفوائت . و« صلى بالنّاس » : فيه مشروعيّة الجماعة في الفوائت . و« أصابتنني جنابة ولا ماء » : في هذه القصّة مشروعيّة تيمم الجنب ، وفيها : التّحريض على الصّلاة في الجماعة ، وأنّ ترك الشّخص الصّلاة بحضرة المصلّين معيب على فاعله بغير عذر ، وفيها : حسن الملاطفة ، والرّفق في الإنكار . و« فدعا فلاناً » : هو عمران بنُ حصين - رضي الله عنهما - ، و« فابتغيا » اطلبا . و« مزادتين » : قربة كبيرة يزداد فيها جلد من غيرها ؛ وتسمّى أيضاً : السّطيحة . و« الصّابئ » : خرج من دين إلى دين . و« أوكأ » : ربط . و« أطلق » : فتح . و« العزالي » : مصبّ الماء من الرّأوية ، ولكلّ مزادة عزلاوان من أسفلها . و« أسقوا » : سقوا غيرهم . و« استقوا » : استقوا هم . و« اجمعوا لها » : فيه جواز الأخذ للمحتاج برضا المطلوب منه . و« تعلّمين » : اعلمي . و« رزئنا » : نقصنا . و« قالت بإصبعها » : أشارت . و« يُغيرون » : من أغار ؛ أي : دفع الخيل في الحرب . و« الصّرم » : الأبيات المجتمعة من النّاس .

(١) « دلائل الثّبوة » (٥ / ١٠٥) .

* ومن ثمرات الصُّحبة النَّبَوِيَّة ورفائقها أَنَّ سَيِّدنا عمرانَ كان قريباً من النَّبِيِّ ﷺ ، وقد نقل لنا بعضُ الأخبار المتعلِّقة بشؤون أهل البيت ، ومنها ما جاء في دعاء النَّبِيِّ ﷺ لابنته فاطمة الزَّهراء - رضي الله عنها - ، وما ظهر فيه من الإجابة .

* جاء في كتب الدَّلائل عن سَيِّدنا عمران بن حُصين - رضي الله عنهما - قال : « كنت مع رسول الله ﷺ ؛ إذ أقبلت فاطمة - رضي الله عنها - حتَّى وقفت بين يديه ، فنظرَ إليها ، وقد ذهبَ الدَّمُ من وجهها ، وغلبت الصُّفرةُ على وجهها من شدَّة الجوع ، فنظرَ إليها رسولُ الله ﷺ ، فقال : « ادني يا فاطمة ، ثمَّ ادني يا فاطمة » ، فدنتُ حتَّى قامت بين يديه ، فرفعَ يده فوضعها على صدرها في موضع القلادة ، وفرَّجَ بين أصابعه ، ثمَّ قال : « اللهمَّ مشيعُ الجاعة ، ورافعُ الوضيعة ، لا تجعُ فاطمة بنتَ محمَّد » . قال عمران : فنظرتُ إليها وقد ذهبتِ الصُّفرةُ من وجهها ، وغلب الدَّمُ كما كانت الصُّفرةُ غلبت على الدَّمِ .

قال عمرانُ : فلقيتُها بعد ، فسألتُها ، فقالت : ما جُعْتُ بعد ذلك يا عمران ، والأشبهُ أنَّه إنَّما رآها قبل نزول آية الحجاب ، والله أعلم ^(١) .

من كراماته وسجاياه :

* كان أبناء الصَّحابة الكرام - رضي الله عنهم - موقنين بالتأييدات الغيبية لهم ، وكذلك كان الصَّحابةُ أجمعون قد تركوا الاعتمادَ على الأسبابِ الماديَّة ، واتَّجَّهوا بالاعتماد على ربِّ البريَّة ؛ ولكن مع الأخذِ بالأسبابِ الماديَّة ؛ دون

(١) « دلائل التَّبَوَّة » للبيهقي (٦ / ١٠٨) ، و« دلائل التَّبَوَّة » للأصبهاني (٢ / ٥٩٦) ، مع الجمع بينهما . وذكره الهيثمي وقال : « رواه الطَّبْراني في الأوسط » ، وفيه عتبة بن حميد ، وثَّقَّة ابن حَبَّان وغيره ، وضعفه جماعة ، وبقيَّة رجاله وثقوا . « مجمع الزوائد » (٩ / ٢٠٣) .

الإفراط في الاعتماد على هذه الأسباب ، واتبعوا في هذا الأمر الصادق المصدق ﷺ ، وساروا على نهجه ومنهجه ؛ فصارت لبعضهم كرامات وأحوال منيفة ، ومنهم سيّدنا عمران بن حصين - رضي الله عنهما - الذي سلّمت عليه الملائكة وزارته وصافحته .

* قال الثعالبي عن هذا الأمر اللطيف : « ومنهم : عمران بن حصين ، كانت تصافحه الملائكة وتعوّده ، ثمّ افتقدها ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! إنّ رجالاً كانوا يأتونني لم أرَ أحسنَ وجوهاً ، ولا أطيّبَ أرواحاً منهم ، ثمّ انقطعوا عني ، فقال رسول الله ﷺ : « أصابَكَ جرحٌ فكنتَ تكتُمُهُ ؟ » .

فقال : أجل .

قال : « ثمّ أظهرته ؟ » .

قال : قد كان ذاك .

قال : « أما لو والله أقمتَ على كتمانهِ ، لزارتكَ الملائكةُ إلى أنْ تموتَ » . وهذا جرحٌ أصابه في سبيل الله ^(١) .

* وفي سلام الملائكة على سيّدنا عمران ، ومصافحتهم له ، أخرج الحاكم عن مطرّف بن عبد الله عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - أنّه قال : « اعلمُ يا مطرّفُ أنّه كانت تسلّم الملائكة عند رأسي ، وعند البيت ، وعند باب الحِجر ، فلمّا اكتويتُ ذهبَ ذلك ، فلمّا برئَ كلّهُ ، قال : اعلمُ

(١) « ثمار القلوب » (ص : ٦٥) . وعن هذا الأمر قال ابن دريد أيضاً : « عمران بن الحصين بن عبيد بن خلف ، صحب النَّبيّ ﷺ ، وهو أبو نجيد ، وكانت تصافحه الملائكة وتناجيهِ لِدَاءِ كان به ، فاكتوى فذهب عنه ذلك ، وذهب ما كان يسمع ويرى » . « الاشتقاق » (ص : ٤٧٣) .

يا مطرّف أنّه عاد إليّ الذي كنتُ أفقد ، اكنتم عني يا مطرّف حتّى أموت » (١) .

* وعند ابنِ سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن مُطَرِّف ، قال : « قال لي عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - : أشعرتُ أنّه كان يُسَلِّم عليّ ، فلمّا ، اكنوت انقطع التّسليم ؟ !

فقلتُ : أمِن قِبَلِ رأسك كان يأتيك التّسليم ، أو من قبل رجلِك ؟

قال : لا ، بل من قبل رأسي .

فقلت : لا أرى أن تموت حتّى يعودَ ذلك .

(١) « المستدرک » (٣ / ٥٣٦) ، حديث رقم : (٥٩٩٤) . وقوله « الجِحْر » : بالكسر ؛ اسم للحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي . و« فلمّا اكنوتُ ذهب ذلك » : فيه كراهية الاكتواء مطلقاً ، وقد بَوَّبَ الإمامُ البخاريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في « صحيحه » : « باب من اكنوتى ، أو كَوَى غيره ، وفضل من لم يكتو » . قال الحافظُ ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « كأنّه أراد أنّ الكيَّ جائز للحاجة ، وأنّ الأولى تركه إذا لم يتعين ، وأنّه إذا جازَ كان أعمّ من أن يباشر الشخص ذلك بنفسه ، أو بغيره لنفسه ، أو لغيره » . وذكر البخاريُّ فيه حديث جابر مرفوعاً : « إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ، ففي شرطه محجم ، أو لدغه بنار ، وما أحبُّ أن أكتوي » ، وبسط الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في روايات الباب إباحةً ونهيًا ، ثمّ قال : « والنهي محمول على الكراهة ، أو على خلاف الأولى لما يقتضيه مجموع الأحاديث ، وقيل : إنّه خاصٌّ بعمران - رضي الله عنه - ؛ لأنّه كان به الباسور ، وكان موضعه خطراً ، فنّها عن كيّه ، فلمّا اشتدّ عليه كواه ، فلم ينجح » .

وقال ابنُ قتيبة : « الكيُّ نوعان : كيُّ الصّحيح لئلا يعتلّ ، فهذا الذي قيل فيه لم يتوكّل من اكنوتى ؛ لأنّه يريد أن يدفعَ القدر ، والقدر لا يدافع . والثّاني : كي الجراح إذا نغل ؛ أي : فسّد ، والعضو إذا قطع فهو الذي يشرع التّداوي به ، فإن كان الكي لأمر محتملّ فهو خلاف الأولى يدلُّ على الجواز وعدم الفعل لا يدلُّ على المنع ، بل يدلُّ على أنّ تركه أرجح من فعله ، وأمّا النّهي عنه فلمّا على سبيل الاختيار والتّنزيه ، وإما عمّا لا يتعيّن طريقاً إلى الشّفاء » . و« كلمه » : جرحه .

فلَمَّا كَانَ بَعْدَ ، قَالَ لِي : أَشَعَرْتَ أَنَّ التَّسْلِيمَ عَادَ لِي ؟

قَالَ : ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ يَسِيرًا ؛ حَتَّى مَاتَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « (١) .

* وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ : « قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : إِنَّ الَّذِي كَانَ انْقَطَعَ عَنِّي قَدْ رَجَعَ ، يَعْنِي تَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقَالَ لِي : اكْتَمَهُ عَلَيَّ » (٢) .

* وَعَنْ تَسْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَمَصَافِحَتِهِمْ سَيِّدَنَا عِمْرَانَ يَقُولُ قَتَادَةُ : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَصَافِحُ عِمْرَانَ بْنَ حَصِينٍ حَتَّى اكْتَوَى فَتَنَحَّتْ » (٣) .

* وَعَنْ سَيِّدَنَا عِمْرَانَ قَالَ : « اكْتَوَيْنَا ، فَمَا أَفْلَحْنَا وَلَا أُنْجَحْنَا - يَعْنِي الْمَكَوِي - » (٤) .

* وَمَنْ أَزْوَادِ الْعِلْمِ ، وَحِصَائِلِ الْفَهْمِ ، نَتَزَوَّدُ مِنْ « زَادِ الْمَعَادِ » لِابْنِ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ إِذْ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْكَيِّ وَالنَّهْيِ عَنْهُ بِمَا يَبْلُغُ الصَّدَى

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٩) . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي هَذَا الْمَجَالِ أَوْرَدَهَا ابْنُ سَعْدٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّخِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ : « إِنَّ عِمْرَانَ بْنَ حَصِينٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : إِنِّي فَقَدْتُ السَّلَامَ حَتَّى ذَهَبَ عَنِّي أَثَرُ النَّارِ .

قُلْتُ لَهُ : مِنْ أَيْنَ تَسْمَعُ السَّلَامَ ؟

قَالَ : مِنْ نَوَاحِي الْبَيْتِ .

فَقُلْتُ : أَمَا إِنَّهُ لَوْ قَدْ سَلَّمَ عَلَيْكَ مِنْ عِنْدِ رَأْسِكَ كَانَ حُضُورُ أَجْلِكَ .

فَسَمِعَ تَسْلِيمًا عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّمَا قُلْتَهُ بِرَأْيِي . فَوَافَقَ ذَلِكَ حُضُورَ أَجَلِهِ » .

« طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٩٠) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٩) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٨) .

(٤) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٨ - ٢٨٩) ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِرَقْمٍ : (٣٨٦٥) ،

وَابْنُ مَاجَةَ بِرَقْمٍ : (٣٤٩٠) ، وَغَيْرُهُمْ .

فيقول : « وأَمَّا النَّهْيُ عن الكَيِّ ، فهو أن يكتويَ طلباً للشفاء ، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو ، هلك ، فنهاهم عنه لأجل هذه النية ، وقيل : إنما نهى عنه عمران بن حصين خاصة ؛ لأنه كان به ناصور ، وكان موضعه خطراً ، فنهاه عن كيِّه ، فيُشبهه أن يكون النَّهْيُ منصرفاً إلى الموضع المخوف منه ، والله أعلم » (١) .

* ولا بن قيِّم الجوزية أيضاً كلام يقطر سلاسةً ، ويسيلُ عذوبةً ، وينفع تربيةً حول الصبر على المصائب وعلاجها ، فيقول ما ملخصه : « ومن علاجها : أن يعلم أنَّ أنفع الأدوية له موافقة ربِّه وإلهه فيما أحبه ، ورضيه له ، وأنَّ خاصية المحبة وسرّها موافقة المحبوب ، فإذا ادعى المحبة محبوباً ، ثمَّ سخط ما يحبه ، وأحبَّ ما يسخطه ، فقد شهد على نفسه بكذبه ، وتممَّت إلى محبوبه وكان عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - يقول في علته : أَحَبُّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيْهِ وهذا دواءٌ وعلاجٌ لا يعملُ إلاَّ مع المحبين ، ولا يمكن كلُّ أحد أن يتعالج به ومن علاجها : أن يعلم أنَّ الذي ابتلاه بها أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ الرَّاحمين ، وأنه سبحانه لم يرسلْ إليه البلاء ليهلكه به ، ولا ليعذِّبه به ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرَّعه وابتهاله ، وليراه طريحاً ببابه ، لاثداً بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعاً قصص الشكوى إليه والمقصود أنَّ المصيبةَ كبر العبد الذي يُسبِّك به حاصله ، فإمَّا أن يخرجَ ذهباً أحمر ، وإمَّا أن يخرجَ خبثاً كلّه ومن علاجها : أن يعلم أنَّه لولا محنُ الدنيا ومصائبها ، لأصابَ العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً ، فمن رحمة أرحم الرَّاحمين أن يتفقَّده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب ، تكون حمية له من هذه الأدوية ، وحفظاً لصحة عبوديته ، واستفراغاً للموادِ الفاسدةِ الرديئةِ المهلكة منه ، فسبحان من يرحم ببلائه ، ويبتلى بنعمائه ، كما قيل :

(١) « زاد المعاد » (٤ / ٦٥) .

قد ينعمُ اللهُ بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ ويبتلي اللهُ بعضَ القومِ بالنعم

فلولا أنَّه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطفوا ، وبغوا ،
وعتوا واللهُ سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر
حاله يستفرغُ به من الأدواء المهلكة ، حتَّى إذا هدَّبه ونقَّاه وصفَّاه ، أهَّله
لأشرفِ مراتب الدُّنيا ، وهي عبوديته ، وأرفعِ ثواب الآخرة ، وهو رؤيته
وقربه » (١) .

* بلغ سيِّدنا عمران درجةً عاليةً من العبوديَّة والخوف
من الله - عزَّ وجلَّ - ، لذلك كان يقول في الخوف
من الله - عزَّ وجلَّ - : « لوددت أني كنتُ رماداً على أكمة فتنسفي الرِّيحُ في
يوم عاصف » وفي رواية : « وددتُ أني رمادٌ تذروني الرِّيح » (٢) .

* ومن أرقِّ سجايا سيِّدنا عمران ، وأدقِّها مع الصَّادق المصدوق ﷺ ،
ذلك الأدبُ الذي تحلَّى به ، والخلقُ الذي تسرَّبَل به وتمثَّله في السِّرِّ
والعلانية ، حيث كان يحترِّمُ يمينه التي التقتُ يمينَ الحبيبِ المصطفى ﷺ
مصافحةً مبايعةً ، فكان يقول : « ما مَسَسْتُ ذكري بيمينِي منذ بايعتُ
رسولَ الله ﷺ » (٣) .

* ارتقى سيِّدنا عمران - رضي الله عنه - مرتبةً عاليةً من العِلْم والفقه ،
كما ابتعدَ عن جميع ما يدعو إلى الشُّبهات ، وما يدعو إلى التَّفَرُّق ، فلم ينصُرْ
أحداً على حسابِ أحد ، ولمَّا كانت أَيَّامُ الفتنَةِ بين سيِّدنا عليٍّ وسيِّدنا
معاوية - رضي الله عنهما - ظلَّ ملازماً بيته ، قال الإمامُ

(١) « زاد المعاد » (٤ / ١٩٤ - ١٩٥) بتصرف يسير .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٧) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٧) .

الذَّهَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « قُلْتُ : وَكَانَ مَمَّنْ اعْتَزَلَ الْفِتْنَةَ ، وَلَمْ يَحَارِبْ مَعِ عَلِيٍّ » (١) .

* وَيُؤَيِّدُ مَا ذَكَرَهُ الذَّهَبِيُّ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ : « قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ : الزَّمْ مَسْجِدَكَ .

قُلْتُ : فَإِنْ دَخَلَ عَلَيَّ ؟

قَالَ : فَالزَّمْ بَيْتَكَ .

قَالَ : فَإِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي ؟

فَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ : لَوْ دَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ بَيْتِي يَرِيدُ نَفْسِي وَمَالِي لَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ حَلَّ لِي قِتَالُهُ » (٢) .

* أَسْهَمَ سَيِّدُنَا عِمْرَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِسْهَاماً عَمَلِيّاً فِي إِخْمَادِ الْفِتْنَةِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ حُجَيْرِ بْنِ الرَّبِيعِ : « أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حَصِينٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَرْسَلَهُ إِلَى بَنِي عَدِي أَنْ ائْتَهُمْ أَجْمَعًا مَا يَكُونُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْعَصْرِ ، فَقَمَّ قَائِماً ، قَالَ : فَقَامَ قَائِماً فَقَالَ : أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ عِمْرَانُ بْنُ حَصِينٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ ؛ وَيُخْبِرُكُمْ أَنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ ، وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَأَنْ يَكُونَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجْدَعًا يَرْعَى أَعْنَزاً حَضَنِيَّاتٍ فِي رَأْسِ جَبَلٍ حَتَّى يَدْرِكَهُ الْمَوْتُ ؛ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْمِيَ فِي أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِسَهْمٍ أَخْطَأَ أَوْ أَصَابَ ، فَأَمْسَكُوا فَدَى لَكُمْ أَبِي وَأُمِّي . فَرَفَعَ الْقَوْمُ رُؤُوسَهُمْ وَقَالُوا : دَعْنَا مِنْكَ أَيُّهَا الْغُلَامُ ، فَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَدْعُ ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَشَيْءٍ أَبَدًا ، فَغَدَوْا يَوْمَ الْجَمَلِ ، فَقَتَلَ بَشَرٌ وَاللَّهِ كَثِيرٌ حَوْلَ عَائِشَةَ

(١) « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٩) . وقال ابن الأثير عن سيِّدنا عمران - رضي الله

عنه - : « وكان مجاب الدعوة ، ولم يشهد الفتنة » . « أسد الغابة » (٣ / ٧٧٨) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٨) ، ورجاله ثقات .

يؤمنون سبعون كلهم قد جمع القرآن ، ومن لم يجمع القرآن أكثر « (١) .

من نجباء الرواة :

* سيّدنا عمران - رضي الله عنه - من نجباء أبناء الصّحابة وعلمائهم ؛ وممّن وعوا حديث رسول الله ﷺ وحفظوه ونقلوه إلى الأُمَّة ، وأدّوه كما سمعوه تماماً .

* أحصى العلماء والمحقّقون الأحاديث التي رواها عمران فبلغت (١٨٠ حديثاً) ، قال الإمامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : « رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ مئة وثمانون حديثاً ، اتَّفَقا منها على ثمانية ، وانفرد البخاريُّ بأربعة ، ومسلم بتسعة » (٢) .

* روى عن سيّدنا عمران ثلّة من أكابر التّابعين ، وفي مقدّمهم ابنه : نُجَيْدٌ ؛ وروى عنه كذلك : أبو الأسود الدّؤلي ، ومطرّف بن عبد الله الشّخير ، ومحمّد بن سيرين ، والحسن البصريّ ، وزرارة بن أوفى ، والشّعبيّ ، وآخرون (٣) .

* ومرويات سيّدنا عمران وأحاديثه منثورة في الصّحيحين ؛ والمسانيد ؛

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٨٨) ، وانظر : « المعجم الكبير » (١٨ / ١٠٥) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٣٦) ، وعن مكانة سيّدنا عمران في عالم أهل الحديث جاء عن محمّد بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قال : « كان عمران بن الحصين يُعَدُّ من ثقات أصحاب رسول الله ﷺ في الحديث » . « طبقات ابن سعد » (٢ / ٣٧٤) .

وذكر ابنُ سعد أيضاً أنَّ سيّدنا عمران كان يُعَدُّ من فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان من المكثرين للرواية والعلم وقد بقي وطالَ عمره ، واحتاجَ إليه النَّاسُ . المصدر السابق بتصرّف .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٠٨) ، و« تهذيب التّهذيب » (٨ / ١٢٦) مع الجمع بينهما .

والمعاجم ؛ والسُّنن ؛ وغيرها من الكتب التي تعنى بهذا الشأن المهم المبارك ، فقد روى له الإمام أحمد في « مسنده » بالمكرّر (١٩٤ حديثاً) ، في حين أخرج له الطبراني في « المعجم الكبير » قرابة (٤٢٧ حديثاً بالمكرّر) .

* تدور معظم موضوعات أحاديث سيّدنا عمران على غالب أبواب العلم والفقه ومنها : التَّيَمُّمُ ، والتَّوْحِيدُ ، والتَّفْسِيرُ ، والمناقبُ ، والمغازي ، والصَّوْمُ ، والطَّبُّ ، وصفة الصَّلَاة ، والأدبُ ، وغيرها من الأحكام والفضائل ؛ وقد مرَّ معنا بعضاً منها .

* وممّا وردَ في « صحيح مسلم » ما أخرجه عن مطرّف قال : « بعث إليَّ عمرانُ بنُ حصين في مرضه الذي توفي فيه ، فقال : إنِّي كنتُ محدّثك بأحاديث ، لعلَّ الله أن ينفعك بها بعدي ، فإن عشتُ فاكنم عني ، وإن متُّ فحدّث بها إن شئت : إنّه قد سلّم عليّ ، واعلم أن نبيَّ الله ﷺ قد جمع بين حجٍّ وعمرَةٍ ، ثمّ لم ينزل فيها كتابُ الله ، ولم ينه عنها نبيُّ الله ﷺ ، قال رجلٌ فيها برأيه ما شاء » (١) .

* وأحاديث سيّدنا عمران بن حصين - رضي الله عنهما - منثورة في الكتب المتخصصة ، ونختمها بهذا الحديث اللطيف الرقيق الجميل ، من كتاب الأدب للإمام البخاريّ رَحِمَهُ اللهُ ، الذي يفصح عن الحياء وأثره وآثاره في الفرد والمجتمع .

* أخرج الإمام البخاريّ رَحِمَهُ اللهُ بسنده عن سيّدنا عمران بن حصين - رضي الله عنهما - قال : قال النَّبِيُّ ﷺ : « الحياءُ لا يأتي إلا بخير » (٢) .

(١) أخرجه مسلم في الحجّ برقم : (١٢٢٦ / ١٦٨) : وقوله « فاكنم عني » : كره أن يُشاع عنه ذلك في حياته لما فيه من التّعريض للفتنة ، بخلاف ما بعد الموت . وانظر : « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٩٠) .

(٢) أخرجه البخاريّ في الأدب برقم : (٦١١٧) . وقوله « الحياء » : اختلفت =

* نلاحظ في هذا الحديث الشريف أنَّ الحياءَ إذا كان تغيراً نفسياً ، وخلقاً باطنياً ، يحولُ بين الإنسان والقبايح ، أو يمنعه من عملٍ ما يعابُ به ويذمُّ ، أو ينقذُ عليه ويعتفُ ، كان لا شكَّ خلقاً محموداً ، لا ينتجُ إلا خيراً ؛ فالذي يمرُّ بخياله فعل عملٍ مُشين ، يمنعه حياؤه من ارتكابه ، أو يسبِّه شخص فيمنعه الحياء من مقابلة السيئة بمثلها ، أو يسأله سائل فيحول حياؤه دون حرمانه ، أو تقابله امرأة فيغضُّ حياءً بصره عنها ، أو يضمُّه مجلسٌ فيمسك الحياء بلسانه عن الكلام فيما لا يعنيه ، أو الخوض فيما لا يجيده .

* إنَّ الإنسانَ الذي يكونُ للحياء في نفسه هذه الآثار الحسنة ، والأعمال الطيبة ؛ ذو خلقٍ محمود ، وسجيةٍ كريمة .

* ومن الواضح أنَّ أعلى درجات الحياء ما كان ناشئاً عن الشعور برقابة الله - عزَّ وجلَّ - ، وعظم حقِّه عليه ، فإنَّ هذا يقيِّم المرء على صراطِ الحقِّ ، لا يلتوي عنه يُمنةً أو يسرةً .

= العبارات في الإفصاح عن معنى الحياء ، فقليل : الحياءُ خلقٌ يبعث على فعل الحسن ، وترك القبائح . وقيل : هو انقباض النفس خشية ارتكاب ما يكون . وقيل : خوف الذمِّ بنسبة الشرِّ إليه . وقال الزمخشريُّ رَحِمَهُ اللهُ : « هو تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يُعاب به ويذم ، واشتقاقه من الحياة ، يقال : حيي الرجل ، كما يقال : نسي وحشي وشطيَّ الفرس إذا اعتلَّت هذه الأعضاء ، النَّسَا : وهو عرق ، والحشي : وهو ما دون الحجاب مما في البطن ، والشطي : وهو عظيمٌ مستدقٌ لازقٌ بالركبة ، أو بالذراع ، أو عصب صغار فيه ؛ جعل الحي لما يعتريه من الانكسار والتَّغير منتكس القوة ، منتقص الحياة ، كما يقال : هلك فلان حياء من كذا ، ومات حياء ، ورأيْتُ الهلاك في وجهه من شِدَّة الحياء ، وذاب حياءً ، وجمدَ في مكانه خجلاً » . وقال الرَّاغِب : « الحياءُ انقباضُ النفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان ليرتدع عن ارتكاب كلِّ ما يشتهي ، فلا يكون كالبهيمة ، وهو مركَّب من جبن وعفة ، فلذلك لا يكون المستحي فاسقاً ، ولَمَّا يكون الشَّجاع مستحيّاً ، وقد يكون لمطلق الانقباض كما في بعض الصَّبيان » .

* وليس من أثر الحياء أن يقعد المرء عن مواجهة مَنْ يرتكبُ إثماً ، وأن ينهأ عن ذلك ، ولا أن يطالبَ بحق يكون في حاجة إليه ، أو أن يترك سؤالاً لمعلمه عن مسألة لم يفهمها ، هذا كله وأشباهه ليس من أثر الحياء المحمود ، إنما ذلك عجزٌ وجبنٌ ، وينبغي على العاقل أن يتعلَّم ويتعلَّم حتَّى يدرك معالي الأمور ، دون حياء ؛ لأنَّ الحياء لا يمنع من المعالي .

وصيته :

* عاشَ سيّدنا عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنه - حياةً مفعمّةً بالعِلْم والعمل ، واستقرَّ بالبصرة ، وله بها بقيةٌ من ولده خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن الحصين ، ولي قضاء البصرة .

* أمضى سيّدنا عمران - رضي الله عنه - شطراً من عمره يغالبُ المرض وهو صابر على قضاء الله - عزّ وجلّ - ، قال محمّد بن سيرين رحمه الله : « سُقِيَ بطنُ عمران بن حصين - رضي الله عنهما - ثلاثين سنة ، كل ذلك يُعرض عليه الكي فيأبى أن يكتوي ، حتَّى إذا كان قَبْلَ وفاته بسنتين اکتوى » ^(١) .

* قال مطرّف بن عبد الله الشَّخِير : « قلتُ لعمران بن حصين : ما يمنعني من عيادتك إلا ما أرى من حالك . قال : فلا تفعل فإنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إلى الله » ^(٢) .

* امتدَّت حياة سيّدنا عمران إلى أواسط خلافة سيّدنا معاوية ، فقد توفي سنة ٥٢ هـ في البصرة ، وعندما حضرته الوفاة قال : « إذا أنا متُ فشدّوا عليّ سريري بعمامتي ، فإذا رجعتم فأنحروا وأطعموا » ^(٣) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٧ / ١١) . و « السقي » : ماء أصفر يقع في البطن .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٩٠) ، و « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥١٠) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٩١) .

* أورد ابنُ سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الحسنِ البصريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصِيَّةَ سَيِّدنا عمران - رضي الله عنه - فقال : « أوصى عمرانُ بنُ حصين - رضي الله عنهما - فقال : إذا مِتُّ فخرجتم بي فأسرعوا المشي ، ولا تهوِّدوا بي كما تهوِّد اليهود والنَّصارى ، ولا تُتبعوني ناراً ، ولا صوتاً ، قال : وكان أوصى لأُمَّهات أولاد له بوصايا فقال : أيتما امرأةٍ منهنَّ صرخت عليَّ فلا وصيَّةَ لها » (١) .

* وعن إبراهيمَ بن عطاء بن أبي ميمونة مولى آل عمران بن حصين عن أبيه : « أنَّ عمرانَ بنَ حُصين أوصى أهله إذا مات ألا يتبعوه صوتاً ، ولَعَنَ مَنْ يفعلُ ذلك ، وأنَّ يجعلوا قَبْرَهُ مربعاً ، وأنَّ يرفعوه أربعَ أصابع أو نحو ذلك » (٢) .

* وهكذا عشنا صحائف عطرات نضرات مع سيرة الصَّحابيِّ ابن الصَّحابيِّ عمران بن حُصين - رضي الله عنهما - نرجو الله - عزَّ وجلَّ - أنَّ يحشُرنا في معيَّة هؤلاء السَّادة الأخيار ، وأنَّ يدخلنا برحمته الجَنَّةَ مع الأبرار ، إِنَّهُ رَحِيمٌ غَفَّارٌ .



(١) « طبقات ابن سعد » (٧ / ١١) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥١١) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٧ / ١٢) .

المِسْوَورُ بْنُ مَخْرَمَةَ

رضي الله عنهما

- * كان من أبناء الصَّحابة الألباء الفَصَّحة الأذكياء .
- * من الصَّوامين القوامين ؛ لزمَ عمرَ وعبد الرَّحْمَنِ بن عوف .
- * له أخبارٌ جميلةٌ مع أعيان الصَّحابة ؛ وتوفي سنة (٦٤ هـ) .

المِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ

رضي الله عنهما

من الألباء الثُّبَلَاء :

اشتهر هذا الصحابيُّ ابنُ الصحابيِّ ابنِ الصحابة في عالم الرواية والحديثِ شهرةً واسعةً ؛ إذ إنَّ له صحبةً وروايةً عن رسولِ الله ﷺ ، وكان من ثُبَلَاءِ أبناءِ الصحابةِ وألبائهم ، وكان أكابرُ الصحابةِ وأعيانهم يجلسونه ويستشيرونه في أمورهم وأعمالهم لفطنته وذكائه وحصافته .

* كان مولدُ هذا الابنِ الحصيفِ في مَكَّةِ المكرمة ، كما أنَّ وفاته كانت بها . ذكرَ هذا الأمرُ ابنُ قدامة عندما تحدَّثَ عنه فقال : « وُلِدَ بِمَكَّةَ بعد الهجرة بسنتين ، وقُدِّمَ به المدينة في ذي الحِجَّةِ سنة ثمان ؛ فسمعَ من النَّبيِّ ﷺ وحفظَ عنه ، وكان فقيهاً من أهل الفضل والدين ، ولم يزلْ بالمدينة إلى أن قُتِلَ عثمان ، فانتقلَ إلى مَكَّةَ ، ولم يزلْ بها حتَّى مات معاوية ، فكَّرَ بيعة يزيد » (١) .

* ساق الإمامُ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ سيرته فقال : « له صحبةٌ وروايةٌ ، وعداؤه

(١) « التَّيْبِينُ فِي أَنْسَابِ الْقُرَشِيِّينَ » (ص : ٢٥٧) ، وقال ابنُ حِبَّانَ عنه : « كان مولده بِمَكَّةَ من السَّنَةِ الثَّانِيَةِ من الهجرة ، وقُدِّمَ به المدينة في التَّصَفِّ من ذي الحِجَّةِ سنة ثمان ، عام الفتح ، وقد حجَّ مع النَّبيِّ ﷺ حجه ، وحفظ جوامع أحكام الحجِّ ، واستوطن المدينة » . « مشاهير علماء الأمصار » (ص : ٤٣) .

في صغار الصحابة كالعثمان بن بشير ، وابن الزبير » (١) .

* كان هذا الابن الصحابي ممن يلزم سيّدنا عمر - رضي الله عنه - ويحفظ عنه ، وقد تأثر به كثيراً ، وحدث عنه ، وروى كثيراً من الأخبار والأحداث التي تتعلق بالسيرة العمرية ؛ والخلافة الراشدة الرشيدة .

* هذا الصحابي هو المسور بن مخرمة بن نوفل ، الإمام الجليل ، أبو عبد الرحمن ، وأبو عثمان ، القرشيّ الزهريّ (٢) . وأمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية أيضاً . - وقيل اسمها : الشفاء ؛ أو رملة .

* ذكر ابن دريد سيّدنا المسور في كتابه « الاشتقاق » فقال : « المسور بن مخرمة ، من أهل العلم ، ومسور : مفعّل من سار يسور سوراً ، كما يساور السبع ؛ أي : يواثب ، وسار يسور سوراً ، وقد سمّت العرب سواراً ، ومساوراً ، ومسوراً ، وسورة » (٣) .

* ويقول أهل اللغة عن معنى « مسور » : « المسور ؛ كمنبر : متكاً من آدم ، كالمسورة ، ومسور بن مخرمة ، وأبو عبد الله غير منسوب : صحابيّان . والشور : الضيافة ، فارسية شرفها النبي ﷺ حيث قال في غزوة الخندق للصحابة : « قوموا فقد صنع لكم جابز سوراً » ؛ أي : طعاماً

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٣٩١) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٣٩٠ - ٣٩٤) ، و « معرفة الصحابة » (٤ / ٢٥٢ و ٢٥٣)
ترجمة رقم (٢٧١٨) ، و « نسب قريش » (ص : ٢٦٢ - ٢٦٣) ، و « المعارف » (ص : ٤٢٩) ، و « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٩٤) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٥ - ٣١٠) ، و « الاستيعاب » (٣ / ٣٩٦ - ٣٩٨) ، و « الإصابة » (٣ / ٣٩٩ - ٤٠٠) ، و « البداية والنهاية » (٨ / ٢٤٥) ، و « أسد الغابة » (٤ / ٣٩٩ - ٤٠٠) ، و « مسند أبي يعلى » (ص : ١٣٠٤) ، « شرح حياة الصحابة » (الفهارس : ٤ / ٨٢٩) ، وغيرها .

(٣) « الاشتقاق » لابن دريد (ص : ٩٦) .

دعا النَّاسَ إليه . وتسوّرت الحائط : تسلفته ، وسُرُسُرُ : أمر بمعالِي الأمور .
وسُورِيَّة : اسم للشَّام ، والسُّورَة : المَنْزِلَة . السُّورَة من القرآن : لأنها مَنْزِلَة
بعد مَنْزِلَة ، مقطوعة عن الأخرى ، والشَّرْف ، وما طال من البناء وحَسُن ،
والعَلَامَة . . . » (١) .

* أمّا المِسُور عند الفقهاء والمحدّثين فهو على أشكال : « المِسُور
والمُسَوَّر والمِسُور » .

« المِسُور » : اسم فاعل : فهو عند عبد الغني ، وابن سعد ،
وابن ماكولا ، والبخاري .

« المِسُور » : اسم مفعول : فهو عند جامع الأصول ، والدَّارِقُطَنِي ،
وابن ماكولا .

« المِسُور » : على وزن مِفْعَل : فهو عند ابن منده ، وابن عبد البر (٢) .

* وذكر ابن الأثير أنَّ ثلاثة من الصَّحابة اسم كل واحد منهم : المسور ،
وهم : المسور أبو عبد الله ، المسور بن مخرمة ، والمسور بن يزيد ؛
والله أعلم (٣) .

* أمّا مخرمة بن نوفل القرشيُّ الزُّهريُّ والد المسور ، فكان يكنى
بأبي صفوان ، وأبي المسور ، وهو ابن عمِّ سيّدنا سعد بن أبي وقّاص بن

(١) انظر : « القاموس المحيط » ، و« لسان العرب » مادة : « سور » .

(٢) انظر : « شرح حياة الصَّحابة » (٢ / ٤٨٥) الهامش ، و« أسد الغابة »
(٤ / ٤٠١) .

(٣) « أسد الغابة » (٤ / ٣٩٩ - ٤٠١) ، ترجمة رقم : (٤٩١٨ ، ٤٩١٩ ،
و ٤٩٢٠) ، وقد اشتهر سيّدنا المِسُور بن مخرمة من بين هؤلاء الثلاثة . بينما ذكر أبو
نعيم أنَّهم أربعة هم : « مسور بن مخرمة بن نوفل ، ومسور بن يزيد الكاهلي ،
ومسور أبو عبد الله ، ومسور بن يزيد الجذامي » (معرفة الصَّحابة ٤ / ٢٥٢ - ٢٥٤)

أهيب الزُّهريّ - رضي الله عنه - ، وسعد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة من قريش من عليّة السابقين الأولين - رضي الله عنهم أجمعين - .

* أسلم مخرمةُ بنُ نوفل يوم الفتح ، وكان من المؤلّفة قلوبهم ، وحسُن إسلامه ، وكان له سنٌّ وعلمٌ بأيّام النَّاس ، وبقریش خاصّة ، وكان يُؤخّذُ عنه النَّسب ، وشهد حُنيئاً مع رسول الله ﷺ ، وأعطاه رسولُ الله ﷺ خمسين بغيراً ، وهو أحدُ مَنْ أقام أنصاب الحرم في خلافة سيّدنا عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - ؛ إذ أرسله عمرُ وأزهر بن عبد عوف ، وسعيد بن يربوع ، وحويطب بن عبد العزى فحدّثوها .

* كانت وفاةُ مخرمةَ بنِ نوفل في المدينة المنوّرة في عهد سيّدنا معاوية سنة (٥٤ هـ) وكان عمره يوم مات (١١٥ سنة) وعمي في آخر عمره رضي الله عنه ^(١) .

من أوعية العلم :

* كان سيّدنا المسورُ بنُ مخرمة - رضي الله عنهما - من فقهاء الصّحابة ، وعلمائهم ، ومن أهل الدّين ، ومن الصّوامين القوامين ، قيل : « إنّه كان ممّن

(١) « نكت الهميان » للصفديّ (ص : ٢٨٧ - ٢٨٨) بتصرّف . وقال الذهبيّ عن مخرمة بن نوفل والد المسور ما خلاصته : « مخرمة بنُ نوفل . . . أبو المسور القرشيّ الزُّهريّ الصّحابي ، من الطُّلقاء ، وكان كبير بني زُهرة . كسّاه النّبيُّ ﷺ حلّةً فاخرةً باعها بأربعين أوقية ، وكان من المؤلّفة قلوبهم ، بقي مخرمة إلى بعد الخمسين ، فمات في سنة أربع وخمسين ، وله مئة عام وخمسة عشر عاماً . وكان والده نوفل ابن عمّ آمنه بنت وهب بن عبد مناف الزُّهريّة ، والدّة النّبيّ ﷺ ، فلهذا أكرمه النّبيُّ ﷺ ، وبشّ به ، وخلع عليه حلّةً مُمَنّنة . وكان ولده المسور بن مخرمة من صغار الصّحابة ، ومن أشرف قريش وعلمائهم » . « سير أعلام النبلاء » (٢ / ٥٤٢ - ٥٤٤) بتصرّف .

يصومُ الدَّهر ، وإذا قدم مَكَّة طاف لكلِّ يومٍ غابَ عنها سبْعاً ، وصَلَّى ركعتين .

* وسَيَدنا المِسورُ مَمَّن وعى الأحاديثُ النَّبويَّة ورواها ، قال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ : « وللمِسور ولأبيه صُحبة ، وصَحَّ سماعُ المِسور من رسولِ اللهِ ﷺ ، روي له عن رسولِ اللهِ ﷺ اثنان وعشرون حديثاً ، اتَّفقا على حديثين ، وانفردَ البخاريُّ بأربعة ، ومسلمٌ بحديث « (١) .

* روى المِسورُ عن النَّبيِّ ﷺ ، وعن أبيه مخرمة بن نوفل ، وخاله عبد الرَّحمن بن عوف ؛ كما روى عن الخلفاء الرَّاشدين الأربعة : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليٍّ - رضي اللهُ عنهم أجمعين - ، وروى كذلك عن عدد من علماء الصَّحابة وأعيانهم كعماوية ، والمغيرة ، ومحمَّد بن مسلمة الأنصاري ، وأبي هريرة الدَّوسي ، وعبد اللهِ بن عَبَّاس وجماعة - رضي اللهُ عنهم أجمعين - .

* وروى عنه من الصَّحابة : أبو أمانة بن سهل بن حنيف ، وروى عنه من أعيان التَّابعين : عليُّ بن الحسين ، وعروة بن الزُّبير ، وسعيد بن المسيَّب ، وسليمان بن يسار ، وابنته أمُّ بكر ؛ وغيرهم (٢) .

* وتدورُ الأحاديثُ النَّبويَّةُ التي رواها سَيَدنا المِسور - رضي اللهُ عنه - حولَ كثيرٍ من الأحكام ونظرة واحدة في « صحيح البخاري » يتبيَّن لنا الأبواب التي تضمَّنَتْ أحاديثَ هذا الابن النَّبيل العالم ومنها : « الوكالة » ، والهِبة ، والخمس ، والوضوء ، والمغازي ، والأدب ، والعنق ، والمناقب ، واللباس ، والأحكام ، والسَّهْو ، والطلاق ، والنِّكاح ، والعدَّة ، والشُّروط ،

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٩٤) .

(٢) انظر : « تهذيب التَّهذيب » (١٥١) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ٣٩١) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٤٠٠) ترجمة رقم : (٤٩١٩) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٩٤) ، مع الجمع بينها .

وَالشَّهَادَاتُ ، وَالْحَجُّ ، وَالصُّلْحُ ، وَالْجُمُعَةُ ، وَالْجِهَادُ ، وَالسَّيْرُ » .

* لَقِيتُ مَرْوِيَّاتِ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اِهْتِمَامًا بِالْغَا مِنْ عِلْمَاءِ الْحَدِيثِ ، وَمُصَنِّفِي التَّرَاجِمِ ، وَالْفُقَهَاءِ ، وَشُرَاحِ كُتُبِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَثَبُوا صَحَّةَ رَوَايَةِ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ وَصَحْبَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِعِلْمِ الْحَدِيثِ : الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » ، فَقَدْ أَخْرَجَ عَنْ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : « قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَقْبِيَّةً ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ لِي أَبِي : انْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ أَتَتْهُ أَقْبِيَّةٌ . فَتَكَلَّمَ أَبِي عَلَى الْبَابِ ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَهُ ، فَخَرَجَ وَمَعَهُ قَبَاءٌ فَجَعَلَ يَقُولُ : « خَبَأْتُ هَذَا لَكَ ، خَبَأْتُ هَذَا لَكَ » (١) .

* قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ سَاقَ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ : « هَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ ، وَإِنَّمَا أَعَدْتُهُ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي مَعَ أَبِيهِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ حَفِظَ الْمَسُورُ خُطْبَ النَّبِيِّ ﷺ » (٢) .

* وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : « خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّرْكِ وَالْأَوْثَانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا عِمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَدْفَعُ

(١) « الْمُسْتَدْرَكُ » (٣ / ٦٠١) ، حَدِيثُ رَقْمٍ : (٦٢٢٨) . وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ « صَحِيحِهِ » بِرَقْمٍ : (٢٥٩٩ وَ ٢٦٥٧ ، وَ ٣١٢٧ ، وَ ٥٨٠٠ ، وَ ٥٨٦٢ ، وَ ٦١٣٢) ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ بِرَقْمٍ : (١٠٥٨) ، وَأَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٦ / ٤٩٦) ، حَدِيثُ رَقْمٍ : (١٨٩٤٩) . وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ هَذَا الْحَدِيثَ فِي كِتَابِ « اللَّبَاسِ » بِرَقْمٍ : (٥٨٠٠) مُؤَكِّدًا عَلَى صَحْبَةِ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ ، وَجَاءَ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ : « وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسُورَ لَا صَحْبَةَ لَهُ » . « فَتَحُ الْبَارِي » (١٠ / ٢٨٢) .

(٢) « الْمُسْتَدْرَكُ » (٣ / ٦٠١) .

بعد أن تغيب ، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام إذا كانت الشمس منبسطة» (١) .

* قال الحاكم بعد أن أوردَ هذا الحديث : « هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ؛ قد صحَّ وثبتَ بما ذكرته سماع المسور بن مخرمة من رسول الله ﷺ ، لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممَّن له رواية بلا سماع » (٢) .

* وقد أكَدَ سيِّدنا المسورُ نفسه سماعه خطبَ رسول الله ﷺ فقال : « سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يخطُبُ على منبره ، وأنا يومئذٍ محتلمٌ » (٣) . وعقَّبَ الحاكم على قول سيِّدنا المسور بقوله : « هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه » (٤) .

* كان سيِّدنا المسور - رضي الله عنه - من صغار الصحابة الثَّبَاء

(١) « المستدرک » (٣ / ٦٠١) ، حديث رقم : (٦٢٢٩) .

(٢) « المستدرک » (٣ / ٦٠٢) . وقال يحيى بن معين رَحِمَهُ اللهُ : « مسور بن مخرمة ثقة ، إنما كتبتُ هذا للتَّعَجُّبِ ، فإنَّهم متَّفِقون على صحبة المسور ، وأنَّه سمعَ من النَّبِيِّ ﷺ » . « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٢٤٥) .

(٣) « المستدرک » (٣ / ٦٠٠) ، حديث رقم : (٦٢٢٤) . وعلَّقَ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ على هذا الحديث فقال : « ... وأنا محتلمٌ : وهذا يدلُّ على أنَّه - أي : المسور - ولد قبل الهجرة ، ولكنَّهم - أي : الزَّواة وكتَّاب التَّراجم - أطبقوا على أنَّه ولد بعدها ، وقد تأوَّل بعضهم أنَّ قوله : محتلم ، من الحِلْم ، بالكسر ، لا من الحِلْم ، بالضمِّ ، يريد أنَّه كان عاقلاً ضابطاً لما يتحلَّمه » . « الإصابة » (٣ / ٣٩٩) . وانظر : تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ص ١٩١) وذكر عليُّ بنُ الحسين بن عليٍّ : أنَّ المسور بن مخرمة أخبره : « أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يخطُبُ ويقول : « أما بعد » .

(٤) « المستدرک » (٣ / ٦٠٠) . وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في « التَّلخيص » : « رواه بالمعنى » .

العُقلاء ، فقد عَرَفَ كثيراً من الأخبار المَحْمَدِيَّة ، والسَّيِّرة المصطفويَّة ،
وشرطاً من علامات الثُّبُوَّة ، ومن ثَمَّ نَقَلَهَا لِلأُمَّة بِأَمَانَةٍ وَقُوَّة .

* أخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدٍ رَفَعَهُ إِلَى أُمِّ بَكْرٍ بِنْتِ الْمَسُورِ عَنْ
الْمَسُورِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : « مَرَّ بِي يَهُودِيٌّ وَأَنَا قَائِمٌ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ ،
وَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ ، فَقَالَ : ارْفَعْ ، أَوْ اكشِفْ ثَوْبَهُ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَذَهَبْتُ بِهِ
أَرْفَعُهُ ؛ فَضَحَّحَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْمَاءِ » (١) .

* وعن حفظ سيِّدنا المسور وروايته عن الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ ، يَقُولُ
مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو : « قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمَسُورُ بْنُ مَخْرَمَةَ ابْنِ ثُمَانِي سَنِينَ ،
وَقَدْ حَفَظَ عَنْهُ » (٢) .

* وَنَظَّلَعَ الْآنَ عَلَى بَعْضِ مَرْوِيَّاتِ الْمَسُورِ الَّتِي جَاءَتْ فِي دَوَاوِينِ
الْحَدِيثِ الْمُتَخَصَّصَةِ ، وَفِي مَقْدَمَتِهَا « صَحِيحُ الْإِمَامِ الْبَخَارِيِّ » رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً
وَاسِعَةً ، وَرَحِمْنَا مَعَهُ ، وَأَكْرَمْنَا بِفَضْلِهِ .

* أَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ فِي فُضَائِلِ الصَّحَابَةِ ، بَابَ مَنَاقِبِ سَيِّدِنَا الْفَارُوقِ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - ، عَنْ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ بْنِ
مَخْرَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : « لَمَّا طُعِنَ عَمْرٌو جَعَلَ يَأْلَمُ ، فَقَالَ لَهُ
ابْنُ عَبَّاسٍ - وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ - : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ ، لَقَدْ صَحِبْتَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا
بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحْبَتَهُمُ
فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمُ ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتَفَارِقْتَهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ . قَالَ : أَمَّا
مَا ذَكَرْتَ مِنْ صَحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِضَاهُ ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مِنْ مَنِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بِهِ
عَلَيَّ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صَحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مِنْ مَنِ اللَّهُ - جَلَّ

(١) « الْمُسْنَدُ » (٦ / ٤٨٧) ، حَدِيثُ رَقْمٍ : (١٨٩٣٠) .

(٢) « مُخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ » (٢٤ / ٣٠٦) .

ذِكْرُهُ - مَنْ بِهِ عَلَيَّ ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزْعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجَلِ أَصْحَابِكَ ،
وَاللَّهُ ؛ لَوْ أَنَّ لِي طَلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ
أَرَاهُ « (١) .

* وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَخْبَارِ الْمَغَازِي وَبَعْضِ الْأَحْكَامِ الْأُخْرَى الَّتِي لَهَا صِلَةٌ
بِالْوَكَاةِ وَالْهَبَةِ وَالشَّفَاعَةِ ، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ الْبَخَارِيِّ بِسَنَدٍ رَفْعَاهُ إِلَى
عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَالْمَسُورَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَاهُ : « أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفَدُّهُ هَوَازَنُ مُسْلِمِينَ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
وَسَبِيَهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ ، فَاخْتَارُوا
إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا السَّبْيِ ، وَإِمَّا الْمَالِ ، فَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ » - وَقَدْ
كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْتِظَرَهُمْ بَضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ - فَلَمَّا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، قَالُوا : نَخْتَارُ
سَبْيَنَا . فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَأَتْنِي عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ
قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ جَاؤُونَا تَائِبِينَ ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ
إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ
يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نَعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ » .

فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذَنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ بِرَقْمٍ : (٣٦٩٢) . وَقَوْلُهُ « كَأَنَّهُ يَجْزَعُهُ » : يَزِيلُ عَنْهُ الْجَزَعَ .
و« لَئِنْ كَانَ ذَاكَ » : لَا تَبَالُغْ فِي الْجَزَعِ فِيمَا أَنْتَ فِيهِ . وَ« صَحَبْتَهُمْ » : يَعْنِي
الْمُسْلِمِينَ . وَ« مَنْ » : عَطَاءٌ . وَ« طِلَاعُ الْأَرْضِ » ؛ أَيُّ : مَلَأُهَا ، وَأَصْلُ
الطَّلَاعِ : مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا مَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا وَيَشْرَفُ فَوْقَهَا مِنَ
الْمَالِ . وَ« قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ » ؛ أَيُّ : الْعَذَابِ ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لَغَلْبَةِ الْخَوْفِ الَّذِي وَقَعَ لَهُ
فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مِنْ خَشْيَةِ التَّقْصِيرِ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ الرِّعْيَةِ ، أَوْ مِنَ الْفِتْنَةِ
بِمَدْحِهِمْ .

فارجعوا حتَّى يرفعَ إلينا عرفاؤكم أمركم» . فرجعَ النَّاسُ ، فكلَّمهم عرفاؤهم ، ثمَّ رجعوا إلى رسولِ الله ﷺ ، فأخبروه أنَّهم قد طيَّبوا وأذنوا» (١) .

* ومن مرويات سيِّدنا المسور - رضي الله عنه - فيما أخرجه عنه الإمامُ أحمدُ قال : « سَمِعَتِ الْأَنْصَارُ أَنَّ أَبَا عبيدة قَدِمَ بِمَالٍ مِنْ قَبْلِ الْبَحْرَيْنِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، فَوَافُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَرَّضُوا ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ تَبَسَّمَ وَقَالَ : « لَعَلَّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عبيدة بنَ الجراح قَدِمَ وَقَدِمَ بِمَالٍ » ، قَالُوا : أَجَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قال : « أَبْشَرُوا وَأَمْلُوا خَيْرًا ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ إِذَا صَبَّتْ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا ، فَتَنَافَسْتُمُوهَا كَمَا تَنَافَسَهَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » (٢) .

* ومن المرويات المِسُورِيَّةِ الجميلة ؛ في تبيان مكانة سيِّدتنا الجليلة ، الثَّقِيَّةِ النَّبِيلَةِ ، فاطمة الزَّهراء - رضي الله عنها وأرضاها - ، ما جاء في الصَّحيح وغيره بسندٍ عن سيِّدنا المسور بن مخرمة - رضي الله عنهما - قال : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ : « إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمَغيرة اسْتَأْذَنُوا فِي أَنْ يُنْكَحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَا آذَنَ ، ثُمَّ لَا آذَنَ ، ثُمَّ لَا آذَنَ ، إِلَّا أَنْ يَرِيدَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَطْلُقَ ابْنَتِي وَيُنْكَحَ ابْنَتَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيدُنِي مَا أَرَاهَا ، وَيُؤْذِنُنِي مَا آذَاهَا » (٣) .

(١) « المسند » (٦ / ٤٩٣) ، حديث رقم : (١٨٩٣٦) ، وأخرجه البخاريُّ برقم : (٢٣٠٧ ، ٢٣٠٨) .

(٢) « المسند » (٦ / ٤٩٤) ، حديث رقم : (١٨٩٣٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ برقم : (٥٢٣٠) ، وكذلك في مواضع أخرى ؛ ومسلمٌ برقم : (٢٤٤٩) ، وأخرجه كذلك أحمد في « المسند » (٦ / ٤٩٥ - ٤٩٦) ، حديث رقم : (١٨٩٤٨) ، ومصادر أخرى كثيرة جداً . وقوله « سمعتُ . . . » : كان ابنُ ثمان سنين ويريدُ أنَّه كان كالمحتلم في الحلق والفهم =

والحفظ . و « فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن » : كَرَّرَ ذلك تأكيداً ، وفيه إشارة إلى تأييد مدة منع الإذن ، وكأنَّه أراد رفع المجاز لا احتمال أن يحمل النَّبيُّ على مدة بعينها ، فقال : « ثم لا آذن » ؛ أي : ولو مضت المدة المفروضة تقديرًا لا آذن بعدها ، ثم كذلك أبدأ . و « أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم » : قال ابنُ التَّين : « أصح ما تحمل عليه هذه القصة أن النَّبيَّ ﷺ حرَّم على عليٍّ أن يجمع بين ابنته ، وبين ابنة أبي جهل ؛ لأنَّه علل بأنَّ ذلك يؤذيه ، وأذيتُه حرام بالاتفاق » . وقال ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ : « والذي يظهر لي أنَّه لا يبعد أن يعدَّ في خصائص النَّبيِّ ﷺ ألاَّ يُتزوجَ على بناته ، ويحتمل أن يكونَ ذلك خاصًّا بفاطمة - رضي الله عنها - . و « بضعة مني » : قطعة . والسَّبب في ذلك أنَّها كانت أصيبت بأمِّها ، ثم بأخواتها واحدة بعد واحدة ، فلم يبقَ لها من تستأنس به ممَّن يخفف عليها الأمر ممَّن تفضي إليه بسرِّها إذا حصلت لها الغيرة . وفي الحديث : تحريم أذى من يتأذى النَّبيَّ ﷺ بتأذيه ؛ لأنَّ أذى النَّبيِّ ﷺ حرام اتفاقاً قليله وكثيره ، وقد جزم بأنَّه يؤذيه ما يؤذي فاطمة - رضي الله عنها - ، فكلُّ من وقع منه في حقِّ فاطمة شيء فتأذت به ، فهو يؤذي النَّبيَّ ﷺ بشهادة هذا الخبر الصَّحيح .

قال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ في شرح هذا الحديث النَّبويِّ الشَّريف : قال العلماء : « في هذا الحديث تحريمُ إيذاء النَّبيِّ ﷺ بكل حال ، وعلى كلِّ وجه ، وإن تولَّد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحاً ، وهو حيٌّ ، وهذا بخلاف غيره .

قالوا : وقد أعلم ﷺ بإباحة نكاح بنت أبي جهل لعليٍّ بقوله : « لستُ أحرم حلالاً » ، ولكن نهى عن الجمع بينهما لعلَّتين منصوصتين :

إحداهما : أنَّ ذلك يؤدي إلى أذى فاطمة ، فيتأذى حينئذ النَّبيُّ ﷺ فيهلك من أذاه ، فنهى عن ذلك لكمال شفقتِه على عليٍّ وفاطمة .

والثَّانية : خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة . وقيل : ليس المراد به النَّهي عن جمعهما ، بل معناه : أعلم من فضل الله أنَّهما لا تجتمعان ، ويحتمل أنَّ المراد تحريمُ جمعهما . ويكون معنى « لا أحرم حلالاً » ؛ أي : لا أقول شيئاً يخالفُ حكمَ الله ، فإذا أحلَّ شيئاً لم أحرمه ، وإذا حرَّمه لم أحلِّله ، ولم أسكت عن تحريمه ؛ لأنَّ سكوتي تحليلٌ له ، ويكون من جملة محرمات النِّكاح الجمع بين بنت =

المسور وكبراء الصحابة :

* نشأ سيّدنا المسور - رضي الله عنه - نشأة الأصفياء ، ولزم الصحابة الأعلام والكبراء ؛ وكان ممّن يلزم سيّدنا عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - ، ويحفظ عنه ، وكان من أهل الفضل والدين ؛ ولم يزل مع خاله عبد الرّحمن بن عوف - رضي الله عنه - مقبلاً ومدبراً في أمر الشورى - بعد أن طعن عمر - حتّى فرغ سيّدنا عبد الرّحمن من مهمّته ، وباع الناس سيّدنا عثمان رضي الله عنه ^(١) .

* وقد ساق ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ قصّة مبايعة سيّدنا عثمان - رضي الله عنه - ، وكيف اجتهد سيّدنا عبد الرّحمن بن عوف في هذا الأمر ، ودور سيّدنا المسور في هذه القصّة فقال ما مفاده وما خلاصته : « ... ثمّ نهض عبد الرّحمن بن عوف - رضي الله عنه - يستشير الناس فيهما - أي : عثمان وعلي رضي الله عنهما - ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً ، مثني وفرادي ، ومجتمعين ، سرّاً وجهراً ، حتّى خلص إلى النساء المخدّرات في حجابهنّ ، وحتّى سأل الولدان في المكاتب ، وحتّى سأل من يرد من الرّكبان والأعراب إلى المدينة ، في مدّة ثلاثة أيّام بلياليها ، فلم يجد اثنين مختلفين في تقدّم عثمان بن عفان ، إلا ما ينقل عن عمّار والمقداد أنّهما أشارا بعليّ بن أبي طالب ، ثمّ بايعا مع الناس فسعى في ذلك

= نبي الله ، وبنت عدو الله » . « المنهاج » (ص : ١٧٨١) .

أقول : « من أراد المزيد في هذا الأمر فليرجع إلى كتابي : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٣٢٧ - ٣٣٠) و « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٥٧٣ - ٥٧٧) ففيهما ما يسرّ الفؤاد ، بإذن ربّ العباد .

(١) « نسب قريش » (ص : ٢٦٣) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٦) ، و « البداية والنهاية » (٧ / ١٤٦ - ١٤٧) ، و « الاستيعاب » (٣ / ٣٩٧) مع الجمع بينها .

عبد الرَّحْمَنِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَلِيَالِيهَا لَا يَغْتَمِضُ بِكَثِيرٍ نَوْمٍ إِلَّا صَلَاةً وَدُعَاءً وَاسْتِخَارَةً
وَسُؤَالًا مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ عَنْهُمْ ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا يَعْدِلُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ - ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي يَسْفِرُ صَبَاحُهَا عَنِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ مَوْتِ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، جَاءَ إِلَى مَنْزِلِ ابْنِ أُخْتِهِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ ،
فَقَالَ : أَنَاثُمَّ يَا مَسُورُ ؟ وَاللَّهِ لَمْ أَغْتَمِضْ بِكَثِيرٍ نَوْمٍ مِنْذُ ثَلَاثَ ، اذْهَبْ فَادْعُ إِلَيَّ
عَلِيًّا وَعُثْمَانَ .

قال المسورُ : فقلتُ بأيَّهما أبدأ ؟

فقال : بأيَّهما شئتُ ؟

قال : فذهبتُ إلى عليٍّ فقلتُ : أحبُّ خالي .

فقال : أَمَرَكَ أَنْ تدعُوَ معي أحداً ؟

قلتُ : نعم .

قال : مَنْ ؟

قلت : عثمانُ بنُ عفَّان .

قال : بأيَّنا بدأ ؟

قلت : لم يأمرني بذلك ، بل قال : ادْعُ لي أيَّهما شئتُ أولاً ، فجئتُ
إليك .

قال : فخرجَ معي ، فلَمَّا مررنا بدارِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ جَلَسَ عَلَيَّ حَتَّى
دَخَلْتُ ، فوجدتهُ يوترُ معَ الفجرِ ، فقال لي كما قال لي عليٌّ سواء ، ثُمَّ خَرَجَ ،
فدَخَلْتُ بهما على خالي وهو قائم يصلي ، فلَمَّا انصرفَ أَقْبَلَ عَلَيَّ عَلِيٌّ
وعُثْمَانُ ، فقال : إِنِّي قد سألتُ النَّاسَ عَنْكُمَا فلم أَجِدْ أَحَدًا يَعْدِلُ بِكُمَا أَحَدًا ،
ثُمَّ أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا أَيضاً لئن وُلَّاهُ ليعْدِلَنَّ ، ولئن وُلِّيَ عليه ليسمعَنَّ
وليُطيعَنَّ ، ثُمَّ خَرَجَ بهما إلى المسجدِ ، وقد لبسَ عبدُ الرَّحْمَنِ الْعِمَامَةَ الَّتِي
عَمَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وتقلَّدَ سِيفاً ، وبعثَ إلى وجوه النَّاسِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

والأنصار ، وتؤدي في النَّاس عامة : الصَّلَاة جامعةً ثمَّ صَعِدَ عبد الرَّحْمَنِ بن عوف منبرَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ثمَّ تكلَّم فقال : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي سألتكم سرّاً وجهراً بأمانيتكم فلم أجِدْكم تعدُّون بأحدٍ هَٰذَيْنِ الرجلَيْنِ إمَّا عليّ وإمَّا عثمان وبعد حوار بسيط مع سيِّدنا علي وعثمان ، أقبل النَّاس فبايعوا سيِّدنا عثمان ، وبايعه سيِّدنا عليّ أوَّلاً » (١) .

* وجاء في رواية الإمام البخاريّ بسنده عن سيِّدنا المسور بن مخرمة - رضي الله عنهما - أنّه قال من حديثٍ طويلٍ عن بيعة سيِّدنا عثمان - رضي الله عنه - : « . . . قال المسورُ طرقي عبدُ الرَّحْمَنِ بعد هَجْع من الليل ، فضربَ الباب حتّى استيقظتُ ، فقال : أراك نائماً ، فوالله ما اكتحلْتُ هَٰذِهِ الثَّلَاثَ بكثيرِ نوم ، انطلقُ فادعُ الرُّبَيْرَ وسَعْدًا ، فدعوتهما له ، فشاورهما ، ثمَّ دعاني فقال : ادعُ لي علياً ، فدعوته ، فناجاه حتّى ابهأَ الليل ، ثمَّ قامَ عليٌّ من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبدُ الرَّحْمَنِ يخشى من عليٍّ شيئاً ؛ ثم قال : ادعُ لي عثمان ، فدعوته ، فناجاه حتّى فرق بينهما المؤدّن بالصُّبْح ، فلمَّا صلّى للنَّاس الصُّبْح ، واجتمع أولئك الرّهط عند المنبر ، فأرسل إلى مَنْ كان حاضراً من المهاجرين والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحَجَّة مع عمر - فلمَّا اجتمعوا ، تشهَّد عبدُ الرَّحْمَنِ ، ثمَّ قال : أمّا بعدُ يا عليُّ ! إِنِّي نظرتُ في أمر النَّاس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلَنَّ عليّ نفسِكَ سبيلاً ، فقال أبايعك على سُنَّةِ اللَّهِ ، وسُنَّةِ رسوله ، والخليفتَيْنِ من بعده ، فبايعه عبدُ الرَّحْمَنِ وبايعه النَّاس : المهاجرون والأنصار ، وأمراء الأجناد والمسلمون » (٢) .

* وكان سيِّدنا عمرُ - رضوان الله عليه - يرى أنَّ المسورَ - رضي الله عنه - من خيرة فتيان قريش في عِفَّتِهِ وورعه ودينه ، فكان يكرِّمُهُ ويقدمه ، وهذا

(١) « البداية والنهاية » (٧ / ١٤٦ - ١٤٧) بشيء من التصرّف .

(٢) أخرجه البخاريّ في الأحكام برقم : (٧٢٠٧) .

ما روي عن إبراهيم بن حمزة قال : « أتى عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - ببرود من اليمن ، فقسّمها بين المهاجرين والأنصار ، وكان فيها بُزْدٌ فائقٌ لها ، فقال : إنّ أعطيته أحداً منهم غضب أصحابه ، ورأوا أنّي فضّلتهم ، فدلّوني على فتى من قريش نشأ نشأة حسنة أعطيته إياها ، فأسموا له المسور بن مخرمة ، فدفعه إليه ، فنظر إليه سعد بن أبي وقاص على المسور ، فقال : ما هذا ؟

فقال : كسانيه أمير المؤمنين .

فجاء سعد إلى عمر فقال : تكسوني هذا البرد ، وتكسو ابن أخي مسوراً أفضل منه ؟ !

قال له : يا أبا إسحاق ، إنّني كرهت أن أعطيه أحداً منكم فيغضب أصحابه ، فأعطيته فتى نشأ نشأة حسنة لا يتوهم فيه أنّي فضّلتهم عليكم .

فقال سعد : فإنّي قد حلفت لأضربن بالبرد الذي أعطيتني رأسك ، فخضع له عمر رأسه ، وقال : عندك يا أبا إسحاق ، وليرفّق الشّيع بالشّيع ، فضرب رأسه بالبرد « (١) » .

* وتشير الأخبار العمرية المسورية الماتعة إلى رضا عمر عن المسور فيما يقوم به من عمل لمصلحة المسلمين ، فقد ورد أنّ سيّدنا المسور آخر إماماً ألثغ لا يفصح في كلامه ، فرضي سيّدنا عمر بذلك العمل النافع المثمر .

* فعن المسور - رضي الله عنه - : « أنّه خرج تاجراً إلى سوق ذي المجاز ، أو عكاظ ، فإذا رجلاً من الأنصار يؤمّ الناس أركباً ، أو ألثغ ، فأخّره وقدم رجلاً ، فغضب الرجل المؤخّر ، فأتى عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ المسور أخّرني وقدم رجلاً ، فغضب عمر - رضي الله عنه - ، وجعل يقول : واعجباً لك يا مسور ! وجعل يرسل إلى بيته ، فلمّا قدم المسور أخبر

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٦ - ٣٠٧) .

بذلك ، فأتاه ، فلمَّا رآه طالِعاً قال : واعجباً لك يا مسور ! .

فقال : لا تعجلْ يا أمير المؤمنين ! فوالله ما أردتُ إلا الخير .

قال : وأي خير في هذا ؟

فقال : إنَّ سوقَ عكاظ - أو ذا المجاز - اجتمعَ فيها ناسٌ كثيرٌ ، عامَّتْهم لم يسمع القرآن ، وكان الرَّجُلُ أَرَتَّ أو أَلْثَغَ ، فخشيتُ أنْ يتفرَّقُوا بالقرآن على لسانِهِ ، فأخَرْتُهُ ، وقَدَّمتُ رجلاً عربياً بيناً .

فقال عمرُ : جزاك الله خيراً « (١) » .

* ولهذا كان سيِّدنا المسورُ شديدَ اللصوقِ بسيِّدنا عمرَ يتعلَّم منه ، أخرج ابنُ سعد عن أمِّ بكر بنتِ المسور عن أبيها المسور بن مخرمة قال : « كُنَّا نلزمُ عمرَ بنَ الخطَّاب - رضي الله عنه - نتعلَّم منه الورع » (٢) .

* كان سيِّدنا عمرُ يُعلِّمُ المسورَ ومنَ في طبقتِهِ العِلْمُ النَّافِعُ ، ويرشدهُم إلى التَّحليِّ بكلامِ الله صَبَاحَ مساءً ، فقد جاء عن سيِّدنا المسور أنَّه سمعَ عمرَ بنَ الخطَّاب - رضي الله عنه - يقول : « تعلِّموا سورةَ البقرة ، وسورةَ النساء ، وسورةَ المائدة ، وسورةَ الحجِّ ، وسورةَ الثُّور ، فإنَّ فيهنَّ الفرائض » (٣) .

* ومنَ صُورِ تعليمِ سيِّدنا عمرَ لأصحابِهِ ، هذه الصُّورةُ الفريدةُ التي تفيدنا كلَّنا في حياتنا الاجتماعيَّة وحياتنا النَّفسيَّة ، فقد كان سيِّدنا عمرُ - رضي الله عنه - يخافُ من زخرفِ الحياةِ الدُّنيا ويخشى بَسْطَها ودَعَتَها ، ويبكي خيفةَ فتنَةِ المالِ ، وهذا ما رواه سيِّدنا المسورُ بنُ مخرمة - رضي الله عنهما - قال : « أتني عمرُ بن الخطَّاب - رضي الله عنه - بغنائمٍ من غنائمِ القادسيَّة ، فجعلَ يتصفَّحُها ، وينظرُ إليها ، وهو يبكي ، ومعه

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٧) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٩٠) .

(٣) « شرح حياة الصَّحابة » (٣ / ٦٧٣) .

عبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - رضي الله عنه - ، فقال له عبدُ الرَّحْمَنِ : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! هَذَا يَوْمٌ فَرِحَ ، وَهَذَا يَوْمٌ سُرُورٌ .

فقال : أَجَلٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْتَ هَذَا قَوْمٌ قَطَّ ، إِلَّا أَوْرَثَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ « (١) .

* استفادَ سَيِّدُنَا الْمَسُورُ فَوَائِدَ كَثِيرَةً مِنَ الصُّحْبَةِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَارَ يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ حَبَّ سَيِّدِنَا عَمْرٍَ لِلصَّلَاةِ حَتَّى وَهُوَ فِي اللَّحْظَاتِ الْحَرْجَةِ مِنْ حَيَاتِهِ الْمُبَارَكَةِ الْمَثْمُرةِ النَّافِعَةِ .

* ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ - رضي الله عنهما - : « أَنَّ عَمْرَ - رضي الله عنه - لَمَّا طَعِنَ جَعَلَ يَغْمِي عَلَيْهِ ، فَقِيلَ : إِنَّكُمْ لَنْ تَفْزَعُوهُ بِشَيْءٍ مِثْلَ الصَّلَاةِ إِنْ كَانَتْ بِهِ حَيَاةٌ . فقال : الصَّلَاةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! الصَّلَاةُ قَدْ صُلِّيَتْ ، فَانْتَبَهَ فَقَالَ : الصَّلَاةُ هَا اللَّهُ إِذَا وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ ، فَصَلَّى وَإِنْ جَرَحَهُ لِيَتَعَبُ دَمًا » (٢) .

* وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ سَيِّدِنَا الْمَسُورِ - رضي الله عنه - قَالَ : « دَخَلْتُ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - وَهُوَ مُسَجِّى ، فَقُلْتُ : كَيْفَ تَرُونَهُ ؟ قَالُوا : كَمَا تَرَى .

قلت : أَيْقِظُوهُ بِالصَّلَاةِ ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَوْقِظُوهُ لَشَيْءٍ أَفْزَعَ لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ .

فَقَالُوا : الصَّلَاةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

فقال : هَا اللَّهُ إِذَا ! وَلَا حَقَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ . فَصَلَّى وَإِنْ جَرَحَهُ لِيَتَعَبُ دَمًا » (٣) .

(١) « شرح حياة الصَّحابة » (٢ / ٣٨٧) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٥٠) .

(٣) « مجمع الزوائد » (١ / ٢٩٥) وقال الهيثمي : « رواه الطبراني في « الأوسط » =

* ومن أخبارِ سيّدنا المسور مع كبراء الصّحابة وأعيانهم ، ما رواه المسورُ نفسه قال : « بينما أنا أسيرُ في ركبٍ بين عثمانَ وعبدِ الرّحمن بن عوف ، وعبدُ الرّحمن قُدّامي عليه خميصٌ سوداءُ ، فقال عثمانُ : مَنْ صاحبُ الخميصة السّوداء ؟ !

قالوا : عبدُ الرّحمن بنُ عوف .

فناداني عثمانُ يا مسورُ .

فقلت : لبيك يا أمير المؤمنين !

فقال : مَنْ زعمَ أنّه خيرٌ من خالك في الهجرة الأولى ، وفي الهجرة الآخرة فقد كذبَ » ^(١) .

* وعن سخاء سيّدنا عبد الرّحمن بن عوف روثُ أمِّ بكر بنت المسور بأنّه باع أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار ، فقسم ذلك في فقراء بني زُهرة ، وفي ذي الحاجة من النّاس ، وفي أمّهات المؤمنين . قال المسور - رضي الله عنه - : « فأتيتُ عائشة - رضي الله عنها - بنصيبها من ذلك .

فقلت : مَنْ أرسلَ بهذا ؟

قلت : عبدُ الرّحمن بن عوف .

فقلت : إنّ رسولَ الله ﷺ قال : « لا يحنو عليكم بعدي إلا الصّابرون » سقى الله ابنَ عوفٍ من سلسبيل الجنّة » ^(٢) .

= ورجاله رجال الصّحيح .

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٢٥) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٣٢ - ١٣٣) بتصرّف يسير .

مع ابن عباس ومعاوية :

* لسيدنا المسور أخبارٌ ساطعةٌ مع أبناء الصحابة ، ومنهم ابن عباس ، فقد اعتلَّ المسورُ فجاءه ابنُ عباس يعوده نصف النهار ، فقال المسور : « يا أبا عباس ! هلاً ساعة غير هذه ؟ ! »

قال ابن عباس : إنّ أحبَّ الساعات إليّ أن أؤدي فيها الحقَّ أشقها عليّ » (١) .

* ولهذا الصحابي ابن الصحابي سيدنا المسور أخبارٌ جميلةٌ مع الصحابي ابن الصحابي ابن الصحابي معاوية بن أبي سفيان وأمه هند بنت عتبة - رضي الله عنهم أجمعين - ، ومن طاقات هذه الأخبار وزهرها ما رواه عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : « إنّ المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - ، فقصى حاجته ، ثمّ دعاه فأخلاه ، فقال : يا مسور ! ما فعل طعنك على الأئمة ؟ قال مسور - رضي الله عنه - : دُعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له . قال معاوية : لا والله لا تكلمني بذات نفسك بالذي تعيب عليّ . »

قال مسور : فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينته له .

فقال معاوية : لا براء من الذنب ، فهل تعدُّ يا مسور مماتلي من الإصلاح في أمر العامة ، فإنَّ الحسنَةَ بعشر أمثالها ، أم تعدُّ الذنوب وتترك الإحسان ؟

قال المسور : لا والله ؛ ما تذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب . فقال له معاوية : فإنَّنا نعرف الله بكلِّ ذنب أذنبناه ، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟

قال مسور : نعم .

(١) « عيون الأخبار » (٣ / ٥١) ، و « التذكرة الحمدونية » (٤ / ٣٣٨ - ٣٣٩) .

قال : فما يجعلك برجاء المغفرة أحقّ منّي ؟ فوالله لَمَا أَلِي من الإصلاح أكثر ممَّا تَلِي ، ولكنَّ والله لا أخير بين أمرين بين الله وغيره إلا اخترتُ الله على سواه ، وإِنِّي لعلّ دين يُقبلُ فيه العملُ ، ويجزئُ فيه بالذنوب ، إلا أن يعفو الله عنها ، وإِنِّي أحتسبُ كلَّ حسنة عملتها بأضعافها من الأجر ، وألِي أموراً عظماً لا أحصيها ولا يحصيها مَنْ عمل لله بها في إقامة الصلوة للمسلمين ، والجهاد في سبيل الله ، والحكم بما أنزل الله ، والأمور التي لست أحصيها عدداً فيكفي في ذلك .

قال المسورُ : فعرفتُ أنَّ معاويةً قد خصمني حين ذكرَ ما ذكرَ . قال عروةُ بنُ الرُّبَيْرِ : فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلّى عليه « (١) » .

* كان سيّدنا المسور - رضي الله عنه - يعترف بالفضل لهؤلاء الصّحابة الأعيان ، وكان يقول : « لقد وارت الأرضُ أقواماً لو رأوني معكم لاستحييتُ منهم » (٢) .

* روت ابنةُ المسور أم بكر بعضَ الأخبارِ التّفيسة عن أبيها ومنها أنّها

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٧ - ٣٠٨) ، وانظر : « تاريخ بغداد » (١ / ٢٠٨ - ٢٠٩) ، و « البداية والنهاية » (٨ / ١٣) ، ونلاحظُ في هذا الخبر الطّريف أموراً نافعة ، حيث نجد فرّق الإقناع ، وإطفاء غضب المخالفين ، واستيعابهم ، فقد استطاع سيّدنا معاوية رضي الله عنه أن يقنع المسور رضي الله عنه وأن يبيّن له سياسته التي يسيّر عليها ، وبالتالي عاد المسور مادحاً داعياً لمعاوية مستغفراً له ، بعد أن كان مهاجماً جريئاً ، وناقداً له .

ومن الواضح أنّ سيّدنا معاوية قد لفت نظرَ المسور بطريقة تربويّة جميلة ، حيث أبان أنّ من العدل في الحكم على المسلم أن ينظرَ الحاكمُ إلى حسناته وصوابه ، وينظرَ إلى خطئه وسيئاته ، ومن ثم يوازن بين الجانبين ، فلعلّ هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدّى لتقده تكون له حسنات كثيرة جليلة ، قد لا تعدّ أخطاؤه إلى جانبها شيئاً مذكوراً .

(٢) « عيون الأخبار » (٢ / ٣٧٢) .

قالت : « كان المسورُ بنُ مخرمة ، إذا قدم مَكَّةَ ، طاف لكلِّ يومٍ غاب عنه سبْعاً ، وكان يفرِّقُ بين الأسابيع ، ثمَّ يصلُّ لكلِّ أسبوعٍ ركعتين ، وكان يصومُ الدَّهْرَ » .

* أمّا عن حضوره يومَ القادسية مُجاهداً فتقول أمُّ بكر عن أبيها : « أنَّه وَجَدَ يومَ القادسيَّةِ إبريقَ ذهبٍ عليه الياقوت والزُّبرجد ، فلم يَدِرْ ما هو ، فلقبهُ فارسيٌّ فقال : آخذه بعشرة آلاف ، فعرف أنَّه شيءٌ ، فذهب به إلى سعدِ بنِ أبي وقاص - رضي الله عنه - وأخبره خبره ، فنقلهُ إيَّاه ، وقال : لا تبعه بعشرة آلاف ، فباعه له بمئة ألف ، فدفعها إلى المسور ولم يخمسها » ^(١) .

كيف ماتَ المسور ؟

* ظلَّ سيِّدنا المسورُ - رضي الله عنه - في المدينة المنورة مرعي الجانب طيلةَ عَهْدِ الخلفاء الرَّاشدين ، وخلافة معاوية - رضي الله عنهم أجمعين - ، فلمَّا توفي سيِّدنا معاوية سنة (٦٠ هـ) بالشَّام ، انحاز إلى مَكَّةَ ، وكرهَ بيعَةَ يزيدَ بنِ معاوية ، وصار مع سيِّدنا عبدِ الله بنِ الزُّبير - رضي الله عنهما - ؛ إذ كان ابنُ الزُّبير لا يقطعُ أمراً دونَ المسور بمَكَّةَ .

* ولم يزلِ المسورُ - رضي الله عنه - بمَكَّةَ حتَّى قدم الحُصينُ بنُ نمير ، وحضرَ حصارَ عبدِ الله بنِ الزُّبير وأهل مَكَّةَ ، وكانت الخوارجُ تغشى المسورَ وتعظِّمه ، وينتحلون رأيه ، حتَّى قُتِلَ تلك الأيَّام أصابه حجرُ المنجنيق ، فماتَ في ذلك ^(٢) .

* نتعرَّف تفصيلَ هذا الأمر من شرحبيل بنِ أبي عون إذ قال : « لمَّا دنا الحُصينُ بنُ نمير من مَكَّةَ ، أخرجَ المسورُ بنُ مخرمة سلاحاً قد حمّله من المدينة ودروعاً ، ففرَّقها في مَوالٍ له كهول فُرسٍ جُلْد ، فدعاني ثمَّ قال

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٨) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ٣٩٢) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٦) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٢٤٥) مع الجمع بينهما .

لي : يا مولى عبد الرحمن بن مسور ، قلت : لبيك .

قال : اختر درعاً من هذه الأدرع .

قال : فاخترت درعاً وما يصلحها ، وأنا يومئذ شاب غلامٌ حَدَثٌ ،
فرايتُ أولئك الفرس قد غَضِبُوا وقالوا : تخيّر هذا الصّبي علينا ! والله لو جدّ
الجدّ تركك .

فقال المسورُ : لتجدنّ عنده حزمًا .

فلَمَّا كانتِ الواقعةُ وكان القتالُ ، لبس المسورُ سلاحه ، درعاً
وما يصلحها ، فأحدقَ به مواليه ، ثمّ انكشفوا عنه ، واختلطَ النَّاسُ ، فالمسورُ
يضربُ بسيفه ، وابنُ الرُّبَيْرِ في الرّعيْلِ الأوّلِ يرتجزُ قُدُمًا ، ومصعبُ بنُ
عبد الرّحمن بن عوف معه يفعلان الأفاعيل ، إلى أنْ أحدقتْ جماعةٌ منهم
بالمسورِ ، فقام دونه مواليه ، فذبُّوا عنه كلّ الذّبِّ ، وجعل يصيحُ بهم ويكتّهم
بكناهم ، فما خُلِصَ إليه ، ولقد قتلوا من أهل الشّام يومئذ نفراً ^(١) .

* وعن أمّ بكر بنت المسور ، وأبي عون قالا : « أصاب المسورُ بنَ
مخرمة حجرٌ من المنجنيق ضَرَبَ البيتَ ، فانفلقَ منه فِلَقَةٌ ، فأصابَتْ حَدَّ
المسور وهو قائمٌ يصلي ، فمَرَضَ منها أياماً ، ثمّ مات في اليوم الذي جاء فيه
نعيُّ يزيد بن معاوية ، وابن الرُّبَيْرِ يومئذ لا يسمّى بالخلافة ، بل الأمر
شُورَى » ^(٢) .

* وزادت أمّ بكر بنت المسور قالت : « كنتُ أرى العِظام تُنزعُ من
صفحتِهِ ، وما مكث إلا خمسة أيّام ومات » ^(٣) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣٠٩) ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي

(حوادث : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٢٤٦ - ٢٤٧) مع الجمع بينهما .

(٢) « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٢٤٧) .

(٣) المصدر السابق عنه .

* وقال أبو عون : « قال لي المسورُ : هاتِ درعي ، فلبسَها ، وأبى أن يلبسَ المِغْفَرَ ، وتُقبِلُ ثلاثةُ أحجار ، فيضربُ الأوَّلَ الرُّكْنَ الذي يلي الحِجَرَ ، فخرقَ الكعبةَ حتَّى تغيَّبَ ، ثمَّ اتبعه الثاني في موضعه ، ثم الثالثَ فينا ، وتكسَّرَ منه كسرةٌ ، فضربتُ خَدَّ المسورِ وصدَّغَه الأيسرَ ، فهشمتَه هشماً ، فغُشي عليه ، واحتملته أنا ومولَّى له ، وجاء الخبرُ ابنُ الرُّبَيْرِ ، فأقبلَ يعدو ، فكان فيمن حمله ، وأدركنا مصعبُ بنُ عبد الرَّحْمَنِ ، وعُبَيْد بنُ عُمَيْرٍ ، فمكثَ يومه لا يتكلَّمُ ، فأفاقَ من الليل ، وعهد ببعض ما يريد » (١) .

* وعن كيفية غَسْلِ المسورِ ودَفَنِهِ يقول أبو عون : « حضرنا غَسْلَ المسورِ ، وبنوهُ حضورٌ ، فولى ابنُ الرُّبَيْرِ غسله ، فغَسَلَهُ الغَسْلَةَ الأولى بالماءِ القراحِ ، والثَّانية بالماءِ والسِّدْرِ ، والثَّالثة بالماءِ والكافورِ ، ووضَّأَ بعد أن فرغَ من غسله ، ومضمضه وأنشقه ، ثمَّ كفَّأَهُ في ثلاثةِ أثوابٍ أحدها حَبْرَةٌ ، فرأيتُ ابنَ الرُّبَيْرِ حمله بين العمودَيْنِ ، فما فارقه حتَّى صُلِّيَ عليه بالحَجَّونِ ، وإنا لَنَطَأُ به القتلى ، وأهلُ الشَّامِ صلَّوا عليه معنا ، ونهانا ابنُ الرُّبَيْرِ يومئذ أن نحملَ معه مَجْمَرَةً ، ثمَّ انتهينا إلى قبره ، فنزلَ بنوهُ في قبره ، وابنُ الرُّبَيْرِ يسُلُّه من قِبَلِ رجلي القبرِ » (٢) .

* كانت وفاةُ سيِّدنا المسورِ في شهر ربيع الآخر سنة (٦٤ هـ) (٣) ، وعمره قرابة (٦٢ عاماً) قَضَاهَا بين العِلْمِ والعَمَلِ .

* رضي الله عن المسورِ بن مخرمة ، ونفعنا بسيرته وسير أبنائه الصَّحابة ، ورضي الله عن الصَّحابة أجمعين ، وحشرنا في معيَّتهم .



(١) المصدر السابق .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٤ / ٣١٠) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٣٩٤) .

يزيدُ بنُ أبي سفيان

رضي الله عنهما

- * كان من العُقلاء ، والشُّجعان المذكورين ، يُسمَّى يزيد الخير .
- * من كُتَّاب الوحي ؛ ومن القادة الفاتحين المُظفِّرين .
- * له مكانة عند الخليفتين أبي بكر وعُمر ؛ وتوفي سنة (١٨ هـ) .

يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما

من الرجال الأخيار :

* إذا أردنا أن نختارَ ابناً خيراً من أبناء الصَّحابة ، وبالتَّحديد من أبناء الأسرة السُّفْيَانِيَّة ، فَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نختارَ رجلَ الخيرِ فيها يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمِّية الأمويِّ ^(١) ، أخو معاوية من أبيه ، ويُقال له يزيد الخير ، أمَّا أمُّه فهي من بني كنانة ، وتدعى : زينب بنت نوفل الكنانِيَّة ، وهو كذلك أخو أمِّ حبيبة أم المؤمنين رَمْلَة بنت أبي سفيان القرشِيَّة ^(٢) - رضي الله عنها وعن أمَّهات المؤمنين أجمعين - .

* كان يزيدُ بنُ صخر - أبي سفيان - الأمويُّ أبو خالد أحد رجال

-
- (١) « البداية والنهاية » (٧ / ٩٥) ، و « معرفة الصَّحابة » (٤ / ٤٠٠) ترجمة رقم (٣٠٢٥) . و « سير أعلام النبلاء » (١ / ٣٢٨ - ٣٣٠) ، و « طبقات ابن سعد » (٧ / ٤٠٥ - ٤٠٦) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٢ - ٣٦٧) ، و « نسب قريش » (ص : ١٢٥ - ١٢٦) ، و « شرح حياة الصَّحابة » (انظر : فهرس الأعلام : ٤ / ٨٤٣) ، و « الاستيعاب » (٣ / ٦١٢ - ٦١٣) ، و « الإصابة » (٣ / ٦١٩) ، و « أسد الغابة » (٤ / ٧١٥ - ٧١٦) ، ومصادر أخرى لا تحصى .
- (٢) اقرأ سيرة سيِّدتنا وأمنا أم حبيبة بنت أبي سفيان في الباب الأوَّل من موسوعتنا المباركة : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٣٨١ - ٤١٤) ، ط : ٦ - دار اليمامة بدمشق ، فسيرتها صفاء في نقاء في سناء - رضي الله عنها - .

بني أمية شجاعة وإقداماً ، وحزماً وعزماً ، وُلد هذا الرَّجُلُ الفُذُّ في مَكَّةَ
المَكْرَمَةِ أرضِ الحرم ، ومهوى الأفتدة ، ولا نعلم بالتحديد متى كان مولده ،
إلا أنَّ الدَّلَّالَ تشيرُ إلى أنَّه وُلد قبلَ البعثةِ المَحَمَّدِيَّةِ ، وقبلَ ظُهورِ سناءِ
الإسلامِ وانتشارِهِ في أمِّ القرى وَمَنْ حولها ، ليعمَّ الدُّنيا بأسرها .

* وَلَمَّا أذنَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - للإسلامِ بأنَّ يظهر ، وقفَ زعيمُ الأسرةِ
السُّفْيَانِيَّةِ معارضاً الدَّعوةَ بادئِ الأمرِ ، بيدَ أنَّه لم نعثِرْ على أيِّ دليلٍ يذكُرُ لنا أنَّ
يزيدَ بنَ أبي سفيانٍ عارضَ الدَّعوةَ ، أو آذى أحداً من المسلمين ، على الرَّغمِ
من أنَّه كان في ميعة الصُّبا وفتون الشُّباب ، بل لم نسمعْ له همسٌ في الحروبِ
التي جرت بين أبيه وبين المسلمين من بدرٍ إلى يومِ فتحِ مَكَّةَ ، ويومها فتحَ اللهُ
على قلوبِ الأسرةِ السُّفْيَانِيَّةِ ، فأمِنْتُ باللهِ ربّاً ، وبمحمَّدٍ ﷺ نبياً ورسولاً ،
وكان من بين الذين دخلوا في دينِ اللهِ سيِّدنا يزيدُ بنُ أبي سفيانٍ - رضي اللهُ عنه
وأرضاه - .

* ومنذ أن نَعِمَ هذا الابنُ بالإسلامِ ؛ بدأتْ سجاياهُ المتميِّزةُ تتألَّقُ في
سماءِ المكارمِ ، وفضاءِ العظائمِ ، حتَّى اعتبره كُتَّابُ السَّيرةِ والتَّراجمِ من أفضلِ
أبناءِ أبي سفيانٍ - رضي اللهُ عنهم أجمعين - . !

* ذكره المصنِّفون والمؤرِّخون بقولهم : « كان من العقلاء الألباءِ ،
والشُّجعانِ المذكورين ، أسلم يومَ الفتحِ ، وحسُنَ إسلامه ، وشهد حُنيئاً ،
ف قيل : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أعطاهُ من غنائمِ حنينِ مئةً من الإبلِ ، وأربعينِ أوقيةً فضَّةً ،
وزَّنها له بلالُ بنُ رباحٍ كان من فضلاء الصُّحابةِ ، ولم يزلْ يُذكرُ بخيرٍ ،
وكان أفضلِ أولادِ أبي سفيانٍ ، حتَّى كان يُقالُ له يزيدُ الخيرِ » (١) .

* هذه الصِّفاتُ الجليَّةُ ؛ والمناقبُ الثَّبيلةُ ؛ جعلتْ سيِّدنا يزيدُ

(١) انظر المصادر مع الجمع بينها : « سير أعلام النبلاء » (١ / ٣٢٩) ، و « مختصر
تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٢) ، و « الإصابة » (٣ / ٦١٩) ، و « الاستيعاب »
(٣ / ٦١٢) ، و « طبقات ابن سعد » (٧ / ٤٠٥ - ٤٠٦) وغيرها .

أبا خالد أحد الأُمّاء من رجال عصر الثُبّة ، ممّن كان لهم وزن ومكان مرموق ؛ عند الصّادق المصدوق ﷺ ، فقد اتّخذ الحبيب المصطفى ﷺ يزيد كاتباً من كتّبة الوحي إلى جانب أخيه معاوية الذي أبدع كلّ واحد منهما في مجاله إبداع المخلصين الأوفياء ، كما أخلص سيّدنا يزيد للخليفة الرّاشدي المتألّق في كلّ شيء أبي بكر - رضي الله عنه - ، وتابع المسيرة ذاتها في العهد العمريّ ، وترك بصمات وآثاراً بيضاً في تاريخ أبناء الصّحابة .

يزيد مع الحبيب المصطفى ﷺ :

* عمل الإسلام عملَه المورق الفينان ؛ في نفس سيّدنا يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنه - ، وأخلص للدين الحنيف وكان من نجباء فرسان بني أميّة ورجالهم الشّجعان ، وقد جعل خبرته الحربيّة كلّها في خدمة النّبيّ العدنان ﷺ ، فشهد معه غزوة حنين ، وخاض غمارها ، ولمّا وضعت الحرب أوزارها ، شرع النّبيّ ﷺ يتألّف القلوب ، وبدأ بالأسرة السّفيانيّة بزعيمها أبي سفيان بن حرب - هذا الذي كان منذ عهد غير بعيد من الدّ خصوم الإسلام ، ومن ثمّ أسلم يوم الفتح ، حيث يسّ من الإشراف ، ونفض يده من حبّ الرّعاية ، ومن حبّ الرّئاسة - فأعطاه ﷺ عطاء الرّيح المرسلّة والبحر المحيط ، كما أعطى ولديه يزيد ومعاوية - رضي الله عنهم أجمعين - .

* بدأ ﷺ بالأموال الكثيرة ، والغنائم الوفيرة ، فقسمها بين النّاس ، وأعطى المؤلّفة قلوبهم أوّل النّاس ، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقيةً ، ومئة من الإبل ، فقال : ابني يزيد ؟

فقال ﷺ : « أعطوه أربعين أوقيةً ، ومئة من الإبل » .

فقال : ابني معاوية ؟

قال ﷺ : « أعطوه أربعين أوقيةً ، ومئة من الإبل » ^(١) .

(١) انظر : « زاد المعاد » (٣ / ٤٧٣) بشيء من التّصوّف .

فقال أبو سفيان رضي الله عنه : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لأنت كريمٌ في السُّلْم والحرب » .

* رسم الواقدي رَضِيَ اللهُ فِي « مغازيه » هذا الموقفَ الآسَرَ الْأَنِيقَ الَّذِي يَسْفُرُ عَنِ السَّخَاءِ الْمُحَمَّدِيِّ ، وَالْجُودِ النَّبَوِيِّ ، لِلْأَسْرَةِ السُّفْيَانِيَّةِ وَرِجَالِهَا فَقَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَنِمَ فَضَّةً كَثِيرَةً ؛ أَرْبَعَةَ آلَافِ أَوْقِيَّةٍ ، فَجُمِعَتْ الْغَنَائِمُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْفَضَّةُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَصْبَحْتَ أَكْثَرَ قَرِيشٍ مَالاً ! فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ : أَعْطِنِي مِنْ هَذَا الْمَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !

قال : « يا بلال ! زِنْ لِأَبِي سَفْيَانَ أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً ، وَأَعْطُوهُ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ » .

قال أبو سفيان : ابني يزيد ، أَعْطِهِ !

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « زِنُوا لِزَيْدٍ أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً ، وَأَعْطُوهُ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ » .

قال أبو سفيان : ابني معاوية ، يا رسولَ اللَّهِ !

قال : « زِنْ لَهُ يَا بَلَالُ أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً ، وَأَعْطُوهُ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ » .

قال أبو سفيان : إِنَّكَ الْكَرِيمُ ، فذاك أبي وأمي ، ولقد حاربْتُكَ فنعم الْمُحَارَبُ كُنْتُ ، ثُمَّ سَأَلْتُكَ فَنِعِمَّ الْمُسَالِمُ أَنْتَ ، جزاك الله خيراً » ^(١) .

(١) « المغازي » للواقدي (٣ / ٩٤٤ - ٩٤٥) ، ومن الجدير بالذكر أَنَّ الْإِمَامَ الْقُرْطُبِيَّ رَضِيَ اللهُ قَدْ نَقَضَ قَوْلَ الْوَاقِدِيِّ بِأَنَّ سَيِّدَنَا مُعَاوِيَةَ كَانَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَاسْتَبْعَدَ ذَلِكَ وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَمَا فَسَّرَ الْآيَةَ رَقْمَ : (٦٠) مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وَأَفَاضَ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ : « وَقَدْ عُدَّ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ مُعَاوِيَةُ ، وَأَبُوهُ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ . أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْهُمْ ، وَقَدْ ائْتَمَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ وَقِرَاءَتِهِ وَخَلَطَهُ =

* هكذا كانت القسمة بين المهاجرين ، وخاصّة المؤلفّة قلوبهم ، بحيث رضي هؤلاء ؛ لأنّهم كانوا أشرافاً من أعيان النّاس وأكابرهم ، وما أجمل أن نحلّي الأفواه بهذه الهمسة :

رَكَبَ الرَّسُولُ وَخَلَفَهُ سَارَ الصَّحَابَةُ تَابِعِينَ
وَلِسَانُ حَالِ الْكُلِّ مِنْهُمْ فِي نَدَاءٍ قَاتِلِينَ
اقْسَمْ عَلَيْنَا فَيَتَنَا إِبِلًا وَشَاةً أَجْمَعِينَ
قَالَ الرَّسُولُ لَسَوْفَ أَقْسِمُهُ بِعَذْلِ الْعَادِلِينَ
لَسْتُ الْبَخِيلُ وَلَا الْجَبَانُ أَنَا رَسُولٌ عَنْ يَقِينٍ
قَسَمَ الرَّسُولُ الْفِيءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْحَاضِرِينَ
أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ الْقُلُوبَ مَرْغَبًا لِلْحَاقِدِينَ
أَعْطَى لِكُلِّ مِنْهُمْ مِئَةً بَعِيرًا كَامِلِينَ
وَالْبَعْضَ أَعْطَاهُمْ أَقَلَّ بِحَيْثُ صَارُوا مَرْتَضِينَ^(١)

* أعطى الحبيب المصطفى ﷺ المئين من الإبل ، والعديد من أواقِي الفضة لأفراد من هؤلاء المؤلفّة ، كأبي سفيان وابنه يزيد وغيرهما ، وأعطى أقواماً دون ما أعطاهم ، بل إنّه ﷺ أعطى بعض الرّجال ما لا يُعرف إحصاؤه ، ولكنّه كان شيئاً من الإبل والغنم يملأ وادياً ، فقد أرضت مكارمه ﷺ تطلّعات صفوان بن أميّة الجمحي^(٢) ليخلص إيمانه وكان ذلك ؛ إذ قال له

= بنفسه ، وأمّا حاله في أيّام أبي بكر فأشهر من هذا وأظهر ، وأمّا أبوه فلا كلام فيه أنّه كان منهم ، وفي عددهم اختلاف ، وبالجمله فكلّهم مؤمن ، ولم يكن فيهم كافر على ما تقدّم ، والله أعلم وأحكم . « تفسير القرطبي » (٨ / ١٨١) . وللمزيد من هذا الأمر راجع موسوعتنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٦٧٥ - ٦٧٦) .

(١) انظر : « تغريدة السيرة النبويّة » (٤ / ١٠٠) بانتقاء .

(٢) اقرأ سيرة صفوان بن أميّة في الباب الثّالث من كتابنا « رجال من عصر النّبوة » ففي =

صفوان» أشهد أنك رسول الله ؛ ما طابت بهذا نفس أحدٍ إلا نبى .

* « لقد سَمَت مكارمُ حبيبنا رسول الله ﷺ في الجود والسَّخاء بهذا المال الكثير الغامر الذي يعجز الإحصاء عن حصره إلى ذروة الذرى في الفضائل الإنسانية ، فلم يُنَلْ ﷺ نفسه الشَّريفة من هذه الغنائم شيئاً ، حتَّى الخمس الذي جعله الله تعالى له حقاً خالصاً - ينفقه فيما يرى من مصالحه ، ومصالح المسلمين ، وإيتاء ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السَّبيل - رَدَّه على عامة النَّاس ، كما أنه ﷺ لم يُنَلْ خواص أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممَّن رسخ إيمانهم ، وصفا يقينهم ، فأنفقوا أموالهم وثرواتهم في سبيل الدَّعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - ، ونشر رسالة الهدى ، وإقامة معالم الدِّين الحقِّ منالاً ، ولكنه ﷺ جعلها كلّها على ضخامتها ، وكثرتها في استتلافِ قلوب الذين لم يسلموا ، أو الذين أسلموا ، ولم يخلص إيمانهم من شوائب الرِّيب ، والبأو الجاهليّ ، وإشفاقاً عليهم أن تتخطفهم الشَّياطين فتكبّهم في النَّار على مناخرهم ، وكان هؤلاء المُستألفون أشرافاً من أشراف جاهليّة قريش وغيرها من قبائل العرب » (١) .

* إنَّ الحياة الصَّافية التي عاشها سيّدنا يزيد مع الحبيب المصطفى ﷺ تدلُّ على صفاء نفسيّته وصدقه ، فقد كان هذا الرَّجل من فضلاء أبناء الصَّحابة الذين تحلّقوا حول سيّدهم رسول الله ﷺ ، وكانوا معه في شتى أموره ، وفي حلّه وترحاله .

* كان سيّدنا يزيدُ أفضلَ إخوته ، وأكثرهم ورعاً وحلماً ، وكان عاقلاً حصيفاً لمّا حادَمَت الأخلاق حسن السَّيرة محمودها ، وهذه المقومات الأنيسة الأنيقة جعلته في المحلِّ الأرفع ، والمقام الأوسع ، عند الشَّفع المُشَفَّع ﷺ ،

= سيرته مواقف مشرقة ، وأعمال متألّقة ، رضي الله عنه .

(١) « محمّد رسول الله » لمحمّد الصّادق عرجون (٤ / ٣٩٢ - ٣٩٣) بتصرّف يسير جداً .

بل جعلته قائداً فاتحاً ، وأميناً كاتباً ، وحافظاً راوياً ، ناهيك بتسلّمه المناصب القيادية الرفيعة على الرّغم من أنّه من متأخري الذين أسلموا يوم فتح الفتوح ، قبيل وفاة النّبي ﷺ بثلاث سنوات عدداً .

* كان سيّدنا يزيد - رضي الله عنه - جليل القدر شريفاً سيّداً فاضلاً ، ورث السّيادة كابراً عن كابر ، وصقلها بالإسلام الذي جعله من مشاهير رجال العالم ، فقد كان أبوه « أبو سفيان » رجل المواقف والحروب ، وحامل لواء المعارضة إلى أن منّ الله - عزّ وجلّ - عليه بالإسلام يوم فتح مكّة ، وانتظم في سلك درر الصّحابة ، وغدا ابنه يزيد من أعيان الصّحابة ، بل صار يزيد الصّحابي ابن الصّحابي الذي يُشار إليه بالبنان ، ولم يزل يُذكر بخير ، وقد استعمله رسول الله ﷺ على تيماء^(١) ، وكان ﷺ يستعمله أيضاً على صدقات بني فراس بن غنم وكانوا أحواله ، وهذا جميعه يشير إلى مكانته ، وحسن إسلامه ، وصدقه مع الله - عزّ وجلّ - ، ومع رسول الله ﷺ .

* ذكر ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ ما يشدُّ أزرنا فيما أوردناه من أمانة يزيد وصدقه وإخلاصه فقال : « ولمّا استعمله رسول الله ﷺ على بني فراس لخؤولته فيهم ، قدم بمالٍ ، فلقبه أبوه أبو سفيان ، وطلبه منه ، فأبى أن يعطيه إياه ، فقال له : أعلم رسول الله ﷺ أنّي طلبته منك ، فلمّا دفع المال إلى رسول الله ﷺ أعلمه أنّ أباه طلبه منه ؛ فقال له : « فعُدْ به على أبيك » .

* ومن الخير في سيرة هذا الرّجل المتألّق في سماء الإسلام أنّه كان ممّن يُحسن القراءة والكتابة ، فهو أحد الرّجال الكاتبين ، والثّقات المُخلصين الذين اتّخذهم النّبي ﷺ كُتّاباً للوحي والرّسائل والمكاتبات ، وينبغي أن نتذكر أنّ اثنين من الأسرة السّفيانيّة كانا كاتبين للوحي ، أمّا الأوّل والأشهر في هذا

(١) « تيماء » : مدينة حجازيّة تقع شمال المدينة المنورة على بعد (٤٢٠ كيلاً) . قال عنها ياقوت الحمويّ : « تيماء : بليد في أطراف الشّام ، بين الشّام ووادي القرى على طريق حاج الشّام ودمشق » .

المجال المبارك فهو سيّدنا معاوية^(١) وأمّا الآخر فأخوه يزيدُ رجل هذه الصفحات وفارسها .

* احتفظت المصادرُ الوثيقةُ بوثيقة مكتوبة قد حرّرها يزيدُ في زمن النَّبِيِّ ﷺ لمجاعة بنِ مرارة الحنفي ونصّها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

هذا كتابُ كتبه محمدٌ رسولُ الله ؛ لمجاعة بن مرارة بن سلمي : إني أقطعُكَ العُورَةَ وُغْرَابَةَ والحُبْلَ ؛ فَمَنْ حَاجَّكَ فإِلَيَّ ، وكتب يزيدُ بنُ أبي سفيان « (٢) » .

* وبعْدُ سيّدنا يزيدُ بنُ أبي سفيان ممّن وعى الحديثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ ، ونقله إلى الأُمَّة . فقد روى عن النَّبِيِّ ﷺ ؛ وعن أبي بكر الصّدِّيق - رضي الله عنه - . وروى عن سيّدنا يزيد أبو عبد الله الأشعري ، وعياض الأشعري ، وجنادة بنُ أبي أمية^(٣) .

(١) اقرأ موضوع كُتَّاب الوحي في موسوعتنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » ، ترجمة سيّدنا معاوية - رضي الله عنه - (ص : ٦٤٠ - ٦٥٠) ، ففي ذلك فوائدٌ مهمّةٌ وتوضيح لكثير من المفاهيم التي تفيّد المتعلّمين .

(٢) انظر : « كُتَّاب الوحي » (ص : ٤٦٧) ، وكان مجاعة بنُ مرارة من الوفد الذي أرسله هوزة الحنفي ملك اليمامة إلى رسول الله ﷺ ، فهو حنفي يمامي ومن أشرف قومه ، وقد أقطع له الصّادق المصدوق ﷺ هذه الأرض في اليمامة ، وهي : العُورَةُ ، وُغْرَابَةُ ، والحُبْلُ . ومعنى قوله « فَمَنْ حَاجَّكَ فإِلَيَّ » : يعني من خاصمك على شيء منها ، فأنا الذي أتصدّى له ، وأحمي حقك فيها من أن يعتدي عليه أحد . والله تعالى أعلم .

(٣) « تهذيب الأسماء واللغات » (١٦٣ / ٢) ، و « الإصابة » (٦١٩ / ٣) ، و « سير أعلام النبلاء » (٤٢٩ / ١) ، و « تهذيب التّهذيب » (٣٣٢ / ١١) وغيرها .

* ومن مروياته التي رواها ابن ماجه في « سُنَّه » بسنده عن أبي عبد الله الأشعري ، عن خالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشريحيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ؛ كل هؤلاء سمعوا من رسول الله ﷺ قال : « أتموا الوضوء وويلٌ للأعقاب من النار » (١) .

قائدٌ موهوبٌ :

* لما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، كان راضي عن سيّدنا يزيد كلّ الرضا ، فانتقل ذلك إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ، فصار من أكابر القادة العظام الذين دوّخوا الفرس والرّوم ، وكان لهم حُسن تدبير ، وكمال إحكام في تصرفاتهم الحربيّة والدّعويّة .

* وينبغي أن نعرف ههنا ما كان عليه الأمويّون في الجاهليّة من كياسة وفنٍّ وإدارة ، وكذلك سائر الرّجال الذين تحلّقوا حول الحبيب المصطفى ﷺ ، فأظهروا من حُسن التدبير ، وبُعد النّظر ، ودقّة الدّكاء ما أدهشوا العالم كلّهُ آنذاك ، ولا يزالون يدهشون أهل الإنصاف من بعدهم ؛ لأنّهم تربّوا في المدرسة المحمّديّة ومع المعيّة النّبويّة ففتحوا القلوب

(١) أخرجه ابن ماجه في الطّهارة (١ / ١٥٥) ، برقم : (٤٥٥) ، وقال البوصيري رحمه الله : « إسناده حسن ما علمت في رجاله ضعفاً » .

وساق ابن عساكر رحمه الله في « تاريخه » هذا الحديث بسندٍ عن أبي عبد الله الأشعري ، قال : « صلّى رسول الله ﷺ بأصحابه ، ثمّ جلس في عصابيّة منهم ، فجاء رجلٌ ، فقام يصليّ ، لا يركع ، وينقر في سجوده ، والنّبيُّ ﷺ ينظرُ إليه ، فقال : « ترؤن هذا ؟ لو مات على هذا ؛ مات على غير ملّة محمّد ينقرُ إليه في صلاته كما ينقرُ الغراب الدم ، مثل الذي يصليّ ، ولا يركع وينقر في سجوده ، كالجائع لا يأكلُ إلاّ تمرّة أو تمرتين ، فماذا تغنيان عنه ؟ أسبغوا الوضوء ، وويلٌ للأعقاب من النار ، أتموا الرّكوع والسّجود » . رواه أيضاً يزيد بن أبي سفيان . « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٢) .

والبلدانَ ، وسادوا الدُّنيا بفضلِ الله - عزَّ وجلَّ - ، ثمَّ بالإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لخلقه .

* ولولا أنَّ يزيدَ ومن كان مثله كانوا على درجةٍ من الذكاء ، والفطنة ، والكياسة ، والاستعداد الثَّام لفهم ما يُلقى إليهم ، وإدراك مغزاه ، لما كانوا أهلاً لأنَّ يخاطبهم الله - عزَّ وجلَّ - بكلماته السَّواطع ، وأحكامه اللوامع ، من خلال القرآن الكريم ، ذي الأهميَّة البالغة في الفصاحة والبلاغة والبيان ، وبما يحمله من سلاسة الأسلوب ، وإحكام السبكِ ، وسمو الغاية ، وجلال المعنى ، وقوَّة المبنى ، ودقَّة المغزى .

* وكان لهذه المواهب الرِّبائيَّة ، والصِّفات الباهرة أثرها البعيدُ ، حينما اعتنقوا الإسلامَ عن عقيدةٍ صحيحةٍ ، ويقينٍ في تدبيرِ أمورِ الحرب ، والمعاهدات ، والصُّلح ، والزَّكاة والكياسة الفائقَتين في سياسةِ الشُّعوب ، والأجناس المتباينة التي استظَلَّتْ بلواء الإسلام وراياته الفينانة ، وكفى شاهداً لهذا ، ما قام به رسولُ الله ﷺ ، وخليفته أبو بكر ، ثمَّ السَّادةُ الأجلُّاءُ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ - رضي الله عنهم - ، ومن سار على نهجهم ، واقتفى منهاجهم في الإمامة والسياسة ، وما قام به السَّادةُ الفاتحون المجاهدون من رجال عَصْرِ الثُّبوة : سيِّدنا خالدُ بنُ الوليد ، ويزيدُ بنُ أبي سفيان ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاص ، وعمرُ بنُ العاص ، وعكرمةُ بنُ أبي جهل ، وأبو عبيدة بنُ الجراح وأمثالهم في المغازي والفتوحات ؛ والصُّلح والمعاهدات ، وقد حفظ التاريخ لهؤلاء أعمالهم ، ولم يبخسهم حقوقهم ، ومنهم رجالُ بني أميَّة الذي صدقوا ما عاهدوا الله عليه في عهدِ الحبيبِ المصطفى ﷺ ، والخلافة الرَّاشدة ، وعَصْرِ الفتوحات .

* لقد أسلم كثيرٌ من رجال بني أميَّة منذ أن سرت نسيئات الإيمان تناغي الأفتدة ، وتنعش القُفوس ؛ وتُخَيِّ الأرواح ، ودخلوا في دين الله - عزَّ وجلَّ - طائعين عابدين سائحين مُجاهدين ، فقد ظهرت تضحياتهم جليةً ، ورؤيت هجرُتهم إلى الحبشة وغيرها ، كما أسلموا يوم فتح

مكة ، وسُرَّ النَّبِيُّ ﷺ بإسلامهم ، ورَحَّبَ بدخولهم أفواجاً في دينِ الله ، فاعتمدَ عليهم في جلائل الأعمال ، واستفادَ من مقدرتهم الفكرية والاجتماعية والحربية ، بل إنه ﷺ وهَبَ أبا سفيان صفةَ الأَمْنِ والمكانة عند فتح مكة حينما قال منوهاً بذلك : « مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ » ^(١) ؛ ولا ريب في أنَّ هذه المقولة مكرمةٌ كبيرةٌ حازَهَا أبو سفيان وأولاده ، وتدلُّ على معرفة رسولِ الله ﷺ الرِّجال ، وتقديره للزُّعماء والأكابر وأصحاب الحلِّ والعقد في قومهم ؛ وقد استعملَ ﷺ الأسرة السُّفْيَانِيَّةَ في عددٍ من المهام البارزة ، فقد استعمل أبا سفيان على نجران ، ويزيدَ على صدقاتِ أخواله ، وجعل معاوية كاتباً له ، وهذا ما جاء في « صحيح مسلم » وغيره .

* وإذا ألقينا نظرةً فاحصةً أخرى في تاريخ السَّيرة النَّبَوِيَّةِ وأحداثها ، وجدنا أنَّ أَوَّلَ وَالٍ عَلَى أُمِّ الْقُرَى مَكَّةَ - بعد فتحها - رجلاً أُمَوِيّاً حصيفاً لبيباً صادقاً هو عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي الْعَيْصِ بْنِ أُمَيَّةَ ، كما استعملَ ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّةَ عَلَى قُرَى خَيْرٍ ، ووادي القرى ، وتيماء ، وتبوك ، ولحق ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى وعمرو بن سعيد عليها ، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص عَلَى صَنْعَاءَ ، وأخاه أَبَانَ بن سعيد بن العاص عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وتوفي ﷺ وهو عليها ، واستعمل الحكم بن سعيد بن العاص عَلَى سُوقِ مَكَّةَ ، كما أنَّ عدداً من بني أُمَيَّةَ كانوا من كتبةِ الوحي وكُتَّابِ النَّبِيِّ ﷺ منهم : عثمانُ بْنُ عَفَّانَ ، ومعاويةُ ويزيدُ ابنا أبي سفيانَ ، وأبانُ وخالد ابنا سعيد بن العاص ، وغيرهم من رجالِ الْبَاءِ أعطوا خلاصةَ صدقهم ؛ فنجحوا وكانوا من الخالدين الكبراء في عالمِ المشاهير ، ودنيا الأوائل والأعلام .

* ولا بدَّ من أن نذكِّرَ أحبابَ الحقِّ ، ونذكِّرَ بأنَّ رسولَ الله ﷺ قد توفي وهو راضٍ عن أبناء بني أُمَيَّةَ المؤمنين ، وعن أصحابه الكرام ، كما ينبغي أن نعرفَ بوضوحٍ بأنَّه عندما قُضِيَ ﷺ كان معظمُ رجالِ بني أُمَيَّةَ قائمين على

(١) « الكامل في التاريخ » (٢ / ٢٤٦) .

مختلف الأعمال الإسلامية من ولاية مضر ، أو بلد ، أو كتابية ، أو جباية ، أو إمارة لقيادة جيش ، أو ما شابه ذلك ، واختيار النبي ﷺ لأكثر رجال بني أمية وأبنائهم ، واستعمالهم في شؤون الدولة الإسلامية ؛ دليل قوي على أمانتهم وصدقهم وكفاءتهم وتحملهم المسؤولية الإسلامية فيما يوكل إليهم من أعمال ومهام .

* ولئن وقف بعض رجال بني أمية موقف معاداة للإسلام في أول الأمر ، فإن دين الإسلام دين قويمة يحب ما قبله ، ويأخذ بأيدي الرجال إلى منابت العز والارتقاء والعطاء ، وينزل الناس منازلهم ، ولم يمنع تأخر إسلام يزيد بن أبي سفيان من تصدّره مكانة قيمة عند رسول الله ﷺ ، وعند الخلفاء الراشدين ، ومن أن يكون قائداً وفتحاً كما سنرى .

من القادة الفاتحين :

* ها هو ذا سيّدنا يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - يظهر بعد وفاة النبي ﷺ رجل المواقف ، وقائد الجيوش ، وفتح البلدان ، وهاهو ذا يقف مع الخليفة الأول سيّدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وقفة المخلصين المنافحين عن الإسلام ، وخصوصاً في فتوح الشام .

* فنحن نعلمُ علمَ اليقين أنَّ المسلمين قد واجهوا ظروفاً عصيبة ، وأحداثاً مُربية ، وأخطاراً جسيمة بعد وفاة نبيهم رسول الله ﷺ ، فأجمعوا على بيعه أبي بكر - رضي الله عنه - خليفةً للحبيب المصطفى ﷺ ، وعندها انتفض الصديق انتفاضة الأسد الهصور ، وقمع المرتدين وكسر شوكتهم ، ثم بدأ حركة الفتوح المباركة في بلاد الفرس والروم ، واعتمد على رجال مخلصين كان منهم سيّدنا يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - الذي تسلّم قيادة جيش كبير لفتح الشام ، فكان جيشه أول جيش كبير يوجّهه أبو بكر - رضي الله عنه - إلى بلاد الشام ، ويودّعه ماشياً ، ثم عزّزه متبعاً إياه بثلاثة جيوش أخرى يقودها ثلاثة من كبراء الصحابة هم : سيّدنا أبو عبيدة بن الجراح ، وعمر بن

العاص ، وشرحيل بن حسنة - رضي الله عنهم أجمعين - .

* ويؤنسنا الذهبي رحمته الله في « سيره » بحديث لطيف فيه الإمتاع والمؤانسة فيما ساقه عن سيدنا يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - لمّا قال : « كان من العقلاء الألباء ، والشجعان المذكورين . . . وهو أحد الأمراء الأربعة الذين نديهم أبو بكر - رضي الله عنه - لغزو الروم ، عقد له أبو بكر - رضي الله عنه - ، ومشى معه تحت ركابه يسايره ، ويودّعه ، ويوصيه ، وما ذاك إلا لشرفه ، وكمال دينه ، ولمّا فتحت دمشق أمره عمر - رضي الله عنه - عليها » (١) .

* إذن كانت مهمة سيدنا يزيد مهمة تحمل كل معاني المسؤولية ، وهي الوصول إلى دمشق وفتحها ، ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة ، وقبل أن يسير جيش يزيد نحو الشام أوصاه أبو بكر - رضي الله عنه - وصية نافعة ماتعة أوردتها المصادد ، وصورتها عند ابن عساكر في « تاريخه » على النحو الآتي : قال ابن عساكر رحمته الله : « لمّا عقد أبو بكر ليزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهم - ؛ دعاه فقال له : يا يزيد ، إنك شاب تذكّر بخير ، قد رئي منك ، وذلك شيء خلوت به في نفسك ، وقد أردت أن أبلوك ، وأستخرجك من أهلك ، فانظر كيف أنت ، وكيف ولايتك ، فإن أحسنت زدتك ، وإن أسأت عزلتك ، وقد وليتك عمل خالد بن سعيد ، ثم أوصاه بما يعمل به في وجهه ، وقال له : أوصيك بأبي عبيدة بن الجراح خيراً ، فقد عرفت مكانه في الإسلام ، وإن رسول الله ﷺ قال : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » فاعرف له فضله وسابقتها ، وانظر معاذ بن جبل ، فقد عرفت مشاهدته مع رسول الله ﷺ ، وإن رسول الله ﷺ قال : « يأتي أمام العلماء يوم القيامة برتوة » فلا تقطع أمراً دونهما ، فإنهما لن يألوا بك خيراً .

(١) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٣٢٩) . وانظر : « الاستيعاب » (٣ / ٦١٢) .

فقال يزيد : يا خليفة رسول الله ﷺ ! أوصهما بي ، كما أوصيتني بهما ،
فأنا إليهما أحوج منهما إليّ .

فقال أبو بكر : لن أدع أن أوصيهما بك .

فقال يزيد : يرحمك الله ! وجزاك عن الإسلام خيراً ^(١) .

* ويزيد سيّدنا يزيد هذه الوصية ألقاً على ألق حينما يسبّكها بأسلوبه
الجميل المونق فيقول - رضي الله عنه - : « شيعني أبو بكر - رضي الله عنه -
حين بعثني إلى الشام ؛ فقال : يا يزيد ! إنك رجلٌ تحبُّ قرابتك ، وإنّي
سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « مَنْ وَلِيَ ذَا قَرَابَةٍ مُحَابَاةً ، وَهُوَ يَجِدُ خَيْراً مِنْهُ ،
لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » ^(٢) .

* وعن يزيد - رضي الله عنه - قال : قال لي أبو بكر الصّدّيق - رضي الله
عنه - حين بعثني إلى الشام : « يا يزيد ! إنّ لك قرابة عَسَيْتَ أَنْ تَوْثِرَهُمْ
بِالْإِمْرَةِ ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ وَلِيَ مِنْ
أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحْداً مُحَابَاةً لَهُ ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ
مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدلاً ، حَتَّى يَدْخُلَهُ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ أَعْطَى رَجُلًا مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْئاً
مُحَابَاةً لَهُ ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ ، أَوْ قَالَ : بَرِئْتُ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ دَعَا النَّاسَ
إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ، فَيَكُونُوا فِي حِمَى اللَّهِ ، فَمَنْ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللَّهِ شَيْئاً ،

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٣) ، ومعنى قوله « خلوت به » : انفردت به
من أعمالك الانفراديّة . و« أبلوك » : أختبرك . و« أستخرجك من أهلك » ؛
أي : أطلبك أن تخرج من بيتك إلى النَّاس . و« زدتك » : أرقبك إلى مرتبة عليا .
و« وجهه » : جهته وسفره . و« أمين هذه الأمة » : خصّه بالأمانة لغلبيتها فيه بالنسبة
إلى سائر صفاته . و« انظر معاذ » : راع صحبته ولا تغفل عن رأيه .
و« مشاهده » : مواضع حضوره في سبيل الله . و« رتوه » : منزلة .
و« يألوا » : يقصّرا .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٤) .

فعلية لعنةُ الله ، أو قال : برئتُ منه ذمَّةُ الله » (١) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٤) . ومعنى قوله « تؤثرهم » : تختارهم وتفضلهم . و« محاباة » : حابه ومحابة وحباء : نَصَرُهُ واختَصَّهُ ومال إليه . و« عدلاً » : توبة وفدية أو نافلة وفريضة . و« حمى الله » ؛ أي : محمين من الإيذاء ومعصومين منه . و« انتهاك في حمى الله » : أذهب حرمة وتناوله بما لا يحل . و« ذمة الله » : عهده وأمانته .

قال ابنُ كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن هذا الحديث : « ليس هذا الحديث في شيء من الكتب السُّنة ، وكأنَّهم أعرضوا عنه لجهالة شيخ بقية بن الوليد الكلاعي الحمصي ؛ والذي يَقَعُ في القلب صحَّةُ هذا الحديث ، فإنَّ الصَّدِّيق - رضي الله عنه - كذلك فَعَلَ ، ولَّى على المسلمين خيرهم بعده » . وقال الهيثمي : « رواه أحمد ، وفيه رجل لم يُسمَّ » « مجمع الزوائد » (٥ / ٢٣٢) .

وساق ابنُ عساکر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصِيَّةَ عَظِيمَةً لأبي بكر الصَّدِّيق - رضي الله عنه - ، أوصى بها يزيد ، وهذه الوصِيَّةُ جامعةٌ لأُمُور الحرب وفيها من النَّصائح ما يشير إلى عبقرية الصَّدِّيق الحربية ، وخبرته القتالية ، كما تدلُّ على أنَّه القائد الأعلى للجيش الإسلامي ، بالإضافة إلى ما في الوصِيَّة من علم ومن حكم ، فرضي الله عن الصَّدِّيق ، وحشرنا معه يوم القيامة . وسنذكر الآن الوصِيَّةَ الصَّدِّيقِيَّةَ العظيمة . قال ابنُ عساکر : لَمَّا وَجَّهَ أبو بكر يزيد إلى الشَّام أوصاه فقال : « سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلتَ بلاد العدوِّ فكنْ بعيداً من الحملة ، فإنِّي لا آمنُ عليك الجرأة ، واستظهر في الزَّاد ، وسِرْ بالأدلاء ، ولا تقاتلْ بمجروح ، فإنَّ بعضَه ليس منه واحترس من البيات ، فإنَّ في العرب غرّة ، وأقللْ من الكلام ، فإنَّما لك ماوعى عنك ، فإذا أتاك كتابي فأنفذْهُ ، وإذا قدمتْ وفودُ العجم فأنزلهم معظمَ عسكرك ، وأسبغْ عليهم التَّفَقُّة ، وامنع النَّاسَ من محادثتهم ، ليخرجوا جاهلين ، ولا تلجئْ في عقوبة ، ولا تُسرِعَنَّ إليها وأنت مكتفٍ بغيرها ، واقبلْ من النَّاسِ علانيتهم ، وكلِّهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسَّسْ في عسكرك ، فتفضحه ، ولا تهملْه فتفسده ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٥) .

وجاء عند ابن عساکر عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : « أنَّ أبا بكر بعث =

وصية أبي بكر ليزيد :

* أوصى أبو بكر يزيد وصية مائة حين بعثه إلى الشام ، وفي هذه الوصية النافعة أمور تنفع سائر الأنام ؛ في جميع الأزمان والأيام .

* وها نحن أولاء نقرأ الوصية الصديقية النافعة ، فقد بدأ أبو بكر - رضي الله عنه - الوصية ليزيد بقوله : « ابدأ بالصلاة إذا حل لك وقتها ، ولا تشاغل عنها بغيرها ، فإن الإمام تقتدي به رعيته ، وتعمل بعمله في نفسه ، وإذا وعظت فأوجز ولا تكثر الكلام ، فإن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً ، وإنما يغني منه ما وعي عنك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تدخر عن المشير شيئاً فتكون إنما تؤتى من نفسك ، واستبسل الناس بالدنيا ، فإن ذا النية تكفيك نيته ، ومن أعطيته شيئاً بشيء فف له به ، ولا تتخذ حشماً تضع عنهم ما تحمله على غيرهم ، فإن ذلك يضر الناس عليك ، ويستحلون به معصيتك » (١) .

* وضمن ابن الأثير رحمه الله وصية سيدنا أبي بكر لسيدنا يزيد تاريخه « الكامل » ، واعتبرها من أكثر الوصايا نفعاً ، ومن أعلاها مستوى في الحكم والبلاغة ، ومجالات الحرب والسلم ، وسائر ألوان الحياة .

يزيد بن أبي سفيان إلى الشام ، فمشى معهم نحواً من ميلين ، فقل له : يا خليفة رسول الله ! لو انصرفت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغبرت قدماه في سبيل الله ، حرّهما الله على النار » ثم بدا له في الانصراف إلى المدينة ، فقام في الجيش فقال : أوصيكم بتقوى الله ، لا تعصوا ، ولا تغلّوا » ، وفي آخر الحديث أوصى يزيد - رضي الله عنه - فقال له : « وإني موصيك بعشر : لا تقتل امرأة ، ولا صبيّاً ، ولا كبيراً هرمّاً ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلاً ، ولا تغلل ، ولا تجبن » .

« مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٥) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٦) .

* ففي ذكر فتوح الشام ذكر ابن الأثير أنَّ سيّدنا أبا بكر الصّدّيق - رضي الله عنه - أمّر يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - على جيشٍ عظيم ، فيه عددٌ من كُبراء الصّحابة وأعيانهم مثل سهيل بن عمرو^(١) وأمّثاله من أهل مَكَّة ، وأوصاه ، كما أوصى غيره من الأمراء الوصايا المفيدة ، وكان ممّا قال ليزيد - رضي الله عنه وأرضاه - بعد أن بسّمل وحمّدل : « إني قد وليتك لأبلوك وأجرّبك وأخرّجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله ، فإنّه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك ، وإنّ أولى الناس بالله أشدّهم تولياً له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد ، فإنّك وعبيّة الجاهلية ، فإنّ الله ييغضها وييغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير ، وعدّهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز ، فإنّ كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتّخشّع فيها . وإذا قدم عليك رسلُ عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبثهم حتّى يخرجوا من عسكري وهم جاهلون به ، ولا ترينّهم فيروا خللك ، ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكري ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولّي لكلامهم ، ولا تجعل سرّك لعلايتك ، فيختلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمّر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار ، وتنكشف عندك الأستار ، وأكثر حرسك وبدّهم في عسكري ، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه ، فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل ، واجعل الثّوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنّها أيسرهما لقربها من النّهار ، ولا تخفّ

(١) اقرأ سيرة سهيل بن عمرو العامري في الباب الثالث من كتابنا « رجال من عصر النّبوة » فسيرته لا تخلو من فوائد نافعة ومواقف ماتعة بإذن الله .

من عقوبة المستحقّ ، ولا تُلَجَّنَ فيها ولا تسرع إليها ، ولا تخذلها مدفعاً ، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف النَّاسَ عن أسرارهم ، واكتفِ بعلانيتهم ، ولا تجالس العبّاثين ، وجالس أهل الصّدق والوفاء ، واصدقِ اللقاء ، ولا تجبن فيجبن النَّاسُ ، واجتنب الغلول فإنّه يقرب الفقر ويدفع النَّصر ، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصّوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له « (١) .

(١) « الكامل في التّاريخ » (٢ / ٤٠٤) ، وعقّب ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ عَلَى هذه الوصيّة بقوله : « وهذه من أحسن الوصايا ، وأكثرها نفعاً لولاة الأمر » . ومعنى قوله « عمل خالد » : يعني : خالد بن سعيد بن العاص الأمويّ ، وكان خالد هذا قد استعفى سيّدنا أبا بكر فأعفاه . و« عيبة » : التّعصب لما كان عليه أهل الجاهليّة . و« خَلَلَك » : لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك . و« ثروة عسكرك » : حتّى يروا قوّة المسلمين ويعاينوها .

والمتمأل في هذه الوصيّة المباركة يجد فيها فوائد مجموعة ، وأزهاراً فوّاحة بكل نافع ، ويمكن أن نستخلص من ربيّ شذاها هذه العبارات :

- ١ - المناصبُ مرهونةٌ بالكفاءة والإحسان في العمل ، وليست منوطة بالأشخاص .
- ٢ - تقوى الله - عزّ وجلّ - معراجُ النّجاح ، ومعوانُ الفلاح ، فالتّقوى حبلٌ متين ، ودرعُ حصين .
- ٣ - التّعصّبُ للآباء عملٌ وتصرف غير محمود ، وكذلك التّعصّب للأقوام والقبائل .
- ٤ - الإيجازُ في المواعظ يصطادُ النفوس ، ويأسرُ القلوب ، ويؤثّرُ بالأرواح .
- ٥ - إصلاحُ النَّفس هو ذروة النّجاح ، وخصوصاً إذا كان من القادة والرّؤساء .
- ٦ - الصّلاةُ شعارُ المسلمين ، وإقامتها جماعة نصر و طاعة وقوّة .
- ٧ - الاحتراسُ من رسل العدو أشدّ الاحتراس ، والحرص على ذلك ، وإكرامهم .
- ٨ - عدمُ التّهاون بالأسرار ، فقضاء الحوائج مرهونٌ بالكتمان .
- ٩ - القائدُ حصيفٌ ، وينبغي عليه معرفة أمور مَنْ يلي أمورهم على اختلاف طبقاتهم .

* وجاء في رواية بأنَّ سيّدنا أبا بكر الصّدّيق - رضي الله عنه - لم تغبُ عن باله اللّمساتُ الإنسانيّةُ في وُصّاته لجيش سيّدنا يزيد - رضي الله عنه - ، إذ وُصّاه بقانون المسلمين للحرب المؤلّف من نقاط عشر ، تجسّدُ روحَ الحضارة الإسلاميّة ، وإنسانيّتها الممزوجة بالرّحمة والمودّة والشفقة ، وقد صيغتِ الوصيّةُ على هيئةٍ مستقاةٍ من هُدي الحبيب الأعظم ﷺ حيث قال الصّدّيقُ الأكبرُ أبو بكر - عليه سحائب الرّضوان من العلي الرّحمن - : « أَيُّهَا النَّاسُ ! قِفُوا أَوْصِيَكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي : لَا تَخُونُوا ، وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَفْسُدُوا ، وَلَا تَمَثِّلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا طِفْلاً وَلَا شَيْخاً كَبِيراً ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَعْقِرُوا نَخْلاً وَلَا تَحْرِقُوهُ ، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرةً ، وَلَا تَذْبَحُوا شَاةً ، وَلَا بَعِيراً إِلَّا لِأَكْلِهِ ، وَسَوْفَ تَمْرُونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ ، فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ ؛ اَنْدَفَعُوا بِاسْمِ اللَّهِ » .

* ولا ريب في أنّ سيّدنا يزيد - رضي الله عنه - قد وجد كبيرَ الفائدة في هذه الوصيّة ، فكان من مشاهير القادة الكرام ، الذين دوّخوا الرُّوم في الشّام .

البطلُ الحصيْفُ :

* وافتنا المصادِرُ بأنَّ سيّدنا أبا بكر - رضي الله عنه - قد نظّم جيشاً قوامه

= ١٠ - حراسةُ المسلمين والمحافظةُ عليهم أمرٌ مهمٌّ وخصوصاً في الثّغرات ومكانن الخطر .

١١ - التوسّطُ والاعتدالُ والحكمةُ في معاقبة المخالف والاتّزان بذلك بحيث يُؤدّي الغرض .

١٢ - المسؤول واع يقظ ضمن حدود المهام المُناطة به .

١٣ - القائدُ والحاكمُ حريصٌ على الحصافة فلا يجالسُ إلا العقلاء الأوفياء الصّادقين .

١٤ - صدقُ القائد ضروريٌّ في لقاء الأعداء ليقوى جنده وتقوى عزائمهم .

١٥ - القائد المخلصُ لا يأخذُ من الغنائم أشياءً لا تحلُّ له شرعاً . والله أعلم .

تسعة آلاف مقاتل ، ضمَّ فيه أهل مكَّة والمدينة ، ومن ثمَّ أسند قيادته إلى يزيد الخير أبي خالد بن أبي سفيان - رضي الله عنه - ، وأوصاه ، ثمَّ وجَّهه إلى دمشق ، وكان معه ربيعة بن عامر كقائد ثان لهذا الجيش ، وحدَّد الخليفة القائد محورَ تحرُّك جيش يزيد على المراكز الآتية : تبوك ، البلقاء ، دمشق .

* وتابع الصَّدِّيق حشدَ القوَّات الإسلاميَّة تحت قيادة ثلاثة من عباقرة الحرب والفتوحات : أبو عبيدة بن الجراح لفتح حمص ، وشرحبيل بن حسنة لفتح الأردن ، وعمر بن العاص لفتح فلسطين .

* تحرَّك كلُّ جيش إلى وجهته التي حُدِّدت له ، وسار جيشُ سيِّدنا يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنه - إلى تبوك حتَّى وصلَ إليها ، وأقام بها ثلاثة أيَّام ، وفي غضون اليوم الرَّابع أراد أن يتحرَّك ، فوصلت عندها طلائع جيش الرُّوم ، وساعتها وضعَ سيِّدنا يزيد مخطَّطَه للإطاحة بهذه الطَّلَّاع التي تعدَّ عشرة آلاف عِلج ، وأوعز إلى القائد الفدَّ ربيعة بن عامر أن يأخذ ألف مقاتل ، وأنَّ يتعدَّ بهم ، ففعل ، وتابعت طلائعُ الجيش الرُّوميِّ تقدِّمها ، وأشعلت فتيل الحرب مع جيش سيِّدنا يزيد ، وأخذت المعركةُ تستعرُّ استعاراً شديداً ، ثمَّ ما لبث ربيعة بن عامر وصحبه أن انقضُّوا على مؤخِّرة الرُّوم ، فأبادوا شطراً منهم ، وهزَّوا كيانهم هزّاً ، وانتهت المعركةُ باستشهاد (١٢٠٠ رجلاً) من رجال يزيد ، في حين قتل (١٢٠٠ رجلاً) من الرُّوم .

* في اليوم التَّالي ، بدأت معركةُ القوَّات الرُّئيسية ، وثبت جيش يزيد ثبات الرُّواسي ، وقاتل المسلمون الرُّوم قتال الشُّجعان الصَّابرين ، واستطاعوا أن يجابهوا تحدِّي جيش الرُّوم ، وكان لذلك دورٌ حاسمٌ في انتزاع النَّصر ، وتمزيق الرُّوميين ، وإرغامهم على الفرار ، وخصوصاً بعد أن انضمت قوات جيش شرحبيل بن حسنة إلى جيش يزيد .

* علم يزيد بأنَّ هناك تجمعاً لقوات الرُّوم وجيشهم في « العربية » من أرضِ فلسطين ، فوجَّه إليهم أحد قوَّاده ، فأنزل بساحتهم الهزيمة ، ثمَّ تابع جيش يزيد تقدمه حتَّى وصل ناحية « الدَّائن » قرب غزة .

* ومن الثَّابِت في تاريخ الفتوحات الإسلاميَّة ، أنَّ هذه المعارك كانت أوَّل اشتباكات كبيرة وخطيرة يخوضها رجال المسلمين وأبطالهم ضد الرُّوم ، بعد أن أغار عليهم سيِّدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنه وعن أبيه - .

* وبعد أن هدأت نيرانُ المعركة ، وأسفر صبحُها عن نصر المسلمين جمع سيِّدنا يزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنه - الغنائم ، وأرسلها مع شداد بن أوس إلى المدينة المنورة وحمَّله كذلك رسالة إلى الخليفة الرَّاشد أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - تفصِّل الموقف وتشرحه .

* تابع يزيدُ جهادَه ، فحضرَ موقعةَ أجنادين سنة : (١٣ هـ) ، وكانت ساقية الجيش بقيادته ، وفي معركة اليرموك الحاسمة ، كان سيِّدنا يزيد على الميسرة ، فكان له أثرٌ واضحٌ في نصر الجيش الإسلاميِّ على جموع الرُّوم في هذه المعركة الفاصلة ، فما كادت جيوش المسلمين تصلُ أرضَ الشَّام ، حتَّى أرسل هرقل جيوشه ترحف باتِّجاه جيوش المسلمين ، لتضعف كلُّ فرقة منهم فرقة من المسلمين ، فأرسل القائد « جرجة » إلى يزيد بن أبي سفيان ، فهابهم المسلمون وكتبوا عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : ما الرَّأي ؟ فأجابهم : « إنَّ الرَّأي لمثلنا الاجتماع ، فإنَّ مثلنا إذا اجتمعنا لا نغلب من قلة ، فإن تفرَّقنا لا تقوم كلُّ فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدونا » . وكتبوا إلى سيِّدنا أبي بكر - رضي الله عنه - ، فأجابهم مثل جواب عمرو وقال : « إنَّ مثلكم لا يُؤتَى من قلة ، وإنَّما يُؤتَى العشرة آلاف من الذَّنوب ، فاحترسوا منها ؛ فاجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كلُّ واحد منكم بأصحابه » . فاجتمع المسلمون باليرموك ، كما اجتمع الرُّوم بها أيضاً ، وبذلك فوَّت المسلمون باجتماعهم فرصة ضربهم متفرِّقين .

* ولم تتوقَّف أعمالُ سيِّدنا يزيد الجهاديَّة البطوليَّة ، فقد شهد يزيد فتح « بصرى » مع أبي عُبَيْدة ، وخالد بن الوليد ، وشرحبيل ابن حسنة . كما شهد فتح دمشق فاستخلفه أبو عبيدة عليها عندما سار إلى « فحل » ، فسار يزيد بدوره لفتح بلاد ساحل دمشق ، ففتح « صيداء » ، و« عِرْفَة » ، و« جبيل » ،

و« بيروت » ، وكان على مقدّمته أخوه معاوية ففتح هذه البلاد بيسر وسهولة .

* وتذكر المصادِرُ بأنَّ يزيدَ قد صدَّ هجوماً للرُّوم كان يهدف إلى استعادة مدينة دمشق ، فقد أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد لضرب جيش الرُّوم الذي قصد دمشق ، فضربه خالدٌ من الخلف ، واستقبله يزيد من الأمام ، فلم يفلت من الرُّوم إلا الشَّريد ؛ وعلى يد يزيد كان فتح « قيسارية » التي بالشَّام .

* وبعد فتح الشَّام صعد يزيد بن أبي سفيان المنبر ، فأرتجَ عليه ، فقال : « يا أهل الشَّام ، عسى اللهُ أن يجعلَ بعدَ عسر يسراً ، وبعدَ عيِّ بياناً ، واعلموا أنَّكم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل » ، ثمَّ نزل ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه (١) .

* لمَّا دخل عمر بن الخطَّاب - رضي اللهُ عنه - الشَّام ، خرج المسلمون يستقبلونه قربَ الجابية ، فلقيه يزيدُ بنُ أبي سفيان - رضي اللهُ عنهما - وقال له : « يا أميرَ المؤمنين ! إنَّ الثَّياب والدَّواب عندنا كثير ، والعيش عندنا رفيع ، والسَّعر رخيص ، وحال المسلمين كما تحبَّ فلو أنَّك لبستَ من هذا الثَّياب البيض ، وركبتَ من هذه الدَّواب الفُزَه ، وأطعمتَ المسلمين هذا الطَّعام الكثير ، كان أبعدَ في الصَّوت ، وأزين لك في هذا الأمر ، وأعظم لك في الأعاجم » .

فقال له سيِّدنا عمر - رضي اللهُ عنه - : « يا يزيدُ ! والله لا أدع الهيئة التي فارقتُ عليها صاحبي ، ولا أتزيَّنُ للنَّاس بما أخاف أن يشينني عند ربِّي ، ولا أريد أن يعظم أمري عند النَّاس ، ويصغر عند الله تعالى » (٢) .

* وهكذا كان سيِّدنا يزيد من أبناء الصَّحابة الفاتحين الموفَّقين النَّاجحين ، فلم يخفق في أية معركة خاضها منذ أن بدأتِ المناوشات

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٧ / ٣٦٦) .

(٢) « الرُّوض المعطار في خبر الأقطار » للحميري (ص : ١٥٤) تحقيق : د . إحسان عباس - مكتبة لبنان - ط : ٢ - ١٩٨٤ م .

والحروب بين المسلمين والرُّوم في أرض الشَّام حتَّى لقي الله مجاهداً هناك وليس له عقب .

* كانت وفاةُ يزيد في الطَّاعون سنة (١٨ هـ) ، ولمَّا احتَضِرَ استعمل أخاه معاوية على عمله ، فأقرَّه عمر على ذلك احتراماً ليزيد ، وتنفيذاً لتوليته ^(١) . وذكر أبو زرعة الدمشقي في تاريخه قال : « توفي يزيد بن أبي سُفيان ، فأقرَّ عمرُ مكانه معاوية ، ثمَّ نَعَاهُ عمر لأبي سفيان ، فقال : يا أبا سفيان احتسب يزيد ؛ فقال أبو سفيان : يرحمه الله ، فمَنْ أَفَرَّتْ مكانه ؟ قال : معاوية .

قال : وَصَلْتُكَ رَحِمَ » ^(٢) .

* رضي الله عن يزيد ، وجمعنا وإياه في دار الخلود .



(١) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٣٣٠) ، و« طبقات ابن سعد » (٧ / ٤٠٦) ، وممَّن توفي سنة (١٨ هـ) في الطَّاعون : أبو عبيدة أمين الأمة ، ومعاذ بن جبل سيّد العلماء ، وشرحبيل بن حسنة الأمير المجاهد ، والفضل بن العباس ، والحارث بن هشام المخزومي ، وأبو جندل بن سهيل العامريّ - رضي الله عنهم أجمعين - .

(٢) تاريخ أبي زرعة الدمشقيّ (ص ٥٨) . وعن خلافة معاوية قال الإمام الأوزاعي رحمه الله : « أدركت خلافة معاوية عدّة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم : سعد ، وأسامة ، وجابر ، وابن عمر ؛ وزيد بن ثابت ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد ؛ ورافع بن خديج ، وأبو أمامة ، وأنس بن مالك ، ورجال أكثر ممَّن سميت بأضعاف مضاعفة ، كانوا مصابيح الهدى ؛ وأوعية العِلْم ؛ حضروا من الكتاب تنزيله ، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله ، ومن التَّابعين لهم بإحسان إن شاء الله منهم : المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد غوث ، وسعيد بن المسيّب ، وعروة بن الرُّبَيْر ، وعبد الله بن مُحيريز في أشباه لهم ، لم ينزعوا يداً من مجامعة في أمة محمّد ﷺ » . (تاريخ أبي زرعة الدمشقيّ ص ٤٢ و ٤٣ و ١٢٨) .

البابُ الثاني

من أبناءِ الأنصارِ وحلفائهم

- * أبو أمامةَ بنُ سَهْلٍ رضي اللهُ عنهما .
- * بشرُ بنُ البراءِ رضي اللهُ عنهما .
- * سهلُ بنُ سعدٍ رضي اللهُ عنهما .
- * عبدُ اللهِ بنُ بُشَيْرٍ رضي اللهُ عنهما .
- * قيسُ بنُ سعدٍ رضي اللهُ عنهما .
- * معاذُ بنُ عمرو بنِ الجموحِ رضي اللهُ عنهما .
- * النُّعْمانُ بنُ بشيرٍ رضي اللهُ عنهما .

أبو أمامة بن سهل

رضي الله عنهما

- * سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ بِاسْمِ جَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ ؛ وَكَتَّاهُ بِكُنْيَتِهِ .
- * كَانَ مِنْ عَلَيْهِ الْأَنْصَارَ وَعِلْمَائِهِمْ ، وَمِنْ أَبْنَاءِ الْبَدْرِيِّينَ .
- * تُوْفِيَ سَنَةَ (١٠٠ هـ) ؛ وَهُوَ مَمَّنْ طَالَ عَمْرُهُ ؛ وَحَسُنَ عَمَلُهُ .

أبو أمانة بن سهل رضي الله عنهما

بُوركت الأسرة :

* وَلَدَ هَذَا الصَّحَابِيُّ ابْنُ الصَّحَابِيِّ ابْنِ الصَّحَابِيَّةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ،
فَسَمَّاهُ ﷺ بِاسْمِ جَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ وَكَتَّاهُ بِكُنْيَتِهِ ؛ فَمَنْ هَذَا الْإِبْنُ السَّعِيدُ الَّذِي سَمَّاهُ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَتَّاهُ وَحَنَّكَه ؟ !

* هُوَ أَبُو أَمَانَةَ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ ^(١) الْأَوْسِيُّ الْفَقِيهُ الْمُعَمَّرُ
الْحَجَّةُ ، اسْمُهُ : أَسْعَدُ بِاسْمِ جَدِّهِ لِأُمِّهِ ، النَّقِيبُ السَّيِّدُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ
الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

* قَدَّمَ الْإِمَامُ الدَّهَبِيُّ هُوَيْتَهُ فَقَالَ : « اسْمُهُ أَسْعَدُ ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ
بِالْكُنْيَةِ ، وَسَمِّيَ بِاسْمِ جَدِّهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ النَّقِيبُ ، وَلَدَ فِي حَيَاةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأَاهُ » ^(٢) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٥ / ٨٢) ، و « معرفة الصحابة » (١ / ٢٦٤ و ٢٦٥) ترجمة
رقم (١٥٠) ؛ و « البداية والنهاية » (٩ / ١٩٠) ، و « زاد المعاد »
(الفهرس : ٦ / ٢٨٥) ، و « شرح حياة الصحابة » (الفهارس : ٤ / ٧١٢) ،
و « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٧ - ٥١٩) ، و « الاستبصار » (ص : ٣٢١) ،
و « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٢٧ - ٣٢٨) ، و « تهذيب التهذيب »
(١ / ٢٦٣ - ٢٦٥) ، و « أسد الغابة » (١ / ٨٧ - ٨٨) ، ترجمة
رقم : (١٠٠) ، و « الاستيعاب » (١ / ٦٠ - ٦١) ، وغيرها كثير جداً .

(٢) « تاريخ الإسلام » للدَّهَبِيِّ (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ هـ ،
ص : ٥١٠ - ٥١١) .

* قال أبو معشر نجيح السّنديّ : « رأيتُ أبا أمانةَ وقد رأى النَّبيَّ ﷺ » (١) .

* أمّا أسرةُ سيّدنا أبي أمانة بن سهل فهي من الأسر التي تسرّبتْ بالإسلام ، وبايع رجالُها ونساءُها رسولَ الله ﷺ ، وأسهموا جميعاً في بناء المجتمع الإسلاميّ في مختلف النّواحي .

* فوالدُ أبي أمانة : هو الصّحابيُّ الجليلُ سهلُ بنُ حُنيف الأنصاريّ الأوسيّ ، شهد بدرًا ، وثبّت يومَ أُحدٍ ، وبايعَ على الموت ، وجعل يرمي ويرشق بالنّبل أمّامَ الحبيب المصطفى ﷺ ، ويدافعُ عنه دفاعَ الأشدّاء الأقوياء ، فقال رسولُ الله ﷺ وقد رآه كذلك : « تَبَلَّوْا سَهْلًا فَإِنَّهُ سَهْلٌ » (٢) ، وآخى ﷺ بين سهل بن حُنيف ، وبين سيّدنا عليّ بن أبي طالب (٣) رضي الله عن سهل وعن عليّ وحشرنا في معيتهما .

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٨) . وقال أبو نعيم الأصبهاني : « وُلِدَ في حياة النَّبيِّ ﷺ ، وأُتِيَ به ، فحنّكه وسمّاه أسعد ؛ اختلف فيه ، ف قيل : صحب النَّبيَّ ﷺ وبايعه ، وقيل : أدركه ولم يسمع منه ، وهذا أصحّ . . . » (معرفة الصّحابة ١ / ٢٦٤) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٤٧١) .

(٣) « رجالُ أهل البيت » (ص : ٣١٥) . قُلْنَا في كتابنا : « رجالُ أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » ما رسمه عن مؤاخاةِ سيّدنا عليّ وسهل - رضي الله عنهما - : « وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين عليّ وسهل بن حُنيف الأنصاريّ ليرتقيا معاً ، وقد آتت هذه المؤاخاةُ : العلويّة السّهليّة أَكْلَهَا ؛ إذ ظلَّ سيّدنا سهلٌ ملازماً لسيّدنا عليّ ، وصَحْبُهُ حين بُويِعَ له ولما سار عليّ من المدينة إلى البصرة ؛ استخلفه على المدينة ، وشهد سهلٌ مع عليّ معركة صفّين ، وولاهُ بلادَ فارس ومات سهلٌ في الكوفة سنة : (٣٨ هـ) ، وصُلّيَ عليه سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - . » « رجالُ أهل البيت » (ص : ٣١٥ - ٣١٦) .

* وأما والدَةُ أبي أَمَامَةَ فهي : حَبِيبَةُ بِنْتُ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ ؛ تزَوَّجَهَا سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ، فولَدَتْ لَهُ أبا أَمَامَةَ بْنَ سَهْلٍ ، فجاءَ بِهِ سَهْلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فقال : « سَمِّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ » ، فسَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسْعَدَ ، وَكَتَبَهُ أبا أَمَامَةَ ، أَسْلَمَتْ حَبِيبَةُ بِنْتُ أَسْعَدٍ ، وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (١) .

* وكذلك أَسْلَمَتْ خَالَتَا أَبِي أَمَامَةَ : كَبِشَةُ وَالْفَارَعَةُ بِنْتَا أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ ، وَبَايَعَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، كَمَا أَسْلَمَتْ جَدَّتُهُ لَأُمِّهِ عُمَيْرَةُ بِنْتُ سَهْلٍ ، قَالَ ابْنُ سَعْدٍ : « تزَوَّجَهَا أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ . . . فولدت له بناته الْفُرَيْعَةُ ، وَكَبِشَةُ ، وَحَبِيبَةُ ، أَسْلَمْنَ وَبَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، أَسْلَمَتْ أُمُّهُنَّ عُمَيْرَةُ ، وَبَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ » (٢) .

عَالَمٌ عَامِلٌ :

* نَشَأَ سَيِّدُنَا أَبُو أَمَامَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَشَأَ الْعُلَمَاءُ ، فَقَدْ أَقْبَلَ بِشَغْفٍ عَلَى مَجَالِسِ الْعِلْمِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ؛ حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ عِلْمَائِهَا الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِنَانَ الْإِكْبَارِ وَالْإِعْجَابِ وَالتَّبَجِيلِ ، وَكَانَ عَالَمُ الْحِجَازِ وَالشَّامِ الْإِمَامُ

(١) قَالَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ وَالِدَةِ أَبِي أَمَامَةَ : « وَأُمُّهُ : حَبِيبَةُ بِنْتُ أَبِي أَمَامَةَ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ وَكَانَتْ حَبِيبَةُ مِنَ الْمُبَايَعَاتِ ، وَسَمِّيَ أَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدَ بِاسْمِ جَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ ، وَكُنِّيَ بِكُنْيَتِهِ ، وَكَانَ جَدُّهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ نَقِيبَ بَنِي النَّجَّارِ » . « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٨٣ / ٥) .

وَقَالَ ابْنُ قِدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : « أُمُّ حَبِيبَةُ أُخْتُ الْفَارَعَةِ ابْنَتَا أَبِي أَمَامَةَ أَسْعَدِ الْخَيْرِ بْنِ زُرَّارَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَلَدَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَسَمَّاهُ وَكَتَبَهُ بِاسْمِ جَدِّهِ لَأُمِّهِ ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ » . « الْإِسْتَبْصَارُ » (ص : ٣٢١) . وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ الدَّمَشَقِيُّ : « وَاسْمُ أَبِي أَمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ : أَسْعَدُ بْنُ سَهْلٍ ، وَأُمُّهُ ابْنَةُ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ ؛ وَعَثْمَانُ ، وَسَعْدُ ، وَعَبْدُ اللَّهِ إِخْوَةُ أَبِي أَمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ » . (تَارِيخُ أَبِي زُرْعَةَ ص ٣١٥) .

(٢) « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٨ / ٤٤٦) .

محمّد بن شهاب الزُّهريّ التّابعي الجليل ؛ يقول : « أخبرني أبو أمامة ، وكان من عليّة الأنصار وعلمائهم ، ومن أبناء البدرين » (١) .

* إنّ مجتمعاً عاشَ فيه الصّادقُ المصدوقُ ﷺ في المدينة المنوّرة عقداً من الزّمان - وتربّئ فيهِ على يديه أصحابه الغرّ الميامين الذين كانوا مطلع الثّور لخير أمة مباركة أُخرجت للنّاس - لهو مجتمعٌ متفرّد متألّق لا يعدله أيّ مجتمع آخر مهما علا شأنه ، وسطع نجمه ، ورفرف علمه ، فقد رأى هذا المجتمعُ الوحيّ ، وصاحب الدّعوة ، ولزم مجالسَ رسولِ الله ﷺ ، ولازمه في جلّه وترحاله ، في غدواته وروحاته ، وفي يُسرِهِ وعُسْرِهِ ، وفي حربِهِ وسلمِهِ ، فكان لهذه الملازمة والصّحبة آثارٌ نافعةٌ في الدّارين .

* فقد كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يرَبّي أصحابه وأبناء أصحابه تربيةً صافيةً فاضلةً ، ليكونوا قدوةً طيِّبةً ، وأسوةً حسنةً بعد وفاته ، وليكونوا حفظةً للأمة من الضّلالة والزّيف ، كما أنّ الصّحابة وأبناءهم - رضي الله عنهم - كانوا على مستوى رفيع أنيقٍ من الأخلاقِ الكريمة ، والعملِ والسّمت ، ممّا جعلهم محلّ جذب النّاس ، والتّأثير فيهم بالقول والعمل والسلوك ، ولذا كانت طبقةُ أبناء الصّحابة ، وطبقةُ كبراء التّابعين موضعَ التّأثير في مجتمعاتهم ، لما استلهموه من أقوال الصّحابة وسلوكهم ، فمَن رأى صحابياً أو كان ابن صحابيٍّ ، فكأنّه رأى الحبيبَ المصطفى ﷺ في سلوكه وهديه ؛ لأنّهم الجماعةُ العظيمةُ الفاضلةُ ؛ والقوم الذين رضي الله عنهم ، وأثنى عليهم في كتابهِ العزيز الكريم ، وليس بعد ثناء الله - عزّ وجلّ - من ثناءٍ وتعديلٍ وخيريّة .

* وإذا كان للصّحابة والتّابعين هذه الخيريّة المونقة ، ولهم هذا الأثرُ العظيم في المجتمع الذي يُوجدون فيه ، فإنّ المدينة المنوّرة - في العصر الرّاشديّ والأمويّ - كان لها النّصيب الأوفى من هذا الرّصيد المفيد ، إذا ما قُورنت بالأمصار الإسلاميّة الأخرى ، فقد كان عددُ العلماء من الصّحابة

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٨) .

وأبنائهم الذين استوطنوا المدينة المنورة بعد وفاة رسول الله ﷺ (١٥١ صحابياً) كما قال ابن حبان رحمه الله ، فلما ذكر مشاهير الصحابة بالمدينة قال : « نبدأ من هذا الصقع بالمدينة ؛ لأنها مهبط الوحي ، ومعدن الرسالة ، وبها نصير المصطفى ﷺ كثيراً ، ومنها انتشر الإسلام ، وظهر أعلام الدين ، وبها قبر رسول الله ﷺ ، وضجيعه أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ، وإياها قطن جلة الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - ، الذين هم منار الإسلام ، وبهم صان الله دينه عن الانشلام » (١) .

* أمّا التابعون ، فقد ساق ابن سعد في « طبقاته الكبرى » (٢) أكثر من (٤٠٠) تابعي في المدينة المنورة وحدها ، وإذا افترضنا أن شطرهم من أهل العلم ورواية الأحاديث ، فهذا يعني أن أكثر من مئتي تابعي كانوا من العلماء الفقهاء في المدينة المنورة ، وقد زينوا جيد البلدان بما حباهم الله من المعرفة .

* كان سيدنا أبو أمامة - رضوان الله عليه - من جلة علماء أهل المدينة المنورة ، وكانت له المكانة الباسقة ، والكلمة السامقة بين الناس ؛ إذ ارتضوا به أن يؤمهم في عهد عثمان - رضي الله عنه - ، وذلك لفقهه وعلمه وسعة معارفه .

* أورد عتبة بن مسلم هذه الخصوصية فقال : « إن آخر خرج خرج عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يوم الجمعة ، فلما استوى على المنبر حصبه

(١) « مشاهير علماء الأمصار » (ص : ٢١) .

(٢) انظر : المجلد الخامس من « طبقات ابن سعد » . وقد ذكر ابن حبان (١٧٠) تابعياً من مشاهير التابعين في كتابه : « مشاهير علماء الأمصار » . وقياساً بعلماء المدينة فقد استوطن مكة أكثر من خمسين صحابياً ، والعراق قرابة (١٠٥) صحابياً ، والشام خمسون صحابياً ، ومثل عددهم في مصر ، وفي خراسان ، واليمن ، والله تعالى أعلم .

النَّاسُ ، فَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ ، فَصَلَّى النَّاسُ يَوْمَئِذٍ أَبُو أَمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « (١) .

* وسبق هذا الخبرُ بصيغةٍ أخرى عند ابنِ شَبَّةٍ ؛ إِذْ سَأَفَهُ بِرَوَايَةٍ عَنْ عَتَبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْمَدِينِيِّ : « أَنَّ آخَرَ خُرُوجَةٍ خَرَجَهَا عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَوْمَ جُمُعَةٍ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَبْرَةٌ ، مُصَفَّرًا رَأْسُهُ وَلَحِيَّتُهُ بِوَرَسٍ ، فَمَا تَخَلَّصَ إِلَى الْمَنْبَرِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَجْلِسَ ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَيْهِ ، حَصَبَهُ النَّاسُ ، وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، يُقَالُ لَهُ : الْجَهْجَهَاءُ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَنُغَرَّبَنَّكَ إِلَى جَبَلِ الدُّخَانِ ، فَلَمَّا نَزَلَ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ ، وَصَلَّى النَّاسُ أَبُو أَمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ « (٢) .

* وَعَنْ أَبِي مُسْعَدٍ الْمَدْنِيِّ ، قَالَ : « إِنَّ أَبَا أَمَامَةَ بْنَ سَهْلٍ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَ يَصَلِّي بِالنَّاسِ ، وَعُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُحْصُورٌ » .

* قَالَ يَحْيَى بْنُ آدَمَ : « وَلَعَلَّهُ صَلَّى بِهِمْ رَجُلٌ بَعْدَ رَجُلٍ » .

* وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « صَلَّى أَبُو أَمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ وَعُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُحْصُورٌ » .

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - قَالَ : « حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، فَجَاءَ الْمُؤَذِّنُ يُؤَذِّنُ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ مُحْصُورٌ ، فَقَالَ : اذْهَبْ إِلَى أَبِي أَمَامَةَ ، أَوْ إِلَى سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ ، فَقُلْ لَهُ يَصَلِّي بِالنَّاسِ » (٣) .

* وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ : « تَرَاضَى النَّاسُ أَنْ يَصَلِّيَ بِهِمْ وَعُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُحْصُورٌ » (٤) .

* وَفِي « تَارِيخِهِ » قَالَ الدِّيَارُ بَكْرِيُّ : « ثُمَّ خَرَجَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٢٨) .

(٢) « تاريخ المدينة المنورة » (٤ / ١٢١٨ - ١٢١٩) .

(٣) « تاريخ المدينة المنورة » (٤ / ١٢١٧ - ١٢١٩) بشيء من التصرف .

(٤) « الإصابة » (١ / ١٠٧) .

عنه - من آخر جمعة خرج فيها ، فحصبوه حتّى وقع عن المنبر ، ولم يقدر أن يصليّ بهم ، فصلّى بهم يومئذ أبو أمامة بن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - « (١) » .

في صحبة الخلفاء :

* تطلّ علينا سيرة أبي أمامة - رضي الله عنه - بنفح طيها ؛ وتشير إلى أنّه كان سيّداً كريماً ، وعالماً نبيلاً من الصالحين ، صَحِبَ الخلفاء الرَّاشدين ، ونقلَ إلى الأُمَّة نفاثسَ من أخبارهم التي تزيّنُ المَجالسَ ، وتؤنسُ المَجالسَ ، وتهذّبُ نفوسَ المحبّين ، وتصلّقُ قلوبَ العارفين ، وتثري ألبابَ المتعلّمين .

* فمن عيون الأخبارِ العمرية ، وبديع الفضائلِ الفاروقية ، يرسمُ سيّدنا أبو أمامة - رضي الله عنه - هذا الموقفَ العَطرَ الذي يبين من خلاله جانباً من حياة سيّدنا عمر - رضي الله عنه - ، ويظهر إعراضَه عن ملذّات الدُّنيا ، وزهده في الطَّعام ، بعد أن يسألَ سيّدنا عثمان بن عفّان ، وعليّ بن أبي طالب ، وسعيد بن زيد - رضي الله عنهم - .

* قال سيّدنا أبو أمامة بن سهل - رضي الله عنهما - : « مكثَ عمرُ - رضي الله عنه - زماناً طويلاً لا يأكلُ من المالِ شيئاً ، حتّى دخلتُ عليه في ذلك خصاصة ، وأرسلَ إلى أصحابِ رسول الله ﷺ فاستشارهم ، فقال : قد شغلّت نفسي في هذا الأمر ، فما يصلحُ لي منه ؟ »

فقال عثمان بن عفّان - رضي الله عنه - : كُلْ ؛ وأطعم . وقال ذلك سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل - رضي الله عنه - . وقال لعليّ - رضي الله عنه - : ما تقولُ أنتَ في ذلك ؟

قال : غَداءَ وعشاءَ ، فأخذَ بذلك عمر - رضي الله عنه - « (٢) » .

(١) « تاريخ الخميس » (٢ / ٢٦٠) .

(٢) « شرح حياة الصّحابة » (٢ / ٤١٨) . وقوله « لا يأكل من المال » ؛ أي : من بيت =

* كَانَ هَذَا الْإِبْنُ الْحَصِيفُ اللَّيْبُ أَبُو أَمَامَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - شَدِيدَ الْقُرْبِ مِنْ سَيِّدِنَا عَثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي « طَبَقَاتِهِ » قَالَ : « كُنْتُ مَعَ عَثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الدَّارِ وَهُوَ مُحْصُورٌ ، وَكُنَّا نَدْخُلُ مَدْخَلًا إِذَا دَخَلْنَاهُ ، سَمِعْنَا كَلَامَ مَنْ عَلَى الْبَلَاطِ ، فَدَخَلَ عَثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَوْمًا لِحَاجَةٍ ، فَخَرَجَ مُتَتَقِعًا لَوْنُهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ لَيَتَوَعَّدُونِي بِالْقَتْلِ أَنْفَاءً .

قلنا : يكفيكم الله يا أمير المؤمنين .

قال : وَلَمْ يَقْتُلُونِي ، وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَحِلُّ دُمُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ : رَجُلٍ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ ، أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بَغَيْرِ نَفْسٍ » ، فَوَاللَّهِ مَا زَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ ، وَلَا فِي إِسْلَامٍ قَطْ ، وَلَا تَمَنَيْتُ أَنْ لِي بِدِينِي بَدَلًا مِنْهُ هَدَانِي اللَّهُ ، وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا ، فَفِيمَ يَقْتُلُونِي ؟ » (١) .

* وَسَيِّدُنَا أَبُو أَمَامَةٍ بْنُ سَهْلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِمَّنْ تَرَبَّوْا عَلَى حَيَاةِ الزُّهْدِ الْحَقِيقِيِّ ، وَمِمَّنْ تَأَسَّى بِهِدِي الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ ، فَقَدْ كَانَ زَاهِدًا فِي زَخْرِفِ الدُّنْيَا وَحِلَاوَتِهَا ، كَارِهًا التَّطَاوُلَ فِي الْبِنَاءِ ، دَاعِيًا إِلَى اتِّبَاعِ الْهَدْيِ النَّبَوِيِّ قَوْلًا وَفِعْلًا ، مُؤَكِّدًا عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ الْمَقِيمَ هُوَ السَّعْيُ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ .

* ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي « طَبَقَاتِهِ » قِصَّةً مَفِيدَةً تَوْكَّدُ مَا قُلْنَاهُ وَمَفَادَاهَا : « أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْأُمَوِيَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قَدْ أَمَرَ بِإِدْخَالِ حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ابْتِغَاءَ تَوْسِعَتِهِ ، فَبَكَى أَهْلُ

= المال . و« خصاصة » : حاجة وفقر وجوع . و« فما يصلح لي منه » ؛ أي : أي شيء يجوز لي من بيت المال ؟

(١) « تاريخ المدينة المنورة » (٤ / ١١٨٦ - ١١٨٧) .

المدينة لهذا الأمر ، وأحبَّ علماؤها ورغبوا في أن تبقى البيوت على حالها ليرى النَّاس ما اكتفى به رسولُ اللَّهِ ﷺ في حياته ، فيكون ذلك ممَّا يزهدُ النَّاس في التَّكاثر والتَّفاخر في الدُّنيا ، وكان في المسجد النَّبويِّ نَقْرٌ من أبناء أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، منهم : سيِّدنا أبو أمانة بن سهل بن حنيف ، وأبو سلمة بن عبد الرَّحْمَنِ ، وخارجة بن زيد ، وإنَّهم ليكون حتَّى أخْضَل لحاهم الدَّمْعُ ، وقال يومئذٍ سيِّدنا أبو أمانة بن سهل - رضي اللَّهُ عنهما - : « ليتها تُرَكَت فلم تُهدم ، حتَّى يُقْصَرَ النَّاس عن البناء ، ويروا ما رضي اللَّهُ - عزَّ وجلَّ - لِنَبِيِّهِ ﷺ ، ومفاتيح خزائن الدُّنيا بيده » (١) .

مكانته في الفقه والفتوى :

* لَمَّا انتقل الحبيبُ المصطفى ﷺ إلى الرَّفِيقِ الأعلى ، ظَلَّتِ الكثرةُ الكاثرةُ من الصَّحابةِ وأبنائهم في المدينة المنورة ، فكانت المدينةُ في العهد الرَّاشدي موئلَ الصَّحابةِ ومجمعهم ؛ وقد اشتهرَ في الفقه والعلم والفتوى جماعةٌ منهم ، وبخاصَّةِ أبناء الصَّحابةِ وأحْدانهم وشبابهم ؛ إذ كثرت الروايةُ

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (١ / ٤٩٩ - ٥٠٠) ، و (٨ / ١٦٧) بشيء من التَّصَرُّف . وقد جاء وصفُ بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ على ألسنة كثيرين ممَّن رأوها ، ومنها ما ذكره ابنُ سعد عن شيخٍ من أهل المدينة قال : « رأيتُ حُجْرَ النَّبيِّ ﷺ قبل أن تهدمَ بجرائد النَّخل مُلبَّسةً الأنطاع » .

وأخرج ابنُ سعد عن داود بن شيبان قال : « رأيتُ حُجْرَ أزواج النَّبيِّ ﷺ وعليها المسوح » يعني : متاع الأعراب . وجاء عن الحسن البصريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « كنت أدخلُ بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ في خلافةِ عثمان بنِ عفَّان - رضي اللَّهُ عنه - ، فأتناول سُقْفَهَا بيدي » .

وقال عطاء الخراسانيّ : « أدركت حُجْرَ أزواج النَّبيِّ ﷺ من جريد النَّخل على أبوابها المسوح من شعر أسود » . « طبقات ابن سعد » (١ / ٤٩٩ - ٥٠١) بتصرف .

عنهم ، ومنهم : العبادلة الأربعة ^(١) ، وجابر بن عبد الله ^(١) ، وأبو سعيد الخدري ^(١) ، وأنس بن مالك ^(١) ونظراؤهم ، وهؤلاء كلهم أجمعون كان يُعدُّ من فقهاء الصحابة وأبنائهم ، وكان معظم الرواية والعلم في هؤلاء ؛ لأنهم بقوا ، وطالت أعمارهم ، واحتاج الناس إليهم ؛ ويعدُّ أبو أمامة بن سهل - رضي الله عنهما - أحد هؤلاء العلماء الفقهاء المفتين ، فقد كان يسأل علماء الصحابة الكبراء عن بعض الأمور المهمة في الدين ، ومن ثمَّ ينقل ما تعلَّمه إلى المتعلِّمين .

* أخرج البرَّاز عن أبي أمامة بن سهل عن أبي هريرة قال : « قلتُ له : ما كان يخاف القوم إذا دخلوا قريةً ، أو أشرفوا على قريةٍ أن يقولوا : اللهم اجعل لنا فيها رزقاً ! قال : كانوا يخافون جور الولاة ، وقحوط المطر » ^(٢) .

* وفي أحكام الجنائز كان لأبي أمامة نصيبٌ من المنهج السَّويِّ ، ؛ إذ أدلى دلوهُ في هذا المضمار الذي لا يخرجُ عن الهدى النَّبويِّ ، فقد كان الصَّادقُ المصدوقُ عليه السلام إذا قُدِّمَ إليه ميثٌ يصلي عليه ، سأل : « هل عليه دينٌ ، أم لا ؟ » فإن لم يكن عليه دينٌ صلى عليه ، وإن كان عليه دينٌ ، لم يُصلِّ عليه ، وأذن لأصحابه أن يصلُّوا عليه ، فإنَّ صلاته شفاعة ، وشفاعته موجبةٌ ، والعبدُ مرتَهَنٌ بِدَيْنِهِ ، ولا يدخلُ الجنَّةَ حتَّى يُقْضَى عنه ، فلمَّا فتح اللهُ - عزَّ وجلَّ - عليه ، كان يصلي على المدين ، ويتحمَّلُ دينه ، ويدعُ ماله لورثته . فإذا أخذ في الصَّلَاة عليه ، كَبَّرَ وحمدَ الله وأثنى عليه ، وصلى سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس على جنازة ، فقرأ بعد التكبيرة الأولى بفاتحة الكتاب

(١) اقرأ سيرة هؤلاء في كتابنا : « علماء الصحابة - رضي الله عنهم - » ففي سيرهم مواقف لا تُنسى .

(٢) انظر : « مجمع الزوائد » (١٠ / ١٣٥) ، وقال الهيثمي : « رجاله رجال الصَّحيح غير قيس بن سالم وهو ثقة » .

جهرًا ، وقال : « لَتَعْلَمُوا أَنَّهَا سُنَّةٌ » ، وكذلك قال سيّدنا أبو أمامة بن سهل : « إِنَّ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ فِي الْأُولَى سُنَّةٌ » .

* أخرج الحاكم في « المستدرک » عن محمد بن شهاب الزهري قال : « أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف وكان من كبار الأنصار وعلمائهم وأبناء الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ ؛ أخبره رجالٌ من أصحاب رسول الله ﷺ في الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ أَنْ يَكْبَرَ الْإِمَامُ ، ثُمَّ يَصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَخْلُصُ الصَّلَاةَ فِي التَّكْبِيرَاتِ الثَّلَاثِ ، ثُمَّ يَسْلِمُ تَسْلِيمًا خَفِيًّا حِينَ يَنْصَرِفُ ، وَالسُّنَّةُ أَنْ يَفْعَلَ مِنْ وَرَائِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ أَمَامَهُ » .

قال الزهري رحمه الله : « حَدَّثَنِي بِذَلِكَ أَبُو أَمَامَةَ ، وَابْنُ الْمُسَيَّبِ يَسْمَعُ فَلَمْ يَنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيْهِ » .

قال ابن شهاب رحمه الله : « فَذَكَرْتُ الَّذِي أَخْبَرَنِي أَبُو أَمَامَةَ مِنَ السُّنَّةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْمَيِّتِ لِمُحَمَّدِ بْنِ سُوَيْدٍ ، قَالَ : وَأَنَا سَمِعْتُ الصَّحَّاحَ بْنَ قَيْسٍ يَحَدِّثُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ مُسْلِمَةَ فِي صَلَاةِ صَلَاهَا عَلَى الْمَيِّتِ مِثْلَ الَّذِي حَدَّثَنَا أَبُو أَمَامَةَ » ^(١) .

(١) « المستدرک » (١ / ٥١٢ - ٥١٣) ، حديث رقم : (١٣٣١) . وقال الحاكم : « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ ؛ وَلَيْسَ فِي السَّلَامَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى الْجَنَازَةِ أَصَحُّ مِنْهُ » .

قال أحمد بن القاسم : « قِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : أَتَعْرِفُ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ كَانَ يَسْلِمُ عَلَى الْجَنَازَةِ تَسْلِيمَتَيْنِ ؟ »

قال : لا ، وَلَكِنْ سَنَّةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْلَمُونَ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً خَفِيفَةً عَنْ يَمِينِهِ ، فَذَكَرَ ابْنُ عَمْرٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَبَا هُرَيْرَةَ ، وَوَالِدَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ ، وَابْنَ أَبِي أَوْفَى ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ . وَزَادَ الْبَيْهَقِيُّ : عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَأَبَا أَمَامَةَ بْنَ سَهْلٍ ، وَحُنَيْفٌ ، فَهَلْؤُلَاءِ عَشْرَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَأَبُو أَمَامَةَ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَسَمَّاهُ بِاسْمِ جَدِّهِ لِأَنَّهُ أَبِي أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ

راوي الحديث المُعَمَّر :

* ذكر ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ وغيرُهُ أَنَّ سَيِّدَنَا أبا أَمَامَةَ - رضي اللهُ عنه - قد رَوَى عن النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثَ أَرسلَهَا ، وَروَى عن جَمَاعَةٍ من كِبَرَاءِ الصَّحَابَةِ من مثل : سَيِّدِنَا عَمْرٌ ، وَعَثْمَانُ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَأَبُو سَهْلٍ ، وَعَمَّهُ عَثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ ، وَمَعَاوِيَةُ ، وَأُمُّنَا النَّبِيلَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ عَائِشَةُ وَغيرُهُمْ - رضي اللهُ عنهم أَجْمَعِينَ - .

* وَحَدَّثَ عَنْهُ من أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَقْرَبَائِهِ : ابْنَاهُ مُحَمَّدٌ وَسَهْلُ ابْنَا أَبِي أَمَامَةَ ، وَابْنَاهُ عَمَّهُ عَثْمَانُ وَحَكِيمُ ابْنَا حَكِيمِ بْنِ عَبَادِ بْنِ حُنَيْفٍ ، وَابْنُ عَمِّهِ أَبُو بَكْرِ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ .

* وَحَدَّثَ عَنْهُ عِدَّةٌ من أَكْبَارِ عِلْمَاءِ التَّابِعِينَ وَأَسْيَادِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ من مثل : الزُّهْرِيُّ ، وَسَعْدُ بْنُ إِبرَاهِيمَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدَرِ ، وَأَبُو الزِّنَادِ ، وَبَحِيُّ بْنُ سَعْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، وَأَبُو حَازِمٍ الْأَعْرَجِ ، وَآخَرُونَ ، وَكَانَ أَحَدُ الْعِلْمَاءِ ^(١) .

= زُرَّارَةَ ، وَهُوَ مَعْدُودٌ فِي الصَّحَابَةِ ، وَمن كِبَارِ التَّابِعِينَ . « زَادَ الْمَعَاد » (١ / ٥١٠ - ٥١١) .

وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ عِلْمِ سَيِّدِنَا أَبِي أَمَامَةَ وَفَقْهِهِ : « ... وَهُوَ أَحَدُ الْأُئِمَّةِ الْعِلْمَاءِ » . « أَسَدُ الْغَابَةِ » (١ / ٨٧) .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللهُ أَيْضاً عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي أَمَامَةَ : « وَهُوَ أَحَدُ الْجَلَّةِ الْعِلْمَاءِ ، من كِبَارِ التَّابِعِينَ بِالْمَدِينَةِ » . « الْاِسْتِيعَاب » (١ / ٦٠) .

(١) « تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ » (١ / ٢٦٤) ، وَ« الْإِصَابَةُ » (١ / ١٠٧) ، وَ« سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ » (٣ / ٥١٨) . وَ« طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٥ / ٨٢) ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ . وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ - رضي اللهُ عنه - : « وَكَانَ ثِقَةً كَثِيرَ الْحَدِيثِ » . « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٥ / ٨٣) . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : « سَمِعْتُ أَبِي قِيلَ لَهُ : هُوَ ثِقَةٌ ، فَقَالَ : لَا يُسْأَلُ عَنْ مِثْلِهِ ، هُوَ أَجَلُ من ذَلِكَ » .

* قال ابن عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « وُلِدَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وهو سَمَاءُ ، وَحَدَّثَ عَنْهُ مُرْسَلًا ؛ رَوَى عَنْ عَدِيدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رضي الله عنهم - ، وَرَوَى عَنْهُ ؛ وَقَدِمَ عَلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ بِكِتَابٍ مِنْ عَمْرِ - رضي الله عنه - ، وَغَزَا الشَّامَ » (١) .

* وَأَحَادِيثُ سَيِّدِنَا أَبِي أَمَامَةَ مَوْجُودَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَفِي السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ ، وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْأُخْرَى .

* وَمِنْ مَرْوِيَّاتِهِ فِي « صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ » مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي أَمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ - رضي الله عنهما - ، قَالَ : « صَلَّيْنَا مَعَ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الظُّهْرَ ، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَوَجَدْنَاهُ يُصَلِّي الْعَصْرَ ، فَقُلْتُ : يَا عَمَّ مَا هَذِهِ الصَّلَاةُ الَّتِي صَلَّيْتَ ؟

قَالَ : الْعَصْرَ ، وَهَذِهِ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي كُنَّا نَصَلِّي مَعَهُ » (٢) .

= وقال أبو منصور الباوردي : « مختلفٌ في صحبته ، إِلَّا أَنَّهُ وُلِدَ فِي عَهْدِهِ ﷺ ، وَهُوَ مِمَّنْ يُعَدُّ فِي الصَّحَابَةِ الَّذِي رَوَى عَنْهُمْ الزُّهْرِيُّ » .

وقال السُّلَمِيُّ : « سُئِلَ الدَّارِقُطْنِيُّ : هَلْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَخْرَجَ حَدِيثَهُ فِي الْمُسْنَدِ » .

وقال البخاريُّ : « أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ » ، وَعَنْ الزُّهْرِيِّ : « حَدَّثَنِي أَبُو أَمَامَةَ ، وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ وَسَمَّاهُ ، وَحَنَكُهُ » . « تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ » (١ / ٢٦٤) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١ / ٤٢٧) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ بِرَقْمٍ : (٥٤٩) . قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ : « وَفِي الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ يُصَلِّي الصَّلَاةَ فِي آخِرِ وَقْتِهَا تَبَعًا لِسُلْفِهِ إِلَى أَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ عُرُوءُ فَرَجَعَ إِلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ عُرُوءُ فِي الْعَصْرِ دُونَ الظُّهْرِ لَا كِرَاهَا فِيهِ بِخِلَافِ وَقْتِ الْعَصْرِ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا أَيْضًا ، وَهُوَ عِنْدَ انْتِهَاءِ وَقْتِ الظُّهْرِ ، وَلِهَذَا تَشَكَّكُ =

* وأخرج البخاري أيضاً عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف - رضي الله عنهما - قال : « سمعت معاوية بن أبي سفيان وهو جالس على المنبر ، أذن المؤذن قال : الله أكبر الله أكبر .

قال معاوية : الله أكبر الله أكبر .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله .

فقال معاوية : وأنا .

فقال : أشهد أن محمداً رسول الله .

فقال معاوية : وأنا .

فلما أن قضى التآذنين قال : يا أيها الناس ، إنني سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس - حين أذن المؤذن - يقول ما سمعتم مني من مقالتي « (١) .

* وفيما يتعلق في الفرائض أخرج ابن ماجه وغيره عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف : « أن رجلاً رمى رجلاً بسهم فقتله ؛ وليس له وارث إلا خال ، فكتب في ذلك أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر ، فكتب إليه عمر أن

= أبو أمامة في صلاة أنس - رضي الله عنه - أهي الظهر أو العصر ، فبدل أيضاً على عدم الفاصلة بين الوقتين . وقوله له « يا عم » : هو على سبيل التوقير ولكونه أكبر سناً منه مع أن نسبهما مجتمع في الأنصار ؛ لكنه ليس عمه على الحقيقة ، والله أعلم . « فتح الباري » (١ / ٣٥) .

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ، برقم : (٩١٤) ؛ وقوله « وأنا » : أي : أشهد ، أو أنا أقول مثله . « فلما أن قضى » ؛ أي : فرغ . « وأن » : زائدة . وفي هذا الحديث من الفوائد : تعلم العلم وتعليمه من الإمام وهو على المنبر . وأن الخطيب يجب المؤذن وهو على المنبر ، وأن قول المجيب : « وأنا كذلك » ونحوه يكفي في إجابة المؤذن ، وفيه إباحة الكلام قبل الشروع في الخطبة ، وأن التكبير في أول الأذان غير مرجع وفيهما نظر ، وفيه الجلوس قبل الخطبة .

النَّبِيِّ ﷺ قال : « الله ورسولُه مولى مَنْ لا مولى له ، والخالُ وارثُ مَنْ لا وارث له » (١) .

* وذكر ابنُ عساكر عن ابن شهاب الزُّهريّ عالم الشَّام والحجاز : « أنَّ أبا أمانة بنَ سهل بن حنيف أخبره أنَّ مسكينةً مرضت ، فأخبر رسولُ الله ﷺ بمرضها - وكان رسولُ الله ﷺ يعودُ المساكين ويسألُ عنهم - فقال رسولُ الله ﷺ : « إذا ماتتْ فأذنوني » .

قال : فَخُرجَ بجنائزها ليلاً ، وكرهوا أن يُوقظوا رسولَ الله ﷺ ؛ فلمَّا أصبح رسولُ الله ﷺ أخبرَ بالذي كان من شأنها ، فقال : « ألَمْ آمركم أن تؤذنوني بها ؟ » .

فقالوا : يا رسول الله ! كرهنا أن نخرجَكَ ليلاً أو نوقظكَ .

قال : فخرجَ رسولُ الله ﷺ حتَّى صَفَّ بالنَّاس على قبرها ، وكَبَّرَ أربع تكبيرات ! ! » (٢) .

* ومن مرويات سيِّدنا أبي أمانة فيما يتعلَّق ببيت النبوة ما أخرجه الإمام أحمد وغيره ، عن أبي أمانة بن سهل - رضي الله عنهما - قال : « دخلتُ أنا وعروة بنُ الزُّبير يوماً على عائشة فقالت : لو رأيتما نبيَّ الله ﷺ ذات يوم في مرضٍ مَرَضه ، وكانت له عندي ستّة دنائير - أو سبعة - ، فأمرني نبيُّ الله ﷺ أن أفرقها ؛ فشغلني وجعُ نبيِّ الله ﷺ حتَّى عافاهُ الله ، ثمَّ سألتني عنها ، فقال : « ما فعلتِ السَّتّة ؟ » قال : « أو السَّبعة ؟ » .

قلتُ : لا والله لقد كان شغلني وجعُكَ ، فدعا بها ، ثمَّ صَفَّها في كفِّه ،

(١) أخرجه ابن ماجه في الفرائض برقم : (٢٧٣٧) ، واللفظ له ، وأحمد في « المسند » (٩ / ٦٩) حديث رقم : (١٨٩) ، والترمذي في الفرائض برقم : (٢١٠٢) ، وسنده حسن كما قال الترمذي .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٢٨) .

فقال : « ما ظنُّ نبيِّ الله لو لقيَ الله - عزَّ وجلَّ - وهذه عنده » (١) .

* عاش سيّدنا أبو أمانة الخلافة الرَّاشدة وشرطاً من خلفه بني أميّة ، وكان من أبناء الصّحابة المعمرين الذين طافوا البلاد ، وعملوا بالعلم والعمل ليوم المعاد ، وقد رآه أبو معشر المدني وقد غدا شيخاً كبيراً يخضبُ بالصفرة ، وقد تجاوز التسعين ، وامتدت به الحياة إلى أن لقي الله - عزَّ وجلَّ - سنة (١٠٠ هـ) ، قال الذهبيُّ : « اتَّفَقُوا على وفاته في سنة مئة » (٢) ؛ فرضي الله عن أبي أمانة بن سهل ، ، وعاملنا بما هو له أهل .



(١) « المسند » (٩ / ٤٠٥) ، حديث رقم : (٢٤٧٨٧) ، و« دلائل النبوة » للبيهقي (١ / ٣٤٦) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٩) ، و« معرفة الصّحابة » (١ / ٢٦٥) ، وغيرهما .

بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ

رضي الله عنهما

- * أسرته من أسر الأنصار ، ذات الشرف والسيادة والوقار .
- * كان من الرُّماة المذكورين ؛ ومن أهل بَدْر الميامين .
- * توفي مسموماً في حياة النَّبِيِّ ﷺ أيام غزوة خيبر .

بِشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وارثُ السَّيَادَةِ :

* ورثَ هذا الابنُ السَّيَادَةَ كَإِبْرَاهِيمَ عَنْ كَابِرٍ وَكَانَ كَرِيمَ الْأَعْرَاقِ ، حَتَّى غَدَا سَيِّدَ قَوْمِهِ بِشَهَادَةِ أَفْضَلِ خَلْقِ اللَّهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، إِذْ سَمَاهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيِّدًا وَأَكَّدَ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ فِي الْآفَاقِ .

* كَانَ أَبُوهُ مِنْ كِبَارِ الْأَنْصَارِ ، وَكَانَ سَيِّدًا نَقِيبًا لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ مِنَ الْخَزَرَجِيِّينَ الْأَبْرَارِ ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذِ الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ نَقِيبَ قَوْمِهِ بَنِي سَلَمَةَ ، وَأَوَّلَ مَنْ بَايَعَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى ، كَانَ فَاضِلًا تَقِيًّا ، فَقِيَهُ النَّفْسِ ، مَاتَ فِي صَفَرٍ قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرًا بِشَهْرِ . وَزَعَمُوا أَنَّهُ أَوْصَى بِثَلَاثٍ مَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَبِثَلَاثٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَبِثَلَاثٍ لَوْلَدِهِ ، فَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَرَدَّهُ عَلَى الْوَرِثَةِ ، فَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ مَاتَ ، فَسَأَلَ عَنْ قَبْرِهِ ، فَأَتَاهُ ، فَصَفَّ عَلَيْهِ ، وَكَبَّرَ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، وَارْحَمْهُ ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ ، وَقَدْ فَعَلْتَ » . وَكَانَ هَذَا الْأَبُّ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَجَلَ السَّبْعِينَ ، وَهُوَ أَوَّلُهُمْ مَبَايَعَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِنَّهُ سَيِّدُنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ^(١) .

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦١٨ - ٦٢٠) ، و« سير أعلام النبلاء »

= (١ / ٢٦٧ - ٢٦٩) مع الجمع والتصرف .

* وأُمُّ هَذَا ابْنِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ : خَلِيدَةُ بِنْتُ قَيْسٍ ؛ أَسْلَمْتُ وَبَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَرَوْتُ عَنْهُ .

* أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَلْ يَتَعَارَفُ الْمَوْتَى ؟ » .

فَقَالَ : « تَرَبَّتْ يَدَاكَ » وَرَبَّمَا قَالَ : « تَرَبَّ جَبِينُكَ ، النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ طَيْرٌ خَضِرٌ فِي الْجَنَّةِ ، فَإِنْ كَانَ الطَّيْرُ يَتَعَارَفُونَ فِي رُؤُوسِ الشَّجَرِ ، فَإِنَّهُمْ يَتَعَارَفُونَ » (١) .

* وَذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا ؟ » .

قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَتْ : وَرَمَى بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَغْرِبِ فَقَالَ : « رَجُلٌ آخِذٌ بِعَنَانٍ فَرَسُهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُغَيَّرَ أَوْ يُغَارَ عَلَيْهِ ؛ أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا بَعْدَهُ ؟ » .

قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَتْ : وَرَمَى بِيَدِهِ نَحْوَ الْحِجَازِ فَقَالَ : « رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ يَقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَيَعْلَمُ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي

= قال ابنُ سعد رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « طَبَقَاتِهِ » عَنْ سَيِّدِنَا الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ : « . . . وَشَهِدَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ الْعُقْبَةَ فِي رَوَايَتِهِمْ جَمِيعًا ، وَهُوَ أَحَدُ الثُّقَبَاءِ الْإِثْنِي عَشَرَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَكَانَ الْبَرَاءُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الثُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعُقْبَةِ حِينَ لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ السَّبْعُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَبَايَعُوهُ وَأَخَذَ مِنْهُمْ الثُّقَبَاءَ ، فَقَامَ الْبَرَاءُ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِمُحَمَّدٍ ، وَحَبَانَا بِهِ ، فَكُنَّا أَوَّلَ مَنْ أَجَابَ ، وَآخَرَ مَنْ دَعَا فَأَجَبْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ؛ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قَدْ أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَإِنْ أَخَذْتُمُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ ، وَالْمَوَازَرَةَ بِالشُّكْرِ ، فَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، ثُمَّ جَلَسَ . . . » . « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٦١٨ / ٣ - ٦١٩) .

(١) « طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٣١٣ / ٨) .

ماله ، قد اعتزلَ شرور النَّاسِ » (١) .

* أمَّا ابنهما فهو الصَّحَابِيُّ ابن الصَّحَابِيِّ ابن الصَّحَابِيَّةِ بِشْرُ بنُ البراء بن معرور الأنصاريِّ الخزرجيِّ السُّلَميِّ (٢) ، من أشرافِ قومه وأسيادهم ، وذوي الفضل فيهم .

* وتُصَنَّفُ أسرةُ سيِّدنا بِشْرٍ من الأُسَرِ الأنصاريَّةِ التي أسلمتْ وبايعتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فقد كان لبشرٍ أَخٌ اسمه : مُبَشَّر ، أسلمَ وبايعَ ، وكان له أخواتٌ وهنَّ : هند (٣) ، وسلافة (٤) ، والرَّباب (٥) ، وكلَّهنَّ أسلمنَ وبايعنَ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، وشهدنَ شهادةَ الحقِّ ، فكنَّ من خيرةِ الصَّحَابِيَّاتِ الأنصاريَّاتِ رضيَ اللَّهُ عنهنَّ أَجمعين (٦) .

صَفَاؤُهُ مع الإسلام :

* أسلمَ سيِّدنا بِشْرُ بنُ البراء - رضيَ اللَّهُ عنه - إسلامَ الأصفياءِ الصَّادقين ، وكان من كرامِ المُخْلِصين ، فكان يسمَعُ من جيرانه يهود المدينة

(١) « طبقات ابن سعد » (٨ / ٣١٤) .

(٢) « السِّيرة النَّبَوِيَّةُ بِشرحِ أَبِي ذَرٍّ الْخَشَنِيِّ » (الفهارس : ٤ / ٥٠٠) ، و« المغازي » (الفهارس : ٣ / ١١٤٣) ، و« سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٦٩) ، و« الاستبصار » (ص : ١٤٣ - ١٤٤) ، و« طبقات ابن سعد » (الفهارس : ٩ / ٢٥) ، و« زاد المعاد » (الفهارس : ٦ / ٢٩٠) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٣٣ - ١٣٤) ، و« الاستيعاب » (١ / ١٥١ - ١٥٢) ، و« الإصابة » (١ / ١٥٤) ، و« أسد الغابة » (١ / ٢١٨) ترجمة رقم : (٤١٧) ، و« البداية والنهاية » (٤ / ٢١٠ - ٢١١) وغيرها كثير .

(٣) انظر : « طبقات ابن سعد » (٨ / ٤٠٠) .

(٤) انظر ترجمتها في : « طبقات ابن سعد » (٨ / ٤٠٠) .

(٥) المصدر السابق عينه .

(٦) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦١٨) .

بصفات سيّدنا محمد ﷺ ؛ إذ كانوا يستنصرون الله به على مشركي العرب من قبل أن يُبعث ، فلمّا بعثه الله كفروا به ، وتنصّلوا ممّا كانوا يقولون ، فكان بشر بن البراء وشباب من الأنصار يذكّرونهم بما قالوا فينكرون .

* أورد الطبري رحمه الله في « تفسيره » بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلمّا بعثه الله من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة : يا معشر يهود ، اتّقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون - تستنصرون - علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتُخبروننا أنّه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ! فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنّا نذكّر لكم .

فأنزل الله - جلّ ثناؤه - في ذلك من قولهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩] ^(١) .

(١) « تفسير الطبري » (١ / ٤١٠ - ٤١١) ، وانظر : « السيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشن » (٢ / ٢٢٤) .

قال الإمام فخر الدّين الرّازي رحمه الله في « تفسيره » لهذه الآية ما ملخصه : « تدلّ الآية على أنّ يهود كانوا عارفين بنبوته ، وأنّ التّوراة وصفت محمداً رسول الله ﷺ وصفاً إجمالياً ، وكانوا يظنون أنّ المبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء من الأنبياء من بني إسرائيل ، وكانوا يرغبون النّاس في دينه ، ويدعونهم إليه ، فلمّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ من العرب ، من نسل نبي الله إسماعيل عليه السلام ، عظم ذلك عليهم ، فأظهروا التّكذيب ، وخالفوا طريقهم الأوّل ؛ لأنّهم ظنّوا أنّهم إذا اعترفوا بنبوته كان يوجب عليهم زوال رياستهم وأموالهم ، فأبوا وأصرّوا على الإنكار . « التفسير الكبير » (٣ / ١٦٥) بشيء من التّصرّف .

* ولمّا هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة المنورة ، آخى رسول الله ﷺ بين بشر بن البراء ، وبين واقد بن عبد الله التميمي ؛ وكان بشر - رضي الله عنه - من الرّماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ (١) .

= وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ في « المحرر الوجيز » : « روي أنّ قريظة ، والنّضير ، وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت ، كانوا يستفتحون على سائر العرب ، وبسبب خروج النّبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به ، فإنّهم كانوا علموا صُقّع - بَلَد - المبعث ، وما عرفوا أنّه محمّد ﷺ وشرعه ، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم ؛ وأنّ كفرهم كان مع معرفة ومعاندة » . « تفسير ابن عطية » (ص : ١١٠) .

وقال الشّيخ عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي رحمه الله : « ولمّا جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق ، وخاتم الأنبياء ، الكتابُ المشتملُ على تصديق ما معهم من التّوراة ، وقد علموا به ، وتيقنوه على أنّهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهليّة حروب ، استنصروا بهذا النّبي ، وتوعّدوهم بخروجه ، وأنّهم يقاتلون المشركين معه . فلمّا جاءهم هذا الكتابُ والنّبي الذي عرفوا ، كفروا به بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فلعنهم الله ، وغضب عليهم غضباً بعد غضب ، لكثرة كفرهم ، وتوالي شكّهم وشركهم » . « تيسير الكريم الرّحمن » (ص : ٤٠) .

وما أجمل ما تندّت به قريحة البوصيري في هذا المضمّار ، حيث قال في الهمزيّة المشهورة شهرة الشّمس في رابعة النّهار :

عرفوه وأنكروه وظلماً كتمنّهُ الشّهادة الشّهداء
أو نورُ الإله تطفئهُ الأفو أه وهو الذي به يُستضاء
كيف يهدي الإله منهم قلوباً حشوها من حبيبه البغضاء
« ديوان البوصيري » (ص : ٦٢) .

(١) « الاستيعاب » (١ / ١٥١) ، و « الاستبصار » (ص : ١٤٣ - ١٤٤) ، و « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٠) ، مع الجمع بينها .

* والرُّمَاءُ المَاهِرُونَ بِالرَّمَايَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْمَذْكُورُونَ جَمَاعَةً ، مِنْهُمْ : سَيِّدُنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ ، وَالسَّائِبُ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ مِظْعُونَ ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَحَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَعَتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ، وَخِرَاشُ بْنُ الصَّمَّةِ ، وَقُطَيْبَةُ بْنُ عَامِرٍ بْنِ حَدِيدَةَ ، وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ ، وَأَبُو نَائِلَةَ سَلَكَاؤُ بْنُ سَلَامَةَ ، وَأَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ ، وَقَتَادَةُ بْنُ الثَّعْمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ (١) .

* وَسَيِّدُنَا بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَعْدُودٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَغَفَرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ ، وَوَفَّقَهُمْ بِفَضْلِهِ لِأَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَلِلَّهِ دَرْءٌ مَنْ قَالَ :

فَلْيُصْنِعِ الرِّكْبُ مَا شَاءُوا بِأَنْفُسِهِمْ هُمْ أَهْلُ بَدْرِ فَلَا يَخْشَوْنَ مِنْ حَرْجٍ * وَمِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِأَهْلِ بَدْرِ أَنْ أُلْقِيَ عَلَيْهِمُ الثُّعَاسُ وَهُمْ فِي حَالَةِ حَرْجَةٍ ، يَقَابِلُونَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنْ مَكَّةَ يَجْزِرُونَ أَذْيَالَ الرَّهْوِ وَالْكَبْرِ ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهم بَقَضَهُمْ وَقَضِيضُهُمْ سَيُحَقِّقُونَ كُلَّ النَّصْرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِيَدِهِ تَدْبِيرَ الْأَمْرِ .

* ذَكَرْتُ بَعْضَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ سَيِّدَنَا بِشَرَ بْنَ الْبَرَاءِ قَدْ سَقَطَ سَيْفُهُ مِنْ يَدِهِ يَوْمَ بَدْرِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الثُّعَاسِ ، وَصَفَ أَبُو الْيَسْرِ كَعْبُ بْنُ عَمْرِو الْأَنْصَارِيُّ حَالَةَ قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ الْمُجَاهِدِينَ يَوْمَ بَدْرِ فَقَالَ : « لَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَئِذٍ فِي أَرْبَعَةِ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ أَصَابَنَا الثُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا يَغِطُّ غَطِيظًا حَتَّى إِنَّ الْجَحْفَ لَتَنَاطَحُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ سَيْفَ بِشَرَ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ سَقَطَ مِنْ يَدِهِ ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ ، وَأَخَذَهُ بَعْدَمَا تَلَّمَّ ، وَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَتَحْتَنَّا » (٢) .

(١) « الْمَغَازِي » (١ / ٢٤٣) بِشْيءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ .

(٢) « الْمَغَازِي » (١ / ٢٩٦) ، وَقَوْلُهُ « الْجَحْفُ » : التَّرْوِسُ مِنْ جُلُودِ بَلَا خَشَبٍ =

* لم يغِب سيّدنا بشرٌ - رضي الله عنه - عن المشاهد بالمعيرة النبوية ، فقد شهد العقبة مع أبيه - رضي الله عنهما - ، ثم شهد بدرًا وأُحدًا والخندق والحديبية وخيبر ، ومات بها من أكلة أكلها مع رسول الله ﷺ من الشاة التي سمّ فيها - كما سنفضّل ذلك في الفقرة الآتية إن شاء الله - عزّ وجلّ .

* وكان سيّدنا بشرٌ - رضي الله عنه - ذا مكانة عند رسول الله ﷺ ، وفيه يقول لقومه : « سيّدكم الأبيض الجعدُ ، بشرُ بنُ البراء » ^(١) .

* وأورد ابنُ عبد البرّ أنّ بشرًا - رضي الله عنه - : « هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ حين سأل بني سلمة : « مَنْ سيّدكم ؟ » .

فقالوا : الجدُّ بنُ قيسٍ على بُخله .

فقال رسول الله ﷺ : « وأي داءٍ أدوى من البخل ؟ بل سيّد بني سلمة الأبيض الجعدُ بشرُ بنُ البراء » ^(٢) .

= ولا عقب . وقال سيّدنا أبو طلحة الأنصاريّ يذكرُ حالة نَعاس المؤمنين يوم بدر : « أُلقي علينا الثّعاسُ ، فكنتُ أنعسُ حتّى سقط سيفي من يدي ، وكان الثّعاسُ لم يُصب أهل التفاق والشك يومئذ ، فكلّ منافق يتكلّم بما في نفسه ، وإنّما أصاب النعاس أهل اليقين والإيمان » . « المغازي » (١ / ٢٩٦) .

(١) « الاستبصار » (ص : ١٤٤) ، و « معرفة الصحابة » (١ / ٣٤٤) .

(٢) « الاستيعاب » (١ / ١٥١) . وساق ابنُ عبد البرّ رواية أخرى : « بأنّ النَّبيّ ﷺ قال لبني ساعدة : « مَنْ سيّدكم ؟ » .

قالوا : الجدُّ بن قيس .

قال : « بِمَ سوّدتُموه ؟ » .

قالوا : إنّه أكثرنا مالاً ، وإنّا على ذلك لنزّهه - نثّهمه - بالبخل فقال النَّبيّ ﷺ : « وأي داءٍ أدوى من البخل ؟ » .

قالوا : فمن سيّدنا يا رسول الله ؟

قال : « بشرُ بنُ البراء بن معرور » . « الاستبصار » (١ / ١٥١ - ١٥٢) . =

قصة وفاته :

* القرآن الكريم كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطلُ مطلقاً ، وقد وصف القرآن الكريم اليهودَ غيرَ مرّةٍ بأنّهم غادرون ، ولهم سوابقُ مُشينةٌ من نقضِ العهدِ وقتلهم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ ؛ وفي غزوةِ خيبر هُمّوا برسولِ الله ﷺ أنْ يقتلوه ، فعصمه الله - عزَّ وجلَّ - منهم ، ولكن مات سيّدنا بشرُ بنُ البراء - رضي الله عنه - بهذه المحاولة التي أرادوا بها رسولَ الله ﷺ .

* فقد شرعَ اليهودُ في غزوةِ خيبر - بعد أن استسلموا وطلبوا الصّلاح - يرسمون خطةً دنيئةً لاغتيالِ رسولِ الله ﷺ بطريقةٍ تنطقُ بالجبنِ والخسّةِ ، والحقْدِ والضَّغينةِ ، فقدّمت إليه امرأةٌ منهم شاةً مسمومةً ، وأطلعَ الله - عزَّ وجلَّ - رسوله ﷺ على تلك المكيدهِ ، والمحاولةِ الشريرةِ لاغتياله ﷺ في خيبر ، فكيف كان ذلك ، وكيف توفي سيّدنا بشرٌ - رضوان الله عليه ؟ ! - .

* روت المصادرُ الموثوقةُ بأنَّ امرأةً يهوديّةً اسمُها : زينب بنت الحارث - وهي زوجُ سلام بن مشكم المقتول في خيبر وابنة أخِي مرحب وكلاهما لقي حتفَهُ في خيبر - قرّرت اغتيالِ رسولِ الله ﷺ عن طريقِ دسِّ السّمِّ في الطّعام ؛ فقد كانت تعلمُ أنّ رسولَ الله ﷺ لا يأكلُ الصّدقةَ ، ويأكلُ الهديةَ ولو كانت من الكافر ، ويأكلُ من ذبائحِ أهلِ الكتاب ، ويعدُّ أنّ طعامَهُم من الحلال .

* فقد عمدت هذه الحاقدةُ الخبيثةُ زينب بنت الحارث اليهوديّةُ إلى شاةٍ فذبَحَتْها - وكانت بالتّشاور مع بعض اليهود - قد اختارت أخطرَ نوعٍ من أنواعِ

= وانظر : « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٣٣ - ١٣٤) ، و « معرفة الصّحابة » للأصبهاني (١ / ٣٤٤) . وقوله : « أدوى من البخل » : أي : أيُّ عيبٍ أقبح منه . و « الجعْد » : الجعد من الشَّعر : ضد السَّبَط .

السُّمُّ يُقَالُ لَهُ : « لَا بَطْيَ » وَذَكَرَ لَهَا الْيَهُودُ أَنَّ هَذَا السُّمَّ بَعِينُهُ يَقْتُلُ مَنْ يَتَنَاوَلُهُ فِي الْحَالِ وَيَصْرَعُهُ . وَفَرَحَتْ الْخَبِيثَةُ بِذَلِكَ ، فَسَمَّتِ الشَّاةَ جَمِيعَهَا ، وَأَكْثَرَتْ مِنْ هَذَا السُّمِّ فِي الذَّرَاعَيْنِ وَالْكَتْفَيْنِ ؛ لِأَنَّهَا سَأَلَتْ أَثْنَاءَ تَخْطِيطِ مَوَامِرَتِهَا : أَيُّ أَنْوَاعِ اللَّحْمِ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَكَانَ الْجَوَابُ : أَحَبُّهُ إِلَيْهِ : الذَّرَاعُ وَالْكَتِفُ . وَكَانَ هَدْفُهَا وَمَنَاهَا أَنْ يَقْضِيَ السُّمُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ لَقْمَةٍ يَتَنَاوَلُهَا مِنْ لَحْمِ الشَّاةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ شَوَتْهَا ، ثُمَّ حَمَلَتْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَصْدِ إِهْدَائِهَا لَهُ ، وَكَانَ ﷺ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ .

* وَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ ، صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ ، وَعَادَ إِلَى مَقَرِّ قِيَادَتِهِ فِي خَيْبَرِ ، فَأَلْفَى زَيْنَبَ الْيَهُودِيَّةَ جَالِسَةً عِنْدَ رَحْلِهِ ، فَلَمَّا سَأَلَهَا عَنْ شَأْنِهَا وَسَبَبِ جُلُوسِهَا قَالَتْ فِي خَبَثٍ مَبْطُنٍ بِالْغَدْرِ ، مَمْزُوجٍ بِالْكَفْرِ : « أَبَا الْقَاسِمِ ، هَدِيَّةٌ أَهْدَيْتُهَا لَكَ » . فَأَمَرَ الْحَبِيبُ الْمَصْطَفَى ﷺ بِالْهَدِيَّةِ ، فَقَبَضَتْ مِنْهَا ، ثُمَّ وَضَعَتْ الشَّاةَ الْمَسْمُومَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ ، وَكَانَ مَعَهُ سَيِّدُنَا بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ وَبَعْضُ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « ادْنُوا فَتَعَشَوْا » ؛ فَدَنُوا ، فَمَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ ، وَتَنَاوَلَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ الذَّرَاعَ فَانْتَهَشَ مِنْهَا نَهْشًا ، وَازْدَرَدَ لَقْمَةً ، وَتَنَاوَلَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَظْمًا ، فَأَكَلَ مِنْهُ لَقْمَةً أَيْضًا ؛ وَعِنْدَهَا شَعَرُ الْحَبِيبِ الْمَصْطَفَى ﷺ بِأَنَّ الطَّعَامَ مَسْمُومٌ ، فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَتَوَقَّفُوا عَنْ الْأَكْلِ ، وَيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَنْهُ ، وَقَالَ : « كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّ هَذِهِ الذَّرَاعَ تَخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ » .

فَقَالَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « قَدْ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَجَدْتُ ذَلِكَ مِنْ أَكْلَتِي الَّتِي أَكَلْتُهَا ، فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَلْفَظَهَا إِلَّا كِرَاهِيَةً أَنْ أَنْعَصَ عَلَيْكَ طَعَامُكَ ، فَلَمَّا تَسَوَّغْتَ مَا فِي يَدِكَ لَمْ أَرْغَبْ بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ » .

* وَلَمْ يَتَحَرَّكَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى صَارَ لَوْنُهُ كَالطَّيْلِ سَانَ ، وَظَلَّ يَعْانِي مِنْ وَجَعِهِ سَنَةً كَامِلَةً وَهُوَ شَبَّهُ مَشْلُولٍ حَتَّى تُوْفِيَ مَتَأَثِّرًا بِهَذَا السُّمِّ . وَقِيلَ : لَمْ يَقُمْ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى مَاتَ .

* كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ قَدْ أَكَلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ ، وَعِنْدَهَا

أَمَرَ الصَّادِقُ المصْدُوقُ ﷺ كُلَّ مَنْ أَكَلَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ أَنْ يَحْتَجِمَ ، كَمَا احْتَجِمَ ﷺ نَفْسَهُ عَلَى كَاهِلِهِ لَتَخْفِيفِ تَأْثِيرِ السُّمِّ .

* وَعَقِبَ هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْأَلِيْمَةُ ، أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِحْضَارِ زَيْنَبَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْيَهُودِيَّةِ لِمَسْتَجَوَابِهَا ، وَلَدَى التَّحْقِيقِ مَعَهَا أَفْرَتْ بِفَعْلَتِهَا الشَّائِنَةِ الشَّائِنَةِ ، وَلَمْ تَنْكَرْ بِأَنَّهَا سَمَّتِ الشَّاةَ بِقَصْدِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَمِمْتَ الذَّرَاعَ ؟ » .

فَقَالَتْ : مَنْ أَخْبَرَكَ ؟

قَالَ : « الذَّرَاعَ » .

قَالَتْ : نَعَمْ .

فَقَالَ ﷺ : « وَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ » .

فَأَجَابَتْ بِصِرَاحَةٍ تَامَّةٍ : قَتَلْتُ أَبِي ، وَعَمِّي ، وَزَوْجِي ، وَنَلْتَمَسُ مِنْ قَوْمِي مَا نَلْتَمَسُ ، فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ نَبِيّاً فَسَيُخْبِرُهُ اللَّهُ - أَوْ تَخْبِرُهُ الشَّاةُ مَا صَنَعْتُ - وَإِنْ كَانَ مُلْكاً اسْتَرْحَنَّا مِنْهُ . فَعَفَا عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

* وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهُ ﷺ عَفَا عَنْهَا بِالنَّسْبَةِ لِحَقِّهِ الْخَاصِّ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَمَرَ بِقَتْلِهَا فِيمَا بَعْدُ قِصَاصاً بِبِشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ الَّذِي مَاتَ مُتَأَثِّراً بِالسَّمِّ الَّذِي دَسَّتهُ فِي الشَّاةِ ، وَقَدْ وُفِّقَ بِهِذَا بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ بِأَنَّهُ عَفَى عَنْهَا وَلَمْ يَقْتُلْهَا أَوَّلًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ بِبِشْرِ قَتَلَهَا قِصَاصاً ، وَالْقِصَاصُ وَاجِبٌ تَنْفِيزُهُ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ بَعْضُ النَّظَرِ إِنْ كَانَ مُسْلِماً أَوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ ^(١) .

(١) « المغازي » (٢ / ٦٧٧ - ٦٧٨) ، و « طبقات ابن سعد » (٢ / ٢٠٠ - ٢٠٢) ، مع الجمع والتصرف وانظر تفصيل ذلك في « البداية والنهاية » (٤ / ٢٠٨ - ٢١١) .

قال ابن قَيِّم الجوزِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَعْلِيقٍ لَهُ مُفِيدٍ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ مَا مَلَخَصَهُ : « وَمِنْهَا : أَنَّ مَنْ قَتَلَ غَيْرَهُ بِسُمٍّ يُقْتَلُ مِثْلَهُ ، قَتَلَ بِهِ قِصَاصاً ، كَمَا قُتِلَتْ =

* ولا بأس أن نستمع إلى هذه التغريدة المعبرة التي ترسم قصة الشاة المسمومة ووفاة بشر بن البراء - رضي الله عنه - .

هذه هي امرأة ابن مشكم من يهود الغادرين
أهدت إلى الهادي طعاماً فيه سم القاتلين
ملأت ذراع الشاة سمّاً ذاك مأكول الأمين
الشاة قد وضعت أمام المصطفى والمسلمين
فتناول الهادي الذراع مُشاركاً للاكليين
كفّ الرسول عن الطعام وقال كفوا أجمعين
العظم أخبرني بأنّ به سموماً ناعين
نزل الطعام لجوف بشر مات في المستشهدين
قد جيء بامرأة ابن مشكم ناقشوها قائلين
ماذا دعاك لوضع سمّ مثل فعل المجرمين
قالت وضعت السمّ في هذا الطعام لأستبين
إن كنت يا هذا مليكاً فلتكن في الهالكين
أو كنت من إخوان موسى سوف تنجو عن يقين
قالوا عفا عنها الرسول وكان عفو القادرين
بالحقّ قد قتلت ببشر ذاك قول الصادقين^(١)

ببشر بن البراء - رضي الله عنهما - .

ومنها : جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب ، وحلّ طعامهم .

ومنها : قبول هدية الكافر .

وهذه المرأة اليهودية لما سمّت الشاة ، صارت محاربة ، وكان قتلها مخيراً فيه ، فلمّا مات بعض المسلمين من السمّ ، قُتِلَتْ حتماً إمّا قصاصاً ، وإمّا لنقض العهد بقتلها المسلم ، فهذا محتمل والله أعلم . « زاد المعاد » (٣ / ٣٥١) بتصرف .

(١) « تغريدة السيرة النبوية » (٣ / ٣١٨) . وقوله « مأكول الأمين » ؛ أي : الطعام الذي يحبه رسول الله ﷺ ويفضله . و« سموماً ناعين » : بالغين . و« لجوف =

* كما أَنَّ الشَّاعِر « أَحْمَدَ مُحَرَّم » قَدْ صَاغَ وَفَاةً سَيِّدَنَا بَشَرٍ مِنَ الشَّاةِ الْمَسْمُومَةِ فِي هَمْزِيَّةٍ لَطِيفَةٍ نَقْتَطِفُ مِنْهَا هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَاشِفَاتِ :

أَكَانُوا كُلَّهُمْ دَاءً عِيَاءَ	فَمَا يَجِدُ الْأَسَاءَةَ لَهُمْ دَوَاءَ
أَتَطْمَعُ زَيْنَبُ بِذِرَاعِ شَاةٍ	يُسَمِّمُ أَنْ يَضُرَّ وَأَنْ يُسَاءَ
أَبَى الْمَلِكُ الْمَهِيْمُنُ مَا أَرَادَتْ	فَخِيَّهَا وَكَانَ لَهُ وَقَاءَ
أَتَيْتُ تَمْشِي بِهَا وَتَقُولُ هَذَا	طَعَامِكَ فَارْضِهِ وَانْعَمِ مَسَاءَ
فَقَالَ لَصَحْبِهِ رِزْقُ أَتَانَا	فَبِاسْمِ اللَّهِ لَا نَخْصِي ثَنَاءَ
فَلَمَّا ذَاقَهَا قَالَ أَتَرْكُوهَا	فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَشَفَ الْغَطَاءَ
طَعَامُ الشُّوْءِ مَسْمُومٌ وَهَذَا	أَخِي جَبْرِيلُ بِالْأَنْبَاءِ جَاءَ
فَكُفُّوا غَيْرَ بَادِرَةَ لِبَشَرٍ	مَضَتْ قَدْرًا لِرَبِّكَ أَوْ قَضَاءَ
وَحُمِّ قِضَاؤُهُ فَمَضَى رَضِيًّا	يُيَوِّجُ جَنَّةَ الْمَأْوَى جِزَاءَ
وَقَالَ مُحَمَّدٌ يَا آلَ بَشَرٍ	كَفَى بِدَمِ التِّي قُتِلَتْ عَزَاءَ
فَلَا قَتَ زَيْنَبُ قَتْلًا بِقَتْلِ	وَمَا كَانَتْ لِصَاحِبِهِمْ كِفَاءً ^(١)

* هَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الْيَهُودِ وَطَبَائِعُهُمْ ، لَا يَفْتَرُونَ عَنِ الْغَدْرِ وَالْدَّسِّ ، وَلَا يَطِيبُ عَيْشَهُمْ إِلَّا بِالْإِنْتِقَامِ ، وَالْمُؤَامَرَاتِ ، وَقَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ .

وَقَفَّةٌ نَافِعَةٌ مَعَ دَلَائِلِ الثُّبُوتِ :

* فِي قِصَّةِ وَفَاةِ سَيِّدِنَا بَشَرَ بْنِ الْبَرَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَقَفَاتٌ مُفِيدَةٌ فِي الْحَيَاةِ ، وَمِنْهَا : اعْتِرَافُ الْيَهُودِ بِالتَّأَمْرِ الْوَبِيِّ عَلَى الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا ، وَهَذِهِ الْمَرَّةُ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ بِتَسْمِيمِ شَاةٍ مَشْرُوءَةٍ ، وَهَذَا الْأَمْرُ ثَابِتٌ الْأَسَاسِ فِي مَجَامِيعِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ .

= بشر : لمعدة بشر بن البراء - رضي الله عنه - . و « لأستبين » : لأعرف الحقيقة .
و « من إخوان موسى » ؛ أي : نبيًا .

(١) « ديوان مجد الإسلام » (ص : ٣٢٧ - ٣٢٨) بانتقاء .

* أخرجَ إمامُ أهل الحديث وأميرُهم أبو عبد الله محمدُ بنُ إسماعيل البخاري رَحِمَهُ اللهُ في « صحيحه » عن سيّد الحفّاظ الأثبات أبي هريرة (١) - رضي الله عنه - أنّه قال : « لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شاةٌ فيها سَمٌّ ؛ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « اجمعوا لي مَنْ كان ههنا من اليهود » ، فَجُمِعُوا لَهُ ، فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ ، فهل أنتم صادقوني عنه ؟ » .

فقالوا : نعم يا أبا القاسم !

فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أبوكم ؟ » .

قالوا : أبونا فلان .

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « كذبتُم ؛ بل أبوكم فلان » .

فقالوا : صدقتَ وبررتَ .

فقال : « هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » .

فقالوا : نعم يا أبا القاسم ! وإن كذبتك عرفتَ كذبنا ، كما عرفته في أبينا .

فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أهل النار ؟ » .

فقالوا : نكونُ فيها يسيراً ثمّ تخلفوننا فيها .

فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ : « اخسؤوا فيها ، والله لا نخلفكم فيها أبداً » .

ثمّ قال لهم : « هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » .

(١) اقرأ سيرة سيّد الحفّاظ وأميرهم سيّدنا أبي هريرة الدّوسي - رضي الله عنه - في الباب الثاني من كتابنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٢٨٥ - ٣٧٩) ففي سيرته فوائد مجموعة ولطائف نافعة بإذن الله .

قالوا : نعم .

فقال : « هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ » .

فقالوا : نعم .

فقال : « ما حمَلَكُم على ذلك ؟ » .

فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً نستريحُ منك ، وإن كنت نبياً لم يضرَكَ » (١) .

* وأخرج مسلم رَحِمَهُ اللهُ في « صحيحه » عن سيّدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - : « أَنَّ أُمْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ ، فَأَكَلَ مِنْهَا فَجِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَتْ : أَرَدْتُ لِأَقْتُلَكَ .

قال : « ما كان الله لِيَسْلُطَكَ على ذاك » ، أو قال : « عليّ » .

قالوا : ألا نقتلُها يا رسول الله ؟

قال : « لا » .

قال : فما زلتُ أعرفُها في لَهَوَاتِ رسول الله ﷺ » (٢) .

(١) أخرجه البخاريّ في الطَّبِّ برقم : (٥٧٧٧) ، وأبو داود في الدِّيَّاتِ برقم : (٤٥٠٩) ، وغيرهما . وفي هذا الحديث فوائد منها : إخبار النَّبِيِّ ﷺ عن الغيب ؛ وتكليم الجماد له ، ومعاندة اليهود لاعترافهم بصدقه فيما أخبر به عن اسم أبيهم ، وبما وقع منهم من دسيسة السّم ، ومع ذلك عاندوا واستمروا على تكذيبه .

(٢) أخرجه مسلم في السَّلام برقم : (٢١٩٠) . وقوله « مسمومة » : السّم : بفتح السّين وضمّها وكسرهما ، ثلاث لغات ، الفتح أفصح ، وجمعه : سمام وسموم . و« لَهَوَات » : جمع لَهَاء ، وهي اللحمَةُ الحمراء المتعلّقة في أضلِّ الحنك . وقيل : اللحيمات اللواتي في سقف أفصى الفم . و« ما زلت أعرفها » ؛ أي : العلامة ، كأنّه بقي للسّم علامة وأثر من سواد أو غيره . و« ما كان الله لِيَسْلُطَكَ =

* ينبغي أن نستفيد ممَّا أسلفنا من الأحاديث الواردة في الصَّحَّاحين وغيرهما ، أنَّ المرأةَ اليهوديةَ الحاقدةَ زينبَ بنتَ الحارث ما فعلت فعلتها السَّوداء إلا بأمر مُبَيَّنٍّ من رؤساء اليهود وزعمائهم ، ويأقرار منهم تضافرت الروايات بذلك .

* « وليست هذه المحاولة الأولى في قتل نبيِّ الله ﷺ ، فقد حاولوا قتله في غزوة بني النَّضِير ، وكذلك تمالؤا في غزوة الأحزاب مع المشركين ؛ لإبادة النَّبِيِّ ﷺ ، والمؤمنين به ، وسحق الإسلام والمسلمين جملة هذه طبيعة اليهود ، وتلك حيلهم : الكيدُ للإسلام ، والمكرُ بالمسلمين ، والتَّصَدِّي للحقِّ ، ومواجهة الهدى في كلِّ جيل وزمان ، لا يخضعون

= على ذاك أو عليَّ » : فيه بيان عصمته ﷺ من النَّاس كلَّهم ، كما قال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وهي معجزة لرسول الله ﷺ في سلامته من السَّمِّ المهلك لغيره ، وفي إعلام الله تعالى بأنَّها مسمومة ، وكلام عضو منه له ، فقد جاء في غير مسلم أنَّه ﷺ قال : « إِنَّ الذَّرَاعَ تخبرني أنَّها مسمومة » . وهذه المرأة اليهودية الفاعلة للسَّم اسمها : زينب بنت الحارث اليهودية أخت مرحب .

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ : « واختلفت الآثار والعلماء : هل قتلها النَّبِيُّ ﷺ أم لا ؟ فوقع في « صحيح مسلم » أنهم قالوا : ألا نقتلها ؟ قال : « لا » .

ومثله عن أبي هريرة وجابر . وعن جابرٍ من رواية أبي سلمة أنَّه ﷺ قتلها . وفي رواية ابن عباس أنَّه ﷺ دفعها إلى أولياء بشر بن البراء بن معرور ، وكان أكلَ منها ، فمات بها فقتلوا . وقال ابنُ سحنون : وأجمع أهل الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ قتلها . قال القاضي : وجه الجمع بين هذه الروايات والأقويل أنَّه لم يقتلها أولاً حين اُطْلِعَ على سَمِّها وقيل له : اقتلها ، فقال : « لا » ؛ فلَمَّا ماتَ بشرُ بنُ البراء من ذلك سلَّمها لأوليائه فقتلوا قصاصاً ، فيصحَّ قولهم : « لم يقتلها ؛ أي : في الحال ، ويصحَّ قولهم : قتلها ؛ أي : بعد ذلك ، والله أعلم » . « المنهاج » (ص : ١٦٣٨) .

إِلاَّ للْقُوَّةِ ، ولا يَسْتَسْلِمُونَ إِلاَّ للْسَيْفِ ، فَهَلْ أَدْرَكَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ ؟ » (١) .

* وَللهِ دَرٌّ مَنْ قَالَ كَاشِفًا عَنْ سَجِيَّةِ الْيَهُودِ وَطَبِيعَتِهِمْ :

أَلَا خَسِرَ الْيَهُودُ وَلَا أَصَابُوا طَوَالَ الدَّهْرِ خَيْرًا أَوْ نَمَاءً
كَأَنَّ الْغَدَرَ عِنْدَ الْقَوْمِ دِينَ فَمَا يَدْعُ الرِّجَالُ وَلَا النِّسَاءُ

* وَيَنْبَغِي أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ سَيِّدَنَا بَشَرَ بْنَ الْبَرَاءِ مَمَّنْ فَازَ بِالْوَفَاةِ فِي حَيَاةِ
النَّبِيِّ ﷺ ، وَنَالَ بِذَلِكَ شَرَفًا عَظِيمًا . وَظَلَّ ذِكْرُهُ مَاثِلًا فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى
آخِرِ أَيَّامِهِ . فَقَدْ ذَكَرَتْ الْمَصَادِرُ أَنَّ أُمَّ بَشَرَ بْنَ الْبَرَاءِ كَانَتْ تَقُولُ : « دَخَلْتُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ، وَهُوَ مَحْمُومٌ ، فَمَسَّسْتُهُ
فَقُلْتُ : مَا وَجَدْتُ مِثْلَ مَا وُعِكَ عَلَيْكَ عَلَى أَحَدٍ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ ، كَذَلِكَ يُضَاعَفُ لَنَا
الْبَلَاءُ ؛ زَعَمَ النَّاسُ أَنَّ بَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ الْجَنْبِ ، مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَهَا عَلَيَّ ،
إِنَّمَا هِيَ هُمَزَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ أَنَا وَابْنُكَ يَوْمَ خَيْبَرَ ؛
مَا زَالَ يُصِيبُنِي مِنْهَا عِدَادٌ ، حَتَّى كَانَ هَذَا أَوْانَ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي ، فَمَاتَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهِيدًا » (٢) .

* رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَيِّدِنَا بَشَرَ بْنَ الْبَرَاءِ ، وَأَحْسَنَ لَهُ الْجَزَاءَ ، وَرَزَقْنَا حَسَنَ
الْخَاتِمَةِ وَجَعَلْنَا مِنَ السُّعْدَاءِ .



(١) « صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة » للدكتور محمد فوزي فيض الله
(ص : ٣١٦) بتصرف يسير .

(٢) « المغازي » (٢ / ٦٧٩) ، وقرولها « وعك » : الوعك : الحمى .
و« عداد » : العداد : احتياج وجع اللدغ ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ هاج به
الأم . و« أبهري » : العرق المتعلق بالقلب .

سهلُ بنُ سعد

رضي الله عنهما

- * من أبناء الصَّحابة الفضلاء الذين عاشوا مئة عام .
- * آخرُ مَنْ مات بالمدينة من أبناء الصَّحابة الأنصار .
- * كان من سادة العلماء ؛ وروى (١٨٨ حديثاً) مؤرَّعة في المصادر .

سهل بن سعد رضي الله عنهما

سَمَّانا اللهُ أنصاراً :

* كان أبوه من الصَّحابةِ الأنصار الأوفياء ؛ الذين توفُّوا في حياة خاتم الأنبياء ﷺ .

* وابنه هو الصَّحابيُّ الجليلُ : سهلُ بنُ سعد بن سعد بن مالك الإمام ، الفاضلُ ، المعمَّرُ ، بقيَّةُ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، أبو العبَّاس ، الخزرجيُّ ، الأنصاريُّ ، السَّاعديُّ ^(١) . وهو آخرُ مَنْ ماتَ بالمدينة المنورة من الصَّحابةِ الأنصار ، وكان يوم أن ماتَ من أبناءِ المئة - رضي اللهُ عنه - .

* قال ابنُ قدامة رَحِمَهُ اللهُ : « عُمَرُ سهلٌ - رضي اللهُ عنه - حتَّى أدركَ الحجاج ، ويُقال : إنَّه آخرُ مَنْ بقيَ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وقال أبو حازم : سمعتُ سهلَ بنَ سعد - رضي اللهُ عنه - يقول : لو مِتُّ لم تسمعوا

(١) « مسند أبي يعلى » (ص : ١٣٦٥ - ١٣٧٣) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٤ / ٢٥٢ - ٢٥٣) ، و« الاستبصار » (ص : ١٠٥) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٢٢ - ٤٢٤) ، و« طبقات ابن سعد » (الفهارس : ٩٠ / ٩) ، و« المعجم الكبير » للطبراني (٦ / ١٠٧ - ٢٠٨) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (الفهارس : ٤ / ٧٧٦) ، و« المستدرک » (٣ / ٦٦١ - ٦٦٢) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٣٢٠ - ٣٢١) ، ترجمة رقم : (٢٢٩٣) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٣٨) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٩٤) ، وغيرها ممَّا لا يحصى .

أحداً يقول : قال رسول الله ﷺ « (١) . ويقصدُ سيّدنا سهلٌ بقوله هذا بأنّه لم يَبْقَ أحدٌ من الصّحابة في المدينة فهو آخرهم موتاً - رضي الله عنهم أجمعين - .

* كان سعدٌ والد سيّدنا سهل من خيار الصّحابة الأنصار ، وقد روى سيّدنا سهل - رضي الله عنه - : « أنّ أباه سعداً تجهّز ليخرج إلى بدر ، فمرض ، فمات ، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره » (٢) . وفي رواية أخرى عن سيّدنا سهل : « أنّ أباه كتب وصيّته في آخر رحله ، وأوصى للنبي ﷺ برحله وراحلته » (٣) .

* وسيّدنا سهل - رضي الله عنه - من فتيان الصّحابة ذوي الحظ الطيّب ، والسّعادة المبكّرة ؛ إذ إنّ الحبيب المصطفى ﷺ هو الذي سمّاه سهلاً ، فقد ذكروا أنّ اسمه كان حَزْناً فسمّاه رسول الله ﷺ سهلاً . قال الزُّهرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : « رأى سهلٌ بنُ سعد النّبي ﷺ ، وسمع منه ، وذكر أنّه كان له يوم توفي النّبي ﷺ خمس عشرة سنة » (٤) .

(١) « الاستبصار » (ص : ١٠٥) .

(٢) « الاستيعاب » (٢ / ٣٢) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٢١٣) مع الجمع بينهما .

(٣) « الإصابة » (٢ / ٣٢) . وقد ذكر ابن سعد رَحِمَهُ اللهُ في « الطبقات » هذا الأمر بشكل أكثر وضوحاً فقال ما مفاده : « وَلَدَ سعدُ بنُ سعد ، سهلَ بنَ سعد ، صحب النّبي ﷺ ، وأُمُّهُ أُبَيَّةُ بنتُ الحارث بن عبد الله وتجهّز سعدٌ ليخرج إلى بدر ، فمرض ، فمات ، فموضع قبره عند دار بني قارظ ، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره وروى سهلٌ أنّ أباه أوصى للنّبي ﷺ ، فكتب وصيّته في مؤخّر رحله ، فأوصى له برحله وراحلته ، وخمسة أوسق من شعير ، فقبلها النّبي ﷺ ، ثم رَدَّها على ورثته » . « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٢٥) باختصار وتصرف .

قال ابنُ سعد : « وهذا يدلُّك على أنّ الذي ذكر في بدر هو سعدُ بنُ سعد بن مالك ، وأنّه توفي وهو يتجهّز إلى بدر ، وأوصى لرسول الله ﷺ بهذه الوصيّة » . « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٢٥ - ٦٢٦) .

(٤) « أسد الغابة » (٢ / ٣٢٠) ، وانظر : « المستدرک » (٣ / ٦٦١) ، و« المعجم =

* ومنذ أن التقت يمينُ رسولِ الله ﷺ يمينَ سيّدنا سهل بايعه سهلٌ على أعمالِ الإسلام ، فقد روى لنا سيّدنا سهلٌ بيعته مع غيره فقال : « بايعتُ النَّبِيَّ ﷺ أنا ، وأبو ذرّ ، وعبادة بن الصّامت ، وأبو سعيد الخُدريّ ، ومحمّد بن مسلمة ، وسادس ، على ألا تأخذنا في الله لومة لائم ، وأما السّادس فاستقاله ، فأقاله » (١) .

* ينتسبُ سيّدنا سهلُ بن سعد إلى الأنصار ، والأنصار جمعُ ناصر ، والمقصودُ بهم : أنصارُ حبيبنا رسول الله ﷺ ، والمرادُ الأوسُ والخزرجُ ، وقد سمّاهم الله - عزّ وجلّ - ، ورسوله ﷺ : الأنصار ، فصار ذلك الاسمُ المباركُ علماً عليهم ، وعلى أولادهم ، وحلفائهم ومواليهم ، وجعل النَّبِيُّ ﷺ حبّهم إيماناً ، وبغضهم نفاقاً . وقد عقد الإمامُ البخاريّ رَحِمَهُ اللهُ فِي « صحيحه » في كتاب « مناقب الأنصار » باباً عنوانه : « بابُ حُبِّ الأنصار من الإيمان » ، وساق خلاله حديثين ثانيهما أخرجه عن سيّدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النَّبِيِّ ﷺ قال : « آيةُ الإيمان حُبُّ الأنصار ، وآيةُ النِّفاق بغضُ الأنصار » (٢) .

* وأخرج البخاريّ رَحِمَهُ اللهُ وَرضي عنه في أوّل كتاب « مناقب الأنصار » أنَّ غيلانَ بنَ جرير المِعْوَلي الأزديّ قال : « قلتُ لأنس - أي : ابن مالك الأنصاريّ - : رأيتُ اسمَ الأنصار كنتم تُسمّون به ، أم سمّاكم الله ؟ » . قال : « بل سمّانا الله » .

قال - أي : غيلان بن جرير - : « كُنّا ندخلُ على أنسٍ ، فيحدّثنا بمناقب

= الكبير « (٦ / ١٠٧ - ١٠٨) ، و « معرفة الصّحابة » (٢ / ٤٤٥) .

(١) « شرح حياة الصّحابة » (١ / ٤١٣) ، و « مجمع الزّوائد » (٧ / ٢٦٤) ، ومعنى « أقاله » : طلب أن يعفيه من البيعة فأعفاه وفسخ ذلك .

(٢) أخرجه البخاريّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٧٨٤) .

الأنصار ومشاهدهم ، ويقبلُ عليَّ أو على رجلٍ من الأزد فيقولُ : فعل قومك يوم كذا وكذا ، كذا وكذا» (١) .

التَّابِغَةُ الْمُعَمَّرُ :

* نبغ عددٌ كبيرٌ من أبناء الصَّحابةِ الأنصار في الفقه والعلم والفتيا والجهاد والفتوح من مثل : البراءُ بنُ عازب ، وأبو سعيد الخدري ، وسهلُ بنُ سعد ، وجابرُ بنُ عبد الله ، والثَّعْمَانُ بنُ بُشَيْر ، وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - .

* وهؤلاء الأعلام الأعيانُ وأشباههم ممَّن عَمَّرُوا ، وطالت حياتهم ، وغدا النَّاسُ في حاجةٍ إلى علمهم وفقهِهم وروايتهم لِمَا عرفوه من ألوانِ العلوم والمعارف التي قبسوها عن معلِّم النَّاسِ الخير رسول الله ﷺ ، وذلك من طولِ صُحبتهم له ، ومعرفة شمائله الشَّريفة ، وأحواله المنيفة ﷺ .

* وإنما قلَّتِ الرِّوَايَةُ عن الأكابر من الصَّحابةِ الأعيان ؛ لأنَّهم ماتوا من قبل أن يحتاجَ الخَلْقُ إليهم في الأمصار والبلدان ، وإنَّما كَثُرَتِ الرِّوَايَةُ عن السَّيِّدَيْنِ العَلَمَيْنِ المباركَيْنِ : سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ، وسيِّدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عن عمر وعلي وأرضاهما - ؛ لأنَّهما قد وليا أمورَ المسلمين ، فسُئِلَا ، وقضيا بين النَّاسِ ، ومن المؤكِّدِ والمُسَلِّمِ به أنَّ كلَّ أصحابِ الصَّادِقِ المصدوق رسول الله ﷺ ، كانوا أئمةً خَيْرَيْنِ مُباركين يُقْتَدَى

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار برقم : (٣٧٧٦) . وممَّا يُسْتَأْنَسُ به في هذا المضممار اللطيف الهامس قول سيِّدنا حَسَّان بن ثابت الأنصاري ، حيث يفصحُ بشعره عن تسمية الأنصار من قصيدةٍ طويلةٍ جاء فيها :

سَمَّاهُمُ اللهُ أَنْصَارًا لِنَضْرَهُمُ دِينَ الْهُدَى وَعَوَانُ الْحَرْبِ تَشْتَعُرُ
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْتَرَفُوا لِلنَّائِبَاتِ فَمَا خَامُوا وَمَا ضَجِرُوا

« ديوان حَسَّان بن ثابت » (ص : ٢٠٦) .

بهم ، ويُحذِي حذوهم ، ويُحَفِّظُ عليهم ما كانوا يفعلون ويُسْتَفْتُونَ فيفتون ، وسمعوا أحاديث شريفة ، وعانوا أحوالاً منيفة ، فأدّوها كما عَلِمُوها ، فكان الأكابر والأعيان من أصحاب رسول الله ﷺ أقلَّ حديثاً عنه من غيرهم ، فمن المهاجرين : سيّدنا أبو بكر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعدُ بنُ أبي وقاص ، وعبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عوف ، وأبو عبيدة بنُ الجراح ، وسعيدُ بنُ زيد ؛ وأمّا الأكابر من الأنصار ، فمنهم : أبيُّ بنُ كعب ، وسعدُ بنُ عباد ، وعبادةُ بنُ الصّامت ، وأسيدُ بنُ الحضير ، ومعاذُ بنُ جبل ونظراؤهم ، فلم يأتِ عنهم من كثرة الحديث والرّواية مثلُ الذي جاء عن الأحداث والشّباب من أصحاب رسول الله ﷺ ، مثل جابر بن عبد الله ^(١) ، وأبي سعيد الخدري ^(١) ، والبراء بن عازب ^(١) ، ورافع بن خديج ، وأبي هريرة ^(١) ، والعبادلة الأربعة ^(١) ، ونظرائهم ، وهؤلاء كلّهم كان يُعَدُّ من فقهاء الصّحابة ، وكانوا يلزمون رسول الله ﷺ ، مع غيرهم من نظرائهم ؛ وأحدث منهم مثل عقبة بن عامر الجهني ، وزيد بن خالد الجهني ، وعمران بن الحصين ، والتّعمان بن بُشير ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وسهل بن سعد السّاعدي ، ونظرائهم ، فكان أكثر الرّواية والعلم في هؤلاء وأمثالهم من أصحاب رسول الله ﷺ ؛ لأنّهم بقوا ، وطالت أعمارهم ، واحتاج النّاسُ إليهم ^(٢) .

* وهذا الصّحابيُّ العالمُ كان قد رأى الحبيبَ الأعظمَ ﷺ ، وسمع منه ، ووعى عنه كثيراً من الأحاديث والأحكام ، التي أتحف بها أمة خير الأنام ، وأفاد منها الفقهاء والأعلام .

* أمّا حياة سهلٍ فلم يصل إلينا عنها سوى شذاتٍ توزعت في المصادر

(١) اقرأ سيرة هؤلاء في كتابنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » ، فسيرتهم روض رياحين ، تسر المحيّن بإذن الله .

(٢) انظر : « طبقات ابن سعد » (٢ / ٣٧٦) بشيء من التّصريف .

هنا وهناك ، ومنها ما جاء عنه أَنَّهُ أَحْصَنَ سَبْعِينَ امْرَأَةً فِيمَا تَوَقَّيْنَ ، أَوْ فَارَقَهُنَّ ، وكان لا يرى بذلك بأساً^(١) . وقال عُبيد الله بن عمر : « تزوّج سهلُ بنُ سعد خمس عشرة امرأة » . ويروى أَنَّهُ حضرَ مَرَّةً وَلِيمةً ، فكان فيها تسعٌ من مطلقاته ، فلمَّا خرجَ ، وقفنَ له ، وقلنَ : كيف أنت يا أبا العباس ؟^(٢) .

من فوائدِ المَجَالِسِ النَّبَوِيَّةِ :

* كان سيّدنا سهلُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - يرتادُ المجالسَ النَّبَوِيَّةَ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ ، ويعي ما يدورُ من قصصٍ^(٣) وأحداثٍ وأسئلةٍ واستفساراتٍ من الوافدين على المسجدِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ ، ويحفظُ الإجاباتِ النَّبَوِيَّةَ ، ومن ثمَّ ينقلُها للنَّاسِ ليتعلَّموا ، ويستفيدوا ، ويعملوا ، ويعلموا ، ويهتدوا بهدي خيرِ العبادِ ، سيّدنا وحبیبنا محمّد رسولِ الله ﷺ .

* ومن المجالسِ النَّبَوِيَّةِ المباركةِ ، ينقلُ لنا سيّدنا سهلٌ هذا الموقفَ السَّهْلَ في حقيقةِ المحبةِ ، وذلك فيما أخرجه ابنُ ماجه رَحِمَهُ اللهُ عن سيّدنا سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ - رضي الله عنهما - قال : « أتى النَّبِيَّ ﷺ رجلٌ ، فقال : يا رسولَ الله ! دُلّني على عملٍ إذا أنا عملتهُ أحبّني الله ، وأحبّني النَّاسُ .

فقال رسولُ الله ﷺ : « ازهد في الدُّنيا يحبّك الله ، وازهد فيما أيدي النَّاسِ يحبّوك »^(٤) .

(١) « المعجم الكبير » (٦ / ١٠٨) بتصرف يسير .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٢٣) .

(٣) إنّ القصص النَّبَوِيَّةَ تؤخذُ من العبرة ، وتستنبطُ منه الحكمة ، والعبرةُ غايةٌ لأولي الألباب ، والحكمة ضالة المؤمن ، فحيثما وجدها تشبّث بها وعضَّ عليها بالنواجذ ، فكيف إذا كانت صادرة عن مشكاة النَّبَوَةِ المضيئة الوضيئة ؟ !

(٤) أخرجه ابن ماجه في الزُّهد برقم (٤١٠٢) ، وقال البوصيريُّ في الزَّوائد : « في =

من سَادَةِ الْعُلَمَاء :

* اهتمَّ علماءُ الأنصار وعامةُ الصَّحابة بِحديثِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ وحرصوا

إسناده خالد بن عمرو ، وهو ضعيفٌ متَّفِقٌ على ضَعْفِهِ ، واتَّهمَ بالوضع ، وأوردَ العقيليُّ له هذا الحديث ، وقال : ليس له أصلٌ من حديثِ الثَّوري ؛ لكن قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ عقب هذا الحديث : رواه ابنُ ماجه بأسانيدَ حَسَنَةٍ . « سنن ابن ماجه » (٢ / ١٣٧٤) .

وقوله « دُلِّي » : أرشدني . و« على عملٍ » ؛ أي : عملٍ صالح جامع للفضائل ، ومانع من الرذائل . و« أَحَبَّنِي اللهُ » : رضي اللهُ عَنِّي وأحسنَ إليَّ . و« أَحَبَّنِي النَّاسُ » ؛ أي : حَصَلَ لَهُمُ الشَّفَقَةُ عَلَيَّ ، وأرادوا منفعتي . واعلم أنَّ مَحَبَّةَ النَّاسِ لشخصٍ تابعةٌ لمَحَبَّةِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - ، فإذا أَحَبَّهُ أَلْقَى مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِ خَلْقِهِ ، فقد جاء عن رسولِ اللهِ ﷺ كما في الصَّحيح وغيره أَنَّهُ قال : « إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ ، فقال : إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ ، فيحِبُّهُ جَبْرِيلُ ، ثُمَّ ينادي فِي السَّمَاءِ فيقول : إِنَّ اللهَ يَحِبُّ فَلَانًا فَأَحَبُّوهُ ، فيحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يوضعُ لَهُ القبولُ فِي الأرضِ » . أخرجه مسلم برقم : (٢٦٣٧) ، وأحمد (٢ / ٤١٣) . و« ازهد في الدُّنيا » : أعرض عنها ، ولا تُبالِ بِإِقْبَالِهَا وإِدْبَارِهَا ، ولا تأخذُ مِنْهَا إِلَّا ما لا بدَّ مِنْ الحلالِ . و« يَحِبُّكَ اللهُ » : لأنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - يَحِبُّ مَنْ أَطاعَهُ ، وَمَنْ طاعَهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ - عَدِمَ الالتفاتَ إِلَى الدُّنيا ، بل هو الطَّاعَةُ التَّامَةُ . وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ على غايةٍ من الإعراضِ عن الدُّنيا مع تَمَكُّنِهِ ﷺ مِنَ التَّوَسُّعِ فِيهَا ، وكان يَمُرُّ عَلَيْهِ شَهْران ، ولا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ مَصْبَاحٌ ، ولا نارٌ لَطْبَخَ ، وإنَّما كان طَعامُهُمُ التَّمْرُ والماءُ ، وكان ﷺ يَبِيتُ اللَّياليَ الْمُتَتَابِعَةَ طَوايِئاً هو وأهله لا يجدون عشاءً . وما أَلْطَفَ قولَ بعضهم وأَجْمَلَهُ :

فلو كانتِ الدُّنيا جزاءً لمحسنٍ إذا لم يكن فيها مَعاشٌ لِظالمٍ
لقد جاعَ فيها الأنبياءُ كرامةً وقد شبعَتْ فيها بطونُ البهائمِ
وقد صَنَّفَ عددٌ من أكابرِ العلماءِ قديماً وحديثاً كُتُباً في الرُّهْدِ أبانوا خلالها حقيقة الرُّهْدِ ومعناه ، وما ينبغي على المؤمن عمله ليكون زاهداً ؛ والله تعالى أعلم .

على ألا يفوتهم شيء منه ، واتبعوا عدّة وسائل لخدمة الحديث النبويّ منها : كثرة السؤال عنه ؛ ومنها تدريسه والمواظبة على مراجعته وحفظه وسماعه وطلبه .

* ويعدّ سيّدنا سهل بن سعد - رضي الله عنهما - ممّن روى الحديث عن النّبيّ ﷺ . قال ابن حجر رحمه الله : « روى عن النّبيّ ﷺ ، وعن أبي بن كعب ، وعاصم بن عدي ، وعمرو بن عبسة ، ومروان بن الحكم وهو دونه » (١) .

* وقال التّوحي رحمه الله : « روى له عن رسول الله ﷺ (١٨٨ حديثاً) اتّفقا على (٢٨ حديثاً) ، وانفرد البخاريّ بأحد عشر حديثاً » (٢) .

* وحدّث عنه : ابنه عبّاس بن سهل ، وأبو حازم الأعرج ، وابن شهاب الزّهريّ ، ويحيى بن ميمون الحضرميّ ، وغيرهم ، وذكر له المزيّ سبعة عشر رويّاً . وأحاديثه منثورة في الصّحيحين ، والسّنن ، والمسانيد ، وكذلك في « معجم الطّبراني » ، و« مصنّف عبد الرزّاق » ، و« الموطأ » ، وغيرها من كتب الحديث الشّريف .

* وإذا نظرنا إلى فحوى الأحاديث التي رواها سيّدنا سهل - رضي الله عنه - ، لوجدنا أنّها جمعت كثيراً من العِلْم والأحكام والآداب ، ففي الصّحيح وحده نجد أنّ مروياته قد شملت أبواباً كثيرة منها : الفضائل ، والأدب ، والزّكاة ، والنّكاح ، والمغازي ، والرّقاق ، والطلاق ، والصّلاة ، والتّفسير ، والبيوع ، واللباس ، والطّب ، والصّوم ، وغير ذلك ممّا يصعب استقصاؤه في هذه الفقرة .

* ومن الجدير بالذكر أنّ الطّبرانيّ وحده قد أخرج بالمكرّر لسهل بن

(١) « تهذيب التّهذيب » (٤ / ٢٥٢) . وقوله « وهو دونه » ؛ أي : أصغر منه ؛ يعني روى عن مروان ، ومروان أصغر منه .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٣٨) .

سعد - رضي الله عنهما - (٣٧٧ حديثاً) في « معجمه الكبير » استغرقت أكثر من مئة صفحة ؛ وكذلك جمع الإمام أحمد في مواضع من « مسنده » عشرات الأحاديث لهذا الصحابيِّ العالم . أمّا الإمام أبو يعلى الموصلي ، فقد ختم « مسنده » بحديث سيّدنا سهل - رضي الله عنه - ، وأورد له (٤٦ حديثاً) .

* كان سيّدنا سهل بن سعد - رضي الله عنهما - يحتفي بالعلم ، ويحترم مجلسه ، ويعظمه ، ويغضب على من يتلّه في مجلسه ، خصوصاً إذا كان يحدث عن رسول الله ﷺ .

* أخرج الطبراني رحمه الله بسند عن عبد الحميد بن سلمان عن أبي حازم سهل بن سعد : « أنّه كان في مجلس قومه وهو يحدثهم عن رسول الله ﷺ ، وبعضهم مقبل على بعض يتحدثون ، فغضب ثمّ قال : انظروا إليهم ؛ أحدثهم عن رسول الله ﷺ ، عمّا رأيت عيناى ، وسمعت أذناى ، وبعضهم مقبل على بعض ، أما والله لأخرجن من بين أظهركم ، ثمّ لا أرجع إليكم أبداً .

قلت له : أين تذهب ؟

قال : أذهب فأجاهد في سبيل الله .

قلت : ما بك جهاد ، وما تستمسك على الفرس ، وما تستطيع أن تضرب بالسيف ، وما تستطيع أن تطعن بالرمح .

قال : يا أبا حازم ! أذهب فأكون في الصفّ ، فيأتيني بينهم سهم عابر ، أو حجر ، فيرزقني الله الشهادة .

قال : فذهب لعمرى ، فما رجع إلّا مطعوناً ^(١) .

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦ / ١٠٨) برقم : (٥٦٥٦) . وقال الهيثمي : « وفيه عبد الحميد بن سلمان وهو ضعيف » مجمع الزوائد (١ / ١٥٥) . وقال الهيثمي في موضع آخر عن عبد الحميد : « وفيه عبد الحميد بن سلمان ، وهو ضعيف قد وثق » . « مجمع الزوائد » (٤ / ٤٩) . وقوله « سهم عابر » ، ويقال : عاثر ؛ أي : لا يُدري من رمى به .

* ومن مرويات سيّدنا سهل بن سعد - رضي الله عنه - ما جاء في الصحيح وغيره بسند عنه : « أَنَّ امرأةً جاءت النَّبِيَّ ﷺ ببردةٍ منسوجةٍ فيها حاشيتها ، أتدرون ما البردة ؟
قالو : الشَّملة .

قال : نعم .

قالت : نسجتها بيدي ، فجئتُ لأكسوكها .
فأخذها النَّبِيُّ ﷺ ، فخرج إلينا ، وإنّها إزارَةٌ ، فحسَّنها فلان ، فقال : اكسُنيها ما أحسنها .
قال القومُ : ما أحسنت ، لبسها النَّبِيُّ ﷺ محتاجاً إليها ، ثمَّ سألتُهُ ، وعلمتُ أنّه لا يردُّ .

قال : والله ما سألتُهُ لألبسها ، إنّما سألتُهُ لتكونَ كَفَنِي .

قال سهلٌ : فكانت كفنه ، وفي رواية أنَّ الرَّجل قال : « رجوتُ بركتَها حين لبسها النَّبِيُّ ﷺ لعلِّي أكفنُ فيها » (١) .

* أمّا ما جاء في مضمارِ المناقب ، نقرأ ما جاء عند الإمام الترمذي ؛ إذ أخرجَ بسنده عن سهل بن سعد - رضي الله عنهما - قال : « كُنّا مع رسولِ الله ﷺ ، وهو يحفرُ الخندقَ ونحنُ ننقلُ الثُّرابَ فيمُرُّ بنا فقال : « اللهم لا عيشَ إلّا عيش الآخرة ، فاغفرْ للأَنْصار والمُهاجرة » (٢) .

(١) أخرجه البخاريُّ في مواضع برقم : (١٢٧٧ ، و ٢٠٩٣ ، و ٥٨١٠ ، و ٦٠٣٦) ، وأحمد (٨ / ٤٣١ - ٤٣٢) ، برقم : (٢٢٨٨٨) ، وابن ماجه برقم : (٣٥٥٥٠) ، والطَّبْرانيّ في « الكبير » (٦ / ١٣٣ - ١٣٤) ، برقم : (٥٧٥١) ، وأيضاً (٦ / ١٦٩ - ١٧٠) ، برقم : (٥٨٨٧) ، وابن سعد في « الطبقات » (١ / ٤٥٤) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ في المناقب برقم : (٣٩٤٧) ، انظر : « تحفة الأحوذِي » (١٠ / ٣٥٨) . وقوله « يحفر الخندق » ؛ أي : حول المدينة المنورة حماها الله . =

* وفي باب الآداب ، يروي سيّدنا سهل - رضي الله عنه - تحريم النَّظَر في بيت غيره من سترة الحجرة ؛ فقد جاء في الصَّحيح وغيره بسند عن ابن شهاب الزُّهريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ سَهْلَ بْنَ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ - رضي الله عنه - أخبره : أَنَّ رَجُلًا أَطْلَعَ فِي حُجْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ومع رسول الله ﷺ

= و« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ؛ أي : لا عيش باق ولا عيش مطلوب إلا عيش الآخرة . و« فاغفرُ للأنصار والمهاجرة » ، وفي رواية الشَّيْخَيْنِ : « فاغفرُ للمهاجرين والأنصار » : وكلاهما غيرُ موزون ؛ ولعلَّه ﷺ تعمَّد ذلك . وفيه قال ابنُ بطَّال : « هو قولُ عبدِ الله بنِ رواحة الأنصاريّ - رضي الله عنه - ؛ يعني : تمثَّل به النَّبِيُّ ﷺ ولو لم يكن من لفظه ، لم يكن بذلك النَّبِيُّ ﷺ شاعراً . قال : وإنَّما يسمَّى شاعراً مَنْ قَصَدَهُ ، وعلم السَّبَبَ والوَتَدَ ، وجميعَ معانيه من الرِّحاف ونحو ذلك » .

وعلمُ السَّبَبِ والوَتَدِ إلى آخره ، إنَّما تلقَّوه من العروض التي اخترعَ ترتيبها الخليل بن أحمد الفراهيديّ ، وقد كان شعر الجاهليَّة والمخضرمين والطَّبقة الأولى والثَّانية من شعراء الإسلام قبل أن يصنِّفه الخليل بن أحمد كما قال أبو العتاهية : « أنا أقدمُ من العروض » ؛ يعني : أنَّه نظمَ الشَّعر قبل وضعه ، وقال أبو عبد الله بن الحَجَّاج الكاتب :

قد كان شعْرُ الوريِّ قديماً من قبل أن يُخلَقَ الخليلُ
وذكر سيّدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خرجَ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكنْ لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلَمَّا رَأَى ما بهم من النَّصَب والجوع قال :

« اللَّهُمَّ إِنَّ الْعِيشَ عِيشَ الْآخِرَةِ فاغفر للأنصار والمهاجرة »
فقالوا مُجِيبِينَ لَهُ :

نحنُ الذين بايعوا محمَّداً على الجهادِ ما بقينا أبداً
قال الحافظُ ابنُ حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « وفيه أنَّ في إنشاد الشَّعر تنشيطاً في العمل ، وبذلك جرت عادتهم في الحرب ، وأكثر ما يستعملون في ذلك الرَّجَز » .

مَدْرِيْ يَحْكُ بِهِ رَأْسَهُ ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ » ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ » (١) .

* ومرويات سيّدنا سهل بن سعد - رضي الله عنه - كثيرة جداً ، ومن أراد المزيد منها فكتب الحديث تروى غلته ، وتبرّد قلبه .

* امتدّت الحياة بسيّدنا سهل إلى أواخر القرن الهجريّ الأوّل ، حيث توفي بالمدينة المنورة سنة (٨٨ هـ) ، وقيل : سنة (٩١ هـ) وهو آخر مَنْ مات بالمدينة من الصّحابة (٢) ، وهو من أبناء الصّحابة المعمرين الذين اقتربت حياتهم من مئة عام قَضَوْها في العِلْم والعمل ، فرضي الله عن سهل بن سعد ، وحشرنا في معيته ، ومعية علماء أبناء الصّحابة .



(١) متفق عليه ، أخرجه البخاريّ برقم : (٥٩٢٤ ، ٦٢٤١ ، ٦٩٠١) ، ومسلم برقم : (٢١٥٦) واللفظ له ؛ والترمذيّ برقم : (٢٨٥٢) ، والنسائيّ (٧ / ٦٠ - ٦١) ، وأبو يعلى (ص : ١٣٦٥) ، برقم : (٧٥١٠) ، والطبرانيّ (٦ / ١٠٩) ، برقم : (٥٦٦٠ - ٥٦٧٣) ، وغير ذلك ممّا لا يحصى .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٢٣) ، و« المستدرک » (٣ / ٦٦٢) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٣٢٠) ، و« تحفة الأحوذّي » (١٠ / ٣٥٨) . عن ابن عيّنة قال : « قلت للأحوص بن حكيم الشّامي الهمداني الحمصيّ - مَنْ آخِرُ مَنْ بقي بالشّام ، أبو أمانة ؟ قال : آخر مَنْ بقي : عبد الله بن بسر . قال سفيان : وآخر مَنْ بقي مِنْ أصحاب النّبيّ ﷺ بالبصرة أنس بن مالك ، وآخر من بقي بالكوفة : عبد الله بن أبي أوفى ، وآخر من بقي بالمدينة : سهل بن سعد » . (تاريخ أبي زرعة الدمشقي ص ٧٦) .

وفي رواية أخرى عن سفيان بن عيّنة قال : « قلت للأحوص بن حكيم : أبو أمانة آخر مَنْ توفي عندكم من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال : آخر من توفي عندنا من أصحاب النّبي ﷺ : عبد الله بن بسر » . (تاريخ أبي زرعة ص ٣٦٥) .

عبدُ الله بنُ بسر

رضي الله عنهما

- * صَحِبَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ وَأَخُوهُ وَأَخْتُهُ .
- * دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ يَعِيشَ قَرْنًا ؛ فَعَاشَ مِئَةَ سَنَةٍ .
- * لَهُ أَخْبَارٌ طَرِيفَةٌ ، وَأَحْوَالٌ مَنِيفَةٌ ، وَمَاتَ سَنَةَ (٩٦ هـ) .

عبدُ الله بنُ بسر رضي الله عنهما

« يعيشُ هذا الغلامُ قرناً » :

* طَالَ هَذَا الابْنُ الصَّحَابِيُّ دَعَاءَ مَبَارَكُ مِنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ ، فَطَالَ عَمْرُهُ ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ ، وَمِنْ ثَمَّ عَاشَ مِئَةَ سَنَةٍ ، بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ : « يَعِيشُ هَذَا الْغُلَامُ قَرْنًا » .

* كَمَا أَنَّ السَّعَادَةَ لَاحِظَتْ أُسْرَتَهُ جَمِيعَهَا ؛ فَانْتَضَمَتْ فِي سُلُوكِ دَرَرِ الصَّحَابَةِ ، فَكَانَ هَذَا الصَّحَابِيُّ ، وَأَبُوهُ ، وَأَخُوهُ ، وَأَخْتُهُ ، وَأُمُّهُ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

* قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ ابْنِ الصَّحَابِيِّ : « صَحِبَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ ، وَأَبُوهُ ، وَأُمُّهُ ، وَأَخُوهُ عَطِيَّةً ، وَأَخْتُهُ الصَّمَاءُ » (١) .

* وَقَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ : « لَهُ أَحَادِيثُ قَلِيلَةٌ ، وَصَحْبَةٌ يَسِيرَةٌ ، وَلَأَخْوِيهِ عَطِيَّةٌ وَالصَّمَاءُ وَلَأَبْيَهُمْ صَحْبَةٌ » (٢) .

* وَأَيْضًا هَذَا الصَّحَابِيُّ ابْنُ الصَّحَابِيِّ ابْنِ الصَّحَابِيَّةِ قَدْ دَعَا لَهُ

(١) « أسد الغابة » (٣ / ٨٢) ، ترجمة رقم : (٢٨٣٧) ، وانظر : « الإصابة » (٤ / ٣٤١) ، و« الاستيعاب » (٤ / ٢٤٦) ، و« معرفة الصحابة » (٣ / ١٠٦) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٣١) .

رسول الله ﷺ بأن يعيشَ قرناً فعاش مئة سنة ؟

* وهو أيضاً آخرُ مَنْ مات بالشَّام من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، مات بحمص ، فَمَنْ هذا الصَّحابي المَعمر الذي نصره دعاءُ النَّبيِّ ﷺ ؟ .

* هو سيِّدنا عبدُ الله بنُ بُسر بن أبي بُسر ، الصَّحابي المَعمر ، بركة الشَّام ، أبو صفوان المازني ، نزيل حمص (١) .

* قال اليافعي رَحِمَهُ اللهُ في « مرآته » عن وفیات سنة : (٨٨ هـ) :
« وفيها : توفي عبدُ الله بن بُسر المازني ، وهو آخرُ مَنْ مات من الصَّحابة بحمص . قلتُ : هكذا ينبغي أن يُقال ، وأما قولُ الذَّهبي (٢) أَنَّهُ آخرُ مَنْ مات من الصَّحابة مقتصرأً على هذا فغيرُ صحيح ، وكلامه بعد هذا ينقُضه ؛ توفي سهلُ بنُ سعد السَّاعدي في سنة إحدى وتسعين ، وأنسُ بنُ مالك في سنة ثلاث وتسعين على القولِ الرَّاجح الذي قطعَ به هو في مختصره ؛ وذكر أيضاً أنَّ عبدَ الله بنَ بُسر المذكور أرَّخه عبدُ الصَّمَد بنُ سعيد في سنة تسع وتسعين . قلتُ : وهذا يمكن أن يُقالَ على هذا القول أَنَّهُ آخر الصَّحابة موتاً ، لكنَّ ينبغي النَّظر في شيءٍ آخر ، وهو أنَّ الصَّحابي مَنْ هو ؟ فعلى أحدِ الأقوال أَنَّهُ مَنْ رأى النَّبيَّ ﷺ مسلماً ، وكذا في حكم الإسلام متى يصحَّ من الإنسان ؛ فإنَّ محمودَ بنَ الرَّبِيع عَقَلَ في مَجَّةٍ مَجَّها رسولُ الله ﷺ مِنْ بُئرٍ في دارِهِم وهو

(١) « مرآة الجنان » (١ / ١٧٨) ، و« تاريخ أبي زرعة الدمشقي » (ص ٥٥ - ٥٧) ؛
و« شذرات الذهب » (١ / ٣٥٥ - ٣٥٦) ، « سير أعلام النبلاء »
(٣ / ٤٣٠ - ٤٣٣) ، « طبقات ابن سعد » (٧ / ٤١٣) ، و« تهذيب التهذيب »
(٥ / ١٥٨) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٢٥٨) ، و« الإصابة » (٢ / ٢٧٣) ،
و« مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٧ - ٥٠) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٨٢) ،
ترجمة رقم : (٢٨٣٧) ، و« المسند » (٦ / ٢٠٩ - ٢١٤) ، وغيرها كثير .

(٢) أقول : « إِنَّ الذَّهبي رَحِمَهُ اللهُ لم يقل ذلك ، وإنما نقلَ قوله عن الواقدي ، من « طبقات ابن سعد » ومن غيرها والله تعالى أعلم . »

ابنُ أربع سنين ، وموته كان في سنة تسع وتسعين . وأبو الطفيل الكنانيّ نقل العلماء أنّه آخر مَنْ رأى النَّبِيَّ ﷺ في الدُّنيا ، يعنون آخرهم موتاً ، وموته في سنة مئة ، لكن لا أدري هل رآه مسلماً أم لم يسلم بعد ، فليُحَثَّ عن ذلك ، وقد علم أيضاً أنّ الصَّغير يُحَكَّم بإسلامه تبعاً لما هو معروف في كُتُب الفقه . هذا ما أردتُ من التَّنبيه على ذلك ، فليعلم ، والله تعالى بكلّ شيء أعلم » (١) .

* وخلال الصَّحائف القادمة سنعيشُ بإذن الله أوقاتاً ممتعة نافعة مع عبدِ الله بنِ بُسر وأسرته - رضي الله عنهم أجمعين - .

أسرة زانها الإيمان :

* أسلمَ هذا الابنُ هو وأمه وأبوه ، وأخته وأخوه ؛ وقالوا : « أربعةٌ صحبوا النَّبِيَّ ﷺ من قيسٍ من بني مازن وهم : عبدُ الله بنُ بسر ، وعطيّة بنُ بسر ، والصَّمَاء بنتُ بسر واسمها بُهيمه ، وأبوهما بُسر - رضي الله عنهم أجمعين - » .

* ولَمَّا بَسَطَ ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ سيرة سيِّدنا عبدِ الله بنِ بُسر - رضي الله عنهما - ذكر بضعة أمورٍ مهمّة تساعد على إبراز شخصيته ، وتزيدُ من رصيده العلمي بين أبناء الصَّحابة الكرام - رضي الله عنهم أجمعين - . قال ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ : « وكان ممَّن صلَّى مع رسولِ الله ﷺ القبلتين ، ووضع النَّبِيُّ ﷺ يدهُ على رأسه ، وباركَ عليه ، ودعا له ، وكان يصقُرُ لحيته ورأسه وهو حاسرٌ عن رأسه ، وكانت ثيابه مشمَّرةً ، ورداؤه فوق القميص ، وكان إذا مرَّ بحجرٍ على الطريقِ نَحَّاهُ ، وكانت له جُمَّة ، لم يُرَ عليه عمامة ولا قلنسوة شتاءً ولا صيفاً . وقيل : كان شعره مفروقاً يغطِّي أذنيه ، وشاربه مقصوصٌ مع الشَّفة » (٢) .

(١) « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » (١ / ١٧٨ - ١٧٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٨) . وعن تأكيد صحبته كان عبدُ الله بنُ بسر =

* كانت الأسرة البسريّة أسرة مضيافة كريمة ، وأفرادها كلّهم يحبّون النَّبِيَّ ﷺ ، ويتمنّون أن يزورهم ، وهذا ما كان ؛ إذ دعا بسرّ - رضي الله عنه - رسول الله ﷺ إلى طعام ، فلبّى ﷺ الدّعوة التي كان رسولها عبد الله بن بسر - رضي الله عنهما - ، وفي نهاية هذه الدّعوة المباركة ، حظيت الأسرة بدعاء مبارك من النَّبِيِّ ﷺ ، إذ دعا لهم بالمغفرة ، والرّحمة ، وسعة الرّزق ، ونقرأ هذه الإشرافات من خلال ما أخرجه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ فِي « مسنده » بسنده عن سيّدنا عبد الله بن بسر المازنيّ قال : « بعثني أبي إلى رسول الله ﷺ أدعوه إلى الطّعام ، فجاء معي ، فلمّا دنوت من المنزل ، أسرعت فأعلمتُ أبويّ ، فخرجنا فتلقّا رسول الله ﷺ ، ورحبّا به ، ووضعنا له قطيفة كانت عندنا زُبَيْرِيّة ، فقعدَ عليها ، ثمّ قال أبي لأمي : هاتي طعامك ؛ فجاءت بقصعة فيها دقيقٌ قد عصّدتَه بماء وملح ، فوضّعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال : « خذوا بسم الله من حوائِها ، وذروا ذرّوتها فإنّ البركة فيها » فأكل رسول الله ﷺ ، وأكلنا معه ، وفَضَلَ منها فضلةً ، ثمّ قال رسول الله ﷺ : « اللهم اغفر لهم ، وارحمهم ، وبارك عليهم ، ووسّع عليهم في أرزاقهم » (١) .

* وفي رواية أخرى عن هشام بن يوسف قال : سمعتُ عبد الله بن بسر يحدثُ : « أنّ أباه صنّع للنَّبِيِّ ﷺ طعاماً فدعاه فأجابه ، فلمّا فرغ من طعامه قال : « اللهم اغفر لهم ، وارحمهم ، وبارك لهم فيما رزقتهم » (٢) .

= يقول لأصحابه : « تَرَوْنَ كَفِّي هذه ؟ فأشهدُ لوضعِها في كفِّ محمد ﷺ » .
(تاريخ أبي زرة الدمشقيّ ص ١٣٥) .

(١) « المسند » (٦ / ٢١٠) ، حديث رقم : (١٧٦٩٤) و« مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٨) . و« زُبَيْرِيّة » : قطيفة ذات خمل .

(٢) « المسند » (٦ / ٢٠٩) ، حديث رقم : (١٧٦٨٩) . وانظر : « المستدرک » (٤ / ١٢٠) ، حديث رقم : (٤٠٨٥) ، و« معرفة الصّحابة » (٣ / ١٠٧) .

* وفي حديثٍ بمعناه : « فما زلنا نتعرَّفُ البركةَ والسَّعةَ في الرِّزْقِ إلى اليوم » ^(١) .

* وفي حديثٍ آخر بمعناه : « وأنزَلَ عليه الوحيُّ في بيتنا ، وقدّمنا إليه زُبداً وتمراً ، وكان يحبُّ البُسْرَ ، وكان في رأس أحدهما في قرنه شعرٌ مجتمعٌ كأَنَّهُ قرنٌ فقال : « ألا أرى في أمّتي قرناً » ^(٢) .

* وعن ضيافةِ رسولِ الله ﷺ في منزل بُسرٍ ذكرَ سيّدنا عبد الله بن بسرٍ روايةً أخرى عن ذلك فيقول : « أتى رسولُ الله ﷺ منزلنا مع أبي ، فقام إلى قطيفةٍ لنا قليلةِ الخمل ، فجمعها بيده ، ثمّ ألقاها للنَّبِيِّ ﷺ فقَعَدَ عليها ، ثمّ قال لأُمِّي : هل عندكِ شيءٌ تُطعمينا ، فقالت : نعم ، شيءٌ من حيس ، قال فقرَّبته إليهما فأكلا ، ثمّ دعا لنا رسولُ الله ﷺ ، ثمّ التفتَ إليّ رسولُ الله ﷺ وأنا غلامٌ ، فمسحَ بيده على رأسي ، ثمّ قال : « يعيشُ هذا الغلامُ قرناً » . قال : فعاشَ مئةَ سنةٍ » ^(٣) .

* وفي روايةٍ أخرى عن عبدِ الله بنِ بسرٍ - رضي الله عنهما - قال : « كنتُ أنا وأبي قاعدَيْنِ على بابِ دارنا ؛ إذ أقبلَ رسولُ الله ﷺ على بغلةٍ له ، فقال له أبي : ألا تنزلُ يا رسولَ الله ! فَتَطْعَمَ وتدعو بالبركة ؟ فنزلَ فَطَعَمَ ثمّ قال : « اللهمَّ ارحمهم واغفر لهم ، وبارك لهم في رزقهم » فما زلنا نتعرَّفُ من الله - عزَّ وجلَّ - السَّعةَ في الرِّزْقِ » ^(٤) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٩) . وانظر : « المستدرک » (٤ / ٥٤٥) ، حديث رقم : (٨٥٢٤) .

(٤) « شرح حياة الصَّحابة » (٤ / ٣٨ - ٣٩) نقلاً عن ابن عساكر . وقوله « تدعو بالبركة » : المرادُ ههنا أَنَّهُ ليس طلبُ الدُّعاء لمقابلة الإحسانِ إليه ﷺ ، فإنَّ هذا لا يُظنُّ بالصَّحابة أصحاب الكرم والمروءة ، وإنَّما هو من بابِ طلبِ اللطفِ ونظر =

* كان سيّدنا عبدُ الله بنُ بسر - رضي الله عنهما - يدركُ بأنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقبَلُ الهديةَ ، ولا يقبلُ الصدقةَ ، فكان - رضي الله عنه - يهدي رسولَ الله ﷺ بعضَ الأحيان فيقبل ذلك منه ؛ وهذا ما سنقرؤه فيما يأتي : قال عبدُ الله بنُ بسر - رضي الله عنهما - : « أهديتُ للنبيِّ ﷺ شاةً ، والطعامُ يومئذٍ قليلٌ ، فقال لأهله : اطبخوا هذه الشاةَ ، وانظروا إلى هذا الدقيقِ ، فاخبزوه ، واطبخوا ، وأثردوا عليه . قال : وكان للنبيِّ ﷺ قصعةٌ يُقالُ لها الغَرَاءُ ، يحملُها أربعةُ رجالٍ ، فلمّا أصبحَ ، وسبَّحَ الصُّحى ، أتى بتلك القصعةَ ، فالتفّوا عليها ، فإذا كثر النَّاسُ ، جثا رسولُ الله ﷺ ، فقال أعرابي : ما هذه الجِلْسةُ ؟ !

فقال النبيُّ ﷺ : « إنّ الله تعالى جَعَلَنِي عبداً كريماً ، ولم يجعلني جباراً عنيداً » . ثمَّ قال : « كُلُوا من جوانبها ، ودعوا ذروتها يبارك الله فيها » ، ثمَّ قال : « خُذُوا فكلُّوا ، فوالذي نفسُ محمّدٍ بيده ، لتفتَحَنَّ عليكم أرضُ فارس والرُّومِ ، حتّى يكثرَ الطَّعامُ ، فلا يذكر اسمُ الله تعالى عليه » ^(١) .

* ولم يكن سيّدنا عبدُ الله يَجُولُ وحدهُ ويصوُلُ في ميدانِ السَّخَاءِ والجودِ ، وإنّما كانتْ أخته الصّماءُ بنتُ بسر تُشاركه في هذه المكرمة النَّفيسةَ ، فقد حَدَّثَ سيّدنا عبدُ الله بنُ بسر قال : « كانت أختي تبعثني إلى رسولِ الله ﷺ بالهدية فيقبلُها » ^(٢) .

= الرّحمة الشّاملة للخاصة والعامة . ومن هذا يؤخذ أنّ المضيف إذا سئل من الضّيف أن يدعو له سُنَّ أن يدعو له ؛ لأنَّ مفهومه أنّه إذا لم يسأله لا يسنّ له .

والأوّلَى أن يقال للمضيف أن يسأل الدُّعاء من الضّيف لفعل الصّحابة وتقريره ﷺ ، والله تعالى أعلم . و« بارك لهم » : علامة البركة القناعة ، وتوفيق الطّاعة . و« ارحمهم » : بالتّفضّل عليهم .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٧) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٩) ، والحديث أخرجه أحمد في « المسند » =

* وفي رواية عند الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن سيّدنا عبد الله بن بسر - رضي الله عنهما - قال : « كانت أختي ربّما بعثتني بالشّيء إلى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تطرفه إيّاه ، فيقبله منّي » (١) .

عبادته ونجابته :

* هذا الصّحابيّ النّجيب أحد أبناء الصّحابة الذين ساروا على النّهج النّبويّ في أقوالهم وأفعالهم ، فكان - رضي الله عنه - يكثر من السّجود حتّى ظهر ذلك على قسّات وجهه ، قال صفوان بن عمرو : « رأيت في جبهة عبد الله بن بسر أثر السّجود » (٢) .

* كان سيّدنا عبد الله - رضي الله عنه - يتعجّب من تغيّر حال النّاس وأحوالهم ، وتركهم لبعض الآثار التي كان عليها أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبناء أصحابه ، وهذا ما ذكره سيّدنا عبد الله بن بسر ليزيد بن خمير لما سأله : « كيف حالنا من حال من قبلنا ؟ » .

= (٦ / ٢١٢) ، برقم : (١٧٧٠٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦ / ٢١٠) ، برقم : (١٧٦٩٣) . ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الأخت الكريمة أدركت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروت عنه . فقد أخرج الإمام أحمد في « المسند » عن عبيد الله بن زياد ، عن ابني بسر السّلميين ، قال : « دخلت عليهما فقلت : يرحمكما الله ! الرّجل ممّا يضرب دابّته ، فيضربها بالسّوط ، ويكفحها باللجام ، هل سمعتما من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك شيئاً ؟

قالا : لا ما سمعنا منه في ذلك شيئاً . فإذا امرأة قد نادت من جوف البيت : أيّها السّائل ! إنّ الله - عزّ وجلّ - يقول : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فقالا : هذه أختنا ، وهي أكبر ممّا ، وقد أدركت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . « المسند » (٦ / ٢١١) ، برقم : (١٧٧٠١) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٧ / ٤١٣) ، و« تاريخ أبي زرعة الدمشقي » (ص ٥٦)

قال عبد الله : « سبحان الله ! لو نُشِروا من القبور ما عرفوكم إلا أن يجدوكم قياماً تصلّون » ^(١) .

* من خلال هذه الأمور وأشباهاها ، أثرت عن سيّدنا عبد الله بن بسر كلماتٌ محمّلةٌ بعبير الإخلاص ، وعطر الصدق ، فكانت مواعظه تدعو إلى صرف النّظر عن مباحج الدّنيا ، ومناهج الرُّخرف ، وتدعو إلى سلوك سبيل النّجاة ، والالتزام بالعلم ومجالسة أهله ، فمن مواعظه التي تشرح الصدور ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عنه - رضي الله عنه - قال : « المتّقون سادة ، والعلماء قادة ، ومجالستهم عبادة ، بل ذلك زيادة ، وأنتم بمرّ الليل والنّهار في آجال منقوصة ، وأعمالٍ محفوظة ، وأعدّوا الرّاد فكأنكم بالمعاد » ^(٢) .

* وتذكّر الأخبار التي رسمت بعضاً من جوانب شخصيّة سيّدنا عبد الله - رضي الله عنه - ، أنّه كان يكره أن يأخذ أجراً على تعليم القرآن

(١) « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ هـ ، ص : ١٠٢) .

(٢) انظر : « شرح حياة الصّحابة » (٤ / ٣٢٣) ، وعن عبد الله بن بسر قال : « لقد سمعتُ حديثاً منذ زمان : إذا كنت في قوم ، عشرين رجلاً أو أقل أو أكثر ، فتصفحّت في وجهوهم ، فلم تر فيهم رجلاً يُهاب في الله فاعلم أنّ الأمر قد رُقّ » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٩) . أمّا عن التزام عبد الله بن بسر بالعبادة ، وبالهدى التّبويّ قولاً وفعلاً فنجدّه عند صفوان بن عمرو قال : « رأيتُ عبد الله بن بسر أكثر من خمسين مرّة ، وكانت له جبة ، ولم أر عليه عمامة ولا قلنسوة شتاء ولا صيفاً » . (تاريخ أبي زرعة ص ٥٦) .

وقال أبو الزّاهريّة : « رأيت عبد الله بن بسر لا يُلحف شاربه » ، وقال : « كان عبد الله بن بسر يحدثنا حتى تقام الصلاة » . (المصدر السابق نفسه) .

وقال حُرّيز بن عثمان : « رأيتُ قميص عبد الله بن بسر مُشَمّراً ، والرّداء فوق ذلك » . (المصدر السابق ذاته) .

وتعلّمه ، فقد أخرج الطبراني في « الكبير » عن المشئي بن وائل قال : « أتيت عبد الله بن بسر - رضي الله عنهما - ، فمسح رأسي ، ووضعت يدي على ذراعه ، فسأله رجل عن أجر المعلم ، فقال : دخل على رسول الله ﷺ رجل متكبّ قوساً ، فأعجبني النبي ﷺ فقال : « ما أجود قوسك ! اشتريتها ؟ » .

قال : لا ، ولكن أهداها إلي رجل أقرأ ابنه القرآن .

قال : « فتحب أن يقلدك الله قوساً من نار ؟ » .

قال : لا .

قال : « فردّها » (١) .

* ومن الأخبار اللطيفة والمفيدة التي احتوتها سيرة هذا الابن النجيب ، قصته العجيبة مع جماعة من الجنّ وماذا قرأ عليهم من القرآن الكريم والذكر العظيم .

* أخرج الطبراني رحمه الله عن عبد الله بن بسر - رضي الله عنهما - قال : « خرجت من حمص ، فأواني الليل إلى البقيعة ، فحضرني من أهل الأرض ، فقرأت هذه الآية من سورة الأعراف : ﴿ إِنَّكَ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأعراف : ٥٤ ، ويونس : ٣] ، إلى آخر الآية ، فقال بعضهم لبعض : احرسوه الآن حتّى يصبح ، فلمّا أصبحت ركبت دابتي » (٢) .

(١) انظر : « مجمع الزوائد » (٤ / ٩٦) ، وقال الهيثمي رحمه الله : « المشئي وولده ذكرهما ابن حاتم ، ولم يجرّح واحداً منهما ، وبقيّة رجاله ثقات » .

(٢) انظر : « مجمع الزوائد » (١٠ / ١٣٣) ، وقال الهيثمي رحمه الله : « وفيه المسيب بن واضح ، وقد وثقه غير واحد ، وضعفه جماعة وبقيّة رجاله رجال الصّحيح » . وقوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّكَ رَبُّكُمْ اللَّهُ ... ﴾ الآية خطاب عام يقتضي التّوحيد . والرّب : أصله في اللغة : المصلح من ربّ يرّب ، وهو يجمع في جهة ذكر الله - تبارك وتعالى - والسيد ، وغير ذلك من استعمالات العرب ، =

* وكان سيّدنا عبد الله - رضي الله عنه - يحضُّ على اتّباع الهدي النبويّ في الفرائض وغيرها ، وكان يقولُ : « تَرَوْنَ يَدَي هَذِهِ ، ضَرَبْتُ بِهَا عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وفي رواية : بايَعْتُ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - وسمِعْتُهُ يقولُ : « لا تصوموا يومَ السَّبْتِ إلا في فريضة ، وإن لم يجد أحدُكم إلا عودَ كَرْمٍ أو لحاءَ شجرة ، فليفطرْ عليه » (١) .

* ومن تلميحات سيّدنا عبد الله بن بسر الخلابة التي تدلُّ على ذكائه واقتدائه بالهدي النبويّ ، ما أورده ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ قال : « لَمَّا فرغ مسلمُ بنُ سُليم من تزيين مسجد حمص ، كتبَ إليه الوليدُ بنُ عبد الملك : أنْ أحضره أناساً من قدمائهم وصالحهم ، فليدعوا لأمير المؤمنين بالصّلاح والعافية والبقاء ، فدعا ناساً من الجند فيهم عبدُ الله بنُ بسر - رضي الله عنهما - ، فقال له مسلمٌ : يا أبا صفوان ! كيف ترى هذا المسجد ؟ قال : أراه حسناً مُلهياً » (٢) .

صُحْبَةُ وَرَوَايَةٍ :

* تَعَلَّقَ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بَنُ بَسْر - رضي الله عنهما - بِمَحَبَّةِ

= ولا يُقال : الرَّبَّ معرّفاً إلا الله - عزَّ وجلَّ - ، وإنَّما يقال في البشر بإضافة ، والله تعالى أعلم .

ومن الأرصدة القيّمة التي تضاف إلى سيرة عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - أنّه غزا قبرص ، قال ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ : « قدم دمشق ، أو ساحلها مجتازاً من حمص إلى عكا ، وركبَ منها البحر لغزو قبرص مع معاوية » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٧) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٤٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٥٠) . وقوله : « أراه ملهياً حسناً » : يعني المسجد جميل الهيئة والشكل يلهي المصلّين ، وهو ليس على ما كان في العهد النبوي .

رسول الله ﷺ ، فروى عنه الحديث ، كما روى عن أبيه وأخته الصّماء ، وهذا ما جعل الذهبى رحمه الله يقول عنه : « له صحبةٌ ورواية » ^(١) . وقال : « له أحاديثٌ قليلة ، وصحبةٌ يسيرة » ^(٢) .

* بينما قال ابنُ علّان الصّديقي الشّافعي رحمه الله عن رواية سيّدنا عبد الله بن بُسر - رضي الله عنه - : « روى عن رسول الله ﷺ خمسين حديثاً ، أخرج له البخاريُّ حديثاً ، ومسلم آخر » ^(٣) .

* روى عنه الحديث عدّدٌ من التّابعين منهم : محمد بن عبد الرّحمن اليحصبي ، وراشد بن سعد ، وخالد بن معدان ، وحريز بن عثمان ، وأبو الزّاهرية وآخرون ^(٤) .

* وحديثه في الكتُب السّنة : الصّحيحان ، والسّنن الأربعة ، وكذلك أخرج له الإمام أحمد في « مسنده » (٢٧ حديثاً) بالمكرر ، وله أحاديث في الكتُب الأخرى المتخصّصة في هذا الشأن المبارك .

* ومن مروياته في المناقب ؛ ما أخرجه البخاريُّ في باب صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ بسندٍ عن حريز بن عثمان أنّه : « سأل عبد الله بن بُسر صاحب النَّبِيِّ ﷺ قال : « أرايت النَّبِيَّ ﷺ كان شيخاً ؟ قال : كان في عنقَتِهِ شَعْرَاتٌ بيض » ^(٥) .

(١) « تاريخ الإسلام » (حوادث ووفيات : ٨١ - ١٠٠ هـ ، ص : ١٠٠) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٣١) .

(٣) « دليل الفالحين » (٢ / ٨٤) .

(٤) « تهذيب التهذيب » (٥ / ١٥٨ - ١٥٩) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٨٢) ، و « الاستيعاب » (٢ / ٢٥٨) ، و « معرفة الصّحابة » (٣ / ١٠٦) ، وغيرها .

(٥) أخرجه البخاريُّ برقم : (٣٥٤٦) ، وقوله « عنقته » : العنفة : شعيرات بين الشّفة السفلى والدّفن .

* وكان الحبيب المصطفى ﷺ ، إذا أكلَ عند قومٍ لم يخرج حتَّى يدعو لهم ، وهذا ما فعله ﷺ في منزل سيدنا عبد الله بن بسر - رضي الله عنهما - .

* أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن بسر قال : « نزل رسول الله ﷺ عليَّ أبي ، قال : فقرَّبنا إليه طعاماً وَوُطْبَةً ، فأكل منها ، ثمَّ أُتي بتمرٍ فكان يأكله ويلقي التَّوَى بين إصبعيه ويجمع السَّابَةَ والوسطى - قال شعبة : هو ظَنِّي ، وهو فيه ، إن شاء الله ، إلقاء التَّوَى بين الإصبعين - ثمَّ أُتي بشرابٍ فشربه ، ثمَّ ناوله الذي عن يمينه ، قال : فقال أبي وأخذ بلجام دابته : ادعُ الله لنا ، فقال : « اللهمَّ باركْ لهم في ما رزقْتهم ، واغفرْ لهم وارحمْهم » ^(١) .

* وفي فوائد حُسنِ العمل ، وكثرة الذِّكر أخرج الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن قيس قال : سمعتُ عبدَ الله بنَ بسر يقول : « جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسولَ الله ! أي النَّاس خيرٌ ؟ قال : « مَنْ طال عمره وحَسُنَ عمله » .

وقال الآخر : يا رسولَ الله ! إنَّ شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ ، فمُرني بأمرٍ أتَّبْتُ به .

فقال : « لا يزالُ لسانك رطباً بذكر الله - عزَّ وجلَّ - » ^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في الأشربة برقم : (٤٠٤٢) ، وليس لعبد الله بن بسر في « صحيح مسلم » سوى هذا الحديث . وقوله « وطبة » : الحيس يجمع التمر البرني والأقط المدقوق والسَّمَن . و« يلقي التَّوَى بين أصبعيه » : يجعله بينهما لقلته ، ولم يلقه في إناء التمر لثلا يختلط بالتمر . و« قال شعبة هو ظَنِّي . . . » : معناه أنَّ شعبة قال : الذي أظنه أنَّ إلقاء التَّوَى مذكور في الحديث ، فأشار إلى تردّد فيه وشك . و« عن يمينه » : فيه أنَّ الشَّراب ونحوه يُدار على اليمين . وفيه استحباب طلب الدُّعاء من الفاضل ، ودعاء الضَّيف بتوسعة الرِّزق والمغفرة والرَّحمة ، وقد جمع ﷺ في هذا الدعاء خيرات الدُّنيا والآخرة .

(٢) أخرجه أحمد (٦ / ٢١٤) ، حديث رقم : (١٧٧١٤) ، والحديث أيضاً في بعض كتب السنن .

* ولعبدِ اللهِ بنِ بُسرٍ - رضي اللهُ عنه - مروياتٌ أخرى متنوّعة تكفّلتُ بها كتبُ الحديث ؛ ومرّ معنا نماذج منها أيضاً خلال ترجمته .

* ويُعَدُّ عبدُ الله بنُ بُسرٍ من أبناء الصّحابة المعمرين ؛ إذ عاشَ قرناً من الزّمان ، وتوفي في إمرة سليمان بن عبد الملك سنة : (٩٦ هـ) ، وكانت وفاته في مدينة حمص ببلاد الشّام ، وهو يتوضّأ ، قالت أمُّ هاشم الطّائفة : « رأيتُ عبدَ الله بنَ بُسرٍ جالساً يتوضّأ ، فبينما هو يتوضّأ ؛ إذ خرجتُ نفسُه » (١) .

* رضي اللهُ عن عبدِ الله بنِ بسرٍ ، وأعظمَ له الأجر ؛ ونرجو اللهُ أن يتوفانا مسلمين ، وأن يلحقنا بالصّالحين .



(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٥٠) ، و« تاريخ أبي زرعة الدمشقي » (ص ٥٧) ، و« أسد الغابة » (٨٢ / ٣) وغيرها . وقال أبو نُعيم الأصبهانيّ : « توفي عبد الله بنُ بسرٍ سنة ستّ وتسعين في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقيل : سنة ثمان وثمانين وله مئةُ سنة ، وقيل : أربع وتسعون ، وكان يُصَفَّرُ لحيته » . (معرفة الصّحابة ٣ / ١٠٦) .

وذكر أبو نُعيم الأصبهانيّ أيضاً بسند عن عبد الله بنِ بُسرٍ أنّ النّبيَّ ﷺ وضع يده على رأسه ، وقال : « يعيشُ هذا الغلام قرناً » قال القماش : مئة سنة ، وكان في وجهه ثألول ، فقال : « لا يموت حتّى يذهبَ هذا الثّألول من وجهه » قال : فلم يمت حتّى ذهبَ الثّألول من وجهه » . (معرفة الصّحابة ٣ / ١٠٧) وقال يزيد بن عبد ربّه : « توفي عبد الله بن بسر المازني في خلافة سليمان بن عبد الملك » ، قال أبو زرعة الدمشقي : « هذا قبل سنة مئة ، وهو آخر رجل توفي بالشّام من أصحاب النبي ﷺ » . (تاريخ أبي زرعة ص ٣٦٥) .

قيسُ بنُ سعد

رضي الله عنهما

- * سيّدُ الخزرج ؛ وابنُ سيّدهم ؛ وصاحبُ النَّبِيِّ ﷺ ؛ وابنُ صاحبه .
- * خدَمَ النَّبِيَّ ﷺ عشرَ سنين ؛ وكان شجاعاً سخياً .
- * مُجاهدٌ وقائدٌ موفقٌ ؛ أخبارُهُ كثيرةٌ توفي سنة : (٥٩ هـ) .

قيسُ بنُ سعد رضي الله عنهما

الكريمُ السَّخِيُّ :

* كريمٌ ورثَ الكرمَ والسَّخَاءَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، نَالَ مَعْرُوفَهُ مَنْ عَرَفَهُ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْأَكَابِرِ ، ابْتَغَى بِسَخَائِهِ وَجْهَ اللَّهِ الْقَادِرِ ، فَكَانَ يَنْفَقُ وَيُعْطِي لِلْمَقِيمِ وَالْمَسَافِرِ .

* هَذَا الرَّجُلُ السَّخِيُّ الْكَرِيمُ ؛ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ دُلَيْمٍ ، الْأَمِيرُ الْمَجَاهِدُ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، سَيِّدُ الْخَزَرَجِ ، وَابْنُ سَيِّدِهِمُ ، الْأَنْصَارِيُّ الْخَزَرَجِيُّ السَّاعِدِيُّ الْمَدَنِيُّ ، صَاحِبُ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ ؛ وَابْنُ صَاحِبِهِ ^(١) .

* وَقَبْلَ أَنْ نَغْذِيَ السَّيْرَ فِي الرَّحْلَةِ الْيَانِعَةِ الْمَاتِعَةِ مَعَ سَيِّدِنَا قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، نَوَدُّ أَنْ نَقْفَ وَقْفَةً لَطِيفَةً مَمْرَعَةً مَعَ الْكَرَمِ وَالْكَرَمَاءِ ؛

(١) « التُّجُومُ الرَّاهِرَةُ » (١ / ٩٥ - ١٠١) ، و« تَارِيخُ الْإِسْلَامِ » لِلدَّهَبِيِّ (عَهْدُ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، ص : ٢٨٩ - ٢٩١) ، و« مَنْحُ الْمَدْحِ » (ص : ٢٢٩ - ٢٤٢) ، و« الْإِسْتِبْصَارُ » (ص : ٩٧ - ٩٩) ، و« تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ » (٢ / ٦١ - ٦٢) ، و« الْإِسْتِعْجَابُ » (٣ / ٢١٦ - ٢٢٤) ، و« الْإِصَابَةُ » (٣ / ٢٣٩) ، و« طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ » (٦ / ٥٢ - ٥٣) ، و« أَسَدُ الْغَابَةِ » (٤ / ١٢٤ - ١٢٧) ، تَرْجُمَةُ رَقْم : (٤٣٤٨) ، و« مَخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ » (٢١ / ١٠٢ - ١١٤) ، و« وَلاةُ مِصْرَ » (ص : ٤٤ - ٤٦) ، و« تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ » (٨ / ٣٩٥ - ٣٩٧) ، وَغَيْرَهَا مِمَّا لَا يُسْتَقْصَى .

لنستفيد منها في حياتنا العِلْمِيَّة والعملِيَّة .

* فالكرمُ جامعٌ لمكارمِ الأخلاق ، فكلُّ خصلة من خصال الخير ، وخلة من خلال البرِّ ، سجيَّة تُضاف إلى محاسن الطَّبائع والأعراق ، إلا نراها واقعة على اسم الكرم . ألا تَنْظُرُ إلى قولهم : « نَسَبُ كريم » إذا كان يعطي الشرف والسُّودد ، وينمُّ عن طيب المولد ، وكرم الهمة . وقولهم : « مجلسُ كريم » إذا أفاد العِلْمَ والمعرفة ، وبذلك الآداب والحكمة . وقولهم : « خلقُ كريم » إذا وسمَّ صاحبه بالبرِّ والسَّماحة ، والبشر والكرامة ، وتحلَّى بالصفات الكاملة^(١) .

* وللكرم وجوهٌ تدعو إليه ، وأسبابٌ تبعثُ عليه ؛ فمنه ما يكون تدنيًا وتشرُّعًا ، فإذا رأى الإنسانُ بأحدِ حاجة ، سارع إلى قضائها رغبةً في الأجر ، ورجاءً للمثوبة ، وهو أفضلُ الوجوه حالاً ، وأحسنها مآلاً . ومنه ما يكون عن وفور مال ، واتِّساع حال ، تقضي به كثرة الثروة إلى تقديم ما وفق إليه ؛ ليجعله ذخراً للآخرة ، ويستجلب به الشكر في الدنيا ، مع الثقة بالكفاية والغنى عن الزيادة . ومنه ما يكون حياء ، والحياء من الإيمان ، فيجودُ بنائله حياء من سائله ، وإن قلَّ ماله ، ولم تساعده آماله . ومنه ما يكون لفرط حبِّ ، واستجلاب مودة . وينبغي للكرم أن يعطيَ ويجودَ وهو مهتللُ الوجه ، منشرح الصدر ، يتبغي بجوده وجه الله - عزَّ وجلَّ - .

* وكان سيِّدنا قيسُ بنُ سعد - رضوان الله عليه - ممَّنْ مشى الرُّكبانُ في الحديثِ عن سخائه وجوده ، وربما كان يستدينُ ويطعمُ أصحابه ، ويعطيهم ، حتَّى ظنَّ بعضُ كبراء الصَّحابة أنَّه سيُهْلِكُ مالَ أبيه ، في حين أنَّ أباه سيِّدنا سعد بن عبادَةَ - رضي الله عنه - كان يشدُّ أزره في السَّخاء ، ويعضده في مجال الجود والعطاء ، ويحثُّه على الكرم والوفاء .

(١) « الخلق الكامل » لمحمَّد أحمد جاد المولى (٤ / ٢٦٠) ، مؤسَّسة الرِّسالة ،

بيروت ، دون تاريخ .

* ولهذا جاء وصفه في « الاستيعاب » عند ابن عبد البر بأنه : « كان من كرام أصحاب رسول الله ﷺ وأسхийائهم ، ودهاتهم ، وكان أحد الفضلاء الجلّة ، وأحد دهاة العرب ، وأهل الرأى والمكيدة في الحروب مع التّجدة والبسالة والسّخاء والكرم ، وكان شريف قوم غير مدافع هو وأبوه وجدّه ، وصحب قيس بن سعد النّبّي ﷺ هو وأبوه وأخوه سعيد بن سعد بن عبادة » (١) .

* وقال ابن عساكر رحمه الله عن سيّدنا قيس - رضي الله عنه - : « كان من دهاة أصحاب النّبّي ﷺ ، وكرامهم ، وأسхийائهم ، وله أخ يسمّى سعيد بن سعد » (٢) .

مكانته عند النّبّي ﷺ :

* ينبغي أن نتذكّر - ونحن نخلّق مع سيّدنا قيس بن سعد في سماء العظام - بأنه صحابيّ ابن صحابيّ ابن صحابيّة ، وأنصاريّ ابن أنصاريّ ابن أنصاريّة ، وسخيّ ابن سخيّ ابن سخيّة ، وله من الشّمال الخلفيّة والخلفيّة ما يجعله خليفاً بالصدارة والتّقّدّم والإمارة والسّيادة الحقيقيّة .

(١) « الاستيعاب » (٢١٧ / ٣) بتصرّف يسير . وانظر : « الاستبصار » (ص : ٩٧) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٤) ، وترجم ابن قدامة رحمه الله وقبله ابن سعد رحمه الله لسعيد بن سعد - رضي الله عنهما - ، فقالا : « سعيد بن سعد بن عبادة ، قال قوم : له صحبة ، وروى عنه ابنه شرجيل بن سعيد ، وكان والياً لعلّي - رضي الله عنه - على اليمن ، وروى عنه أيضاً أبو أمانة بن سهل بن حنيف ، أمّه غزيرة بنت سعد بن خليفة بن الأشرف بن أبي حزيمة ، من المبايعات » . « الاستبصار » (ص : ٩٩) . وانظر : « طبقات ابن سعد » (٨٠ / ٥ - ٨١) .

وقال ابن قتيبة رحمه الله : « وسعيد بن سعد كانت تحته بنت أبي الدرداء ، وله منها أولاد » . « المعارف » (ص : ٢٥٩) .

* فقد كان هذا النَّبيل رجلاً فارح الطُّول ، جميلاً وسيماً ، قال عنه عمرو بن دينار : « كان قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - رجلاً ضخماً ، جسيماً ، صغيرَ الرَّأس ، ليست له لحية ، إذا ركب حماراً ، خَطَّت رجلاه الأرضَ ، فقدم مكَّة ، فقال قائلٌ : مَنْ يشتري لحم الجزور ؛ يُعرِّضُ بقيس أنَّه لا يأكل لحم الجزور » (١) .

* وساق النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ جملةً من مناقب سيِّدنا قيس فيما يختصُّ بالمعيَّة النَّبويَّة ، فكان ممَّا قال : « وفي كتاب التَّرمذيِّ عن قيس أنَّ أباه دفعه إلى النَّبيِّ ﷺ ليعلمه وهو أنصاريٌّ ساعديٌّ مدنيٌّ ، صحابيٌّ ابنُ صحابيٍّ ، جوادٌ ابنُ جواد ، وهم أربعةٌ مشهورون بالكرم وكان من فضلاء الصَّحابة ، وأحد دهاة العرب ، وذوي الرَّأي الصَّائب ، والمكيِّدة في الحرب والنَّجدة ، وكان شريف قومه غير مدافع ، ومن بيت سيادتهم وله في جوده أخبارٌ كثيرةٌ مشهورة » (٢) .

* ولمَّا أوردَ الحافظُ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ خُدَّام النَّبيِّ ﷺ الذين خدموه من الصَّحابة من غير مواليه ، ذكر سيِّدنا قيس بن سعد فقال : « ومنهم - رضي الله عنهم - : قيسُ بنُ سعد بن عبادة الأنصاريِّ الخزرجيِّ » ثمَّ أوردَ قول سيِّدنا أنس بن مالك : « كان عشرون شاباً من الأنصار يلزمون رسول الله ﷺ لحوائجه ، فإذا أرادَ أمراً بعثهم فيه » (٣) .

* وفي موضع آخر قال ابنُ كثير عن سيِّدنا قيس - رضوان الله

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٣) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٦١ - ٦٢) بشيء من التصرف .

(٣) « البداية والنهاية » (٥ / ٣٣٧) باختصار وتصرف . وقال أبو نُعيم الأصبهاني : « قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري الخزرجي ، خادم النَّبيِّ ﷺ وحاجبه ، وصاحب لوائه ، كان من دهاة العرب المذكورين بالدهاء » (معرفة الصَّحابة ٤ / ١٠٨) .

عليه - : « صحابيٌّ جليل كأبيه وخدم رسول الله ﷺ عشر سنين وكان من النَّبِيِّ ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ، وحمل لواء رسول الله ﷺ في بعض الغزوات واستعمله على الصدقة وكان قيس سيِّداً مُطاعاً كريماً ممدوحاً شجاعاً وكانت له صُحفَةٌ يُدارُ بها حيث دار ، وكان ينادي له مناد : هلمّوا إلى اللحم والثريد » (١) .

* كان سيِّدنا قيسٌ - رضي الله عنه - سعيداً بالصُّحبة النَّبَوِيَّة ، ويُعدُّ من أعوان النَّبِيِّ ﷺ وشرطته ، وهذا ما أكَّدته أخباره التي وافتنا بها كبريات المصادر الموثوقة ، فقد كان قيسٌ لرسول الله ﷺ لمّا قدم مكَّة مكان صاحب الشرطة من الأمراء (٢) .

* أخرج البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدٍ عَنْ ثُمَامَةَ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قال : « إِنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ كَانَ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ مِنَ الْأَمِيرِ » (٣) .

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٩٩ - ١٠٠) بتصرف واختصار وانتقاء .

وقال بعضهم : « لم يكن في الأوس والخزرج مطعمون يتوالدون في بيتٍ واحد إلا قيس ، وأبوه سعد ، وأبوه عبادة ، وأبوه دُلَيْم ، كان في كلِّ يوم يقفُ شخصٌ على أطمٍ ينادي : مَنْ يَرِيدُ الشَّحْمَ واللَّحْمَ فعليه بدار أبي دُلَيْم » . « السيرة الحلبية » (٢٠٣ / ٣) .

(٢) « تحفة الأحوذى » (١٠ / ٣٤٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في الأحكام برقم : (٧١٥٥) . و« الشرطة » : التَّسْبِة إليها : شُرْطِيٌّ ، بضمِّين ، وقد تفتح الرَّاء فيهما ، هم أعوانُ الأمير ، والمرادُ بصاحب الشرطة كبيرهم ، وهم الأشداءُ الأقوياءُ من الجند . قال الأزهرِيُّ : « شرط كلِّ شيءٍ خياره ، ومنه الشرط ؛ لأنَّهم نخبةُ الجند » . وقيل : هم أوَّلُ طائفةٍ تتقدَّمُ الجيش وتشهدُ الوقعة . وقيل : سمّوا شرطاً ؛ لأنَّ لهم علاماتٍ يُعرفون بها من هيئة وملبس . وهناك معانٍ أخرى كثيرة .

* وقال سيّدنا أنس - رضي الله عنه - : « لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ فِي مَقْدَمَتِهِ بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ مِنَ الْأَمِيرِ ، فَكَلَّمَ سَعْدٌ - بَنَ عِبَادَةَ أَبَوِهِ - النَّبِيَّ ﷺ فِي قَيْسٍ أَنْ يَصْرِفَهُ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعَهُ فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَى شَيْءٍ ، فَصَرَفَهُ عَنْ ذَلِكَ » (١) .

* كَانَ سَيِّدُنَا قَيْسٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْمَعِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ يَسْتَمِدُّ الْجُودَ مِنْ أَبِيهِ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فِي غَزْوَةِ الْغَابَةِ كَانَ لَقَيْسٍ دَوْرٌ مُتَالِقٌ فِي السَّخَاءِ ، فَقَدْ أَقَامَ سَيِّدُنَا سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي غَزْوَةِ الْغَابَةِ فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ مِنْ قَوْمِهِ يَحْرُسُونَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ خَمْسَ لَيَالٍ ، حَتَّى رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَبَعَثَ سَعْدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَحْمَالِ تَمَرٍ ، وَبَعْشَرِ جَزَائِرٍ - نَوْقٍ - بِذِي قَرَدٍ - أَيُ : فِي غَزْوَةِ الْغَابَةِ - ، وَكَانَ فِي النَّاسِ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ ، يُقَالُ لَهُ الْوَرْدُ ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي قَرَّبَ الْجُزُرَ وَالتَّمَرِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا قَيْسُ ! بَعَثْتُكَ أَبُوكَ فَارِسًا ، وَقَوَى الْمَجَاهِدِينَ ، وَحَرَسَ الْمَدِينَةَ مِنَ الْعَدُوِّ ؟ اللَّهُمَّ ارْحَمْ سَعْدًا وَآلَ سَعْدٍ » (٢) .

* مَا زِلْنَا مَعَ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَا زِلْنَا مَعَ قَيْسٍ وَأَبِيهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَجُودَهُمَا فِي الْمَغَازِي النَّبَوِيَّةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى رِعَايَتِهِمَا شُؤْنِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى ﷺ وَمِرَاقَبَةِ مَا يَحْتَاجُهُ وَيُسْرُهُ .

* فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ ضَلَّتْ نَاقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهَا بَعْضُ الْمَتَاعِ ، فَجَاءَ السَّخْيَانُ : سَعْدٌ وَابْنُهُ قَيْسٌ بِنَاقَةٍ تَحْمِلُ زَادًا ، يُؤْمَانُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى

(١) « فَتْحُ الْبَارِي » (١٣ / ١٤٤ - ١٤٥) . أَقُولُ : « كَانَ سَيِّدُنَا قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَتَحَدَّثُ مُفْتَخِرًا بِصُحْبَتِهِ الْمُبَارَكَةِ لِلصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ وَيَقُولُ : « صَحِبْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ » . « سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ » (٣ / ١٠٣) . وَقَالَ سَيِّدُنَا قَيْسٌ : « دَفَعَنِي أَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَخْدَمَهُ » . « مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ » (٤ / ١٠٨) .

(٢) انْظُرْ : « مُخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقٍ » (٩ / ٢٤٢) بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ .

يجدا رسولَ الله ﷺ واقفاً عند باب منزله ، قد أتى الله - عز وجل - بزاملته - ناقتة - ، فقال سعد - رضي الله عنه - : « يا رسول الله ! قد بلغنا أنَّ زاملتك أضلَّت مع الغلام ، وهذه زاملةٌ مكانها » .

فقال رسولُ الله ﷺ : « قد جاء اللهُ بزاملتنا ، فارجعا بزاملتكما بارك اللهُ عليكما ؛ أما كيفيك يا أبا ثابتٍ ما تصنعُ بنا في ضيافتك منذُ نزلنا المدينة ؟ » .
قال سعد : « يا رسولَ الله ! المنةُ لله ولرسوله ، والله يا رسولَ الله ! للذي تأخذُ من أموالنا أحبُّ إلينا من الذي تدع » .

فقال ﷺ : « صدقتم يا أبا ثابت ! أبشِرْ فقد أفلحت ، إنَّ الأخلاقَ بيدَ الله ، فمن أرادَ أن يمنحه منها خلقاً صالحاً منحه ، ولقد منحك الله خلقاً صالحاً » .

فقال سعدٌ - رضي الله عنه - : « الحمدُ لله هو فعَل ذلك » (١) .

* ومن العجيب أنَّ هذين السَّخِيَّين كانا على قلبٍ واحدٍ في ميدان الإنفاقِ والسَّخَاءِ في الحضرة النَّبَوِيَّة ، وهذا ما نقله صاحبُ كتاب « حياة الصَّحابة » عن الدَّارِقُطَنِي في كتاب : « الأسخياء » عن يحيى بن عبد العزيز قال : « كان سعدُ بنُ عبادة يغزو سنة ، ويغزو ابنُه قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - سنة ، فغزا سعدٌ مع النَّاس ، فنزلَ برسولِ الله ﷺ ضيوفٌ كثير مسلمون ، فبلغ ذلك سعداً ، وهو في ذلك الجيش ، فقال : إنَّ يكُ قيسُ ابني فسيقول : يا نِسْطاسُ ، هاتِ المفاتيحَ أخرجْ لرسولِ الله ﷺ حاجته ، فيقول نِسْطاس : هاتِ من أبيك كتاباً ، فيدقُّ أنفه ، ويأخذُ المفاتيحَ ويُخرجُ لرسولِ الله ﷺ حاجته ، فكان الأمرُ كذلك ، وأخذَ قيسُ لرسولِ الله ﷺ مئةً وَسَق » (٢) .

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٩ / ٢٤٢ - ٢٤٣) ، و « المغازي » (٣ / ١٠٩٥) مع الجمع والتَّصْرُف .

(٢) انظر : « شرح حياة الصَّحابة » (٢ / ٢٩٧ - ٢٩٨) ، و « نِسْطاس » : هو مولى =

المجاهدُ المِطْعَامُ :

* هذا الكريمُ ابنُ الكريمِ ممَّنْ حملَ رَايَةَ الجهادِ ، وسارَ لإِعلَاءِ كلمةِ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - في البلادِ ، وكان في السَّرايا والبعوثِ جُندياً مخلصاً مُطيعاً ، وسخياً مطعماً نَحَاراً للإبلِ ، كريماً لا يُلحق شأوه .

* كان هذا البطلُ السَّخِيُّ الجَوَادُ من عدادِ سرِّيَّةِ قوامها ثلاث مئة رجل ؛ انطلقوا تحت إمرة أمينِ الأُمَّةِ المحمَّديَّةِ سيِّدنا أبي عُبَيْدة بن الجراح^(١) - رضي الله عنه - ، واتَّجهوا إلى جُهيْنَةَ في ساحلِ البحرِ ، فأقاموا بالسَّاحلِ نصفَ شهرٍ ، فأصابهم جوعٌ شديدٌ حتَّى أَكَلُوا ورقَ الشَّجَرِ وتقرَّحَتْ أَشْدَاقُهُمْ ، فكان سيِّدنا أبو عُبَيْدة - رضوان الله عليه - يعطي الواحدَ منهم تمرَةً واحدةً في اليوم واللييلة ، فيمضُّها ، ثمَّ يصُرُّها في ثوبه .

* أورد عليُّ بنُ برهان الدِّين الحلبيُّ في « سيرته » صورةً من المشقَّةِ التي تحمَّلَهَا الصَّحَابَةُ الكرامُ في هذه السَّرِّيَّةِ المباركةِ وذكر بأنَّه قد سُئِلَ أحدُ الصَّحَابَةِ « فقل له : كيف كنتم تصنعون بالتمرَّة ؟ قال : نمضُّها كما يمصُّ

= سعد - رضي الله عنهما - وكان من الصَّحَابَةِ . وممَّا يندرجُ في اشتراكِ قيسٍ وأبيه في الفضيلةِ ، والاستفادة من المعيةِ النَّبَوِيَّةِ ، ما روى عن سيِّدنا زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال : « دخلَ سعدُ بنُ عبادة - رضي الله عنه - على رسولِ اللَّهِ ﷺ ومعه ابنه ، فسَلَّمَ ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « اجلسْ » ، فجلسَ ، فقال : « ادنُ » ، فدنا ، فقَبَّلَ يَدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ورجله ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « وأثنائي الأنصار ، وأثنائي فراح الأنصار » ، فقال سعدٌ : أكرمك الله - عزَّ وجلَّ - كما أكرمتمنا . فقال : « إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - قد أكرمكم قبل كرامتي ، إنَّكم ستلقون بعدي أثرَةً ، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض » . « مختصر تاريخ دمشق » (٩ / ٢٤٣) . ومعنى « الأثنائي » : جمع أثنية : الجماعة من النَّاسِ .

(١) اقرأ سيرة سيِّدنا أبي عبيدة بن الجراح في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « فرسان من عصر النَّبوة » (ص : ٤٤٨ - ٤٦٢) ، فسيرته بهجةٌ للمجالسِ ، وأنسٌ للمجالسِ .

الصَّبِيُّ ثدي أمّه ، ثمَّ نشربُ عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل » (١) .

* وكان رسولُ الله ﷺ قد زوّدَهم جراباً من تمرٍ ، فجعل سيّدنا أبو عبيدة - رضوان الله عليه - يقوّتهم إيّاه ، حتّى صار يعدّه لهم عدّاً ، حتّى كان يعطي المجاهد منهم تمرّة كلّ يوم ، ثمَّ بعد التّمر أكلوا الخَبْطَ - ورق الشّجر - .

* رأى سيّدنا قيسٌ - رضي الله عنه - ما نزل بأصحابه المجاهدين من مشقّة الجوع وجهده وشدّته ، حتّى قال قائلٌ منهم : « والله لو لَقِينَا عدوّ ما كان ممّا حركة إليه لما بالنّاس من الجهد » ؛ وإذ ذاك نَحَرَ للمجاهدين ثلاث جزائر - نياق - ثمَّ نَحَرَ ثلاث جزائر ، ثمَّ نَحَرَ ثلاث جزائر ؛ ثمَّ إنّ سيّدنا أبا عبيدة نهّاه عن هذا الأمر ؛ وفي البخاريّ أنّ قيساً - رضي الله عنه - نَحَرَ لهم تسعَ جزائر ، كلّ يومٍ ثلاثاً ، ثمَّ نهّاه أبو عبيدة عن ذلك (٢) .

* بسطَ ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ ما صنعه السيّدُ المطعّمُ ؛ السّخي المقدام قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - في هذا البعث المجموع ؛ وكيف أنقذ أصحابه المجاهدين من غائلة الجوع .

* عن داود بن قيس وطائفة قالوا : « بعثَ رسولُ الله ﷺ أبا عبيدة بنَ الجراح في سرّيّة فيها المهاجرون والأنصار ، وهم ثلاث مئة رجل إلى ساحل البحر ، إلى حي من جُهيّنة ، فأصابهم جوعٌ شديد ، فأمر أبو عبيدة - رضي الله عنه - بالزّاد ، فجمّع ، حتّى إن كانوا ليققسموا التّمرة ، فقليل لجابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - : فما يغني ثلث التّمرة ؟ قال : لقد وجدوا فقّدها فقال قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - : مَنْ يشتري مِنّي تمرّاً

(١) « السّيرة الحليّة » (٣ / ٢٠١) ، وفي رواية أنّه قيل هذا الكلام لجابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - . « فتح الباري » (٧ / ٦٨٠) .

(٢) « فتح الباري » (٧ / ٦٧٨) .

يَجْزُرُ يوفيني الجُزُر ههنا ، وأوفيه التَّمَر بالمدينة ؟

فجعل عمرُ بنُ الخطَّاب - رضوان الله عليه - يقولُ : واعجباه لهذا الغلام ! لا مَالَ له ، يَدَّان - يستدينُ - في مالٍ غيره ! فوجدَ قيسُ رجلاً من جهينة ، فقال قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - : بِعْنِي جُزْراً وأوفيك أوسقَةً من تَمَرٍ بالمدينة .

فقال الجهنيُّ : واللهِ ما أعرفُكَ ، ومَنْ أنت ؟

قال قيس : أنا قيسُ بنُ سعد بن عبادَةَ بن دُليم .

قال الجهنيُّ : ما أعرفني بنسبِكَ ! أما إنَّ بيني وبين سعد خُلَّة ، سيِّد أهل يشرب .

فابتاع منه خمس جزائر ، كلَّ جزور بوسقَتين من تمر من خيرة تمر آل دُليم ، وقيس يقول للجهنيِّ : نعم من خيرة التَّمَر .

فقال الجهنيُّ : فأشهدُ لي .

فأشهدَ له نفرًا من الأنصار ، ومعهم نَفَرٌ من المهاجرين فقال قيسُ : أشهدُ مَنْ تُحِبُّ . فكان فيمن أشهدَ عمرَ بنَ الخطَّاب - رضي الله عنه - ، فقال عمرُ : لا أشهدُ أبداً هذا يدينُ ولا مَالَ له ، إنَّما المالُ لأبيه .

فقال الجهنيُّ : واللهِ ما كان سعدٌ ليُخني - يخفِرُ ذمَّتَه ويسلمه - في أوسقَةٍ من تمر ، وأرى وَجْهاً حَسَنًا ، وفعالاً شريفاً !

وأخذ قيسُ - رضي الله عنه - الجُزُر ، فنحراها لهم في مواطنَ ثلاثة ، كلَّ يوم جزوراً ؛ فلمَّا كان اليوم الرَّابِعُ نهاهُ أميرُهُ ، وقال : تريدُ أن تخفِرَ ذمَّتَكَ ولا مالَ لك ؟ ^(١) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٥ - ١٠٦) ، بشيء من التَّصَرُّف . أفاد

ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي « الفتح » سبب نهى أبي عُبَيْدَةَ قيساً عن الاستمرار في الإطعام =

* وجاء في رواية أخرى عن رافع بن خديج قال : « أقبل أبو عبيدة بن الجراح ومعه عمرُ الفاروقُ - رضي الله عنهما - ، فقال : عزمتُ عليك ألا تنحر ، أتريدُ أن تخفَرَ ذِمَّتكَ ولا مالَ لك ؟

فقال قيسٌ - رضي الله عنه - : أبا عبيدة ، أترى أبا ثابت ، وهو يقضي دَيْنَ النَّاسِ ، ويحملُ الكَلَّ ، ويطعمُ في المجاعة لا يقضي عَنِّي أوسقَةً من تمر ، لقوم مجاهدين في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - ؟ !

فكاد أبو عبيدة - رضي الله عنه - أن يلينَ له ، ويتركهُ ، وجعل عمر - رضي الله عنه - يقول : اعزمْ عليه ؛ فعزمَ عليه ، وأبى عليه أن ينحرَ ، وبقيتْ معه جزوران ، فقدمَ بهما قيسُ المدينةَ ظَهراً يتعاقبون عليهما . وبلغ سعدُ بنُ عبادَةَ - رضي الله عنه - ما كان أصاب المجاهدين من المجاعة ، فقال : إنَّ يَكُ قيسٍ كما أعرف فسوف ينحر للقوم . فلمَّا قدم قيسٌ لقيه سعد فقال : ما صنعتَ في مجاعة القوم ؟

قال : نحرْتُ .

قال : أصبت ، انحر .

قال : ثمَّ ماذا ؟

قال : ثمَّ نحرْتُ .

قال : أصبت ، انحر .

قال : ثمَّ ماذا ؟

= فقال : « وقد اختلفوا في سببِ نهي أبي عبيدة قيساً أن يستمرَّ على إطعام الجيش ، ف قيل : لخشية أن تغنيَ حملتهم ، وفيه نظر ؛ لأنَّ القصةَ أنَّه اشترى من غير العسكر . وقيل : لأنَّه كان يستدينُ على ذمته ، وليس له مالٌ ، فأريدَ الرِّفق به ، وهذا أظهر . والله أعلم . » « فتح الباري » (٧ / ٦٨٣) .

قال : ثُمَّ نَحَرْتُ .

قال : أَصَبْتُ ، انْحَر .

قال : ثُمَّ مَاذَا ؟

قال : نُهِيتُ .

قال : وَمَنْ نَهَاكَ ؟

قال : أَبُو عبيدة بْنُ الْجَرَّاحِ أَمِيرِي .

قال : وَلَمْ ؟

قال : زَعِمَ أَنَّهُ لَا مَالِي لِي ، وَإِنَّمَا الْمَالُ لِأَبِيكَ .

فَقُلْتُ : أَبِي يَقْضِي عَنِ الْأَبَاعِدِ ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَيَطْعُمُ فِي الْمَجَاعَةِ

وَلَا يَصْنَعُ هَذَا بِي !

قال سعد : فَلَكَ يَا بَنِيَّ أَرْبَعَةُ حَوَائِطَ - بَسَاتِينَ - أَدْنَاهَا حَائِطٌ يُجَدُّ خَمْسِينَ

وَسَقًا ، وَقَدَمَ الْبَدْوِيِّ مَعَ قَيْسٍ ، فَأَوْفَاهُ أَوْسَقْتَهُ وَحَمَلَهُ وَكَسَاهُ ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ

فِعْلُ قَيْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ : « إِنَّهُ فِي بَيْتِ جُودٍ » ^(١) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٦) بتصرف يسير . وانظر : « فتح الباري »

(٨ / ٦٨٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٥ - ١٠٦) ، و« المغازي »

(٢ / ٧٧٥ - ٧٧٦) ، و« صفة الصفوة » (١ / ٧١٥ - ٧١٨) ، وغيرهما كثير

ويمكننا أن نستخلص من هذه القصّة النّافعة الماتعة اليانعة الجامعة الفارعة عدّة عبر ،

وعدة دروس مفيدة في الحياة العمليّة والنّفسيّة والاجتماعيّة ، ومنها :

١ - تربية الأولاد على السّخاء والجود منذ نعومة أظفارهم ، وتعويدهم مكارم

الأخلاق وصالحها وهم صغار ، وقد لاحظنا تربية سعد بن عباد لابنه قيس ،

وتشجيعه ليمضي قدماً في منهاج السّخاء والإطعام والجود .

أقول : « للمزيد من هذه الإشراقات النّاعمة المتناغمة اقرأ

كتابنا : (الأطفال والطّفولة بين الأدب والثّقافة ، رؤية إسلامية نفسية) ففيه ما

يسر الفؤاد بإذن الله تعالى .

* ومن الجود - ونحن في رحلة لطيفة مع الجود والأجود - أن نجود
 بهذه القصيدة السخية التي ترسم وتوجز ما أوردناه من قصة سيّدنا
 قيس - رضي الله عنه - ، وكيف نحر الإبل ، وكيف استدانها ، وكيف كان
 موقف سيّدنا عمر ، وأبي عبيدة - رضي الله عنهما - من قيس بن
 سعد - رضي الله عنهما - ، ولن نطيل على القارئ الحبيب ، فلنقرأ هذه
 الأبيات الموقظة المختارة من ديوان « مجد الإسلام » لأحمد مُحَرَّم :

هُم سَادَةُ الْحَرْبِ مِنْ شَيْبٍ وَشَبَانٍ	ساروا سِرَاعاً فما في القوم من وإن
سَرِيَّةُ اللَّهِ تَرْمِي عَنْ يَدَيِّ بَطْلٍ	عالي اللواء رفيع القدر والشأن
أَبَا عُبيدَةٍ أوردَهَا مُظَفَّرَةً	موارد النَّصْر تشفي كلَّ حَرَّانٍ
لا تَبْتَسِنُ بِجَرَابِ الثَّمَرِ يَحْمِلُهُ	أولو الحمية من صحب وإخوان
أَعْجوبةٌ مَالَهَا فِي الدَّهْرِ مِنْ مِثْلِ	لكنَّ رَبَّكَ ذو فَضْل وإحسان
إِنْ يَنْفَدِ الرَّأْدُ أَغْنَاكُمْ وَزَوَّدَكُمْ	ما ليس يَنْقُذُ من تقوى وإيمان
هِيَ الثُّفُوسُ بَنَاهَا اللَّهُ مِنْ شَمَمٍ	نعمَ البناء وجلَّت قدره الباني
وَأَنْتَ يَا قَيْسُ فَاَنْحَرِهَا مَبَارَكَةً	تجني بها الحمدَ يَسْتَعْلِي به الجاني
أَسَدِيَّتَهَا يَا بَن سَعْدٍ خَيْرَ عَارِفَةٍ	جاءت على قَدَرٍ في خيرِ إِيَّانٍ
مَا فِي صَنِيعِكَ مِنْ بَذْعٍ وَلَا عَجَبٍ	قيسٌ ووالدهُ في الجودِ سَيَّانٍ
كَلَاكَمَا وَسِوْفُ اللَّهِ شَاهِدَةٌ	غوثُ اللّهِيفِ وَرَوْحُ البائِسِ العاني
مَا أَقْرَبَ الْحَقِّ مِمَّا يَبْتَغِي عُمَرُ	لو لم تكن لأبٍ للحقِّ صَوَّانٍ

= ٢ - المألّ الحلال الصّالح في يد العبد التّقي الصّالح نعمةٌ كبرى ، يُسهِمُ فيه العبدُ في
 حلّ مُشكلات مَنْ حوله من المعوزين وأصحاب الحاجات ، وهذا ما صنعه
 سيّدنا قيسٌ مع مَنْ حوله في حِلِّهِ وترحاله .

٣ - مشروعيةُ المواسةِ بين الجيش عند وقوع المجاعة ، والاجتماع على الطّعام
 يستدعي البركة فيه .

يقضيه عنك وإن أرييت تجعله
 ما مثل ما قدّمت لله منك يد
 أبا عبيدة لولا أن عزمّت على
 يقول إذ رحّت تنهائه وتمنعه
 أنا ابن سعيد وسعد أنت تعرفه
 يكفي المهم إذا ضاق الكفاه به
 أصنع الصنع محموداً فيخذلني
 لا يُبعد الله منه والداً حديباً
 يا قيس إن رسول الله شاهده
 أبا جهينة عُد في منظر بهج
 عرفت قيساً فتى مجيد ومكرمة
 إذا تدقق دين المرء في دمه

ما تحمل الأرض من إبل ومن صان
 ما قدّم الناس من هدي وقربان
 قيس لأمعن قيس أي إمعان
 أبا عبيدة مهلاً كيف تنهاني
 مولى العشيرة من قاصي ومن دان
 ويُطعم الناس من مثنى ووحدان
 أب أراه لغيري خير مغوان
 سمح الخلائق أرواه ويرعاني
 فعُد نفسك عن وصف وتبيان
 عود امرئ مريح الأعطاف جذلان
 صدقت إنك ذو علم وعرفان
 سرّت معانيه في روح وجثمان^(١)

* وهذه شهادة مختومة بختم يحيى بن سعيد تشهد لسيدنا قيس بن
 سعد - رضي الله عنهما - بأنه كان يجاهد مع رسول الله ﷺ ، ويخرج معه في
 أسفاره ، وكان خلال ذلك السخي المطعام ، يستدين الطعام ليسد به سورة
 جوع المجاهدين في سبيل الله - عز وجل - ؛ فلنسمع إلى يحيى بن سعيد حيث
 يقول : « كان قيس بن سعد بن عبادة - رضي الله عنه - يطعم الناس في أسفاره
 مع النبي ﷺ ، وكانت لقيس بن سعد - رضي الله عنهما - صخفة يدار بها حيث
 دار ؛ وكان إذا نفد ما معه تدنّ ، وكان ينادي في كل يوم : هلموا إلى اللحم
 والثريد » (٢) .

* والله ؛ إن أمة صنعت أمثال هؤلاء الرجال لهي أمة تستحق الإكبار

(١) « ديوان مجد الإسلام » لأحمد محرم (ص : ٥٥٧ - ٥٦٠) بانتقاء .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٧) .

والاحترام ، لا ريب في أنها أمةٌ كريمةٌ متخصصةٌ في صناعة الرجال العالمين العاملين الأعلام :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريراً المجامع

* تابع سيدنا قيس - رضي الله عنه - رحلة الجهاد في جيش رسول الله ﷺ ، فكان معه يوم فتح مكة المكرمة في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وكانت راية الأنصار مع أبيه سعد بن عباد - رضي الله عنه - .

* في تلك الأثناء كان رسول الله ﷺ يحرص على تأمين الجبهة الداخلية في مكة ، ويحرص على حمايتها من التصدع عند دخوله مكة يوم الفتح ، ولهذا فإنه لما بلغته مقالة سعد بن عباد لأبي سفيان - رضي الله عنهما - : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة » قال ﷺ : « ... هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة » (١) .

* ثم إن الحبيب المصطفى ﷺ أخذ الراية من سعد بن عباد وسلمها لابنه قيس بن سعد - رضي الله عنهما - ، وبهذا التصرف الحكيম من نبي الرحمة ﷺ حال دون وقوع أي خلل ، ولم يثر أحداً من أصحابه الأنصار ؛ لأنه ﷺ أخذ الراية من أنصاري ، وأعطاهم لأنصاري وهذا الأنصاري ابن حامل الراية (٢) .

* وفي هذه الواقعة النبيلة تظهر الحكمة النبوية في توجيه السلوك

(١) أخرجه البخاري في المغازي من حديث طويل برقم (٤٢٨٠) .

(٢) جاء الخبر في المغازي يفصح عن التصرف النبوي الحكيम في نزع الراية من سعد بن عباد - رضي الله عنه - ، فقال : « وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله ، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج من سعد حين صار لابنه ، فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمرة من النبي ﷺ ، فأرسل رسول الله ﷺ بعمامته ، فعرفها سعد ، فدفع اللواء إلى ابنه قيس » . « المغازي » (٢ / ٨٢٢) .

البشريّ ، والمحافظة على سلامة النفوس والقلوب ، وتصحيح الخطأ بأسلوب تربويّ ساحر آسر مفيد ، فقد صحّح ما وقع فيه سعد بن عباد من الخلل ، وفي الوقت ذاته تلطّف في نفسيته فأعطى الرّاية لابنه قيس ، وبذلك تمت الأمور على أحسن وجه وأكمّله وأفضله .

* وظلّ قيس - رضي الله عنه - مقيماً على عهد الوفاء والصّفاء إلى أن انتقل النّبئ ﷺ إلى الرّفيق الأعلى وهو راضٍ عن قيس وأبيه ، وتابع قيس المسيرة الصّحيحة في ظلال الخلافة الرّاشدة .

مكانته عند الخلفاء الرّاشدين :

* تذكرُ تواريخُ الإسلام ، وسير أعلام الصّحابة وطبقاتهم ، أنّ وشائج القُرْبى وأواصر النّسب كانت تربطُ بين بيت أبي بكر الصّدّيق ، وبين قيس بن سعد - رضي الله عنهم أجمعين - ، فقد كان سيّدنا قيس متزوّجاً من قريبة بنتِ قحافة ^(١) أخت سيّدنا أبي بكر الصّدّيق - رضي الله عنهم - .

* وثبتَ من خلال الرّواياتِ الصّحيحة في المصادر المعتمدة أنّ قيساً وأباه سعداً قد بايعا الصّدّيق بالخلافة ، كان ذلك لما تكلم أبو بكر - رضي الله عنه - يوم السّقيفة ، وذكر فضّل الأنصار وسابقتهم ومكارمهم فقال : « ولقد علمتم أنّ رسولَ الله ﷺ قال : « لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك النّاس وادياً ، وسلكَتِ الأنصارُ وادياً - أو شعباً - لسلكْتُ وادي الأنصار ، أو شعب الأنصار » ^(٢) . ثم إنّ سيّدنا أبا بكر - رضوان الله عليه - ذكّر سيّدنا سعد بن عباد - رضي الله عنه - بقولِ فضّل ، وحجّة بالغة فقال : « ولقد علمتُ يا سعد أنّ رسولَ الله ﷺ قال وأنتَ قاعدٌ : « قريشٌ ولاةٌ هذا الأمر ، فَبَرُّ النّاسِ تَبَعٌ لِبَرِّهِمْ ، وفاجرهم تبع لفاجرهم » . قال

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٨) .

(٢) أخرجه البخاريّ في التّمنّي برقم : (٧٢٤٤) .

سعدٌ - رضي الله عنه - : صدقت ؛ نحنُ الوزراء ، وأنتم الأمراء ، فتتابع القومُ على البيعة ، وباع سعدٌ - رضي الله عنه - .

* ولسعدٍ - رضي الله عنه - وصيةٌ نافعةٌ لابنه ساقها ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ ونصّها : « يا بني ! أوصيك بوصيةٍ فاحفظها ، فإنَّ أنت ضيعتها فأنتَ لغيرها من الأمرِ أضيع : إذا توضأتَ فأتَمَّ الوضوء ، ثمَّ صَلِّ صلاةَ امرئٍ مودّع ترى أنَّك لا تعودُ ، وأظهرِ اليأسَ من النَّاسِ فإنَّه غثى ، وإيَّاك وطلبَ الحوائجِ إليهم ، فإنَّه فقرٌ حاضرٌ ، وإيَّاك وكلَّ شيءٍ يُعْتَدَرُ منه » (١) .

* كان لسيدنا قيس - رضوان الله عليه - مكانةٌ لا تفتقرُ عند سيدنا عمر وعثمان - رضي الله عنهما - ، ولمَّا كان عهد سيدنا عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - تألَّق قيسٌ - رضي الله عنه - ، وعيَّنه سيدنا عليٌّ على ولاية مصر في مستهلِّ شهر ربيع الأوَّل سنة : (٣٧ هـ) (٢) .

* وعن ولاية قيس بن سعد - رضي الله عنهما - على مصر يقول ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللهُ في « كامله » : « ... بعثَ عليٌّ - رضي الله عنه - قيسَ بنَ سعد أميراً على مصر ، وكان صاحب راية الأنصار مع رسول الله ﷺ ، وكان من ذوي الرَّأي والبأس ، فقال له : سِرْ إلى مصرَ فقد وليتَها ، واخرجْ إلى رحلك ، واجمعْ إليك ثقاتك ، ومَنْ أحببتْ أن يصحبَكَ حتَّى تأتيها ومعك جندٌ ، فإنَّ ذلك أَرعَبَ لعدوك ، وأعزَّ لوليتك ، وأحسنُ إلى المحسن ، واشتدَّ على المريب ، وارفقْ بالعامة والخاصة ، فإنَّ الرِّفقَ يُمنُّ . فقال له قيس أمّا قولك : اخرجْ إليها بجند ، فوالله لئن لم أدخلها إلَّا بجند آتيتها به من المدينة لا أدخلها أبداً ، فأنا أدعُ ذلك الجند لك ، فإنَّ كنتَ احتجتَ إليهم كانوا منك قريباً ، وإن أردتَ أن تبعثَهم إلى وجه من وجوهك كانوا عُدَّة . فخرج

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٩ / ٢٤٥) .

(٢) « التَّجْوِيزُ الزَّاهِرَةُ » (١ / ٩٦) ، و « ولاية مصر » (ص : ٤٤) .

قيس - رضي الله عنه - حتَّى دخل مصر في سبعة من أصحابه « (١) .

* وفي مصر أبدى سيّدنا قيس - رضي الله عنه - ألواناً من التّصرّفات تسفر عن ذكائه وحصافته ، وتدلُّ على أنّه قائدٌ موفقٌ ناجحٌ ، وأميرٌ ذكيٌّ بصيرٌ بخبايا الأمور ؛ إذ استطاع أن يسوسَ البلادَ والنّاسَ بحسن تصرّفٍ ينمُّ عن ذكاء وقاد ، وتجربةٍ خبيرٍ بالعباد ، فإنّه حين توجّه تلقاءً مضرّ كان فيها مجموعةٌ ممن غضبوا لمقتل سيّدنا عثمان واستشهاده ، كما كان فئة اشتركت في قتله ، ولقيت قيساً خيلاً من مصر قبل دخوله إليها ، فقالوا له : مَنْ أنت ؟

قال قيسٌ - رضي الله عنه وأرضاه - : مِنْ فَالَةٍ عثمانَ - رضي الله عنه - ، فأنا أطلبُ مَنْ أوى إليه فانتصر به الله .

قالوا : مَنْ أنت ؟

قال - رضي الله عنه - : أنا قيسُ بنُ سعد بنِ عبادة .

(١) « الكامل في التّاريخ » (٣ / ٢٦٨) . ومن الجدير بالذكر أنّ سيّدنا قيساً - رضي الله عنه - كان يتمتّع بقدرات عالية ، ومزايا مهمّة تؤهّله للقيام بأعباء المهام الجسام ، والأمر العظام ، وتجعل له قبولاً واسعاً في المجتمع عصر ذاك ، فقد كان يُضربُ المثلُ بذكائه وحصافته ، وكان يقول : « لولا أنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « المكرُ والخديعةُ في النّار » لكنتُ أكره هذه الأُمَّة » .

وكان سيّدنا عليٌّ - رضي الله عنه - قد زوّده بتوجيهات جاءت في كتاب تولية مصر الذي فيه : « وقد بعثتُ إليكم قيسَ بنَ سعد فأعينوه على الحقِّ ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشّدّة على مريبكم وهو ممّن أرجو صلاحه ونصيحته » .

فسيّدنا قيسٌ - رضي الله عنه - ذو شخصيّة عسكريّة سياسيّة ، أوتي من الحكمة ، وحسن السّياسة ، وتقدير العواقب ما يجعله من رجال الدّول وقادتها حتّى عدّه المؤرخون وكتّاب السّيرة والتّراجم أحد أذكّاء العرب وأعيانهم فرضي الله عنه وأرضاه وحشرنا في معيته .

قالوا : امض . فمضى قيس - رضي الله عنه - حتّى دخل مصر آمناً دون مناوشاتٍ ، وهذا الموقفُ الذي لقي قيس هو الذي مكّنه من دخول مصر ، ثمّ إنّه أعلنَ بعد ذلك أنّه أميرٌ من قِبَلِ الخليفةِ عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - .

* ولَمّا وصلَ سيّدنا قيسُ بنُ سعدٍ إلى الفسطاطِ صعدَ المنبرَ ، وأخبرَ المصريين بوجهته ، وقرأَ عليهم كتاباً من سيّدنا عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فيه إمارتُهُ على مِصرَ ، ويأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانتته على الحقِّ ، ثمّ قام قيسٌ خطيباً وقال : « الحمدُ لله الذي جاء بالحقِّ ، وأماتَ الباطلَ ، وكبَتَ الظّالِمين ؛ أيُّها النَّاسُ ! إنا قد بايعنا خيرَ مَنْ نعلمُ بعدَ نبيِّنا ﷺ ، فقوموا أيُّها النَّاسُ فبايعوه على كتابِ الله ، وسنّةِ رسوله ، فإنَّ نحنُ لم نعملْ لكم بذلك ؛ فلا بيعةَ لنا عليكم » (١) .

* وقام النَّاسُ ، فبايعوا ، واستقامتْ مصرُ ، وبعثَ عمّاله عليها ، واستطاعَ أنْ ينظّمَ الأمورَ فيها ، فوزّعَ الأمراءَ ، ونظّمَ أمورَ الخراجِ ، وعيّنَ رجالاتَ على الشُّرطةِ ، وأرضى جميعَ الأطرافِ فيها حتّى بعضَ مَنْ عارضَ في أوّلِ الأمرِ .

* وغدا سيّدنا قيس - رضي الله عنه - بمصر يشكّلُ خطراً عسكريّاً على

(١) « الكامل في التاريخ » (٣ / ٢٠١) ، و (٣ / ٢٦٩) ؛ أقولُ : « قول قيس بن سعد - رضي الله عنهما - : فكتب إليهما كتاباً فيه غلظ ، فكتبنا إليه بكتاب فيه عنف ، فكتب إليهما بكتاب فيه لين ، فلما قرأه ، علما أنّهما لا يدان لهما بمكره ، فأذاعا بالشّام أنّه قد تابعنا ، فبلغ ذلك عليّاً - رضي الله عنه - ، فقال له أصحابه : أدركْ مِصرَ فإنَّ قيسَ قد بايعَ معاويةَ . فبعثَ محمّد بن أبي بكر ، ومحمّد بن أبي حذيفة إلى مصر ، وأمر ابن أبي بكر ، فلَمّا قدما على قيس بنزعه ، علم أنّ عليّاً قد خُدِعَ ؛ فقال لمحمّد : يا بن أخي احذر ، يعني أهلَ مصر ، فإنّهم سيسلمونكما ، فتقتلان ، فكان كما قال » . « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٨) .

سَيِّدنا معاوية - رضي الله عنه - في بلاد الشَّام ، ولعلَّ معاوية أوجسَ خيفةً من قيسٍ لِمَا اشتهَرَ عن قيسٍ من حزمٍ ودهاءٍ ، فأخذَ يرأسُ قيساً في مصر مهتداً مرّةً ، محاولاً إغراءه مرّةً أخرى ، وكان قيسٌ واعياً ؛ يجيبه إجاباتٍ في غاية الذِّكاء والحنكة ، بحيثُ جعل سَيِّدنا معاوية غير قادر على تحليل ما ينويه سَيِّدنا قيس - رضي الله عنه - ؛ فأخذ معاوية رضي الله عنه يبحثُ عن مخرجٍ من هذا الأمر الجلل (١) .

* في تبيانِ هذا الأمر وتبيينه ، وإصابته واستيعابه ، يروي لنا محمدُ بنُ يوسفَ الكنديّ في كتابه « ولاة مصر » ، بسندٍ عن يونسَ بنِ يزيد ، عن ابنِ شهاب قال : « كانت مصر من جيش عليّ - رضي الله عنه - ، فأمرَ عليها قيسَ بنَ سعد - رضي الله عنهما - ، وكان من ذوي الرّأي والبأس ، إلا ما غلبَ عليه من أمرِ الفتنة ، فكان معاويةُ وعمرو - رضي الله عنهما - جاهدين أن يخرجاه من مصر ، فغلبَ على أمرها ، وكان قد امتنع منهما

(١) نقل الإمام الذهبي رحمه الله عن ابن عساكر رحمه الله قوله : « كان محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة بن عتبة من أشدهم على عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، فأمر عليّ - رضي الله عنه - قيس بن سعد - رضي الله عنهما - على مصر ، وكان حازماً ، فنبت أنّه كان يقول : لولا أنّ المكر فجور ، لمكرت مكرأ تضطرب منه أهل الشام بينهم . فكتب معاوية وعمرو - رضي الله عنهما - إليه يدعوانه إلى مبايعتهما : « أيّها النّاس ! إنّنا قد بايعنا خيرَ مَنْ نعلم بعد نبيّنا ﷺ » ، فهذا الكلامُ خطير جدّاً ، ولعلّه منحولٌ على سَيِّدنا قيس ومنسوبٌ إليه ، أو لعلّه من وضع بعض المغرضين ؛ إذ إنّ الثّابت المتواتر عند جمهور الأئمة وفقهائها وأكابرها تفضيل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - على الصّحابة أجمعين ، والأحاديث المتواترة ، في تفضيل الشّيخين مشهورة كثيرة تملأُ الخافقين ، وتسري في عروق المحبّين إلى يوم الدّين ، وسَيِّدنا عليّ نفسه قد صرّح بذلك في مواطن كثيرة ، لذلك أحببتُ التّنويه إلى هذا الأمر المهمّ ، مع العلم أنّ سَيِّدنا عليّاً - رضي الله عنه - كان أفضل أهل عصره . والله تعالى أعلم .

بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدر على أن يلجأ مصر ، حتّى كاد معاوية قيساً من قَيْلِ عليّ ، فكان معاوية يحدث رجلاً من ذوي الرأى من قريش ، فيقول : ما ابتدعت من مكايدة قطّ أعجب إليّ من مكايدة كِذْتُ بها قيس بن سعد ، حين امتنع مني قيس ، قلتُ لأهل الشام : لا تسبّوا قيساً ، ولا تدعوا إلى غزوه ، فإنّ قيساً لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته سرّاً ، ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم التّازلين عنده بخربتنا ^(١) ، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسنُ إلى كلّ راكبٍ يأتيه منهم . قال معاوية : وطفقتُ أكتبُ بذلك إلى شيعتي من أهل العراق ، فسمعَ بذلك جواسيس عليّ بالعراق ، فأنهأه إليه محمّد بن أبي بكر ، وعبد الله بن جعفر ، فأتهم قيساً ، فبعث إليه يأمره بقتال أهل خربتنا ، وبخربتنا يومئذ عشرة آلاف ، فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب إلى عليّ : إنّهم وجوه أهل مصر وأشرفهم وأهل الحفظ ، وقد رضوا مني بأن أؤمن سربهم ، وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمتُ أنّ هواهم مع معاوية ، فليست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم ، وهم أسودُ العرب ، منهم بسرُّ بن أبي أرطاة ، ومسلمة بن مُخلّد ، ومعاوية بن حديج ، فأبى عليه إلا قتالهم ، فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب إلى عليّ : إنّ كنتَ تتهمني فاعزلني ، وابعثْ غيري . فبعث الأشتر ^(٢) .

(١) « خربتنا » : قرية من قرى مصر ، كان فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان - رضي الله عنه - .

(٢) « ولاية مصر » (ص : ٤٤ - ٤٥) ، وذكر الكندي أيضاً خبراً مفيداً ما ذكرناه فقال : « لما ثقل مكان قيس على معاوية كتب إلى بعض بني أمية بالمدينة : أن جزئ الله قيس بن سعد خيراً ، فإنّه قد كفّ عن إخواننا من أهل مصر ، الذين قاتلوا في دم عثمان ، واكتموا ذلك ، فإنّي أخاف أن يعزله عليّ إن بلغه ما بينه وبين شيعتنا ، حتّى بلغ عليّاً ، فقال من معه من رؤوساء أهل العراق وأهل المدينة : بدّل قيس وتحوّل ، فقال عليّ : ويحكم ! إنّّه لم يفعل ، فدعوني ؛ قالوا : لتعزلنه فإنّه قد بدّل . فلم يزالوا به حتّى كتب إليه : إنّني قد احتجت إلى قربك ، فاستخلف عليّ =

* ونقرأ قصّة هذا الأمر أيضاً عند الإمام الذهبّي ، فيما لخصّه عن ابن عساكر فقال : « ضبطَ قيسٌ مصرَ ، وكان ممتنعاً بالمكيدة والدّهاء من معاويةَ وعمره - رضي الله عنهما - ؛ أدّر الأرزاقَ عليهم ، ولم يحملْ إلى الشّام طعاماً ، فمكّرنا بعليّ - رضي الله عنه - ، وكتب معاوية كتاباً من قيس إليه ، يذكرُ فيه ما أتى إلى عثمان - رضي الله عنه - من الأمر العظيم ، وإنّه على السّمع والطّاعة ، ثمّ نادى معاوية : الصّلاة جامعةٌ ، فخطب ، وقال : يا أهل الشّام ! إنّ الله ينصرُ خليفته المظلوم ، ويخذلُ عدوّه ، أبشروا ، هذا قيسُ بنُ سعد نائبُ العرب قد أبصر الأمر ، وعرفه على نفسه ، ورجعَ إلى الطّلب بدم خليفتمكم ، وكتب إليّ . فأمر بالكتاب فقرأ ، وقد أمر بحملِ الطّعام إليكم ، فادعوا اللهَ لقيس ، وارفعوا أيديكم ، فعجّوا وعجّ معاويةُ ، ورفعوا أيديهم ساعةً ، فقال معاويةُ لعمره : تحيّنْ خروجَ العيون ، ففي سبع أو ثمان يصلُ الخبرُ إلى عليّ ، فيعزل قيساً ، وكلّ مَنْ وُلّي مصر كان أهونَ علينا . فلمّا وردَ على عليّ الخبر ، دخل عليه محمّدُ بنُ أبي بكر ، والأشتر ، وذمّ قيساً ، وجعل عليّ لا يقبل ، ثمّ عزله ، ووُلّي الأشتر ، فمات قبل أن يصلَ إليها » (١) .

= عملك ، واقدم . فلمّا قرأ الكتاب قال : هذا من مكر معاوية ، ولولا الكذب لكدرت معاوية مكرأيدخل عليه بيته . « ولاية مصر » (ص : ٤٥ - ٤٦) .

(١) « سير أعلام النبلاء » (٩ / ١٠٩) نقلاً عن « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١١١) بتصرف . وزاد ابنُ عساكر على الخبر بقوله : « فتحيتوا خبرَ عليّ ؛ فلمّا وردَ عليه الخبر ، كان أوّل مَنْ حمّله إليه محمّدُ بنُ أبي بكر ، فأخبره بما صنع ورفده الأشتر ، ونالا من قيس ، وقالوا : ألا أستعملت رجلاً له حقّ ، فجعل عليّ لا يقبل هذا القول على قيس بن سعد ، ويقول : إنّ قيساً في سرّ - فضل - وشرف في جاهليّة وإسلام ، وقيس رجل العرب ، فأبى محمّد بن أبي بكر أن يُقصر عنه ، فعزله عليّ » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١١١) .

* قال الذهبي رحمه الله معقباً على هذا الخبر : « قلت : فليل : سُمّ وولّى محمد بن أبي بكر ، فقتل بها ، وغلب عليها عمرو » (١) .

* وقدم سيّدنا قيسٌ - رضي الله عنه - المدينة المنورة بعد أن عزّله سيّدنا عليٌّ عن مصر ، فأرسلت إليه أمنا أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها - تلومهُ وتقولُ له : « فارقتَ صاحبك » . فقال قيسٌ - رضي الله عنه - : « يا أمي ! أنا لم أفارقه طائعا ، هو عزلني » . فأرسلت إليه : يا قيس ! إنني سأكتبُ إلى عليّ في أمرك .

* وراح سيّدنا قيسٌ - رضي الله عنه - إلى أمنا أم سلمة - رضي الله عنها - ، فأخبرها الخبر ، وقصَّ عليها القصصَ من الألفِ إلى الياء ، هنالك كتبت - رضي الله عنها - إلى سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - تخبرُهُ بنصيحةِ قيس وأبيه في القديم والحاضر ، وتلومُهُ على ما صنع ؛ فكتبَ سيّدنا عليّ إلى قيس يعزّمُ عليه إلا لحقَ به فقال قيسٌ كلمةَ خبير بأحوالِ سيّدنا عليّ ومن معه وحولهِ : « والله ! ما أخرجُ إليه إلا استحياء ، وإنّي لأعلمُ أنّه مقتولٌ ؛ معه جندٌ سوء لا نيّةَ لهم » . فقدم على سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - ، فأكرمه ، وحبّاه ، وقربّه ، وأخبره قيسٌ بخبره ، وما كان يعملُ بمصر ؛ فعرفَ عليّ أنّ قيساً كان يداري أمراً عظيماً من المكيدة التي قصّر عنها رأي غيره . وأطاع عليّ قيساً في الأمر كلّهُ ، وجعله على شُرطةِ الخميس الذين كانوا يبايعون للموت . فكتبَ معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن الحكم ، والأسود بن أبي البختريّ يتغيّظ عليهما ، وأنّبهما أشدَّ التأنيب وقال : « أمددتما عليّاً بقيس بن سعد ، برأيه ومكيدته ؟ والله لو أمددتماه بمئة ألف مقاتل ما كان بأغيظ لي من إخراجكما قيس بن سعد إليه » وكان قيسُ بنُ سعد لما قدم المدينة تأمرَ فيه الأسود بن أبي البختريّ ، ومروان بن الحكم أن يُبيّتاهُ فيمن معهما ، وبلغ ذلك

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٩) .

قيساً ، فقال : « وألله إنَّ هذا لقبيح أن أفارق عليّاً ، وإن عزلني ، وألله لألحقنَّ به » (١) .

* وفي شهر رمضان من سنة : (٤٠ هـ) استشهد الخليفة عليّ - رضي الله عنه - بضربة غادرة ، ف قيل له : « ألا توصي ؟ » .
قال - رضي الله عنه - : « ما أوصى رسول الله ﷺ فأوصي » .

فاستخلف النَّاس حينذاك ابنه الحسن بن عليّ - رضي الله عنهما - ،
وقيل : « إنَّ أوَّل مَنْ بايعه : قيسُ بنُ سعد ، عليّ كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ » .

* وكان سيّدنا قيس - رضي الله عنه - في حياة الخليفة عليّ بن أبي طالب يقود أربعين ألفاً من المقاتلين ، ويأتمرون بأمره ، لا يرى المصالحة مع معاوية بن أبي سفيان ، وخشي الحسنُ ألا يوافقه قيس إنَّ هو أقدم عليّ الصُّلح ، فقدَّم عليه في قيادة ذلك الجيش العرمرم سيّدنا عُبيد الله بن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - .

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١١١ - ١١٢) بشيء من التصرُّف .

وذكر ابنُ عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كيف لحقَ سيّدنا قيسُ بنُ سعد ، عليّ بن أبي طالب ، فقال : « وكان قيسٌ - رضي الله عنه - مع عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - في مقدّمته ، ومعه خمسة آلاف قد حلّقوا رؤوسهم بعدما مات عليّ ، فلمَّا دخل الحسنُ بنُ عليّ - رضي الله عنهما - في بيعة معاوية ، أبى قيسُ بنُ سعد أن يدخل ، وقال لأصحابه : ما شئتم ؟ إنَّ شئتُ جالدتُ بكم أبداً حتَّى يموتَ الأعجل ، وإنَّ شئتم أخذتُ لكم أماناً . فقالوا : خذْ لنا أماناً ، فأخذَ لهم : أنَّ لهم كذا وكذا ، ولا يعاقبون بشيء ، وأنا رجلٌ منهم ، وأبى أن يأخذَ لنفسه خاصّة شيئاً ، فلمَّا ارتحل نحو المدينة ومعه أصحابه ، جعل ينحرُ كلَّ يوم جزوراً حتَّى بلغ صِراراً - وصرار موضع على ثلاثة أميال من المدينة المنورة - » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١١٢) .

* وبعد استقرار بيعة الحسن بن عليّ - رضي الله عنهما - ، خرج بمن معه من النَّاس ، وسار حتّى نزل المدائن ، وبعث قيس بن سعد على مقدّمته في اثني عشر ألف رجل ، وأقبل معاوية في أهل الشَّام حتّى نزل مَسْكَن - من أرض السَّواد من ناحية الأنبار - ، وبينما كان الحسنُ في المدائن ، أُشيع أنَّ قيسَ بنَ سعد قد قُتِلَ ، اجترأ النَّاسُ على الحسنِ حتّى نازعوه بساطاً كان تحته ، وقيل : إنَّ رجلاً طعنه بخنجر ، فقال - رضي الله عنه - : « لا خير فيكم ، قتلتم أبي بالأمس ، واليوم تفعلون بي هذا ؟ ! » ثمَّ كتب إلى معاوية .

* وهذا النَّصُّ يبيِّنُ المكانة التي كان يتمتّع بها سيّدنا قيسُ بنُ سعد ؛ إذ كان وجودُهُ أحدَ عوامل استقرار جيش الحسن بن عليّ - رضي الله عنهم أجمعين - .

* وبعد أن تمَّ الصُّلح وفرغ سيّدنا معاوية من هذا الأمر مع سيّدنا الحسن ، اخلولق يراوِدُ سيّدنا قيساً على البيعة ، فأبى قيسُ أن يستجيبَ أو يقرَّ له ، حتّى أرسل معاوية بِسِجِلٍّ قد ختم في أسفلهِ ، فقال : « اكتب في هذا السَّجَلُ فما كتبتَ فهو لك ، فدخل قيسٌ ومنَّ معه في الجماعة ، وبايع معاوية بن أبي سفيان ، ومن ثمَّ ارتحل إلى المدينة المنورة ومعه أصحابه ؛ وأمضى قيسٌ أيامَهُ الأخيرة في المدينة المنورة حتّى وافته المنية في أواخر خلافة سيّدنا معاوية - رضي الله عنهما وأرضاهما - .

نفحات من بلاغته ونظمه :

* يُعَدُّ سيّدنا قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنه - أحد بلغاء الصَّحابة وشعرائهم وفُصَحائهم وأُبيّنائهم في المقال ، بالإضافة إلى ما اشتهر من خصائل في الفعال ؛ تُدنيه من مراتب الكمال .

* وتحفَظُ المصادِرُ التي احتفتُ بترجمة هذا السَّيِّدِ المُسَوِّدِ بنثر الدُّر من شعره الآسر ؛ وكلماته السَّواحر ، ونفحاته اللطيفة التي تنعش القلوب بشذاها ، وتحيي الثُّقوس برياًها .

* استوعب ابن سيّد النَّاس رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ : « منح المَدح » شذرات من شعر سيّدنا قيس - رضي الله عنه - ، وعدّه من شعراء الصّحابة الذين مدحوا الرّسول الكريم ﷺ ، ونقل ابنُ سيّد النَّاس عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : « كان قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - من رسولِ الله ﷺ بمكان صاحب الشُّرطة ، وصَحْبُهُ هو وأخوه سعيّد وأبوهما سعد ، وأعطاه رسولُ الله ﷺ الرّايةَ يومَ الفتح ؛ إذ نزعها من أبيه ، وفي ذلك يقول قيسُ - رضي الله عنه - :

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَا قَيْسُ خُذْ لَوْ أَيْكَ فَطَالَتْ لِيْلَاءُ أُنَامِلِي
وَكَانَ لَوْ سَعِدٍ وَلَكِنْ حَمَلْتُهُ لِسَعِدٍ وَمَنْ لِي لِلْهَوَى غَيْرُ حَامِلٍ
يُرِيدُ بِهَا تَسْكِينُكُمْ وَأَظُنُّكُمْ سَتَهْدُونَ أَمْرًا غِبُّهُ غَيْرُ طَائِلٍ « (١)

* ولسيّدنا قيس - رضي الله عنه - كثيرٌ من المقطعات الشعريّة التي تتناسبُ مع فصاحته وجزالته وشخصيته ، ومنها ما أنشده يوم صفين واللواء بيده ، وهو يقاتلُ في صفِّ أمير المؤمنين سيّدنا عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، ويقول :

هَذَا اللَّوَاءُ الَّذِي كُنَّا نَحْفُ بِهِ مَعَ النَّبِيِّ وَجَبْرِيلُ لَنَا مَدَدُ
مَا ضَرَّ مِنْ كَانَتْ الْأَنْصَارُ عَيْتُهُ أَلَا يَكُونُ لَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحَدُ
قَوْمٍ إِذَا حَارَبُوا طَالَتْ أَكْفُهُمْ بِالْمَشْرِفَةِ حَتَّى يَفْتَحَ الْبَلَدُ « (٢)

(١) « منح المَدح » (ص : ٢٤١) . وقوله « لوا » : لواء ، قصرها لضرورة الشعر .

(٢) « منح المَدح » (ص : ٢٤١ - ٢٤٢) ، و« أسد الغابة » (٤ / ١٢٦) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٢٢١) .

ومن الواضح في سيرة قيس - رضي الله عنه - أنَّ سيّدنا عليّاً - رضي الله عنه - عرف مكانته ، وجعله على مقدمة جيشه ، وقال له : « أقم معي على شُرطي » فشهد مع عليّ صفين ، وبعد التّحكيم ولاه أذربيجان ، والرّاجح أنَّ سيّدنا قيساً بعث نائباً عنه إلى أذربيجان ، وبقي مع سيّدنا عليّ الخليفة الهاشمي ، وشهد معه حرب الخوارج ، =

* وإذا ما استعرضنا الأشعار التي قيلت في صفين ، نجد لسيدنا قيس - رضي الله عنه - نصيباً وافراً منها ، وتذكرُ بعضُ المصادر أنَّ سيدنا قيساً قد شارك في أيام صفين بسنانه ولسانه وكان متحمساً في الحرب ، مؤازراً لأمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ؛ ففي المسير إلى صفين كان قيسٌ - رضي الله عنه - على رجالة أهل البصرة ، وكان له دورٌ مهمٌ في هذه الحرب ؛ إذ أوكلت إليه قيادة بعض العمليات الحربية في بعض أيامها .

* وبلغ من إيمانه بشرعية موقفه أيام صفين ، أنَّ خرجَ مرةً حاسراً عن رأسه وهو يرتجزُ في حماسٍ وإقدام :

أنا ابنُ سعدٍ زانَه عباده والخزرجيون رجّالٌ سآده
ليس فراري في الوغى بَعاده إنَّ الفِرارَ للفتى قِلاده
يا ذا الجلالِ لقني الشهادة شهادة تَبْهَهَا سَعاده
والقتلُ خيرُ منْ عناقِ غاده حتّى متى تُثنى لي الوساده ^(١)

* ولكن هل كل ما نقرؤه من شعرٍ ونظمٍ هو ممّا ندت عنه قريحة قيس ؟ ! إنَّ الشكَّ يكاد يساورنا في نسبة بعض المقطعات المنسوبة إليه ؛ لأنّها خاليةٌ الوفاض من المعنى ناهيك بركاكة المبنى ، وخلو المشاعر منها ، وعدم الترابط بينها .

* وممّا استوعبته المصادرُ في بطونها هذه القصيدة التي زعمت أنَّ قيساً أنشدها يوم صفين ، وخاطب بها سيدنا معاوية - رضي الله عنه - ومطلعها :

يا بنَ هندٍ دع التَّوئبَ في الحر ب إذا نحنُ في البلاد نأينا
نحن من قد رأيت فادن إذا شئتَ بمن شئتَ في العجاج إلينا
* ومنها قوله :

= وأبلى فيها بلاءً مشهوداً . « تاريخ بغداد » (١ / ١٨٧) بشيء من التصريف .

(١) « وقعة صفين » (ص : ٤٢٨) بشيء من التصريف .

لَيْتَ مَا تَطْلُبُ الْغَدَاةَ أَتَانَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ عَيْنَا
 إِنَّنَا إِنَّنَا الَّذِينَ إِذَا الْفَتْ حَ شَهِدْنَا وَخَيْرًا وَحُنَيْنَا
 بَعْدَ بَدْرٍ وَتِلْكَ قَاصِمَةُ الظَّهِ ر وَأُحْدٍ وَبِالنَّضِيرِ ثُنَيْنَا
 وَبِیَوْمِ الْأَحْزَابِ قَدْ عَلِمَ النَّا سُنْ شَفِينَا مِنْ قَبْلِكُمْ وَاشْتَفِينَا^(١)

* وهناك بعضُ المقطّعات في مواطنَ متفرقة^(٢) من كتاب « وقعة صفّين » زعموا أنّها لقيس ، وهي تسفرُ عن شتائم وأهّاج لا ترتقي إلى سُدّة الأدب ، ولا إلى شيء من هذا القبيل ، والمتأمل فيها يجد أنّها لا تعدو عن كونها مهاترات صفيقة ، ومعان غير منسّقة ولا دقيقة .

* كما أنّ هناك قصّة الشعر والسراويل ، وهي قصّة مزعومة فيها شعر مفتعل ، وقد ساق هذه القصّة عدد من المصنّفين كابن عساكر ، وابن تغري بردي ، والذهبي ، والأبشيهي وغيرهم ، ومعظمهم أجمع على بطلانها ، وسنسوقها كما أوردها ابن عساكر وغيره ؛ إذ زعموا : « بأنّ قيصرَ ملك الرُّوم قد بعث إلى سيّدنا معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - : أن ابعث إليّ سراويل أطول رجلٍ من العرب . فقال لقيس بن سعد : ما أظننا إلا قد احتجنا إلى سراويلك . فقام فتنحّى ، فجاء بها ، فألقاها إلى معاوية ، فقال معاوية : رحمك الله ! ما أردتُ إلى هذا ، ألا ذهبتُ إلى منزلك ثمّ بعثتُ بها إلينا ؟ فقال قيس :

أردتُ بها كي يعلمَ النَّاسُ أنّها سراويلُ قيسٍ والوفودُ شهودُ
 وأنّ لا يقولوا غابَ قيسٌ وهذه سراويلُ عاديٍّ نمّته ثمودُ
 وإني من الحيّ اليماني سيّد وما النَّاسُ إلا سيّدٌ ومسودُ

(١) « وقعة صفّين » (ص : ٤٤٧) بانتقاء !!! .

(٢) انظر : « وقعة صفّين » (ص : ٤٤٨ - ٤٥٠) ، ودقق النّظر في الأشعار المنسوبة لقيس تجد زيفها .

فَكَدَّهُمْ بِمِثْلِي إِنَّ مِثْلِي عَلَيْهِمْ شَدِيدٌ وَخَلَقِي فِي الرِّجَالِ مَدِيدٌ

فأمر معاوية - رضي الله عنه - أطول رجل في الجيش ، فوضعها على أنفه فوقعت على الأرض ، فدعا معاوية بسراويل ، فلمّا جيء بها ، قال له قيس : نَحَّ عَنْكَ ثِيَابَكَ هَذِهِ ، فقال معاوية :

أَمَّا قَرِيشٌ فَأَقْوَامٌ مَسْرُولَةٌ وَالْيَثْرَبِيُّونَ أَصْحَابُ التَّبَايِنِ
فقال قيس :

تِلْكَ الْيَهُودُ الَّتِي يَعْنِي بِلَدْتَنَا كَمَا قَرِيشٌ هُمْ أَهْلُ السَّخَاخِينِ ^(١)

* وجاء في رواية أخرى من طريق آخر عند ابن عساكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « أَنْ قَيَصَرَ كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١١٣) ، و« النجوم الزاهرة » (١ / ٩٦) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ١١٢) ، و« المستطرف » (٢ / ٢٠٢) ، و« بهجة المجالس » (٣ / ١٧٠) ، و« وفيات الأعيان » (٤ / ١٧٠ - ١٧١) ، و« الكامل » للمبرّد (١ / ٣٠٨) ، و« المعارف » (ص : ٥٩٣) ، وغيرها كثير . وقد جاء البيت الرَّابِعُ في « بهجة المجالس » على النَّحْوِ الآتِي :

وَبَدَّ جَمِيعَ النَّاسِ أَصْلِي وَمُنْصِبِي وَجَسَمٌ بِهِ أَعْلَوُ الرِّجَالِ مَدِيدٌ
وقال ابن عبد البر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في « بهجة المجالس » (٣ / ١٧١) معلقاً على هذا الخبر : « قلت : أمّا هذا الخبر فمكرر ليس بصحيح ، ولا له أصلٌ ؛ لَأَنَّهُ يَخَالِفُ أخلاق قيس ، وليس فيه كبير فائدة لمنزلته » .

وقال ابن عبد البر أيضاً في « الاستيعاب » (٣ / ٢٢٣) عن بطلان قصّة سراويل قيس ما نصّه : « خبره في السَّراويل عند معاوية - رضي الله عنه - كذب وزور مختلق ليس له إسناد ، ولا يشبه أخلاق قيس ولا مذهبه في معاوية ، ولا سيرته في نفسه ونزاهته ، وهي حكاية مفتعلة وشعر مزوّر ، والله أعلم » . ومعنى قوله « التَّبَايِنِ » : التَّبَانِ : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة . و« السَّخَاخِينِ » : حِساء يؤكل في الجذب .

رجلَيْن : أحدهما : أقوى رجل ببلادي ، وآخر : أطول رجل في أرضي ،
وقد كانت الملوك تتجارى في مثل هذا ، وتحتاجى به ، فأخرج إليهما ممن في
سلطانك من يقاوم كل واحد منهما ، فإن غلبَ صاحبك حملت إليك من المال
وأسارى المسلمين كذا وكذا ، وإن غلبَ صاحباي هادنتني ثلاث
سنين » والقصة كسابقتها مرگبة مفتعلة مزعومة .

من أخبار الساطعة وأقواله النافعة :

* أخبار هذا العلم العيلم أخبار جميلة تعشقها النفوس لحسنها ،
وسلاستها ، ويعشقها أيضاً القُرطاس والقلم ؛ لأنها تصقل القلوب ، وتزيدها
محبة لهؤلاء الصحابة الأخيار ، رهبان الليل وفرسان النهار .

* ضمت أخبار سيدنا قيس كل لطيفة ، وجمعت كل طريفة ؛ فهي تمتع
الأسماع ، وتهذب الطباع ، وتأخذ بالأيدي إلى ينبوع هذا القدوة الباسل ،
ذي المحاسن المتفردة في عالم الفضائل ، وقد حوَّ فيه قول القائل :

حَلَفَ الزَّمانُ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنَيْتُ يَمِينِكَ يَا زَمانُ فَكَفَّرِ

* ولنبدأ هذه الأخبار بهذا الخبر الجميل مع الرجل السخي البدوي
الذي تمتئ قيس أن يكون في حاله ؛ فلنستمع إلى سيدنا قيس - رضي الله
عنه - ، وهو يروي لنا هذا الخبر الماتع فيقول : « تمتئ أن أكون في حال
رجل رأيته ؛ أقبلنا من الشام ، فإذا نحنُ بخباء ، فقلنا : لو نزلنا ههنا ، فإذا
امرأة في الخباء ، فلم نلبث أن جاء رجلٌ بدود - قطع من الإبل - له ، فقال
لامراته : مَنْ هؤلاء ؟

قالت : قومٌ نزلوا بنا .

فجاء بناقة ، فضرب عرقوبيها ، ثم قال : دونكم ، وقال : يا هؤلاء !
انحروها ، فنحرناها ، فأصبنا من أطايبها .

* فلمَّا كان من الغد جاءنا بأخرى ، فضرب عرقوبيها ،
وقال : يا هؤلاء ! انحروها ، فنحرناها ، فقلنا : اللحمُ عندنا كما هو !

قال : إِنَّا لَا نَطْعُمُ أَضْيَافَنَا الْغَآبَ - اللحم البائت - .

فقلتُ لأصحابي : إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ إِنَّمَا أَقْمَنَّا عِنْدَهُ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ بَعِيرٌ ،
فَارْتَحِلُوا بِنَا .

وقلتُ لِقَيْمِي : اجْمَعْ مَا عِنْدَكَ .

قال : لَيْسَ إِلَّا أَرْبَعُ مِئَةِ دِرْهَمٍ .

قلتُ : هَاتِيهَا ، وَهَاتِي كِسُوتِي ، فَجَمَعْنَاهُ .

فقلتُ : بَادِرُوهُ ، فَدَفَعْنَاهُ إِلَى امْرَأَتِهِ ، ثُمَّ سَرْنَا ؛ فَلَمْ نَلْبِثْ أَنْ رَأَيْنَا
شَخْصًا ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟

قالوا : لَا نَدْرِي ! فَدَنَا ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ يَجْرُ رَمَحُهُ ، فَإِذَا
صَاحِبُنَا ، فَقُلْتُ : وَاسْوَأَاتَاهُ ! اسْتَقَلَّ وَاللَّهِ مَا أُعْطِينَاهُ . فَدَنَا ، فَقَالَ : دُونَكُمْ
مَتَاعَكُمْ ، فَخَذُوهُ .

فقلتُ : وَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ ، وَلَقَدْ جَمَعْنَا مَا كَانَ عِنْدَنَا .

قال : إِنِّي وَاللَّهِ لَمْ أَذْهَبْ حَيْثُ تَذْهَبُونَ ، فَخَذُوهُ .

قلنا : فَلَا نَأْخُذُهُ .

قال : وَاللَّهِ لَأُمِئِّلَنَّ عَلَيْكُمْ مَا بَقِيَ مِنْكُمْ رَجُلٌ ، أَوْ تَأْخُذُونَهُ .

فَأَخَذْنَاهُ ، فَوَلَّيْ وَقَالَ : إِنَّا لَا نَبِيعُ الْقِرَى « (١) » .

* وَمِنْ مُسْتَجَادِ فَعَلَاتِ الْأَجْوَادِ ، وَعَيُونِ أَخْبَارِ الْأَسْخِيَاءِ الْأَسْيَادِ ،
مَا رَوَتْ الْمَصَادِرُ عَنِ الْأَجْوَادِ الثَّلَاثَةِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ،

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٨) ، و« سراج الملوك »

(ص : ٢٧٣ - ٢٧٤) ، و« المستطرف » (١ / ٤٨٢) ، وغيرها كثير .

وعرابة بن أوس الأنصاريّ الأوسي^(١) - رضي الله عنهم أجمعين - ،
قالت : « امترى ثلاثة في الأجواد ، فقال رجلٌ : أسخى النَّاس عبدُ الله بن
جعفر بن أبي طالب .

وقال آخر : أسخى النَّاس في عصرنا هذا قيسُ بن سعد بن عبادَة .

وقال الثالثُ : أسخى النَّاس عرابةُ الأوسي .

فتلاحوا ، وأفرطوا ، وكثر ضجيجُهم في ذلك بفناء الكعبة ، فقال لهم

(١) عرابةُ بنُ أوس الأنصاريّ الأوسي الحارثي ، استصغره رسولُ الله ﷺ يوم أحد ، فردّه
مع نفرٍ منهم : ابنُ عمر ، والبراءُ بنُ عازب ، وغيرهما . وكان عرابة - رضي الله
عنه - من سادات قومه ، كريماً جواداً ، كان يقاسُ في الجود بعبد الله بن جعفر ،
وبقيس بن سعد - رضي الله عنهم أجمعين - .

وذكر ابنُ قتيبة ، والمبرّد أنّ عرابةً لقي السَّمَاخ الشَّاعر ، وهو يريدُ المدينة ،
فسأله عمّا أقدمه المدينة ، فقال : أردتُ أن أمتار لأهلي - أبتاع لهم الطَّعام - ، وكان
معه بعيран ، فأوقرهما له تمرّاً ، وبرّاً ، وكساه ، وأكرمه ، فخرج عن المدينة ،
وامتدحه بالقصيدة التي يقول فيها :

رأيتُ عرابةَ الأوسي يسمو إلى الخيراتِ منقطعَ القربين
إذا ما رايةً رفعتُ لمجدٍ تلقّاها عرابةُ باليمين
إذا بلغنني وحملتِ رخلي عرابةُ فاشركي بدم الوتين
« أسد الغابة » (٣ / ٥١٥ - ٥١٦) ، ترجمة رقم : (٣٦٢١) .

وقال سيّدنا معاويةُ لعرابة - رضي الله عنهما - : « بِمَ سَدَّتْ قومك ؟ » .

قال : « لستُ بسيدهم ولكني رجلٌ منهم » . فعزم عليه فقال : « أعطيتُ في
نائبتهم ، وحلّمتُ عن سفيهم ، وشددتُ على يديّ حليمهم ، فَمَنْ فَعَلَ منهم فِعلي
فهو مثلي ، وَمَنْ قَصَّرَ عَنِّي فأنا أفضلُ منه ، ومن تجاوزني فهو أفضلُ مني » .

وقيل في رواية أخرى : « سَدَّتْ قومي بأربع خلال : أنخدعُ لهم في مالي ،
وأذلُّ لهم في عرضي ، ولا أحتقر صغيرهم ، ولا أحسد ربيعهم » . « التذكرة
الحمديّة » (٢ / ٢٥ - ٢٦) .

رجلٌ : قد أكثرتم فلا عليكم ، يمضي كل واحدٍ منكم إلى صاحبه يسأله حتّى ننظرَ ما يعطيه ، ونحكمَ على العيان .

فقام صاحبُ عبد الله بن جعفر ، فصادفَه وقد وضع رجلَه في غرز راحلته يريدُ صنيعَةً له ، فقال له : يا بنَ عمِّ رسول الله ﷺ .

قال : قل ما تشاء .

قال : ابنُ سبيل ، ومنقطعٌ به .

فأخرجَ رجلَه من الغرز وقال : ضَعُ رجلك واستوِ على النَّاقة ، وخذ ما في الحقيبة ، ولا تحد عن السَّيف فإنَّه من سُيوفِ علي بن أبي طالب ، وامضِ لشأنك .

فجاء بالنَّاقة ، والحقيبة فيها مطارف خز ، وفيها أربعة آلاف دينار ، وأعظمها وأجلها خطراً السَّيف .

ومضى صاحبُ قيس بن سعد بن عبادة ، فلم يصادفَه ، وعاد ، فقالت له الجارية : هو نائمٌ ، فما حاجتك إليه .

قال : ابنُ سبيل ، ومنقطعٌ به .

قالت : فحاجتك أيسرُ من إيقاظه ، هذا كيسٌ فيه سبع مئة دينار ، ما في دار قيس مال في هذا اليوم غيره ، وصِرْ إلى معاطن الإبل - مباركها على الماء - إلى مولانا بغلامينا ، فخذ رحلةً مرحلةً ، وما يُصلحها ، وعبدًا ، وامضِ لشأنك .

ف قيل : إنَّ قيساً انتبه من رقدته ، فخبَرته المولاة بما صنعت ، فأعتقها ؛ وقال لها : ألا نبهتني فكنت أزيدُه من عروض - أمتعة - ما في منزلنا ، فلعلَّ ما أعطيته لم يقع بحيث أراد .

ومضى صاحبُ عرابة الأوسيّ إليه ، فألفاه وقد خرج من منزله يريدُ الصَّلَاة ، وهو متوكيٌّ على عبدَيْن ، وقد كُفَّ بصره .

فقال : يا عرابة .

قال : قل ما تشاء .

قال : ابن سبيل ، ومنقطع به .

فخلّى عن العبدَيْن ، ثمَّ صَفَّقَ بيده اليمْنى على اليسرى ، ثمَّ قال : أوه ،
أوه ، والله ما أصبحتُ ، ولا أُمسي وقد تركتِ الحقوقَ لعرابة من مالٍ ، ولكنْ
خُذْهُمَا - يعني العبدَيْن - .

قال : ما كنتُ بالذي أفعل ، أقصُّ جناحَيْك !

قال : إنْ لم تأخذْهُمَا ، فهما حُرَّان ، فإنْ شئتَ فأعتقْ ، وإنْ شئتَ
فخذ .

فأقبل يلتمسُ الحائط بيده . فأخذهما وجاء بهما .

فحكَّم النَّاسُ على ابن جعفر : قد جادَ بمالٍ عظيم ، وأنَّ ذلك ليس
بمستنكر له ، إلا أنَّ السَّيفَ أجْلُها ، وأنَّ قيساً أحدُ الأجواد ؛ حَكَمَ مملوكَةً في
ماله بغير علمه ، واستحسانه ما فعلته ، وعتقَه لها ، وما تكَلَّم به ، وأجمعوا
على أنَّ أسخى الثلاثة عرابة الأوسيّ ؛ لأنَّه جُهدٌ من مُقِلٍّ ^(١) .

* ومن أخبار قيس المتألِّقة في سماء المكارم : تلك المحاورَةُ الغنيَّةُ
بالإباء والشَّجاعة والتي كانت بينه وبين معاوية - رضي الله عنهما - ، وذلك
فيما رواه سعيدُ بنُ عبد الرَّحْمَنِ بن حَسَّان ، قال : « دخل قيسُ بنُ
سعد - رضي الله عنهما - مع رهطٍ من الأنصار على معاوية - رضي الله عنه - ،
فقال لهم معاويةُ : يا معشرَ الأنصار ! بِمَ تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قليلاً
معي ، كثيراً عليَّ ، وأفللتم حدِّي يوم صفَّين ، حتَّى رأيتُ المنايا تلظي في

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٩) ، و « المستجد من فعلات الأجواد »
(ص : ١٢٥) ، و « المستطرف » (١ / ٥١١ - ٥١٣) ، وغيرها .

أستحكم ، وهجوتموني بأشد من وخز الأشافى^(١) ، حتّى إذا أقام الله ما حاولتم مئله ، قلت : ارع فينا وصيّة رسول الله ﷺ ، هيهات ، يابى الحقين العذرة^(٢) .

فقال قيس بن سعد : نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ما سواه ، لا بما تمت به إليك الأحزاب ، وأمّا عداوتنا لك ، فلو شئت كففتها عنك ، وأمّا هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه ، وأمّا استقامة الأمر عليك فعلى كرهه منا ، وأمّا فلنا حدك يوم صفين ، فإنّا كنّا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأمّا وصيّة رسول الله ﷺ بنا فمن آمن به رعاها بعده ، وأمّا قولك : يابى الحقين العذرة ، فليس دون الله يد تحجزك ، فشأنك يا معاوية .

فقال معاوية : سوء ، ارفعوا حوائجكم «^(٣)» .

(١) «الأشافى» : الأشفى : المثقب الذي يخزبه ، وجمعه الأشافى .

(٢) «العذرة» : في المثل : أبى الحقين العذرة ؛ أي : العذر . والعذرة : العذر : وهو مثل يضرب للرجل يعتذر ولا عذر له ، قال أبو عبيد : «أصل ذلك أن رجلاً ضاف قوماً ، فاستسقامهم لبناً ، وعندهم لبن قدحقنوه في وطب ، فاعلوا عليه ، واعتذروا ، فقال : أبى الحقين العذرة ؛ أي : هذا الحقين يكذبكم » .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١١٢ - ١١٣) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ١١١ - ١١٢) . وقول معاوية بن أبي سفيان « سوء . . . » ؛ أي : إنّ سيّدنا معاوية - رضي الله عنه - قد عدّ عتابه لهم سوء ؛ فاعتذر لهم وقضى حوائجهم ، وهذا التصرف الكريم الحكيم يبيّن الضوابط الصّحيحة التي كانت تتحكّم في حياة المسلمين عصر ذاك في خير القرون ، فالحوار موجود ، والعتاب مفتحة أبوابه ، والرجوع إلى الحق هو شعار المسلمين ، وإذا وقع خلاف فيما بينهم ، فإنّ هذا الخلاف لا يفسد الودّ ، وتضبطه قيم شريفة ، فلا يخشون الغدر ، ولا الحقد ، ولهذا نجد سيّدنا قيساً - رضي الله عنه - يقف وهو ثابت القلب والقدم يعبر عمّا يريد =

* ومن أَجَلْ أخبارِ جودِ قيس وأعلاها وأكملها ، ما رواه عروة بن الرُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : « باع قيسُ بنُ سعد مالا من معاويةَ بتسعين ألفاً ، فأمر منادياً فنادى في المدينة : مَنْ أراد القرض فليأتِ منزلَ قيسِ بنِ سعد ؛ فأقرضَ أربعين أو خمسين ، وأجاز بالباقي ، وكتب على مَنْ أقرضه صكّاً ، فمرضَ مرضاً قلَّ عَوَّاده ، فقال لزوجته قريبة بنت أبي قحافة - أخت أبي بكر الصّدِّيق - : يا قريبة ! لمَ تَرَيْنَ قلَّ عَوَّادي ؟

قالت : للذي لكَ عليهم من الدَّين . فأرسلَ إلى كُلِّ رجلٍ بصكِّه « (١) .

* وقال سفيان : « أقرض قيسُ بنُ سعد رجلاً ثلاثين ألفاً فجاء يقضيه ، فقال له قيسٌ : إِنَّا قومٌ إذا أعطينا شيئاً لم نرجع فيه « (٢) . وفي رواية أنّه قال : « إِنَّا لا نعوذُ في شيءٍ أعطيناه » .

* ومن مستجد سخاء سيّدنا قيس بن سعد - رضي الله عنهما - ، ما روي : « أنّ سعدَ بنَ عبادة - رضي الله عنه - قسمَ ماله بين أولاده ، وخرجَ

= أُمّام معاوية - رضي الله عنه - ، ويقف معاوية مدفوعاً بحبائمه ووفائه معتذراً عمّا بدر منه ، ويعبُدُ ذلك هفوة لا يعود لمثلها ، فالحقّ عندهم أحقُّ أن يتبع ، وهم أجمعون إلى الحق يسعون . « الأنصار في العصر الرَّاشديّ » (ص : ٢٠٦) بتصرُّف .

(١) « الاستيعاب » (٣ / ٢٢٣) ، و « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٦ - ١٠٧) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٧ - ١٠٨) ، و « المستجد من فعلات الأجواد » (ص : ١٧٦) ، و « البصائر والدُّخائر » (٤ / ٢٩٨) ، و « سراج الملوك » (ص : ٢٧٦) ، وغيرها كثير . وفي رواية أخرى : « أنّه كانت له ديونٌ كثيرة على النَّاس ، فمرض فاستبطأ عواده ، فقليل له : إنَّهم يستحيون من أجل دينك عليهم . فأمرَ منادياً فنادى : كُلُّ مَنْ كان لقيس بن سعد دين فهو له ، فأتاه النَّاسُ حتّى هدموا درجةً كانوا يصعدون عليها إليه » . وفي رواية : « فكُسرت عتبة بابهِ بالعشي لكثرة العواد » . « الاستبصار » (ص : ٩٨) ، و « منح المدهح » (ص : ٢٤٢) .

(٢) « الإصابة » (٣ / ٢٣٩) ، و « الاستيعاب » (٣ / ٢٢١) .

من المدينة إلى الشَّام ، وتوفي عن حَمْلٍ لم يعلم به ، فلمَّا وُلِدَ جاء أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - إلى ابنه قيس ، وسألاه أن ينقص ما صنع سعدٌ من تلك القسمة ، وقال لقيس : نرى أن تردَّ على هذا .

فقال قيس - رضي الله عنه - لهما : نصيبي للمولود ، ولا أُغيِّر ما صنع أبي ولا أنقضه ^(١) .

* وممَّا يُسَجَّلُ في رصيد سيِّدنا قيس في ميدان البلاغة والفصاحة والحكمة ، أقواله في مختلفِ المجالاتِ الاجتماعيَّةِ والدينيَّةِ والنفسيةِ وغيرها ؛ وينبغي أن نستحضرَ في أذهاننا أنَّ سيِّدنا قيساً كان قارئاً كاتباً ، وكانت القراءةُ والكتابةُ تجعلُ صاحبها يقتربُ من درجةِ الكَمَلَةِ .

* فمن أقوال سيِّدنا قيس الماتعة النَّافعة في فضلِ الولاةِ والأئمةِ إذا عدلوا ما أُثِرَ عنه : « لَيَوْمٍ مِنَ الإمامِ عادِلٌ ، خيرٌ من عبادة رجلٍ في بيته ستين سنة » ^(٢) .

* وفي فضلِ الدُّعاء لطلب الرِّزقِ وصلاح الحال حفظ عنه قوله : « اللهمَّ ارزقني مالاً وفعالاً ، فإنَّه لا تَصْلُحُ الفعال إلا بالمال » ^(٣) .

* وفي المجالِ ذاته عن محمَّد بن سلام قال : كان قيسُ بنُ سعد - رضي الله عنهما - يقول : « اللهمَّ هَبْ لي حمداً ومجداً ، فإنَّه لا مجدَ

(١) « الكامل » للمبرِّد (٢ / ١١٦) ، و« التذكرة الحمدونيَّة » (٢ / ١٠٣) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٧) مع الجمع والتصرُّف . وانظر : « الاستيعاب » (٣ / ٢٢٢) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ، ص : ٩٢ - ٩٣) . أقول : « وهذا من أعلى أنواع الإيثار ومن أجود البرِّ » .

(٢) « سراج الملوك » (ص : ١٤٥) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٧) .

إِلَّا بِفَعَالٍ ، وَلَا فَعَالٍ إِلَّا بِمَالٍ ، اللَّهُمَّ لَا يَصْلُحُنِي الْقَلِيلُ ، وَلَا أَصْلَحُ عَلَيْهِ « (١) .

* وَكَانَ سَيِّدُنَا قَيْسٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بَصِيرًا بِبَوَاطِنِ الْكَلَامِ وَمَوَاطِنِهِ وَمِرَامِيهِ ، فَعَنِ مُوسَى بْنِ عَقَبَةَ قَالَ : « وَقَفْتُ عَلَى قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ عَجُوزٌ ، فَقَالَتْ : أَشْكُو إِلَيْكَ قَلَّةَ الْجِرْدَانِ .

فَقَالَ قَيْسٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الْكِنَايَةَ ! اْمَلُّوْا بَيْتَهَا خَبِرًا ، وَلِحْمًا ، وَسَمْنًا ، وَتَمْرًا » (٢) .

* وَعَنْ هَذَا الْأَمْرِ ذَاتَهُ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَقَصَّتْهُ مَعَ الْعَجُوزِ الَّتِي شَكَتْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي بَيْتِهَا جِرْدٌ - فَقَالَ : مَا أَحْسَنَ مَا سَأَلْتُ ! أَمَا وَاللَّهِ لَا أَكْثَرَنَّ جِرْدَانِ بَيْتِكَ ، فَمَلَأَ بَيْتَهَا طَعَامًا وَوَدَكًا وَإِدَامًا - مَشْهُورَةٌ صَحِيحَةٌ » (٣) .

* وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ الذَّكِيَّةُ أَرَادَتْ أَنْ تَقُولَ لِسَيِّدِنَا قَيْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِأَنَّ بَيْتَهَا لَا يَوْجَدُ فِيهِ طَعَامٌ ، فَهُوَ أَبْيَضُ نَظِيفٌ ، وَلِهَذَا لَا تَدْخُلُهُ الْفُتْرَانُ ، فَأَحْسَنَتِ الْكِنَايَةَ ، وَأَحْسَنَ قَيْسٌ إِلَيْهَا وَأَكْرَمَهَا وَرَفَدَهَا ، وَبَذَلَ وَأَنْفَقَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَأَقْرَضَ اللَّهُ فَرِيحَ بَيْعِهِ ، وَأَثْمَرَ عَمَلَهُ ، وَصَارَتْ سِيرَتُهُ زِينَةُ الْمَجَالِسِ وَنَزْهَتُهَا ، فَأَكْرَمَ بِهِ وَبَسَخَائِهِ ! وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ وَحَشَرْنَا فِي زِمْرَتِهِ .

صَحْبَتُهُ وَمُرُوءَاتُهُ :

* عَلَى الرَّغْمِ مِنْ طَوْلِ صَحْبَةِ قَيْسٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمِلَازِمَتِهِ لِلْمَجَالِسِ

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠٧ / ٢١) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠٧ / ٢١) ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٢٩٠) .

(٣) « الاستيعاب » (٢ / ٢٢٢) .

السَّنيَّة ؛ والمغازي النَّبَوِيَّة ، إلا أنَّه لم يكن من أبناء الصَّحابة المكثرين لرواية الحديث النَّبَوِي ، بل إنَّ مروياته لم تكن سوى بضعة عشر حديثاً ؛ قال عنه الإمام الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ : « له عدَّةُ أحاديث » ^(١) ، بينما حدَّد الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ عددَ مروياته الحديثية فقال : « روى عن رسولِ اللهِ ﷺ ستَّة عشر حديثاً » ^(٢) . أمَّا ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللهُ قال : « روى عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث » ^(٣) . في حين أنَّ ابنَ حجر رَحِمَهُ اللهُ قال : « روى قيسُ بنُ سعد عن النَّبيِّ ﷺ وعن أبيه » ^(٤) ، وفي موضع آخر قال ابن حجر : « روى عن النَّبيِّ ﷺ ، وعن أبيه ، وعبد الله بن حنظلة بن الرَّاهب وهو أصغرُ منه » ^(٥) .

* روى عن قيس أحدُ أكابر علماء الصَّحابة وحُقاظهم المكثرين وهو سيِّدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، وروى عنه عددٌ من جَلَّةِ التَّابعين وعلمائهم وأكابرهم ومنهم : عبد الرَّحْمَنِ بنُ أبي ليلَى ، وعروة بنُ الرُّبَيْر ، وعامرُ السَّعْبِي ، وعَريبُ بنُ حُميد الهمدانيُّ ، وآخرون ^(٦) .

* وقد حدَّث سيِّدنا قيسٌ - رضي الله عنه - بالعراق والشَّام ومصر ، كما اشتغل بالتَّعليم مدَّةً من الزَّمان ، وخاصَّةً مدَّةَ إقامته في المدينة المنوَّرة بعد عام الجماعة ؛ إذ رجَعَ من العراقِ إلى المدينة وأقامَ بها ، إلى أن لقيَ الله عزَّ وجلَّ .

* ومرويات سيِّدنا قيس منثورة في أمَّهات كتبِ الحديث النَّبَوِي ، وفي

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ١٠٢) ، و« تاريخ الإسلام » للذَّهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٢٨٩) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٦١) .

(٣) « أسد الغابة » (٤ / ١٢٦) .

(٤) « الإصابة » (٣ / ٢٣٩) .

(٥) « تهذيب التَّهذيب » (٨ / ٣٩٦) .

(٦) المصادر السابقة كلها مع الجمع بينها والتَّصرُّف اليسير .

مقدّماتها : صحيحا الإمامين الجليلين البخاريّ ومسلم ، وكذلك في المسانيد ؛ وكتب السنن^(١) ، والمستدركات ، وغيرها ممّا يمتّ بسبب أو نسب إلى هذه المصادر المباركة الموثوقة .

* كان سيّدنا قيسٌ - رضوان الله عليه - شديد التمسك بالآثار المحمّديّة ، والسنن النبويّة ، يطبّق ما رآه من رسول الله ﷺ ، فهو أحد من خدّمه عشر سنين كوامل ، وفي هذا الخبر النافع نقراً مصداق ما أوردناه ، فيما أورده ابنُ سعد بسندٍ عن يريم بن سعد قال : « رأيتُ قيسَ بنَ سعد على شُرطة الخميس ؛ قال : ثمّ أتى دجلة فتوضّأ ومسح على الخفّين ، فكأنني أنظرُ إلى أثر الأصابع على الخفّ ، ثمّ تقدم فأَمّ النَّاسَ »^(٢) .

* ومن الأحاديث التي رويت لسيّدنا قيس في الصّحّحين ، حديثٌ مهمٌّ مفيدٌ في باب الجنائز ، وأحكام من قام لجنازة يهودي ، فقد أخرج الشّيخان الجليلان البخاريّ ومسلمٌ - رحمهما الله - ، بسندهما عن عبد الرّحمن بن أبي ليلى قال : « كان سهلُ بن حنيف ، وقيسُ بنُ سعدٍ قاعدَين بالقادسيّة ، فمروا عليهما بجنازة ، فقاما ، فقبل لهما : إنّهما من أهل الأرض - أي : من أهل الدّمة - فقالا : إنّ النّبيّ ﷺ مرّت به جنازةٌ فقام ، فقبل له : إنّها جنازةٌ يهودي ، فقال : « أليست نفساً ؟ »^(٣) .

(١) قال ابن حجر رحمه الله عن مرويات سيّدنا قيس - رضي الله عنه - : « له عند البخاريّ ومسلم في القيام للجنازة ، وعند الترمذي حديثٌ « لا حول ولا قوة إلا بالله » . وقال ابن حجر أيضاً : « قلتُ : وله عند البخاريّ غيره » . « تهذيب التّهذيب » (٣٩٦ / ٨) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٥٣ / ٦) .

(٣) أخرجه الشّيخان في الجنائز ، البخاريّ برقم : (١٣١٢) ، واللفظ له ، ومسلمٌ برقم : (٩٦١) ، وقوله « من أهل الأرض » : قيل لأهل الدّمة أهل الأرض ؛ لأنّ المسلمين لمّا فتحوا البلاد أقروهم على عمل الأرض وحمل الخراج . والقيام للجنازة =

* وفي أحكامِ صومِ عاشوراءِ نستمعُ إلى سيّدنا قيسِ بنِ سعد - رضي الله عنهما - فيما أخرجه عنه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ في « مسنده » قال : « أمرنا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَصُومَ عاشوراءَ قبلَ أَنْ يَنْزَلَ رمضان ، فلمَّا نَزَلَ رمضان لم يأمرنا ، ولم ينهنا ، ونحنُ نفعله » (١) .

* وممَّا رواه أبو داود ، وابنُ ماجه ، وأحمدُ في أدب الاستئذان ، ما أخرجه بسندٍ عن سيّدنا قيسِ بنِ سعد - رضي الله عنهما - قال : « زارنا النَّبِيُّ ﷺ في منزلنا ، فقال : « السَّلَامُ عليكم ورحمةُ الله » فردَّ أبي ردًّا خفيًّا ، فقلتُ : ألا تأذن لرسولِ الله ﷺ ، فقال : ذَرُهُ حتَّى يكثرَ علينا من السلام ، فقال ﷺ : « السَّلَامُ عليكم ورحمةُ الله » فردَّ سعدُ ردًّا خفيًّا ، ثم قال ﷺ : « السَّلَامُ عليكم ورحمةُ الله » ثمَّ رجعَ ، فاتَّبعه سعد فقال : يا رسولَ الله ! إنِّي كنتُ أسمعُ تسليمك وأردُّ عليك ردًّا خفيًّا لتكثرَ علينا من السلام ، فانصرفَ معه النَّبِيُّ ﷺ ، وأمرَ له سعدٌ بِغُسْلٍ فاغتسلَ ، ثمَّ ناوله ملحفةً مصبوغةً بزعفرانٍ أو ورس ، فاشتملَ بها ، ثمَّ رفعَ يديه وهو يقولُ : « اللهمَّ اجعلْ صلواتك ورحمتك على آلِ سعدِ بنِ عبادَةَ » ، ثمَّ أصابَ من الطَّعام ، فلمَّا أرادَ الانصرافَ قرَّبَ له سعدٌ حماراً قد وُطِّأَ عليه بقطيفة . فقال سعدٌ : يا قيسُ اصحبْ رسولَ الله ﷺ ، فصحبتهُ ، فقال لي : « اركبْ معي » فأبيتُ فقال : « إمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ » . فانصرفْتُ » (٢) .

= هو قيامٌ للفرع من الموت ، وفيه تعظيمٌ لأمرِ الله - عزَّ وجلَّ - ، وتعظيمٌ للقائمين بأمره في ذلك وهم الملائكة . والله أعلم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » (٥ / ٢٧٣) ، برقم : (١٥٤٧٧) ، ورواه ابن عساكر من طريق أحمد (٢١ / ١٠٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٢ / ٧٠٤) ، وابن ماجه في الطهارة برقم : (٤٦٦) ، وفي اللباس برقم : (٣٦٠٤) ، وأحمد في « المسند » (٥ / ٢٧٣) ، برقم : (١٥٤٧٦) . وقوله « ذَرُهُ » : اتركه على حاله . و« حتَّى يكثرَ » : يقصدُ =

* ونرتوي من عند الترمذي في أبواب الدَّعوات - وبالتَّحديد في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله - هذا الشَّراب السَّائغ الطَّيِّب المبارك المفيد في الدَّارين .

* أخرَجَ التَّرمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِسندٍ عن ميمون بن أبي شبيب ، عن قيس بن سعد بن عبادة : « أَنَّ أباه دفعه إلى النَّبِيِّ ﷺ يخدمه ؛ قال : فمرَّ بي النَّبِيُّ ﷺ وقد صليتُ ، فَضَرَبَنِي برجله ، وقال : « أَلَا أدلَّكَ على بابٍ من أبواب الجَنَّة ؟ » .

قلتُ : بلى .

قال : « لا حول ولا قوَّة إلا بالله » (١) .

= سيّدنا سعد بن عبادة من ذلك التَّيَمَّن والتَّبرَّك بتسليم النَّبِيِّ ﷺ . و« غُسل » : الماء الذي يغتسل به . و« الملحفة » : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه . و« الورس » : نبتٌ أصفر يصبغ به . و« أصاب » : أخذ منه وتناول . و« وطأ عليه » : هَيَأَ ومُهَّد .

(١) « تحفة الأحوذِي » (١٠ / ٤١) ، حديث رقم : (٥٦٥٢) ، وأخرجه أحمد (٥ / ٢٧٤) ، برقم : (١٥٤٨٠) ، والحاكم (٤ / ٣٢٣) ، برقم : (٧٧٨٧) ، وقال الحاكم : « هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . وقال : « وكان القصْدُ من ذكره - أي : الحديث - في هذا الموضع - أي : كتاب الأدب - أَنَّ الوالدَ له مباحٌ أن يخدم ولده ، ثمَّ للموهوب له الخدمة أن يستخدم منه ، ثمَّ يعرف من فضل قيس بن سعد - رضي الله عنه - أنه خدم النَّبِيَّ ﷺ حتَّى صار منه بمنزلة صاحب الشَّروط ، ثمَّ لم يفارق أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - في السَّراء والضَّراء إلى أن استشهد بين يديه يوم صفين » المستدرک (٤ / ٣٢٣) .

أقول : « لعلَّ الحاكم قد وهم في أنَّ سيّدنا قيساً قد استشهد بين يدي سيّدنا عليٍّ يوم صفين . والصَّحيح أنَّ سيّدنا قيساً توفي أواخر خلافة سيّدنا معاوية - رضي الله عنه - حوالي سنة : (٥٩ هـ) في المدينة المنورة والله تعالى أعلم » .

* ومن مرويات سيّدنا قيس في « المستدرك » فيما يتعلّق بحق الرّجال على نسائهم ما أخرجه الحاكم بسندٍ عن الشعبيّ ، عن قيس بن سعد - رضي الله عنه - قال : « أتيت الحيرة ، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فقلت : رسول الله ﷺ أحقّ أن يسجد له ؛ فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنّي أتيت الحيرة ، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت رسول الله أحقّ أن يُسجد لك .

قال : « رأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟ » .

قلت : لا .

قال : « فلا تفعلوا ، لو كنتم أمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهنّ لما جعل الله لهم عليهنّ من حقّ » (١) .

* وفي خطورة الكذب وجسامته على الصّادق المصدق ﷺ كان سيّدنا قيس - رضي الله عنه - يحدث وهو والي على مصر ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ كَذِبَةً متعمداً ، فليتبوأ مضجعاً من النَّار ، أو بيتاً في جهنّم » (٢) .

* إنّ مرويات سيّدنا قيس متنوّعة وهي مبثوثة في مصادر ترجمته ، وفي كتب الحديث المتخصّصة ، وقد أوردنا شطراً منها لتوضّح شخصيته في

= أمّا معنى قوله « لا حول ولا قوة إلا بالله » : فقال التّوحيّ رحمه الله : « هي كلمة استسلام وتفويض ، وأنّ العبد لا يملك من أمره شيئاً ؛ وليس له حيلة في دفع شرّ ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى » .

قال المناوي رحمه الله : « لما تضمّنت هذه الكلمة براءة النّفس من حولها وقوتها إلى حول الله وقوّته كانت موصلة إليها ، والباب ما يتوصّل منه إلى المقصود » .

(١) « المستدرك » (٢ / ٢٠٤) ، برقم : (٢٧٦٣) .

(٢) « المسند » (٥ / ٢٧٤) ، حديث رقم : (١٥٤٨٢) .

الأذهان ، ونعرف جوانبها وأبعادها ، ونستخرج من أغوارها الدُرَّ المفيدَ لنستفيدَ منه في ديننا ودنيانا ، ونسيرَ على هُديِهِ وهدي أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

* عاشَ سيّدنا قيسٌ - رضيَ اللَّهُ عنه - زمناً طويلاً ، وأغلبَ مَنْ تصدَّى لترجمتهِ أشارَ إلى أنّه توفي في أواخر خلافة سيّدنا معاوية سنة : (٥٩ هـ) .

* قال ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره : « لزم قيسُ المدينة ، وأقبلَ على العبادة ، ولم يزل مقيماً بالمدينة حتّى توفي في آخرِ خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ستّين هجرية ، وقيل : سنة تسع وخمسين ، ولم يكن في وجهه لحيةٌ ، ولا شعراً ، وكانتِ الأنصارُ تقول : ودّنا أنْ نشترى لقيسَ لحيةً بأموالنا » ^(١) .

* رضيَ اللَّهُ عن سيّدنا قيسِ بنِ سعد الجواد ابن الجواد ، وأدخلنا برحمته في جنّة عرضها الأرض والسّموات ، ورزّقنا حُسْنَ الخاتمة ؛ ولا حول ولا قوّة إلا باللّهِ .



(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٢١ / ١٠٣ - ١٠٤) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٦١ - ٦٢) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ١١٢) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٢١٨ - ٢١٩) ، و« أسد الغابة » (٤ / ١٦٠) وغيرها كثير .

معاذُ بنُ عمرو بن الجموح

رضي الله عنهما

- * من أهلِ العقبة وبَذَر ؛ وقاتل أبي جهل فرعون الأُمّة .
- * كان السَّبَبَ الرَّئِيسَ في إسلام أبيه عمرو بن الجموح .
- * توفي في خلافة عثمان ؛ وكان من سادة أبناء الصَّحابة .

معاذُ بنُ عمرو بنِ الجَمُوحِ رضي اللهُ عنهما

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ :

* قَدِمَ الْفَتَى الْمَكِّيُّ مَصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةَ سَفِيرًا حَصِيْفًا ، وَمَعْلَمًا لَطِيفًا ، وَمُقَرَّرًا أَلِفًا ، فَشَرَعَ يَقُومُ بِمَهْمَّتِهِ أَحْسَنَ قِيَامٍ ، وَاسْتَطَاعَ بِفَضْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَجْتَذِبَ إِلَى ظِلَالِ الْإِسْلَامِ وَدَوْحَتِهِ صَفْوَةَ شَبَابِ الْأَنْصَارِ وَرِجَالِهِمْ ، فَكَانَ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَمَحَالَّتِهِمْ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ، فَيَسْلُمُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَانِ ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْتَذِبَ رِئِيسَ الْأَنْصَارِ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ ، وَكَذَلِكَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ الْأَوْسِيِّ ، فَفَشَا الْإِسْلَامُ فِي جَنَابَاتِ الْمَدِينَةِ ، وَانْتَضَمَ فِي سُلُوكِهِ بَضْعَةُ شَبَابٍ كَانُوا الْمَصْبَاحَ الْمَضِيءَ فِي تَارِيخِ الْأَنْصَارِ ، وَمِنْهُمْ الْفَتَى الشَّابُّ مَعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ الْأَنْصَارِيِّ ^(١) الْخَزَرَجِيُّ السُّلَمِيُّ الْمَدَنِيُّ الْبَدْرِيُّ الْعَقْبِيُّ قَاتِلَ أَبِي جَهْلٍ عَمْرٍو بْنِ هِشَامٍ .

* كَانَ مَوْلَدُ هَذَا الْفَتَى الشَّابِّ فِي طَبِيبَةِ الطَّيِّبَاتِ ، مَوْطِنِ الْمَكْرَمَاتِ

(١) « السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ » لابن هشام (الفهارس : ١ / ٧٨٦) ، و« المغازي » (الفهارس : ٣ / ١٢٣٨) ، و« سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٤٩ - ٢٥٢) ، و« الاستبصار » (ص : ١٥٤ - ١٥٦) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٤٢٦ - ٤٢٧) ، ترجمة رقم : (٤٩٦٢) ، و« معرفة الصحابة » (٤ / ١٩١ و ١٩٢) ترجمة رقم (٢٥٨٠) ؛ و« الاستيعاب » (٣ / ٣٤١ - ٣٤٣) ، و« الإصابة » (٣ / ٤٠٩) ، و« البداية والنهاية » (٣ / ١٦٦ - ٢٨٧) ، وغيرها من مصادر شتى .

والبركات ؛ وما أن سمعَ بمصعبِ الخير يدعو إلى الجنّات ، حتّى سارع وآمن برَبِّ الأرض والسّموات ، ومن ثمّ كان السّبب في إسلام أبيه عمرو وإخراجه من كهوف الظّلّمات ، وساعدهُ على ذلك فتيةٌ من الشّباب المخلصين ، الذين آمنوا برَبِّ العالمين ، وبايعوا في بيعة العقبة بيعة الصّادقين ، فربح بيعهم فَنِعْمَ أجر المبايعين ! !

* ومن معالي الشّرف ، وشرفِ المعالي أنّ معظمَ الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعة العقبة الكبرى كانوا فتيةً في عمر الورد ، وألّقى الشّباب ، وفتون الجمال ، وقد لفت نظر سيّدنا العبّاس بن عبد المطلب ^(١) أنّ شطراً كبيراً من السّبعين أصحاب البيعة من خيرة شباب الأنصار ، وقال ليلَتها لابن أخيه النّبّي المختار ﷺ : « ما أدري ما هؤلّاء القوم الذين جاؤوك ؟ إنّي ذو معرفةٍ بأهل يثرب ، هؤلّاء قوم لا أعرفُهم ، هؤلّاء أحداث » وهذا يشير إشارة واضحةً إلى أنّ أغلبية المبايعين كانوا شباباً ، من أعمار متقاربة ، لذلك لم يعرفهم العبّاس وهو التّاجر الماهر الذي يعرفُ أغلبيةَ أهل المدينة من كبار التّجار .

* ولا ريب في أنّ الشّباب ^(٢) والفتيان مصدرُ قوّةٍ لأيّ أمةٍ ، ومنجم طاقتها الكامنة الغنيّة ، فإنّ حَسَنَ أمر الشّباب وصلاح ، فهذا يبشّرُ بأمةٍ قويّةٍ عاملةٍ تحتلُّ مكانةً لائقةً بين الأمم الأخرى ، وإنّ فسَدَ الشّبابُ وانشغل بالحضارةِ المجلوبة ، والزّخارفِ العجفاء المجبوبة ؛ فذلك نذيرٌ هَدْمٌ للأمةِ ومبعثُ هلاكٍ ودمارٍ ، لا تقومُ لها قائمة ولا يقرّ لها قرار .

(١) اقرأ دور سيّدنا العبّاس يوم العقبة ، وسيرته الموثقة كاملة في الباب الأوّل من كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ١٢٣ - ٢١٠) ، فسيرته سجلٌّ حافلٌ بالأحداث المطربة .

(٢) اقرأ كتابنا : « الشّباب : مشكلات وحلول » ؛ حيث تجدُ صوراً متألّقة للشّباب الذين عاشوا وهم مستنيرون بسناء الإسلام وسائرون على نهجه ، فكانوا من الخالدين .

* من هذه البدايات السَّاطعة ، والأساسات الجامعة ، حرصَ الإسلامُ الحنيفُ على تنشئة فتِيانهِ على قواعدٍ سليمةٍ سُدَّها حبُّ الله - عزَّ وجلَّ - ، ولحمَّتْها نصرَةُ دينهِ ، فصاروا بِنِعْمِهِ مَفاتيحَ نصرٍ سديدةٍ ، وسُبلَ سلامٍ رشيدةٍ ؛ ففتحوا العالمَ بتربيتهم الفريدة ، وأعمالهم المجيدة ، وكان سيِّدنا الفتى النَّجيبُ معاذُ بنُ عمرو بن الجموح من شباب الإسلام الذين أثَّروا بمواقفهم النَّبيلة ؛ وأعمالهم الجليلة ؛ صحائف العطاء والجهاد الجميلة .

دعوة أبيه إلى الإسلام :

* عاد سيِّدنا معاذ - رضي الله عنه - من موسم الحجِّ بعد أن شهد العقبة وبايعَ رسولَ الله ﷺ ، عاد وهو يحملُ بين جنبيه نفساً صافيةً ، وقلباً شُغفَ بمحبَّة الهادي البشير ؛ والسَّراج المنير ؛ رسولَ الله ﷺ الذي أخرج الأنصار من الظُّلماتِ إلى النُّور .

* قدم هؤلاء أجمعون المدينةَ بعد أن بايعوا رسولَ الله ﷺ على حربِ الحُمُرِ والسُّود ، وبعد أن قطعوا حبالَ الوَدِّ والمعاملة والحلف والمواثيق مع اليهود ، وضمن لهم الحبيبُ المصطفى ﷺ رضوانَ الله - عزَّ وجلَّ - جنَّاتِ الخلود . وفي المدينة أظهروا الإسلامَ بها إظهاراً كلياً وتجاهروا به في أحيائهم وقبائلهم ، بيد أنَّه ظلَّ في قومهم سادةٌ كبراءَ ظلُّوا مقيمين على دينهم ، وكان من هؤلاء الذين بقوا على شركهم عمرو بنُ الجموح الخزرجيُّ الأنصاريُّ السُّلميُّ الغنميُّ ، وهو من مشاهير بني سَلِمة وأعلامهم ، وكان ابنُه معاذُ بنُ عمرو قد شهد العقبة ، وبايعَ رسولَ الله ﷺ بها .

* كان عمرو بنُ الجموح سيِّداً مرموقاً من ساداتهم ، وشريفاً معروفاً من أشرافهم ، وعلى الرَّغم من أنَّه سمعَ كثيراً عن الإسلام ، إلا أنَّه لم يستجب لأنواره ، ولم يهتدِ لأسراره ، وكان لِشِدَّة شغفه بالأصنام قد اتَّخذ في داره صنماً من خشب يُقال له : « مَناة » - لأنَّ الدِّماء كانت تمنى ؛ أي : تصبُّ عنده تقرباً إليه - وكان يعظِّمُه ، ويطهِّره ، ويحتفي به احتفاءً شديداً ، ويبالغ في

ذلك ؛ فلما أسلم فتیان بنی سلمة : معاذُ بنُ جبل ^(١) ، وابنه معاذُ بنُ عمرو في فتیان منهم ممّن أسلم وشهد العقبة ، كانوا يدخلون ليلاً على صنم عمرو الأثير ، فيحملونه ، ومن ثمّ يطرحونه منكساً على رأسه ، في بعض الحفر القدرة الثّنية لبني سلّمة ، وعندما يصحو عمرو من نومه ؛ يتفقّد صنمه فلا يجده ، فيقول متعجباً متوجّساً خيفةً : « ويلكم ! منّ عدا على آلّهتنا في هذه الليلة ؟ » ثمّ يشرع يلمسه ، حتّى إذا وجده منكساً قد تعلّقت به الأقذار حملهُ فعاد به ، ثمّ غسله ، وطهّره ، وطيّبه ، ثمّ يقول مُقسماً ومهدّداً : « وايم الله ! لو أنّي أعلمُ منّ يصنع بك هذا لأخزيته » . فإذا ما أمسى عمرو ونام ، وتجلّبّب الكون بالظلام ، قام الفتية المؤمنون فعدوا على الصّنم الأثير ، وفعلوا به ما استطاعوا من التّحقير ، فلما أكثروا عليه ذلك ؛ اخلولقت مادة الإسلام تنسجُ خيوطها أمام بصيرته ، وعندئذ ذهب عمرو بنُ الجموح ، فاستخرج صنمه مناة من حيث ألقوه ، ثمّ غسله وطهّره وطيّبه ، وجاء بسيفه فعلقه في عنقه ، ثمّ قال : « إنّني والله ما أعلمُ منّ يفعل بك ما نرى ، فإن كان فيك خيرٌ ، فامتنع ؛ فهذا السّيفُ معك » . فلما أمسى عمرو ؛ واستسلم إلى التّوم ، جاء ابنه معاذُ ومنّ معه ، فعدوا على الصّنم ، فأخذوه ، والسّيفُ في عنقه لا يغني عنه شيئاً ، فأخذوا السّيف ، ثمّ أخذوا كلباً ميتاً إمعاناً في السّخرية ، فقرنوه معه بحبل ، ثمّ ألقوهما في بئر من آبار بني سلّمة فيها قذارات النّاس ، فلما أصبح عمرو بنُ الجموح غدا على صنمه ، فلم يجده في مكانه الذي كان فيه ، فخرج في طلبه حتّى وجده في تلك البئر مقروناً بكلب ميت ؛ فلما رآه كذلك وأبصر شأنه ، رجّع إلى عقله ، وثاب إلى رشده ، وكان ابنه معاذ يرقبه عن جُنُب وهو لا يشعر ، فجاء معاذ ونفّر من شباب قومه ورجالهم ممّن أسلموا ، فكلّموا عمراً وبيّنوا له محاسن الإسلام ،

(١) اقرأ سيرة إمام العلماء سيّدنا معاذ بن جبل في الباب الرّابع من كتابنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٧٦٩ - ٨١٧) ففي سيرته بدائع من الفوائد ؛ تشرّي محبي الصّحابة بالمعرفة والمحامد .

وسفاهة الأصنام ، فنطق عمرو بشهادة التَّوْحِيد ، وأخلص للعزیز الحمید ،
وقال يذم صنمه البليد ، ويشكر الله الذي خلصه من الضلال البعيد :

تالله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلبٌ وشطٌ بئرٍ في قرن
أفٍ لملقاك إلهاً مستدن الآن فتشاك عن سوء الغبن
الحمد لله العلي ذي المنن الوهاب الرزاق ديان الدین
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبرٍ مرتهن^(١)

(١) انظر : « البداية والنهاية » (٣ / ١٦٥ - ١٦٦) ، و « السيرة الحلبية »
(٢ / ١٨٠) ، و « دلائل النبوة » للأصبهاني (١ / ٤١١ - ٤١٣) ، و « السيرة
النبوية » (١ / ٤٥٢) ، و « صفة الصفوة » (١ / ٦٤٣ - ٦٤٥) مع الجمع
والتصرف . ومعنى قوله « قرن » : حبل . و « مستدن » : من السدانة وهي خدمة
البيت وتعظيمه . وقال أبو ذر الخشني في « شرح السيرة النبوية » : مستدن : دليل
مستعبد . و « الغبن » : سوء الخديعة . و « المنن » : جمع المنة : الإحسان
والإنعام . و « الدین » : جمع دينة : وهي العادة . ولعله أراد
ب : « الدين » : الأديان . و « أنقذني » : خلصني . و « مرتهن » : مقيد ومحبوس
لا يستطيع عمل أي شيء .

وما أجمل أن نقرأ هذه الهمسات الطيبة التي تبين إسلام عمرو بن الجموح ،
ودور ابنه معاذ بن عمرو في بث الإسلام بنفس أبيه :

فتيان يشرب والكهول غداً جميعاً مسلمين
لكن عمرو بن الجموح فظلاً ضمن المشركين
في بيته صنمٌ ويعكف عنده كالعاكفين
أما ابنه يُسمى معاذاً كان بين السابقين
في البيعة الكبرى فكان مباعاً في المؤمنين
هكذا معاذ معه بعض الفتية المتحررين
ألقوا بصنم ابن الجموح على القذارة عامدين
قد غاظ عمرأ كونه بين القذارة قد أهين
لم يستطع عن نفسه دفعاً ولا قولاً يُبين

* وفي بيان وتبيين دور سيّدنا معاذ في إسلام أبيه نقرأ ما مفاده عند أبي نعيم الأصبهانيّ في « دلائله » ؛ حيث قال : « لَمَّا أَسْلَمَ فُتَيَانُ بَنِي سَلْمَةَ ، أَسْلَمَتِ أُمْرَأَةُ عَمْرُو بْنِ الْجُمُوحِ وَوَلَدَهُ أَجْمَعُونَ : معاذ ، ومعوذ ، وخلّاد ، وعبد الرّحمن ، وابنته هند ، فقال لامرأته هند بنت عمرو بن حرام : لا تدعي أحداً من عيالك حتّى ننظرَ ما يصنع هؤلاء .

قالت هند امرأته : أفعلُ إنّ شاء الله ، ولكن هل لك أن تسمع من ابنك معاذ أو فلان ما روى عنه ؟

فقال عمرو وهو متوجّسٌ خيفةً من انحراف ابنه عن الأصنام : لعلّ ابنتنا صباً ، وركنَ إلى هؤلاء ؟

قالت هند : لا يا بن عمّ ، ولكنّه كان مع القوم يسمرون ويتناشدون شيئاً من الأشعار والأخبار ، و

بيد أنّ عمرو بن الجموح لم تطمئنّ نفسه إلى ما تحدّثه به زوجه هند ، وأخذت الطُّنونُ تعبُثُ به ، وتسخرُ منه ، وراح يحدث نفسه : لعلّ هنداً صباً أيضاً ؟ ! ثمّ ثابَ إلى رشدِه ، فأرسلَ إلى ولده فقال : يا بني ! علمت أنّك تذهبُ إلى هذا الرّجل ، فأخبرني ما سمعتَ من كلامه . وشرع ابنه يتلو آياتٍ من القرآن والذّكر الحكيم بصوتٍ مؤثّر فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ ١ 〉 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٢ 〉 الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿ ٣ 〉 مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ٤ 〉 إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿ ٥ 〉 أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ١ - ٦] . فقال عمرو لابنه وقد ظهرت على قسماتِ

عمرو يقول له فما لك لا تكفّ المعتدين
إن لم تكفّ القومَ إني لاحقٌ بالآخرين
قد كرّروا إلقاءه بين القذارة ساخرين
عمرو يقول بغضبة بئس الإله المستكين
وانضمّ للإسلام فوراً واهتدى في المهتدين

وجهه علامات الرضا : ما أحسن هذا الكلام وأجمله يا بني ! ثم أردف قائلاً : أكلُ كلامه مثل هذا الكلام الجميل اللطيف ؟ - وكان عمرو بن الجموح فصيحاً شاعراً يدرك مرمى الكلام ، ويتذوق معانيه ، وينسجم مع مغانيه - .

قال ابنه وقد أدرك أن أباه انسجم مع القرآن الكريم : نعم يا أبتاه ، وأحسن من هذا ، فهل لك أن تذهب إليه ، فتبايعه ، فتنعم بنعيم الإسلام ؟ قد صنع ذلك عامة قومك .

قال عمرو : يا بني ! لست فاعلاً حتى أوامر مناة وأشاورة وأنظر ما يقول .

فأتاه وأقام عنده ، فتشكر له ، وأثنى عليه ، وقال : يا مناة تشعر أنه قد سبل بك وأنت غافل ، جاءنا رجل - المراد بالرجل : رسول الله ﷺ ، أو مصعب بن عمير رضي الله عنه - ينهانا عن عبادتك ، ويأمرنا بتعطيلك وترك عبادتك ، فكرهت أن أبايعه حتى أوامرك ، وخاطبه عمرو طويلاً ، فلم يرد عليه . فقال : أظنك قد غضبت ، ولم أصنع بعد شيئاً ، ولم أمتثل أمره في أي شيء حتى الآن ، ولكن مناة لم يخاطبني ، فقام إليه فكسره ، وجعله جذاً مبعثراً على الأرض ، وأيقن تمام اليقين أنه كان من صنمه في غرور ، فأسلم إسلام الموقنين أمام ابنه وزوجه ، وقومه ، وعندما رسخ في الإسلام ، أنشأ يقول وهو يذكر صنمه ، وما أبصر من أمره ، ويحمد الله ويشكره ؛ إذ أنقذه ممّا كان فيه من العمى ، وهداه إلى الحق بعد الضلالة والردى :

أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا مَضَى	وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَنْ نَارِهِ
وَأُثْنِي عَلَيْهِ بِنِعَمَائِهِ	إِلَى الْحَرَامِ وَأَسْتَأْذِنُهُ
فَسَبْحَانَهُ عَدَدَ الْخَاطِبِينَ	وَقَطْرَ السَّمَاءِ وَمَذَارِهِ
هَدَانِي وَقَدْ كُنْتُ فِي ظُلْمَةٍ	حَلِيفَ مَنَاءٍ وَأَحْجَارِهِ
وَأَنْقَذَنِي بَعْدَ شَيْبِ الْقَدَا	لِ مَنْ شَيْنَ ذَاكَ وَمَنْ عَارِهِ
فَقَدْ كَدْتُ أَهْلِيكَ فِي ظُلْمَةٍ	تَدَارِكُ ذَاكَ بِمَقْدَارِهِ

فحمداً وشكراً له ما بقيه تِلْكَ إِلَهِ الْأَنْعَامِ وَجَبَّارِهِ
أريدُ بذلك إذْ قُلْتُه مجاوراً لله في داره (١)

يقتلُ فرعون الأمة :

* كان سيّدنا معاذُ بنُ عمرو بن الجموح وإخوته للمغازي النبوية يشهدون ؛ وعنه ﷺ يدافعون ، ويفدون به بما يملكون ، وكان سيّدنا معاذ - رضي الله عنه - يسمعُ بأبي جهل ويتعرّفُ سيرته ، حتّى وعى تماماً خطورته ، وعرفَ شدّةَ عداوته لرسولِ الله ﷺ ، وللإسلام ، والمسلمين ، فعزم إن التقاهُ في معركةٍ من المعارك أن يجعله كأمس الدّابر ، وأن يذيقه من حرّ سيفه الباتر ؛ بضربة يجعله عبرة لكلّ غادر .

* ولمّا كانت عزوةٌ بدر ، جاء أبو جهل في جمع من الفجّار ، جاء ليلقى حتفه على يدِ فتيةٍ من الأنصار ؛ من أبناء الصّحابة الأخيار ؛ جاء أبو جهل يجرّ أذيالَ العار ، يقوده الغرور إلى مصرعه ليكون من أهل النار ؛ ، وقُبيل التحام الصُّفوف أخذ يدعو على الصّادق الأمين محمّد ﷺ ، وطفق يحثّ النَّاسَ على القتال ، وهذا الخبر جاء في « المسند » ، و« المستدرک » بسندٍ عن

(١) انظر : « دلائل الثبوت » لأبي نعيم الأصبهاني (١ / ٤١٣ - ٤١٤) بشيء من التّصريف دون أن أخرجَ عن جسم النّصّ وروحه . ومعنى قوله « أستنقذُ الله من ناره » : أطلبُ منه - عزّ وجلّ - التّجاة والسّلامة . و« إله الحرام وأستاره » : إله البيت الحرام ، وكسوة الكعبة المشرفة . و« الخاطبين » : الدّاعين والطّالبيين منه بالتّضرّع إليه ، يُقال : خطب كذا : طلبه منه . و« مدراره » : غزيره . و« حليف » : الحليف : المعاهد والمتابع . و« شيب » : الشّيب : بياض الشّعر . و« القذال » : ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس . و« شين » : الشّين : العيب . و« تدارك » : تدارك الشّيء : أدركه ، والمراد هنا : حفظني الله - عزّ وجلّ - . و« الأنام » : الجنّ والإنس . وقيل : الأنام ما على وجه الأرض من جميع الخلق . والله تعالى أعلم .

عبد الله بن ثعلبة العذري قال : « كان المستفتح أبو جهل ، فإنه قال حين التقى القوم : اللهم أئنا كان أقطع للرحم ، وأتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة ، فكان ذلك استفتاحه ؛ فأنزل الله : ﴿ إِن تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] » ^(١) .

* جاء عند ابن هشام في « السيرة النبوية » أيضاً بأن أبا جهل دعا الله قائلاً : « اللهم أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لا يُعرف ، فأخذه الغداة » ^(٢) ؛ فكان هو المستفتح ^(٣) ، وقد كان المشركون عند خروجهم من مكة إلى بدر ، أخذوا بأستار الكعبة ودعوا بهذا الدعاء : « اللهم انصر أهدى الفئتين ، وأعلى الجندين ، وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين » . ولا ريب في أن الله - عز وجل - قد أجاب دعاءهم ، فهزمهم هزيمة منكراً ، ونصر رسوله ﷺ نصراً مؤزراً .

* التقى الفريقان ، وخاض المسلمون المعركة وهم يذكرون الله ذكراً كثيراً ، وكان سيدنا معاذ بن عمرو - رضي الله عنهما - يطلب أبا جهل وخاصة بعد أن بدأت جموع المشركين تتزعزع وتنهار أمام عزيمة المسلمين وثباتهم ؛ وكان رسول الله ﷺ يرى كبرياء الكفر ، وقوافل الشرك تتراجع تريد الهزيمة ، وتود الانسحاب ، بيد أن أبا جهل أخزاه الله حاول إيقاف سيل الهزيمة بغروره المنفوخ ، فشرع ينادي ويصيح صياحاً شديداً كالمسعود ؛ ويخاطب المنهزمين الذين لا يلوون على شيء ويقول : « واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ؛ خذوهم أخذاً » .

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٩ / ١٦٧) ، برقم : (٢٣٧٢١) ، والحاكم في « المستدرک » (٢ / ٣٥٧ - ٣٥٨) ، برقم : (٣٢٦٤) ، واللفظ له . وقوله : « فأخذه » : أهلكه .

(٢) « السيرة النبوية » (١ / ٦٢٨) .

(٣) « المستفتح » : الحاكم على نفسه بهذا الدعاء .

* ولكن أنى لهذه الصّرخات الطّائشة ، والغرور الضّبابي ، والصّياح المتلاشي أن ينفع أو يفيد في هذه اللحظات الحرجة ؛ التي بلغت فيها قلوب المشركين حناجرهم من شدّة الهلع والخوف ، لقد عمّت الهزيمة ، وحال وقعها المزلزل بين صوت اللعين أبي جهل المكابر العنيد ، وبين الوصول إلى سمع أي فرد من أفراد جنود المشركين الذي بعثرتهم الهزيمة ، ونثرتهم نثرة فرقتهم في الفلوات ؛ وصار أحدهم لا يعي على نفسه فضلاً أن يسمع صرخات تصدر عن أبي جهل يدعوهم من خلالها إلى الثّبات !!

* ومن العجيب أنّ أبا جهل - قاتله الله - ظلّ مكابراً معانداً رغم فرار المشركين من ساحة المعركة ، بل ظلّ يقاتل في شراسة وعناد ممزوجين بالغرور والتّحدّي ويقول : « لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم ^(١) ، فإنّه كان على ميعاد من محمّد ، ولا يهولنكم قتل عتبة ، وشيبة ، والوليد ، فإنّهم قد عجلوا ، فواللات والعزّى لا نرجع حتّى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً ، ولكن خذوهم أخذاً ، حتّى نعرفهم بسوء صنيعهم » .

* لا يزال أبو جهل يكابر ويكابّد في غرور وإصرار ، وعلى الرّغم من أنّ المسلمين عملوا على قتل فريق منهم ؛ وفريق وقع في الإسار ، وفريق ولّى الأدبار ، إلا أنّ أبا جهل ما زال يمّني نفسه بالانتصار ، قال ابن إسحاق رحمه الله : « وأقبل أبو جهل يومئذ يرتجز ، وهو يقاتل ويقول :

ما تنقم الحرب العوان منّي بازلاً عامين حديث سنّي
لمثل هذا ولدتني أمّي ^(٢)

(١) كان الشّيطان يوم بدر قد تمثّل للمشركين في صورة سراقة المدلجيّ ، ثمّ إنّ انهزم لما رأى الملائكة الكرام تقاتل كما ورد في السّيرة الصّحيحة .

(٢) « السّيرة النبويّة » (١ / ٦٣٤) ، وقوله « الحرب العوان » : الحرب التي قوتل فيها مرّة ، فهي لذلك أشدّ الحروب . و« البازل » : البازل من الإبل : الذي يخرج نابه ، وهو في ذلك السنّ تكتمل قوته . قال أبو ذرّ الخشنّي في « شرح السّيرة » : « ويُقال =

* بيد أنَّ هذا الرَّجَزَ لم ينفعهُ حينما احمرت الحدقُ واشتدَّ البأسُ ،
وحميَّ الوطيسُ ، وعلى الرَّغم من أنَّ أبا جهل قد وقفت معه ثلَّةٌ من مشركي
قريش ، وفيهم ابنُه عكرمة ، وأحاطوا به إحاطة السَّوار بالمعصم ، وأخذوا
يصيحون عاليًا : « أبو الحكم لا يُخلصُ إليه » وراحوا يدفعون عنه هجمات
شباب الأنصار ، وخصيصي هجمات أسد بني الجموح سيِّدنا معاذ - رضي الله
عنه - ، وزادوا من حمايتهم لأبي جهل أن التقوا حوله كالسَّياج الكثيف قد
تشابك من كثرة السيوف ، أو كغابة من الرِّجال تظللها الرِّماح ، غير أنَّ إقدام
الأنصار وهجومهم على هذه الغابة الضَّالة كان أقوى ، فاجتث أصولها ، وبدد
الرِّماح والسيوف التي لانت وتلاشت أمام شدة بأس فرسان المسلمين
وأبطالهم ، وقوة شباب الأنصار واندفاعهم ، وعندها بصَّرَ بأبي جهل معاذ بن
الجموح - رضي الله عنهما - ، وهو يقفُ وسط غابة من الرِّماح التي أقيمت
حوله ، فأخذ يترقَّبُ فرصةً كي ينقضَّ عليه ، وعندما بانَتْ له فُرْجة ، انصبَّ
عليه كجلمود صخر حطَّ السَّيلُ من علي ، وضربهُ ضربةً مؤمن محبِّ للنَّبي ﷺ
فأذهله ، وأصابَتْ ساقه فبترتها مع قدمه ، فخرَّ صريعاً وقد اختلطَ دمه
بصراخه ، غير أنَّ عكرمة بن أبي جهل هجمَ على معاذ ، وسدَّد إليه ضربةً قويَّةً
فصلَّت يدهُ من العاتق ، ولكنَّ هذا لم يثن من عزم سيِّدنا معاذ ، بل تابع
المسيرةَ الجهاديَّةَ حتَّى أيَّام سيِّدنا عثمان بن عفَّان عليه سحائب الرِّضوان .

* ولنترك زمام الحديث لسيِّدنا معاذ لينقلَ لنا صورة ميدانيَّة صادقة عن
كيفيَّة مقتل أبي جهل ومصرعه على يده ، ذكرَ معاذ - رضي الله عنه - هذا الأمر
بأسلوبه السَّاحر الصَّادق فقال : « سمعتُ القوم - وأبو جهل في مثل الحَرْجَةِ -
وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخلصُ إليه . فلمَّا سمعُها جعلتهُ من شأني ،
فصمدتُ نحوه ، فلمَّا أمكنني حملتُ عليه ، فضربتُه ضربةً أطثت قدمه بنصف
ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالثَّواة تطيحُ من تحت مِرْضَخَةِ النَّوى

= هذا الرَّجَزُ ليس لأبي جهل ، وإنَّما تمثَّل به .

حين يُضرب بها ؛ وضربني ابنه عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي ، وإنني لأسحبها خلفي ، فلما آذنتني وضعت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها » (١) .

* علق الإمام الذهبي رحمه الله على هذا الخبر الصُّبوح ؛ تعليقاً نفسياً يدل على إعجابه بمعاذ بن عمرو بن الجموح ؛ فقال : « هذه والله الشجاعة ، لا كآخر من خدش بسهم ينقطع قلبه ، وتخور قواه » (٢) .

* وساق صاحب « السيرة الحلبية » خبراً طريفاً لطيفاً فيه دلالة من دلائل النبوة ، وكرامة لسيدنا معاذ بن عمرو بعد أن قطعت يده فقال : « جاء بيده إلى رسول الله ﷺ ، فبصق عليها ، ولصقها فالتصقت !! » (٣) .

(١) « دلائل النبوة » للأصبهاني (٢ / ٦١٤ - ٦١٥) ، و« دلائل النبوة » للبيهقي (٣ / ٨٤ - ٨٥) ، و« السيرة الحلبية » (٢ / ٤١٨ - ٤١٩) ، و« السيرة النبوية » (١ / ٦٣٤ - ٦٣٥) ، وغيرها كثير . وقوله « الحرجة » : شجرة من الأشجار ملتفة لا يُوصل إليها . و« لا يخلص إليه » : لا يُوصل إليه . و« صمدت » : قصدت . و« أطئت » : أطارت قدمه . و« طاحت » : ذهبت . و« مرضخة » : هي حجر يُكسر به الثوى . و« أجهضني » : غلبني واشتد علي . و« أسحبها » : أجزها . و« تمطيت » : تمددت .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٥١) . وذكر الواقدي شيئاً من شجاعة سيدنا معاذ - رضي الله عنه - بعد أن قطعت يده ، فينقل عن سيدنا معاذ قوله : « . . . ثم لاقيت عكرمة وهو يلود كل ملاذ ، فلو كانت يدي معي لرجوت يومئذ أن أصيبه » . « المغازي » (١ / ٨٧) . وأكد أبو نعيم الأصبهاني أن معاذ بن عمرو هو الذي قتل أبا جهل فقال : « معاذ بن عمرو بن الجموح الخزرجي ، قاتل أبي جهل ، عقبي بدرئ ، شهد له النبي ﷺ ، فقال : « نِعَمَ الرَّجُلُ معاذ بن عمرو » . (معرفة الصحابة ١٩١ / ٤) .

(٣) « السيرة الحلبية » (٢ / ٤١٩) .

* وإلى هذه الواقعة يشير الإمام الشُّبْكِيُّ في « تائيته » لكُتِّه قال : ابن عفراء بدلاً من ابن عمرو ، ولا منافاة لجواز أن يكون معاذ بن عمرو بن الجموح بن عفراء ، يقول الشُّبْكِيُّ :

وبانت بها كفُّ ابنِ عفراء فانثنى إليك فعادتْ بعدُ أحسنَ عودة^(١)

* وعن مصرع أبي جهل أخزاهُ اللهُ أجمعت المصادر بأنَّ سيِّدنا معاذ بن عمرو بن الجموح قد ضربَه ، ومعه أيضاً معوِّذُ بنُ عفراء ، وكلاهما من فتيان الأنصار ، ثمَّ أجهزَ عليه سيِّدنا العالم الجليل النَّبيل عبدُ اللهِ بن مسعود الهذلي^(٢) - رضي اللهُ عنه - ، وكان سيفُ سيِّدنا ابن مسعود كليلاً ، فقالُ له لعين الوثنية أبو جهل : « خذْ سيفي فاحتزَّ رأسي به » ففعل عبدُ اللهِ ، وقال أبو جهل لسيِّدنا عبدُ اللهِ بن مسعود وهو يعلو صدره ليحزَّ رأسه : لقد ارتقيتْ يارويعي^(٣) الغنم مرتقى صعباً ، لو غير أكار^(٤) قتلني . ولنعش الآن ونتعش بكلمات هذه القصيدة الجميلة لأحمد محرم ، والتي ترسمُ بحروفها ومعانيها مصرع أبي جهل :

بسيفك فيما اخترت من عاجل القتل سقيت ذعاف الموت فاشرب أبا جهل
هو السيف لولا الجبن لم يَمْضِ حذُّه ولم يَرْضَ في جدِّ الكريهة بالهزل
شهدت الوغى تبغي على الضعف راحة لنفسك من حقدٍ مُذِيبٍ ومن غلٍّ

(١) « المجموعة النَّبَهائيَّة في المدائح النَّبويَّة » (١ / ٤٢٤) . وقوله « بانت » : قُطعت . و« انثنى » : رجع .

(٢) اقرأ سيرة العالم العَيلم المجتهد العابد سيِّدنا عبدُ اللهِ بن مسعود في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة - رضي اللهُ عنهم - » (ص : ٢٢١ - ٢٨١) فسيرته رياض نضرة ؛ وأنسام عطرة ؛ رضي اللهُ عنه وأرضاه .

(٣) « رويعي » : تصغير راعي ، وقالها أبو جهل هنا للتَّحقير .

(٤) « أكار » : الأكار : الرِّزَّاع ، وكان الأنصار أهل زرع ، وقصد بالأكار : سيِّدنا معاذ رضي اللهُ عنه .

أفرعونُ إنَّ تجهلُ فلنْ تجهلَ الوغى
أصابكَ فيها ما أصابكَ منْ أذى
رَمَاكَ مَعَاذُ قَبْلَهُ وَمَعُودُ
سقى السَّيفَ عفواً من دم لك طيِّعُ
دع الهزلُ يا بن الحنظليَّة إنَّه
هي اللات والعزى أضلَّتْك هذه
مضى جارك المأفونُ خزيانَ وانقضتْ
لقد كنتَ ترجو أن ترى الهبلَ الذي
أصبتَ ابنَ مسعود سناء ورفعةً
فخذ سيفه ثم ارفع الصَّوتَ شاكراً
* وهلكذا سجَّل سيِّدنا معاذُ بنُ عمرو وصحبُه عملاً فريداً في تاريخ
السَّيرة النَّبويَّة ، لا نزالُ نمتُّ الأسماع به إلى أيَّامنا هذه ، والآن فهل بقي شيء
في الجعبة المعاذيَّة ؟ !

« كَلَّا كَمَا قَتَلَهُ » :

* تبَيَّن فيما قدمنا بأنَّ سيِّدنا معاذاً - رضي الله عنه - هو الذي قَطَعَ رَجُلَ
أبي جهل وأثخنَه بالجراح ، لذلك أعطاهُ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ سيفَ
أبي جهل ، فقد ذكر الواقديُّ عن سيِّدنا الكريم السَّخيِّ عبد الرَّحمن بن
عوف - رضي الله عنه - : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَقَلَ مَعَاذَ بْنَ عَمْرٍو بنَ الجموح سيفَ
أبي جهل - وهو عند آل معاذ بن عمرو اليوم به فلَّ - بعد أن أُرسلَ النَّبِيُّ ﷺ إلى
عِكرمة بنِ أبي جهل ، فسأله : « مَنْ قَتَلَ أَبَاكَ ؟ » قال : الذي قَطَعْتُ يَدَهُ ،
فدفعه رسولُ الله ﷺ إلى معاذ بن عمرو ، وكان عكرمةُ ، قد قَطَعَ يده يومَ
بدر » (٢)

(١) « ديوان مجد الإسلام » (ص : ٩٢ - ٩٣) .

(٢) « المغازي » (١ / ٨٧) .

* وذكر الواقدي رحمته الله أيضاً بأنه : « ما كان بنو المغيرة يشكّون أنّ سيف أبي الحكم صار إلى معاذ بن عمرو بن الجموح ، وهو الذي قتله يوم بدر » ^(١) .

* وعن يونس بن يوسف قال : « حدّثني من حدّثه معاذ بن عمرو أنّه قضى له النبيّ صلى الله عليه وآله بسلب أبي جهل ، قال : فأخذت درعه وسيفه ، فبعث سيفه بعد » ^(٢) .

* وقد جاء في الصحيحين ما يؤكّد بأنّ الصّادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وآله قد قضى بسلب أبي جهل لمعاذ بن عمرو - رضي الله عنهما - ، فقد أخرج إماما وشيخا أهل الحديث بسندٍ رفعاه إلى سيّدنا عبد الرّحمن بن عوف - رضي الله عنه وأرضاه - قال : « بينا أنا واقفٌ في الصّفّ يوم بدر ، فنظرتُ عن يميني وشمالِي ، فإذا أنا بـغلامَيْن من الأنصار حديثه أسنانهما ، تمنّيتُ أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما ، فقال : يا عمّ ؛ هل تعرفُ أبا جهل ؟

قلت : نعم ، ما حاجتك إليه يا بن أخي ؟

قال : أخبرتُ أنّه يسبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والذي نفسي بيده ، لئن رأيتهُ لا يفارقُ سوادي سواده حتّى يموتَ الأعجل منا .

فتعجّبتُ لذلك ، فغمزني الآخرُ ، فقال لي مثلها ، فلم أنشب أن نظرتُ إلى أبي جهل يَجولُ في النَّاس ، فقلتُ : ألا إنّ هذا صاحبكما الذي سألتُماني ، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتّى قتلاه ، ثمّ انصَرَفَا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبراه ، فقال : « أيكما قتله ؟ » .

قال كلُّ واحدٍ منهما : أنا قتلتهُ .

(١) « المغازي » (١ / ٨٧ - ٨٨) .

(٢) « المغازي » (١ / ٨٨) ، وانظر : « المغازي » أيضاً (١ / ٩٩ - ١٠٠) .

فقال : « هل مسحتما سيفيكما ؟ » .

* قالوا : لا .

فنظر في السيفين ، فقال : « كلاكما قتله ، سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح » .

وكانا معاذ بن عفراء ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح ^(١) .

* كان موقفُ معاذ وفتيان الأنصار موقفاً فدائياً ، أحبَّ فيه

(١) أخرجه الشيخان ؛ البخاري في فرض الخمس ؛ واللفظ له ، ومسلم في الجهاد والسير برقم : (١٧٥٢) . وقوله « حديثُ أسنانهما » : كناية عن أوَّل العمر وأتَمَّهما شابَّان صغيران . و« أضلع » : أقوى منها . و« سوادِي سواده » : شخصي شخصه . و« الأعجل » : الأقرب أجلاً . و« أنشب » : ألبث . و« ابتدراه » : تسارعا إليه . و« سلبه » : السلبُ : هو ما يأخذه في الحرب من خصمه من سلاح وثياب ودابة وغيرها ، وهو بمعنى مسلوب .

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ : « الرجلان : معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن عفراء ، اختلف العلماء في معنى هذا الحديث ؛ فقال أصحابنا : اشترك هذان الرجلان في جراحته ، لكنَّ معاذ بن عمرو بن الجموح ثخنه أولاً فاستحقَّ السلب ؛ وإنَّما قال النَّبِيُّ ﷺ : « كلاكما قتله » تطبيلاً لقلب الآخر ، من حيث إنَّ له مشاركةً في قتله ، وإلا فالقتل الشرعي الذي يتعلَّق به استحقاق السلب - وهو الإثخان ، وإخراجه عن كونه ممتنعاً - إنَّما وُجِدَ من معاذ بن عمرو بن الجموح ، فلهذا قضى له بالسلب . قالوا : وإنَّما أخذ السيفين ليستدلَّ بهما على حقيقة كيفية قتلهما ، فعلم أنَّ ابنَ الجموح أثخنه ، ثمَّ شاركه الثاني بعد ذلك ، وبعد استحقاقه السلب ، فلم يكن له حق في السلب وفي هذا الحديث من الفوائد :

☆ المبادرة إلى الخيرات ، والاشتياق إلى الفضائل .

☆ الغضبُ لله - عزَّ وجلَّ - ، ولرسوله ﷺ .

☆ لا ينبغي أن يُحتَفَر أحدٌ . « المنهاج » (ص : ١٣٤٨ - ١٣٤٩) باختصار .

جنودُ الله - عزَّ وجلَّ - الموتَ استشهадاً في سبيلِ الله تعالى ؛ فوهبَ الله لهم الحياة ، وأنزلَ عليهم نَصْرَهُ وتأييده ، وقتلَ لهم خبيثَ الفاسقين فرعون الأمة أبا جهل أخزاه الله .

* « فاللهُ تعالى لم يعجِّلْ لهذا الخبيثِ أبي جهلِ الموتَ بضرباتِ الأبطالِ من أشبالِ الأنصار ؛ ولكنَّه أبقاهُ مصروعاً في حالةٍ من الإدراك والوعي ، بعد أن أصابته ضرباتُ أشفَتْ به على الهلاكِ الأبدي ليريه بعينِ بصرِهِ ما بلغه من المَهانةِ والدُّلِّ والخذلانِ على يَدِ مَنْ كان يستضعفه ويؤذيه ويضطهدهُ بمكَّة من رجالِ الرَّعيلِ الأوَّل ، السَّابِقين إلى مظلَّةِ الإيمان وطهرِ العقيدة ، والتَّعَبُّدِ لله بشرائعه التي أنزلها رحمةً للعالمين عبدُ الله بن مسعود - رضي الله عنه - ؛ فيعلو على صدرِهِ ، ويدوسه بقدميه ، ويقبضُ على لحيته تحقيراً له ، ويقرِّعه تقرِّعاً يبلغُ من نفسه مجمعَ غروره واستكباره في الأرض ، ويستلُّ منه سيفَهُ إمعاناً في البطش به ، فيقتله به ، ويحتزُّ رأسه ليرمي به تحت نعلي رسولِ الله ﷺ هواناً به ، ويمعنُ في إغاظته بإخباره أنَّ النَّصرَ عقدٌ بناصيةِ جندِ الله ، وكتيبةُ الإسلام ، وأنَّ شَنَارَ الهزيمةِ النَّكراءِ وعارها ، وخزيتها وخذلانها قد رُزئتُ به كُتائبُ الغرورِ الأجوفِ في حشودِ النَّفيرِ الذي قاده هذا الكفورُ الخبيثُ ليوافقَ به بطولةَ الفدائيين من أنصارِ الله ورسوله حتَّى يفضيَ إلى جهنَّمَ مع جيفِ القُلُوبِ مغيضاً محنقاً ، مكبوتاً بالكمد والكبتِ والغم والنَّكالِ والعَصَصِ ، يقتلهُ الحقدُ الدَّلِيلُ قبل أن تقتله سيوفُ الأعرَّةِ من المجاهدين » ^(١) .

* ظلَّ سيِّدنا معاذ بن عمرو بن الجموح من سادةِ أبناءِ الصَّحابةِ وأعيانهم ، وتوفي رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنه وعن أبناءِ الصَّحابةِ والصَّحابةِ أجمعين ؛ وعاش سيِّدنا معاذ شطراً من الخلافةِ الرَّاشدةِ يقومُ بواجباته

(١) « محمَّد رسولُ الله » (٣ / ٤٣١ - ٤٣٢) .

الإسلامية ، إلى أن وافته المنيةُ في خلافةِ سيّدنا عثمان - رضي الله عنهم أجمعين ^(١) - .

* رضي الله عن الابنِ الطَّموحِ ، معاذ بن عمرو بن الجموح ، ونسأله عزَّ وجلَّ أن يفتحَ علينا أحسنَ الفتوحِ ، وأن يسدّدَ خُطانا على الطَّرِيقِ الصَّحيحِ ، وأن يجمعنا مع الصَّحابةِ ويكرمنا بالريحانِ والروحِ ، وصلى الله على سيّدنا محمّدٍ ما غرّد طير على الدَّوحِ .



(١) « الاستبصار » (ص : ١٥٦) ، و « سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٥١) ، و « البداية والنهاية » (٣ / ٢٨٧) . وقال أبو نعيم الأصبهاني : « عاش إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه » . (معرفة الصحابة ٤ / ١٩١) .

النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ

رضي الله عنهما

- * أَوَّلُ مَوْلُودٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ .
- * حَنَّكَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَعَاشَ حَمِيداً ؛ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .
- * مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْصَارِ ؛ رَوَى (١١٤ حديثاً) ؛ وَمَاتَ بِالشَّامِ سَنَةَ : (٦٤ هـ) .

النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنهما

من العقدِ النَّفِيسِ :

* أحاطتِ البركاتُ بهذا الابنِ الكريمِ ، فهو صحابيُّ ابنِ صحابيٍّ ، ابنِ صحابيَّةٍ ، بل إنَّ خالهَ صحابيٍّ من كبار الصَّحابة الأَخيارِ ، ومن كرامِ رجالِ الأنصارِ ، الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

* وُلِدَ هذا الصَّحابيُّ الجليلُ النَّبيلُ في المدينة المنوَّرةِ ، في حياة النَّبِيِّ ﷺ ، في بداية السَّنَةِ الثَّانِيَةِ من الهجرة ، قال الإمامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : « وُلِدَ على رأسِ أربعةَ عشرَ شهراً من الهجرة ، وهو أوَّلُ مولودٍ من الأنصار بعد الهجرة » ^(١) .

* وقال الحافظُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ : « كان أوَّلَ مولودٍ وُلِدَ بالمدينة بعد الهجرة للأنصار ، في جمادى الأوَّل سنة ثنتين من الهجرة ، فأتَتْ به أمُّه تحمله إلى النَّبِيِّ ﷺ ، فحنَّكَه ، وبشَّرها بأنَّه يعيشُ حميداً ، ويُقتلُ شهيداً ، ويدخلُ الجنَّةَ ، فعاشَ في خيرٍ وسعةٍ . . . » ^(٢) .

* أترانا عرفنا مَنْ هذا المولودُ الحميدُ الشَّهيدُ الأنصاريُّ السَّعيدُ ؟ الإمامُ

(١) « تهذيبُ الأسماء واللغات » (٢ / ١٦٩) . وقال أبو نعيم : « كان أوَّل مولود

للأنصار بعد الهجرة . . . له ولأبويه صحبة » . (معرفة الصَّحابة ٤ / ٣٢٠) .

(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٤٤) .

التَّوَوُّيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنده الخبرُ الأكيد ؛ فيقولُ : « التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرِ الصَّحَابِيِّ ابْنُ الصَّحَابِيِّ وَالصَّحَابِيَّةِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ - أبو عبد الله الخزرجيّ الأنصاريّ ، وهو وأبوه وأُمُّه صحابيُّون ، اسمُ أمِّه عمرة بنت رواحة وهو أوَّلُ مولودٍ من الأنصار بعد الهجرة وكان كريماً جواداً شاعراً - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - » (١) .

* بينما قال الإمامُ الذَّهَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذا الابن المبارك : « التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدِ الْأَمِيرِ الْعَالِمِ ، صاحبُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وابنُ صاحبه ، أبو عبد الله ، ويقالُ : أبو مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيِّ ، ابنُ أختِ عبدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ولدَ التُّعْمَانُ سنة اثنتين ، وسمعَ من النَّبِيِّ ﷺ ، وعُدَّ من الصَّحَابَةِ الصَّيِّبَانِ بِاتِّفَاقٍ » (٢) .

* نجدُ معلوماً أوفى عند ابنِ عساکر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن سيِّدنا التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وعن مولده فيقول : « وُلِدَ التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ بَعْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ شَهْراً ، هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَأَهْلُ الْكُوفَةِ يَرَوْنَ عَنْهُ رَوَايَةً كَثِيرَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَكْبَرُ سَنًا مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ وُلِدَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ ، تَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ ، وَلَهُ ثَمَانُ سِنِينَ وَسَبْعَةُ أَشْهُرٍ » (٣) .

(١) انظر : « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٢٩ - ١٣٠) ملخصاً .
وانظر : « طبقات ابن سعد » (٦ / ٥٣ - ٥٤) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦٠ - ١٦٤) ، و« معرفة الصحابة » (٤ / ٣٢٠ - ٣٢٢) ترجمة رقم (٢٨٥٨) ؛ ، و« الاستبصار » (ص : ١٢٢ - ١٢٣) ، و« البداية والنهاية » (٨ / ٢٤٥ - ٢٤٦) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٥٢٣ - ٥٢٦) ، و« الإصابة » (٣ / ٥٢٩ - ٥٣٠) ، وغيرها ممَّا لا يحصى .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤١١) ملخصاً .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦٠) .

* أمّا أبوه بشير بن سعد^(١) : فقد شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد ، وأُمّه : عمرة بنت رواحة^(٢) بن ثعلبة أخت عبد الله بن رواحة^(٣) - رضي الله عنهم أجمعين - ، وكان لهذه الأسرة الكريمة تاريخٌ حافلٌ بالعطاء في العهد النبوي المبارك .

يا رسولَ الله ادعُ لابني :

* كان أصحابُ الصّادق المصدوق ﷺ ؛ إذ وُلد لهم مولود سارعوا إلى الحبيبِ المصطفى ﷺ ليحنّكه لهم ، أو يسمّيه ، أو يصنّع له شيئاً ينفعه كالذّعاء له ، أو المباركة عليه .

(١) اقرأ سيرة سيّدنا بشير بن سعد الأنصاريّ في الباب الثّاني من كتابنا : « فرسان من عصر النّبوة » (ص : ٥٤٥ - ٥٥٥) ، فسيرته تبعثُ البشّرَ والسرورَ في القُفوس بإذن الله .

(٢) عمرة بنت رواحة أخت عبد الله : هي زوجُ بشير بن سعد ، وأمُّ الثّعمان بن بشير ؛ وهي التي ذكرها الثّعمان في حديثه قال : « نَحَلَنِي أَبِي نَخْلًا ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ : لَا أَرْضَى حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » . وكان لعمرة مكانةٌ لا تُنْفَكُ عند رسولِ الله ﷺ ، فقد كان يبعثُ لها بالهدايا أحياناً ، وقد أرسل لها مرّةً عنباً طائفيّاً مع ابنها الثّعمان ، فأكله الثّعمان ، وهذا ما روي عن الثّعمان بن بشير قال : « أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنَبٌ مِنَ الطّائِفِ ، فَقَالَ : « خُذْ هَذَا الْعَنْقُودَ فَأَبْلِغْهُ أُمَّكَ » . قَالَ الثّعمانُ : فَأَكَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ أَبْلِغَهُ إِيَّاهَا . فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ لَيْالٍ قَالَ : « مَا فَعَلَ الْعَنْقُودُ هَلْ بَلَغْتَهُ ؟ » قُلْتُ : لَا . فَأَخَذَ بِأُذُنِي وَقَالَ لِي : « غَدَرٌ » . وَكَلِمَةُ غَدَرٌ : مَعْدُولَةٌ مِنْ غَادَرَ وَهُوَ كَثِيرُ الْغَدْرِ . وَلِعَمْرَةٍ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ تَكْفُلُ بِهَا الْمَصَادِرُ الْمُتَنَوِّعَةُ . « الْإِسْتَبْصَار » (ص : ١١٢ - ١١٤) بِتَصْرِفٍ .

(٣) اقرأ سيرة الصّحابي الجليل سيّدنا عبد الله بن رواحة في كتابنا : « رجال مبشّرون بالجنّة » (ص : ٣٤٧ - ٣٩٤) ، ط : ٥ ، دار ابن كثير بدمشق : ٢٠٠٣ م ، ففي سيرته فوائد نافعة ؛ وأقباسٌ مائعة .

* وهذا ما كان من أمر سيّدنا الثُّعْمان - رضي الله عنه - ، فلمّا ولدته أمّه عمرَةُ بنتُ رَواحة ، حملته وأتت به رسول الله ﷺ ، وهي ترجو البركة والخير ، فحنّكه الحبيبُ المصطفى ﷺ بتمرة ، فتلمّظ منها ، فقال رسول الله ﷺ : « الأنصارُ وحُبُّها الثَّمَر » ^(١) .

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦١) بشيء من التّصريف .

ومن الجدير بالذكر أنّ للثَّمَر فوائدَ عظيمةً ، وقد أكّد الإسلامُ باستعماله لما فيه من فوائدَ جليّةٍ للرُّوح والجسم . وقد جاء الطَّبُّ في العصر الحديث ليصادقَ على صحّة ما صنّعه رسولُ الله ﷺ من استعماله الثَّمَر ، وحضّه على تناوله .

يقولُ الأطباءُ وأهلُ الاختصاص عن الثَّمَر ما خلاصته : « يحوي الثَّمَر موادَّ معدنية عديدة من نحاس ، وكبريت ، وصوديوم ، وبوتاسيوم ، كما أنّه غنيٌّ بالحديد والكالسيوم ، والثَّمَر من أغنى الفواكه بالفوسفور ، فهو ينشطُ الفكرَ والجسم والثَّمَر أيضاً وقاية من كثير من الأمراض وقد أوصى رسولُ الله ﷺ أن يتناولَ الإنسانُ سبعَ تمراتٍ عجوة قبلَ الفطور ، ليمتصَّ سكرها بسرعة ، ويخترنَ قسمٌ منه في الكبد ، ممّا يساعده على تخريب السُّموم وتعديلها ، أضفَ إلى ذلك المعالجة الروحية وعلو المعنويات النَّاتج عنها ، عندما يتصبّح المسلم بسبع تمرات يقيناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ » .

قال ابنُ قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ : « إنّ من شروط انتفاع العليل بالدَّواء ، قبوله واعتقاده النَّفع به ، فتقبله الطَّبيعة ، فتستعين به على دفع العلة ، حتّى إنّ كثيراً من المعالجات تنفعُ بالاعتقاد ، وحسن القبول ، وكمال التّلقّي » .

« إنّ الذي يتصبّح بسبع تمرات إيماناً وتصديقاً لقول رسول الله ﷺ : « مَنْ تصبَّح بسبع تمرات عجوة لم يضرّه ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر » فإنَّ يقينه بالله - عزَّ وجلَّ - يزيدُ التجاؤهُ إليه ، وتوكّله عليه يقوى ، وبذلك تقوى معنوياته ، وتزداد مقاومته الجسدية والنَّفسيّة ، فلا مجال للوساوس ، والمخاوف ، وتوقع حدوث سحر يصيبه ، أو دسّ سمٍّ من قبل عدوِّ يكيدُه ، وإذا ما وقع ذلك فإنَّ الأضرارَ تخفَّ بما قدم من اعتقادٍ بالله - عزَّ وجلَّ - ، وثقّةٍ به ، وتصديق لرسوله ﷺ ، وخاصة إذا كان يتمسّك بالأذكار الرّبّانية اليومية ، فهي وقايةٌ نفسيّةٌ ، =

* ومن المؤكّد أنّ التّحنيك من قِبَل رسول الله ﷺ إنّما هو بركة وسعادةٌ وجدُّ للوليد ؛ إذ إنّ ريقَ رسول الله ﷺ أوّل شيء يدخلُ جوفه .

* كان الصّحابةُ الكرامُ يصحبون أولادهم الصّغار ليحنّكهم رسولُ الله ﷺ ، فهذا سيّدنا أبو موسى الأشعريّ ^(١) - رضي الله عنه - يحطُّ بمولوده الأوّل بين يدي رسول الله ﷺ ، فسّمّاه وحنّكه ، ودعا له بالبركة ، ودفعه لأبي موسى وكان أكبر ولده .

* ولم يكنْ هذا الأمرُ الموقّفُ الميمون وقفاً على رجال الصّحابة ، بل إنّ نساء الصّحابة - رضي الله عنهنّ - كنَّ يتسابقنَ إلى هذه المكرمة ، فهذه سيّدةُ حُصيفةُ نبيلةٌ من سيّدات عجائز أهل الجنّة أسماء بنت أبي بكر ^(٢) - رضي الله عنهما - تضعُ مولودها الأوّل بقاء ، فتأتي به رسول الله ﷺ ، ثمّ تضعه في حجره ، فيمضغُ الحبيب المصطفى ﷺ تمرّةً ، ثمّ يضعها بفم الوليد ، فكان أوّل شيء دخلَ جوفه ريقُ رسول الله ﷺ ، ودعا له ، وبارك عليه ؛ بعد تحنيكه بالتمر ^(٣) .

= « علاج روحي » . « الطّبُّ النبويّ والعلم الحديث » (٣ / ٢٩٢ - ٢٩٧) ملخصاً .

(١) اقرأ سيرة هذا الصّحابيّ العالم القارئ في الباب الثّالث من كتابنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٥٨٧ - ٦٣٥) فسيرته إمتاعٌ للأسماع ، وروضة غناء تمتع الأرواح .

(٢) اقرأ سيرة السيّدة النبيلة الصّحابيّة بنت الصّحابيّ أسماء بنت أبي بكر في الباب الأوّل من كتابنا : « بنات الصّحابة » (ص : ٣٨ - ٧٢) ، فسيرة أسماء صفاءٌ في نقاء في سناء في بهاء .

(٣) اتّفق العلماء والفقهاء على استحباب تحنيك المولود عند ولادته بتمرّة ، أو بشيء قريب منها . فيمضغُ المُحنّكُ التمرّة جيّداً ، ثم يضعها بفم المولود ، ليدخلَ شيءٌ منها في جوفه . ويُستحبُّ أن يكون المُحنّكُ من الصّالحين ، وممن يُتبرك به رجلاً كان أو امرأة ، فإنْ لم يكنْ حاضراً عند المولود حُمِلَ إليه .

* كان الصَّحَابَةُ يفرحون عندما يدعو رسولُ الله ﷺ لأولادهم ، وكانوا في بعض الأحيان والأوقات يطلبون الدُّعاء منه ، فقد روي أَنَّ بشيرَ بنَ سعد جاء بابنه الثُّعْمان بن بشير إلى النَّبِيِّ ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ! ادعُ لابني هذا » .

فقال له رسولُ الله ﷺ : « أما ترضى أن يبلغَ ما بلغت ؟ ثمَّ يأتي الشَّام فيقتله منافقٌ من أهل الشَّام » (١) .

* وتذكُرُ رواياتٌ أخرى بأنَّ أمَّ الثُّعْمان حملته إلى النَّبِيِّ ﷺ ، وطلبتُ منه أن يدعو له بكثرة المالِ والولدِ ، فعن عاصم بن عمر بن قتادة : « أنَّ عمرَةَ جاءت تحمِلُ ابنها الثُّعْمان في ليفهِ إلى رسولِ الله ﷺ ، فدعا بتمرة فمضغها ، ثمَّ حنَّكه بها ، فقالت : يا رسول الله ! ادع له أن يكثرَ ماله وولده .

فقال : « أوما ترضين أن يعيشَ كما عاش خاله ؟ عاشَ حميداً ، وقُتِلَ شهيداً ، ودخلَ الجنَّةَ » (٢) .

* وقيل : « إِنَّ أمَّهُ أتتْ به رسولَ الله ﷺ يومَ سابعه ، وعليه شعْرُ البطنِ ، فأبى رسولُ الله ﷺ أن يبرِّكَ عليه ، وقال : « احلقُوا عنه شعرَ البطنِ »

= وكان الصَّحَابَةُ - رضي الله عنهم - حريصين على أن ينشأ المولودُ على تقوى من الله - عزَّ وجلَّ - ، ورضوان منه ، لذلك حملوا أولادهم إلى رسولِ الله ﷺ يطلبون البركة لتكون حياةُ الأولاد مؤسَّسةً على الخير . وحينما يشترط العلماء أن يكون المُحنِّكُ صالحاً ، فإنَّه الشَّرْطُ الذي يملِبه الحرصُ على مستقبل المولود الذي يتلقَّى بيئة طاهرة صالحة بكلِّ معانيها ، وبالتالي ينشأ المولود على الصَّلاح بعيداً عن آثار الجاهليَّة وكلِّ معانيها .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦١) بتصرُّف يسير ، وانظر : « تهذيب التَّهذيب » (١٠ / ٤٤٨) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦١) .

فخلق رأسه ، ثم بَرَكَ عليه ، وقال : « عَفَّوْا عَنْهُ بَشَاءً » (١) .

* وَلَمَّا دَرَجَ سَيِّدُنَا الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَحَفُّهُ وَيَتَحَفُّ أُمَّهُ بِبَعْضِ مَا يَأْتِيهِ مِنْ هَدَايَا ، فَقَدْ أوردت بعضُ المصادر بآئِهِ قَدْ أَهْدَى لِلصَّادِقِ المصْدُوقِ ﷺ عَنَبٌ مِنَ الطَّائِفِ - وَعَنْبُ الطَّائِفِ لَطِيفُ الشَّكْلِ وَالطَّعْمِ - وَكَانَ الثُّعْمَانُ موجوداً لَمَّا كَانَتِ الْهَدِيَّةُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خُذْ هَذَا الْعَنْقُودَ فَأَبْلُغْهُ أُمَّكَ » . وَلَكِنَّ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ أَكَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ أُمَّهُ ، وَلَمَّا كَانَ بَعْدَ لَيَالٍ سَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا فَعَلَ الْعَنْقُودُ هَلْ بَلَغَتْهُ ؟ » .

فَقَالَ الطِّفْلُ الْبَرِيءُ : لَا أَكَلْتُهُ .

وَهُنَا قَالَ لَهُ الْحَبِيبُ المصْطَفَى ﷺ مَدَاعِباً : « يَا غُدْرَ » (٢) .

« اَعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ » :

* كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، يَفْزَعُونَ فِي أُمُورِهِمْ إِلَى مَعْلَمِهِمُ الصَّادِقِ المصْدُوقِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَفْتُونَهُ ، لِيَكُونُوا عَلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ، وَالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ ، وَلِيَأْتِيَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَيَسِيرُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الْجَلِيِّ ، وَالْأَمْرِ المَحْمَدِيِّ الْبَهِيِّ ، فَيَحْظُونَ بِذَلِكَ مَرْضَاةَ الْكَبِيرِ الْعَلِيِّ .

* وَتَدُلُّ سِيرَةُ بَشِيرٍ ، وَعِمْرَةٍ ، وَابْنَهُمَا الْأَثِيرِ الثُّعْمَانِ ، عَلَى هَذَا

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦١) .

(٢) « الاستيعاب » (٣ / ٥٢٣) بشيء من التَّصْرُفِ . وَهَذَا رَوَايَةٌ عَنْ الثُّعْمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ : « أَنَّهُ أَعْطَانِي قُطْفَيْنِ مِنْ عَنَبٍ فَقَالَ لِي : « كُلْ هَذَا ، وَبَلِّغْ هَذَا إِلَى أُمِّكَ » فَأَكَلْتُهُمَا ، ثُمَّ سَأَلَ أُمَّهُ عِنْدَمَا لَقِيَهَا فَقَالَ : أَتَاكَ الثُّعْمَانُ بِقُطْفَيْنِ مِنْ عَنَبٍ ؟ » فَقَالَتْ : لَا ، فَأَخَذَ ﷺ بِأُذُنِهِ ، وَقَالَ : « يَا غُدْرَ » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦١) ، وَ« الاستيعاب » (٣ / ١٦٢) مَعَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا .

المنهج المورق الفينان ، ومن خلال ذلك نجد التوجيه النبوي الرّيان ، يأخذ بأيديهم إلى ينابيع الأمان ، ومناهل العرفان ، وخاصة فيما يتعلق بتربية الغلمان والولدان .

* فقد جاء في الصحيحين وغيرهما بسندٍ عن سيّدنا التّعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال : « أعطاني أبي عطية ، فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إني أعطيتُ ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله .

قال : « أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ » .

قال : لا .

قال : « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » .

قال : فرجع فردّ عطيته « (١) .

(١) أخرجه الشيخان : البخاريّ برقم : (٢٥٨٧) واللفظ له ، وكذلك أخرجه برقم : (٢٥٨٦ - ٢٦٥٠) ، ومسلم برقم : (١٦٢٣) ، وأحمد في مواضع برقم : (١٨٣٨٢ ، ١٨٣٨٦ ، ١٨٣٨٧ ، ١٨٣٩١ ، ١٨٣٩٤ ، ١٨٣٩٧ ، ١٨٤٠٦ ، ١٨٤١٠ ، ١٨٤٣٨ ، ١٨٤٤٧ ، ١٨٤٤٩ ، ١٨٤٥٦ ، ١٨٤٧٨ ، ١٨٤٧٩) . وغير ذلك من مصادر متنوعة .

وللعلماء وفقهاء الأئمة أقوالٌ كثيرةٌ حول هذا الحديث الشريف ؛ وسأذكر بعضها ههنا لما فيه من فوائد تهتمُّ المسلمون في كلّ زمان ومكان .

فقد تمسّك بالحديث مَنْ أوجب التّسوية في عطية الأولاد ، وبه صرّح البخاريّ رَحِمَهُ اللهُ ، وقد أجاز آخرون بأنّه يجوز التّفاضل ، إن كان له سبب ، كأن يحتاج الولد لزِمَاتِهِ ، ودِينِهِ ، أو نحو ذلك دون الباقي . وقال أبو يوسف : « تجبُ التّسوية إن قصد بالتّفضيل الإضرار » . وذهب الجمهور إلى أنّ التّسوية مستحبةٌ ، ولا فرق في العطية بين الذكر والأنثى .

وفي هذا الحديث أنّ هبةَ بعض الأولاد دون بعضٍ صحيحة ، وفيه : جواز =

* ويظهر لنا من خلال هذا الحديث وغيره ممّا جاء في هذا المضمّار أنّ العطية كانت غلاماً ، أو حديقة من أفضل مال بشير بن سعد ، وذلك تطيباً لخاطر عمرة بنت رباحة زوجه وأمّ ابنه الثّعمان ، ولكنّ الزّوجة المؤمنة أحبّت أن يشهد رسول الله ﷺ على هذا الأمر ، فلمّا تبين له ﷺ أنّ في الأمر جوراً ، أرشد إلى الخير والصّواب والعدل والتّسوية .

الأميرُ التّبيل :

* كان سيّدنا الثّعمانُ بنُ بشير - عليه رضوان العليم الخبير - من أبناء الصّحابة الذين تقلّدوا المناصب والولايات ، فقد كان هذا الصّحابيُّ المفضّل من أمراء سيّدنا معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - ، فقد ولّاه الكوفة في أواخر حياته كما ذكر المؤرّخون فقالوا ما خلاصته : « في سنة : (٥٩ هـ) عزل معاوية ابن أخته عبد الرّحمن بن عبد الله الثّقفي - وهو ابن أمّ الحكم ^(١) أخت معاوية بن أبي سفيان - عن الكوفة ، واستعمل عليها الثّعمان بن بشير الأنصاريّ ، وكانت ولايته للكوفة تسعة أشهر ، ثمّ سكن الشّام ، وولي قضاءها بعد فضالة بن عبيد ^(٢) الأنصاريّ الأوسيّ - رضي الله عنه - ، ثمّ ناب بحمص لمعاوية ، وهو الذي ردّ آل رسول الله ﷺ إلى المدينة بأمر يزيد له في ذلك وهو الذي أشار على يزيد بالإحسان إليهم ، فرّق له يزيد ، وأحسن إليهم

= رجوع الوالد في هبته للوليد . والله أعلم « المنهاج » (ص : ١٢٣٦ - ١٢٣٧) بتصرّف .

(١) اقرأ سيرة الصّحابية أمّ الحكم بنت أبي سفيان - رضي الله عنهما - في الباب الأوّل من كتابنا : « بنات الصّحابة » (ص : ١٠٩ - ١١٩) فمطالعة سيرتها لا تخلو من فائدة .

(٢) اقرأ سيرة الصّحابي الكريم فضالة بن عبيد الأنصاريّ في الباب الرّابع من موسوعتنا : « علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - » (ص : ٩٤٨ - ٩٧١) ففي سيرته مواقف ماثرة ، وفوائد نافعة بإذن الله .

وأكرمهم » (١) .

* وذكروا أَنَّ التُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ - رضي الله عنه - كان فصيحاً لبيباً خطيباً لا يُجارى ، قال سماكُ بْنُ حَرْبٍ : « اسْتَعْمِلَ التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ عَلَى الْكُوفَةِ ، فَكَانَ مَنْ أخطَبَ مَنْ سَمِعَتْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا يَتَكَلَّمُ » (٢) ، وفي قول آخر : « كان التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ - والله - من أخطَبَ مَنْ سَمِعَتْ » (٣) .

* كان سيِّدنا التُّعْمَانُ - رضي الله عنه - يحسنُ إِلَى النَّاسِ ، ولا يردُّ مَنْ جاء يسترفدهُ ، بل يعملُ عَلَى إكرامه ما وسعه ذلك ، وقد احتفظت ذاكرةُ تاريخ سيِّدنا التُّعْمَانُ بهذه البادرة الكريمة التي تقول : « لَمَّا عُزِلَ التُّعْمَانُ عَنِ الْكُوفَةِ ، وولاه معاوية حمص ، وفدَّ عليه أعشى همدان مسترفداً ؛ فقال له سيِّدنا التُّعْمَانُ - رضي الله عنه - : ما أقدمك أبا المصباح ؟

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٤٤) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤١٢) مع الجمع والتصرّف .

من الجدير أَنَّ بعض الصَّحابة من الأنصار كانوا مع سيِّدنا معاوية - رضي الله عنهم أجمعين - ، وروي أَنَّ عدداً من الصَّحابة الأنصار لم يبايعوا سيِّدنا عليّاً - رضي الله عنه - منهم : حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وكعبُ بْنُ مالكٍ ، ومحمَّدُ بْنُ مسلمة ، والتُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ، وزيدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وفَضَّالَةُ بْنُ عبيدٍ ، وكان التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ هو الذي أخذ قميص عثمان ملطخاً بالدماء إلى معاوية في الشَّام ، وقد شهد مع معاوية معركة صفّين ، ولم يشتهز عن غيره أَنَّهُ شارك في الحروب . ويتضح من هذا أَنَّ بعضَ الأنصار كانوا مع سيِّدنا علي ، وقليلٌ منهم كانوا مع سيِّدنا معاوية ، وأكثرهم كانوا معتزّلين لم يشاركوا في الفتن ، فرضي الله عن الصَّحابة أجمعين . « المدينة في العصر الأموي » (ص : ٧٨) بشيء من التصرّف .

وقال ابن عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « وكان التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ منقطعاً إِلَى معاوية ، وولاه الكوفة ، وولي قضاء دمشق » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦٠) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦١) ، و« تهذيب التهذيب » (١٠ / ٤٤٨) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤١٢) ، و« الإصابة » (٣ / ٥٢٩) .

قال : جئتُ لتصلني ، وتحفظَ قرابتي ، وتقضيَ ديني .

فأطرقَ التُّعْمان - رضي الله عنه - ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ قال : واللهِ ما من شيء ، ثمَّ إنَّه قال : هه ، كأنَّه ذكَّرَ شيئاً ، فقام من مكانه ، فصعد المنبر ، فقال : يا أهل حمص - وهم يومئذٍ في الديوان عشرون ألفاً - هذا ابن عمِّ لكم من أهل القرآن والشرف ، قدم عليكم يسترفدكم ، فما ترون فيه ؟ قالوا : أصلحَ الله الأمير ، احتكم له ، فأبى عليهم .

قالوا : فإنَّا قد حكمنا له على أنفسنا من كلِّ رجلٍ في العطاء دينارين ، فعجلَّها له من بيتِ المال فعجلَّ له أربعين ألف دينار ، فقبضها ، ثمَّ أنشأ يقولُ في مدح سيِّدنا التُّعْمان - رضي الله عنه - بهذه الأبيات :

فلم أرَ للحاجاتِ عند التماسِها كنُعمانُ نُعمانِ التَّدِي ابنِ بشير
إذا قالَ أوفى ما يقولُ ولم يكنْ كمُدِّلٍ إلى الأَقْوامِ حَبْلَ غُرور
متى أكفرِ التُّعْمانَ لا ألفَ شاكرٍ وما خيرَ من لا يقتدي بشكور
فلولا أخو الأنصار كنتُ كَنازِلٍ ثوى ما ثوى لم ينقلبَ بنصير^(١)

فصاحته وبَيَّانه :

* قلنا ما مفاده : « إِنَّ سيِّدنا التُّعْمانَ بنَ بشير - رضوان الله عليه - من خطباء أبناء الأنصار الذين لا يُجارُون في هذا المضمَر » .

(١) « تاريخ الإسلام » (حوادث ووفيات : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٢٦٢) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦٢) ، و« البداية والنهاية » (٨ / ٢٤٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (٨ / ١٧٩ - ١٨٠) مع الجمع والتصرف .

وفي رواية : « أَنَّ أعشى همدانَ لما سأل التُّعْمانَ بنَ بشير ، صعدَ التُّعْمانَ المنبرَ فحمدلَّ وسبحلَّ وحوقلَّ وأثنى على الله - عزَّ وجلَّ - وقال : إِنَّ أخاكم أعشى همدان قد أصابته حاجةٌ ، ونزلتْ به جائحةٌ ، وقد عمد إليكم ، فما ترون ؟ قالوا : دينار دينار . قال : لا ، ولكنْ ديناران فرضوا ، فأعطاه التُّعْمان من عطياتهم ، فانصرف شاكرًا مادحًا » . « الاستيعاب » (٣ / ٥٢٤) بتصرف .

* ومن المؤكّد أنّ الخطابة تقتضي فصاحةً وبلاغةً من الإنسان ، وقد كان سيّدنا النُّعْمان مُعْرِقاً في البيان وفي الأدب ، فهو من بيتٍ من بيوتات الشُّعر والمعرقين فيه ، وممّن ألقِيَتْ إليهم مقاليدُ الفصاحة ، وقد شهد له بهذا الأمر القاصي والدّاني ، والأديب والعالم .

* ذكر ابنُ رشيق في « العُمدَة » بيوتاتِ الشُّعر وأساطينها ، وذكر النُّعْمان ، ثمّ بدأ فذكر أهل الجاهليّة ، ثمّ ذكر المخضرمين ، وأهل الإسلام فقال : « بيوتاتُ الشُّعر في الجاهليّة والمُعْرِقُون فيه : منها في الجاهليّة : بيت أبي سُلمى ، وكان شاعراً ، واسمه ربيعة ، وكان ابنه زهيرٌ شاعراً ، وله خؤولةٌ في الشُّعر ، خاله بشامةٌ بن الغدير ، وكان كعبٌ وبُجيرٌ ابنا زهير شاعرَيْن ، وجماعة من أبنائهما .

ومن المخضرمين حسانُ بنُ ثابت بن المنذر بن حرام ، هو وأبوه وجدّه ، وأبو جدّه شعراء ، وابنه عبد الرَّحْمَن شاعر ، وسعيد بن عبد الرَّحْمَن شاعر ، ذكر ذلك المبرّد .

وبعد هذين البيتين بيت النُّعْمان بنِ بشير ، وبنوه : أبانُ ، وبشيرُ ، وشيبُ ، وابنته حميدة^(١) ، ومن بني بنيه عبدُ الخالق بن عبد الواحد ، وعبد القدوس بن عبد الواحد بن النُّعْمان ، وأمّ النُّعْمان عمرة بنتُ رواحة شاعرةٌ ، وخاله عبدُ الله بنُ رواحة^(٢) ، أحدُ شعراء النَّبِيِّ ﷺ »^(٣) .

(١) اقرأ سيرة حميدة بنت النُّعْمان الأنصاريّة في الباب الثّاني في موسوعتنا : « بنات الصّحابة » (ص : ٢٦٢ - ٢٧٤) ، ط : ٢ - ٢٠٠٥ م ، فسيرتها روضُ رياحين ينعشُ نفوس المحبين ، لأبناء الصّحابة أجمعين .

(٢) اقرأ سيرة الصّحابيّ الجليل الثَّيْل عبد الله بن رواحة الأنصاريّ في كتابنا : « رجال مبشّرون بالجنّة » (ص : ٣٤٧ - ٣٩٤) ، ط : ٥ - ٢٠٠٣ م ، دار ابن كثير بدمشق ، فسيرته طاقاتٌ من زهرِ المعرفة والأدب والعلم .

(٣) « العُمدَة » (٢ / ١١١٤) .

* وقريبٌ من قولِ ابنِ رَشِيقٍ تصافحُ أَسْماعُنا كَلِماتٌ لِأبِي الفَرَجِ الأَصْبَهانيِّ ؛ إذ أورد ما ملخصه عن سيّدنا الثُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ ، وعن تَأَلَّقِهِ سَلَفاً وخَلَفاً في هذا المضمَر فقال : « والثُّعْمَانُ بنُ بَشِيرٍ من المعروفين في الشُّعْر سَلَفاً وخَلَفاً ، جدّه شاعرٌ ، وأبوه وعمُّه شاعران ، وهو شاعرٌ ، وأولادهُ وأولادُ أولادِهِ شعراء » (١) .

* إذاً فسيّدنا الثُّعْمَانُ - رضي الله عنه - أحدُ أبناء الصَّحابة الأنصار ، الذين حَفِظَتْ عنهم الأدبيّاتُ والأشعارُ ، ومن مستجد نظمٍ فيما زعمَ أهلُ الأخبارِ ورواةُ الأشعارِ ، هذه الأبيات التي تُحاكي نسمات الأسحار ، وتغريد الأطيار ، على أغصان الأشجار ، قرب ضفاف الأنهار :

وإِنِّي لأُعْطِي المَالَ مَنْ لَيْسَ سائِلاً	وأدرك للمولى المعاند بالظُّلُمِ
وإِنِّي متى ما يُلْقَنِي صار ماله	فما بيننا عند الشَّدائدِ مِنْ صَرَمِ
فلا تُعَدِّدِ المولى شريكَكَ في الغنى	ولكنَّما المولى شريكَكَ في العدمِ
إذا مَتَّ ذُو القُرْبى إِلَيْكَ بِرَحْمِهِ	وغَشَّكَ واستغنى فليس بذِي رَحِمِ
ولكنَّ ذَا القُرْبى الَّذِي يَسْتَحْفُهُ	أذاكَ وَمَنْ يرمي العدوَّ الَّذِي ترمي (٢)

* وممَّا نُسِبَ إليه قوله في الفَخْر :

(١) « الأغاني » (١٤ / ١٢٠) دار الفكر ، طبعة مصورة .

(٢) « الاستيعاب » (٣ / ٥٢٥) ، وانظر : « الاستبصار » (ص : ١٢٢) ، وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ : « كان الثُّعْمَانُ فاضلاً ، جواداً ، شاعراً » . « الاستبصار » (ص : ١٢٢) .

وقال ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللهُ : « وكان كريماً ، جواداً ، شاعراً ، شجاعاً » . « أسد الغابة » (٤ / ٥٥٢) .

ولسيّدنا الثُّعْمَانُ كَلِماتٌ تَسِيرُ مَسْرَى الحِكْمَةِ منها قوله : « إِنَّ الهَلَكَةَ كُلَّ الهَلَكَةِ أنْ تَعْمَلَ السَّيِّئاتِ في زَمَانِ البَلَاءِ » . « البداية والنَّهاية » (٨ / ٢٤٥) .

لَنَا مِنْ بَنِي قَحْطَانَ سَبْعُونَ تَبْعًا أَطَاعَتْ لَنَا بِالْخُرُوجِ مَنَا الْأَعَاجِمُ
وَمَنَا سِرَاهُ النَّاسِ هُوْدٌ وَصَالِحٌ وَذُو الْكِفْلِ مَنَا وَالْمُلُوكُ الْأَعَاظِمُ
* وَذَكَرَ رَوَاهُ الْأَخْبَارُ « أَنَّ سَيِّدَنَا التُّعْمَانَ كَانَ يَتَذَوَّقُ جَيْدَ الشَّعْرِ ، وَيَعْرِفُ
مَرَامِيهِ وَمَقَاصِدَهُ ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ قَيْسَ بْنَ الْخَطِيمِ كَانَ يَشَبُّ بِعَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ
أُمِّ التُّعْمَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَكَانَ يَقُولُ :

وَعَمْرَةُ مِنْ سَرَواتِ النَّسَاءِ تَنْفَحُ بِالْمَسْكِ أُرْدَانُهَا
وَصَادَفَ أَنَّ دَخَلَ التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ مَجْلِسًا فِيهِ رَجُلٌ يَغْنِي بِهَذَا الشَّعْرِ ،
فَأَسْكَنُوهُ حِينَ دَخَلَ التُّعْمَانَ ، فَقَالَ التُّعْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ
بِأَسَاءً ، إِنَّمَا قَالَ :

وَعَمْرَةُ مِنْ سَرَواتِ النَّسَاءِ تَنْفَحُ بِالْمَسْكِ أُرْدَانُهَا » ^(١)
* وَكَانَ التُّعْمَانُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَرَدَّ الصَّاعَ صَاعِينَ إِذَا مَا تَعَرَّضَ أَحَدٌ لَهُ أَوْ
لِقَوْمِهِ ، وَكَانَتْ الْكَلِمَاتُ تَنثَالُ عَلَى لِسَانِهِ بِسَهُولَةٍ ، وَتَأْتِيهِ الْأَفْكَارُ طَائِعَةً مَذَلَّةً
الْجَنَاحِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الرَّبِيعُ بْنُ بَكَّارٍ فِي « الْأَخْبَارِ الْمَوْفَقِّيَّاتِ » حَيْثُ قَالَ
مَا خَلَصَتْهُ : « هَجَا الْأَخْطَلُ الْأَنْصَارَ ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ فِي هَجَائِهِمْ :

ذَهَبْتُ قَرِيشٌ بِالسَّمَاخَةِ وَالنَّدَى وَاللَّوْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ
فَرَدَّ عَلَيْهِ التُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ :

أَبْلَغُ قِبَائِلَ تَغْلِبَ ابْنَةُ وَائِلٍ مَنْ بِالْفِرَاتِ وَجَانِبِ الثَّرِثَارِ
فَاللَّوْمُ فَوْقَ أَنْوَفٍ تَغْلِبَ بَيِّنٌ كَالرَّقَمِ فَوْقَ ذِرَاعِ كُلِّ حِمَارٍ
فَلَمَّا بَلَغَ بَنِي النَّجَّارِ الْأَنْصَارُ قَوْلُ الْأَخْطَلِ ، خَرَجَ وَفَدَّ مِنْهُمْ حَتَّى قَدَمُوا
عَلَى مُعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَضَعُوا عِمَامَاتِهِمْ ،

(١) « الاستبصار » (ص : ١١٣ - ١١٤) بتصرف واختصار .

وقالوا : أترى لؤمًا يا أمير المؤمنين ؟ واستعدوا على الأخطل ، فقال : لكم لسانه إلا أن يكون يزيد أجاره .

وكان أشد القوم على الأخطل الثُّعْمان بنُ بشير ، ففيه يقول الأخطلُ مخاطباً أبا خالد يزيد بن معاوية :

أبا خالدٍ دافعت عني عزيمةٌ | وأدركتَ لحمي قبل أن يتبددا
وأطفأت عني نارَ نعمان بعدما | أغدُّ لأمرٍ فاجرٍ وتجرداً ^(١)

* ومن القطفِ الجميلةِ من أخبارِ سيِّدنا الثُّعْمان - رضي الله عنه - ، أنه كان ذا مكانةٍ ورفعةٍ عند سيِّدنا معاوية - رضي الله عنه - وكان أثيراً عنده مكيئاً لا يُردُّ طلبُهُ ؛ ولهذا ما ذكرته بعض كتب الأسمار والمسائرات فقالت : « تهاجى عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ حَسَّان بن ثابت ، وعبدُ الرَّحْمَنِ بنُ الحكم ، فلمَّا أهذرا في التَّهْجاءِ وأفحشا ، كتب معاوية بنُ أبي سفيان - رضي الله عنهما - إلى سعيد بن العاص عامله على المدينة المنورة ، أن يجلدَ كلَّ واحدٍ منهما مئة سوط ، وكان عبدُ الرَّحْمَنِ بن حَسَّان صديقاً مُصافياً لسعيد ، وما مدح أحداً قطَّ غيره ، فكَرِهَ سعيدُ أن يضربه ، أو يضربَ ابنَ عمِّه ، فأمسكَ عنهما ، ثمَّ وليَ مروانُ بنُ الحكمَ فضربَ ابنَ حَسَّان مئة سوط ، ولم يضربْ أخاه ، فكتبَ ابنُ حَسَّان إلى الثُّعْمان بن بشير وهو عند معاوية بالشَّام ، فعرفه بالأمر ، وقال يعاتبُهُ بقصيدةٍ طويلةٍ أولُها :

ليتَ شعري أغائبٌ أنتَ بالشَّامِ | مَ خَليلي أُم راقِدٌ نَعمان
أَيَّة ما يَكُنْ فقد يرجعُ الغا | ئب يوماً ويوقظ الوسنان

وشرح له من خلال أبياته ما يعانيه من ظلم مروان له ، وعدم جُلْدِه لأخيه عبد الرَّحْمَنِ بن الحكم ، فتأثَّر سيِّدنا الثُّعْمان لذلك ، وأجابه بقصيدةٍ على الرَّوي نفسه والقافية ، أولُها :

(١) « الأخبار الموفِّقيات » (ص : ٢٨٨ - ٢٣٠) بتصرّف .

ليسَ فاعلم أخوك يغترُّ بالنو م ولكنَّ محرشٌ يقظان

ثمَّ إنَّ الثُّعْمانَ دخلَ على معاوية فأخبره الخبر ، فكتبَ إلى مروان ، وعزم عليه أن يضربَ أخاه مئةً ، وسرَّحَ في ذلك رجلاً أن يضربَ ابنَ الحكم مئةً ، وبعثَ إلى ابنِ حسانَ بحلَّةٍ ؛ وسألَ مروانُ الأنصارَ أن يكلموا ابنَ حسانَ كي يعفو ، فأبى ، فطلبوا إليه أن يقتصر على خمسين ففعل ، فلقي ابنَ حسانَ بعضُ مَنْ كان لا يهوى ما ترك من ذلك ، فقال : ضربك مئةً ، وتضربُ خمسين ، بئس ما صنعتَ ؛ إذ وهبَتْها له ، فقال : إنَّه عبدٌ ، وإنَّما يُضْرَبُ العبدُ نصف ما يُضْرَبُ الحرُّ . فحُمِلَ هذا الكلام حتَّى شاع في المدينة ، وبلغ ابنُ الحكم ، فشقَّ ذلك عليه ، وأتى أخاه مروانَ وأخبره الخبر ، وقال : فضحني ابنُ حسان ، لا حاجةَ لي فيما ترك ، فهلَمَّ فاقصص ، فَضْرَبَ ابنَ الحكمَ خمسين أخرى ^(١) .

مسندُهُ ومروياته :

* قال الإمامُ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ وغيرُهُ عن سيِّدنا الثُّعْمان - رضي الله

(١) « التَّذْكَرةُ الحَمْدَوِيَّةُ » (٧ / ٢٢٢) ، و « الأَخْبَارُ المَوْفَّقِيَّاتُ » (ص : ٢٥٧ - ٢٦٢) مع الجمع والتَّصْرُف .

ومن الأَخْبَارِ الثُّعْمانِيَّةِ التي ذَكَرَها المِصَادِرُ عن ابنِ الصَّحَابِيِّ بشيرِ بنِ سعدٍ ما ذَكَره ابنُ كَثِيرٍ قال : « رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ بِأَسَانِيدِهِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - تَزَوَّجَ امْرَأَةً جَمِيلَةً جَدًّا ، فَبَعَثَ إِحْدَى امْرَأَتَيْهِ - مَيْسُونَ أَوْ فَاخْتَهُ - لَتَنْظُرَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا رَأَتْهَا أَعْجَبَتْهَا جَدًّا ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : كَيْفَ رَأَيْتَهَا ؟ قَالَتْ : بِدِيعةِ الجَمالِ ، غَيْرِ أَنِّي رَأَيْتُ تَحْتَ سَرَّتِهَا خَالًا أَسْوَدَ ، وَإِنِّي أَحْسَبُ أَنَّ زَوْجَهَا يُقْتَلُ وَيُلْقَى بِرَأْسِهِ فِي حَجَرٍ ، فَطَلَّقَهَا مَعَاوِيَةُ ، وَتَزَوَّجَهَا الثُّعْمانُ بْنُ بَشِيرٍ ، فَلَمَّا قُتِلَ أُتِيَ بِرَأْسِهِ ، فَأَلْقَى فِي حَجَرِهَا سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ . » « البَدْيَاةُ وَالنَّهْيَاةُ » (٨ / ٢٤٥) .
وانظر : « الاسْتِيعَابُ » (٣ / ٥٢٦) .

عنه - : « مسندهُ مئةٌ وأربعةَ عشرَ حديثاً ، اتَّفقا له على خمسة ، وانفردَ البخاريُّ بحديث ، ومسلمٌ بأربعة » (١) .

* وروى سيّدنا الثُّعْمَانُ عن النَّبِيِّ ﷺ ، وعن خاله عبدِ الله بنِ رَوَاحَةَ ، كما روى عن سيّدنا عمرَ بن الخطّاب - رضي الله عنه - ، وعن الصّدّيقِ بنتِ الصّدّيقِ أمّنا عائشة - رضي الله عنها - .

* أمّا مَنْ روى عنه الحديثُ من أهلِ بيته : فابنَاهُ : بشيرٌ ومحمّدٌ ، وروى عنه من علماء التّابعين وأعيانهم عددٌ كبيرٌ منهم : الشَّعْبِيُّ ، وحُميدُ بنُ عبد الرّحمن ، وعروةُ بنُ الرُّبَيْر ، وسماكُ بنُ حرب ، وأبو إسحاق السّبيعي وآخرون (٢) .

* وتوزَّعتْ مروياتُ سيّدنا الثُّعْمَانِ في الصّحيحين والمُسند والسُّنن وغيرها من كتبِ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّريف ، وقد روى له الإمامُ أحمد في « مسندهِ » بالمكرّر (١٠٤ أحاديث) ، وتدورُ الأحاديثُ التي رواها سيّدنا الثُّعْمَانُ حولَ كثيرٍ من أحكامِ الإسلامِ ومعاملاته وآدابه ورقائقه وسنطَلَع في السُّطور الآتية على نماذجٍ منها بإذنِ الله .

* فمن مروياته العظيمة التي تشملُ كثيراً من الأحكام ما أخرجهُ الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ بسنده عن سيّدنا الثُّعْمَانِ بنِ بشير - رضي الله عنهما - ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال : « مَثَلُ القَائِمِ على حَدودِ اللهِ والوَاقِعِ فيها ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا على مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لو أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِينَا خَرْقاً ؛ وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ،

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤١١) ، و « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٢٩) .

(٢) « أسد الغابة » (٤ / ٥٥١) ، و « تهذيب التهذيب » (١٠ / ٤٤٧) ، و « الإصابة »

(٣ / ٥٢٩) ، و « معرفة الصّحابة » (٤ / ٣٢٠) ، وغيره كثير .

وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» (١) .

* وهذا الحديث النبوي الشريف الذي رواه سيّدنا الثُّعْمَانُ بْنُ بشير - رضي الله عنهما - من الأحاديث المهمة في بناء المجتمعات ، وصلاحيها ، وحتى لا تغرق السفينة يشبهه رسول الله ﷺ حال المجتمع في اختلاط الصّالح والطّالح من أفرادها ، واشتراك المطيع والعاصي فيه ، والموقف الذي ينبغي أن يتّخذه الإنسان الصّالح إزاء العاصي المسيء ، بحال سفينة اشتراك ركابها في ملكيتها ، فأراد بعضهم أن يتلف نصيبه فيها ، بما يسبب غرقها .

(١) أخرجه البخاري في الشركة برقم : (٢٤٩٣) ، وفي الشّهادات برقم : (٢٦٨٦) ، وأخرجه أحمد في مواضع ومنها برقم : (١٨٣٨٩ ، ١٨٣٩٨ ، ١٨٤٠٧) . وقوله « القائم على حدود الله » : المحافظ عليها ، والملازم لفعل ما تأمر به ، وترك ما تنهى عنه . و« حدود الله » : شرائع وأحكام وأوامره ونواهيه . و« استهموا » : اقترعوا . و« سفينة » : الفلك ، وجمعها سفائن وسفن ، وسفين ، والسّفان : صانع السفن وسائسها ، واسم حرفته : السّفانة . و« استقوا » : جلبوا ماء الشّقي . و« خرقنا » : ثقبنا . و« هلكوا » : ماتوا . و« نجوا » : سلموا من الهلاك والضّر .

ويوجد في أيّ مجتمع من المجتمعات البشريّة مفسدون جانحون عن السبيل ، وإذا قصّر الصّالحون بواجبهم في الأخذ على أيدي المفسدين ، كثرت نسبتهم في الأرض ؛ وانتشر الشرّ والطّلم والعدوان ، وعندئذ يستحقّ المجتمع الهلاك الكامل الشّامل ، لتعطيله الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ؛ لأنّ السفينة الاجتماعيّة واحدة ، والإفساد الذي يمسّ السفينة قد يؤدّي إلى غرقها وهلاك مَنْ فيها . ويُستفاد من هذا الحديث :

١ - قيام الصّالحين بهداية المفسدين بمختلف الوسائل ، حتّى وسيلة الأخذ على أيديهم .

٢ - إن قصّر الصّالحون في واجباتهم الاجتماعيّة أدّى الأمر إلى الفساد .

٣ - استخدام الأمثلة لتقريب الحقائق والإقناع بها .

* إِنَّ وَجْهَ الشَّبه ههنا : هو نجاهُ الفريقينِ المشتركين في حالٍ دون حال .

* ويمكنُ لنا أنْ نغوصَ قليلاً في معاني هذا الحديثِ المفيدِ لنستخرجَ بعضَ اللَّائِي التي نستفيدُ منها في حياتنا ونجاتنا من أيِّ مكروهٍ قد نَقَعُ فيه .

* فالحبيب المصطفى ﷺ يقربُ إلى الأذهانِ أصلاً كريماً من أصولِ الدِّينِ ، ألا وهو الأمرُ بالمعروفِ ، والنَّهي عن المنكر .

* ومن المتعارف عليه أنَّ الحياةَ زاهرةً بالمتناقضات والمقابلات : فيها المؤمنُ والعاصي ، والمحسنُ والمسيءُ ، والليلُ والنَّهارُ ، والسَّعادةُ والألمُ ، واليسرُ والعُسْرُ ؛ وهذا الاختلاط والاقترانُ هو محلُّ ابتلاءٍ واختبار .

* والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ لا تتوقَّعُ أنْ تستأصلَ الشَّرَّ من حياةِ البشر ؛ لأنَّ طبيعةَ الحياةِ المُعدَّةَ للابتلاءِ والاختبار تستلزمُ وجوده ، فالتَّكليفُ بإزالةِ الشَّرِّ واستئصاله من الأرضِ تكليفٌ بما لا يُستطاع ، وهو ما تنزَّهَ الشَّريعةُ عن أنْ تكلفَ به ، لكنَّها تُكَلِّفُ بما هو في حدودِ الطَّاقة ، ومما هو في حدودِ الطَّاقة أنْ يتغلَّبَ الخيرُ على الشَّرِّ في صراعهما ؛ أنْ يتكلمَ الخيرُ ، ويخرسَ الشَّرُّ ، أنْ يظهرَ الخيرُ ويُعلَنَ به ، ويتوارى الشَّرُّ ، أنْ يكونَ الخيرُ معروفاً ، والشَّرُّ منكراً ؛ وهذا الأمرُ هو عينُ ما أرادته الشَّريعةُ ، وما كَلَّفَتْ به .

* ويتبادر إلى الدَّهنِ سؤالُ مفاده : « مَنْ المسؤول عن الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ؟ » .

* والإجابةُ عن هذا السُّؤالِ واضحةٌ وضوحُ الشَّمسِ في رابعةِ النَّهارِ ؛ إذ يتقاسمُ هذه المسؤوليةَ الاجتماعيةُ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ كُلُّها - حاكمها ومحكومها - والمجتمعُ الإسلاميُّ ، والفردُ المسلم .

* فمسؤوليَّةُ المجتمعِ تتحقَّقُ في رقابته الصَّادقة على الأفراد ، فيعينُ الصَّالحَ على صلاحه ، ولا يجدُ ضعيفُ النَّفسِ ثغرةً ينفذُ منها ضعفه ، فالضَّعْفُ موجودٌ ، لكنَّ ينبغي ألا تكون له السَّيادةُ ، والإسلامُ يربِّي الإنسانَ

تربيّة تجعله رقيباً على نفسه ، فإذا ضَعُفَ وزَلَّ ، فأمامه الفرصُ العديدة للثُّهُوسِ ، والله - عَزَّ وَجَلَّ - يقولُ في الكتابِ العزيزِ : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] ، وما دامَ الإنسانُ ضعيفاً ، فالخطأُ منه متوقَّعٌ .

* والذي ينبغي عليه ألا يرضى عن الخطأ ، وأن يقلع عنه ، لا أن يستمرّ فيه ويستمرّته ويستعذبه . والمفروض أن يتابع الإنسانُ المسيرةَ الصَّحيحة وإن تعثَّرَ إلى أن يتوازَنَ ، ومن ثمَّ يستقيمُ على أمرِ الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، ويقومُ بالأوامرِ الإلهيّةِ ليحقِّقَ الاستقامةَ المطلوبةَ منه ، وعندها تتحقَّقُ له السَّعادةُ المرجوَّةُ في الدُّنيا ، وكذلك في الآخرة . كما ينبغي على الإنسان ألاَّ يستسلمَ للخطأ ، فلا بد أن ينهضَ وأن يتوبَ ويستغفرَ ، ويقلعَ عن الخطأ وعن الدُّنْبِ ، فيتوبَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليه ، ثمَّ يخطو خطواتَ سليمةٍ وربما يسقطُ ، فعليه أن ينهضَ فيتوبَ الله عليه ، وهكذا حتّى يستقيمَ على الطَّريقِ استقامةً صافيةً من الشَّوائبِ والمهلكاتِ ، وما أجمل أن يستحضرَ دائماً قولَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

* جاء في الحديثِ القدسيِّ الشَّريف الذي أخرجه مسلمٌ عن سيِّدنا أبي هريرة - رضي الله عنه - ، عن النَّبِيِّ ﷺ ، فيما يحكي عن ربِّه - عَزَّ وَجَلَّ - قال : « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ، فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال الله - تبارك وتعالى - : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، علمَ أنَّ له ربًّا يغفرُ الذُّنْبَ ، ويأخذُ بالذُّنْبِ ، ثمَّ عادَ فأذنبَ ، فقال : أي ربِّ ، اغفر لي ذنبي ، فقال - تبارك وتعالى - : عبدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فعلمَ أنَّ له ربًّا يغفرُ الذُّنْبَ ، ويأخذُ بالذُّنْبِ ، ثمَّ عادَ فأذنبَ ، فقال : أي ربِّ ، اغفر لي ذنبي ، فقال - تبارك وتعالى - : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فعلمَ أنَّ له ربًّا يغفرُ الذُّنْبَ ، ويأخذُ بالذُّنْبِ ، اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك » (١) .

(١) أخرجه مسلم في التَّوبة برقم : (٢٧٥٨) .

* إِنَّ هَذِهِ التُّصَوِّصَ النَّاصِعَةَ تَوْضُحُ أَنَّ الْمَخْطِئَ يَدْرِكُ خَطَأَهُ ،
ولا يَرْضَى عنه ؛ لَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَعَاقِبُ بِالذَّنْبِ وَيَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ ؛ وَهَذَا
الْإِنْسَانُ الْمَخْطِئُ الَّذِي يَحَاسِبُ نَفْسَهُ دَائِمًا ، وَيَسْتَدْرِكُ فَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ ، وَيَقْلَعُ
عَنْ خَطْئِهِ لَا بَدَّ أَنْ يَأْتِيَ وَقْتُ يَنْتَهِي بِهِ إِلَى الْكَفِّ عَنِ الْخَطَا ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ
الذُّنُوبِ نَهَائِيًّا .

* مِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ لِلْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ رِقَابَةٌ عَلَى أَفْرَادِهِ ؛ وَالْعُلَمَاءُ هُمْ
الْمَسْئُولُونَ فِي مَقْدَمَةِ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا قُدُورَةً طَيِّبَةً لِلنَّاسِ
بَأَنْ يُقِيمُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، فَيَكُونَ سُلُوكُهُمْ مُطَابِقًا لِعَمَلِهِمْ ،
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

* وَعَلَى الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ أَنْ يَقُودُوا سَفِينَةَ الْحَيَاةِ إِلَى النَّجَاةِ ، وَأَنْ
يَمْنَعُوا عِبَثَ الْعَاشِينَ ، وَعَلَى كُلِّ فَرْدٍ أَنْ يُؤَدِّيَ دَوْرَهُ فِي حُدُودِ إِمْكَانِيَّاتِهِ ،
وَإِطَارِ مَسْئُولِيَّاتِهِ ، وَيَنْبَغِي أَلَّا يَحْتَجَّ أَحَدٌ بِقَوْلِهِ : « عَلَيَّ نَفْسِي ، وَلَسْتُ
مَسْئُولًا عَنْ غَيْرِي » ، وَهَذَا صَحِيحٌ فِي الْأَمْرِ الشَّخْصِيِّ ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ تَرْكُ
الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا كَانَ فِعْلُ ذَلِكَ مُمْكِنًا وَمُفِيدًا لِلنَّجَاةِ .

* وَمِنْ مَرْوِيَّاتِ سَيِّدِنَا الثُّعْمَانِ الصَّحَّاحِ الْحَسَنِ فِي اخْتِذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ
الشُّبُهَاتِ ؛ مَا أَخْرَجَهُ إِمَامُ أَهْلِ الْحَدِيثِ بِسَنَدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ ، عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ
بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ - وَأَهْوَى الثُّعْمَانُ بِإَصْبَعِهِ إِلَى أُذُنِهِ - : « إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ
بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ
لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرَعِي حَوْلَ
الْحِمَى ، يَوْشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ
مَحَارِمَهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا
فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » (١) .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْإِيمَانِ بِرَقْمٍ : (٥٢) ، وَفِي الْبَيُوعِ بِرَقْمٍ : (٢٠٥١) ، =

* يرشدنا الحبيب الأعظم رسول الله ﷺ ، من خلال هذا الحديث الشريف الأنيق ، الذي رواه الثُّعْمَانُ - رضي الله عنه - ، إلى ما هو خيرٌ لنا في ديننا وأعراضنا ، وهو الابتعادُ عن مواطن الرِّيب ، فَيَسْلَمُ الدِّينُ من النَّقْصِ ، والعرضُ من الطَّعْنِ ، فذكرَ ﷺ أَنَّ الحلالَ واضحٌ بَيِّنٌ ، وهو ما أذن الشَّارِعُ في فعله بنصٍّ في القرآن الكريم ، أو في كلام رسول الله ﷺ ، وكذلك الحرام واضحٌ ؛ لأنَّه ما منع الشَّارِعُ فعله بنصٍّ قرآني ، أو حديثٍ نبويٍّ . وبعبارة أسهلٍ يمكنُ أن نقولَ : « الحلالُ هو الطَّيِّبُ النَّافِعُ المفيدُ ، والحرامُ هو الخبيثُ السَّيِّئُ الضَّارُّ ، وبينَ الحلالِ والحرامِ أمورٌ خفيةٌ مشتبهةٌ لا يدري كثيرٌ من النَّاسِ أهَيَّ من الحلالِ أم من الحرامِ » .

* كما أنَّ في الجسدِ مضغةً صلاحُها صلاحٌ للجسدِ كلِّه ، وفسادُها فسادٌ له ، تلك المضغةُ هي القلبُ ، مورَّغُ الدَّمِ في عروقِ الجسمِ ، ومصلحُه بعد فسادِه ، والمرادُ به هنا العقلُ الذي يعملُ بحرارةِ الحياةِ المنبعثةِ من الدَّورةِ

= وأخرجه مسلمٌ في المساقاة برقم : (١٥٩٩) ، واللفظ له . وقوله « الحلال » : المباح الذي يجوزُ فعله ، ويجوزُ تركه بلا حرج . و« الحرام » : هو المحظور الذي لا يجوزُ فعله . و« بَيِّنٌ » : واضحٌ ظاهرٌ . و« مشتبهاً » : مُشكلات ، يُقال : أمورٌ مشتبهة ؛ أي : مشكلة يشبه بعضها بعضاً فيصعبُ تمييزها . و« استبرأ » : طلبُ البراءة . و« الحمى » : المكان ، أو الزَّرْعُ أو الشَّيْءُ المحمي . و« يوشك » : يسرُعُ . و« يرتع » : الرُّتْعُ : الأكلُ والشُّربُ في رَغَدٍ وتَنَعُّمٍ . و« مضغةٌ » : المضغة هي القطعةُ من اللحمِ بِقَدَرٍ ما يمضغُ الإنسانُ في فيه ، وتُجمع على مُضْغٍ . ومن فوائد الحديث :

١ - الحلالُ الصَّرفُ والحرامُ الصَّرفُ واضحان ، تدركُ العقولُ السَّليمةُ أحكامهما دون اشتباه أمرهما .

٢ - مَنْ ترك الشُّبُهاتِ وأتقاهما هو الذي يَسْلَمُ .

٣ - حمىُ الله هي محارمه ؛ أي : أوامره ، ونواهيه ، وتكاليفه .

٤ - جذورُ السُّلوكِ الإنساني ترجع إلى القلب الذي يستقرُّ فيه الإيمان .

الذموية ، ولا شك في أنَّ صلاح العقل ، واستقامته في الإدراك والتفكير ، ووزنه الأشياء بميزان الحقيقة ، وتحريه الإنصاف في أحكامه ، يترتب عليه صلاح الأعضاء كلها ، فلا تصدر إلا خيراً ، ولا تعمل إلا صالحاً ، ولا تقول إلا حسناً ؛ لأنه الحاكم عليها ، والرئيس بينها ، وإذا صلح الرئيس صلحت الرعية ، أما إذا فسد العقل ، واختل نظام التفكير ، وغلبه على ملكه باعث الشهوة ، وسلطان الهوى ، فسدت سائر الأعضاء ، فلا يصدر غير الشر ؛ إذ حكمة العقل مفقودة ، وحركته مشلولة ، وهل إذا أصيب القلب تسلم الحياة ، ويصح الجسد ؟ لا ؛ كذلك العقل في مرضه مرض القوى جميعها ، لذا ينبغي أن نربي العقول ، وأن نعوّدها التفكير السليم المستقيم ، والحكم الصحيح ، ومن العبث أن نهملها ، وألا نغذيها بالنظر والعلم والمذاكرة والبحث ، وإذا عرفنا كيف نستخدم هذه المضغة في مرضاة الله - عز وجل - نستطيع أن نسخر العالم كله لخدمة الإسلام .

* إذاً ، فهذا الحديث المفيد يحذرننا من الشبهات ، ومن الوقوف في مواقف الشك والريب ، ويدعو إلى الاحتراس وبُعد النظر ، ويحض على تخليص الدين من الشوائب ، ويدعو إلى تنمية العقل ، وترقية التفكير ، لتكون الأعمال منظّمة ، طيبة العاقبة .

* ونقرأ في كتاب التوبة ، والحض عليها ، والفرح بها ، ورضا الله - عز وجل - عن التوابين ، ما أخرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ بِسَنَدِهِ عن سماك قال : خطب الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ فقال : « اللهُ أَشدَّ فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ حمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ، ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى كَانَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَدْرَكَتُهُ الْقَائِلَةُ ، فَتَزَلَّ فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فغلبته عينه ، وأنسلَّ بغيره ، فاستيقظ فسعى شرفاً فلم يرَ شيئاً ثم سعى شرفاً ثانياً فلم يرَ شيئاً ، ثم سعى شرفاً ثالثاً فلم يرَ شيئاً ، فأقبل حَتَّى أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ ، فبينما هو قاعدٌ إِذْ جَاءَ بَعِيرُهُ يَمْشِي ، حَتَّى وَضَعَ خَطَامَهُ فِي يَدِهِ ، فَلَلَّهُ أَشدَّ فرحاً بتوبة العبد ، من هذا حين وجدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ » . قال سماك : فزعم الشعبي : أنَّ الثُّعْمَانَ رَفَعَ هَذَا

الحديث إلى النبي ﷺ ، وأما أنا فلم أسمعهُ (١) .

مع الخالدين :

* عاش سيّدنا الثُّعْمَانُ في ظلّ الخلافةِ الرَّاشِدةِ مرعيَ الجانب ، وكان من أبناء الصّحابةِ الأنصار الذين يُقصدون لأخذِ العِلْمِ والرّواية عنهم .

* ولما صارتِ الخلافةُ إلى سيّدنا معاويةَ - رضي الله عنه - ، كان الثُّعْمَانُ منقطعاً إليه ، فاستعملهُ معاويةُ على حمصَ ، ثمّ على الكوفةِ ، واستعمله بعده ابنُهُ يزيدُ بنُ معاويةَ ، وكان هواهُ إلى معاويةَ - رضي الله عنه - وميلُهُ إليه ، وإلى ابنهِ يزيدَ ، فلمّا مات معاويةُ بنُ يزيدَ ، دعا النَّاسُ إلى بيعَةِ عبدِ الله بنِ الرُّبَيْرِ بالشَّامِ ، فخالفهُ أهلُ حمصَ ، فخرجَ منها ، فاتَّبَعُوهُ وقتلوه ، وذلك بعد وقعةِ مرجِ راهط سنة : (٦٤ هـ) في ذي الحِجَّةِ (٢) .

* وقال ابنُ عساکر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « لَمَّا قُتِلَ الضَّحَّاكُ بنُ قيسَ بمرجِ راهط في سنة أربع وستين في خلافة مروان بن الحكم ، أراد الثُّعْمَانُ بنُ بشير أن يهرب

(١) أخرجه مسلم في التَّوْبَةِ برقم : (٢٧٤٥) ، وفي البابِ أحاديث عديدة في المجال ذاته تحسّنُ مراجعتها . وقوله « بتوبة » : التَّوْبَةُ : أصلُ التوبة في اللغة : الرَّجُوعُ ، يُقَالُ : تابَ ، وثابَ ، وآبَ ، بمعنى رجع . والمرادُ بالتوبة : الرجوعُ عن الذَّنْبِ . واتفق العلماءُ على أنَّ التَّوْبَةَ من جميع المعاصي واجبةٌ ، وأنها واجبةٌ على الفور ، لا يجوزُ تأخيرها ، سواء أكانت المعصيةُ صغيرةً ، أم كبيرةً ، والتَّوْبَةُ من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السُّنَّةِ بالشَّرع ، وتصحُّ التَّوْبَةُ من ذنب ، وإن كان مُصِراً على ذنبٍ آخر ، وإذا تاب توبةً صحيحةً بشروطها ، ثمّ عاودَ ذلك الذَّنْبَ كتب عليه ذلك الذَّنْبُ الثَّانِي ولم تبطلُ توبته ، ولو تكررت التَّوْبَةُ ، ومعاودة الذَّنْبِ صحَّحتْ ، ثمّ توبة الكافر من كفره مقطوع بقبولها . و« انسلَّ بعيره » : ذهب في خفية . و« شرفاً » : لعله ما ارتفع من الأرض لينظر منه هل يرى البعير . « المنهاج » (ص : ١٩٢٠ - ١٩٢١) بتصرُّف .

(٢) « أسد الغابة » (٤ / ٥٥٢) بتصرُّف يسير .

من حمص ، وكان عاملاً عليها ، فحالف ودعا لابن الزبير ، فغلبه أهل حمص ، واحتزوا رأسه ، فقالت امرأته الكلبيّة : ألقوا رأسه في حجري ، فأنا أحقُّ به « (١) .

* وأورد الإمام الذهبيُّ بأنَّ سيّدنا الثُّعْمان قتل بقرية بَيْرين ، قتله خالدُ بنُ خلِيٍّ بعد وقعة مرجِ راهط في آخر سنة أربع وستين رضي الله عنه (٢) .

* ولمّا تحدّث ياقوتُ الحمويُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن « بَيْرين » تعرّضَ لذكرِ مقتلِ سيّدنا الثُّعْمانِ بنِ بشير فقال : « بَيْرين : من قُرَى حمص ، قال القاضي عبد الصّمد بن سعيد الحمصيّ في تاريخ حمص : كان الثُّعْمانُ بنُ بشير الأنصاريّ زُبَيراً ، فحدّث عن سُلَيمانَ بنِ عبد الحميد البهرانيّ قال : لمّا صاح النَّاسُ في زمنِ ابنِ الزُّبير بالثُّعْمانِ بنِ بشير خرجَ هارباً على وجههِ من حمص ، فلحقه خالدُ بنُ خلِيٍّ في شَبَبَةٍ من الكلاعِين حتّى أتى حَرْبَنَفَسَا ، فقال : أيّ قرية هذه ؟ فقالوا : حربنفسا .

فقال : حَزَبَ أنفسنا ، ثمّ مضى حتّى أتى بَيْرين فقال : أي قرية هذه ؟ فقالوا : بَيْرين ، فقال : فيها برنا ، فقتله خالدُ بنُ خلِيٍّ فيها سنة : (٦٥ هـ) « (٣) .

* كان مقتلُ سيّدنا الثُّعْمانِ أليماً على نفوس النَّاس ، وخاصة على نفوسِ أهله ومحبيه ، فقد رثته ابنته حميدة بنتُ الثُّعْمانِ أحرَّ رثاء فقالت :

لَيْتَ ابْنَ مَزْنَةَ وابْنَه كَانُوا لِقَتْلِكَ واقِيَه

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦٣) ، وانظر : « الاستيعاب » (٣ / ٥٢٥ - ٥٢٦) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤١٢) ، بتصرّف يسير . وانظر : « البداية والنهاية » (٨ / ٢٤٤) .

(٣) « معجم البلدان » (١ / ٥٢٦) .

وبنـي أمـيـة كـلـهـم
جاء البـريـدُ بـقـتـلـهـ
يستفتحون برأسه
فلأبـكـيـن مـسـرـة
ولأبـكـيـن كـ ما حـيـن
لم تبق منهم باقيه
يا للـكـلاب العـاويـه
دارت عليهم ثانيه
ولأبـكـيـن عـلائيـه
تُ مع السباع العاديه^(١)

رضي الله عن الصَّحابيِّ ابنِ الصَّحابيِّ ابنِ الصَّحابيَّةِ الثُّعْمَانِ بنِ بشير الذي
عشنا معه أوقاتاً مفيدةً ، نستنشقُ عبقَ البلاغةِ من نفحاتِهِ ، ونتحلَّى برواياته التي
استقيناها من صَفحاتِهِ ، ونرجو الله - عزَّ وجلَّ - أنْ يَمُنَّ علينا بمغفرته ، وأنْ
يدخلنا في رحمته ، وأنْ يجمعنا مع نبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ والصَّحابةِ في جَنَّتِهِ ، فهو
الكريمُ الوهَّابُ ، وهو الغفور التَّوَّابُ .



(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٦٣ - ١٦٤) ، و « البداية والنهاية »
(٨ / ٢٤٤) .

البابُ الثالث

من أبناءِ أهل البيت

- * عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .
- * عُيَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

عبدُ اللَّهِ بنُ جعفر

رضي الله عنهما

- * صحابيٌّ جليلٌ ؛ وابنُ صحابيٍّ كريمٍ من أهل البيت .
- * روى أحاديث شريفة منشورة في مصادر الحديثِ المعتمدة .
- * كان أجودَ العرب ؛ يُسمَّى بَحْرَ الجودِ ؛ وتوفي سنة : (٨٠ هـ) .

عبدُ اللَّهِ بنُ جَعْفَرَ رضي اللهُ عنهما

الصَّحَابِيُّ السَّيِّدُ :

* عبدُ اللَّهِ بنُ جعفر بن أبي طالب ^(١) ، السَّيِّدُ الْعَالِمُ ، أبو جعفر القرشيُّ الهاشميُّ ، الحبشيُّ المولد ، المدنيُّ الدَّار ، الجواذُ بنُ الجواد ذي الجناحَيْن ، له صحبةٌ ورواية ، عِدَادُهُ فِي صِغارِ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ - رضي اللهُ عنهم أَجْمَعِينَ - .

* أَخْبَارُ هَذَا الصَّحَابِيِّ كَرُوحِ الصَّبَاح ، تَرَدُّ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْمَاءِ الْقَرَّاح ، وَتَرْشُدُهَا إِلَى سُبُلِ النَّجَاح .

* وَإِذَا مَا دَقَّقْنَا النَّظَرَ ؛ وَسَرَّخْنَا الْفِكَرَ ؛ فِي سِيرَةِ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - ، لَأَلْفِينَا أَنَّهُ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ ، وَمَكَانَةٍ كَرِيمَةٍ ، فَهُوَ

(١) « فَوَاتُ الْوَفَيَّاتِ » (١ / ٤٤٤ - ٤٤٥) ، و« سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ » (٣ / ٤٥٦ - ٤٦٢) ، و« أَسْدُ الْغَابَةِ » (٣ / ٩٤ - ٩٦) ، تَرْجُمَةُ رَقْم : (٢٨٦٢) ، و« الْإِصَابَةُ » (٢ / ٢٨٠ - ٢٨١) ، و« الْإِسْتِعَابُ » (٢ / ٢٦٦ - ٢٦٨) ، و« تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ » (١ / ٢٦٣ - ٢٦٤) ، و« الْبَدَايَةُ وَالنَّهَائِيَةُ » (٩ / ٣٣ - ٣٤) ، و« مَخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ » (١٢ / ٧٢ - ٩١) ، و« مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ » (٣ / ١١٣ - ١١٥) تَرْجُمَةُ رَقْم (١٥٩١) . و« نَسَبُ قُرَيْشٍ » (ص : ٨١ - ٨٢ ، و ٣٠٤) ، و« تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ » (٥ / ١٧٠ - ١٧١) ، وَمَصَادِرُ أُخْرَى لَا تَحْصِي وَلَا تُسْتَقْصَى .

من عداد بني هاشم الأخيار ، ومن أبناء أهل البيت الأطهار ، حظي بكفالة النبي المختار ﷺ ؛ إذ إنه لما استشهد أبوه جعفر يوم مؤتة ، كفله النبي ﷺ ، ونشأ في حجره الطاهر الشريف ، فنال من البركة والتشريف ، ما جعله ذا رأي حصيف ، وعلم منيف .

* وأُمُّ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ هِيَ السَّيِّدَةُ الْمُنْجَبَةُ : أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسِ الْخُثْعَمِيَّةِ ^(١) من المهاجرات الأول ، أسلمت قديماً قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، وهاجرت هذه المرأة المؤمنة إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب ^(٢) - رضي الله عنه - ، وقد وُلِدَ عَبْدُ اللَّهِ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَاسْمِي عَبْدَ اللَّهِ ، كَمَا أَنَّ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِلْمُهَاجِرِينَ هُوَ ابْنُ الرَّبِيرِ ، وَاسْمِي عَبْدَ اللَّهِ .

* ومن لطائف الاتفاق وعجائبه ، أَنَّ كِلَا الرَّجُلَيْنِ : عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيرِ ، قَدْ وُلِدَا فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَأَنَّ اسْمَهُمَا وَاحِدٌ ، وَأَنَّ اسْمَ أُمَّهُمَا وَاحِدٌ : أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّبِيرِ ، كَمَا ذَكَرُوا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الرَّبِيرِ قَدْ بَايَعَا النَّبِيَّ ﷺ ، وَهُمَا ابْنَا سَبْعِ سَنِينَ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَبَسَّمَ لَمَّا رَأَاهُمَا ، وَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعَهُمَا ^(٣) .

(١) اقرأ سيرة أسماء بنت عُمَيْسٍ - رضي الله عنها - في موسوعتنا : « نساء من عصر النبوة » (ص : ٣٧٢ - ٣٨٠) ، ففي سيرتها دروس تربوية قيمة ، ومواقف لا تنسى ، فهذه المرأة من النساء الفضليات .

(٢) اقرأ سيرة جعفر بن أبي طالب في الباب الثاني من كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٢١٣ - ٢٧٧) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٤) ، و « البداية والنهاية » (٩ / ٣٣) ، وقال ابن كثير رحمه الله : « وهذه - أي : البيعة - لم يتفق لغيرهما » .

* ومن الجدير بالذكر أَنَّ السَّيِّدَةَ أَسْمَاءَ بِنْتَ عَمِيسَ بعد أَن وُلِدَتْ ابنها عبد الله بن جعفر ، وُلِدَ لِلنَّجَاشِيِّ وَلَدٌ بعد ذلك بأيَّام ، فأرسل إلى جعفر : « ما سَمَّيْتَ ابنك ؟ » . قال : « عبد الله » . فسَمَّى النَّجَاشِيُّ ابنه عبد الله ، وأخذته السَّيِّدَةُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيسَ ، فأرضعته حتَّى فطمته بلبن ابنها عبد الله بن جعفر ، ونزلت أَسْمَاءُ عند الحبشيين منزلةً سامقةً باسقةً ، ثمَّ ولدت لسيِّدنا جعفر في الحبشة ابنه : مُحَمَّدًا وعوناً . ولمَّا استُشْهِدَ سيِّدنا جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - تزوّجت أَسْمَاءُ شيخَ الصَّحَابَةِ أبا بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - فولدت له مُحَمَّدًا ، ثمَّ بعد وفاته تزوّجها سيِّدنا عليُّ بنُ أبي طالب فولدَتْ له يحيى ، فيكون عبدُ الله بن جعفر أخا مُحَمَّدَ بن أبي بكر الصِّدِّيق ، ويحيى بن علي بن أبي طالب لأُمّهما .

* ولمَّا توفي رسولُ الله ﷺ وكان لعبد الله بن جعفر من العمر عشر سنين ، ويُعْتَبَرُ عبدُ الله آخر مَنْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ من بني هاشم وفاة ؛ إذ توفي سنة (٨٠ هـ) ^(١) ولم يكن من بني هاشم من الصَّحَابَةِ سواه - رضي الله عنه - .

في كَنَفِ النَّبِيِّ ﷺ :

* مكثَ عبدُ الله بنُ جعفر - رضي الله عنهما - ومهاجرو الحبشة زمناً في رعاية النَّجَاشِيِّ ، إلى أن عادوا أجمعين يوم فتح خيبر ، وفرح الحبيب المصطفى ﷺ بعودة المهاجرين ، كما فرح لقدوم جعفر ومن معه من عداد أهل البيت الهاشميين الأَطْهَارِ ، وكان من بينهم عبدُ الله بن جعفر الأثير الحبيب عند الحبيب الأعظم ﷺ .

* وكان لمهاجري الحبشة مكانةٌ فضلى في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ ، فقد نَوَّهَ إلى فضلهم ، وإلى مكانتهم في عالم المهاجرين ،

(١) « البداية والنهاية » (٩ / ٣٣) ، و« المستدرک » (٣ / ٦٥٥) مع الجمع بينهما .

وخصوصاً بعد أن قدموا من الحبشة على متن سفينة بصحبة أبي موسى الأشعري ومن معه من الأشعريين ؛ فقد أشار الحبيب المصطفى ﷺ إلى أن لهم هجرتين اثنتين ولأصحابه هجرة واحدة ، وزاد من إكرامهم أن أعطاهم من غنائم خيبر ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لمن شهد معه وإلا لأصحاب السفينة جعفر وأصحابه (١) .

* وقد فصل لنا بيان هذا الأمر وتبيينه ، أحد أعضاء وفد مهاجري الحبشة ، وهو سيدنا أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - ، فيما أخرجه مسلم عنه من حديث طويل قال : « ... فكان ناسٌ من الناس يقولون لنا - يعني : لأهل السفينة - : نحن سبقناكم بالهجرة . فدخلت أسماء بنت عميس - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه ، فدخل عمر على حفصة ، وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟

قالت : أسماء بنت عميس .

قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

فقالت أسماء : نعم .

فقال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم .

فغضبت وقالت كلمة : كذبت يا عمر ! كلا ، والله ! كتتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكثاً في دار ، أو في أرض البعداء البغضاء في الحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وإيم الله ! لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كثاً نؤذي

(١) انظر هذا الأمر بالتفصيل في « صحيح مسلم » ، كتاب : فضائل الصحابة ، برقم : (٢٥٠٢) ، وكذلك كتب السيرة النبوية المتنوعة عند الحديث عن غزوة خيبر .

وَنُخَافُ ، وسأذكرُ ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيدُ على ذلك .

فلَمَّا جاء النَّبِيُّ ﷺ قالت : يا نبيَّ الله ! إنَّ عمرَ قال كذا وكذا .

فقال رسولُ الله ﷺ : « ليس بأحقَّ بي منكم ، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم ، أهلُ السَّفينَةِ ، هجرتان » .

قالت : فلقد رأيتُ أبا موسى ، وأصحابَ السَّفينَةِ يأتوني أرسالاً ، يسألوني عن هذا الحديث ، وما من الدُّنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم ممَّا قال لهم رسولُ الله ﷺ . فلقد رأيتُ أبا موسى ، وإنَّه ليستعيد هذا الحديث مِنِّي » (١) .

* إِذَا ، فسَيَدنا عبدُ الله بنُ جعفر - رضي الله عنهما - ممَّن كُتِبَتْ له هجرتان ، وممَّن ولد في حياة النَّبِيِّ ﷺ وسمع منه ورآه ، وترجى في كنفهِ الطَّاهر ، بل كان ﷺ وليُّه في الدُّنيا والآخرة بعد أن استشهد جعفر - رضي الله عنه - .

* أخرج الإمامُ أحمدُ وغيره عن عبدِ الله بنِ جعفر - رضي الله عنهما - مبيناً هذا الأمر المبارك فقال : « بعثَ رسولُ الله ﷺ جيشاً ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : « إِنْ قُتِلَ زيدٌ أو استشهد فأمركم جعفر ، إِنْ قُتِلَ أو استشهد فأمركم عبدُ الله بنُ رواحة » . فلقوا العدو فأخذ الرَّاية زيد ، فقاتل حتَّى قُتِلَ ، ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر ، فقاتل حتَّى قُتِلَ ، ثمَّ أخذها عبدُ الله بنُ رواحة فقاتل حتَّى قُتِلَ ، ثمَّ أخذ الرَّاية خالد بن الوليد ، ففتح الله عليه ، وأتى

(١) أخرجه مسلمٌ في فضائل الصَّحابة برقم : (٢٥٠٢ ، ٢٥٠٣) ، ومعنى قول أسماء لعمر - رضي الله عنهما - « كذبت » ؛ أي : أخطأت ، وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ . وقولها « البعداء البغضاء » : البعداء في النَّسب ، البغضاء في الدِّين ؛ لأنَّهم كفَّار إلا التَّجاشي ، وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ، ويوري لهم . وقولها « أرسالاً » : أفواجاً ، فوجاً بعد فوج .

خبرهم النَّبِيُّ ﷺ ، فخرج إلى النَّاس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : « إِنَّ إِخْوَانَكُمْ لَقُوا الْعَدُو ، وَإِنَّ زَيْدًا أَخَذَ الرَّايَةَ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ اسْتَشْهَد ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِب ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ اسْتَشْهَد ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ اسْتَشْهَد ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيْوفِ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيد ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ » ، ثُمَّ أَهْمَلَ آلُ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ ، ثُمَّ أَتَاهُمْ ، فَقَالَ : « لَا تَبْكُوا عَلَيَّ أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ ، ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي » . فَجِيءَ بَنَا كَانُوا أَفْرَاحُ ، فَقَالَ : « ادْعُوا لِي الْحَلَّاقَ » فَجِيءَ بِالْحَلَّاقِ ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِيهُ عَمَّنَا أَبِي طَالِب ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي » ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَشَالَهَا ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ » قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . فَجَاءَتْ أُمُّنَا فَذَكَرَتْ لَهُ يَتِمُّنَا ، وَجَعَلَتْ تَفَرِّخُ لَهُ ، فَقَالَ : « أَلْعَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا وَلِيَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؟ ! » (١) .

* وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مُتَابِعًا وَضَفَهُ لِلرَّعَايَةِ النَّبَوِيَّةِ لَهُ : « إِنَّمَا أَحْفَظُ حِينَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ أُمِّي ، فَنَعَى لَهَا أَبِي ، فَأَنْظَرُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَمْسُحُ عَلَيَّ رَأْسِي وَرَأْسَ أَخِي ، وَعَيْنَاهُ تَهْرَاقَانِ الدَّمُوعَ حَتَّى تَقْطُرَ لَحِيَّتُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ قَدَّمَ إِلَيَّ أَحْسَنَ الثَّوَابِ ، فَاخْلُفْهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَا خَلَفْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ » ، ثُمَّ قَالَ : « يَا أَسْمَاءُ ! أَلَا أَبْشُرُكِ ؟ » .

قَالَتْ : بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي .

قَالَ : « فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - جَعَلَ لَجَعْفَرٍ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ » .

(١) « المسند » (١ / ٤٣٧ - ٤٣٨) ، حديث رقم : (١٧٥٠) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٣) مع الجمع بينهما . ومعنى قوله « تفرخ » ؛ أي : ضعفوا ، وصاروا كالفرخ . وانظر : « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٥٧ - ٤٥٨) وتخريج الحديث فيه أيضاً .

قالت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فَأَعْلِمِ النَّاسَ ذَلِكَ .

فقام رسول الله ﷺ ، وأخذ يمسحُ بيده رأسي حتَّى رقيَ على المنبر ، وأجلسني أمامه على الدَّرَجَةِ السُّفْلَى والحزن يُعرفُ عليه ، فتكلَّم فقال : « إِنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه وابنِ عمِّه ، ألا إِنَّ جعفرًا قد استشهد ، وقد جعلَ اللهُ له جناحَيْنِ يطيرُ بهما في الجنةِ » .

ثمَّ نزلَ رسولُ الله ﷺ ، فدخل بيته ، وأدخلني ، وأمر بطعامٍ يُصْنَعُ لأهلي ، وأرسل إلى أخي ، فتغدينا عنده واللهِ غداءً طيباً مباركاً ، عمدت سلمى^(١) خادمه إلى شعير فطحنته ، ثمَّ نسفتَه ، ثمَّ أنضجته ، ثمَّ أدمته بزيت ، وجعلت عليه فُلْفَلاً ، فتغديتُ أنا وأخي معه ، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه ، كلَّما صار في بيت إحدى نسائه ، ثمَّ رجعنا إلى بيتنا ، فأتى رسولُ الله ﷺ وأنا أساومُ بشاةٍ أخألي ، فقال : « اللهمَّ باركْ له في صفقته » . فما بعثُ شيئاً ولا اشتريتُ إلا بُورك لي فيه »^(٢) .

* وثبتَ في الصَّحيح وغيره أَنَّ الصَّادِقَ المصدوقَ ﷺ قد حملَ عبدَ الله بن جعفر على دابته مع أحدِ سبطَيْه الحسن أو الحسين - رضي الله عنهما وأرضاها - .

* أخرج مسلم وغيره بسندٍ عن سيِّدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : « كان رسولُ الله ﷺ إذا قدَّمَ من سَفَرٍ تُلقِي بصبيانِ أهلِ بيته ، وإنَّه قدِمَ من سَفَرٍ ، فسبقَ بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثمَّ جيء بأحدِ ابني فاطمة ، فأردفه خَلْفَه ، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة »^(٣) .

(١) اقرأ سيرة سلمى مولاة رسول الله ﷺ في كتابنا : « نساء من عصر النبوة » (ص : ٤٢٦ - ٤٣٢) ففي سيرتها مواقف قيمة ذات أثر تربويٍّ على النَّاشئة .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٣ - ٧٤) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٢٨) .

* وكان كبار الصَّحابة وأعيانهم يحبُّون عبدَ الله بنَ جعفر ويتَّبعون بذلك الهدي النَّبويَّ ، فكان عبدُ الله بنُ عمر - رضي الله عنهما - يأتي عبدَ الله بنَ جعفر - رضي الله عنهما - ، فقال له النَّاسُ : « إِنَّكَ تكثرُ إتيانَ عبدِ الله بنِ جعفر » . فقال ابنُ عمر : لو رأيتم أباه أحببتم هذا ، وُجدَ فيما بين قرنه إلى قدمه سبعون بين ضربةٍ بسيف ، وطعنة برمح » ^(١) .

* لم يتوقَّف إكبارُ ابنِ عمر لابنِ جعفر - رضي الله عنهما - عند هذا الأمر فحسب ، وإنَّما كان يُسَلِّم عليه بتحِيَّةٍ محبِّيةٍ إلى قلبه ، فقد أخرج بسند عن الشَّعبيِّ : « أنَّ ابنَ عمر - رضي الله عنهما - كان إذا سلَّم على ابنِ جعفر - رضي الله عنهما - قال : السَّلَامُ عليك يا بنِ ذي الجناحين » ^(٢) .

* في هذا السَّلَام أدبٌ لطيفٌ من ابنِ عمر - رضي الله عنهما - ، كأنَّه يشيرُ في تحيَّته هذه إلى حديثِ عبدِ الله بنِ جعفر - رضي الله عنهما - حينما قال : « قال لي رسولُ الله ﷺ : « هنيئاً لك أبوك يطيرُ مع الملائكة في

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في فضائل الصَّحابة برقم : (٣٧٠٩) ، وفي المغازي برقم : (٤٢٦٤) . قال ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ في شرح هذا الحديث : « إِنَّ النَّسْفِيَّ روى عن البخاريَّ أنَّه يُقال لكلِّ ذي ناحيتين جناحان ، وأنَّه أشار إلى أنَّ الجناحين في هذه القصة ليسا على ظاهرهما . وقال الشَّهيلي رَحِمَهُ اللهُ : قوله جناحان : ليسا كما يسبقُ إلى الوهم كجناحي الطَّير وريشه ؛ لأنَّ الصُّورةَ الآدميةَ أشرفُ الصُّور وأكملها ، فالمرادُ بالجناحين صفةً ملكيةً ، وقوَّةً روحانيةً أعطِيها جعفر - رضي الله عنه - ، وقد عبَّر القرآنُ عن العضد بالجناح قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص : ٣٢] ، وقال العلماءُ في أجنحة الملائكة : إنَّها صفاتٌ ملكية لا تُفهم إلا بالمعاني ، فقد ثبت أنَّ لجبريل ست مئة جناح ، ولا يُعهد للطَّير ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك ، وإذا لم يثبت خبرٌ في بيان كيفيتها فنؤمن بها من غير بحث عن حقيقتها » . « فتح الباري » (٧ / ٥٨٨ - ٥٨٩) .

السَّمَاء» (١) . وجاء من حديث سيّدنا أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال : « رأيتُ جعفرَ بنَ أبي طالب يطيرُ مع الملائكة » (٢) .

* وأسهم سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه وأرضاه - في اتباع الهدي النبويّ بالاهتمام بعبدِ الله بنِ جعفر ابن أخيه - رضي الله عنهم - وتعليمه الأدعية والأذكار .

* جاء عن سيّدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - أنّه كان يُعلّم بناته هؤلاء الكلمات ، ويأمرهنَّ بهنَّ ، ويذكر أنّه تلقّاهنَّ عن عليٍّ ، وأنَّ عليّاً قال : إنّ رسولَ الله ﷺ كان يقولهنَّ إذا كَرِهَهُ أمرٌ ، واشتدَّ به : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحانه تبارك الله ربُّ العالمين ، وربُّ العرش العظيم ، والحمد لله ربُّ العالمين » (٣) .

* وعن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : « قال لي عليٌّ يا بنَ أخي ! إنّي معلّمك كلماتٍ سمعتهنَّ من رسولِ الله ﷺ مَنْ قالهنَّ عند وفاته دخل الجنة : « لا إله إلا الله الحليم الكريم - ثلاث مرّات - الحمد لله ربِّ العالمين - ثلاث مرّات - تبارك الذي بيده الملك يُحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير » (٤) .

(١) « فتح الباري » (٧ / ٩٦) .

(٢) المصدر السابق عينه (٧ / ٩٦) .

(٣) « شرح حياة الصّحابة » (١ / ٦٠١) ، وقوله « تلقّاهنَّ » : أخذهنَّ وتعلمهنَّ من سيّدنا عليٍّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - . و « كَرِهَهُ أمرٌ » : أصابه كرب ، وغم يأخذ النفس .

(٤) « شرح حياة الصّحابة » (١ / ٦٠١) . أقول : « هذه الأدعية وأشباهاها مستفادة من الصّحيح ، فقد عقد الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي « صحيحه » كتاباً عنوانه : « كتاب الدّعوات » ، وعقد باباً عنوانه : « باب الدُّعاء عند الكرب » ، أورد فيه حديثين بسنده عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - .

من رواية أهل البيت :

* يُعَدُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنْ رِجَالِ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ نَقَلُوا لَنَا الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ عَنِ الْمُخْتَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَيْرِ مُضَرٍّ ، وَمِمَّنْ وَعَى عَنِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْ غَيْرِهِ . قَالَ الذَّهَبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لَهُ صَحْبَةٌ وَرَوَايَةٌ » وَرَوَى أَيْضاً عَنْ أَبِيهِ ، وَعَنْ عَمِّهِ عَلِيِّ ^(١) . وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « رَوَى عَنِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْ أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ ، وَعَمِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ . وَعَنْهُ : بَنُوهُ مُعَاوِيَةُ ، وَإِسْحَاقُ ، وَإِسْمَاعِيلُ ، وَأُمُّ أَبِيهَا ، وَابْنُ خَالَتِهِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ بْنِ الْهَادِ ، وَابْنُ أَخِيهِ لِأُمِّهِ : الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، وَالْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ ، وَأَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَغَيْرُهُمْ » ^(٢) .

* قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ عَنِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَادِيثَ » ^(٣) .

= أَوَّلُهُمَا : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » . الْبُخَارِيُّ بِرَقَمَ : (٦٣٤٥) .

وَالثَّانِي : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ ، وَرَبُّ الْأَرْضِ ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » . الْبُخَارِيُّ بِرَقَمَ : (٦٣٤٦) .

(١) « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث ووفيات : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٤٢٩) .

(٢) « تهذيب التهذيب » (٥ / ١٧٠) ، و« الإصابة » (٢ / ٢٨٠) .

(٣) « أسد الغابة » (٣ / ٩٤) . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « أَسَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ثَلَاثَةُ عَشَرَ حَدِيثاً » . « البداية والنهاية » (٩ / ٣٤) .

* وحدّد الإمام النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عددَ مروياته فقال : « رُوي لعبدِ اللهِ بنِ جعفر عن رسولِ اللهِ ﷺ خمسة وعشرون حديثاً ، اتَّفَقَ البخاريُّ ومسلمٌ منها على حديثين » (١) .

* ومروياتُ سيّدنا عبدِ اللهِ بنِ جعفر - رضي اللهُ عنهما - منثورة أيضاً في السُّنَنِ والمسانيد والمُستدرَكَات وغيرها من الكتب التي تُعنى بهذا الشَّأن المبارك العظيم ، وفي مسندِ أبي يعلى أخرج له (١٨ حديثاً) ، بينما أخرج له الإمامُ أحمدٌ في « مسنده » (٢٢ حديثاً) .

* ومن مروياته في « صحيح البخاري » ما أخرجه بسنده عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عبدِ اللهِ بنِ جعفر بن أبي طالب - رضي اللهُ عنهما - قال : « رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ يأكلُ الرُّطْبَ بالقثاء » (٢) .

* ومما أخرجه له مسلمٌ وغيره بسندٍ رفعوه إلى الحسنِ بنِ سعد مولى الحسن بن عليٍّ ، عن عبدِ اللهِ بنِ جعفر - رضي اللهُ عنهما - قال : « أردفني رسولُ اللهِ ﷺ ذات يومٍ خلفه ، فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أحدثُ به أحداً مِنَ النَّاسِ ، وكان أحبَّ ما استتر رسولُ اللهِ ﷺ لحاجته هَدْفٌ أو حائشٌ نخل - يعني : حائطاً - فدخل حائطاً لرجلٍ من الأنصار ، فإذا فيه جملٌ ؛ فلمَّا رأى النَّبِيَّ ﷺ جزع ، وذرفت عيناه . فأتاه النَّبِيُّ ﷺ ، فمسحَ رأسه إلى سنامه وذفراه ، فسكَنَ ، فقال : « مَنْ ربُّ هذه الجمل ، لمن هذا الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هو لي يا رسولَ اللهِ ! قال : « أفلا تتقي اللهُ في هذه البهيمة ؟ ملكك اللهُ إياها ، فإنَّه شكَا إليَّ أنَّك تجيعه وتدبِّيه ؟ » (٣) .

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٦٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في الأُطعمة برقم : (٥٤٤٠ ، ٥٤٤٧ ، ٥٤٤٩) ، وأحمد : (١ / ٤٣٥) ، حديث رقم : (١٧٤١) .

(٣) أخرجه مسلم إلى قوله : « حائش نخل » ، برقم : (٣٤٢) ، وأحمد : (١ / ٤٣٦) ، حديث رقم : (١٧٤٥) ، وأبو يعلى الموصلي =

* وأخرج هذا الحديث بلفظ آخر وموضع آخر بسند عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : « ركب رسول الله ﷺ بغلته ، وأردفني خلفه ، وكان رسول الله ﷺ إذا تبرّز كان أحب ما تبرّز فيه هدفٌ يستترُّ به ، أو حائشٌ نخلي ، فدخل حائطاً لرجلٍ من الأنصار ، فإذا فيه ناضحٌ له ، فلمّا رأى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه ، فنزل رسول الله ﷺ ، فمسح ذِفْرَاهُ وسَرَاتَهُ ، فسكَنَ ، فقال : « مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ » فجاء شابٌّ من الأنصار ، فقال : أنا ، فقال : « ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه شكاكٌ إليّ ، وزعمَ أنك تجيئُهُ وتُدبُّهُ » ، ثم ذهب رسول الله ﷺ في الحائط ، فقضى حاجته ، ثمّ توضّأ ، ثمّ جاء والماءُ يقطرُ من لحيته على صدره ، فأسرَّ إليّ شيئاً لا أحدثُ به أحداً ، فحرّجنا عليه أن يحدثنا ، فقال : لا أفشي على رسول الله ﷺ سرّه حتى ألقى الله » (١) .

* وفي فضل أمنا أم المؤمنين خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - ، أخرج الترمذي رحمه الله بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : « سمعتُ عليّ بن أبي طالب يقول : سمعتُ

(ص : ١١٤٨) ، برقم : (٦٧٨١) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٢ - ٧٣) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٩٥) ، وغيرها . وقوله « هدف » : ما ارتفع من الأرض . و « حائشٌ نخلي » : البستان الذي فيه النَّخل الملتف المجتمع . و « ذرفت عيناه » : جرى دمعهما . و « ذفراه » : الذفري من البعير : مؤخر رأسه ، وهو الموضع الذي يغرُق من قفاه . و « تدبُّهُ » : تكدّه وتتعبه .

قال الإمام النووي رحمه الله : « وفي هذا الحديث من الفقه استحباب الاستتار عند قضاء الحاجة بحائط ، أو هدف ، أو وَهْدَةٍ ، أو نحو ذلك ، بحيث يغيب جميع شخص الإنسان عن أعين الناظرين ، وهذه سُنةٌ متأكدة ، والله أعلم . » « المنهاج » (ص : ٣٩٨) .

(١) « المسند » (١ / ٤٣٨ - ٤٣٩) ، حديث رقم : (١٧٥٤) .

رسولُ الله ﷺ يقول : « خيرُ نسائها خديجةُ بنتُ خويلد ، وخيرُ نسائها مريمُ بنتُ عمران » (١) .

* ومن الأحاديث التي جاءت في بعض السُّنن والمسانيد ، والتي رُوِيَتْ عن سيِّدنا عبدِ الله بنِ جعفر - رضي الله عنهما - ، حديث صنع الطَّعام لأهلِ الميِّت ، فقد أخرجوا عنه أنَّه قال : « لَمَّا جاء نَعِيُّ جعفرَ حين قُتِلَ ، قال رسولُ الله ﷺ : « اصنعوا لآلِ جعفر طعاماً فقد أتاهاهم أمرٌ يشغلهم ؛ أو يشغلون به » (٢) .

* ومن مرويات سيِّدنا عبدِ الله بنِ جعفر - رضي الله عنهما - في مجال الصَّلَاة وسجود السَّهو ، ما جاء عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « مَنْ شكَّ في صلاته ، فليسجدْ سجدةً بعد ما يُسَلِّم » (٣) .

* وفيما جاء في السَّمائل المحمَّديَّة من أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يتختم في

(١) « تحفة الأحوذني » (١٠ / ٣٨٨) ، برقم : (٣٩٨٠) ، وأخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣ / ٦٥٧ - ٦٥٨) ، برقم : (٦٤١٩) .

(٢) « مسند أبي يعلى » (ص : ١١٨٥ - ١١٨٦) ، برقم : (٦٧٩٥) ، و« المسند » (١ / ٤٣٨) ، برقم : (١٧٥١) ، والترمذي برقم : (٩٩٨) ، وقال : « هذا حديثٌ صحيح ، وقد كان بعضُ أهلِ العلم يستحبُّ أن يوجَّه إلى أهلِ الميِّت شيءٌ ، لِشُغْلِهِم بالمصيبة » . وأخرجه ابن ماجه برقم : (١٦١٠ - ١٦١١) ، وأبو داود برقم : (٣١٣٢) ، والأصبهاني في « دلائل الثبوت » (٢ / ٦٨١) ، وابن سعد في « الطبقات » (٨ / ٢٨٢) ، وفي الحديث دلالةٌ على شرعية إعانة أهل الميِّت ، والقيام بما يموتهم مدَّة اشتغال خواتمهم وشدةً وجدتهم على ميِّتهم ، وعلى كراهة ما يعتاد النَّاس من إطعام أهل الميت لغيرهم الطَّعام ، وتحمل ثقل الإغرام .

(٣) أخرجه الإمام أحمد : (١ / ٤٣٨) ، برقم : (١٧٥٢) ، وبرقم : (١٧٤٧) ، و (١٧٦١) ، وأبو يعلى (ص : ١١٨٦) ، برقم : (٦٧٩٦) ، وأبو داود برقم : (١٠٣٣) . وفي هذا الحديث تصريحٌ بأنَّ محلَّ السُّجود بعد التَّسليم . انظر : « البدر الثَّمام » (٢ / ١٢ - ١٥) .

يمينه ؛ أخرج الإمام أحمد وغيره بسندٍ عن حمّاد بن سلمة قال : « رأيتُ ابن أبي رافع يتختمُ في يمينه ، فسألته عن ذلك ؟ فقال : رأيتُ عبدَ الله بن جعفر يتختم في يمينه » . وقال عبدُ الله بنُ جعفر - رضي الله عنه - : « كان رسولُ الله ﷺ يتختمُ في يمينه » (١) .

* ومن المرويات الشهيرة لسيدنا عبد الله بن جعفر فيما يتصل بالسيرة النبوية - في خروج الحبيب المصطفى ﷺ ماشياً إلى الطائف - ما أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : « لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه ، يدعوهم إلى الإسلام ، فلم

(١) « المسند » (١ / ٤٣٦ - ٤٣٧) ، برقم : (١٧٤٦) ، وأبو يعلى (ص : ١١٨٥) ، برقم : (٦٧٩٣) ، الترمذي برقم : (١٧٤٤) ، والنسائي : (٨ / ١٧٥) ، وابن ماجه برقم : (٣٦٤٧) ، وانظر : « جامع الأصول » (٤ / ٧٢٤) .

قال ابن قَيِّم الجوزية عن لبس رسول الله ﷺ الخاتم : « ولبس الخاتم ، واختلاف الأحاديث هل كان في يمينه أو يساره ، وكلها صحيحة السند » . « زاد المعاد » (١ / ١٣٩) .

وجمع البيهقي رحمه الله بين هذه الأحاديث بأن الذي لبسه ﷺ في يمينه هو خاتم الذهب ، والذي لبسه في يساره هو خاتم الفضة . وجمع غيره بأنه ﷺ لبس الخاتم أولاً في يمينه ، ثم حوله إلى يساره .

وقال المناوي رحمه الله : « والتختم في اليمين وفي اليسار سنة ، لكنّه في اليمين أفضل عند الشافعي ، وعكس مالك » . « فيض القدير » (٥ / ٢٠٠ - ٢٠١) .

ورجح الحافظ ابن حجر رحمه الله بأنه إذا كان الخاتم للترئين به فاليمين أفضل ، وإن كان للتختم به فاليسار أولى ؛ لأنه كالمودع فيها ، ويحصل تناوله منها باليمين ، وكذا وضعه فيها ، ويتدرج التختم في اليمين مطلقاً ؛ لأن اليسار آلة الاستنجاء ، فيصان الخاتم إذا كان في اليمين عن أن تصيبه التّجاسة وجنحت طائفة إلى استواء الأمرين ، وجمعوا بذلك بين مختلف الأحاديث . والله أعلم .

يجبوه ، فانصرف ، فأتى ظلَّ شجرة فصلَّى ركعتين ، ثمَّ قال : « اللهمَّ إِنِّي أشكو إليك ضعفَ قوّتي وهوانِي على النَّاس ، أرحمَ الرَّاحمين ، أنتَ أرحمُ الرَّاحمين ، إلى مَنْ تكلّني إلى عدوّ يتجهَّمُني أم إلى قريبٍ ملكتهُ أمري ، إن لم تكنْ غضبان عليّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ؛ أعوذُ بوجهك الذي أشرقتْ له الظُّلُمات ، وصلّح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك ، أو يحلَّ بي سخطُك ، لك العُتْبى حتّى ترضى ، ولا قوة إلا بالله » (١) .

أقوالٌ بديعةٌ في سخائه :

* كان سيّدنا عبدُ الله بنُ جعفر - رضي الله عنهما - أسخى أهل عصره من بني هاشم ، ومن ذرية جعفر بن أبي طالب على وجه التّحديد والتّخصيص ، حتّى اشتهر بهذه المزيّة المباركة في دنيا الأجواد .

* أثنى على سخاء عبدِ الله وجوده كلُّ مَنْ تعرّض لترجمته ، ومن بين هؤلاء ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ ؛ إذ استوعب في « استيعابه » المبارك بعض أنباء جودِ عبدِ الله وسخائه ، وقال عنه : « كان عبدُ الله بنُ جعفر كريماً جواداً ظريفاً خليفاً عفيفاً سخياً ، يسمّى بحرَ الجود ، ويقال : إنّه لم يكن في الإسلام أسخى منه ويقولون : إنّ أجواد العرب في الإسلام عشرة وليس

(١) « مجمع الزوائد » (٦ / ٣٥) ، وقال الهيثمي : « رواه الطبراني ، وفيه ابنُ إسحاق ، وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات » . وذكر أهل العلم أنّ في سند هذا الحديث الواقدي ، وهو ضعيف ، فيكون الحديث ضعيفاً على الرغم من شيوعه في كتب السيرة والله أعلم .

ومما يندرج تحت هذا المجال ما أخرجه البيهقي عن عبدِ الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : « لمّا مات أبو طالب عرضَ لرسولِ الله ﷺ سفينة من سفهاء قريش ، فألقى عليه تراباً ، فرجع إلى بيته ، فأتت امرأة من بناته تمسحُ عن وجهه التراب ، وتبكي ، فجعل يقول : « أي بُنيّة ! لا تبكي فإنَّ الله مانعُ أباك » ويقولُ ما بين ذلك : « ما نالت قريشُ شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب ثمَّ شرعوا » . « البداية والنهاية » (٣ / ١٣٤) .

في هؤلاء كلهم أجود من عبد الله بن جعفر ، ولم يكن مسلمٌ يبلغ مبلغه في الجود ، وعُوتِبَ في ذلك فقال : إِنَّ اللَّهَ عَوَّدَنِي عَادَةً ، وَعَوَّدْتُ النَّاسَ عَادَةً ، فَأَنَا أَخَافُ أَنْ قَطَعْتُهَا ، قُطِعَتْ عَنِّي وأخباره في الجود كثيرة جداً» (١) .

* هَذَّبَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « تَهْذِيبِهِ » أَقْوَالَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي سَخَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ : « كَانَ كَرِيمًا جَوَادًا حَلِيمًا ، وَكَانَ يَسْمَى بِحَرِّ الْجُودِ وَيُقَالُ : لَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ أَسْخَى مِنْهُ وَكَانَ أَجُودَ الْعَرَبِ . وَأَخْبَارُ أَحْوَالِهِ فِي السَّخَاءِ وَالْجُودِ وَالْحِلْمِ مشهورة لا تُحْصَى » (٢) .

* وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : « كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ مِنْ أَسْخَى النَّاسِ ، يُعْطِي الْجَزِيلَ الْكَثِيرَ وَيَسْتَقْلُهُ ، وَقَدْ تَصَدَّقَ مَرَّةً بِأَلْفِي أَلْفٍ ، وَأَعْطَى مَرَّةً رَجُلًا سِتِّينَ أَلْفًا ، وَمَرَّةً أَعْطَى رَجُلًا أَرْبَعَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ » (٣) .

* وَقَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : « وَكَانَ كَبِيرَ الشَّانِ ، كَرِيمًا ، جَوَادًا ، يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ أَخْبَارٌ فِي الْجُودِ وَالْبَذْلِ ، وَكَانَ وَافِرَ الْحَشْمَةِ ، كَثِيرَ التَّنْعَمِ » (٤) .

* وَأَشَارَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى سَخَائِهِ فَقَالَ : « كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ كَرِيمًا جَوَادًا حَلِيمًا ، يَسْمَى بِحَرِّ الْجُودِ وَأَخْبَارُهُ فِي جُودِهِ وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى » (٥) .

(١) « الاستيعاب » (٢ / ٢٦٧ - ٢٦٨) بتصرف .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٦٣) بتصرف .

(٣) « البداية والنهاية » (٩ / ٣٣) .

(٤) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٥٦ - ٤٦٢) بتصرف واختصار .

(٥) « أسد الغابة » (٣ / ٩٥ - ٩٦) باختصار .

* وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ : « كان عبدُ الله بنُ جعفر جواداً ممدوحاً وأخبارُهُ في الكرم شهيرةٌ وكان يُقال له : قطب السَّخاء » (١) .

* وقال أبو القاسم التَّنُوخي رَحِمَهُ اللهُ : « كان في آل النَّبِيِّ ﷺ في ذلك الزَّمان جوادان معدوما التُّظراء ، وهما : عبدُ الله بنُ جعفر ، وعبيدُ الله بن العَبَّاس » (٢) .

* وقال التَّنُوخي أيضاً في موضع آخر : « وأما عبدُ الله بنُ جعفر فكان يُعَدُّ في وقتهِ أسمعَ العرب ، وله في الجُود آثارٌ مشهورة » (٣) .

* ومن الأقوالِ الماتعةِ في سخاءِ سيِّدنا عبدِ الله بنِ جعفر ما أثر عن سيِّدنا الحُسين بنِ عليٍّ - رضي الله عنهم أجمعين - ؛ إذ قال : « عَلَّمَنَا عبدُ الله بن جعفر السَّخاء » (٤) .

* وهذا القولُ الحُسَيْنِيُّ البهِيُّ هو من بابِ التَّواضع من سيِّدنا الحُسين - رضي الله عنه - ، حيث إنَّ سخاءَ سيِّدنا الحُسين - رضي الله عنه - مشهورٌ أيضاً في دُنيا الجود ، وله ولأخيه الحسن أخبارٌ متألِّقة في السَّخاء ، استوعبتها مصادرُ ترجمتهما ، وقد أوردتُ منها طاقاتٍ مباركةً في البابِ الثَّالث من كتابي : « رجال أهل البيت في ضوئ القرآن والحديث » نرجو الله - عزَّ وجلَّ - أنْ ينفعَ به ، وأنْ يجعله في صحيفتي وصحائفِ المسلمين ومحبي أهل البيت في مشارقِ الأرض ومغاربها .

(١) « تهذيب التهذيب » (٥ / ١٧١) باختصار وتصرف .

(٢) « لطائف الأخبار » (ص : ٢٤٥) .

(٣) المصدر السابق (ص : ١٢٧) .

(٤) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٩) .

من عجائب جوده :

* لهذا السَّخِيّ أخبارٌ غزيرةٌ غزارةٌ جوده ، تفصحُ عن كرمه ، ولا يمكنُ للباحث أن يستقصيها إلا بشقِّ الأنفس ؛ لنفاسيتها وجمالها ، وها نحنُ أولاء نختارُ بعضها لنصقلَ بها نفوسنا وقلوبنا ، ونقتدي بسخاء هذا العَلم العَيلم الهاشمي الجعفري .

* فمن بدائع قصص سخائه ما أوردته المصادُرُ قالت : « انصرف أعرابيُّ عن الموسم متوجّهاً إلى المدينة ، فسقط بعيره في الطَّرِيق ، فأقبل برحله يحمله حتّى أتى باب أمير المدينة ، فسأله فقال : ما عندنا الآن ما نصِّلُك به ! وأرشده إلى سيّدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - ، فقال الأعرابيُّ لآذنه : إنّ معي هديةً لعبد الله بن جعفر فأعلمه . فدخل إلى ابن جعفر فأعلمه ، فقال : قل له : أنتَ تحملُ هديتك أم يحملها غيرك ؟

قال الأعرابي : بل أحملها أنا .

فقال عبدُ الله بنُ جعفر - رضي الله عنهما - : أدخله .

فلما دخل الأعرابي قال له عبد الله : هاتِ ما عندك ، فأنشأ الأعرابيُّ

يقول :

أبو جعفرٍ من أهل بيتِ نبوّة	صلاّتهم للمسلمين طهورُ
أبا جعفرٍ يا بنَ الشهيد الذي له	جَنَاحان في أعلى الجَنان يطيرُ
أبا جعفرٍ صَنَّ الأميرُ بماله	وأنتَ على ما في يديكَ أميرُ
أبا جعفرٍ إنّ الحجيحَ ترخّلوا	وليس لرخلي فاعلمنَّ بعيرُ
أبا جعفرٍ ما مثلك اليوم أرتجي	فلا تتركّني بالفلاة أدورُ

فقال له عبدُ الله : انطلقْ إلى إبلي ، فاخترْ أفضلَ ناقةٍ فيها فخذها .

فمضى الأعرابيُّ إلى الإبل ، وكان بها بصيراً ، فأخذَ ناقةً لابن جعفر تعدلُ رحله ، فأبى غلامُ ابن جعفر أن يدفعها إليه ؛ فرجع الأعرابيُّ إلى

ابن جعفر فأعلمه ، فأرسل معه رسولاً ، وقال له : أعطِهِ الذي طلب ، والعبد الذي منَعَهُ فأعطِهِ إيَّاه أيضاً ، فدفعهما إليه ، وأخذهما الأعرابيُّ ، ورجعَ إلى ابن جعفر يتشكَّرُ له ، فقال العبدُ لابن جعفر : جعلني الله فداك ، صحبتي ؟

فقال عبدُ الله للأعرابيِّ : أتبيعه ؟

قال : نعم .

قال : بكم ؟

قال : بثلاث مئة دينار .

قال : هي لك .

فأعطاه ثلاث مئة دينار ، وأعطاه سيفاً ، وقال له : لا تخدعنَّ عنه ، فإنِّي أخذته بأربع مئة دينار ؛ وقال للعبدِ : إِنَّ لَكَ حقاً ، وإنَّكَ لطويل الصُّحبة ، فأعتقه وأهله وولده . ولَمَّا عاين الأعرابيُّ هذه الفَعَال العظيمة من ابن جعفر أخذهُ الدَّهش وأنشأ يقول :

سأئنسي بما أوليتني يا بن جعفر وما شاكر عرفاً كمن هو كافر
فيا خيرَ خلقِ الله نفساً ووالداً وأكرمهم للجار حين يجاور ^(١)

(١) « الأخبار الموقَّعات » (ص : ٨٠ - ٨١) ، و « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٥٩) ، مع الجمع والتصرّف .

أقول : « كان هذا الابنُ الصَّحابي النَّبيل ، والسَّيد الجليل يتذوَّق معاني الشُّعر ، ومحاسن الكلام ، ويصحَّح لبعضِ الشُّعراء ما قد يقعون فيه من خطأ في التَّعبير » .

ساق الرَّاغب الأصفهاني قصةً لطيفةً تعبّر عن المعنى الذي قلناه فقال : « دخل الحسنُ بنُ الكنانيِّ على عبد الله بن جعفر فأنشده :

عليكَ السَّلَامُ أبا جعفرٍ وسيّد فِهْرٍ لدى المحضر

فقال : لقد أخطأت ، حيثني بتحية الموتى ، وقد أمكنك أن تقول :

* وساق ابنُ عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قِصَّةً عَنْ لطفِ سخاءِ عبدِ الله بنِ جعفر - رضي الله عنهما - فقال : « كتب رجلٌ إلى عبدِ الله بنِ جعفر رَقْعَةً فجعلها في ثِنْيٍ وسادِهِ التي يتكى عليها ، فقلب عبدُ الله الوسادة ، فبصر بالرقعة فقرأها ، فردّها في موضعها ، وجعل مكانها كيساً فيه خمسة آلاف دينار ، فجاء الرجل فقال : قلب المرفقة فخذ ما تحتها ، فأخذ الكيس وخرج ، وأنشأ يقول :

زاد معروفك عندي عَظْماً أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرٌ
تَنَاسَاهُ كَأَن لَّمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَشْهُورٌ كَبِيرٌ » (١)

* وكان كثير من أهل الأدب ، وذوي الفطن يعرفون أريحية هذا السيد الهاشمي السخي ، فكانوا يختلقون الحكايات والأشياء اللطيفة ، ليتلطفوا بها عند سيّدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - ، ليعطيهم ممّا أعطاه الله - عزّ وجلّ - . فقد روي أنّ شاعراً جاء إليه ، فأنشده :

رَأَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ فِي الْمَنَامِ كَسَانِي مِنَ الْخَزْرِ دُرَاعَهُ
شَكُوتٌ إِلَى صَاحِبِي أَمْرَهَا فَقَالَ سُوْتُيْ بِهَا السَّاعَهُ
سَيَكْسُو كَهَا الْمَاجِدُ الْجَعْفَرِي وَمَنْ كَفُّهُ الدَّهْرُ نَفَاعَهُ
وَمَنْ قَالَ لِلْجُودِ لَا تَعْدُنِي فَقَالَ لَهُ السَّمْعُ وَالطَّاعَهُ

فقال عبد الله لغلامه : أعطه جبتي الخزّ . ثمّ قال له : ويحك كيف لم ترَ جبّتي الوشي ؟ اشتريتها بثلاث مئة دينار منسوجة بالذهب فقال : أنا ، فلعلّي أراها .

سَلامٌ عَلَيْكَ أَبَا جَعْفَرٍ

« محاضرات الأدباء » (٢ / ٧٠) ، دار صادر .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٠) .

فضحك عبد الله ! وقال : ادفعوها إليه « (١) .

* وامتدحه نصيب بن رباح - وكان عبداً أسود - فأمر له بخيل وأثواب وإبل ودنانير ودراهم ، فقال له رجل : « أمثلُ هذا الأسود يُعطى مثل هذا المال ؟ ! » . فقال عبدُ الله : « إن كان أسود ، فإنَّ شِعْرَهُ لأبيض ، وإنَّ ثَناءَهُ لعربي ، ولقد استحقَّ بما قال أكثر ممَّا نال ، وهل أعطيناهُ إلا ثياباً تبلى ، ومالاً يفنى ، ومطايا تُنْضَى ، وأعطانا مدحاً يروى ، وثناءً يبقى ؟ ! » (٢) .

* ومن الأخبار التي تحبُّها النفوس في هذا المجال ، وتودُّ أن تجعلها شعاراً في حياتها هذا الخبرُ الطَّريفُ الذي أورده ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ حيث قال : « وجَّه يزيدُ بنُ معاويةَ إلى عبدِ الله بنِ جعفرٍ مالاً جليلاً هديَّةً له ، ففرَّقه في أهلِ المدينة ، ولم يُدْخِلْ منزله منه شيئاً ، فبلغ ذلك عبدَ الله بنَ الزُّبير ، فقال : إنَّ عبدَ الله بنَ جعفرٍ لمن المَسرفين ، فأنهيه ذلك إلى عبدِ الله بنِ جعفر ، فقال :

بَخِيلٌ يرى في الجود عاراً وإنَّما على المرء عارٌ أن يَضنَّ ويبخلا
إذا المرءُ أشرى ثمَّ لم يرجْ نفعه صديقٌ فلاقته المنيةَ أولاً
فبلغ ما فعلَ عُبَيْدُ اللهِ بن قيس الرقيّات ، فقال في قصيدة له يمدحُ بها بعض الأمراء :

وما كنتَ إلا كالأغرِّ ابنِ جعفرٍ رأى المالَ لا يبقى فأبقى به ذكراً « (٣)
* وقال الشَّماخُ بنُ ضرار لعبدِ الله بنِ جعفر مادحاً :

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٥٩ - ٤٦٠) .

(٢) « التذكرة الحمدونية » (٢ / ٢٧٠) ، و « المستطرف » (١ / ٤٨٩) ، و « البيان والتبيين » (٢ / ٩٦) وغيرها كثير .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٤) ، و « الإصابة » (٢ / ٢٨١) .

إِنَّكَ يَا بَنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ الْفَتَى ونعم مأوى طارقٍ إذا أتى
 وربَّ ضيفٍ طرق الحيَّ سُرى صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى
 إِنَّ الْحَدِيثَ جَانِبٌ مِنَ الْقَرْى^(١)

* ومن العجيب أَنَّ الحاضرَ والبادي قد واصلَ الثناء على هذا العَلَمِ
 الكريم الذي وصلَ بمعرفه كلَّ مَنْ لاذَ به ، فقد كان سيِّدنا عبدُ الله بنُ

(١) « بهجة المجالس » (١ / ٢٩٨) ، و « الإصابة » (٢ / ٢٨١) ، و « مختصر تاريخ
 دمشق » (١٢ / ٨٨) . قال خلف الأحمر : « ومن سُنَّةِ الأعراب إذا حدَّثوا
 الغريب ، وهشَّوا إليه ، وفاكهوه ، أيقن بالقرى ، وإذا أعرضوا عنه أيقن بالحرمان ،
 فمن ثمَّ قيل : إِنَّ الْحَدِيثَ جَانِبٌ مِنَ الْقَرْى » . « مختصر تاريخ دمشق »
 (١٢ / ٨٩) .

وقال أحدُ العلماء رَحِمَهُ اللهُ : « إِنِّي لَأَسْتَحِبُّ لِلْعَاقِلِ الْمَدَاوِمَةَ عَلَى إِطْعَامِ
 الطَّعَامِ ، وَالْمُواظَبَةَ عَلَى قِرْئِ الضَّيْفِ ، وَمَنْ عُرِفَ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ عِنْدَ الشَّاهِدِ
 وَالْغَائِبِ ، وَصَدَهُ الرَّاظِي وَالْعَاتِبِ ، وَقِرْئِ الضَّيْفِ يَرْفَعُ نَسَبَهُ وَإِنْ لَمْ يَشْرَفْ نَسَبُهُ إِلَى
 مَنتهى بُغْيَتِهِ وَنَهَايَةِ مَحَبَّتِهِ ، وَيَشْرَفَهُ بَرَفِيعُ الذِّكْرِ ، وَكَمَالُ الدُّخْرِ » .

والعربُ لم تكن تعدُّ الجودَ إِلَّا قِرْئِ الضَّيْفِ ، وإطعامِ الطَّعَامِ ، وَلَا تعدُّ السَّخِيَّ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذَلِكَ ، حَتَّى إِنْ أَحَدُهُمْ رُبِمَا سَارَ فِي طَلَبِ الضَّيْفِ الْمِيلَ وَالْمِيلَيْنِ .
 وَنِعْمُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِنْ لَمْ تُؤَدَّ حَقُوقُهَا بِالْإِنْفَاقِ مِنْهَا فِي وَجْهِ الْخَيْرِ تَرْجُعُ مِنْ حَيْثُ
 بَدَأَتْ ، ثُمَّ لَا يَنْفَعُ مَنْ زَالَتْ عَنْهُ التَّلَهُّفُ عَلَيْهَا وَلَا التَّفَكِيرُ فِي الظَّفَرِ بِهَا ، وَأَبْخَلَ
 الْبَخْلَاءُ مَنْ بَخَلَ بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ .

ومن إكرام الضَّيْفِ طيبُ الكلامِ ، وَطَلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَالْخِدْمَةُ بِالنَّفْسِ ، فَإِنَّهُ
 لَا يَذُلُّ مَنْ خَدَمَ أَضْيَافَهُ ، كَمَا لَا يَعِزُّ مَنْ اسْتَعْدَمَ ضَيْفَهُ ، أَوْ طَلَبَ لِقَاءَهُ أَجْراً ،
 وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَإِنِّي لَطَلُّقُ الْوَجْهِ لِمُبْتَغِي الْقَرْى وَإِنْ فَنَائِي لِلْقَرْى لِرَحِيْبِ
 أَصَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ فَيَخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيْبِ
 وَمَا الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثَرَ الْقَرْى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيْبِ

جعفر - عليه سحاب الرّضوان - من الجُود بالمكان المشهور ، وله في السّخاء والكرم أخبارٌ يكادُ سامعها ينكرها لبُعْدِها عن المعهود ؛ ولهذا وصفه رجلٌ وصفاً حقيقياً فيه الإنصافُ والإتحافُ فقال : « كان عبدُ الله بنُ جعفر إذا افتقر لم تفتقر نفسه ، وإذا استغنى لم يستغنِ وحده » (١) .

* وكان هذا السيّد المسوّدُ معروفاً لدى النّاس كالنّجم في السّماء ، وكان معروفاً بكنيته أبي جعفر ، ولكنّ بعض الأعراب الأذكياء صاح به يوماً وناداه : « يا أبا الفضل ! » .

ف قيل له : « ليست هذه كنيته ؛ وإنّما كنيته : أبو جعفر » .

فقال الأعرابيُّ : « إنّ لم تكن كنيته ؛ فإنّها والله صِفَتُهُ » (٢) .

* ودعا أعرابيٌّ من بلُغاء الأعراب وفصحائهم دعاءً لطيفاً لعبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - ، فقال له : « لا ابتلاك الله ببلاء يعجزُ عنه صبرك ، وأنعمَ الله عليك نعمةً يعجزُ عنها شكرك » .

أخبارُهُ مع أعيان الصّحابة :

* سَخَتْ علينا المصادرُ وجادت بأخبارِ بحرِ الجود وقطبِ السّخاء سيّدنا عبد الله بن جعفر الهاشمي - رضي الله عنه وأرضاه - ، وأنتُ بالعجب العُجاب ، وأبانت - من خلال ترجمته - ما أسفرت عنه التّربية النّبويّة لأبناء الصّحابة الهاشميين الكرام : كالحسن ، والحسين ، وابن جعفر ، وعبيد الله بن عبّاس ، وأخيه عبد الله بن عبّاس وغيرهم - رضي الله عنهم - ، ممّن تربّوا في المدرسة المحمّديّة التي تخرّج فيها عظماء الدّنيا وأكابرها في كلّ مجال وميدان .

(١) « التذكرة الحمدونيّة » . (٢ / ٢٦٨) .

(٢) « البصائر والذخائر » (٣ / ١٨٥) ، و « محاضرات الأدباء » (٢ / ٣١١) ، مع الجمع والتّصرف .

* ولهذا السَّيِّدِ النَّبِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ - رضي الله عنه - أخبارٌ ذات طعم خاص مع عددٍ من رجال أهل البيت كالحسن والحسين وأبيهما عليّ ، ومع ثُلَّةٍ من أعيان الصَّحابة وعلمائهم من مثل سيِّدنا معاوية ، وعبد الله بن الزُّبير ، وعثمان بن عفَّان - رضي الله عنهم أجمعين - ، وحشرنا في معيَّتهم ، وعفا عنا بفضلِهِ وكرمه .

* وقد بلغ من جود سيِّدنا عبدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ونبله أن ورَّع مليوني درهم على أهل المدينة ، وعلى مَنْ حوله ، ومن ثمَّ احتاج إلى الدَّين والمال ، فكان لسخائه لا يُرى إلا وعليه دَيْنٌ حتَّى إنَّ سبطي الحبيب المصطفى ﷺ الحسن والحسين - رضي الله عنهما - قد عدلاه على ذلك وقالوا له : « إنَّكَ قد أسرفْتَ في بذلِ المال » .

فقال لهما في أدبٍ ممزوج بأدب الثُّبُوَّة : « بأبي أنتما ، إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - عودني أن يُفْضِلَ عليّ ، وعودته أن أُفْضِلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فتقطع عني المادَّة » ^(١) .

* ومن أخباره مع سيِّدنا عثمانَ بنِ عفَّان - رضي الله عنه - ما أورده الذهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي « تاريخه وسيره » قال : « مرَّ عثمانُ - رضي الله عنه - بسَبْخَةٍ فقال : لمن هذه ؟

فقيل : لفلان ، اشتراها عبدُ اللَّهِ بنُ جعفر بستين ألفاً .

فقال : ما يسرني أنَّها لي بنعليّ .

فجزَّأها عبدُ اللَّهِ - رضي الله عنه - ثمانية أجزاء ، وألقى فيها العمَّال ، ثمَّ قال عثمانُ لعلِّي - رضي الله عنهما - : ألا تأخذُ عليّ يدي ابن أخيك ، وتحجُرُ عليه ؟ اشترى سَبْخَةً بستين ألفاً فركبَ عثمانُ ذات يوم ، فمرَّ بها

(١) « التَّذْكَرَةُ الحَمْدُونِيَّة » (٢ / ٢٦٩) ، و« نثر الدَّر » (١ / ٤٢٤) ،

و« المستطرف » (١ / ٤٨٨) مع الجمع والتَّصْرُف .

ورآها ، فأعجبته ، فأرسل إلى عبد الله أن ولني جزئين منها .

قال : أما والله دون أن ترسل إلى الذين سفهتني عندهم ، فيطلبون إليّ ذلك ، فلا أفعل ، ثم أرسل إليه أني قد فعلت .

قال : والله لا أنقصك جزءين من مئة ألف وعشرين ألفاً .

قال : قد أخذتهما ^(١) .

* ولعبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - حكاية جميلة مع عبد الله بن الرُّبِير - رضي الله عنهما - ، تدلُّ على صفاء نفسيّة سيّدنا عبد الله بن جعفر وجوده العظيم ، كما تدلُّ على استجابة دعاء النَّبِيِّ ﷺ لابن جعفر بأن يبارك الله - عزَّ وجلَّ - في تجارته .

* وتعالوا الآن لنمتع الأسماع بهذه الحكاية الطريفة التي حفلت بها المصادرُ فقالت ما مفاده : « روي عن سيّدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - أنه أسلف سيّدنا الرُّبِير بن العوّام - رضي الله عنه - ألف ألف درهم - مليون - ، فلمّا توفي الرُّبِير ، قال ابن الرُّبِير لعبد الله بن جعفر - رضي الله عنهم - : إنني وجدتُ في كُتُب أبي أن له عليك ألف ألف درهم .

فقال ابن جعفر - رضي الله عنه - : هو صادقٌ ، فاقبضها إذا شئت ، ثمّ لقيه بعد ، فقال : يا أبا جعفر ! إنّما وهمتُ ، المالُ لك عليه قال ابن جعفر : فهو له .

قال ابن الرُّبِير : لا أريدُ ذلك .

قال ابن جعفر : فاختز ، إن شئت ، فهو له ، وإن كرهتَ ذلك فلك فيه

(١) « تاريخ الإسلام » للذهبي (حوادث ووفيات : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٤٣١) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٦٠) ، ومعنى قوله « ولني » : بيع التولية : هو أن يبيع المشتري الشيء بثمنه دون زيادة .

نَظَرَةٌ مَا شِئْتَ ، فَإِنْ لَمْ تُرِدْ ذَلِكَ فَبِعْنِي مِنْ مَالِهِ مَا شِئْتَ .

قال : أبيعُكَ ، ولكنِّي أقرُّمُ ، فقومَ الأموال ، ثمَّ أتاه ، فقال : أحبُّ ألاً يحضرني وإياكَ أحد .

فقال له عبدُ اللَّهِ بنُ جعفر : يحضرنا الحسنُ والحسينُ فيشهدان لك .

قال ابنُ الرُّبَيْر : ما أحبُّ أن يحضرنا أحد .

قال : انطلقْ ؛ فمضى معه ، فأعطاهُ خَرباً وسِباحاً لا عِمارةَ له ، وقومَه عليه ، حتَّى إذا فرغَ ، قال عبدُ اللَّهِ بنُ جعفر لغلّامه : ألّقِ لي في هذا الموضعِ مصلّىً ، فألقى له في أغلَطِ موضعٍ من تلك المواضعِ مصلّىً ، فصلّى ركعتين ، وسجّد ، فأطال السُّجود يدعو . فلمّا قضى ما أراد من الدُّعاء ، قال لغلّامه : احفرْ في موضعِ سجودي ، فحفر ؛ فإذا عيْنُ له أنبسطها . فقال له ابنُ الرُّبَيْر : أقِلني .

قال ابنُ جعفر : أمّا دعائي ، وإجابةُ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - إيَّاي فلا أقيلك ، فصار ما أخذ منه أغرم ما في أيدي ابنِ الرُّبَيْر ، رضي اللَّهُ عنهم أجمعين « (١) .

حكاياته مع معاوية :

* قال الإمامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ سَيِّدنا عبدِ اللَّهِ بنِ جعفر - رضي اللَّهُ عنهما - : « وله وفادةٌ على معاويةَ ، وعلى عبدِ الملك ، وكان كبيرَ الشَّأن ، كريماً ، جواداً ، يصلحُ للإمامة » (٢) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٩) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٩٥ - ٩٦) ، و « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٦٠) مع الجمع والتصرّف . قال الذَّهَبِيُّ : « قلت : هذه الحكاية من أبلغ ما بلغنا في الجود » . « تاريخ الإسلام » (حوادث ووفيات : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٤٣١) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٥٦) .

* وقال عنه أيضاً : « سَكَنَ المدينة ، ووفدَ على معاوية ، وابنه ، وعبدُ الملك » (١) .

* وقبله قال ابنُ عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « سَكَنَ المدينة ، وقدم دمشق على معاوية ، ويزيد ، وعبدُ الملك بن مروان ، وأمرَ له يزيدُ بنُ معاويةَ بألفي ألف » (٢) .

* كانتِ العلائقُ وثيقةً بين سيِّدنا عبد الله بن جعفر ، وسيِّدنا معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهم أجمعين - ، كما كانتِ حبالُ الودِّ موصولةً بينهما ، ممَّا يدلُّ على أنَّ سيِّدنا عبدَ الله قد سمَّى أحدَ أولاده معاوية ، ومعاويةُ بنُ عبد الله هذا ؛ قد روى الحديثَ عن أبيه عبد الله بن جعفر . وقد قيل لمعاوية بن عبد الله بن جعفر : « ما بلغ من كرم عبد الله بن جعفر ؟ » . قال : « كان ليس له مالٌ دون النَّاسِ ، وهو والنَّاسُ في ماله شركاء ، كان مَنْ سألَه أعطاه ، ومن استمنحه شيئاً منحه ، لا يرى أنَّه يقتصرُ فيقتصر ، ولا يرى أنَّه يحتاجُ فيدخر » (٣) .

* كان سيِّدنا عبدُ الله بنُ جعفر محلَّ إكبار وإجلال عند سيِّدنا معاوية ، وكان سيِّدنا معاوية - رضي الله عنه - شديدَ الإعجابِ بعبدِ الله ويعده ذروة الشَّرف وقمة السِّيادة ، وفي ذلك يقول : « رَجُلُ بني هاشم عبدُ الله بنُ جعفر ، وهو أهلٌ لكلِّ شرفٍ ، لا والله ما سبقه أحدٌ إلى شرفٍ إلا وسبقه » (٤) .

* وأكَّد ابنُ كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في « بدايته » أنَّ سيِّدنا عبدَ الله بنَ جعفر كان

(١) « تاريخ الإسلام » (حوادث ووفيات : ٦١ - ٨٠ هـ ، ص : ٤٢٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٧٢) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٨) .

(٤) « تهذيب التهذيب » (٥ / ١٧١) .

مُصَافِيًا لِسَيِّدِنَا مُعَاوِيَةَ مُصَادِقًا لَهُ ، يَفِدُ عَلَيْهِ ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ ، فَقَالَ : « وَكَانَ ابْنُ جَعْفَرٍ صَدِيقًا لِمُعَاوِيَةَ ، وَكَانَ يَفِدُ عَلَيْهِ كُلَّ سَنَةٍ ، فَيُعْطِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَيَقْضِي لَهُ مِئَةَ حَاجَةٍ ، وَلَمَّا حَضَرَتِ مُعَاوِيَةُ الْوَفَاةَ ؛ أَوْصَى ابْنَهُ يَزِيدَ بِابْنِ جَعْفَرٍ » (١) .

* وَكَانَ مُعَاوِيَةُ - رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - يَزُورُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي الْمَدِينَةِ ، وَيَأْكُلُ عِنْدَهُ ، وَقَدْ سَاقَ ابْنُ كَثِيرٍ حِكَايَةَ طَرِيفَةٍ ظَرِيفَةٍ عَنْ زِيَارَةِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَأَوْدَعَهَا فِي سِيَاقِ تَرْجُمَتِهِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ تَتَرَجَّمُ الْعِلَاقَةُ الْحَمِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الصَّحَابِيِّينَ الْكَرِيمِينَ ، فَلْنَقْرَأْ تَفَاصِيلَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمَفِيدَةِ الْمُنْتَعَةِ الَّتِي تَقُولُ : « إِنَّ سَيِّدَنَا مُعَاوِيَةَ لَمَّا حَجَّ ، وَنَزَلَ فِي دَارِ مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، طَالَ عَلَيْهِ النَّهَارُ يَوْمًا ، وَفَرَّغَ مِنَ الْقَائِلَةِ ، فَقَالَ لِحَاجِبِهِ : انْظُرْ مَنْ بِالْبَابِ ، هَلْ تَرَى الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ، أَوْ الْحُسَيْنَ ، أَوْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، أَبُو عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَحْمَدَ بْنِ جَحْشٍ ، فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ ، فَخَرَجَ الْحَاجِبُ فَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَسَأَلَ عَنْهُمْ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ يَتَغَدَّوْنَ عِنْدَهُ ، فَأَتَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا كَأَحَدِهِمْ ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَجْتَمِعُ مَعَهُمْ فِي مِثْلِ هَذَا ، فَقَامَ فَأَخَذَ عَصَا ، فَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا وَقَالَ لِحَاجِبِهِ : سِرُّ يَا غَلَامُ ، فَخَرَجَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، حَتَّى دَقَّ عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَأْذِنُ ، فَدَخَلَ مُعَاوِيَةُ فَأَوْسَعَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ : يَا غَلَامُ ، هَاتِ مَخًّا .

(١) « الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ » (٩ / ٣٣) . أَقُولُ : « ذَكَرْتُ الْمَصَادِرُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرَّجُلَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ كَانَا يَهْدِيَانِ بَعْضُهُمَا الْهَدَايَا الْجَمِيلَةَ ، فَقَدْ ذَكَرُوا : « أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ أَهْدَى لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - ، قَارُورَةً مِنَ الْغَالِيَةِ ، فَسَأَلَهُ : كَمْ أَنْفَقَ عَلَيْهَا ؟ ! فَذَكَرَ مَالًا جَزِيلًا ، فَقَالَ : هَذِهِ غَالِيَةٌ ، فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ » . « الْمَحَبُّ وَالْمَحْبُوب » (٣ / ١٤٦ - ١٤٧) ، وَ« الْمُسْتَطَرَف » (٢ / ٢١٨) ، وَغَيْرُهُمَا .

فَأَتَى بِقِصْعَةٍ فِيهَا مِخٌّ ، فَأَقْبَلَ مَعَاوِيَةَ يَأْكُلُ ، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : يَا غَلامُ زِدْنَا مِخًّا ، فزاد ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا غَلامُ زِدْنَا مِخًّا ، فزاد . فَتَعَجَّبَ مَعَاوِيَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَالَ : إِنَّمَا كُنَّا نَقُولُ : يَا غَلامُ : زِدْنَا سَخِينًا ، فَأَمَّا قَوْلُكَ : يَا غَلامُ ، زِدْنَا مِخًّا ، فَلَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلَ الْيَوْمِ ، يَا بَنُ جَعْفَرٍ مَا يَشْبَعُكَ ، وَلَا يَسْعُكَ إِلَّا الْكَثِيرُ مِنَ الْعَطَاءِ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : يَعِينُ اللَّهُ عَلَيَّ مَا تَرَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

فَلَمَّا خَرَجَ مَعَاوِيَةُ أَمَرَ لَهُ يَوْمِئِذٍ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَكَانَ سَيِّدُنا عَبْدُ اللَّهِ بَنُ جَعْفَرٍ قَدْ ذَبَحَ ذَلِكَ الْيَوْمَ كَذَا وَكَذَا مِنْ شَاةٍ ، وَأَمَرَ بِمَخْهَنٍّ ، فَكُنِيتَ لَهُ ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - « (١) » .

* وَكَانَتْ لِسَيِّدِنا عَبْدِ اللَّهِ بَنِ جَعْفَرٍ كَلِمَاتٌ كَعُقُودِ الْجُمَانِ ؛ يَنْطِقُ بِهَا عَقِبَ مَوْقِفٍ يَحْصُلُ لَهُ مَعَ سَيِّدِنا مَعَاوِيَةَ ، وَكَانَ مَعَاوِيَةُ يَتِمَّتِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحَالَةَ فِي ابْنِهِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ : « كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بَنِ جَعْفَرٍ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ ، وَيَقْضِي لَهُ مَعَهَا مِئَةُ حَاجَةٍ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ عَامًا ، فَأَعْطَاهُ الْمَالَ ، وَقَضَى لَهُ الْحَاجَاتِ ، وَبَقِيََتْ مِنْهَا وَاحِدَةٌ ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ ؛ إِذْ قَدِمَ أَصْبَغُهُنْدُ سِجِسْتَانُ يَطْلُبُ مِنْ مَعَاوِيَةَ أَنْ يَمْلِكَهُ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَوَعَدَ مَنْ قَضَى لَهُ هَذِهِ الْحَاجَةُ مِنْ مَالِهِ أَلْفُ أَلْفٍ ، فَطَافَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ وَالْأَمْرَاءِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَمْرَاءِ الْعِرَاقِ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَ الْأَحْنَفِ بَنِ قَيْسٍ ، فَكَلَّمَهُمْ يَقُولُونَ : عَلَيْكَ بِعَبْدِ اللَّهِ بَنِ جَعْفَرٍ ، فَقَصَدَهُ الدَّهْقَانُ ، فَكَلَّمَهُ فِيهِ ابْنُ جَعْفَرٍ مَعَاوِيَةَ ، فَقَضَى حَاجَتَهُ تَكْمِلَةَ الْمِئَةِ حَاجَةٍ ، وَأَمَرَ الْكَاتِبَ ، فَكَتَبَ لَهُ عَهْدَهُ ، وَخَرَجَ بِهِ ابْنُ جَعْفَرٍ لِلدَّهْقَانِ ، فَسَجَدَ لَهُ ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ جَعْفَرٍ : اسْجُدْ لِلَّهِ ، وَاحْمِلْ مَالَكَ إِلَى مَنْزِلِكَ ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَبِيعُ الْمَعْرُوفَ بِالْثَمَنِ ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ

(١) « الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ » (٩ / ٣٣) بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ .

فقال : لأن يكون يزيدُ قالها أحب إليَّ من خراجِ العراق ، أبتُ بنو هاشم إلا كرمًا» (١) .

* وهذه حكايةٌ ماثعةٌ مع هذين السيِّدين الكريمين عبد الله بن جعفر ، ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهم - ، ومفادها كما أوردها ابنُ كثير رحمه الله بأنَّه : « كان لسيدنا عبد الله بن جعفر - رضوان الله عليه - على معاوية - رضي الله عنه - في كلِّ سنة ألف ألف ، فاجتمع عليه في بعض الأوقات دين خمس مئة ألفٍ ، فألحَّ عليه غрмаؤه ، فاستنظرهم حتَّى يقدم على معاوية ، فيسأله أن يسلفه شيئاً من العطاء ، فركبَ إليه ، فقال له : ما أقدمك يا بن جعفر ؟

فقال عبدُ الله بنُ جعفر : دينُ ألحَّ عليَّ غрмаؤه إلحاحاً شديداً .

فقال معاويةُ : وكم هو يا أبا جعفر ؟

قال : خمس مئة ألف يا أمير المؤمنين !

فقضاها عنه ، وقال له : إنَّ الألف ألف ستأتيك في وقتها » (٢) .

* وهذه الحكايةُ تدلُّ على جودِ سيِّدنا معاوية وحلمه ومعرفتهِ أقدارِ أهل البيت ومكانتهم في القلوب ، وفي الأمصار ؛ كما تدلُّ على برِّه لأهل المدينة المنورة وأهل مكة ، وفي وصاته لابنه يزيد مصداق ذلك حيث قال ناصحاً له من خلال وصيةٍ طويلةٍ جاء فيها : « . . . فإنَّك إذا فعلتَ ما أوصيك به ، عرف

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ١٣٧) . وذكر الرَّاغب الأصفهانيَّ محاوره طريفة بين معاوية وعبد الله بن جعفر فقال : « قال معاوية لعبد الله بن جعفر - رضي الله عنهم - : ما اللذة ؟ فقال : ترك الحياء ، واتِّباع الهوى » . « محاضرات الأدباء » (١ / ٥٩٣) ، دار صادر .

(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ١٣٧) بتصرف يسير .

النَّاسَ لَكَ حَقُّكَ وَعَظُمْتَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَاعْرِفْ شَرَفَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، فَإِنَّهُمْ أَصْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ » (١) .

* كما أَنَّ سَيِّدَنَا معاويةَ - رضي الله عنه - أوصى ابنه يزيدَ سَيِّدَنَا عبدَ الله بنَ جعفرِ الهاشميَّ - رضي الله عنه - ، وأكَّدَ عليه بأنَّ يكرمه وأنَّ يحسنَ رِفْدَهُ وعطيته ، ولنستمعْ إلى وصاةِ سَيِّدَنَا معاويةَ سَيِّدَنَا عبدَ الله كما أوردَها المصنِّفون فقالوا : « إِنَّ معاويةَ - رضي الله عنه - قال ليزيدَ : إِنَّ لي خليلاً من أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فَأَكْرَمُهُ وَأَحْسَنُ إِلَيْهِ .

قال يزيدُ : وَمَنْ هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

قال : عبدُ الله بنُ جعفر بنِ أبي طالبِ الهاشميَّ أميرَ أجوادِ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا وَفَدَ عبدُ الله بعدَ وفاةِ معاويةَ على يزيدَ ، أضعفَ جائزته التي كان معاويةَ يعطيه إِيَّاهَا ، وكانت جائزته على معاويةَ ستَّ مئة ألف ، فأعطاه يزيدَ ألف ألف ، فقال له عبدُ الله : بأبي أنتَ وأُمِّي ، فأعطاهُ ألف ألف أخرى ، فقال له ابنُ جعفر : والله لا أجمعُ أبوي لأحدٍ بعدك . وَلَمَّا خَرَجَ ابنُ جعفر من عند يزيدَ وقد أعطاه ألفي ألف ، رأى على بابِ يزيدَ بخاتي - جَمَالَ خِرَاسَانِيَّةَ - مبركات ، قد قدمنَ عليه هديةً من خراسان ، فرجعَ عبدُ الله بنُ جعفر إلى يزيدَ ، فسأله منها ثلاثَ بخاتي ليركبَ عليها إلى الحجِّ والعمرة ، وإذا وفَدَ إلى الشَّامِ على يزيدَ .

فقال يزيدُ للحاجب : ما هذه البخاتي التي على الباب ؟ - ولم يكن شعَرَ بها أو عَلِمَ شيئاً عنها - .

فقال الحاجبُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هِيَ أَرْبَعُ مئة بُخْتِيَّةٍ جَاءَتْنَا تَحْمِلُ أَنْوَاعَ الْأَلْطَافِ - وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْأَمْوَالِ كُلِّهَا - .

فقال يزيدُ للحاجب : اصرفْهَا إلى أُمِّي جعفر بما عليها جميعها .

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٣٠) بانتقاء واختصار .

فكان سيّدنا عبد الله بن جعفر يقول : أتلومونني على حسن الرّأي في هذا ؟ - يعني يزيد بن معاوية - « (١) .

* وفي الحقيقة كان يزيدٌ حصيفاً في عطائه لهذا السيّد السّخيّ الذي يفرّق الأموال في أهل المدينة ، ويبرّ القريبَ والبعيد ، وهذا الأمر الميمون ، أورده ابنُ حمدون ، في « تذكّره » فقال : « كان عبدُ الله بنُ جعفر من الجود بالمكان المشهور ، وله فيه أخبارٌ يكاد سامعها ينكرها لبُعْدِها عن المعهود ، وكان معاويةُ يعطيه ألفَ ألفِ درهمٍ كلّ سنة ، فيفرّقها في النَّاسِ ، ولا تراه إلا وعليه دَيْنٌ ؛ ولَمَّا مات معاويةُ - رضي الله عنه - ، وفَدَّ على يزيدٍ ، فقال له : كم كان أميرُ المؤمنين معاويةَ يعطيك ؟

قال : كان رحمه الله يعطيني ألفَ ألفِ .

قال يزيد : قد زدناك لترحمك عليه ألفَ ألفِ .

قال : بأبي أنت وأمي .

قال : ولهذه ألفُ ألفٍ .

قال : أمّا إنّي لا أقولها لأحدٍ بعدك .

ف قيل ليزيد : أعطيتَ هذا المالَ العظيمَ رجلاً من مالِ المسلمين ؟

فقال : والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة المنوّرة ، ثمّ وكّلَ به مَنْ صَحْبُهُ وهو لا يعلمُ ، لينظرَ ما يفعل في المال ، فلمّا وصلَ المدينة فرّقَ جميعَ

(١) « البداية والنهاية » (٨ / ٢٣٠) ، و « مختصر تاريخ دمشق » (٢٨ / ٢٦ - ٢٧) ،

و « المستطرف » (١ / ٤٨٨) مع الجمع والتصرف . وعلّق ابنُ عساكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على

هذه القصّة فقال : « وقد كان يزيد فيه خصال محمودّة من الكرم والحلم والفصاحة ،

والشّعْر والشّجاعة وحسن الرّأي في الملك ، وكان حسن المعاشرة ، وكان فيه أيضاً

إقبال على الشّهوات ، وترك بعض الصّلاة في بعض الأوقات » . « مختصر تاريخ

دمشق » (٢٨ / ٢٧) .

المال ، حتَّى احتاج بعد شهر إلى الدِّين » (١) .

مروءته ونبل أخلاقه :

* كانت سيرة عبد الله بن جعفر - رضوان الله عليه - بهجة المجالس ، وأُسْرَ المجالس ، وتحفة النُّظار ، وعيون الأخبار ، وفيها ما فيها من كريم الأخلاق ، وعظيم المروءة ، كما فيها من جوامع الفضائل التي تشحذ النفوس ، وترتقي بالهمم إلى سماء المعالي .

* وقد استوعبت المصادر بين جوانحها قصصاً وأخباراً جميلة تدلُّ على نبلي سيّدنا عبد الله بن جعفر ، وتشيرُ بأصابع الفضل إلى مروءته النّادرة ، وحصافته ، وجبره خواطر النَّاس على اختلاف مشاربهم وطبقاتهم .

* وهذا بُديعُ مولى عبد الله بن جعفر يرسمُ لنا صورةً من صور نبلي مولاه فيقول : « قال لي هشامُ بنُ عبد الملك : أخبرني بأعجب شيء رأيته من ابن جعفر .

قال : أتاؤه فتى فقال له : قد تزوجتُ ، وليس عندي من الصّدّاق شيء .

قال : كم الصّدّاق ؟

قال : ثلاثون ديناراً .

قال : يا بُديع اذعُ بالكيس .

فأتيته بكيس فيه دنانير ، فقال : عدّ ، حتَّى عددت خمسين وأربع مئة ،

(١) « التذكرة الحمدونيّة » (٢ / ٢٦٩) . وعن جود سيّدنا عبد الله وسخائه ذكر الأبيهيّ قال : « حجَّ عبد الله بنُ جعفر - رضي الله عنه - ، ومعه ثلاثون راحلةً ، وهو يمشي على رجليه ، حتَّى وقف بعرفات ، فأعتق ثلاثين مملوكاً ، وحملهم على ثلاثين راحلة ، وأمر لهم بثلاثين ألفاً ، وقال : أعتقهم الله تعالى ، لعلّه يعتقني من النَّار » . « المستطرف » (١ / ٤٧) .

وفني ما في الكيس ، فقال ابنُ جعفر : ليت دام لنا ما في الكيس ، ودام لنا صوتك .

فقال لي هشام : من الرجل ؟

قلت : لا أخبرك ، فإني أخاف أن تأخذها منه .

فقال : ويحك ! يعطيه ابنُ جعفر ، وأخذها أنا منه ؟ ! « (١) » .

* ومما يدلُّ على بُنْهِ وكمالِ مروءته هذه القصَّة الجميلة التي أضاءت صدور بعض المصنِّفات ، وزيّنت لِبَاتِها ، والتي خلاصتها : « أنَّ ابنَ أبي عمَّار - فقيه الحجاز يومئذ - قد دخل على نَحَّاس ، فعرض عليه جارية حسنة الوجه ، فعلقَ بها ، وأخذهُ أمر عظيم ، وأغلى عليه ثمنها ، فأولع ابن أبي عمَّار بها ، فمشى إليه عطاء ، وطاووس ، ومجاهد يعذلونه ، فكان جوابه أن قال :

يلومني فيك أقوام أجالسهم فما أبالي أطل اللوم أو وقعا
وبلغ خبره عبدُ الله بنُ جعفر ، فاشتراها بأربعين ألف درهم ، وأمر قيِّمة جواريه أن تزينها ، وأن تحلِّيها ، ففعلت ، وقدم المدينة ، فجاءه النَّاس وجلَّة أهل الحجاز يسلمون عليه ، ثمَّ طلب ابن أبي عمَّار ، فجاءه زائراً ، فقال له : يا بنَ أبي عمَّار ! ما فعل حبُّك لفلانة ؟

قال : هي التي هام قلبي بذكرها ، والنَّفْسُ مشغولةٌ بها .

قال ابنُ جعفر : أتعرفها إن رأيتها ؟

قال : جُعِلْتُ فداك ! هي مصوَّرةٌ نصبَ عينيَّ عند كلِّ خطرة وفكرة .

قال ابنُ جعفر : والله يا بنَ عمَّار ! ما نظرتُ إليها مذ ملكتها ، ثمَّ نادى : يا جارية ، أخرجيها ، فأخرجتُ ترفلُ في الحلي والحلل .

(١) « التَّذكرة الحمدونيَّة » (٢ / ٣٨٧) .

فقال ابنُ أبي عمَّار : هي هذه ، ثمَّ أنشأ يقول :

هي التي هامَ قلبي مِنْ تذكُّرها والتَّفس مشغولة أيضاً بذكرها
قال ابنُ جعفر : فشأنك بها فخذها ، بارك الله فيها .
فقال ابنُ أبي عمَّار : جُعِلْتُ فداك ! لقد تفضَّلت بشيء ما يتفضَّل به أحدٌ
عليَّ ، فجزاك الله خيراً .

فلَمَّا وَلَّى بها قال ابنُ جعفر لغلامه : يا غلامُ ، احملْ معها مئة ألف درهم
كي لا يهتَمَّ بها ولا تهتَمَّ به ، فبكى ابنُ أبي عمَّار سروراً ثمَّ قال : الله يعلمُ
حيثُ يجعل رسالاته ، والله لئن كان الله وَعَدَنَا نعيمَ الآخرة ، لقد عَجَّلَتْ نعيمَ
الدُّنيا « (١) » .

* وممَّا يندرجُ تحتُ ثُبُل ابنِ جعفر ومروءته ما رواه محمَّد بنُ سيرين
قال : « إِنَّ رجلاً جَلَبَ سُكَّرًا إلى المدينة ، فَكَسَدَ عليه ، فقالوا له : ائت
عبدَ الله بنَ جعفر ، فَأَتَاهُ فاشترَاهُ منه ، وقال : مَنْ شاءَ أَخَذَ ، فقال
الرَّجُلُ : أَخَذْ معهم ؟ قال : خُذْ » (٢) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٤ - ٨٥) ، و « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٦١)
مع الجمع والتصرف .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٤) . وجاءت هذه القصة برواية أخرى عن
محمَّد بن سيرين قال : « جلب رجلٌ إلى المدينة سَكَّرًا ، فَكَسَدَ عليه ، فقليل له : لو
أتيتَ ابنَ جعفر قبله منك وأعطاك الثَّمن ، فَأَتَى ابنَ جعفر فأخبره ، فأمره بإحضاره ،
وَبُسِطَ له ، ثمَّ أمر به فنُثر ، فقال للنَّاس : انتهبوا ، فلَمَّا رأى النَّاس ينتهبون
قال : جعلتُ فداك ! أَخَذْ معهم ؟ قال : نعم ، فجعل الرَّجُلُ يهيلُ في غرائره ، ثمَّ
قال لعبد الله : أعطني الثَّمن ، فقال : وكم ثمنُ سَكَّرِكَ ؟ قال : أربعة آلاف درهم ،
فأمر له بها » .

وزاد الأصمعي قال : « قال الرَّجُل : ما يدري هذا وما يعقل أَخَذَ أم أعطى !
لأُطْلِبَنَّهُ بالثَّمن ثانية ، فغدا عليه فقال : ثمنُ سَكَّرِي ، فأطرق عبد الله ملياً ثمَّ =

* وفي رواية : « أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ أَمَرَ قَهْرْمَانَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ الشُّكْرَ مِنَ الرَّجُلِ ، وَأَنْ يَنْهَبَهُ النَّاسُ » (١) .

* وعن الأصمعيّ قال : « جاءت امرأةٌ إلى عبدِ الله بنِ جعفر بدجاجةٍ مسمومة في مَكْتَلٍ ، فقالت : بأبي أنت ! هذه الدَّجاجةُ كانت مثل بُنيّتي ، أَكَلُ من بيضها ، وتؤنسني ، فأليتُ ألا أدفنها إلا في أكرم موضعٍ أقدرُ عليه ، ولا والله ما في الأرض موضعٌ أكرم من بطنك .

قال : خذوها منها ، واحملوها إليها من الحنطةِ كذا ، ومن التمر كذا ، وأعطوها من الدّراهم كذا ، فعَدَّدَ شيئاً ، وذكر أنواعاً من العطاء ، فلَمَّا رأت ذلك قالت - وقد أخذها الدّهش - : بأبي أنت وأمي يا بن جعفر : ﴿ إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِيفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] » (٢) .

= قال : يا غلام أعطه أربعة آلاف درهم ؛ فأعطاه إياها ، فقال الرَّجُلُ : قد قلتُ لكم : إنّ هذا الرَّجُلَ لا يعقل : أخذَ أم أعطى ! لأطلبنّه بالثَّمَنِ ، فغدا عليه فقال أصلحك الله ! ثمنُ سكرٍ ، فأطرق عبدُ الله ملياً ، ثمَّ رفعَ رأسه إلى رجلٍ ، فقال : ادفعْ إليه أربعة آلاف درهم ، فلَمَّا وَلَّى ليقبضها قال له ابنُ جعفر : يا أعرابي هذه تمام اثني عشر ألف درهم ، فانصرف الرَّجُلُ وهو يعجبُ من فعله .

وعن أبي عبيدة قال : « إنّ أعرابياً باعَ راحلةً من عبدِ الله بن جعفر ، ثمَّ غدا عليه فاقتضى ثمنها ، فأمر له بها ، ثمَّ عاوده ثلاثاً ، وذكر في الخبر مثل الذي قبله وزاد فيه : فقال فيه :

لا خيرَ في المُجْتَدِي في الحين تسألُه فاستمطروا من قريشٍ خيرَ مُخْتَدِعٍ
تخالُ فيه إذا حاورته بلهاً من جوده وهو وافي العقل والورع »

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٦١) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٣) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣ / ٤٦١) مع الجمع والتصرّف . وقال الذهبيّ رَحِمَهُ اللهُ : « ولعبدُ الله بن جعفر أخبارٌ في الجود والبذل » . أقولُ : « وهذه الأخبارُ منشورة في « تاريخ دمشق » لابن عساكر وغيره من المصادر » .

من أزهـر كلماته :

* حُفِظَتْ عن سيّدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - كلماتٌ نفيسةٌ كَسَبَائِكَ الذّهب وكالجواهر ، من احتذاها أَلْفَى السَّعادة تظلّله في الحِلِّ والتَّسيار ؛ واكتسب تجربةَ رجلٍ كريمٍ من رجالِ أهل البيت الأُسُخياء الأبرار .

* فمن أقواله النَّافعةِ في اختيار الصَّاحب نصيحته لرجلٍ قائلاً : « عليك بمنْ إنْ صحبته زانك ، وإنْ خفضتْ له صانك ، وإنْ وعدك لم يحرمك ، ولم يرفضك ، وإنْ رأى منك حسنةً عدّها ، وإنْ رأى خلّةً سدّها ، وإنْ سكتَ عنه ابتدأك ، وإنْ سألتَه أعطاك » (١) .

* ومن إجاباته الشّافية لسيّدنا معاويةَ عندما سأله : « ما العيشُ يا أبا جعفر ؟ » .

قال : « ركوبُ الهوى ، وتركُ الحياء » (٢) .

* وكان هذا السيّد السّخيّ يرى أنَّ الكريمَ هو الذي يبتدئُ بالمعروف دون سؤال ، وفي هذا المضمّار يقولُ : « ليس الجوادُ الذي يعطي بعدّ

(١) « الأخبار الموفّقات » (ص : ٣٤٢) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨١) . ومن لطائف نصائحه المفيدة ومواعظه المانعة ما أورده الرّاعب الأصفهانيّ في « محاضراته » قال : « مرَّ عبدُ الله بنُ جعفر بعبدِ الله بنِ صفوان ، فأدخله بساتين قد اتّخذها وقال له : كيف ترى ؟ .

قال : أراك خالفت ما قال لك إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، وأنت قد اتّخذتها بساتين وقصوراً » . « محاضرات الأدباء » (١ / ٣٥٨) ، دار صادر .

ومن بدائع توجهاته أيضاً ما أورده الرّاعب الأصفهانيّ قال : « شكّا عبد الله بن جعفر ضرّسه ، فقال له عبد الله بن صفوان : إن إبليس يقول : دواء الضّرس قلعه ، فقال : إنّما يطيع إبليس أولياؤه » . « محاضرات الأدباء » (٢ / ١٣٩) .

المسألة ؛ لأنّ الذي يبذله السَّائِلُ من وجهه وكلامه ، أفضل ممّا يبذل من نائله ، وإنّما الجواذ الذي يبتدئ بالمعروف « (١) .

* ومن محاسن إجاباته الكافية الشّافية أنّه رُئي يماكسُ في درهم ، فقيل له : « تماكسُ في درهم وأنت تجوّد من المال بكذا وكذا ؟ » .
فقال - رضي الله عنه وأرضاه - : « ذلك مالي جُدْتُ به ، وهذا عقلي بخلْتُ به » (٢) .

* ولشدة سخاء سيّدنا عبد الله بن جعفر وكثرة معروفه وجوده ، أصابه جهدٌ ، فبلغ سيّدنا معاوية أمر ابن جعفر فكتب إليه :
لَمَالُ الْمَرْءِ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرُهُ أَعْفُ مِنَ الْقُنُوعِ
يَسُدُّ بِهِ نَوَائِبَ تَعْتَرِيهِ مِنَ الْأَيَّامِ كَالْتَهْلِيلِ الشُّرُوعِ
ثمّ كتب إليه يأمره بالقصد ، ويرعّبه فيه ، وينهاه عن السّرف ويعينه عليه ،
لكنّ هذا الكلام لم يجد استحساناً عند ابن جعفر ولم يلقَ قبولاً في نفسه ،
فأجابته بهذه الأبيات الموقظة :

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٩٠) . ومن لطائف أقواله في الحثّ على إعطاء القليل قوله : « لا تَسْتَحِجْ من إعطاء القليل ، فإنّ المنع أقلّ منه » . « محاضرات الأدباء » (٢ / ٣٩٠) ، دار صادر .

ومن أبدع مواعظه في المودة ما جاء عند الزّاغب الأصفهانيّ قال : « قال رجلٌ لعبد الله بن جعفر : إنّ فلاناً يقول إنّهُ يحبّني ، فبماذا أعلم صدقه ؟
قال : امتحنْ قلبه بقلبك ، فإن كنت تؤدّه ، فإنّه يودّك » . « محاضرات الأدباء » (٣ / ٥٢) ، دار صادر .

ومن نصائحه وأقواله الأنيقة : « أنّه مرّ بامرأة مُزَيّنة - من قبيلة مزينة - مُطَيّبة جالسة على باب دارها وفي يدها سبحة فقال : ما التّسبيح بمشابه حالك » . « محاضرات الأدباء » (٣ / ٤٥١) ، دار صادر .

(٢) المصدر السّابق ذاته . ومعنى « يُماكس » : المماكسة في البيع : انتقاص الثمن .

سَلِيَ الطَّارِقَ الْمُعْتَرِّ يَا أُمَّ خَالِدٍ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ نَارِي وَمَجْزَرِي
 أُنْبِطُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ الْقِرَى وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِي لَهُمْ دُونَ مُنْكَرِي
 وَقَدْ أَشْتَرِي عِرْضِي بِمَالِي وَمَا عَسَى أَخَوْكَ إِذَا مَا ضَيَّعَ الْعِرْضَ يَشْتَرِي
 يُوْدِي إِلَيَّ اللَّيْلُ إِيَّانَ مَا جَدٍ كَرِيمٍ وَمَالِي سَارِحٌ مَالٌ مُقْتَرٍ
 فَأَعْجَبَ سَيِّدُنَا مُعَاوِيَةَ مَا كَتَبَ ابْنُ جَعْفَرٍ إِلَيْهِ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ النَّاطِقَةِ
 بِالنَّدَى ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَوْنًا لَهُ عَلَى دَيْنِهِ « (١) » .

* وَتَمَثَّلَ رَجُلٌ عِنْدَ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بِقَوْلِ الْهَذِيلِ الْأَشْجَعِيِّ
 وَاسْمُهُ : هَذِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَالِمٍ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ
 فَإِذَا أَصَبْتَ صَنِيعَةً فَأَعْمِذْ بِهَا اللَّهُ أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ أَوْ دَعِ
 فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : « هَذَا الْبَيْتَانِ يَبْخُلَانِ
 النَّاسَ ، لَا ، وَلَكِنْ أَمْطَرَ الْمَعْرُوفَ إِمْطَارًا ، فَإِنْ أَصَابَ الْكَرَامَ كَانُوا لَهُ أَهْلًا ،
 وَإِنْ أَصَابَ اللَّثَامَ كُنْتَ لَهُ أَهْلًا » (٢) .

كُنْتَ وَاللَّهِ شَرِيفًا :

* يُعَدُّ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنْ
 أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْمُعَمَّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الْأَطْهَارِ ، فَقَدْ امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ إِلَى أَنْ
 تَجَاوَزَ الثَّمَانِينَ ، وَعَاشَ مُحَمَّدَ السَّيِّرَةِ ، صَافِي السَّرِيرَةِ ؛ مُتَّبِعًا لِلسُّنَّةِ ، وَفِيَّ
 لِأَهْلِ الْبَيْتِ ، وَلِلصَّحَابَةِ الْأَخْيَارِ ، وَأَبْنَائِهِمُ الْأَبْرَارِ .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٨٩ - ٩٠) .

(٢) « بهجة المجالس » (١ / ٣٠٤) بتصرف يسير . وفي رواية أنه قال : « هذا رجلٌ
 أَرَادَ أَنْ يَبْخُلَ النَّاسَ ، أَمْطَرَ الْمَعْرُوفَ مَطْرًا ، فَإِنْ صَادَفَتْ مَوْضِعًا فَذَلِكَ مَا أَرَدْتُ ،
 وَإِلَّا رَجِعَ إِلَيْكَ فَكُنْتَ أَهْلَهُ » . « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٩٠) .

* وكان لسيدنا عبد الله مقامٌ مرموقٌ في عهد الخلافة الراشدة ، وله مواقفٌ كريمةٌ في عهد خلافة بني أمية ، كما له آثارٌ واضحةٌ مع سيدنا الحسين بن علي ، ومع عمه علي في خلافته ، وقد تكفلت المصادر المتخصصة في شرحها وذكرها .

* وقد أكرم الله - عز وجل - هذا السيد الهمام بالدُرِّيَّة الطَّيِّبَةِ ، فكان له بضعة عشر ولداً ، ورزق أيضاً بضع بنات كان لهنَّ في تاريخ الإسلام نصيب ، منهنَّ : أمُّ كلثوم ، وأمُّ أبيها ، وأمُّ محمد ، وأمُّ عون ^(١) .

* ونلاحظ أنَّ سيدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - قد سمَّى أولاده بأسماء الأنبياء ، وأسماء الصحابة ، فمن أولاده الذين سمَّاهم بأسماء الأنبياء : محمد ، صالح ، موسى ، هارون ، يحيى ، إسماعيل ، وإسحاق . وأمَّا مَنْ سمَّاهم بأسماء الصحابة : أبو بكر ، عبيد الله ، معاوية ، جعفر الأكبر ، علي ، عون الأكبر ، عباس ، وعون الأصغر ، والحسن ، وأبو سعيد ، وقثم ، وغيرهم ^(٢) .

(١) تذكر بعض المصادر أنَّ الحجاج بن يوسف الثقفي قد تزوج إحدى بنات سيدنا عبد الله بن جعفر ، وذكرت في ذلك قصة مفادها : « رأى عبد الله بن جعفر غراباً قعد على منارة النبي ﷺ ، فقال سعيد بن المسيب : سيتزوج الحجاج بابتك ؟ فتزوج بها الحجاج بعد ، ف قيل له : كيف علمت ذلك ؟

فقال : المنارة أشرف ما في المدينة ، والغراب فاسق » . « محاضرات الأدباء » (١ / ٣٠٨) ، و « البصائر والذخائر » (٨ / ١١٠) .

ويظهر أنَّ سيدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - لِمَ على تزويجه الحجاج ف قيل له : « أتتكح ابنتك الحجاج ؟ » فقال : « أنكحتموه دينكم ، والدين أجلُّ من بضع المرأة » . « محاضرات الأدباء » (٣ / ٤٠٨) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٦٤) ، و « المعارف » (ص : ٢٠٧) ، مع الجمع بينهما .

* امتدَّت الحَيَاةُ بسَيِّدنا عبدِ اللَّهِ بنِ جعفرٍ إلى سنة ثمانين من الهجرة ، وتذكرُ الرِّوَاياتُ أَنَّهُ : « لَمَّا ولي عبدُ الملكِ بن مروان جَفَا سَيِّدنا عبدُ اللَّهِ بن جعفر ، ورَقَّتْ حالُهُ ، فراحَ يوماً إلى الجُمُعَةِ ، وجاءه سائلٌ فقال له : إِنْ كانَ يَقْنَعُكَ أَحَدُ قَمِيصَيِّ هَذاينِ فَخُذْهُ ، فقال : نعم ، فقال عبدُ اللَّهِ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عودتني عادةً جَريئَةً عليها ، فَإِنْ كانَ ذلكَ قد انقطعَ ، فاقبضني إليك ، فتوفي في الجمعةِ الأخرى - رضي اللَّهُ عنه - » (١) .

* وتوفي سَيِّدنا عبدُ اللَّهِ بنُ جعفرَ سنة ثمانين من الهجرة في المدينة المنوَّرة ، وكانَ واليها يومئذُ أَبانُ بنُ عثمان ، وذلك في خلافةِ عبدِ الملكِ بنِ مروان ، وكانَ عُمُرُ سَيِّدنا عبدِ اللَّهِ بن جعفر يوم وفاته ثمانين سنة . وحَمَلَ أَبانُ بنُ عثمان السَّريرَ بينَ العمودَينِ ، فما فارقه حتَّى وَضَعَهُ بالبقيع ، ودموعُهُ تسيلُ على وجنتَيْهِ وهو يقولُ : « كُنْتُ وَاللَّهِ خيراً لا شَرَّ فيكَ ، كُنْتَ وَاللَّهِ شَريفاً وأَصيلاً بَرّاً ، كُنْتَ وَاللَّهِ وَكُنْتُ . . . » والولائدُ خَلَفَ سريره قد شَقَقْنَ الجيوبَ ، والنَّاسُ يزدحمون على سريره ، وصَلَّى عليه أَبانُ بنُ عثمان ، وخلقُ كثيرٌ من أَهلِ المدينة وما حولها (٢) .

(١) « التَّذْكَرةُ الحمدونيَّةُ » (٢ / ٢٦٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٩١) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٦٤) . وذكر بعضُ من ترجم لسَيِّدنا عبدِ اللَّهِ بن جعفر أقوالاً وأخباراً غنية بالمعارفِ في وفاته ومنها ما ذكره الجعفريُّ قال : « لما ماتَ عبدُ اللَّهِ بن جعفر - رضي اللَّهُ عنهما - شَهِدَهُ أَهلُ المدينة كُلُّهُمْ ، وإنَّما كانَ عبدُ اللَّهِ بن جعفر مأوى المساكين ، وملجأ الضُّعفاء ، فما تنظر إلى ذي حِجْبٍ إلا رأيتَهُ مُسْتَعْبِراً قد أظهرَ الهلعَ والجزعَ ، فلمَّا فرغوا من دفنه قام عمرو بن عثمان فوقف على شفير القبر فقال : رحمك اللَّهُ يا بن جعفر ، إِنْ كُنْتُ لِرَحْمِكَ لوَصِلاً ، ولأهلِ الشَّرِّ لمبغضاً ، ولأهلِ الرِّيبَةِ لقالياً ، ولقد كنتَ فيما بيني وبينك كما قال الأعشى :

رَعَيْتَ الَّذِي قَدْ كانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ الْوَدِّ حَتَّى غَيَّبْتُكَ الْمَقَابِرَ =

* قال هشامُ بنُ سليمان المخروميّ : « أجمعَ أهلُ الحجاز ، وأهلُ البصرة ، وأهلُ الكوفة أنَّهُم لم يسمعوا بيَّتَيْن أحسنَ من بيَّتَيْن رأوهما على قَبْرِ عبدِ اللهِ بنِ جعفر بنِ أبي طالب - رضي اللهُ عنه - :

مُقيماً إلى أن يبعثَ اللهُ خَلْقَه لقاءُكَ لا يُرجى وأنتَ قريبُ
تزييدُ بلى في كُلِّ يومٍ وليلةٍ وتُنسى كما تُبلى وأنتَ حبيبُ » ^(١)

* رضي اللهُ عن الصَّحابيِّ ابنِ الصَّحابيِّ عبدِ اللهِ بنِ جعفر ، وغفرَ لنا وله ، وأدخلنا معه في رحمته في جنَّاتٍ ونهر ، إنَّه سميعٌ مجيبٌ رحيمٌ برّ .



= فرحمك اللهُ يومٌ وُلدت ، ويوم كنتَ رجلاً ، ويوم متَّ ، ويوم تُبعثُ حيّاً ، واللهِ لئن كانت هاشمٌ أُصيبت بك ، لقد عمَّ قريشاً كلّها هلكُك ، فما أظنُّ أن يُرى بعدك مثلك .

فقام عمرو بنُ سعيد بنِ العاص الأشدق فقال : لا إله إلا اللهُ الذي يرثُ الأرضَ ومنَ عليها وإليه ترجعون ، ما كان أحلى العيش بك يا بنِ جعفر ! وما أسمعُ ما أصبح بعدك ! واللهِ لو كانت عيني دامعة على أحدٍ لدمعتُ عليك ، كان واللهِ حديثُك غيرَ مشوبٍ بكذبٍ وودُّك غيرَ ممزوجٍ بكدرٍ .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٢ / ٩١) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٩٦) .

عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ

رضي الله عنهما

- * ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ ؛ وَلَهُ صُحْبَةٌ وَرَوَايَةٌ .
- * كَانَ عَظِيمَ الْكَرَمِ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي السَّخَاءِ .
- * لَهُ أَخْبَارٌ مَاتَعَةٌ مَعَ أَعْيَانِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

عبيدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما

ادخلوا دار العباس :

* دارُ سيّدنا العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - من الدُّور الميمونة في دنيا البركات ؛ فهذه الدَّارُ يَتَّبِعُ ثُرٌّ من ينابيع الخيرات ؛ وفيها ما فيها من الفضل والحكم والمسرات ؛ ومن علمٍ وفهمٍ وسماحةٍ ونبلٍ وجمالٍ وأبناء كرام بلغوا أعلى الدَّرَجَات .

* وكان يقال : « مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ ، وَالْجَمَالَ ، وَالسَّخَاءَ فَلْيَأْتِ دَارَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ - رضي الله عنه - » .

* وها نحنُ أولاء نأتي هذه الدَّارَ الميمونة التي تُصدِّرُ الجمالَ والفقهَ والسَّخَاءَ ، ونريدُ منها اليوم السَّخَاءَ ، كما أخذنا بالأمس الفقهَ ، وأودعناه كتابنا « علماء الصَّحابة - رضي الله عنهم - » ، بل افتتحنا به الباب الأوَّل من الكتاب ، لنستضيء به إلى آخره ، وكان لقائنا مع عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وأرضاهما ، أمّا اليوم فنودُّ أن نستفيدَ من السَّخَاءِ مع عبيدُ الله بن عباس^(١) الهاشميِّ المكيِّ الصَّحابيِّ ، لنعيشَ وقتاً رغيذاً مع هذا

(١) « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » (١ / ١٣٠) ، و « الاستيعاب » (٢ / ٤٢١ - ٤٢٣) ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٢٦٧ - ٢٦٩) ، و « المعارف » (ص : ١٢١ - ١٢٢ ، و ٢٦٧) ، =

السَّخِي البهِّي فقد كان عبیدُ اللَّهِ سَخِيًّا ، في حين أنَّ الجمالَ كان للفضل ،
والعلم لعبدِ اللَّهِ - رضي الله عنهم أجمعين - .

* ولد عُبيدُ اللَّهِ في مَكَّةَ المَكْرَمَةِ ، وكان أصغر من أخيه عبدِ اللَّهِ بِسَنَةٍ
واحدة ؛ وأدرك النَّبِيَّ ﷺ ، وَحَدَّثَ عنه ؛ فَعُبِيدُ اللَّهِ ابنُ عَمِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ،
فهو من كرامِ أهلِ البيتِ وأُسُخْيائِهِمْ وفضلائِهِمْ .

* قال الإمامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : « عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ العَبَّاسِ بن عبدِ المَطْلَبِ
الهاشميِّ ، ابنِ عَمِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأخو عبدِ اللَّهِ ، وكثير ، والفضل ،
وَقُتْم ، ومَعْبِد ، وتَمَام . وُلِدَ في حياةِ النَّبِيِّ ﷺ » (١) .

* وأُمُّهُ وَأُمُّ إِخْوَتِهِ هي السَّيِّدَةُ الفاضلةُ النَّجَّيَّةُ أُمُّ الفضل لبابةِ الكبريٰ بنت
الحارثِ الهَلَالِيَّةِ (٢) - رضي الله عنها - ، يُقال : إنها أوَّلُ امرأةٍ أَسْلَمَتْ بعدَ أَمَّا
الحصيفةِ النَّبِيلَةِ الصَّدِيقَةِ الطَّاهِرَةِ أُمِّ المؤمنين خديجةِ الكبريٰ بنت
خويلد - رضي الله عنها - ، وحشرنا في معيَّتِها .

* كانت أُمُّ الفضلِ هَذِهِ ؛ من ذواتِ المَكَانَةِ عندِ النَّبِيِّ ﷺ ، فكان
يزورُها وَيَقِيلُ عندها ، وكانت من المنجبات ، وَلَدَتْ للعَبَّاسِ سَتَّةَ رجالٍ لم تَلِدْ
امرأةً مثلَهُمْ ، وفيها يقولُ عبدُ اللَّهِ بن يزيدِ الهَلَالِي مادِحاً ومنوهاً بمكانتها
وسؤدها :

= و« النَّبِيْن » (ص : ١٣٥) ، و« تهذيبُ التَّهْذِيبِ » (٧ / ١٩ - ٢٠) ، و« البداية
والنَّهْيَةُ » (٨ / ٩٠ - ٩١) ، و« أَسَدُ الغَايَةِ » (٣ / ٤٢٠ - ٤٢٢) ، ترجمة
رقم : (٣٤٦٤) ، و« تهذيبُ الأَسْمَاءِ واللُّغَاتِ » (١ / ٣١٢) ، و« التَّذْكَرَةُ
الحمدونيَّةُ » (٢ / ٢٨٦ - ٢٨٨ ، و٣٤٠) ، و(٤ / ٢٧٦ - ٢٧٨) وغيرها .

(١) « سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ » (٣ / ٥١٢ - ٥١٣) .

(٢) اقرأ سيرة السَّيِّدَةِ الجَلِيلَةِ أُمِّ الفضلِ بنتِ الحارثِ في موسوعتنا : « نساء من عصر
النُّبُوَّةِ » (ص : ٤٣٩ - ٤٤٥) ، دار ابن كثير - دمشق ، ط : ٣ - ٢٠٠٣ م ،
فسيرتها فضل في فضل في فضل .

ما وَلَدَتْ نَجِيَّةً مِنْ فَحْلِ بِجَبَلٍ نَعْلَمُهُ أَوْ سَهْلٍ
 كَسْتِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّ الْفَضْلِ أَكْرَمَ بِهَا مِنْ كَهْلَةٍ وَكَهْلٍ
 عَمَّ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى ذِي الْفَضْلِ وَخَاتَمَ الرُّسُلِ وَخَيْرَ الرُّسُلِ

* ومن الطَّرِيفِ والممتع أَنَّ هناك ثلاث صحابيَّات يسمَّينَ باسمها ،
 ويكتنَّينَ بكنيتها وهنَّ : لبابة بنتُ الحارث الهلاليَّة هذه ، ولبابة الصَّغرى بنت
 الحارث وهي أُمُّ خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ولبابة بنتُ أبي لبابة بن
 عبد المنذر الأنصاريَّة^(١) . وأُمُّ الفضل بنت الحارث هذه ، وأُمُّ الفضل بنت
 حمزة بن عبد المطلب بنت عمِّ النَّبِيِّ ﷺ ، وأُمُّ الفضل بنت العباس بن
 عبد المطلب^(٢) ، وهي بنت عمِّ النَّبِيِّ ﷺ ، وقد أخرجها البخاريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيمن
 روى عن النَّبِيِّ ﷺ من نساء بني هاشم - رضي الله عنهن أجمعين - .

رُؤْيَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَرَوَايَتُهُ :

* يُعَدُّ سَيِّدَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بن عَبَّاس - رضي الله عنه - من صغار الصَّحابة ،
 فقد وُلِدَ قَبْلَ الهجرة بستَينَ ، فكان عمره عندما لحق النَّبِيُّ ﷺ بالرَّفِيقِ الْأَعْلَى
 اثني عشر عاماً ، وقد رأى النَّبِيَّ ﷺ ، فهو ممَّن له رُؤْيَةٌ ، وله حديثٌ عن
 النَّبِيِّ ﷺ .

* لَخَّصَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ رحمه الله هذا الأمر فقال : « وُلِدَ فِي حَيَاةِ
 النَّبِيِّ ﷺ ، وقيل : له رُؤْيَةٌ ، وله حديثٌ عن النَّبِيِّ ﷺ فِي سَنَنِ النَّسَائِيِّ ،
 حَكَمَهُ أَنَّهُ مَرْسَلٌ »^(٣) .

(١) انظر : « أسد الغابة » (٦ / ٢٥٣ - ٢٥٤) ، التَّراجم رقم : (٧٢٤٤ ، ٧٢٤٥ ، ٧٢٤٦) .

(٢) « أسد الغابة » (٦ / ٣٧٨) ، التَّراجم رقم : (٧٥٥٨ ، ٧٥٥٩ ، ٧٥٦٠) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٣) . وقال الأصبهانيُّ : « كان عبيد الله أصغر سنّاً
 من عبد الله بسنة ، وكان إسلامه مع إسلام أبيه ، توفي بالمدينة أيام يزيد بن معاوية ، =

* وفي موضع آخر قال الذهبي رحمته الله : « عُبيدُ الله بنُ عباس ، أبو محمَّد ، ابنُ عمِّ النَّبِيِّ ﷺ ، له صحبةٌ وروايةٌ ، روى عنه : ابنُه عبدُ الله ، ومحمَّد بنُ سيرين ، وسليمان بنُ يسار ، وعطاء بنُ أبي رباح ، وأردفه النَّبِيُّ ﷺ خلفه » (١) .

* ذكره محمَّد بنُ سعد في الطَّبَقَةِ الخامسة من الصَّحابة فقال : « كان أصغر من عبد الله بسنة واحدة ؛ ثمَّ قال : سمع من النَّبِيِّ ﷺ ، وكان رجلاً تاجراً ، مات بالمدينة » (٢) .

* وقال ابنُ حجر رحمته الله : « رأى النَّبِيُّ ﷺ ، وروى عنه حديث العُسَيْلَةَ » (٣) .

* وقال ابن حبان ، وابن عبد البر : « له صحبةٌ » (٤) .

* أخرج حديثَ عُبيد الله بن عباس عن النَّبِيِّ ﷺ الإمامُ أحمد في « مسنده » ، والنَّسَائِيُّ في « سُنَنِهِ » فقد أخرج الإمامُ أحمد بسنده عن سليمان بن يسار عن عُبيد الله بن العباس - رضي الله عنه - قال : « جاءت الغُميصاء ، أو الرُّميصاء ، إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها ، وتزعمُ أنَّه لا يَصِلُ إليها ، فما كان إلا يسيراً حتَّى جاء زوجها ، فزعم أنَّها كاذبةٌ ، ولكنَّها

= يكنى أبا محمَّد . (معرفة الصَّحابة ٣ / ٣٠٥) .

(١) « تاريخ الإسلام » (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٢٦٧ - ٢٦٨) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٣) .

(٣) « تهذيب التهذيب » (٧ / ٢٠) .

(٤) « تهذيب التهذيب » (٧ / ٢٠) ، و « الإصابة » (٢ / ٤٢٠) . وقال

ابن عبد البر رحمته الله : « رأى النَّبِيُّ ﷺ ، وسمع منه ، وحفظ عنه » . « الاستيعاب »

(٢ / ٤٢١) . وقال ابن عساكر رحمته الله : « أدرك النَّبِيُّ ﷺ ، وحدث عنه ، وقدم

دمشق وافداً على معاوية . « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٢) .

تريدُ أن ترجعَ إلى زوجها الأول ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس لك ذلك حتى يذوقَ عُسيلتك رجلٌ غيره »^(١) . وفي رواية أنَّ رسول الله ﷺ قال : « ليس ذلك حتى تذوقي عُسيلته » .

* وأورد ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ حديثاً في الحجِّ عن سيِّدنا عُبيدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال : « كنتُ رديفَ النَّبِيِّ ﷺ ، وأتاه رجلٌ فقال : يا نبيَّ الله ، إنَّ أمُّهُ عَجُوزٌ كبيرةٌ ، إنَّ حَزَمَهَا خَشِيَ أَنْ يَقْتُلَهَا ، وإنَّ حَمَلَهَا لَمْ تَسْتَمْسِكْ ، فأمره النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَحِجَّ عَنْهَا »^(٢) .

* وكان عُبيدُ اللهِ وإخوته ممَّن ينزلون منزلاً رحباً في قلب الحبيب المصطفى ﷺ ، فكان يداعِبُهُمْ ويقبَلُهُمْ ، وفي بعض الأحيان يلاعِبُهُمْ ويشجِعُهُمْ على السِّبَاق ، وهذا ما أخرجهُ الإمام أحمد وغيره بسندٍ عن عبدِ اللهِ بنِ الحارث قال : « كان رسولُ الله ﷺ يصفُ عبدَ اللهِ ، وعُبيدَ اللهِ ، وكثيراً بني العبَّاس ، ثمَّ يقول : « مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فَهُوَ كَذَا وكَذَا » ؛ فيستبقون إليه ، فيقعون على ظهره ، وصدرة ، فيقبَلُهُمْ ، ويلزمُهُمْ »^(٣) .

* وقال عبدُ اللهِ بنُ جعفر : « مرَّ بنا رسولُ الله ﷺ : أنا ، وقثم ، وعبيدُ اللهِ ، فقال : « ارفعوا » فجعلني أمامه ، ثمَّ قال : « ارفعوا هذا » - يعني قثماً - فجعله وراءه ، ثمَّ استحيا رسولُ الله ﷺ من عمِّه العبَّاس

(١) أخرجهُ الإمامُ أحمدُ (١ / ٤٥٩) ، برقم : (١٨٣٧) ، والنَّسَائِيُّ في الطَّلَاق (٦ / ١٤٨) ، و« الغُمِيصَاء » ، أو « الرُّمِيصَاء » : هي امرأةٌ أنصاريَّةٌ غير أمِّ سليم بنت الحارث بنت ملحان ؛ لأنَّ أمَّ سليم كانت زوجةً لأبي طلحة الأنصاري . وانظر : معرفة الصَّحابة (٣ / ٣٠٥ و ٣٠٦) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٢) .

(٣) « المسند » (١ / ٤٥٩) ، حديث رقم : (١٨٣٦) ، وانظر : « أسد الغابة » (٣ / ٤٢٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٤) .

أَنْ حَمَلَ قَتْمًا ، وَتَرَكَ عَبِيدَ اللَّهِ ، وَكَانَ عَبِيدُ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ قَتْمٍ « (١) .

نزهة مع سخائه :

* أجمعَ كاتبو التَّراجم والسَّير ، وكلُّ مَنْ ترجمَ لسَيِّدنا عُبَيْدُ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ - رضيَ اللَّهُ عنهما - أنَّه كانَ أَمِيرًا ، شَرِيفًا ، جَوَادًا ، وَسِيمًا ، نَبِيلًا ، جَمِيلًا ؛ مِنْ مشاهير أبناء الصَّحابة .

* قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « كانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ كَرِيمًا ، جَمِيلًا ، وَسِيمًا ، يشبهُ أَباهُ فِي الجَمال » (٢) .

* وقال ابن عساكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي « تاريخه » : « كانَ عُبَيْدُ اللَّهِ مِنْ كُرَماء قَرِيشٍ وَجُودائِهِمْ » (٣) .

* وقال الإمامُ النَّوويُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي « تهذيبه » : « وَكانَ أَحَدُ الأَجوادِ المشهورين » (٤) .

* وقال ابن الأثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَكانَ عَظِيمَ الكَرَمِ والجودِ ، يُضَرَّبُ بِهِ المِثْلُ فِي السَّخاءِ وَكانَ يَنحَرُ كُلَّ يَوْمٍ جُزُورًا ، فَنهَاهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ ، فَلَمْ يَنْتَهِ ، وَنَحَرَ كُلَّ يَوْمٍ جُزُورَيْنِ ، وَكانَ هُوَ وَأَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ - رضيَ اللَّهُ عنهما - ، إِذا قَدِمَا المَدِينَةَ أَوْسَعَهُمُ عَبْدُ اللَّهِ عِلْمًا ، وَأَوْسَعَهُمُ عُبَيْدُ اللَّهِ طَعَامًا » (٥) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٤) .

(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ٩٠) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٢) .

(٤) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٣١٢) .

(٥) « أسد الغابة » (٣ / ٤٢٠ - ٤٢١) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق »

(١٥ / ٣٢٣) ، و« نسب قريش » (ص : ٢٧) .

* وفي تحقيق مزية الجود الذي تسيلُ منه أناملُ سيّدنا عبّيد الله بن عبّاس - رضي الله عنه - ، نقرأُ حبّه الشّدِيدَ للسّخاءِ فيما روي عنه من أنّه كان ينحرُ في كلّ يوم جملاً من أحسن الجِمالِ ويطعمه للنّاس ، ورأى هذه الفعّال سيّدنا عبد الله بن عبّاس ، فقال له متعجباً ومتسائلاً : « تنحرُ كلّ يوم جزوراً ؟ ! »

قال عبّيد الله مجيباً عن تعجّب أخيه : « وكثيرُ ذاك يا أخي ؟ و الله لأنحرنَّ كلّ يوم جزورين ! »

* استقى عبّيد الله سخاءه من أبيه سيّدنا العبّاس - رضي الله عنه - ، فقد ذكروا أنّ سيّدنا عبد الله بن عبّاس يسمّى : حكيمَ المعضلات ، بينما كان سيّدنا عبّيد الله بن عبّاس يسمّى : تيّارَ الفُرات ؛ وكان يطعمُ كلّ يوم ، فقال له أبوه سيّدنا العبّاس : « يا بنيّ ، ما لك تغدّي ولا تعشي إذا غدّيت ، فعشّ » . فقال عبّيد الله لغلام له : « يا بنيّ ، انحروا غدوةً ، وانحروا عشيةً »^(١) .

* ترجم لهذا الابنِ السّخيّ الثّقّي « اليافعيّ » في « مرآته » ، وتعرّض لأقصوّة طريفة عن جوده وسخائه النّادر ، واهتمامه بإطعام النّاس ، فقال : « ومن جوده أنّه كاده بعض النّاس ، وأشاع عنه أنّه يدعو النّاس إلى وليمة ، فحضر النّاس ، وامتلأت داره ، فقال : ما الخبرُ ؟ ! فأخبر أنّه قيل : إنك دعوتهم ؛ فأمر غلمانه أن يصنعوا طعاماً ، ويحضروه ، فما كان إلا وقت يسير حتى أحضروا الطّعام ، وتغدّى جميع من حضر في الدّار . هنالك سرت الفرحة إلى قلبه ، وامتلأت نفسه سروراً ، والتفت إلى غلمانه وقال لهم : أيمن أن تصنعوا لنا كلّ يوم مثل هذا الطّعام ؟ »

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٦) بتصرّف . وحقاً إنّ هذا السّبل من ذاك الأسد بل إنّ هذا الأسد من ذاك الأسد ؛ وهذا البحر من ذاك المحيط ، وهذا الجواد من مُعلم الجود .

فقالوا : نعم يا مولانا . .

فأمر عبيدُ الله أن يُنادى في النَّاس أن يحضروا عنده كلَّ يوم للغداء ، ورجع الذي كادَه وحَسَدَه خاسراً حسيراً^(١) .

* وجاءت هذه القِصَّة الجميلة منسقة عند ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ ، التي تروي قصص الضيفان الذين جاؤوا لمنزل عُبيد الله بن عَبَّاس دون موعد ، أو دعوة منه ، فقال : « أراد رجلٌ بالمدينة أن يسوء عُبيد الله بن عَبَّاس بن عبد المطلب ، ويضارَّ به ، فجعل يأتي وجوه أهل المدينة ، فيقول : قال لكم عبيدُ الله بنُ العَبَّاس : تغدوا عندي ، فجاء النَّاس حتَّى ملؤوا عليه الدَّار ، وعُبيدُ الله غافلٌ ، فقال : ما شأنُ النَّاس ؟

قال : جاءهم رسولك أن يتغدوا عندك .

فعلم ما أريد به ، فأمرَ بالباب فأغلقَ ، وأرسلَ إلى السُّوق في أنواع الفاكهة ، وذكر الأترج ، والعسل والموز فشغلهم ، وأمرَ بالأطعمة ، فطَبِخَتْ وشويت ، فلم يفرغوا من الفاكهة حتَّى أتوا بالطَّعام ، حتَّى صدروا عنه .

فقال عبيدُ الله : أوجودُ هذا كلما شئتُ ؟

(١) « مرآة الجنان » (١ / ١٣٠ - ١٣١) بشيء من التصرّف . أقول : « إنَّ الحسدَ والكيدَ داءٌ من أعظم أمراض النفوس التي قلما يشفى منها مَنْ كانت فيه هذه الصِّفة الخبيثة ، وينبغي أن نتذكر دائماً أنَّ الحسدَ أوَّلُ ذنبٍ عُصي الله فيه في السَّماء ؛ إذ حسدَ إبليسُ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والحسد كذلك أول ذنبٍ عُصي الله - عزَّ وجلَّ - فيه في الأرض ؛ إذ حسد قابيل أخاه هابيل فقتله ، وكذلك حسد كبار الكفرة وأعيان قريش رسول الله ﷺ فخسروا الدَّارين ، وقد توسَّعتُ في هذا الموضوع بمؤلَّفٍ صخيمٍ عنوانه : « المبشرون بالنَّار » وهذا الكتابُ مطبوعٌ أكثر من مرَّة بدار ابن كثير العامة بدمشق الفيحاء . وأودُّ أن أختتم هذه الفقرة بقولٍ مَنْ أصابَ بقوله عن الحسد :

وداريتُ كلَّ النَّاس لكنَّ حاسدي مداريتُ عرَّثَ وعزَّ منالها
وكيف يُداري المرءُ حاسدَ نعمة إذا كان لا يُرضيه إلا زوالها

قالوا : نعم .

فقال : ما أبالي مَنْ أتاني » (١) .

* وعندما ساقَ ابنُ حبيب قصص أجواد قریش وأبنائهم ، زَيْن سيرتهم بقصة مائعة عن سخائه ، وروى عن جوده : « أَنْ صيرفياً أفلسَ بالمدينة ، فلزمه غرماءه ، فسألهم المَهْلَةَ والسَّعة ليحتالَ لهم ، وينظرَ في أمره ، لكنَّهم لم يدعوه يفعل ذلك وقالوا : لسنا ندعك أو يكفلك عبيدُ الله بن العباس .

فأتوا بابَه ، فاستأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فقال له الصَّيرفيُّ : يا أبا محمَّد إنَّ لهؤلاء القوم عليَّ تسعة آلاف دينار ، وقد سألتهم أَنْ يمهلوني حتَّى أضرَبَ لهم ، فسألوني كفيلاً ، فأعطيتهموه ، فأبوا أَنْ يرضوا إلا بك ، فأحبُّ أَنْ تضمني .

فقال لهم عبيدُ الله - رضي الله عنه - : هاتوا صكاكم ؛ فدفعوها إليه ، فخرقها ، وأمر بقضائهم مِنْ ماله » (٢) .

* بلغ عبيدُ الله شأواً بعيداً في الجود والسَّخاء ، وكان له عبيدٌ كثيرٌ ، وكان يقول لعبيده : « مَنْ أتاني منكم بضيف فهو حر » (٣) .

* وروي أنَّ أعرابياً دخل دار العباس - رضي الله عنه - ، وفي جانبها ابنةُ الحبرِ البحرُ عبدُ الله بنُ عباس لا يرجعُ في شيء يُسأل عنه ، وفي الآخر عبيدُ الله يطعمُ كلَّ مَنْ دخل ، فدهش الأعرابي ، وقال : « كلُّ مَنْ أراد الدنيا والآخرة ، فعليه بدارِ العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - » (٤) .

(١) « تاريخ دمشق » (٣٩ / ٣٥٧) .

(٢) « المنمق » (ص : ٣٧٤) بتصرف يسير .

(٣) « المعارف » (ص : ١٢١) .

(٤) « تهذيب التهذيب » (٧ / ٢٠) بتصرف يسير .

* وما دمنا في سيرة هَذَيْنِ الأخوين العَلَمَيْنِ البارزين عبد الله وعُبيد الله ، فلا بأس أن نسوق هذه التُّحفة اللطيفة عن جودِ عُبيد الله وسماحته المعروفة مع أخيه عبد الله ترجمان القرآن ، وحبرِ الأُمّةِ المحمّديّة ، فقد روى جُويريةُ بنُ أسماء قال : « اقتسم عبدُ الله ، وعُبيدُ الله ابنا العباس داراً ، فقال عبدُ الله - رضي الله عنه - : يا غلام ! أقم حبلَك .

فقال عُبيد الله - رضي الله عنه - : دع لأخي عبد الله ذراعاً .

فقال عبدُ الله : يا غلام ! إنّ أخي عبيد الله قد ترك لي من نصيبه ذراعاً ، فأقم حبلَك .

فقال عُبيد الله : يا غلام ! دَعْ لأخي ذراعين .

قال عبدُ الله : يا غلام ! إنّ أخي قد ترك لي ذراعين ، فأقم حبلَك .

فقال : يا أخي ! كأنك تحبُّ أن تكون الدّار كلّها لك ؟

قال : نعم .

قال عبيد الله : فهي لك « (١) .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٧) بشيء من التّصوّف ، ومن مستجاد فعلات الأجواد في هذا المقام ما وردَ عن هَذَيْنِ الأخوين الفاضلين : عبيد الله ، وعبد الله ، فقد كان عبيد الله يسمّي تيّار الفُرات لجوده ، وكان أيضاً من العابدين الزّاهدين الصّائمين ، فقد جاء عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - : « أنّه دعا أخاه عبيد الله يوم عرفة ، إلى طعام ، فقال : إنّني صائمٌ .

فقال : إنكم أئمةٌ يُقتدى بكم ، قد رأيْتُ رسولَ الله ﷺ دعا بحلابٍ في هذا اليوم ، فشرب » . « الإصابة » (٢ / ٤٣٠) وسنده صحيحٌ .

وكان عُبيد الله - رضي الله عنه - جميلاً جهوريّاً ، وكان يقول إذا لاموه في طلب العلم : « إن نشطتُ فهو لذتي ، وإن اغتممتُ فهو سلوتي » .

مُعَلِّمُ الْجُود :

* حَقًّا إِنَّ سَيِّدَنَا عبيدَ اللَّهِ بنَ عَبَّاسٍ مُعَلِّمُ الْجُود ، وَأُسْتَاذُ الْأَسْخِيَاء ، وَمَنَارُ الْكِرْمَاء ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَحَدُ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ الْفُضَّلَاء ، وَهُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنْ خِلَالِ قِصَّةٍ جَمِيلَةٍ نَوْرَدَهَا هُنَا لِتَزْدَانَ بِهَا الْقُلُوبُ وَتُسْتَرَوْحَ بِهَا النُّفُوسُ .

* تَقُولُ الْقِصَّةُ : « كَانَ سَيِّدُنَا عبيدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَفْدُ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي دِمَشْقِ الشَّامِ ، فَوَفَدَ عَلَيْهِ مَرَّةً ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ ، عَارِضَتْهُ سَحَابَةٌ ، فَنَزَلَ ، وَأَقَامَ خِيَمَةً ، فَإِذَا هُوَ بِأَعْرَابِيٍّ قَدْ قَامَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَعْرَابِيُّ هَيْئَتَهُ وَبَهَاءَهُ ، وَعَايَنَ حُسْنَ وَشَكْلَهُ أَعْظَمَهُ وَأَجَلَّهُ ، فَقَامَ إِلَى عُنِيزَةٍ لَهُ لِيَذْبَحَهَا ؛ فَجَاذَبَتْهُ امْرَأَتُهُ وَمَانَعَتْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَكُلِ الدَّهْرُ مَالَكَ ، فَلَمْ يُبْقِ لَكَ وَلِبَنَاتِكَ إِلَّا هَذِهِ الْعُنِيزَةُ تَتَمَتَّعُونَ مِنْهَا ، ثُمَّ تَرِيدُ أَنْ تَفْجَعَهُنَّ بِهَا !

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ لَامْرَأَتِهِ : وَاللَّهِ لَا ذَبْحَ لَهَا ، فَذَبَحُوهَا أَحْسَنُ مِنَ اللَّؤْمِ وَالْبُخْلِ .

قَالَتِ الْمَرْأَةُ : إِذَا وَاللَّهِ لَا تَبْقَى لِبَنَاتِكَ شَيْئًا .

فَأَخَذَ الْأَعْرَابِيُّ الْعُنِيزَةَ ، وَأَضْجَعَهَا ، وَقَالَ مَرْتَجِزًا :

قَرِيبَتِي لَا تُوقِظِي بُنَيَّه إِنْ تُوقِظِيهَا تَنْتَحِبَ عَلَيْهِ
وَتَنْزَعُ الشُّفْرَةَ مِنْ يَدَيْهِ أَبْغَضُ بِهِذَا وَبِذَا لَدَيْهِ

ثُمَّ ذَبَحَ الشَّاةَ ، وَأَضْرَمَ نَارًا ، وَجَعَلَ يَقْطَعُ مِنْ أَطْيَابِهَا وَيُلْقِيهِ عَلَى النَّارِ ، ثُمَّ يَنَاولُهُ عبيدُ اللَّهِ ، وَيَحْدُثُهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ بِمَا يُلْهِمُهُ وَيُضْحِكُهُ - وَكَانَ عبيدُ اللَّهِ قَدْ سَمِعَ مُحَاوَرَتَهُ لَامْرَأَتِهِ فِي الشَّاةِ - حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ عبيدُ اللَّهِ ، وَانْجَلَتِ السَّحَابَةُ ، وَهَمَّ بِالرَّحِيلِ ، قَالَ لِقِيَمِهِ : مَا مَعَكَ ؟

قَالَ : خَمْسُ مِائَةِ دِينَارٍ .

فقال : ألقها إلى الشيخ .

قال القيم : جعلتُ فداك ، إنَّ هذا يرضيه عُشر ما سميت ، وأنت تأتي معاوية ، ولا تدري علام توافقه ، على ظاهره أم على باطنه .

فقال عبيدُ الله - رضي الله عنه - : ويحك ! إنَّا نزلنا بهذا وما يملك من الدنيا إلا هذه الشاة ، فخرج إلينا من دنياه كلها ، وإنَّما جُذنا له ببعض دنيانا ، فهو والله أجودُ منَّا وأسخى ، فقد آثرنا على مهجة نفسه وولده .

ثمَّ إنَّ سيِّدنا عبيدُ الله ارتحلَ ، فأتى سيِّدنا معاوية ، فقضى حوائجه ، وأحسن وفادته ، وأكرم مثواه ، فشكر عبيدُ الله له ذلك ، ولمَّا انصرف عن دمشق راجعاً ، وقرب من خيمة الأعرابي ، قال لوكيله : انظر ما حال صاحبنا ؟

فعدل إليه ، فإذا إبِلٌ ، وحالٌ حسنةٌ ، وشاةٌ كثيرٌ ، فلمَّا بصر الأعرابيُّ بعبيدُ الله قام إليه ، فأكبَّ على أطرافه يقبلها ، ثمَّ قال : بأبي أنت وأمي ! قد مدحتك ، وما أدري من أي خلقِ الله أنت ، ثمَّ أنشده الشيخ أبياتاً منها :

توسَّمْته لمَّا رأيتُ مهابةً عليه وقلتُ المرءُ من آلِ هاشمٍ
وإلا فمَنْ آلِ المُرارِ فإنَّهم مُلوْكُ وأبناءُ الملوْكِ الأكارمِ

فبلغت الأبياتُ والقصة معاوية - رضي الله عنه - فقال : لله درَّ عبيدِ الله ، من أي بيضة خرج ، وفي أي عشٍ درج ؟ ! عبيدُ الله معلَّم الجود « (١) » .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٧ - ٣٢٩) ، و « البداية والنهاية » (٨ / ٩٠ - ٩١) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٤٢١) مع الجمع والتصرّف . وانظر كتاب : « لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار » لأبي القاسم التَّنُوخي (ص : ٢٤٣ - ٢٤٥) وفيه زيادةٌ في أبيات الشيخ إذ تصلُّ إلى ثمانية أبيات آخرها :

وَقَلْتُ لِعَرْسِي فِي الْخَلَاءِ وَصَبَّيْتِي أَحَقَّ أَرَى أَمْ ذَاكَ أَحْلَامُ نَائِمٍ
فَقَالُوا جَمِيعاً بَلْ هُوَ الْحَقُّ هَذِهِ يَخْبُ بِهَا الرِّكْبَانُ نَحْوَ الْمَوَاسِمِ =

* وفي رواية قال معاوية - رضي الله عنه - : « عُبِيدُ اللَّهِ معلَّمُ الجود ، وهو والله كما قال الحطيئة :

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنُوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا
وإن كانت التُّعمى عليهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدّوا »

* وكان سيّدنا معاوية بن أبي سفيان - عليهما من الله الرضوان - شديد الإعجاب ببني هاشم وأولادهم ، تجذبه أفعالهم وخصالهم الجميلة ، وأعمالهم النبيلة ، وسيرتهم الجليلة ، وكان يرى أنّ عبيد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أسخى القرشيين ، وكان يقول : « إنّ عبيد الله بن عباس علّم قريشاً الجود » ، والحقيقة كان عبيد الله - رضي الله عنه - أجود العرب ، وقد قال فيه شاعرٌ من شعراء قريش مثبّثاً جوده وشيمته السّمحة :

وعلمها عبيدُ الله ما لم تكن تأتيه من شيم الكرام
وورثها مكارم ثابتات نفى عنها بها لوم اللّثام
وصيّة هاشم وبني أبيه قصي والهمام بن الهمام

* إنّ السّخاء عند سيّدنا عبيد الله بن عباس - رضي الله عنهما - سجيّة ، وفطرة ، وقد لاحظنا كيف كان أبوه سيّدنا العباس يصفّل هذه المزيّة المباركة لما يعلم من أجرها وفضلها عند الله - عزّ وجلّ - ، ولذلك كان الإمام جعفر الصّادق يقول : « إنّ لله وجوهاً من خلقه ، خلقهم لقضاء حوائج عباده ، يروّن الجود مجداً ، والإفضال مغنماً ، والله يحبّ مكارم الأخلاق » ^(١) .

= بخمس مئين من دنائير عوّضت من العنز ما جالت بها كفّ آدم
(١) « ربيع الأبرار » (٤ / ٥٥٨) . وقال الإمام جعفر الصّادق أيضاً : « ما أنعم الله على عبد نعمة فلم يحتمل مؤونة النّاس ، إلا عرّض تلك النّعمة للزّوال » . « ربيع الأبرار » (٤ / ٥٥٨) .

معروفه إلى ذوات الحاجات :

* في صدورهما الرحبة الأنيقة ، احتفظت المصادرُ بكثير من الإشراقات الخلابة ، التي تشعُّ بنفائسِ الجودِ والكرم ، الذي سمحت به نفس سيّدنا عبيد الله بن عباس - رضي الله عنه - ، وجادت به كفاه ، حتّى كأنَّ أصابعه تكادُ تنطقُ : « تعالوا إلى ينبوع العطاء » :

وإذا الرّجالُ تصرّفَتْ أهواؤُها فَهَواهُ لحظَةٌ سائلٍ أو أملٍ
ويكادُ من فرطِ السّخاءِ بنائُهُ حُبَّ العطاء يقولُ هل مِنْ سائلٍ

* لقد كانت الأموالُ تهربُ من كفِّ عبيد الله ، كما يهربُ الشّيطانُ من ليلة القدر ، وهذه الأموالُ التي كان سيّدنا عبيد الله ينفقُها تكسبهُ حمداً ومجداً ؛ لأنَّ اجتماع المال عند الأسخياء أحدُ الخصبتين ، ولو وقع إنسان في ضَحْضَاح^(١) معروفٍ عبيد الله لَغَرِقَ أو يكادُ يَغْرُق .

* ولا ريب في أنَّ المكارمَ كلّها حسنةٌ وجميلةٌ ، بيد أنَّ الجودَ أحسنُ ذلك الحسن وأجمله ، وخاصّةً إذا مزج بجبرِ الخواطر ، وقد كان سيّدنا عبيد الله يجبرُ خواطر ذوات الخدور ، وذوات الحاجات ، في جميع الحالات .

* وها نحنُ أولاء نسوقُ بعضَ صور إحسان هذا الجواد السّخيّ ، ونستشفُّ من خلال ذلك أنّه قد تربّى في مدرسة الثّبوة ، ومدرسة أهل البيت التي يتخرّجُ فيها الثّبلاء والكرماء ، والعلماء والأتقياء .

* قال عبيدُ الله بنُ محمّد العائشيّ : « قدمت امرأةً إلى البصرة في سنةٍ شهباء ، ومعها ابنان لها ، فلم يأتِ عليها الحول حتّى دفنتهما ، فقعدت بين قبريهما ، فقالت :

(١) « ضَحْضَاح » : الضّحضاح والضّحضح : الماء القليل يكونُ في الغدير وغيره .

فَلَلَّهِ عَيْنَايَ اللَّذَانِ تَرَاهُمَا قَرِيبَيْنِ مَنِّي وَالْمَزَارُ بَعِيدُ
هُمَا تَرَكَا عَيْنِي لَا مَاءَ فِيهِمَا وَشَكَا سَوَادَ الْقَلْبِ فَهُوَ عَمِيدُ
مُقِيمَانِ بِالْبِيدَاءِ لَا يِرْحَانَهَا وَلَا يَسْأَلَانِ الرِّكْبَ أَيْنَ تُرِيدُ

فَقِيلَ لَهَا : لَوْ أَتَيْتِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، فَقَصَصْتِ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَأَتَتْهُ ،
فَقَالَتْ لَهُ : يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِنِّي أَصْبَحْتُ لَا عِنْدَ قَرِيبٍ يَحْمِينِي ،
وَلَا عِنْدَ عَشِيرَةٍ تُؤْوِينِي ، وَإِنِّي سَأَلْتُ عَنِ الْمَرْجِيِّ سَيِّئِهِ ، وَالْمَأْمُولِ نَائِلِهِ ،
الْمُعْطَى سَائِلِهِ ، فَأَرَشَدْتُ إِلَيْكَ ، فَاعْمَلْ بِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ تَقِيمَ
أَوْدِي ، أَوْ تَحْسِنَ صَلَاتِي ، أَوْ تَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِي .

فَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ : كُلُّ يَفْعَلُ بِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « (١) » .

* وَنَقَفُ عَلَى صُورَةٍ أُنِيقَةٍ أُخْرَى مِنْ صُورِ إِحْسَانِ هَذَا الْابْنِ الْبَارِّ
عُبَيْدِ اللَّهِ إِلَى عَجُوزٍ ، وَبَيْنَهَا الثَّلَاثَةُ ، وَنَسْتَجْلِي جَمَالِيَّةَ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُتَأَلِّقَةِ
الْعَالِيَةِ فِي سَمَاءِ الْمَكَارِمِ .

* رَوَتْ الْمَصَادِرُ بِأَنَّ سَيِّدَنَا عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ الْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَدْ
مَرَّ بِقَرَبِ عَجُوزٍ لَهَا أَوْلَادٌ ، فَأَكْرَمَتْهُ الْعَجُوزُ وَمَنْ مَعَهُ ، وَأَحْسَنْتْ وَفَادَتْهُمْ
وَضَيَافَتْهُمْ ، فَأَحَبَّ سَيِّدَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ أَنْ يَصْلَحَ مِنْ شَأْنِ الْعَجُوزِ وَأَوْلَادِهَا ، وَأَنْ
يَحْسِنَ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا عِنْدَ سَيِّدِنَا عُبَيْدِ اللَّهِ ، قَرَّبَهُمْ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَأَدْنَاهُمْ
مِنْهُ وَقَالَ لَهُمْ : « إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكُمْ وَلَا إِلَى أُمَّكُمْ لِمَا تَكْرَهُونَ » .

قَالُوا : « فَمَا بَعْدَ هَذَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الْوَسِيمُ ؟ » .

قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « أَحَبُّ أَنْ أَصْلَحَ مِنْ أَمْرِكُمْ ، وَأَلَمَّ مِنْ
شَعَثِكُمْ » .

قَالُوا : « إِنَّ هَذَا قَلَّ مَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ سُؤَالٍ أَوْ مَكَافَأَةٍ لِفِعْلٍ قَدِيمٍ » .

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٥ / ٣٢٦ - ٣٢٧) .

قال عُبيدُ الله - رضي الله عنه - : « ما هو لشيء من ذلك ، ولكن جاورتكم في هذه الليلة اللطيفة ، وقد خطرَ في بالي أن أضع بعض مالي فيما يحبُّ الله - عزَّ وجلَّ - » .

قالوا : « يا هذا المحسنُ النَّبيُّ ! إنَّ الذي يحبُّ الله - عزَّ وجلَّ - لا يحبُّ لنا إن كُنَّا في خفض من العيش ، وكفاف من الرِّزق ، فإن كنتَ هذا أردت ، فوجَّههُ نحو من يستحقُّه ، وإن كنتَ أردت التَّوال مبتدئاً لم يتقدمهُ سؤالٌ فمعروفُكَ مشكورٌ وبرُّكَ مقبولٌ » .

فأمرَ لهم عُبيدُ الله - رضي الله عنه - بعشرة آلاف درهم ، وعشرين ناقة ، وحوَّل أثقاله إلى البغال والدَّواب ، وقال : « ما ظننْتُ أنَّ في العرب والعجم من يشبه هذه العجوز وهؤلاء الفتيان » .

فقالَت العجوزُ لفتيانها - وقد هزَّتْها كلمة عُبيد الله وأطربتها - : « يا بني ! ليقُل كلِّ واحدٍ منكم شيئاً من الشَّعر في هذا الرجل الشَّريف الحصيف ، السَّخي اللبيب ، ولعلي أستطيعُ أن أعينكم في ذلك » .

فقال كبيرُهُم :

شهدتُ عليك بطيبِ الكلام وطيبِ الفعال وطيبِ الخبر
وقال أوسطُهُم :

تبرَّعت بالجود قبل السَّؤال فمال الكريم عظيم الخطر
وقال صغيرُهُم :

وحقَّ لمن كان ذا فعلُهُ بأنَّ يسترقَّ رقابَ البشر
وختمتُ أمُّهم قولَهُم ، فأنشدت وأبدعت :

فعمَّرك الله من ماجدٍ ووقَّيت سوءَ الرَّدَى والحذر^(١)

(١) « تاريخ دمشق » (٣٩ / ٣٦٤) بشيء من التصرُّف .

* لم يتوقف إحسانُ سيّدنا عُبَيْدِ اللَّهِ إلى ذواتِ الخدور من الأحياء ،
وإنّما امتدّت يدُ الإحسانِ الهاشميّة لتجبرَ خواطرَ مَنْ بقيَ لهنَّ مِنَ الأحياء ؛
وكان إحسانه هذه المرّة مع ذواتِ الخدور من نساءِ الأنصار في مدينة
رسولِ اللَّهِ ﷺ .

* وافتنا المصادِرُ بهذه الفريدة العظيمة فقالت : « جاء رجلٌ من
الأنصار إلى عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - ، فقال له : يا بن عمّ
محمّد ﷺ ، إنّه وُلِدَ لي في هذه الليلة مولود ، وإنّي سمّيته باسمك تبركاً مني
به ، وإنّ أمّه ماتت .

فقال عُبَيْدُ اللَّهِ - رضي الله عنه - باسماً مستبشراً : بارك الله لك في الهبة ،
وأجزَلَ اللهُ لك الأجرَ علىِ المصيبةِ وأجرِكَ .

ثمّ دعا سيّدنا عبيد الله بوكيله ، وقال له : يا هذا ! انطلق السّاعة فاشترِ
للمولود جاريةً تحضنهُ ، وادفعْ لأبيه مئتي دينار لينفقها على تربيته ؛ ثمّ قال
للأنصاريّ : عُدْ إلينا بعدَ أيّامٍ ، فإنّك جئتنا وفي العيش يَبَسُّ ، وفي المال
قَلَّةٌ .

فقال الأنصاريّ - وقد اعتراه الدّهش من سخاء عُبَيْدِ اللَّهِ - : جُعِلْتُ فداك
يا بن عمّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، والله لو سبقتُ حاتماً الطّائي بيوم ، ما ذكرتهُ العربُ
أبداً ، ولكنّه سبقك ، فصرت له تالياً ، وأنا أشهد أنّ عَفْوَ جودك أكثر من
مجهوده ، وطلّ صوبك أكثر من وابله « (١) .

* إذاً لا عجب إذا علمنا - بعد هذا كلّه - أنّ سيّدنا عُبَيْدَ اللَّهِ بنَ عَبَّاسٍ
هو أوّلُ مَنْ أَطَرَ جيرانه على طعامه في الإسلام ؛ وهو كذلك أوّلُ مَنْ وَضَعَ

(١) « المستجاد من فعلات الأجواد » (ص : ١٨٧) ، و « التّذكرة الحمدونيّة »

(٢ / ٢٨٨) ، و « المستطرف » (١ / ٤٩١) مع الجمع بينها .

موائده على الطريق ، وكان إذا خرج من بيته طعاماً لا يعود منه شيء ، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق ^(١) .

قطوف دانية من سخائه :

* لهذا الصحابي النبيل أيادٍ بيضٌ في قلوب كثير من العباد ؛ إذ إن ندى كَفِّهِ طال القريبَ والبعيدَ ، وكان - رضي الله عنه - مسروراً بما يبذل ، مُسرِعاً بما يعطي ، لا يَلْتَمِسُ عرضَ دنيا ، ولا طلبَ مكافأة ، بل ابتغى بذلك وجهَ العزيز الغفار ، لذلك كان يسخو بالليل والنَّهار ، وبالإعلان والإسرار ، تمطرُ يداه بالدرهم والدِّينار .

* ومن أخبار جُوده على رجالِ أهل البيت ^(٢) الأظهر ، ما روته كتبُ الأدب والأسمار ، حين شاطرَ ماله سيِّدنا الحُسين سيِّد شباب أهل الجَنَّة الأبرار ، قالت هذه الكتب : « حبسَ معاويةٌ - رضي الله عنه - عن الحسين بن عليٍّ - رضي الله عنهما - صلاته ، ف قيل له : يا أبا عبد الله ! لو وجَّهْتَ إلى ابنِ عمِّك عبيد الله بن عباس ، فإنه قدم بنحو ألف ألف درهم - مليون - .

فقال سيِّدنا الحسين - رضي الله عنه - : وأين تقبُّ ألف ألفٍ من عُبيد الله ؟ ! فوالله لهو أجودُ من الرِّيح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زخر ؛ ثم إنَّ سيِّدنا الحسينَ وجَّهَ إلى عُبيدِ الله مع رسوله بكتابٍ ذكَّر فيه حَبْسَ معاويةَ - رضي الله عنه - صلاته عنه ، وضيق حاله ، وأنه يحتاجُ إلى مئة ألف درهم ، فلمَّا وصل الكتابُ الحُسَيْنِي إلى عُبيدِ الله ، قرأه ، فانهملت عيناهُ بدمعٍ سخِيٍّ - وكان أرقَّ النَّاس قلباً ، وألينهم عطفاً - ثمَّ قال : ويلك يا مُعاويةُ ممَّا اجتَرَحْتَ يَدَاكَ من الإثم ، حين أصبحتَ لَيِّنَ المِهاد ، رفيعَ العِماد ، والحُسين

(١) انظر : « المستطرف » (١ / ٥٥٤) بتصرف يسير .

(٢) اقرأ كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » طبعة دار اليمامة ، ففيه ما يسرُّ الخواطر .

يشكو ضيقَ الحال وكثرةَ العيال ^(١) ؟ ؟ ؟ ! ! ! ثمَّ قالَ لقهرمانه : احملْ إلى الحسين نصفَ ما نملكه من فضّةٍ وذهبٍ ودابّةٍ ، وأخبره أنّي شاطرتهُ مالي ، فإنَّ أقنعه ذلك ، وإلا فارجع واحملْ إليه الشّطرَ الآخر ؛ فقال له القهرمان : سمعاً وطاعةً .

فلَمَّا أُتِيَ الأموالُ الحسينَ - رضي الله عنه - قال : إنّ اللهَ وإنّا إليه راجعون ، ثَقُلْتُ واللهِ على ابنِ عمّي ، وما حسبتُ أنّه يتّسعُ لنا هذا كلّهُ ، وأخذ الشّطرَ من مالِ عُبيدِ الله - رضي الله عنهم أجمعين - ، وألهمنا أنْ نعملَ مثلهم « ^(٢) !!! .

* ومن محاسنِ صِلاتِ سيّدنا عُبيدِ الله هذه الصّلةُ النّادرةُ الغريبةُ ، التي تنمُّ عن طيبِ عنصره ، فقد روتُ عدداً من المصادر الأدبيّة خبرَ هذه الصّلة ذات الظّلِّ الخفيف ، فقالت : « كان عبيدُ الله بنُ العبّاس - رضي الله عنهما - من الأجواد ، أتاه رجلٌ وهو بفناء داره ، فقام بين يديه ، وقال : يا بنِ عبّاس ! إنّ لي عندك يداً ؛ وقد احتجّتُ إليها ؛ فصعدَ إليه بصره وصوبته فلم يعرفه ، ثمَّ قال : ما يدُك عندنا ؟

فقال : رأيْتُك واقفاً بزمزم ، وغلّامك يمتحُ لك من مائها ، والسُّنْسُ قد صهرتكَ ، فظللْتُكَ بفضلِ كسائي حتّى شربت .
فقال عبيدُ الله : أجلُ إنّني لأذكرُ ذلك ، وإنّك لتردّدُ بين خاطري وفكري ؛ ثمَّ قال لغلّامه : ما عندك ؟

(١) « ويلك يا معاوية . . . وكثرة العيال » : هذه عبارةٌ مقحمةٌ ، أو مفتعلةٌ ، وخرطُ القتاد أهون منها ، ومن المستحيل أن يصفَ سيّدنا عُبيدُ الله بنُ عبّاس - رضي الله عنهما - سيّدنا معاويةَ بهذا الوصف الذي يخجلُ أدنى النّاس من أن يصفَ به أحدُ الرُّعاع ، فكلا الرّجلين عبيدُ الله ، ومعاوية من الأخيار ، ومن الصّحابة الأعلام ، رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) « المستطرف » (١ / ٤٩٠ - ٤٩١) ، و « العقد الفريد » (٢ / ٢٩٥) ، و « التذكرة الحمدونيّة » (٢ / ٢٨٧) مع الجمع والتصرّف .

قال الغلام : مئتا دينار ، وعشرة آلاف درهم .

فقال عبيد الله : ادفعتها إليه ، وما أراها تفي بحقه عندنا .

فقال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيل ولدٌ غيرك ؛ لكان فيك كفاية ، فكيف وقد ولدَ سيّد الأولين والآخرين محمّداً ﷺ ، ثمّ شفع بك وبأبيك » (١) .

* وذكر الإمام الذهبي رحمه الله بأنّ سيّدنا عبيد الله - رضي الله عنه - قد وصّل مرة رجلاً بمئة ألف .

* وأخبارُ عبيد الله - رضي الله عنه - تملأُ الدُّنيا ، وتشغلُ النَّاسَ ، وقد أتينا على شذراتٍ منها تبلُّ الصّدَى ، وتسرُّ الأفتدة ، بقي أن نعلم أنّ سيّدنا عبيد الله قد عاشَ إلى نهايةِ خلافة سيّدنا معاوية ، وقال معظمُ الذين ترجموا له بأنّه قد توفي سنة : (٥٨ هـ) (٢) ، ودُفِنَ بالمدينة المنورة .

* كان لعبيد الله عددٌ من الأولاد منهم : عبد المطلب ، محمّد ، العباس ، عبد الله ، عبد الرَّحْمَنِ ، وجعفر ، وله عددٌ من البنات منهنّ : ميمونة ، العالِيَةُ ، عمرة ، أمّ العباس ، لبابة ، وأمّ محمّد (٣) .

* رضي الله عن عبيد الله بن العباس ، الصّحابيّ السّخيّ ، وحشرنا في معيته ، ومعية أهل البيتِ الأخيار ، إنّه سميعٌ مجيبٌ رحيمٌ غفّار .
﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيِّئًا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]



(١) « التَّذْكَرة الحمدونيّة » (٢ / ٢٨٦ - ٢٨٧) ، و « العقد الفريد » (١ / ٢٩٤) ، و « المستطرف » (١ / ٤٨٩ - ٤٩٠) مع الجمع والتّصريف اليسير .

(٢) « البداية والنهاية » (٨ / ٩١) ، و « أسد الغابة » (٣ / ٤٢٢) ، و « سير أعلام النبلاء » (٣ / ٥١٤) وغيرها كثير .

(٣) « نسب قريش » (ص : ٣١) بتصرف .

الخاتمة وخلاصة البحث

* الحمد لله ربّ الكائنات ، الذي تتمُّ بنعمته الصّالحات ، والصّلاة والسّلام على إمام الدّعاة ، معلّم النّاس الخيرات ، وعلى آله وأصحابه وأبنائهم ذوي الفضائل البيّات .

* أشكرُ الله - عزَّ وجلَّ - وأحمدهُ أنْ هداني إلى الكتابِ عن أبناء الصّحابة ، وشرفني بالحديث عنهم في هذا المقام ، حيث أوردتُ شيئاً من فضائلهم ، فهؤلاء هم الذين اختارهم الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمّدٍ ﷺ ، فجعلهم وزراءً وأصهاره وأنصاره والخلفاء من بعده في أمته ، وهم المهاجرون والأنصار ، الذين وصفهم الله عزَّ وجلَّ في كتابه أنّه وضعهم في التّوراة والإنجيل بأحسن التّعت وأفضله ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فأمّا المهاجرون وأبناؤهم : فإنّهم آمنوا بالله وبرسوله ، وصدّقوا الإيمان بالعمل ، صبروا مع النّبيِّ ﷺ في شدّة ، آثروا الدّلَّ في الله عزَّ وجلَّ على العزِّ في غير الله وآثروا الجوعَ في الله عزَّ وجلَّ على الشّبع في غير الله ؛ عادوا في الله عزَّ وجلَّ القريبَ والبعيدَ ، وهاجروا مع الصّادق المصدوق ﷺ ، وفارقوا الأهل والعشائر ، وتركوا الأموال والديار وخرجوا فقراء ؛ كلّ ذلك محبةً منهم لله عزَّ وجلَّ ، ولرسوله ﷺ .

وأما الأنصار وأبناؤهم : فهم قومٌ اختارهم الله عزَّ وجلَّ لنصرة دينه ، واتباع نبيّه ، فآمنوا به بمكّة ، وبايعوه ، وصدّقوا في بيعتهم إياه فأحبّوه ، ونصروه ، واتبَعوا الثّور الذي أنزلَ معه ، وأرادوا أن يُخرجوه معهم إلى المدينة

محبةً منهم له ، فسألهم النَّبِيُّ ﷺ أن يتركوه إلى وقت ، ثم خرجوا إلى المدينة فأخبروا إخوانهم بإيمانهم ، فأمنوا وصدقوا ، فلما هاجر إليهم النَّبِيُّ ﷺ استبشروا بذلك ، وسُرُّوا بقدومه عليهم ، فأكرموا ، وعظَّموا ، وعلموا أنَّها نعمةٌ من الله عزَّ وجلَّ عليهم ، ثمَّ قدَّم المهاجرون بعديهِ ، وفرحوا بقدمهم ، وأكرمواهم بأحسن الكرامة ، ووسَّعوا لهم الديار ، وآثروهم على الأهل والأولاد ، وأحبَّوهم حبًّا شديدًا ، وصاروا أخوةً في الله عزَّ وجلَّ ، وتألَّفت القلوب بتوفيق من المحبوب بعد أن كانوا أعداء ؛ وها نحن أولاء نرطب الأفواه بسير المهاجرين والأنصار في هذا الكتاب ، وأرجو الله أن ينفع به النَّاس في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن يكون هؤلاء الصَّحابة قدوةً لنا في أعمالنا ، نستلهم منهم ما نقلوه لنا عن الصَّادق المصدوق ﷺ ، وأن يجمعنا بهم تحت ظلِّ عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله :

هُمُ الْقَوْمُ أَمَا فِي التَّديِّ فَإِنَّهُمْ هَضَابٌ وَأَمَا فِي التَّديِّ فَسُيُولُ
حَوَا أَشْرَفَ الْعِلْيَاءِ إِرثًا وَمَكْسِبًا وَطَابَتْ فِرْعُومُ مِنْهُمْ وَأَصُولُ
وبعدُ : قَضَيْنَا وَقْتًا مفيدًا مع سير أبناء الصَّحابة - رضي الله عنهم - ،
ورأينا صوراً متألِّقةً عن حياتهم التي قَضَوْهَا ﴿رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ
وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح : ٢٩] . فالكلامُ عنهم همسٌ منديّ بالحبِّ يداعبُ
الوجدان ، والقلب ، بل [إنَّ الحديثَ عن الأحبابِ أسماؤُ] :

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّتْنِي جُنُونًا فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

* وأخلصُ من هذا إلى بعض التَّائِجِ والتَّوَصِيَّاتِ ، ومنها :

١ - الصَّحَابِيُّ : مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ وآمن به ، ومات على الإيمان ، وتأكَّد لدينا أنَّ تراجم أبناء الصَّحابة التي قرأناها في هذا الكتاب ينطبق عليها هذا الأمر .

٢ - رأينا أنَّ القرآن الكريم ، والسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ ، وشطرًا من السَّيْرِ العطرةِ مصادرٌ أساسيةٌ ، وفيها مساحاتٌ واسعةٌ من أنباء أبناء الصَّحابة ، فهي

تركز على مكانتهم ، وتشير إلى ما أعدّ لهم الله - عزّ وجلّ - من أجرٍ ومثوبة .

٣ - الصّحابة وأبناؤهم من الصّحابة كلّهم عدولٌ ، ثبتت عدالتهم في القرآن العظيم ، والسّنة المطهّرة ، وإجماع الأمة من أهل العقد والحلّ ، وهم أجمعون من أهل الجنّة بإذن الله تعالى ؛ ومن قال فيهم الحسنی فقد برىء من التّفاق .

٤ - عرفنا أنّ هؤلاء الأبناء جمعوا من كلّ فضيلةٍ بطرف ، فكان منهم : العلماء ، والفقهاء ، والأسخياء ، والقادة ، والفاتحون ، والمصلحون ، والأدباء ، والدّعاة وبالجملّة كانوا قدوة الأسیاد ؛ تخرّجوا في مدرسة خير العباد ، فلا يجوزُ سُبّهم ، أو انتقاص أحدٍ منهم ، فهم حسناتُ الدّهر ، ورعايتهم فرضٌ على كلّ مسلم ، وحُبّهم قد أوجبه الله ورسوله . قال الأجرى في كتاب « الشريعة » (ص : ٧١٢) : « فَمَنْ لم يكرمهم فقد أهانهم ، وَمَنْ سبّهم فقد سبّ رسول الله ﷺ ، وَمَنْ سبّ رسول الله ﷺ استحقّ اللعنة من الله عزّ وجلّ ، ومن الملائكة ، ومن النّاس أجمعين » . وقال أيضاً : « فقد ظهر في مواضع كثيرة من بلدان الدّنيا يلعنون أصحاب رسول الله ﷺ ، ولن يضرّ ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنّما يضرّون أنفسهم » . ويمكننا أن نقول الآن : « إنّ نعل أيّ صحابيٍّ تاجٌ يشرف رأس مَنْ يغضّ من شأن هؤلاء الذين أثنى عليهم الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم ، وأثنى عليهم رسوله ﷺ ، والله يهدي إلى الصّواب ، ونسأله الأدب مع خير أمة أخرجت للنّاس » .

٥ - كثر المدّعون والخرّاصون ، وكثر معهم التّجريح والتّقبیح لأكابر الصّحابة وأبنائهم ، وعلمائهم ، وابتلي النّاس بجهالةٍ سفهاء تنقصوا السّلف الصّالح ، ودعوا إلى إساءة الظّنّ بهم ، وعمدوا إلى

سَبَّهِمْ^(١) ، وتعمّدوا إلصاق المساوىء بهم ، فكانوا :

كناطحٍ صخرةً يوماً لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

٦ - تعرّفنا أنّ أبناء الصّحابة ذوّوا آداب عالية منيفة ، وأخلاقٍ ومبادئ

لطيفة ، وأمانة لم يعرف لها الزّمان من مثيل ، كانوا ينقلون العلم ، ويتدارسونه ، ويتوارثون العمل ، وكان أمرهم شورى بينهم ، فصاروا أوعية مملوءة علماً وحكمة :

تَسَاقَوْا كَوْوَسَ الْعِلْمِ فِي رَوْضَةِ الثَّقَى فكلُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ الرَّيِّ لَا يَظْمَأْ
أُولَئِكَ مِثْلُ الطَّيِّبِ كُلِّ لَه شَذَى ومجموعه أذكى أريجاً إذا شُمّا

٧ - ينبغي أن نتذكّر أنّ كثيراً من البلاد التي نعيش فوق أرضها قد فتحها أبناء

الصّحابة ، وإليهم - بعد الله عزّ وجلّ - يعود الفضل بذلك ، ولهم كثيرٌ من الآثار التي تشهد بنقاء أعمالهم ، وإتقانها ؛ ويكفي الأمّة فخراً أنّ ترفع رأسها إذا كان فيها أمثال : أسامة بن يزيد ، وعبد الله بن عامر ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وغيرهم .

٨ - أنجز الله عزّ وجلّ لهؤلاء الصّحابة ما وعدهم به ، فجعلهم الخلفاء من

بعْدِ النَّبِيِّ ﷺ ، ومكنهم في البلاد ، ففتحوا الفتوح ، وغنموا الأموال ، وأسلم على أيديهم من الكفّار خلقٌ كثيرٌ ، وأعزّوا دينَ الله

(١) قال الآجريّ في كتاب « الشريعة » (ص : ٧١٦) : « لقد خاب وخسر من سبّ أصحاب رسول الله ﷺ ؛ لأنّه خالف الله ورسوله ولحقته اللعنة من الله - عزّ وجلّ - ، ومن رسوله ، ومن الملائكة ، ومن جميع المؤمنين ، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، لا فريضة ولا تطوعاً ، وهو ذليلٌ في الدّنيا ، وضيعُ القدر ، كثر الله بهم القبور ؛ وأخلّى منهم الدّور » . وقال الآجريّ أيضاً : « قد ذكرت ما فيه مَنَعَ لمن عقل فصّانه الله - عزّ وجلّ - ، عن سبّ أصحاب رسول الله ﷺ ، وأحبّهم ، واستغفر لهم ، وحجّة على من سبّهم حتّى يعلم أنّه قد حرم التّفريق ، وأخطأ طريق الرّشاد ، ولعبث به الشّياطين ؛ فأبعده الله وأسحقه » .

عَزَّ وَجَلَّ ، وأَذَلُّوا أعداءَ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وظهرَ أمرُ الله ولو كره المشركون ، وسُئِلُوا للمسلمين السُّنَنَ الشَّرِيفَةَ ، وكانوا بركةً على جميع الأُمَّة ، ولكلِّ واحدٍ منهم من الفضائل ما لا يحصى كثرةً ، نفعنا الله بحبِّهم ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ .

٩ - كان أبناءُ الصَّحابةِ خيرَ عونٍ للخلفاء الرَّاشدين ، يسعون في أمور المسلمين ومصلحتهم ، وقد رأينا هذا الأمرَ بارزاً في سيرةِ المِسْور بن مخرمة ، وقيس بن سعد ، و عبد الله بن جعفر ، وغيرهم .

١٠ - ظهر لدينا بأنَّ لهؤلاء الأبناء البررة الكرام أثراً جلياً في رواية الحديث الشَّريف وتبليغه الأُمَّة ؛ وفي مجال الفتوى ، وتعليم النَّاسِ الفرائض والسُّنن ، ولو أحصينا ما رَووه في هذا الكتاب ، لألفيناه يشكُلُ مساحةً كبيرةً من كتب الحديث المتخصَّصة ، بالإضافة إلى المصادر الأخرى المتنوعة .

١١ - تلقَّى أبناءُ الصَّحابةِ القرآنَ الكريم من الصَّادِقِ المصدوقِ ﷺ ، فاتقنوا أحكام التلاوة ، وما يتعلَّقُ بها ، فكانوا أئمةَ الهدى وعلماءَ الأُمَّة الذين يُقتدى بهم ، ولم يتيسَّرْ ذلك لغيرهم ، فقد رأوا النَّبِيَّ ﷺ في أحواله الشَّريفة جميعها ، رأوه مُتَوَضِّعاً ، ذاكراً ، مُتَصَدِّقاً ، مُزَكِّياً ، صائماً ، حاجّاً ، مجاهداً ، ورأوه أباً ، وزوجاً ، وداعياً ، وخطيباً ، وواعظاً ، رأوه على كلِّ حال ، وعانينا أسبابَ التُّرول ، فكانوا أقدرَ النَّاسِ على نقل ذلك لمن بعدهم .

١٢ - مِنْ أَجْلِ القُرْبَاتِ وأَعْلَاهَا معرفةُ منزلةِ الصَّحابةِ وأبناءِ الصَّحابةِ ، ومحبتهم ، والسَّيرُ على منهجهم ، فهم المؤمنون المخلصون الذين أشار إليهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقوله : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

* في الختام : نسأل الله - عزَّ وجلَّ - حَسَنَ الختام ، وأن يجعلنا مع الأبرار في نعيم ، وأن يكسوَ وجوهنا نضرة النِّعيم ، وأن يجعلنا ممَّن يُسْقَوْنَ من رحيقٍ مختوم ختامه مسك ، إِنَّهُ سميع مجيب .

* اللهم خذْ بأيدينا وألستنا إلى الصَّواب ، واجعلنا من محبِّي الأصحاب ، واحشرنا في معيَّتهم واغفرْ لنا يوم الحساب .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

وَكَتَبَ

محبُّ الصَّحابة وخادُمهم

أحمد بن خليل جمعة

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ



فهرس المصادر والمراجع^(١)

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الصحيحان : البخاري ومسلم وشروحهما .
- ٣ - السنن الأربعة وشروحهها ؛ وبعض دراسات عنها .
- ٤ - المسانيد والمستدركات والمصنفات والمعاجم وغيرها من كتب الحديث .
- ٥ - أحكام القرآن : لابن العربي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة .
- ٦ - أخبار القضاة : لمحمد بن خلف المعروف بوكيع ، عالم الكتب ، دون ذكر تاريخ أو ذكر رقم الطبعة .
- ٧ - الأخبار الموثقات : للزبير بن بكار ، تحقيق د . سامي مكّي العاني ، بغداد ، ١٩٧٢ م .
- ٨ - الأذكار : للنووي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٧ ، ١٩٩٧ م .

(١) لم أذكر في هذا الفهرس جميع المصادر والمراجع التي عدت إليها في تصنيف الكتاب ، وإنما أوردت نماذج منها ، وسائر ما مذكور في ثنايا الكتاب ؛ إذ ليس من السهل استقصاء هذه المصادر ؛ لأنها كثيرة وتأخذ مساحة كبيرة من الكتاب . نرجو الله - عز وجل - أن يتقبل منا أعمالنا ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم .

- ٩ - أسباب النزول : للواحدّي ، تحقيق : د . مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٨ م .
- ١٠ - الاستبصار في نسب الصّحابة من الأنصار : لابن قدامة المقدسيّ ، تحقيق : عليّ نُويهض ، دار الفكر ، بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ١١ - الاستيعاب : لابن عبد البرّ القرطبيّ ، دار الكتاب العربي ، طبعة مصوّرة ، بيروت ، دون تاريخ .
- ١٢ - أسدُ الغابة في معرفة الصّحابة : لابن الأثير الجزريّ ، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الشعب المحقّقة ، بيروت ، ١٩٨٩ م .
- ١٣ - الاشتقاق : لابن دُرَيْد ، تحقيق : عبد السّلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ١٤ - الإصابة : لابن حجر العسقلانيّ ، دار الكتاب العربي ، طبعة مصوّرة ، دون تاريخ .
- ١٥ - الأعلام : لخير الدّين الزّركليّ ، دار العِلْم للملايين ، بيروت ، ط : ٨ ، ١٩٨٤ م .
- ١٦ - الأغاني : لأبي الفرج الأصبهانيّ ، دار الفكر ، بيروت ، طبعة مصوّرة ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة .
- ١٧ - أنسابُ الأشراف : للبلاذريّ ، تحقيق : محمّد حميد الله ، دار المعارف ، مصر ، دون تاريخ ، وكذلك عدّة أجزاء متفرّقة بتحقيق آخرين .
- ١٨ - الأنصارُ في العصر الرّاشدي : د . حامد الخليفة ، مكتبة الصّحابة ، الشّارقة ، ط : ١ ، ٢٠٠٣ م .

- ١٩ - أولادنا : د . محمود عمارة ، دار الخير ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٢ م .
- ٢٠ - البداية والنهاية : لابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، طبعة مصورة ، ١٩٧٨ م .
- ٢١ - البدر الثمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام : لحسين محمّد المغربي ؛ تحقيق : د . محمّد شحود خرفان ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط : ١ ، ٢٠٠٤ م .
- ٢٢ - البصائر والذخائر : لأبي حيّان التّوحيدّي ، تحقيق : د . وداد القاضي ، دار صادر ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٢٣ - بلوغ الأرب : للآلوسي ، تحقيق : محمّد بهجة الأثري ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، طبعة مصورة دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٢٤ - بنات الصّحابة : د . أحمد خليل جمعة ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ٢ ، ٢٠٠٥ م .
- ٢٥ - بهجة المجالس : لابن عبد البرّ ، تحقيق : محمّد مرسي الخولي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٢٦ - البيان والتبيين : لأبي عثمان الجاحظ ، تحقيق : عبد السّلام هارون ، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .
- ٢٧ - تاريخ الإسلام : للذهبي ، تحقيق : د . عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٧ م وما بعدها .
- ٢٨ - تاريخ الأمم والملوك : للطّبريّ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٨ م .
- ٢٩ - تاريخ بغداد : للخطيب البغداديّ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، دون ذكر رقم الطّبعة .

- ٣٠ - تاريخُ مدينة دمشق « تراجم النساء » : لابن عساكر ، تحقيق : سكيّنة الشّهابي ، دار الفكر ، دمشق ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٣١ - تاريخُ المدينة المنوّرة : لابن شُبّه ، حقّقه : فهمي شلتوت ، دار الثّراث ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .
- ٣٢ - التّبيين في أنساب القرشيين : لابن قدامة المقدسيّ ، حقّقه : محمّد نايف الدّيلمي ، المجمع العلميّ العراقي ، بغداد ، ١٩٨٢ م .
- ٣٣ - التّذكرة الحمدونيّة : لابن حمدون ، تحقيق : د . إحسان عبّاس وبكر عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .
- ٣٤ - التّعازي والمراثي : للمبرّد ، حقّقه : محمّد الدّيباجي ، مجمع اللغة العربيّة ، دمشق ، ١٩٦٧ م .
- ٣٥ - تغريدة السّيرة النّبويّة : لمحمّد عايش عبّيد ، دار الثّراث ، القاهرة ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٣٦ - تفسير ابن عطية « المحرر الوجيز » : لابن عطية الأندلسيّ ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط : ١ ، ٢٠٠٢ م .
- ٣٧ - تفسيرُ روح المعاني : للآلوسيّ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٤ م .
- ٣٨ - تفسيرُ الطّبريّ « جامع البيان » : للطّبريّ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٤ م .
- ٣٩ - تفسيرُ القرطبيّ « الجامع لأحكام القرآن » : للقرطبيّ ، دار إحياء الثّراث العربيّ ، بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٤٠ - التّفسيرُ الكبير : للرّازيّ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٤١ - تهذيب الأسماء واللغات : للنّوويّ ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .

- ٤٢ - تهذيبُ التَّهْذِيبِ : لابن حجر ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، دون تاريخ .
- ٤٣ - ثمار القلوب : للثعالبي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ٤٤ - جامعُ بيان العلم وفضله : لابن عبد البرِّ القرطبي ، قدّم له عبد الكريم الخطيب ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٨٢ م .
- ٤٥ - الحقيقة والمجاز : لعبد الغني النَّابلسي ، تحقيق : رياض مراد ، دار المعرفة ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٨ م .
- ٤٦ - حلية الأولياء : لأبي نُعيم الأصبهاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٩٧ م .
- ٤٧ - حياة الحيوان : للدِّمِيرِي ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط : ٤ ، ١٩٦٩ م .
- ٤٨ - الخُلُقُ الكاملُ : لمحمد أحمد جاد المولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، دون تاريخ .
- ٤٩ - دلائلُ الثبوتِ : للأصبهاني ، تحقيق : محمد رواس قلعجي ورفيقه ، دار التراث ، حلب ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .
- ٥٠ - دلائلُ الثبوتِ : للبيهقي ، تحقيق : د . عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .
- ٥١ - دليلُ الفالحين : للصَّدِّيقِي الشَّافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : ١٠ ، ١٩٨٥ م .
- ٥٢ - ديوانُ البوصيريِّ : للبوصيريِّ ، تحقيق : محمد سيّد كيلاني ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٣ .

- ٥٣ - ديوانُ حَسَّانَ بن ثابت : لحَسَّانَ ، تحقيق : د . سيّد حنفي حُسَيْن ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ٥٤ - ديوانُ مجد الإسلام : لأحمد محزّم ، حقّقه : محمود أحمد محزّم ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط : ١ ، ١٢٤١ هـ .
- ٥٥ - الذّخائرُ والتّحفُ : للقاضي الرّشيد بن الرّبير ، حقّقه : د . محمّد حميد الله ، مطبعة حكومة الكويت ، ط : ٢ ، ١٩٨٤ م .
- ٥٦ - ربيعُ الأبرار : للرّمخسريّ ، تحقيق : د . سليم النّعيميّ ، دار الذّخائر للمطبوعات ، إيران ، دون تاريخ .
- ٥٧ - رجالُ أهل البيت : د . أحمد خليل جُمعة ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٧ م .
- ٥٨ - رجالُ مبشّرون بالجنّة : د . أحمد خليل جُمعة ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٥ ، ٢٠٠٥ م .
- ٥٩ - الرّسالةُ المحمّديّةُ : لعبد العزيز التّعالبي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .
- ٦٠ - الرّوضُ الأنفُ : للسّهيليّ ، تحقيق : عبد الرّؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٦١ - الرّوضُ المغطّار في خبر الأقطار : للحميريّ الصّنهاجيّ ، تحقيق : د . إحسان عبّاس ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٥ م .
- ٦٢ - زادُ المعاد : لابن قيّم الجوزيّة ، تحقيق : شُعب الأرنؤوط ورفيقه ، مؤسّسة الرّسالة ، ط : ٢٥ ، ١٩٩١ م .
- ٦٣ - سُبُلُ الهدى والرّشاد : للصّالحيّ ، تحقيق : د . مصطفى عبد الواحد ورفاقه ، إحياء الثّراث الإسلاميّ ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .

- ٦٤ - سِيرُ أعلام النبلاء : للذهبي ، تحقيق : ثلة من الأفاضل والعلماء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط : ٣ ، ١٩٨٥ م .
- ٦٥ - السيرة الحلبية : للحلي ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٩٦٤ م .
- ٦٦ - السيرة النبوية : لابن هشام ، تحقيق : السقا ورفاقه ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٥٥ م .
- ٦٧ - السيرة النبوية الصحيحة : د . أكرم العمري ، مكتبة المعارف والحكم ، المدينة المنورة ، ط : ١ ، ١٤١٢ هـ .
- ٦٨ - السيرة النبوية على منهج الوحيين : د . مأمون حمّوش ، ط : ٢ ، دون تاريخ أو ذكر اسم دار .
- ٦٩ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة : لمحمد أبو شهبه ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٧٠ - الشباب : مشكلات وحلول : د . أحمد خليل جمعة ، ود . عصام الشواف ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٥ م .
- ٧١ - شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلي ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، ط : ١ ، ١٩٨٦ م .
- ٧٢ - شرح حياة الصّحابة للكاندهلوي : لمحمد إلياس البارہ بنكوي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٠ م .
- ٧٣ - شرح شواهد المغني : للسيوطي ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، دون تاريخ .
- ٧٤ - الشعر والشعراء : لابن قتيبة ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، دون تاريخ .

- ٧٥ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : للفاسي ، تحقيق : د . عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .
- ٧٦ - الشَّمائلُ المحمّديّة : للترمذي ، تحقيق : عبده كوشك ، دار الإمامة ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٢ م .
- ٧٧ - صحيحُ ابن حَبّان : لابن حَبّان ، اعتنى به جاد الله الخدّاش ، بيت الأفكار الدّوليّة ، الأردن ، دون تاريخ .
- ٧٨ - صحيحُ السّيرة النّبويّة : لإبراهيم العلي ، دار النَّفّاس ، بيروت ، ط : ٥ ، ٢٠٠٠ م .
- ٧٩ - الصّدّيقُ أبو بكر : لمحمّد حسين هيكّل ، دار المعارف ، مصر ، ط : ٨ ، دون تاريخ .
- ٨٠ - صفةُ الصّفة : لابن الجوزي ، تحقيق : محمود فاخوري ورفيقه ، دار المعرفة ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٧٩ م .
- ٨١ - صورٌ وعبرٌ من الجهاد النّبويّ في المدينة : د . محمّد فوزي فيض الله ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .
- ٨٢ - الطّبُّ النّبويّ والعِلْم الحديث : د . محمود ناظم التّسيمي ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط : ٣ ، ١٩٩١ م .
- ٨٣ - الطّبقاتُ الكبرى : لابن سعد ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، دون تاريخ .
- ٨٤ - الطّبقاتُ الكبرى : للمناوي ، تحقيق : محمّد أديب الجادر ، دار صادر ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٩ م .
- ٨٥ - الطّفلُ في ضوء القرآن والسّنّة والأدب : د . أحمد خليل جُمعة ، دار الإمامة ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠١ م .

- ٨٦ - العِقْدُ الفريد : لابن عبد ربّه ، تحقيق : أحمد أمين ورفاقه ، لجنة التّأليف والترجمة والنّشر ، القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٦٢ م .
- ٨٧ - علماء الصّحابة - رضي الله عنهم - : د . أحمد خليل جُمعة ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٦ م .
- ٨٨ - العمدة في صناعة الشّعْر ونقده : لابن رشيّق القيروانيّ ، تحقيق : د . النّبوي شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : ١ ، ٢٠٠٠ م .
- ٨٩ - عيون الأثر في فنون المغازي والسّيَر : لابن سيّد النّاس ، تحقيق : د . محمّد العيد الخطراوي ؛ و د . محيي الدّين مستو ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٢ م .
- ٩٠ - عيون الأخبار : لابن قتيبة ، مصوّرة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ٩١ - فتوح البلدان : للبلاذريّ ، نشره د . صلاح الدّين المنجد ، مكتبة النّهضة المصريّة ، القاهرة ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطّبعة .
- ٩٢ - فرسان من عصر الثّبوة : د . أحمد خليل جُمعة ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ٢ ، ٢٠٠٣ م .
- ٩٣ - فضائل الصّحابة : للإمام أحمد ، تحقيق : وصيّ الله عبّاس ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٣ م .
- ٩٤ - الفقّه الإسلاميّ وأدلّته : د . وهبة الزّحيليّ ، دار الفكر ، دمشق ، ط : ٣ ، ١٩٨٩ م .
- ٩٥ - فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبيّ ، تحقيق : محيي الدّين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٩٦ - القاموس المحيط : للفيروز أبادي ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٧ م .

- ٩٧ - الكاملُ في التَّاريخ : لابن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، دون تاريخ .
- ٩٨ - كِتَابُ الغريبَيْن في القرآن والحديث : لأبي عُبيد الهروي ، تحقيق : أحمد فريد المزيدي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ط : ١ ، ١٩٩٩ م .
- ٩٩ - كُتَابُ الوحي : د . أحمد عيسى ، دار اللواء ، الرِّياض ، ط : ١ ، ١٩٨٠ م .
- ١٠٠ - لسانُ العرب : لابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .
- ١٠١ - مجمعُ الأمثال : للميداني ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .
- ١٠٢ - مجمعُ الزوائد : للهيتمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٠ م .
- ١٠٣ - محاضرات الأدباء : للرَّاغِب الأصفهاني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون تاريخ . وطبعة دار صادر المحقّقة .
- ١٠٤ - محمّدٌ رسولُ الله : لمحمّد الصّادق عرجون ، دار القلم ، دمشق ، ط : ٢ ، ١٩٩٥ م .
- ١٠٥ - مختصرُ تاريخ دمشق لابن عساكر : لابن منظور ، تحقيق : عدد من الأساتذة ، دار الفكر ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .
- ١٠٦ - المدينةُ النَّبويَّةُ في فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي : لمحمّد شرّاب ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٤ م .
- ١٠٧ - مرآةُ الجنان وعبرةُ اليقظان : لليافعي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٩٣ م .
- ١٠٨ - المستطرفُ : للأبشيهي ، تحقيق : إبراهيم صالح ، دار صادر ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٩ م .

- ١٠٩ - مشاهير علماء الأمصار : لابن حبان ، تحقيق : مرزوق إبراهيم ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط : ١ ، ١٩٩١ م .
- ١١٠ - المعارف : لابن قتيبة ، تحقيق : د . ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٧ م .
- ١١١ - المعالم الأثيرة في السيرة والسيرة : لمحمد شراب ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩١ م .
- ١١٢ - معجم البلدان : لياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، دون تاريخ .
- ١١٣ - المغازي : للواقدي ، تحقيق : مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٤ م .
- ١١٤ - منح المِمدح « أو شعراء الصحابة » : لابن سيد الناس ، تحقيق : عفت حمزة ، دار الفكر ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٧ م .
- ١١٥ - المنمق في أخبار قریش : لابن حبيب ، تحقيق : خورشيد فاروق ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .
- ١١٦ - المهذب من إحياء علوم الدين للغزالي : لصالح أحمد الشامي ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٣ م .
- ١١٧ - التجوم الزاهرة : لابن تغري بردي ، مصورة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، دون تاريخ .
- ١١٨ - نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث : د . أحمد خليل جمعة ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ٦ ، ٢٠٠٥ م .
- ١١٩ - نساء مبشرات بالجنة : د . أحمد خليل جمعة ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٥ ، ٢٠٠٣ م .
- ١٢٠ - نساء من التاريخ : د . أحمد خليل جمعة ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ٢ ، ١٩٩٩ م .

- ١٢١ - نساء من عصر التَّابِعِينَ : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٤ ، ٢٠٠٤ م .
- ١٢٢ - نساء من عصر التَّبَوَّة : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٣ ، ٢٠٠٣ م .
- ١٢٣ - نَسَبُ قريش : لمصعب الرُّبَيْرِيّ : تحقيق : ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ط : ٣ ، دون تاريخ .
- ١٢٤ - نَكْتُ الهِمَّانِ فِي نُكْتِ العُمَيَّانِ : لصالح الدِّين الصَّفديّ ، تحقيق : أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩١١ م .
- ١٢٥ - نوادرُ المخطوطات : لعددٍ من المؤلِّفين ، تحقيق : عبد السَّلام هارون ، مطبعة البابي الحلبي القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٢ م .
- ١٢٦ - وَفَيَاتُ الأعيان : لابن خَلِّكان ، تحقيق : د . إحسان عبَّاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٠ م .
- ١٢٧ - وقعةُ صفين : لِنَصْر بن مزاحم ، تحقيق : عبد السَّلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠ م .
- ١٢٨ - ولاةُ مصر : لمحمَّد بن يوسف الكنديّ ، تحقيق : د . حُسين نصَّار ، دار صادر ، بيروت ، دون تاريخ .
- ومصادر ومراجع أخرى متنوّعة وردت في الكتاب .

عنوان المؤلّف

سوريا - دمشق

هـ (٥٣١٨١١١ - ٥٣١٣٠٦٤)



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
---------	------------

الإهداء	٥
---------	---

المقدمة وعرض الكتاب	٧
---------------------	---

الباب الأول

من أبناء المهاجرين وحلفائهم

أسامة بن زيد رضي الله عنهما	٢٧
-----------------------------	----

اللهم إني أحبهما فأحبهما	٢٩
--------------------------	----

في معية الحبيب ﷺ	٣٢
------------------	----

قدره عند النبي ﷺ	٣٨
------------------	----

من مآثر أسامة ومناقبه	٤٦
-----------------------	----

كيف تصنع بلا إله إلا الله ؟	٥١
-----------------------------	----

أخلاقه وعقده لسانه	٥٧
--------------------	----

أحاديث وأحداث من السيرة	٦١
-------------------------	----

مجاهد موفق وقائد مظفر	٦٥
-----------------------	----

حافظ واع	٧٦
----------	----

عبد الله بن عامر رضي الله عنهما	٨٣
---------------------------------	----

هذا يشبهنا	٨٥
------------	----

مكانته عند الأعيان	٨٨
--------------------	----

٩٣	شهامته وسخاؤه
٩٩	الفتاح المظفر
١٠٣	من إصلاحاته في البصرة
١٠٥	يرحمُ الله ابنَ عامر
١١١	عبدُ الرَّحْمَنِ بن أبي بكر رضي الله عنهما
١١٣	سجايًا متفردة
١١٨	تاجرٌ وامق
١٢٢	نحو الثور
١٢٦	حياته وأفاسه الإسلامية
١٣٤	رحلة الخلود الحقيقية
١٣٩	مكانته في البيت النبوي
١٤٢	من مروياته الحديثية
١٤٧	عمارُ بنُ ياسر رضي الله عنهما
١٤٩	أسرة من أهل الجنة
١٥٢	الصَّابِر المطمئن
١٥٦	هل نزل قرآنٌ في عمار؟
١٦٠	الطيب المطيب
١٦٥	مشاهدته وشجاعته
١٦٨	أخباره مع الصحابة
١٧٣	كلمات تعمّر القلوب
١٧٥	نماذج من مروياته
١٧٨	في مقعد صدق
١٨٧	عمارُ بنُ أبي سلمة رضي الله عنهما
١٨٩	ريبُ بيت النبوة

١٩١	يا غلامُ سَمَّ اللهُ
١٩٤	قَمْ فزَوْجُ رسولِ اللهِ ﷺ
١٩٦	هل لك أمّ مثل أمّه
١٩٨	روايته عن النَّبِيِّ ﷺ
٢٠٥	عمرانُ بنُ حصين رضي الله عنهما
٢٠٧	القدوةُ الإمامُ
٢١١	فقيهُ البصرة وقاضيهَا
٢١٦	التزامهُ بالهدي النَّبَوِيِّ
٢٢٠	صحبةٌ رشيدةٌ وأحكامٌ سديدة
٢٢٤	من كراماته وسجاياه
٢٣١	من نجباء الرُّوَاة
٢٣٤	وصيَّته
٢٣٧	المسور بن مخزومة رضي الله عنهما
٢٣٩	من الألباء الثُّبَلَاء
٢٤٢	من أوعية العلم
٢٥٠	المِسْورُ وكبراء الصَّحابة
٢٥٧	مع ابن عباس ومعاوية
٢٥٩	كيف مات المِسْور ؟
٢٦٣	يزيدُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهما
٢٦٥	من الرِّجالِ الأخيار
٢٦٧	يزيدُ مع الحبيبِ المصطفى ﷺ
٢٧٣	قائدٌ موهوبٌ
٢٧٦	من القادة الفاتحين
٢٨٠	وصيَّةُ أبي بكر ليزيد

البطلُ الحَصفُ ٢٨٣

الباب الثاني

من أبناء الأنصار وحلفائهم

- أبو أمانة بن سهل رضي الله عنهما ٢٩١
- بُوركت الأسرة ٢٩٣
- عالم عامل ٢٩٥
- في صحبة الخلفاء ٢٩٩
- مكانته في الفقه والفتوى ٣٠١
- راوي الحديث المعمر ٣٠٤
- بشر بن البراء رضي الله عنهما ٣٠٩
- وارث السيادة ٣١١
- صفاؤه مع الإسلام ٣١٣
- قصّة وفاته ٣١٨
- وقفه نافعة مع دلائل النبوة ٣٢٢
- سهل بن سعد رضي الله عنهما ٣٢٧
- سمّانا الله أنصاراً ٣٢٩
- التابعة المعمر ٣٣٢
- من فوائد المجالس النبوية ٣٣٤
- من سادة العلماء ٣٣٥
- عبد الله بن بشر رضي الله عنهما ٣٤١
- يعيش هذا الغلام قرناً ٣٤٣
- أسرة زانها الإيمان ٣٤٥
- عبادته ونجابته ٣٤٩

٣٥٢	صحبة ورواية
٣٥٧	قيس بن سعد رضي الله عنهما
٣٥٩	الكريم السخي
٣٦١	مكانته عند النبي ﷺ
٣٦٦	المجاهد المطعم
٣٧٤	مكانته عند الخلفاء الراشدين
٣٨٣	نفحات من بلاغته ونظمه
٣٨٨	من أخباره الساطعة وأقواله النافعة
٣٩٦	صحبته ومروياته
٤٠٣	معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنهما
٤٠٥	إنهم فتية آمنوا بربهم
٤٠٧	دعوة أبيه إلى الإسلام
٤١٢	يقتل فرعون الأمة
٤١٨	كلاهما قتله
٤٢٣	العثمان بن بشير رضي الله عنهما
٤٢٥	من العقد النفيس
٤٢٧	يا رسول الله اذع لابني
٤٣١	اعدلوا بين أولادكم
٤٣٣	الأمير النبيل
٤٣٥	فصاحته وبيانه
٤٤٠	مسنده ومروياته
٤٤٨	مع الخالدين

الباب الثالث
من أبناء أهل البيت

٤٥٣	عبدُ الله بنُ جعفر رضي الله عنهما
٤٥٥	الصَّحابِيُّ السَّيِّدُ
٤٥٧	في كنفِ النَّبِيِّ ﷺ
٤٦٤	من رِوَاةِ أهلِ البيت
٤٦٩	أقوالٌ بديعةٌ في سخائه
٤٧٢	من عجائب جوده
٤٧٧	أخباره مع أعيان الصَّحابة
٤٨٠	حكاياته مع معاوية
٤٨٧	مروءته وتبُّلُ أخلاقه
٤٩١	من أزاهر كلماته
٤٩٣	كنتُ والله شريفاً
٤٩٧	عبيدُ الله بنُ عَبَّاس رضي الله عنهما
٤٩٩	ادخلوا دار العباس
٥٠١	رؤيته للنبي ﷺ وروايته
٥٠٤	نزهةٌ مع سخائه
٥٠٩	معلِّمُ الجود
٥١٢	معروفه إلى ذواتِ الحاجات
٥١٦	قطوفٌ دانيةٌ من سخائه
٥١٩	الخاتمةُ وخلاصةُ البحث
٥٢٥	فهرسُ المصادر والمراجع
٥٣٧	فهرسُ الموضوعات



سيصدر قريباً
بحول الله عز وجل

كتاب
علماء التابعين

تأليف الدكتور
أحمد خليل جمعة

من الآثار العلمية للمؤلف
الدكتور أحمد خليل جمعة

- رجال مبشرون بالجئنة .
- نساء مبشرات بالجئنة .
- نساء من عصر النبوة .
- نساء من عصر التابعين .
- نساء من التاريخ .
- نساء الأنبياء .
- المبشرون بالنار .
- نساء أهل البيت .
- نساء من الأندلس .
- نساء في قصور الأمراء .
- نساء من المشرق العربي .
- بنات الصحابة .
- علماء الصحابة .
- فرسان من عصر النبوة .
- فرسان من التاريخ .
- الشباب : مشكلات وحلول .
- الأطفال والطفولة بين الأدب والثقافة .
- بيعة النساء في القرآن والسيرة .
- أمهات وآباء وأبناء .
- رجال أهل البيت .
- الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب .
- سلسلة مفاهيم إسلامية .
- سلسلة آداب إسلامية .

وكتب أخرى متفرقة صدرت عن عدد من دور النشر